

نزي بيريس

الشعر الأندلسي في عصر الطوائف

مقدمة العامة ومقدمة المؤلف الرئيسية وقيمة الوثيقة

ترجمة
دكتور الطاهر أحمد مكي

هنرى بيريس

الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف

ملاححه العامة وموضوعاته الرئيسيه وقيمه الوثيقية

ترجمة

دكتور الطاهر أحمد مكي

أستاذ الأدب فى كلية دار العلوم
جامعة القاهرة



دارالمعارف



mohamed khatab

١٩٩٠ / ٩-٩١	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3153-3	الترقيم الدولي

٣/٨٨/٢٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

○ كلمة المترجم:

بين يدي القارئ كتاب يراه الأوروبيون أفضل دراسة لموضوعات الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، وأعتقد أن القارئ العربي عندما ينتهي من قراءته سوف ينتهي إلى قريب من هذا الرأي أيضاً، فهو يؤرخ لإسبانيا الإسلامية، في هذه الفترة من جوانبها المختلفة، مادية ومعنوية، من خلال الشعر، ويراه وثيقة بالغة الأهمية، جديرة بالثقة، حتى عندما يتجاوز الشاعر بإبداعه خط الصدق إلى الجانب الآخر، فيبالغ أو يغالي، لأنه يفعل ذلك مستجيباً لضواغط اجتماعية، شخصية أو عامة، مادية أو فكرية.

والفكرة نفسها ليست جديدة علينا، أو على جيل في الجيل، وأذكر أن أستاذنا الجليل المرحوم إبراهيم مصطفى كان يدرس لنا في قسم اللسانيات الممتازة مادة «نصوص من الأدب القديم»، ويرى أننا استخلصنا تاريخ مصر الفرعونية، على امتداد قرون طويلة، من نقوش على الأحجار ظنية القراءة والدلالة، وأنها نستطيع أن نعتمد على الشعر في التأريخ لحياة العرب قبل الإسلام، ولم يتركوا لنا غيره وثائق ذات أهمية، وفعلنا قرّر علينا دراسة ديوانين كانا حتى ذلك الوقت مجهولين لجمهرة الدارسين، هما ديوانا: عمرو بن قميئة و المتلمس، مكتوبين على الآلة الكاتبة، الأول نقلًا عن طبعة المستشرق الإنجليزى ليال، ونشره في كمبريدج عام ١٩١٩، والثاني عن طبعة المستشرق الألماني فولر ونشره في ليبزج عام ١٩٠٣. درسنا موضوعاتها، ودلالاتها، بقدر ما تسمح به إمكانيات طالب، ومن بعد جاء أستاذنا المرحوم أحمد الحوفي، وطبق هذه النظرية، في كتابه: الحياة العربية من الشعر الجاهلي.



بدأت معرفتي بالكتاب وصاحبه حين رأيت مصر أن تعين الجزائر في معركتها القاسية من أجل تأكيد هويتها العربية، بعد أن خاضت حرباً ضروساً من أجل استقلالها السياسي، وأمدتها بآلاف من مدرسي التعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي، وعدد من أساتذة الجامعة، تدفع لهم مصر مرتباتهم كما لو كانوا يعملون فيها، وتدفع الجزائر شيئاً رمزياً ومكملاً، ولم يكن العمل خارج مصر محبباً إلى نفسى، ولكن الحصار العنيف الذى ضربته الدولة يومها على المصريين، بعد الانفصال السوري، ثم هزيمة ١٩٦٧ نفسها، جعلت الذين ضاقوا بالأمر الواقع ولا يستطيعون تغييره، والذين كانوا على صلة مستمرة بسير الحضارة في العالم ويودون ألا تنقطع صلّتهم به، يؤثرون الخروج إلى أى بلد يعملون فيه، وكانت الجزائر رغم ثقافة العائد المادى من الرحلة إليها ترضى في نفوس الراغبين فيها مشاعر عارمة بأنهم يؤدون واجباً قومياً، وبالنسبة لى شخصياً، فإن المغرب، في مفهومه العريض، والأندلس يمثلان مجال الدرس المحبب إلى نفسى، ومشاهدة الواقع عياناً، أرضاً ويشراً، خير من الاعتماد على الكتب وحدها، وأشهد أن الرحلة هنا الفهم كانت بالنسبة لى أكثر من رائعة، ولم ينقطع ترددى على شتى أقطار المغرب وأوروبا، ولشهور طوال، خلال تلك السنوات.

الصدفة وحدها جعلت من مكتب هنرى بيريس مكتبي، وفي بقايا الأوراق الرسمة التي تركها بداخله كان خطه وتوقيعه، وبدأت أسمع من طلابه الجزائريين، كم كان قاسيا معهم في اللغة العربية، يحاول في كل خطرة أن يوهبهم أنها ليست لغتهم، وأنهم لن يجيدوها معها طال بهم الزمن، وفي المقابل كان يظهر لهم الفرنسية سهلة ميسرة، كما لو كانوا قد ولدوا لآباء فرنسيين ويعيشون في مرنسا نفسها.

كان هنرى بيريس أستاذ الأدب العربى في كلية الآداب في جامعة الجزائر، وهي جامعة أقامها الفرنسيون لأبنائهم في بلد يستعمرونه واعتقدوا أنهم لن يغادروه إلى الأبد، فجاءت شيئا رائعا في نظامها وتقاليدها ومكتبتها، وتضم مكتبة القسم كل ما يحتاج إليه الباحث من ديوان أعظم شاعر عرفه الشعر العربى إلى أصغر ديوان لشاعر مجهول لا يعرفه أحد، ومن روايات أعظم الكتاب إلى من ينحرون في خطوطهم الأولى مبدعين.

وبدأت أتردد على مكتبة الجامعة نفسها، وكانت شيئا لا أعرف له شبيها في بلادنا العربية، بما فيها جامعة القاهرة العريقة، من حيث الثراء في المصادر والمراجع والدوريات، في مختلف اللغات، وفي التنظيم والنبيب والفهرسة، واحترام وقت القارئ وراحته، فهي مكيفة كلها، ومفروشة «بالموكيت» يستوى في ذلك تسم الأساتذة وتسم الطلاب، وحين رجعت إلى نفح الطيب في طبعته الأوربية وجدت آثار بيريس واضحة فيه، وكل صفحة منه تنطق بجهد ومثابرتة، ونشى بأنه قرأ الكتاب عشرات المرات، واستوعبه تماما، فالهوامش مليئة بتصويباته وتعليقاته، إذا مرّ بجملة مضطربة قومها، أو بيت شعر لمجهول نسب له لقائله، أو بقية أو مدينة كتب اسمها بالإسبانية أيضا، أو معلومة ناقصة أو متناقضة أحيانا على المكان الذى يصوبها أو يكملها. وكانت هذه بداية التعرف على تراثه ومؤلفاته، وشدنى من بينها أكثر فأكثر كتاب الشعر الأندلسى، فقد كان الرجل دون أن ينسى أنه كاثوليكي أوربي صاحب منهج علمي سار عليه، وارتضى النتائج التي انتهت إليها المقدمات، ولو أن ذلك لا يعنى بالضرورة أن كل ما جاء في الكتاب صحيح وتوافقه عليه، لأن المقدمات نفسها قد تكون خاطئة أحيانا، وتؤدي بالتالى إلى نتائج خاطئة أيضا.

ومع الأسف الشديد فإن هذا العالم الموضوعى أعماه التعصب عن استكناه الغد واستشرافه، فأخذ جانب غلاة الاستعماريين حين قامت الثورة الجزائرية، وبعد انتصارها، وتحاوز دوره فيه يبدو المشاركة الوجدانية إلى الدعم العملى، وحين انتصرت الجزائر واستقلت رحلوا، ولم يستطع أن يبقى بعدهم، وحين رحل لم يستطع أن يواجه المنفقين في وطنه، واعتزل الحياة في دير من منطقة جبال البرانس، آوى إليه، وأسدل الستار على أمسه بخيره وشره، وانتهى عالما وإنسانا!

وعبثا حاولت أن أعثر له على خبر بين زملائه في باريس، حتى أنهم لا يعرفون إن كان قد رحل عن الدنيا أو لمّا يزل باقيا على قيد الحياة.



حين قرأت الكتاب أخذت به، وقر رأيى على ترجمته، فهو نموذج يحتذى في الجهد والصبر والمنهج والجدية، وكان دون تحقيق أمينى أهوال، فقد استوعب الرجل الشعر الأندلسى في عصر الطوائف تماما، وأحاط بكل مصادره مخطوطة ومطبوعة، في مكاتب عديدة، وطبعات في بلاد مختلفة ولأمانة المنهجية

تقتضى أن نرد النصوص إلى أصولها شعرا كانت أم نثرا، والوصول إليها في القاهرة صعب وعسير إن لم يكن من المحال، لأن الكثير منها طبعات أوربية نفدت منذ زمن بعيد.

لقد اقتضى تيسير الإفادة من الهوامش أمام القارئ العربي أن أحيله إلى ما صدر منها حديثا، أو كان ممكنا، كما هو الحال في نفتح الطيب للمقرئ، إذ رأيت من العبث أن أحيله على الطبعة الأوربية كما صنع المؤلف، ولا يوجد منها في القاهرة على امتدادها غير نسخة واحدة، وإلى ما طبع من المخطوطات كما هو الحال في الذخيرة لابن بسام، أو أن الطبعة الحديثة هي الميسرة، أو المحققة، كما حدث في بدائع الهداية لابن ظافر، أو ديوان ابن زيدون، أو ديوان ابن خفاجة، فإذا تعذر الوصول إلى ما أتى به في هذه الطبعات تركت هوامشه على حالها وأشرت إلى ذلك، وكذلك تركت الهوامش على حالها في المخطوطات التي لم تطبع، والكذب التي لم تحقق وترجمت الهوامش إلى العربية تسهيلا لأموال الطباعة، إلا في حالات نادرة، وجئت بقائمة مصادر المؤلف في لغاتها الأصلية، كما هي في كتابه، لمن يرغبون في العودة إليها، ولما كانت في لغات عديدة، وتحتي مختلفات، حتى العربية منها، وكتبها في حروف لاتينية، أبقيت عليها كلها، وقرأتها سهلة فيما أتصور لمن يعرف الأبجدية اللاتينية مجرد معرفة.

لقد استغرق مني هذا العمل سنوات طوال، لأن المصادر العربية القديمة، ومعظم الحديثة لا تعرف الفهارس المتنوعة، والأولى منها لا تخضع لمنهج، وإنما تجيء أخلاطا من المعارف والآداب متداخلة ومتراكمة، وتضطرب فيها الأسماء اضطرابا شديدا، فالكتاب الواحد يجيء باسم الشاعر أو الأديب علما مرة، أو كنية أو لقبا أو منسوباً إلى بلده، أو مهنته، أو مذهبه، مرات أخرى، وقد تكتفي بواحد منها فقط، على حين يشترك فيه أكثر من شخص، هذا إلى جانب الأخطاء في النسخ أو الطباعة.

لا يجيء المؤلف بالهوامش لمجرد التوثيق، أو مظهرا، أو شكلا، ليضفي على كتابه سمة علمية وجامعية، وإنما يتجاوز ذلك بكثير، فيجعلها نافذة يطل منها على قضايا كثيرة تتصل بالموضوع وليست من صميمه، من موازات ومقارنات، بين عصر وعصر، أو بين الأندلس والمشرق، أو بين الأدب الأندلسي والآداب الأوربية، يلقي بذلك عجلا، في إيجاز، ويحيلنا على المصادر التي تروى غليل الظامئ إلى المعرفة الواسعة، ومن ثم فهو يدفع في أعماق قارئه بعشرات القضايا التي تصلح للبحث أو الدرس.

لا يختلف منهجي في الترجمة هنا عما سرت عليه في ترجمة كتب خلت، فأنا ألتمز بنص المؤلف ورأيه، مهما كان رأيي فيه، وبجمله وبنيتها إذا اتسعت لها العربية، وساغها الذوق العربي، ويمكن أن تفهم دون صعوبة، فلا حذف ولا تجاوز ولا تفسير، ولم أعلق عليه إلا في حالات قليلة جدا، ولكن صويت الأخطاء التي وقع فيها وهي قليلة.

وفي إيراد الشعر التزمت بمنهجه، ولكن الضرورة كانت تتطلب أحيانا أن أزيد في البدء بيتا تجارزه المؤلف، لأن فهم ما أورده يتوقف عليه، وكنت أشعر أحيانا أن المؤلف يسقط بيتا أو بيتين وسط ما يأتي به، لصعوبة ترجمتها إلى الفرنسية، أو لأن الذوق الأوربي لا يسيغها، فأوردتها. وكذلك في الفصل الخاص بالزهور، فقد خرج المؤلف على مألوف عادته، وارضى أن ينثر الشعر، وأن يقتنع منها بما يصلح شاهدا، مكثفيا بالضمنون، دون أن يترجم الشعر كله، وأحسست أن وراء ذلك صعوبة نقل هذه الأبيات إلى الفرنسية، فجئت بأبيات الشعر نصا، لتكون أمام القارئ العربي، يفهمها ويتذوقها أيضا.

إجمالاً يستخدم الباحث دائماً لفظ إسبانيا، أو إسبانيا الإسلامية، ويتحدث عن الإسبان أو الإسبان المسلمين، ويعنى بها الأندلس في لغتنا العربية، ويصدر في ذلك عن فكرة آمن بها عبر الكتاب كله، وحاول أن يبرهن عليها، وفي إطارها درس شعر هذا العصر، وهو أن الذين أبدعوا هذه الحضارة كانوا إسباناً يتكلمون العربية ويدينون بالإسلام.

لا بأس! أنا لا أختلف معه في هذا، وليته درس مأساة المسلمين الذين طردوا من إسبانيا بالملايين بعد سقوط غرناطة، فقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم بوصفهم غزاة عرباً طارئین وليسوا من أهل الجزيرة!

وحين يأتي بكلمة الأندلس Andalusia، إلا في حالات نادرة جداً، فإنما يعنى بها جنوب إسبانيا فحسب، وفيها تأصلت الحضارة العربية يعمق، وتضم الآن محافظات: إشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة والمرية وجيان وولبة وقادس، وكلها تتلاقى في عادات وأمزجة وخصائص مشتركة، وتتمتع الآن بالاستقلال الذاتي في نطاق الدولة الإسبانية.

وبعد.

فالكتاب بين يدي القارئ، ولن أتحدث عنه بأفضل مما يتحدث عن نفسه، جهداً في الترجمة والنقل، ومعاونة في تحديث المصادر والمراجع، وأمل أن تجد طبعته العربية ما وجده الأصل الفرنسي من الإقبال والرضى والرواج.

الطاهر أحمد مكي

٢٤ من ربيع الأول ١٤٠٧ هـ

٢٦ من نوفمبر ١٩٨٧ م

٣ شارع مصدق - الدقى

القاهرة الكبرى

ت: ٣٦١٣٣٠٦

٣٤٧٩٣٩٢

إلى ذكرى:

رينيه راسيه

ومحمد بن شنب

فاتحة الطبعة الثانية

ظهرت هذه الدراسة عن الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر الميلادي عام ١٩٣٧ م، ونفدت طبعتها منذ عام ١٩٤٧ م.

وإزاء إصرار الناشر، وموافقة مدير معهد الدراسات الشرقية في الجزائر، اعتقدنا أن من الواجب إعداد طبعة جديدة تحتفظ في مجلتها بالخطوط العامة لطبعة ١٩٣٧.

وبدا لنا من الضروري في الحقيقة أن نعيد تحرير النص، رغم أن الدراسات التي نشرت خلال خمسة عشر عاما مضت لم تحمل أي شيء جديد يتصل بالعصر الذي نعرض له، والجانب الأكبر منها يتمثل في نشر مخطوطات استخدمناها. ومع ذلك، كان من الضروري أن نصحح نصوصا كانت موضع شك منا، أو أن نكمل بعض الفجوات.

فما نقدمه الآن ليس إلا طبعة «منقحة ومصححة»، استكملت مصادرها لتلائم ما جد في عالم النشر، وعُدلت إحالاتها أو أكملت، وزيدت فهرسها بشكل ملحوظ، وستظل - كما نؤمل - موضع اهتمام المستشرقين ومؤرخي الأدب العربي، وأيضاً علماء الدراسات الرومانية، أولئك الذين يبحثون عن دراسة منهجية وموجزة، وشاملة ما أمكن في الوقت نفسه، للموضوعات التي عرض لها شعراء العرب الأندلسيون في القرن الذي سبق مولد شعراء التروبادور.

لإعطاء بعض التفاصيل مزيداً من الدقة، وبعض التأكيدات شيئاً من الاحتمال، ندين بالكثير لرفاقنا وأصدقائنا الذين أبدوا لنا ملاحظاتهم، أو نشروها في المجلات الفرنسية والأجنبية. وهذه المناسبة نشكر من بينهم بخاصة: جورج مرسيه، ومرسيل بتيلون، وليفي بروفسال، ورجحي بلاشير، وإ.س. علوش، وإيميليو غرسيه غومث، وإجناس كراتشكوفسكي، وإ. ر. نيكل، وبشر فارس.

الجزائر، يناير ١٩٥٣ م

مقدمة

لا تشغل الحركة الأدبية في إسبانيا الإسلامية على امتداد القرن الحادى عشر الميلادى، حتى يومنا هذا، إلا مكاننا ضئيلا في لوحة الأدب العربى، من بداية الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة، إذا استثنينا بعض الدراسات المفردة، مفصلة أو ذات لمحات عامة. وعصر ملوك الطوائف، ويشغل كل القرن الحادى عشر الميلادى، ويقع بين انهيار الخلافة الأموية، وبعث المرابطين، لا يبدو من وجهة النظر الأدبية غالبا إلا حادثا لا يكاد يستحق أن يذكر. ومع ذلك لم يزدهر الشعر في أى عصر آخر، ولم يتدفق بمثل هذا الفيض، كما حدث في هذا العصر، ورغم أنه يلتقى في ملامح كثيرة مع الشعر المشرقى، ومع شعر إسبانيا نفسها في المراحل التى سبقت، إلا أنه تميز أيضا بطابع أصيلة، أكثر من تلك التى تعود إلى الظروف التاريخية الخاصة التى سجلها القرن الحادى عشر. ذلك أن اختفاء الأسرة الأموية المالكة أدى إلى انهيار المركزية، وتضاعف عدد الإمارات الصغيرة، وفي كل إمارة بلاط، وأفسح كل واحد منها مكانا رحيبا للفنون الجميلة، طلبا للشهرة، وأصبحت الحياة الإقليمية نافقة بالنشاط، ونزع الإبداع المحلى إلى أن يأخذ مكانا مرموقا.

وتمة عامل آخر أسهم في تطوير أدب الإبداع تطورا كاملا، وهو التحرر من الضغط الدينى الذى أتاح على العقول في القرن العاشر الميلادى، وبخاصة في عصر المنصور بن أبى عامر.

وقد أدى إنصهار العناصر الأصلية المختلفة في وهج الأحداث السياسية إلى تكوين جنس أندلسى تدريجيا، يحاول أن يحقق ذاته بإعطاء كل شيء يتناوله طابعاً قومياً واضحاً، وعكس الشعر، وهو أداته التعبيرية الأتى تصويراً، هذه الأمانة، ولم يحدث في أى عصر آخر أن قدم الشعر هذا الجانب العنصرى واضحاً، ومتميزاً عن الأدب العربى في المشرق أو في المغرب على السواء، كما حدث في هذا العصر.

لقد بدا لنا أن هذه «اللحظة» تستحق درسا متعمقا، ونعترف أن كل تحديد لموضوع العصر الذى نطلق عليه القرن الحادى عشر الميلادى يُعتبر نسبيا، لأن نهاية القرن العاشر إرهابى بالعصر الأدبى لملوك الطوائف، ولم تكن بداية القرن الثانى عشر إلا امتداداً له، رغم أن النظام السياسى تغير تماماً، ومن ثم لا يجب أن يندش من يلتقى في بحثنا بشعراء من أمثال ابن شهيد، والرمادى، وابن خفاجة، وابن سارة، الذين عرفوا عصر ملوك الطوائف قليلا، ولكنهم يروح أعمالهم نفسها يعيشون دون أدنى ريب في أعماق القرن الحادى عشر الميلادى.

وربما سألنا أحد: لماذا وقفنا عند الشعر العربى الكلاسى وحده، أى الذى جاء في اللغة العربية الأدبية، وفي قوالب العروض التقليدية؟ إنها مجرد ملاحظة، وود أن نوضح أننا لم نعرض عن ذكر الموشحات عندما تجيء المناسبة، وجاءت في لغتها وعروضها تقليدية، رغم أن الشكل، وجاء في أدوار، كن تجديدا. ذلك أن القصائد التى من هذا النوع، أعنى الموشحات، وجدت لها مكانا في كتب المختارات

الأندلسية والمشرقية، وعلى التقبض منها، فإن الزجل، وتحرّر من إعراب أواخر الكلمات ابتعد منهجيا عن تلك الألوان من الإبداع، ومن الصعب أن تجد أزجالاً تنتمى إلى العصر الذى ندرسه، والقصائد الوحيدة التى نجدها مُدوَّنة منه هى أزجال ابن قزمان، وعاش فى القرن الثانى عشر الميلادى خاصة. وحرصنا على ألا ندخل المنظومات التعليمية فى الشعر الكلاسى، إذ ليس لها من الشعر إلا ما للأبيات التقنية التى نظمها جان لى نينيفيت Jean Le Ninivite، أو ما لبور رويال Port - Royal من أصول إغريقية.

واستبعدنا كذلك دراسة الشكل عمداً.

ونادراً ما ناقشنا القيمة لتاريخية الذاتية لنصوص الشعر التى أوردناها، لأننا نرى فى الحقيقة أن هذه النصوص ما دامت تعود إلى نفس العصر الذى ندرسه، فهى شواهد يجب أن نقبلها كما هى، لأنها تعبير مباشر عن الأفكار والمشاعر، إلى جانب أنها تتفق مع النصوص التاريخية الجديرة بالثقة، كتلك التى نجدها عند ابن حيان، والحميدى، وابن حزم، وابن بسّام.

بقى أن نضيف كلمات عن الطريقة التى فهمنا بها الشواهد الشعرية. أكان يجب علينا أن نترجم القصائد والمقطوعات المستقلة كاملة أم نختار منها ما تقتضيه المناسبة، فلا نذكر غير بيت واحد، أو حتى كلمة مفردة؟ لقد بدا لنا أن الاستشهاد لم يتور خيانة فى أغلب الأحوال، ومن ثم حرصنا بعامة على أن نجاء بالبيت المستشهد به فى جملة الأبيات التى وردت معه كاملة، مع المجازفة بأن تبدو الأبيات أحياناً بالغة الطول.

وفىما يتصل بتقنية الترجمة نفسها لا أرى من الضرورى أن نؤكد على صعوبة نقل لغة أجنبية شاعرية، وغنائية فى جوهرها، إلى لغة أخرى. ومع ذلك حافظنا على الأصل، وعلى التركيب النحوى للغة العربية، حتى ولو كان ثمن ذلك جفاء التعبير فى لغتنا، وأبقينا على التشبيهات حريفاً، دون أن نستبدل بعض المصطلحات التى يرفضها ذوقنا بأخرى قد لا تعبر عن وجهة نظر الشعر، وبدا لنا ضرورياً أن نحفظ يروثق اللغة الأصلية وألوانها.

ورغم حرصنا الشديد على الدقة، فهناك مقطوعات كانت صعبة الفهم إلى حد ما، ذلك أن الشعر العربى فى الغرب، عندما ينسخ الصور المشرقية، يقدّم لنا دائماً هذا الجانب الغامض الذى لا يمكن التغلب عليه إلا من خلال ممارسة لغته طويلاً، ولكنه حين يحاول أن يعبر عن المشاعر والأفكار الخاصة بالإسبان المسلمين فإنه يصبح قريباً مناً تماماً، وتقرب منه بلا صعوبة، ونشعر حقاً بشيء فى نفوسنا من روح هؤلاء الأندلسيين الذين ليسوا بعبيد عَنَّا أيضاً كما يبدو للوهلة الأولى. وإذا أسهمت دراستنا فى أن تكون نقطة انطلاق لنميز بين ما هو غريب أساساً وأصلاً، وبين ما هو تقليدى لأنه مستورد، فسوف نشعر، ونجروء على أن نأمل، بأن لها ما يبررها بما فيه الكفاية.

ولا نودّ أن نختم هذه المقدمة دون أن نعبّر عن عميق شكرنا للسادة: ف. مرسية، و. ماسينيون، وجو فروى - ديومين، وج. مرسية، وإ. ليفى بروفنسال، ور. بلاشير، وج. س. كوليت وهـ. مسيه، اللذين ساعدونا بنصائحهم وأعمالهم.

مدخل

عرفت إسبانيا الإسلامية منذ الفتح حتى نهاية القرن العاشر الميلادي نظاما سياسيا نزع إلى إخضاع كل عناصر السكان، سواء كانت من أصل مسيحي أم عربي أم بربري، وإلى تركيز كل السلطات في يد رجل واحد هو الخليفة، وعاصمته قرطبة، وكان المنصور بن أبي عامر آخر عملاق تركزت في يده السلطات الدينية والدنيوية، وعندما توفي هذا الحاكم العظيم انهار فجأة العمل الذي تحقق طوال القرون الماضية.

وقد اتسمت بداية القرن الرابع الهجري، التي تتفق مع مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، بأحداث كبيرة أدت إلى تغييرات عميقة في الوضع السياسي لشبه الجزيرة الإيبيرية. وكان الحدث الذي فجر سلسلة الاضطرابات، والذي أطلق عليه المؤرخون العرب اسم «فتنة» غير متوقع إلى حد بعيد ذلك أن عبد الرحمن شنجول، ابن المنصور بن أبي عامر، عين نفسه ولي عهد الخليفة الأموي هشام المؤيد^(١)، وكان المنصور بن أبي عامر قد وضعه تحت وصايته، وأصبح الحاكم الفعلي طوال فترة الحجابة، وهنا العمل اطمأن عبد الرحمن شنجول إلى نوايا الأشخاص الذين يحيطون بالخليفة، فتحرك في حملة ضد المسيحيين عام ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م. ومثل هذه الحملات كانت تحدث كثيرا أيام المنصور وخليفته وابنه المظفر عبد الملك، وأحيانا كانت تخرج الحملة مرتين في العام الواحد. وكان هؤلاء الوزراء العظام يعودون دائما فيجدون العاصمة خاضعة لإرادتهم، وتحتفل بهم مبهجة، بوصفهم أبطال الإسلام. ولكن مع الابن الثاني للمنصور، وخليفته أيضا، تغير الوضع نهائيا، إذ ما كاد شنجول يتوجه بحملة إلى شمال غرب إسبانيا، ضد سكان غليسيا، حتى أطاحت مؤامرة بالخليفة هشام المؤيد في قرطبة، وبايعت بالخلافة مكانه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر. من الأسرة الأموية والذي اختار لنفسه لقب المهدي.

والحدث في حد ذاته تافه، فما أكثر ما شهدت قرطبة من مؤامرات في القصر، وظن الناس في البدء أن عودة شنجول كافية لتعيد الأشياء إلى نصابها، ولكن جنود المهدي اغتالوا الحاجب الجديد قريبا من قرطبة، وسجلت هذه الجريمة بداية عهد جديد حافل بالاضطرابات.

وتكونت أحزاب مختلفة، وفي البدء بدا أن المطامع السياسية هي التي أثارت الفتن، حتى أن المؤرخين العرب رَوَّوها في بساطة شديدة إلى التنافس بين العرب المضربة والعرب اليمينية، فقد خضع الأولون لإرادة المنصور القوية، وكان يمينيا، وحين تقبَّ شنجول عن العاصمة قرطبة تنقَّسوا الصعداء بعض الشيء، واستغلوا الفرصة كي يعودوا إلى السلطة، ونادوا بخليفة جديد يكون مخلصا لهم. ويدت الأحداث للمؤرخين العرب، في الظاهر، ومن بعيد، على هذا النحو، ولكن الواقع أن كلمات مثل

(١) حرر وثيقة البيعة الوير الكاتب ابن برد الأصغر. انظره دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٨٣.

«مضى» و«مضى» كانت قد فقدت كل قيمتها العنصرية والسياسية منذ زمن بعيد، وجرى فجأة على أقلام مؤرخي هذا العصر تعبير «أهل الأندلس»، ليشير إلى أنصار هذا التحول السياسي في المجال الإسباني، وهو تعبير مائع بما فيه الكفاية، ولكنه اكتسب كل الدقة بعد قليل من الزمن عندما ظهر على المسرح عنصر متحد تماما، ليلعب دورا بالغ الأهمية، نريد أن نقول: عندما ظهر العنصر البربري. نحن نعرف الدور الذي لعبه البربر، وجرى بهم من أفريقيا إلى إسبانيا في اللحظة التي ألغى فيها نظام «الجندي»، ولعبوا في سياسة المنصور دورا واضحا كقوة مسلحة مخصصة لسيدها، ومن الطبيعي طبقا للتقاليد أن يظلوا على ولائهم لحلف هذا الوزير، ولم يكن لعظمته مثيل. ولكنهم لم يكونوا راضين عن شتجول فتحالفوا مع المهدي، وبفضل تأييدهم أمكن لهذا الشخص المناهض للخليفة أن ينتصر على غريمه. ولكن الأحداث أظهرت أن اصطناع سياسة أموية لم يعد يتماشى مع الواقع، وأن لعبة الموازنة لإضعاف حزب على حساب آخر لم يعد ممكنا أن تكون من صنع إرادة رجل واحد. وقد لحظ البربر في وقت مبكر أن المهدي يكرههم، شأنه في ذلك شأن بقية سكان قرطبة، وترك التنازع بين العناصر المختلفة تأثيرا عميقا في الحياة السياسية، وقد طلب البربر من الأموي هشام بن سليمان بن الناصر أن يبايع نفسه خليفة، ولكن شعب قرطبة ثار عليه، وقبض على هشام هذا المتواطئ مع لبربر، وحملوه إلى المهدي، الذي خاف منه، دون أدنى شك، فأمر بقتله.

وهذا الاغتيال، وهو الثاني على امتداد بضع سنوات، يميز عصر الاضطرابات أكثر مما يميزه اغتيال شتجول الذي أدى إلى سقوط الخلافة الأموية نهائيا، وقيام إمارات تقاسمت شبه الجزيرة فيما بينها. وأحسن المؤرخون العرب كلهم بمسئولية المهدي عن النتائج التي أدت إليها هذا العمل الطائش، ويقول ابن حيان عنه إنه «مفرق الجماعة بقرطبة، وميتعت تلك الفتنة المبيرة»^(٢). وبالطريقة نفسها يعبر ابن الأبار: إنه «باعت الفتنة بالأندلس، وموقد نارها الحامدة، وشاهر سيفها المفعد»^(٣)، «وَأَوَّل من أَرث نارها، وأورث شئارها»^(٤).

ليس من غايتنا في هذا الفصل التمهيدى عرض الأحداث المميزة في تاريخ إسبانيا الإسلامية خلال القرن الحادى عشر الميلادى، فقد اضطلع بذلك آخرون في كفاءة وذكاء يفيتنا عن العودة إليه^(٥). ومن ثم لن نتوقف عند هذه الأحداث لحظة واحدة، لأن نتائجها متصلة في بحث يجعل منها شيئا مملا للغاية. ريكفى أن نكشف عن الخيط الرئيسى، وأن نظهر الفكرة الأساسية التي تفضى عليه وحدة. وهذا نستطيع أن نفهم على نحو أفضل إحدى الخصائص الجوهرية للشعر في إسبانيا القرن الحادى عشر

(٢) ابن بسام، الدخيرة ٢٧/٢، ودورى، بنو عباد ٢٤٤/١.

(٣) الحلة السراء ٥/٢.

(٤) المصدر السابق ٣-٢.

(٥) يكفى أن نشير على القارئ بكتاب دوزى الشهير: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ - ٢٧٦ - ٢٤٦، و ج ٣ ص ١ - ١٨٢. وايلى يرتفضال، تنف ففى أخبار ملوك الطوائف، والنص فى البيان المغرب ٢٨٩/٣، وترجمته فى تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٢١٥ - ٢٣٦. وبريتو بيس، ملوك الطوائف، وانظر أيضا الصفحات الملهمة الى كتبها ج. مرسة فى مرجز القرن الإسلامى، ج ١ ص ٢٩٣ - ٣٠٥، عام ١٩٢٦، وش. ديبل وج. مرسة، العالم الشرقى من عام ٢٩٥ إلى ٦٠٨١ م، ص ٥٦٦ - ٥٦٧، وش. وه. تراس، الفن الإسلامى العربى منذ البدء حتى القرن الثالث عشر من ١٨٧ - ١٩٤ - ٢٠٦ - ٢١٠، وش. بيبى - ديتلى، ازدهار دول الغرب، ص ٢٩٤ - ٣١٤.

الميلادى، والتي يمكن أن تعود إلى الأصول السلالية للشعب الذى فهمه وعبر عنه.

بعد أن أمر المهدي باغتيال هشام مرشح البربر للخلافة، تكون حزبان كبيران يتبادلان العداوة علناً: الحزب البربرى والحزب الأندلسى، واختار كل حزب منها شخصاً يباعه بالخلافة، على حين أن هشاماً المؤيد، الخليفة الحقيقى، كان يعيش حمة باهتة ومذعورة بين قاعات قصره فى قرطبة. فى البدء ساند الحزب البربرى خليفة أمويًا ضعيف الشخصية: سليمان بن الحكم، الذى تلقب المستعين، وهو ابن أخ هشام بن سليمان الذى قتله المهدي. ولكن هذا المستعين قُتل فى عام ٤٠٧ هـ = ١٠١٦ م، ومن الآن فصاعداً أثر البربر أن يختاروا الخليفة من بنى حمود، أى من أسرة تنتسب فى الرسول، ولو أنها تبررت إلى حد بعيد.

وفى مواجهة هذا الحزب الأفريقى الأصل، قام حزب آخر غير متجانس ظاهراً، ويؤلف بين أفرادهِ كراهية البربر وبغضهم، ويجمع بين آخر أعضاء الأسرة الأموية، وبقايا العامريين، ومماليكهم من الحصيان والعبيد والصقالبة، وجمهرة العامة، وبخاصة فى المدن الكبرى مثل: قرطبة، وإشبيلية، والمرية، وسيرشحون بالاتفاق مع هشام المؤيد على التوالى: المهدي، ثم المرتضى، ثم المستظهر، ثم المستكفى والمعتد أخيراً، وتوفى هذا عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م، فى مدينة لاردة، مسجلاً نهاية حكم الأسرة الأموية فى إسبانيا. وهذا الحزب هو الذى سنطلق عليه اسم: الحزب الإشباني، ولم أن المؤرخين العرب اكتفوا بأن يطلقوا عليه كلمة «الأندلسى» فحسب، رغم أن كلمة الأندلس التى أخذ منها الاسم تعنى إسبانيا الإسلامية، أكثر مما تعنى الأندلس.

بعد أن اختير شنجول ولياً للعهد، إثر وفاة أخيه المظفر عبد الملك، حاول أن يندى إليه الفريقين، ونادم وجوه الجنسين، ويحدد المؤرخ الذى قدم لنا الخبر هذين الجنسين بأتهما: «البرابر والأندلس»^(٦). وفى بداية الفتنة فإن زاوى بن زيرى بن مناد، رئيس البربر، لم يضع قواته إلا فى خدمة أهل الأندلس، أى شعب إسبانيا، أو الشعب الأندلسى^(٧). وعندما هزم زاوى جيش أنصار الخليفة المرتضى، وقُتل الخليفة نفسه، بلغ نبأ موته، وهزيمة الأندلسيين، فيما يقول المؤرخون العرب، أسمع القاسم بن حمود^(٨).

إذن كلمة الأندلس، أو الأندلسيين، تعنى بعامّة، كما ترى، كل الأحزاب التى تجمعت فى مواجهة البربر، وكل الجماعات التى التقت لتدافع عن أرض إسبانيا ضد الأجانب، مهما كان الجنس الذى تنتمى إليه.

ومع ذلك، عندما يريد المؤرخون مزيداً من الدقة يميزون بين العامريين والأندلسيين، فيقول صاحب «البيان المغرب»: «ووصل [إلى قرطبة] أبو العباس ابن ذكوان القاضى، ووجوه الصقالبة العامريين،

(٦) البيان المغرب ٤٧/٣، وأعمال الأعلام ٩٤.

(٧) الذخيرة ٤٥٣/١، وبشر عباد ١٢٨/٣.

(٨) أعمال الأعلام ١٣١، وكما نرى فإن هزيمة المرتضى تعود فى الجانب الأكبر منها إلى خذلان العامريين له بقيادة خيران

ووجوه الأندلسيين، وبقي شنجول في نفر يسير من حرمه وحشمه، وأبن غوصى معه في نفر من النصارى»^(٩١).

ويجموع شعب إسبانيا الذي تكتل للدفاع عن وحدته القومية ضد البربر أطلق عليه اسم «الجماعة». وكان يطلق على هشام بن الحكم خليفة إسبانيا الإسلامية وبطلها لقب «صاحب الجماعة». في مواجهة سليمان بن الحكم، وحمل لقب «بطل البربر»^(٩٢).

وظهر هذا التناقض بين الإسبان والبربر بالدقة، وعلى نحو شرس، خلال معارك «الفتنة». ولا يعرف التاريخ أبدا كراهية اتسمت بهذا اللون من الوحشية مثل الذي كان بينهما: حرب شعواء لا تحترم النساء ولا الأطفال ولا الشيوخ، واتجه الغضب الجامح إلى المباني والمزارع، وإلى بداية هذا القرن الحادى عشر الميلادى يعود تاريخ التخریب في إسبانيا، وفي الأندلس على نحو خاص، وستعود إلى هذه القضية بمناسبة وصف الشعراء للمدن المحرقة، وكان الرعب الذي يبتئ الناس لبعضهم البعض متساويا، وقد دُفِنَ عالم قرطبي عام ٤١٥ هـ = ١٠٢٤ م، في ميدان من قرطبة يدعى رحبة عزيزة، خشية ملاقات البربر إذا حملوا جثمانه إلى المقبرة^(٩٣). وُدُنَ صنهاجى خلعة في هر عُميت آخره، دون أن يغسل أو يكفن، أو يصلى عليه^(٩٤). وعندما استقبل القاسم بن حمود من البربر بالترحيب تار عليه أهل قرطبة، وقتلوا هؤلاء الضيوف، وكان يجب طبقا لقوانين الضيافة أن تقدم لهم الحماية كاملة^(٩٥).

نستطيع تقديم الكثير من الأمثلة على هذا.

أخذ أفراد الفترات المسيحية، وهم من القطلان عادة، يحفظهم من هذه الكراهية، وكانوا يستجيبون لنداء هذا الحزب أو ذاك، ولكن نلاحظ أنهم كانوا ضد البربر بخاصة، ويطلقون لأنفسهم لعنان عندما يطلب الحزب الإسباني التحالف معهم. وبعد معركة وادى آره هزم المستعین الإسبان، رغم مساعدة المسيحيين لهم، وتراجعوا إلى قرطبة، وقد بلغ منهم الحقد والرعب مبلغه، حتى أن المسيحيين القطلان أخذوا يثأرون لهم من عامة الناس، فقتلوا كل من يشبه بالبربر، وكل عدوى، ومن لم ير العدو ولا سمع بها، إسرافا وتحاملا وجراة على الله سبحانه، وطفيا^(٩٦).

لا شيء يمكن أن يعبر بدقة عن هذا الحقد المتبادل مثل كلمة «عصبية» التي يستخدمها علماء الأنساب والمؤرخون العرب ليعبروا بها عن روح التضامن، والترايط القبلى الذي ترفع دأيته القبائل ذات الأصول المضرية أو اليمينية، ولقد عرف مطلع القرن الحادى عشر الميلادى عصبية بربرية، كما يمكن أن نلاحظ أن ثمة عصبية أندلسية أيضا.

(٩١) البيان المغرب ٣/٢١٦.

(٩٢) أعمال لأعلام ١٢٧، وانظر أيضا مدونة ملوك الطوائف لؤلف مجهول، في البيان المغرب ٣/٣١١، وترجمة ليفي بروفسال لها في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ الملحق ٢ ص ٢٣١.

(٩٣) ابن بشكوال، الصلة ٢٥٧، وليفى بروفسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٢٠٩ هـش ١.

(٩٤) الإحاطة ١/٢٨٨، طبعة القاهرة ١٣٦٩ هـ، قفلا عن ابن حيان.

(٩٥) أعمال الأعلام ١٣٥.

(٩٦) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٩٩، وأبحاث، ط ١ ص ٢٤٦، والبيان لمغرب ٩٧/٣ و ١٠٣.

وقد استخدم المؤرخون العرب مصطلحا مميزا، وهو «الفترة الطبيعية»^(١٥) للتعبير عن الكره الذي كان يفصل بين الحزبين، ويعطينا ابن خيكان، بمناسبة أحداث باجة في مقاطعة الغرب جنوبي البرتغال، مزيدا من الإيضاح عن معنى «العصبة الأندلسية»، فيقول: «العصبة بين العرب منهم والمولدين»^(١٦)، أى بين العرب وبين الذين انحدروا من أصول مسيحية كانت قد اعتنقت الإسلام^(١٧).

وعندما اختفى الأمويون من على المسرح عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م بموت المعتد في لاوذة، ركزت الكتلة الإسبانية كل جهودها على الأندلس، لكي تحتفظ بمدينتي قرطبة وإشبيلية، وواصلت الكفاح ضد الكتلة البربرية، ولكن مراكز المقاومة تضاعفت على امتداد كل إسبانيا الإسلامية، وبانتهاء عصر الفتنة تلاء ما اصطلاح المؤرخون العرب على تسميته عصر الطوائف، أى الأحزاب التي تقسمت إسبانيا فيها بينها، وحكمها الرؤساء، أو قدامى عمال المقاطعات، أو قواد الجيش.

١ - ويقدم لنا صاحب «البيان المغرب»^(١٨) تحت أحداث عام ٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م، قيام الحزبين الكبيرين على هذا النحو:

١ - الحزب الإسباني أو الأندلسي، ومثله: محمد بن جهور في قرطبة، وابن عباد صاحب إشبيلية، وسليمان بن هود الجذامي في سرقسطة، ومقاتل الصقلي صاحب طرطوشة، وعبد العزيز بن أبي عمر صاحب بلنسية، ومعين بن صمادح صاحب المرية، وسعيد بن رقييل صاحب شقورة، وأبو نور ابن أبي قرّة صاحب رندة وتأكّرنا، وإسحاق بن محمد البرزالي صاحب قرمونة، وابن نوح صاحب مورون، وابن خزون صاحب أركوش.

٢ - الحزب البربري ويتألف من: إدريس بن يحيى صاحب مالقة، وباديس بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة.

وثمة أمراء آخرون التزموا جانب الحضر والفتنة، وهم: ابن الأقطس صاحب بطليوس، ومجاهد العامري صاحب دانية، ويحيى بن ذى النون صاحب طليطلة.

كان كلا الحزبين يناضل من أجل خليفة، ولكن الذى أرادته الأندلسيون لم يكن غير تسيج من حلفاء، ليس إلا صورة دقيقة من هشام المؤيد، ووضعه بنو عباد في المقدمة ليخفوا به حقيقة نواياهم.

واختار البربر للإمام إدريس بن يحيى خيفة ولم تكن سلطته الروحية والزمنية تتجاوز كورث مالقة وغرناطة.

ليس ثمة شك في أن اللوحة لا تقدم لنا قائمة كاملة بملوك الطوائف، أو صغار الأمراء الذين تقاسموا إسبانيا فيما بينهم بعد سقوط الخلافة الأموية، ولكن أهميتها بالنسبة لنا تتمثل في تحديد سياسة أملتتها الظروف منذ بداية القرن الحادى عشر الميلادى. أريد أن أقول تستند إلى سياسة إسبانية، أو أندلسية إذا شئت، وسيكون أبطال هذه السياسة هم: بنو عباد أصحاب إشبيلية، واستطاعوا أن يدفعوا

(١٥) أعمال الأعلام ٢٢٧.

(١٦) الدخيرة ١٩٢.

(١٧) عن المولدين انظر فيها بعد ص ٢٣١ وما بعدها من هذا الكتاب.

(١٨) البيان المغرب ٢١٩/٣، ٢٢٠.

بحدود دولتهم بعيدا، بالحروب يديرونها بمهارة، وبالحفاية عندما تبدو لهم الحرب قاصرة، أو لوصول تن طريقها يطول كثيرا، أو باستخدام لعبة التحالف مع أمراء آخرين، ويدعمونها بالهدايا والزيارات. وكانت دولتهم في البدء ضيقة، ثم اتسعت على حساب أمراء زناتة في الجنوب، والجنوب الغربي لشبه الجزيرة، وعلى حساب بني برزّال أصحاب قرمونة، وبني إفرن أصحاب رندة، وبني دمر أصحاب مورون. وبني خَزْرُون أصحاب أركوش. وبني يحيى، وبني بكر، وبني مُزَيْن، وبني هارون في نبة، وأولبة، وشلطيش، وشلب، وشتتمرية الغرب، وبني حمود سادة مقاطعات غرناطة ومالطة، والجزيرة الخضراء بخاصة. وبني صمّادح أو بني تحبيب أصحاب المربة، وبني جهّور أصحاب قرطبة، ولو أن قرطبة سقطت فيها بعد كاملة في يدى بنى عبّاد، وبني طيفور أصحاب مرتلة، وبني طاهر أصحاب مرسية.

وهذه السياسة مازالت إسبانية، بمعنى أنها تقبل قيام رابطة بين المسلمين والمسيحيين، وبنو عبيد، في محاولتهم السيطرة على شبه الجزيرة، أنهم يعملون طبيّا حين يتابعون تقليدا يعود تايخه إلى أيام «الفتنة»، ويساير الأمانى العميقة للشعب الإسباني المسلم، ولكنها أدت إلى نتائج بالغة الخطورة في نهاية القرن الحادى عشر الميلادى. وقد أخذ القشتاليون والقطلان بحظهم من هذا الصراع الدائر بين البربر والأندلسيين في مطلع القرن الحادى عشر^(١٩). ولم يكن تدخلهم، إذا كان ضروريا، يتم إلا تبرّ تنازلات تقدّم لهم: أراض وقلاع يتنازلون لهم عنها، وإتاوات سنوية يأخذونها، وهذه امتحبة لأمرء الشمال المسيحيين ضايقت ملوك الطوائف على نحو خطير، وبخاصة عند ما تضطّروهم لأحداث أن يختاروا بين سياسة إسبانية صريحة، وبين خط أخلاقى يستلهم المصالح العليا للإسلام فحسب. ولكن حتى عندما استدعوا المرابطين المسلمين، وأصلوا إظهار كراهيتهم للبربر، وطبقا لتعبير مؤدخ عربى: «كوهو أن يكونوا بين عدوين، الفرنج من شمالهم والمسلمين من جنوبهم»^(٢٠).

وينسبون إلى المعتمد أنه قال: «لأن أروعى الجمال في الصحراء خير من أن أروعى الخنازير في قشتالة». وهذه الجملة وليس لها من الحقيقة أكثر مما لكل التعبيرات التاريخية، يجب أن نفهم في ضوء بعض الغايات البالغة الدقة حقّا. لأنها تصبح موضع ارتياب منا إذا أخذناها بالمعنى العام الذى تعنيه لنا الصيغة التى أوردها المؤرخون. وكل ما فى الأمر أنها تعنى أن المعتمد، في لحظة ذات خطورة استثنائية، كان يفكر في نفسه فحسب، مضحيا بزوجه اعتماد وأبنائه، وبخاصة ابنه الراضى، وقد تعلّق به وأحبه أكثر من كل الآخرين، وبلده، وأحيرا بالتقاليد السياسية الأندلسية، أو الإسبانية، التى ورثها لها أجداد.

(١٩) بدخل سانتوغر غسبه (في المصادر العربية القديمة شاذبه) كونت قشتالة في معركة قنيسش. انظر: دوزو، تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٥. ورامون ميتنديث بيدال، إسبانيا في عصر السيد ٩٤/١. وشارك القطلان رايوند كونت برشلونه، والقطلان إيرمجاود كونت أورجل، في معركة عقبة البقر. انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٢٩٧ وما بعدها. ويتحدث البيان المغرب ٨٦/٣ ر ٩٠ عن قائد مسيحي يدعى ابن مائة النصراني، أو القومس (كونت) ابن مائة، وسائد الخليفة سليمان والبربر ضد الصقالبة والأمويين، ويقول عن القرطبيين إنهم قوم «لا دين لهم، ولا شجاعة فيهم، ولا عقول معهم» انظر فيها حد ص ٤٨ المجلد رقم ١٧ من هذا الكتاب.

المعتضد، وهذه الكلمات جرت سريعاً على فمه فعلاً، لأننا نثق بالمؤرخين الذين أوردها^(٢١). والرواية الأكثر احتمالاً، فيما يبدو لنا، تلك التي ضمنها لسان الدين ابن الخطيب كتابه «أعمال الأعلام»، اعتماداً على مصدر قديم لم يذكره، ويمكن أن نستنتج من المحتوى أنه ابن حيان أو ابن بسم، يقول عن المعتضد: واستشار أوليائه في ذلك (أي في دعوة المرابطين إلى الأندلس ضد عادية ألفونسو السادس)، فقال له ولده الرشيد ما معناه: «حاول الأمر بجهدك مع النصراني، ولا تستعجل بإدخال من يسلبنا الملك، ويشتت الشمل، فالتناس من علمت!». فقال المعتضد: «يا ولدي لأن أموت راعياً بالمغرب خيرٌ عندي من أن أود الأندلس دار كفر، فتكون اللعنة على من المسلمين أبدا الدهر!». فقال: «يا أبت أعمل ما أراك الله»^(٢٢).

لحظة عصبية تواجه فيها مفهومان مختلفان: أحدهما يتمشى مع التطور البطيء لشعب يسير نحو قدره الطبيعي، والآخر مختار في شبكة من الهوم، عقلية أكثر منها عاطفية، ولا يشغل الإسلام بينها إلا قليلاً.

وخطوة احتضان الحزب المسيحي سوف يحققها المعتضد بعد ذلك بأعوام حين بذل جهده، في ردّ المرابطين البربر، إلى ماوراء المضيق، وكان قد دعاهم على مضض ليدافعوا عنه، غير أن المحاولة جاءت متأخرة كثيراً، والقوات المسيحية التي أسرعت إلى تلبية ندائه^(٢٣) كانت غير كافية لكي ترد قوات الملثمين، أعني المرابطين.

والقرار الذي اتخذته قبل موقعة الزلاقة كان منافساً لكل ما نعرفه عنه فيما يتصل بالبربر، وعن النج الذي اختطه له والده المعتضد، والذي ركّز كل جهوده للتنضال ضدّ أمراء زناتة وصنهاجة، وكانوا يضابقونه في الجنوب، والجنوب الشرقي من مملكته^(٢٤).

(٢١) انظر مثلاً: ابن الموصلي، ت ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م في كتابه «ريحان الآداب» في «بئر عباد» ٨/٢، ونصها: «أولى أن أكرن راعي الجمال من أن يكون راعي الخنازير». وابن خلكان، وفيات الأعيان، القاهرة ٣٦٦/٢. وترجمة دي سلاز له إلى الفرنسية ٤٥٣/٤، ونصها عنه: «لأن يرعى أولادنا جالهم أحب إلينا من أن يرعوا خنازير الإفرنج». والاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ١١٢/١، وترجمة كوين له إلى الفرنسية في «المحفوظات المغربية» المجلد ٣٦ ص ١٦٦، والروض المظلل للحسري ص ٨٥ و ١٠٦، وعنه نقلها المقرئ في نفع ٣٥٩/٤، وبئر عباد ٢٦٠/٢. وانظر: تاريخ مسمى إسبانيا، ج ٢ ص ٣ و ١٢٤. وعن أصل تعبير «رعي الخنازير»، انظر ص ٢١٩ من هذا الكتاب.

● ينكر المستشرق الإسباني أنخيل جوثالك بالقنبا أن المعتضد قال الجملة أصلاً. انظر مقاله في كتابنا، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط ٣ ص ١٧٧ و ١٧٨ دال المعارف، القاهرة ١٩٨٨.

(٢٢) أعمال الأعلام ٢٨١، والحلل الموشية لطبعة تونس ص ٢٨، وطبعة علوش في الرباط ٣٢، ونقلها عنها توجد في «بئر عباد» ١٨٩/٢، والروض المظلل، مادة الزلاقة ص ٨٣ - ٩٥ و ١٠٣ - ١١٦.

(٢٣) انظر تاريخ مسلمي إسبانيا، ج ٢ ص ٣ و ١٤٥ وأعمال الأعلام ١٦٣، وحين حاصر القائد المرابطي سير بن أبي بكر أمير بطليوس المتوكل بن الألفونس قام هذا بإطركه نفسها، وسَمّ لألفونسو مدينة شترين، وحين وعدّه بمدينة بطليوس نفسها. انظر: أعمال الأعلام ١٨٥.

(٢٤) انظر: لويجي بروفتسال، دائرة المعارف الإسلامية، مادة المعتضد، ٨٣٦/٣، حيث يقول: «لم يكن للمعتضد من أعداء أكثر من البربر، مسلمون مثله، ولكم أبعد عن مثله الأعلى كأسباب من جيرانه المسيحيين في الشمال وفي أمكنة كانوا يسمونه

ألم يَشْكُ المعتمد، ولما يزل في شرح شبابه، من البربر الذين كانوا يَكُونُونَ جانباً من البغيش الذي قاده في حملته ضد مالقة، وكانوا سبب إخفاقه؟^(٢٥)

ألم يكن بطل قصة رواها لك الحجارى، وتُظهر في جانب منها بطريقة مذهشة مشاعر البربر والأندلسيين كل منها في مواجهة الآخر في عصر إمارة المعتمد نفسها، حين ابتدأت مضامع الأمير المرابطى، وقد انهلج صبحه في سماء شبه الجزيرة؟

«قال الحجارى في «المسهب»: إن أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين أهدى إلى المعتمد جارية مغنية قد نشأت بالعدوة، وأهل العدوة باطع بكرهون أهل الأندلس، وجاء بها إلى إشبيلية وقد كثر الإرجاف بأن سلطان المثلثين ينتزع بلاد ملوك الطوائف منهم، واشتغل خاطر ابن عبيد بالفكر في ذلك، فخرج بها إلى قصر الزاهر على نهر إشبيلية، وقعد على ألواح، فخطر بفكرها أن غنت عندما نثنى هذه الأبيات:

حملوا قلوبَ الأسد بين ضلوعهم وَلَوُوا عمامتهم على الانمار
وتقلدوا يومَ السوغيَ هندية أمضى إذا انتضبت من الاحدار
إن خوفوك لقيت كل كريمة أو أمسوك خللت دار قرا^(٢٦)

فوقع في قلبه أنها عرّضت بساداتها، فلم يملك غضبه، ورسم بها في النهر، فهكت»^(٢٧).

ليس ثمة شك أننا نحس بهمة بالغة أمام هذه الحركة القاسية من أمير أندلسي، والهوة وحدها لا تكفى لتفسيرها، فقد احتفظ الأمير على أية حال بقدر كاف من صحوّة الفكر أتاح له أن يفهم معنى الأبيات. وأن كلمة واحدة رتت في سمعه: «عمائم»، والبربر وحدهم يلبسونها، حركته، وأيقظت في أعماقه كراهية أهل العدوة الأخرى، والودّ العميق لعشيرته.

كذلك أتاح المعتمد فرصة أخرى للمؤرخين كي يظهرُوا لنا الكراهية الشديدة التي كانت سائدة بين البربر والأندلسيين، فنقل لنا المراكشي حديثاً جرى بين المعتمد والمعتصم بن صدوح صاحب المرية، وموضوعه يوسف بن تاشفين، وفيه يقول المعتمد: أتى شيء هذا المسكين وأصحابه؟ إنما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش، وغلاء من السعر، جئنا بهم إلى هذه البلاد نطعمهم حسبة، فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم»^(٢٨).

ألم يظهر المعتصم نفسه أنه أندلسي، لمجرد أنه استقبل في أمارته الشاعر السمسيس واحتفى به، حين لجأ إليه هرباً من ملاحقة جنود عبد الله بن بلقين أمير غرناطة، لأنه هجا البربر في أبيات له؟

رأيت آدمَ في نومي فقلت له: أيا البرية إن الناس قد حكموا
أن البرابر نسل منك قال: إذن حواء طالقة إن كان مازعماً^(٢٩)

(٢٥) عن هذه الواقعة انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٦٨.

(٢٦) من بحر الكامل. (٢٧) المعارى. نهج، في نهج ٢٧٥/٤.

(٢٨) للمراكشي، المسجب ١٣٨، وبعث ط ١ ص ١١٨، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ١٢٩.

(٢٩) نهج ٤١٢/٣.

● أشد المؤلف إلى البتين لم يروهما، وأتيت بها ليكونا تحت عين القارئ (المترجم).

وثمة حادث آخر يظهر هذه العداوة لابن إسبان شبه الجزيرة وبربر المغرب فحسب، وإنما أيضًا بين أسرة عربية أندلسية من سرقسطة، وأسرة تنحدر من أصول بربرية وتقيم في طليطلة، فقد بدأ هؤلاء في نظر أولئك أنهم لم ينظروا بقدر كاف. ويروى لنا صاحب البيان المغرب أن منذر بن يحيى صاحب سرقسطة كان قد تزوج من ابنة عبد الرحمن بن ذى النون، وهي في الوقت نفسه أخت المأمون أمير طليطلة، وأنجبت من هذا الزواج يحيى بن المنذر، فلما ورث هذا الإمارة، واعتلى العرش، احتقره بنو عمه بسبب أصله هذا، وتواطؤوا على قتله^(٣٠).

وأخيرًا، تحت حكم المرابطين، وفي أوج قوته في إسبانيا، أنضم الكتاب إلى غزاة شبه الجزيرة بعد سقوط ملوك الطوائف، ولكنهم رغم كل الأحداث ظلوا على إسمائيتهم، ولم يترددوا في التنديد بجنود البربر، وفي الرسائل التي توجهوا بها إلى سيدهم البربري يوسف بن تاشفين. ويثار منهم أديب أندلسي في رقة حين يحتقر من أعماق قلبه هؤلاء الأفريقيين الغلاظ، الذين دنسوا أرض إسبانيا^(٣١).

هكذا كانت أحداث القرن الحادي عشر الميلادي، أشبه بمبارزة بين الإسبان المسلمين والأفريقيين البرابرة. وكما ترى لم يكن الأمر في أية لحظة قضية عرب، ولم يكن استبعادنا لهذه الكلمة عملاً مقصوداً، ولم يستخدمها المؤرخون العرب، وفي المرات القليلة التي ظهرت في مؤلفاتهم لم يعلقوا عليها إلا أهمية ثانوية تمامًا. وخلال «الفتنة» كان يوجد حزب أندلسي يجمع الأمويين والصفاليين والبربر الأندلسيين وحزب بربري، وتحت حكم الطوائف كان هناك، كما يجب أن نتميز بحق، «طائفة بربرية» وطائفة أندلسية، وطائفة صفلية، وليس ثمة طائفة عربية^(٣٢). ويجب أن نلاحظ أن طائفة الصفالية ترددت مدام في الانضمام إلى أي الحزبين، فهي تأخذ جانب الأندلسيين تارة، وجانب البربر تارة أخرى، حسب طموحها العابر، وعندما أصبحت قضية الخلافة غير ذات أهمية، بعد أن أصبح اختفاء آخر خليفة أمرًا مؤكدًا، تبوأوا سياسة «إسبانية» مناهضة لتلك التي اتخذها أمراء الطوائف من البربر.



حاول المؤرخون العرب تفسير أسباب انهيار الخلافة الأموية في إسبانيا، في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، وقيام أسرات صغيرة حاكمة على أنقاضها. وقد اكتفى البعض بالموازنة بين وضع

^(٣٠) البيان المغرب ٢٢١/٣.

^(٣١) للمعجب ١١٤، وترجمة فينان له إلى الفرنسية ص ١٥٢ وقد أخذت الكراهية بين البربر والأندلسيين قويا بعد طلبة أديبا خلاصا. وهي التي ألفت ابن حديد المغربي والشنقي في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، ومطلع الثالث عشر، أن يكتب رسائلها في فضائل أهل الأندلس. انظر: نوح ١٧٩/٣ - ٢٢٤، وقد ترجم غريسيه غومت رسالة الشنقي إلى الإسبانية عام ١٩٣٤. أما رسالة ابن حزم، أبو محمد الظاهري، وأبو الغيرة الوزير، فقد جاءتا كلتاهما في الحقيقة ردا على معاوية ابن الربيب التميمي القيرواني للأندلسيين «لتقصيرهم في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم». وقد أورد المغربي في نفع الطليح ١٥٦/٣ - ١٧٩ رسالة أبي محمد بن حزم كاملة، ولم يبق من رسالة الثاني إلا فقرات في الذخيرة ١٣٣/١ - ١٣٥. وكان ابن الربيب قد وجد رسالته إلى أبي الغيرة وليس إلى أبي محمد، انظر: نوح ١٥٦/٣.

في القرون التالية وحتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ م. فإن كتاب الغرب لإسلامي يطلقون على مسلمي إسبانيا اسم الإشبانيين أو الأندلسيين. وأحدهم كان يطلق على جيش بني نصر ملوك غرناطة، وكان يتألف من صنفين: أندلسيين (أو إشبانيين) وبربر، انظر: ابن الخطيب، اللوحة البهية ٢٧.

^(٣٢) ليفي بروفسال، إسبانيا الإسلامية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، ص ١٩ - ٢٠.

الممالك الأسبانية الصغيرة ووضع ملوك الطوائف في قارص يعد موت دارابن دارا، يقول المراكشي: «ولم يزالوا كذلك، وأحوال الأندلس تضعف، وثغورها تختل، ومجاورها من الروم تشد أطعماهم، ويقوى تشوفهم»^(٣٣).

هذا التطابق الذي فرض نفسه على فكر المؤرخين الذين ذكرواها حتى أنهم لم يجدوا تعبيراً آخر أكثر ملاءمة من قولهم «ملوك الطوائف»، ليشيروا به إلى كل هؤلاء الملوك الصغار الذين تقاسموا الدولة الإسبانية بعد فترة من الاضطرابات استمرت ما يقرب من أربعين عاماً، ألا يستحق أن نتوقف عنده؟ أين نجد في هذه الإمبراطورية الفارسية التي تناثرت إلى إمارات صغيرة يقوم على كل منها «مرزبان»، ما يعادل هذا الجنس الإسباني في تكوينه، وهو يسلك وجهة مناهضة للأجانب^(٣٤) بالنسبة لنا، نحن الأوروبيين، فإن تعبير الطوائف أو ترجمته الإسبانية ليس له من قيمة، إلا إذا أردنا أن نعطي معنى «ملوك الأحزاب».

لقد حاول ابن سعيد المغربي المتوفى عام ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م، أن يبرئ وطنه من التهمة التي وجهها إليه الرحالة الجغرافي ابن حوقل في القرن العاشر الميلادي^(٣٥)، فقد عجب من بقاء هذه الجزيرة «على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الانجاد والأبطال»^(٣٥).

ويصرح ابن الوطواط، محمد بن إبراهيم بن يحيى الكندي، المتوفى عام ٧١٨ هـ = ١٣١٨ م، في كتابه «مناهج الفكر» بأن «شبه الجزيرة لم يتوقف عن الحياة في نظام، مقدما لعاهله طائت عليها الحب حتى يومنا هذا، رغم أن الإغراق في الرفاهية يفتح أمام سكانها سبل التمرد وبلقاف»^(٣٦).

وعندما درس ابن خلدون، المتوفى عام ٨٠٨ هـ = ١٤٠٦ م، ترتيب القتل العربية والإمبراطوريات الإسلامية، حاول أن يوضح سبب ما دعا «سقوط الأسرة الأموية في الأندلس» يقول:

«لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها، واقتسموا خطتها، وتنافسوا بينهم، وتوزعوا ممالك الدولة، وانترى كل واحد منهم على ما كان في ولايته، وشمخ بأنفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية، فتلقيوا بألقاب الملك، ولبسوا شوارته، وأمنوا بمن ينقض ذلك عليهم أو يغيره، لأن الأندلس ليس عصائب ولا قبائل... فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين، والطراء على الأندلس، من أهل الأندلس من قبائل البربر وزناتة وغيرهم، اقتداء بالدولة في آخر أمرها، في الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية العرب، واستبد ابن أبي عامر على الدولة، فكان لهم دول عظيمة، استبدت كل واحدة منها بجانب من الأندلس، وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها،

(٣٣) المعجب ٩٣، وترجمة فينان له ص ٧٨. وانظر أيضاً: أبو لفدا، المختصر في تاريخ البشر ٤٦/١، طبعة القاهرة ١٣٢٥ هـ.

(٣٤) انظر: نفح ٢١١/١ وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٢٥ - ١٢٦، وص ٤٨ فيها سيأتي من هذا الكتاب.

(٣٥) نفح ٢١١/١.

(٣٦) انظر: فينان، مقتطفات غير مشورة تحصل بتاريخ المغرب ص ٦٦.

● وقد ترجمت النص عن ترجمته الفرنسية لأنني لم أعتد إلى مكان مخطوطة مناهج الفكر (الترجم).

ولم يزالوا في سلطانهم ذاك حتى جاز إليهم البحر الماريطون، أهل العصبة القوية من لتونة، فاستبدلوا بهم، وأزالوهم عن مراكزهم، وسحوا آثارهم، ولم يقدروا على مدافعتهم لفقدان العصبة لديهم»^(٣٧).

وفيما يبدو لنا لم يبعد ابن خلدون عن الحقيقة عندما تحدث عن التغيير العميق الذي أصاب أسلوب حياة المسلمين الإسبان، وضعف روح العصبة عند القبائل العربية. ولكن القول بأن «روح العصبة قد انقطعت عن الوجود في إسبانيا» ينفي وجود حزب أندلسي، أو إسباني، وقد أظهرنا فيما سبق قوته النضالية التي أظهرها في كفاحه ضد البربر.

وفي القرن الحادي عشر ظهرت في إسبانيا عصبة جديدة، أو بتعبير أفضل روح جديد من التضامن القومي، يرجع إلى التحام العناصر الأصلية، وقد برزت في القرن العاشر، وأكدت وجودها في عصر المنصور بخاصة، وانتضحت نتائجها على نحو ملموس في مطلع القرن الحادي عشر^(٣٨).

عندما تحرك المهدي للالقاء أعدائه في موقعة قنتيش لم يكن يعتمد في جيشه على الفقهاء والبرجوازيين فحسب، وإنما تضمن أيضا طوائف من العنازيرين والجزائريين والفحامين والزبائين. ومن سائر غوغاء الأسواق^(٣٩). وإذا كان قد هُزم فلأن جيشا وطنيا، مهما كانت مشاعره الوطنية، لا يستطيع أن يقاتل المرتزقة، والجنود النظاميين، إلا إذا كان مدربا، في الأقل، على استخدام الأسلحة في أبسط حالاتها، وعلى فن الحرب، وبقيادة ضباط مجربين.

ونجد الاهتمام نفسه من الاعتماد على كل قوات المملكة عند أبي القاسم محمد بن عبادة، وابنه المعتضد من بعده، ولو أنها لم يهمل الاستعانة بجنود من المرتزقة أيضا^(٤٠).

ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن أحد المؤرخين حاول وصف المجتمع في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي فقسمه إلى طبقات، لا تنعكس العناصر السلافية فيها أي دور مهم^(٤١). ومن الملاحظ أنه في

(٣٧) مقدمة ابن خلدون، ط كاتر مير ٢٨٠/١، ترجمة دي سلان ٣٢٠/١، طبعة الدكتور عبد الواحد والي ٤٦٣/٢، القاهرة ١٣٧٨ - ١٩٥٨.

(٣٨) ابن حزم، في: ابن هذيل، تحفة الأنفس ص ١٩٩، طبعة جيريل فران، باريس ١٩٢٥، وفي رليشي بروغنتال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي، ص ١٣٤ هامش رقم ٣.

(٣٩) ابن الرقيق في نفع الطيب ٤٢٦/١، والبيان المغرب ٥٩/٣ - ٧٤، وتاريخ مسمى إسبانيا ٢٨٥/٢ - ٢٨٧، ٢٩٥. والذخيرة ٤٣/١، ويقول «وزي في تاريخ مسلمي إسبانيا: «كان كبار قواد هذا الجيش رجال من العامة أو الطبقة الوسطى، أطباء ونساجين وجزائريين وسرايين، وبدد إسبانيا الإسلامية بلدا ديمقراطيا لأول مرة في تاريخها، لقد أفلتت السلطة من يد العائرين ومن طبقة الخاصة على السواء».

(٤٠) الذخيرة ٢٣/٢، وعن ابن حزم «بنو عبادة» ٢٢١/١، ونص العبارة: «أقبل القاضي أبو القاسم أول وقته يتم الرجال الأحرار من كل صنف»، البيان المغرب ٢٠٥/٣، وأعمال الأعلام ١٥٣، والذخيرة ٤١/٢، وعن ابن حزم «بنو عبادة» ٢٤٣/١، ونص العبارة فيها: «أقنى المعتضد الفلماني، وتخذ الرجال، وانتقاهم من كل قرقة».

(٤١) يقول لسان الدين بن الخطيب:

«وكان الناس يؤمنون - بل وفي كل زمان - أنه:

«قصف به الدنيا التي بناها بسبب أولاد، هبة بالفا أو مراقتا أو طفا في المهد أو جنينا في المشيمة، وهم صناع الحكم وخدامه، وعماله وفتياته ورجاله».

«وصنف مرتق من الدبوان، مشهور العناية والمكان، أو مجبهور الشأن، راض بحظه من الزمان، لا ينشوق إلى المزيد، ولا ينجز من التفتان».

المجموعة التي يراها المؤلف «أشرف أوطانا، وأعظم سلطانا، وأوفر أعلاما، وأغنى إسلاما» يوجد «الأعاجم التي تخاطب بالترجمان»، أي المستعربين المسيحيين.

نستطيع دون تعسف إذن أن نتكلم عن شعب «أندلسي»، وأن نبحث بين مؤلفات من كتبوا بالعربية من الإسبان لكي نستخلص خصائصه العامة.

يرى ابن حزم أنه يستطيع أن يؤكد الواقع بطريقة أفضل حين يقوم بموازنا بين الأندلس وبقية شعوب الأرض، يقول: «إن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية، وإحكام المهن الصورية، تركيون في معاناة الحروب، ومعالجة آلتها، والنظر في مهماتها»^(٤٢).

وابن غالب، وهو عالم أندلسي بالأنساب، ومن رجال القرن الخامس الهجري، الثاني عشر الميلادي^(٤٣)، استخدم المقارنات أيضا، واهتم بها أكثر، لوصف الفروق الدقيقة التي تميز على نحو أفضل خصائص تركيبة العناصر المتداخلة، التي يتكون منها الشعب الأندلسي فيما يرى: «أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة، وعلو الهمة، وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل، والسماحة بما في أيديهم، والنزاهة عن الخنوع وإتيان الدنية هندیون في إقراط عنايتهم بالعلوم، وحبهم فيها، وضبطهم لها وروايتهم، بفداديون في ظرفهم ونظافتهم، ورقة أخلاقهم، ونباهتهم وذكائهم، وحسن نظرهم، وجودة قرائحهم، ولطافة أذهانهم، وحدة أفتكارهم، ونفوذ غواطهم، ويونانيون في استنبطهم للمياه، ومعاناتهم لضروب الغراسات، واختيارهم لأجناس الفواكه، وتديبرهم لتركيب الشجر، وتحسينهم البساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر فهم أحكم لباس لأسباب الفلاحة»^(٤٤).

«وصنف يؤمل أمرا، ويسبب ردا حرا» رجو من القرابة الراجعة لهذا رجلا، ويستحق بأسف لما خرج عن يده، أو يعتقد الظلم ممن عدل عنه إل محل ولده... وهذا نصف المنازع الناس بين أن يصت فهموت بداهة، أو يجر بالمانزعة ينهي إلى قدراته رقتاه، وكان في ذلك الوقت أخضع الأصناف...

«وصنف من أهل الدنيا والآخرة، فلبوا أهل الحل والعقد والقبول والرد اجتثاثهم... واعتبروا بين رأس الأمة مسلمة في أصهات البلدان من الفتيان والظلمان، والطواشي والخصيان، والأعجام التي تخاطب بالترجمان، والصبية والنسوان، وهم أشرف أوطانا، وأعظم سلطانا، وأوفر أعلاما، وأغنى إسلاما... وهم جمهور الناس من الفقهاء والعلماء والخاصة والدماء...

«وصنف غارم، لا هم له إلا قيمين يحقق أسرهم، أو يديل باليسر عسرهم، وأما هؤلاء فأولئك أسواق، وحكي رهم من أخلاق...» «وصنف ضمة الآخرة، بعيد من تعريج على شيء من الدنيا، لا يتكلم في مثل هذا، ولا يتكلم معه، ولا يتفق فيه بابا، إنما هو مشغول بربه خاصة، وهذا جيل قليل، وإنما ذكر مراعاة للتقسيم، ولا تفلو الأقطار منهم، فهم بركات الله بين عباده وأوليائه منهم»، أعمال الأعلام ٤٤ - ٤٨، وكتبها بمناسبة حديثه عن هشام المؤيد بن الحكم الثاني.

(٤٢) ابن حزم، رسالة في فضل الأندلس، نفع ١٥١/٢، وأبو حامد القرطابي، تحفة الأحباب، طبعة نران، في المجلة الأسبورية عام ١٩٢٥، المجلد ٢٠٧ ص ٢٠٠، والنويري، نهاية الأرب ٣٤٥/١، ولبر تشوندي وسيمونيت، منشورات ٢٥، وانظر فيها بعد ص ٢٩٤ من هذا الكتاب.

(٤٣) نفع ٢٨٦/٢.

(٤٤) ابن غالب، فرحة الأنفس، في نفع ١٥٠/٢، وهذه المقارنات منسوبة لابن حزم في: أبو حامد القرطابي، تحفة الأحباب، في المجلة الأسبورية، المجلد ٢٠٧ ص ٢٠٠، والنويري نهاية الأرب ٣٤٥/١، وفي نفع الطيب ٢٤٤/١: «قيل إن الحكماء نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض: أمة اليرقان، وأيدي أهل الصين، وألسنة العرب»، وهو منقول عن: ابن خلكان، وفیات الأعيان ١٣٦/٢، طبعة القاهرة، وفي ترجمة دي سلان ٤٧٧/٣، ويرد في الحافظ هؤلاء الشياطين رعاة الشعوب، وبينهم إذا حدثنا أفلاطون، رجل الذي رزح الشعوب عند بدء العالم في القبايات مختلفة، انظر: Lc Timee et les Lois.

ولكن هذه المقارنات ليست كافية فيما يرى ابن غالب، لكي تتعمق بقدر وافٍ في وصف نفسية الأندلسي، فهو يغادر الأرض، ويحلّق عالياً في السماء، ويذكر بعد أن أتى على الأندلس وأهلها «أن بطليموس جعل لهم - من أجل ولاية الزهرة لبلادهم - حُسن الهمة في الملبس والمطعم، والنظافة والطهارة، والمحبة للهو والغناء، وتوليد اللحون، ومن أجل ولاية عطار حُسن التدبير، والحرص على طلب العلم، وحُب الحكمة والفلسفة والعدل والإنصاف»^(٤٥).

وهذه صفوة المواهب التي تمنّاها الشعوب في حرص، وليس ثمة شك أن الإسبان المسلمين تمتعوا بصفات تعود إلى ديو نيسموس يمثل ما تعود إلى أوبرلو، فكانوا فنّانين وأظهروا عبقرية فذة في مجال الفنون والآداب، وثقافة عريضة في مجال الفقه والعلوم.

غير أن استخدام النجوم، والمقارنة بالأُمم الأخرى، إذا كان قد أيقظ بعض الأفكار المحدّدة عن ملامح الأندلسي، فإنه لم يستطع أن يحددها على نحو دقيق. ونشعر بقوة أن اللبّة يمكن أن تمتدّ إلا ما لانهاية، لأنها ترتبط بعلم البلاغة أكثر مما ترتبط بعلم الاجتماع^(٤٦)، ومن ثمّ ليس صعباً أن نجد في الأدب العربي أمثلة ومناذج لهذا الفن الخطابي^(٤٧). ولا مفر من الاعتقاد بأن هذه المرافعات الجميلة الزائفة أمتعت كسرى ملك فارس عندما سمعها من أقواه سفراء دول الأرض المختلفة^(٤٨)، ودون شك ليس مستحيلاً أن تبرهن على أن الجاحظ في رسائله أمّد المؤلفين الإسبان بعدديد من هذه الأفكار^(٤٩).

يقول المقرئ: «ولأهل الأندلس دُعابة وحلاوة في محاوراتهم، وأجوبة بديهة مسكتة، والظرف فيهم والأدب كالغريزة، حتى في صيانتهم ويهودهم، فضلاً عن علمائهم وأكابرهم»^(٥٠).

عبثاً نبحث، دون أدنى شك، عن تحديد خصائص المسلم الإسباني في القرن الحادي عشر الميلادي في عدد من الكلمات، ولكن ليس كل ما في الصور التي سبقت مستبعداً أو مردوداً، لأنها تثبت في كل الأحوال أن الأندلسي لم يكن عربياً خالصاً حتى في أعين الكتاب المسلمين، إنه عربي وشيء أكثر من هذا، يبحث عنه علماء النفس، والباحثون الاجتماعيون، في مكان آخر وبعيد جداً، بين الهنود واليونانيين والصينيين والآثراك، وعندما تطوله أيديهم يبرز أمام أعينهم: الإسباني المسلم، مزيجاً من العربي والإيبيري والقوطي والبربري والفارسي (من بغداد) والصقلي، إنه مزيج معطوظ من الساميين والآريين.

(٤٥) ابن غالب، فرحة الأندلس، في نفع ١٥٠/٢، وانظر المقدمة التي كتبها ديخا باللغة الفرنسية للطبعة الأوربية لنفع الطب ٧٢/١.

(٤٦) يمكن أن نجد الشيء نفسه عند المؤلفين الذين وصفوا إسبانيا، انظر فيما بعد ص ١٠٦ من هذا الكتاب.
(٤٧) يتحدث بول موران في كتابه «لا شيء غير الأرض» عن أميركا فيقول: «أصفياء في قلوبهم، صقالية في إدراكهم، يوفون في عضلاتهم» طبعة مكتبة بلون دليليه ص ٢٢.

(٤٨) ابن حيد ربه، العقد الفريد ١٢٤/١ - ١٣٦.

(٤٩) انظر الجاحظ، مجموعة رسائل ٨١/٢ طبعة القاهرة، وطبعة فلن فلوطن ٨٥/١.

(٥٠) نفع ٣٨١/٢، وتلاحظ هنا إشارته إلى اليهود ويبراهم المؤرخون جزءاً من الشعب الأندلسي، على قدم المساواة مع بقية المسلمين من أمّ جنس.

وعندما ندرس الأدب الإبداعى للشعب الأندلسى سوف نلمس فى وضوح أن شعره أدق تعبيراً عن خصائصه، ويجب ألا نفكر دوماً فى الأصول التسمية لمن يعبر عنهم، وألا ننسى أبداً أن الشعب الإشباني المسلم فى القرن الحادى عشر الميلادى لم يكن غير امتداد للشعب الأصلى القديم، والناقد الذى لا يود أن يرى فى الشعر الإشباني إلا ظلال الأدب العربى فى المشرق يخاطر بأنه لن يواجه إلا بجانب الأقل أهمية فى هذا الشعر.

البَابُ الأولُ

○ الشاعر:

- تكوينه وظروفه الاجتماعية.
- الموضوعات الشعرية التي انبثقت في حياة البلاط.

○ الفصل الأول:

مناهج نشر اللغة العربية بين الإسبان المسلمين

إذا كان الأندلسيون قد نزعوا شيئاً فشيئاً إلى تميزهم في صفاتهم العنصرية عن المسلمين الآخرين، بما فيهم المغاربة، فقد ظلوا مع ذلك شرقيين بمعنى لا استخدامهم اللغة العربية بعمامة.

صحيح أنهم في حياتهم اليومية، وأحاديثهم الودود، كانوا يستطيعون أن يستخدموا العامية العربية، أو البربرية، أو اللغة الرومانشية، ولكن في العلاقات الرسمية، والمراسلات الإدارية، كان عليهم أن يستخدموا اللغة العربية الفصحى. فرجال الدولة من الأسرة الحاكمة، والولاة، والقواد، وغيرهم، يرونها مسألة نخوة أن يكتبوا بأسلوب مرض. على حين كان مطلوباً من القضاة والوزراء والكتاب أن يكونوا متمكنين منها بمعنى، وأن يستخدموها في دقة متناهية. وكان أشباه الخلفاء في فترة «الفتنة»، مثلهم في ذلك صفار الملوك في عصر الطوائف، ثم المرابطون من بعد، يحيطون أنفسهم بكتاب قادرين على تحرير الرسائل الرسمية في لغة دقيقة مصقولة، كذلك التي شهر بها ابن العميد والصاحب بن عباد في المشرق. ومن المنير أن نلاحظ أن التنافس بين الأسر الحاكمة لا يقتصر على المجال السياسي فحسب، وإنما تحاول كل أسرة أن تتفوق على جيرانها ومنافسها باختيار كتابها من بين الأدباء الأوسع شهرة، والأكثر تفوقاً على زملائهم في البلاطات الأخرى، والأقدر على استعمال الكلمات القديمة المهجورة، وقد حاول المعتمد بن عباد أن يعقد صداقة مع الكاتب أبي الأصبغ عبد العزيز بن الأرقم، وزير المعتصم بن صمادح صاحب المرية، وأن يستيقه عنده، وكان قد وفد على إشبيلية سفيراً للمعتصم، ولكن الوزير رفض في أدب وفاء لأمره، «فاستحسن ذلك ابن عباد منه، وقال له: فاكم على»، فلما رجع إلى المرية قص في صراحة رائعة المحاولة التي تعرض لها^(١).

وفي فصل أورده، لمقرى في «نفع الطيب» نجد كيف كان الناس ينتظرون باحتقار إلى الحكام الذين يرضون بأن يكون كتابهم يكادون يكونون مبتدئين^(٢). وكل الروايات التي تتحدث عن الوزراء الكتاب، وعن أمرائهم، تحاول أن تظهر أن تمكّنهم من اللغة العربية الفصحى يعود إلى متطلبات الوظائف التي يتولونها، وأيضاً نتيجة تذوق حقيقي للثقافة الأدبية.

وازدهار الأدب الذي ميز القرن الحادى عشر الميلادى لا يعود كثيراً إلى الرعاية والحرية التي أضفاها صفار الملوك هؤلاء على كل المظاهر الثقافية بما فيها الفلسفة فحسب، وإنما يرجع إلى طريقة تعليم اللغة العربية الفصحى التي جرى عليها العمل في إسبانيا، وسنرى فيما بعد مدى الصعوبات التي عاناها الشعراء، رغم أنهم كانوا يبذلون الأطفال المدللين في هذه البلاطات الصغيرة.

ولدينا معلومات كافية، ودقيقة، عن المناهج التربوية التي كان يجري العمل عليها في إسبانيا الإسلامية في القرن الحادى عشر الميلادى، ويكفى أن نجمل الإشارات التي قدمها لنا المؤرخون

(١) نفع ٤٩٨/٢.

(٢) نفع ٥٦٠/٣.

العرب، ومدونو السِّير والتراجم عن حياة هذا الشخص أو ذلك، فهم يؤكدون بخاصة على دراساته في مرحلة الصبا والمراهقة، وغالباً حتى في سن النضج العقلي. ويجب أن نضم إلى هذه المعلومات المتفرقة الفصل الخاص الذى أوقفه ابن خلدون في مقدمته على التعليم الإسلامى بعامته، وعن طريقه المطبقة في المغرب وفى إسبانيا بخاصة، وإذا كانت أخباره لا تُحدّد عصراً معيناً طُبِّقت فيه، فهى على الأقل تنقل لنا آراء أبى بكر بن العربي، (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ - ١٠٧٦ - ١١٤٨ م)، في التريية ورأيه عنها، وبخاصة في عصرى ملوك الطوائف والمرايطين. يقول:

«ولقد ذهب القاضى أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجده التعيم، وعاد في ذلك وأيداً، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم، كما هو مذهب أهل الأندلس. قال: لأن الشعر ديوان العرب، ويدعو على تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة. ثم ينتقل منه إلى الحساب فيشعر فيه حتى يرى القوانين، ثم ينتقل إلى تَرْس القرآن، فإنه يثبس عليك بهذه المقدمة»^(٣).

وهكذا نجد أن نظام الإسبان المسلمين في التربية يختلف تماماً عما كان عليه الحال في المشرق والمغرب. أليس منطقيّاً إذن أن نحاول ردّ هذا المفهوم العقلي للتربية والتعليم إلى تأثير الجنس الذى تكوّن في إسبانيا من انصهار العناصر المختلفة، والتي يغلب بينها العنصر الأيبيري الرومانى؟. فبينما تحمّل الاهتمامات الدينية والأخلاقيّة المكان الأول في أى مكان آخر من العالم الإسلامى كله، وتصبح العلوم العقلية مكّملة للعلوم النقلية وفى خدمتها، نزعوا هنا في إسبانيا القرن الحادى عشر الميلادى إلى إعطاء المكان الأول للعلوم الثانوية، أو التى تدعى عقلية، دون أن نستبعد منهجياً فروع المعرفة التى أساسها القرآن والسنة النبوية الصحيحة، فهم يفكرون في الإنسان قبل الدين، وتهدف التربية إلى تنمية كل القدرات على نحو منسجم، نتيجة الاستبطان الداخلى الذى أشاعه المجتهدون في مجال الدراسات الدينية، والذى أدّى إلى هذين الأمرين من التطرّف، ولا تنقصهما في الحقيقة نقط التلاقى، التصوف من جانب، والنزعة الإنسانية من الجانب الآخر.

والحق أن القرن الحادى عشر في إسبانيا بدأ والنزعة الإنسانية، أو المذهب الإنسانى إذا شئت الدقة، مزعزع في غايته، ولكنه محكم في مناهجه، وسجّل أهم حدث في التاريخ الفكرى للغرب الإسبانى الإسلامى. أكان ذلك عودة للفكر القديم، وقد واصل سيره متخفياً في روح الإسبان، ولم يؤثر فيها العنصر العربى كثيراً، أم كان ظهوراً عفويّاً جاء ليعبر عن الرغبات العميقة لهذا الجنس؟. لا أحد يعرف، ومن الجائز أن نجد في ذلك تأثيراً واضحاً للروح اليهودى المسيحى، وللфكر اليونانى، ويدفعنا إلى هذا الفيلسوف الإسبانى (ابن مَسْرّة، من القرن الحادى عشر الميلادى، ويقدم لنا أساساً معقولة^(٤).

(٣) ابن خلدون، المقدمة، طبعة كارنم ٢٦٣/٣، التجاريد بالقاهرة ٥٢٩، وترجمة دى سلان ٨٩/٢. وفيما يبدو طبق الأندلسيون نصيحة عبد الحميد الكاتب، المتوفى ١٢٢ هـ = ٧٥٠ م إلى الكتاب في رسالته الشهيرة: «... فتناقصوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب، وتفقهاوا في الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل، والقرائن، ثم العربية فالتبا ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارادوا الأسماء واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين على ما تسو إليه همكم». ابن خلدون، المقدمة، كارنمير ٢٦٦/٢، ورجمة دى سلان ٢٠/٢، وطبعة القاهرة ٢٤٨، وأحمد فريد رفاعة، عصر المأمون ٥٤/٢. (٤) عن ابن مسرة انظر: أسبى بلائوس، ابن مسرة ومنهجه: أصول الفلسفة الإسبانية الإسلامية، ودائرة المعارف الإسلامية، الملحق ص ٩٩ - ١٠١، وكتب المادة بلائوس أيضاً، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٢٧ - ١٢٨ و ٢٧٧.

وعلى كل حال لا يبدو أن هذه النزعة الإنسانية الثقافية نتيجة الفكر الإسلامى، وبخاصة في الغرب، وعندما يقول علماء النفس الإسبان الذين كتبوا في اللغة العربية، إن الأندلس يملك العقل اليوناني إلى جانب اللغة العربية لم يكن يدور بخلدكم أن من الأوفق القول بأنه العقل الإغريقي الروماني، ليصبح أكثر إقناعاً. وعيناً نبهت في أدب المشرق العربي عن فكرة إنسانية واحدة كذلك التي عبر عنها الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن، المتوفى عام ٣٧٩ هـ = ٩٨٩ م، وهو شاعر ونحوي إسباني، وكان مؤدب الحكم الثاني:

والأرضُ شيءُ كُلُّها واحدٌ والناسُ إخوانٌ وجيرانٌ^(٥)

وهذه الفكرة نفسها نجدها عند تيرنس، وهو كاتب لاتيني من القرن الثاني قبل الميلاد، فهو يقول في بيت له:

«كل ما هو إنساني ليس غريباً عني»^(٦)

ونحن نذكر تماماً، في سهولة، أن التعليم في إسبانيا الإسلامية أفسح منذ البدء مكاناً لنوع من العلوم الإنسانية، تعين على تكوين روح إنساني في نفوس الشباب، وهم في أول سنى حياتهم، فهم يدرسون أولاً الشعر الجاهل، وشعر صدر الإسلام من العصور القديمة، ثم يواصلون دراسة المحدثين، أى الشعراء والأدباء في العصر العباسي.

ولم تكن الدولة تنفق على التعليم، وليست لها أية صلة بمنهاجه^(٧)، وكان منتشراً في كل مكان، فالضياع والقرى بها مدارس ابتدائية، والمراكز الهامة بها مدارس ابتدائية وثانوية. أما المدن الكبرى مثل إشبيلية وقرطبة وطليطلة وسرقسطة فكانت تضم كل أنواع التعليم: الابتدائي والثانوي والعالى، ولم تكن ثمة خطوط فاصلة واضحة، غالباً، بين التعليم الثانوي والعالى، وكل شيء فيه يتوقف على الأساتذة الذين يضطلعون به. وفي البدء لم يكن المدرسون يتقاضون أجراً، وإنما يتلقون، غالباً، إعانات مالية وعينية يدفعها لهم الحاكم أو الأمير، ولم تكن بذات أهمية عموماً^(٨).

وفيما يتصل بالجامعات لم تعرف إسبانيا شيئاً من نوع المدرسة النظامية التي أنشئت في بغداد عام

(٥) من السريع، نفع ٧٤/٣، والمقدمة التي كتبها ديما للطبعة الأروبية من النفع ١٧/١. و L. Ecker, Arabischer... Minocsang, 224 وسوف يعبر أبو الصلت الداني، المتوفى ٥٢٩ هـ = ١١٣٤ م عن الفكرة نفسها في بيت من بحر الطويل: إذا كان أصل من تراب فكُلها بِلادى وكلّ الحمالين أقاربى انظره نفع ١٠١/٢، وينسب هذا البيت أيضاً لأبي العرب الصقلي في نفع ٥٧٠/٣.

(٦) Terence, Héautontimorouénos, acte I, vers 25

● تيرنس، ١٨٥ - ١٥٩ ق. م، كاتب لاتيني، ولد في قرطاج، وبيع رقيقاً وهو صغير إلى عضو في مجلس التبرخ الروماني، فأعطاه اسمه، وتربى مصقولاً، ولحريّة، وكان من عطاء كتاب المسرح، ومات غريقاً وهو عائد من بلاد اليونان (المترجم). (٧) خوليان ريمبره نهد ومقالات ٢٥٠/١.

● وقد ترجمت كل دراساته عن التربية في إسبانيا الإسلامية، وصدرت عن دار المعارف عام ١٩٨٠ فصل عنزان، التربية الإسلامية في الأندلس. (المترجم).

(٨) فيها بعد، سوف نشر في ص ٢٨٢ من هذا الكتاب إلى المدرس الذى سأل حسام الدولة بن رزيق أن يؤم الناس للصلاة في مسجدتين مختلفتين وأن يعلم الأطفال.

١٠٦٥ م^(١). وكانت قرطبة مركزاً للدراسات العالية خلال العصر الأموي، على امتداد القرن العاشر الميلادي، ولكنها فقدت أهميتها في القرن التالي له، لأن انتشار الخلاف، وتوزيعها إلى دويلات صغيرة أدى إلى لون من لا مركزية الحياة الثقافية.

صحيح أن صفار الملوك في هذا القرن الحادي عشر اهتموا بتشجيع الدراسات الأدبية، ولكن ليس من المؤكد أنهم اضطلوا بدفع رواتب للمدرسين ليقوموا بتعليم أبناء الفقراء مجاناً على نحو ما فعل الحكم الثاني^(١٠). وكان الوصول إلى أعلى المراتب يتم اعتماداً على القدرات الشخصية وحدها، فأدى هذا إلى إثارة روح المنافسة بين الريفيين وسكان المدن، ومستوى في ذلك أبناء الحرفيين وأبناء كبار رجال الدولة، كلهم يحاول أن يتمكن في دروسه، وأن يبلغ بدراسته أقصى ما يستطيع، ولم تكن ثمة عقبات تقف في طريقه، لأن الإجازة، أو الشهادة إن شئت، ليست في الحقيقة إلا احتراماً بالمتابعة والاجتهاد، ويستطيع الدارسون، أو الرجال الناضجون، أن يحصلوا عليها بسهولة، في عالم يتمتع فيه الناس عادة بدواكر ممتازة. وكان لجزاء الحقيقي ينتظر المرء في المجتمعات الأدبية؛ إما سخرية تأتي على ما يتمتع به من شهرة واسعة، أو إعجاباً يرائم ما يتمتع به من عمق وموهبة.

(٩) بعد ذلك بكثير، في القرن الثالث عشر الميلادي، شهدت مدينة مرسية أول جامعة أنشئت في العصر الوسيط، أنشأها ملك صيحي، ألفونسو العاشر الملقب بالعالم، واستبح الدروس فيها عالم مسلم هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر الرقوطي المرسي، وكان جمهور المترجمين على المحاضرات يتكون من مسلمين ومسيحيين ويهود. انظر: تقع ١٢٠/٤، وريبر، نبذ ومقالات ١/٦٨، والمجلس ١ و ٢، وأنجل جورتالث بالنيابة تاريخ إسبانيا.

(١٠) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط١، ج٣، ص ٢٠٩، وط٢، ج٢، ص ١٨٤-١٨٥ (نقلاً عن البيان المغرب، ج٢، ص ٢٩٦-٢٩٧).

○ الفصل الثاني:

المواد والمؤلفات التي كانت تدرس في القرن الحادى عشر

كانت دراسة الآداب القديمة في القرن الحادى عشر الميلادى تهدف إلى تكوين رجال أدب أكثر وأفضل، مما هم رجال قانون، ولقد رأينا، طبقاً لابن العربي، أن دراسة الشعر الجاهلى، وفي صدر الإسلام، كانت تحظى بأهمية كبرى، يعرفه الصبيان قبل أن يقرأوا أو يحفظوا القرآن الكريم. ومنطقى إذن أن نعتقد أن الأندلسى حتى سن العشرين كان يهتم بالثقافة العامة، وعندما يبلغ سن النضج فحسب يتخصص في العلوم الإسلامية، من تفسير القرآن، والسنة النبوية، وغيرها. مع الاحتفاظ دائماً بشيء من تكوينه الأول، ويتمثل في تنوُّق الشعر والنثر الفنى.

وقد ترك لنا أبو بكر بن خير، وهو مؤلف من القرن الثانى عشر الميلادى، (٥٠٢ - ٥٧٥ هـ = ١١٠٨ - ١١٧٩ م)، وعاصر أبا بكر بن العربي في النصف الثانى من حياته، وثيقة عظيمة الأهمية عن نوع الدراسات التى كانت تتم على أيامه في إسبانيا، وهى: «فهرسة ابن خير فيما روه عن شيوخه»^(١). وهى وإن كانت متأخرة بعض الشيء، تراها صالحة تماماً للدلالة على العصر الذى ندرسه. ألا يتنمى أساتذة ابن خير إلى الجيل الذى ازدهر في النصف الثانى من القرن الحادى عشر، حين كان ملوك الطوائف في قمة توهجهم؟ نعم، يمكن القول في أبعد الأحوال أن المرابطين أحدثوا ردّ فعل دبقى أدى إلى عودة مُتَهمة إلى العلوم الدينية، ونلمح صداها واضحاً في كتاب ابن خير، حين أفسح بين صفحات كتابه مكاناً أكثر اتساعاً للمؤلفات التقليدية.

ولكن القائمة المخصصة للمؤلفات الأدبية تعبرَ بدقة كافية عن الدراسات الأعظم قيمة في القرن الحادى عشر. وفي البداية يجب أن نلاحظ أنه لا يوجد مؤلف يعود إلى ما قبل عام ١٠٥٠، وأقدم هذه الأعمال «زهر الآداب» للحصرى القيروانى المتوفى عام ٤٥٣ هـ = ١٠٦١ م، «وسقط الزند» وشرحه «ضوء سقط الزند» و«اللزوميات»، وكلها لأبى العلاء المعرى المتوفى عام ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م.

وسنقف عند كتاب ابن خير فحسب، لأنه الوحيد الذى يدنا بمعلومات عن التكوين الأدبى لشعر عصر ملوك الطوائف.

يمكن تقسيم هذه المؤلفات المختلفة إلى منتخبات ودواوين مستقلة خالصة أو مع شرح لها، وطبقات الشعراء، وكتب الأدب الشاملة، والدراسات النحوية، والنوادر اللغوية.

(١) طبعة كوديرا وريبير، في المكتبة العربية، الجلدان ١٠٠٩، مسرقة ١٨٩٤ - ١٨٩٥ م.

● أهم كتب المنتخبات القديمة ما يلي:

- ١ - القصائد التسع الجاهليات، وهي التي يُطلق عليها اسم المعلقات، بشرح ابن النحاس النحوي، المتوفى عام ٣٣٧ هـ = ١٩٤٨ م^(٢).
- ٢ - المفضليات والأصعيات، وهي مختارات من الشعر، الأولى من عمل المفضل لضبي المتوفى عام ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م، والثانية من عمل الأصمعي المتوفى نحو عام ٢١٤ هـ = ٨٢٩ م^(٣).
- ٣ - الحماسة، لأبي تمام المتوفى عام ٢٣١ هـ = ٨٤٦ م، ولها ثلاثة شروح: الأول لابن علي النمرى، والثاني لأبي الحجاج الأعمى الشنمري، وهو من شتمرية الغرب في جنوب غربي إسبانيا، والأخير لأبي بكر بن أيوب^(٤).
- ٤ - أشعار الهذليين^(٥).
- ٥ - كتاب الشعراء الستة^(٦).
- ٦ - النقائض بين جرير والفرزدق^(٧).

● الدواوين المنفصلة الآتية:

- ١ - ديوان ذي الرمة^(٨).
- ٢ - ديوان أعشى بكر^(٩).
- ٣ - ديوان أبي تمام، المتوفى قريبا من عام ٢٣١ هـ = ٨٤٦ م^(١٠).

(٢) نهرسه ابن خير ٣٦٦، وقد تغير عدد المعلقات مع الزمن، كان سبعة عند أبي زيد القرشي المتوفى قريبا من عام ٢٥٠ هـ = ٨٦٤ م، في كتابه «جمهرة أشعار العرب»، ونلاحظ أنه قسّم القصائد الشهيرة إلى سبع طبقات، في كل طبقة تسع قصائد، وفيها بعد كما حدث في إسبانيا في القرن الحادي عشر، أصبحت المعلقات تسعا، وتبلغ العشر في المنتخبات الحديثة.

(٣) ابن خير، ص ٣٩٠.

(٤) ابن خير، ص ٣٨٧ - ٣٨٨. وقد شرحها الأعمى الشنمري شرحا مطولا، ورتب كل باب منها على حروف المعجم، انظر: الصفدي، نكت الهميان ٣٩٤، وألف الشرح للمعتضد بن عباد أمير إشبيلية، انظر: البيان المغرب ٢/٢٨٤، نقلا عن ابن القطان، وألف ابن سينة الداني، وكان كفيفا، شرحا للحماسة أسماء «الأنيق في شرح الحماسة»، انظر، الصفدي نكت الهميان ٢٠٥. وكان أبو الفتوح القرناطي يشرح الحماسة في غرناطة، انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢، ج ٣ ص ٣٩. وجعل منها عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين كتابه المفضل، انظر: المعجب ٢٢٧، وترجمته الفرنسية ١٩٤، ومفاخر البربر ٦٥. وفيها بعد قلد الحماسة كثيرون في الغرب الإسلامي.

(٥) ابن خير ٣٨٩.

(٦) ابن خير ٣٨٨، وقد قام الأعمى الشنمري بشرحها للمعتضد أمير إشبيلية، انظر: البيان المغرب ٢/٢٨٤ نقلا عن ابن القطان.

(٧) ابن خير ٣٨٣.

(٨) ابن خير ٣٩١. وكان أبو المتوكل الحشم بن أحمد يحفظ ديوان ذي الرمة، انظر: نفع ٣/٣٧٨. ويقول أبو بكر بن زهر إن ديوان هذا الشاعر يمثل ثلث اللغة الخطر: ابن دحية، المطرب ٢٠٦. وفيه ذكر الإشارة إلى مَيّ، وهي حبيبة ذي الرمة.

(٩) ابن خير ٣٩١. وديوان الأعشى الكبير وعشى قيس كانا يدرسان أيضا في القرن الحادي عشر، انظر: تلائد العتيان ١٩٨، في أخباره عن ابن السيد البطليوسي.

(١٠) ابن خير ٤٠٢. ونفع ٣/١٣٥ و ١١٢/٤.

- ٤ - ديوان أبي الطيب المتنبي، المتوفى عام ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م، مع شرحه أو بدونه^(١١).
 ٥ - ديوان الصَّوَّبَرِي، المتوفى عام ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م^(١٢).
 ٦ - ديوان أبي العلاء المعري المتوفى عام ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م، المسمى «سَقَطُ الزُّنْد»، وشرحه المسمى «ضوء الزُّنْد» واللزوميات^(١٣).
 ٧ - ديوان أبي العتاهية، المتوفى عام ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م، شعره وحياته^(١٤).
 ● كتب طبقات الشعراء، وهي تتضمن مختارات من أشعارهم، مصحوبة بشرح موجزة، وهي ليست كثيرة:

- ١ - الشعر والشعراء لابن قتيبة، المتوفى قريبا من عام ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م^(١٥).
 ٢ - طبقات ابن النحَّاس، المتوفى ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م^(١٦).
 ● أما الدراسات اللغوية فلم يكن يمثلها إلا كتاب «الميسر والقُداح» لابن قتيبة^(١٧).
 ● وكانت كتب فقه اللغة نادرة، وتقتلها كتب النوادر^(١٨) لمؤلفين مختلفين، مثل: علي بن حازم اللحياني، وأبي زياد الكلائي، والحصري، وابن مقسم.
 ● وأخيرا كتب الأدب، وهي: زهر الآداب للحصري^(١٩)، وكتاب الآداب لابن المعتز^(٢٠).
 ومع ذلك، فقائمة ابن خير أبعد ما تكون عن الكمال، وهي لا تقدم إلا القليل من الكتب التي كانت تقرأ أو تُدرَّس في القرن الحادي عشر. وإذا لم تكن كل الكتب التي جمعت في مكتبة الحكم الثاني الشهيرة^(٢١) تتداول في نسخ كثيرة، فيمكن الظن على الأقل بأن بعض هذه النسخ كان معروفا

(١١) ابن خير ٤٠٣ - ٤٠٥ و ٤١٥.

(١٢) ابن خير ٤٠٨.

(١٣) ابن خير ٤١١ و ٤١٢. وقد شرح ابن السيد البطيوسي سقط الزند، انظر: نفح ٦٤٣/١. وكان المظفر بن الأنطس يضع المتنبي والمعري في مقدمة الشعراء، انظر: أعصا، لأعلام ١٨٤. وص ٥٠، الغامض ٢٨ و ٢٧ من هذا الكتاب.

(١٤) ابن خير ٤١٤. ومن الضروري أن تشير بخاصة إلى لدواوين التي حملها مع أبي علي الغالي من المشرق إلى إسبانيا، وهي دواوين، في الرمة، وعمرو بن قتيبة، والختساء، والحليّة، وجبل، وأبي النجم، ومن بن أوس، والناطقة الذبياني، وعلقمة بن عبدة، والشناخ بن ضار، والأعشى ميمون بن قيس، وعروة بن الررد، والمثقب العبدى، ومالك بن الربيع المازني، والناطقة الجسدي، وكثير عزة، وأوس بن حجر النميري، والقنطاري والأخطل، وعمرو بن شاس، وعدي بن زيد العبادي، وعبد بن الطيب، والأفوه لأردى، وزهير بن أبي سلمى، وعبيد بن الأبرص، والمرقش الأكبر، والمرقش الأصغر، وسلعة بن جندل، وقيس بن الحطيم الأنصاري، والطرماح، وأمرئ القيس، ودريد بن الصمة، وأبي خلعة، ورؤبة، وعمر بن أبي ربيعة، وأبي نواس، وجريز، وطرفة بن العبد، وطيفل الغنوي، وأبو تمام. انظر: ابن خير ٣٩٥ - ٣٩٨.

(١٥) ابن خير ٣٧٨.

(١٦) ابن خير ٣٧٩.

(١٧) ابن خير ٣٧٨.

(١٨) ابن خير ٣٧٩.

(١٩) ابن خير ٣٨٠.

(٢٠) ابن خير ٤٠٥، ولم يذكر ابن خير ديوان ابن المعتز، ولكن هذه المجموعة يجب أن تكون معروفة. انظر: نفح ٦١٤/٣.

(٢١) الحلة السيرة ٢٠٠/١، ونفح ٣٨٥/١ و ٧١/٣، ولفي برونفسال إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي، ٢٣٣ - ٢٣٤.

للأدباء المقرئين من البلاط الأموي، وأن سقوط هذه الأسرة لم يذهب بكل التراث الذي تركّز في قرطبة، غير أن لا مركزية السياسة أدت إلى لون من اللامركزية الأدبية أيضاً، فتوزعت المكتبات الشخصية لصغار الملوك، والمكتبات الخاصة لأولئك الذين يهتمون بالثقافة على نحو ما، مكتبة الحكم الثاني^(٢٢).

ويمكن أن نعتقد أيضاً أن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وحصل الحكم^(٢٣) على إحدى نسخه الأولى، كان بعض الأساتذة يقرأونه في محاضراتهم، ويروى لنا المؤرخون أن ابن عبدون الشاعر، كان يحفظه ويستطيع أن يعلّمه من الذاكرة وهو في شيخوخته^(٢٤). والحق أن كتاب الأغاني استطاع محتواه، شعراء وموسيقا، أن يستحوذ على أذواق الأندلسيين، وترك على الرغم من قلة نسخه المتداولة تأثيراً قوياً وعميقاً في الأوساط الأدبية والراقية من سكان شبه الجزيرة^(٢٥).

وثمة مؤلفات أخرى باللغة الأهمية في دراسة اللغة العربية لا نجدها كذلك في فهرسة ابن خبير، وهناك وثائق هامة تشهد بوجودها، ومن بين هذه الوثائق رسالة ابن حزم في «فضل أهل الأندلس»، وتذيل ابن سعيد عليها، وروايات عديدة أوردها المقرئ في كتابه «نفع الطيب»، وستكتفى بذكر أهمها فحسب:

النوادر لأبي على الغالي، وألفه في إسبانيا نفسها، وقّله أبو عبد الله بن أبي الخصال، من علماء القرن الحادي عشر، في كتابه «مراج الأدب»^(٢٦).

الأمالى، لمؤلف «النوادر» نفسه. وألفه في إسبانيا أيضاً، وقّله أبو عبيد البكري، الجغرافي الأندلسي الشهير، في كتابه «الآلئ»^(٢٧).

وكان الكتاب لسببويه موضع دراسة نقظة منذ زمن طويل، وفي عهد عبد الرحمن الناصر طالع الوزير عبد الوهاب بن محمد، وكان بصيراً بالعربية، «كتاب سبويه، ونظر فيه، وكان ذا كبر عظيم،

(٢٢) انظر: ساعد الأندلسي، طبقات الأمم، طبعة شيخو، ص ٦٧، وترجمته افرنسية التي قام بها بلاشير ص ١٢٦، وكترمير، دراسة عن حب الكتب عند المشرقة، ص ٧٢ - ٧٣، نقلا عن المنهل الصافي، ونفع ٢٨٦/١، وتلويح مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣٠٣.

● درس حوليان روبرا قضية الكتاب في إسبانيا على نحو مستفيض، وترجمناها، فيها ترجمنا له، انظر: التربية الإسلامية في الأندلس، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨١ (الترجم).

(٢٣) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٨٤، والإحالات المذكورة في الخامس رقم ١.

(٢٤) المجلد ٨٠، وترجمته ٧٥.

(٢٥) حاول يحيى المدجّ المرسى أن يقد الأغاني في كتابه «الأغاني الأندلسية»، نفع ١٨٥/٣، وقامت مواظته فتحونة بنت جعفر، من أهل مرسية، وتكنى أم الفتح بتأليف كتاب في قبان الأندلس عارضت به أبا الفرج الأصفهاني. انظر: بونس بويجيس، دراسة ص ٥١٣، وابن الأثير، تكملة الفهلا، الترجمة رقم ٢٨٦٨، في الفصلا التي نشرت منه في ملويد عام ١٩٣٥. واختصر الأغاني أبو الربيع حاكم سحلماسة للأمير الموحدى: نفع ١٠٨/٣.

● قلت أورده المؤلف المدجج، وصحته النموذج كما ضبطه الرعيى في برنامج شيخو، ص ١٦٤، طبعة دمشق ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م وقد أتينا على هذه الدراسات، وعرفنا بها، وبمنهج الأغاني تفصيلا، في كتابنا «دراسة في مصادر الأدب»، الفصل الخاص بكتاب الأغاني، ط ٦، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨١ (الترجم).

(٢٦) نفع ١٨٤/٣.

(٢٧) نفع ١٨٤/٣.

وبأومفرط، ويظهر مع ذلك زهدا، وولى الوزارة، فكان لا يزال يورد على أصحابه من الوزراء مسائل من عويس النحو، حتى يرموا به، واستغفوه من ذلك^(٢٨) وكان ابن الأبرش، أبو القاسم بن خلف معجبا بكتاب سيبويه، حتى أنه يرفض أن يدرس غيره^(٢٩). وفي دانية وجد سيبويه شارحا مطنبا أحيانا في شخص ابن المناصف، حتى أنه أملى «على قول سيبويه: هذا باب ما الكلم من العربية» عشرين كراسا، بسط القول فيها في مائة وثلاثين وجها^(٣٠).

وكان لفصيح ثعلب، المتوفى عام ٢٩١ هـ = ٩٠٤ م، معجبون أيضا. فدرسه أبو عمران موسى بن سعادة، مول سعيد بن نصر، المتوفى عام ٥١٤ هـ = ١١٢٠ م^(٣١). وكان «إصلاح المنطق» لابن السكيت أقل قراءة، ولكن ابن سيدة كان يحفظه عن ظهر قلب^(٣٢).

وقد تمتع كتاب «الغريب المصنف» لابن سلام الهروي، المتوفى عام ٢٢٣ هـ = ٨٣٧ م، بشعبية أكبر من أي عمل آخر، وبسببه تبادل منذر بن سعيد البلوطي أبياتا من الشعر مع أبي على القالي يستعير منه كتاب الغريب^(٣٣). وكان ابن سيدة أعمى دانية يحفظه ظهر قلب، وأبو عمر الطلمنكي يدرسه في مرسية^(٣٤). واعتبره ابن حزم من أكمل المؤلفات التي توصل إلى معرفة مفردات اللغة العربية^(٣٥) ولما سئل أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري، المعروف بالأبيض، عن لغة فعجز عنها يحضر من خجل منه، أقسم أن يقيد وجليه بقيد حديد، كما فعل الفرزدق، ولا ينزعه حتى يحفظ «الغريب المصنف»، وانفق أن دخلت عليه أمه في تلك الحال فارتاعت^(٣٦).

ولم يذكر ابن خير أيضا كتاب «أدب الكاتب» لابن قتيبة، ويعتبر موجزا ممتازا للغة العربية، وقد شرحه ابن السيد البطليوسي، من القرن الحادي عشر الميلادي، بعنوان «الاقتضاب من أدب الكتاب»^(٣٧)، وكان أبو عمران موسى بن سعادة يدرسه في مرسية إلى جانب كتاب فصيح ثعلب^(٣٨).

(٢٩) نفع ١١١/٤.

(٢٨) الحلة ٢٤١/١.

● قلت، راجعت النسخ كنه في طبعا المشرقية فوجدته اقتصر في ذكره لابن الأبرش على أبيات من الشعر رواها عنه، وحوار حول إعراب بيت من الشعر، واقتصر البلقهي في «المقضب من تحفة القادم» ص ١٣ ط القاهرة ١٩٥٧ على ذكره «عجول في الأندلس وغيره محلها بالعربية». ولم يزد ابن بشكوال في «الصلة» ط القاهرة الترجمة ٤٠٣ هـ على: «وكان علما بالأدب واللغات مقعما في معرفتها وإتقانها». وفي «دنية المتن» ط مدريد الترجمة ٧٢٢: «كان وحيد عصره في علم اللسان، ذا سبق فيه» (الترجم).

(٣٠) نفع ١٤١/٤.

(٣١) نفع ٢٤٢/٢.

(٣٢) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم ٧٧، وترجمة بلاشير ١٤٢.

(٣٣) نفع ٢٠/٢.

(٣٤) نفع ٣٧٩/٣، وصاعد الأندلسي، طبقات الأمم ص ٧٧، والترجمة ١٤٢.

(٣٥) مخطوطة القسطنطينية، وحلها أسبن بلاتويس في مجله الأندلس، المجلد الثاني عام ١٩٣٤، الممد ١ ص ١٣٠.

(٣٦) نفع ١٨٩/٣، وانظر أيضا: دوزي، رسالة إلى فليشر ١١١ - ١١٦.

(٣٧) نفع ١٨٤/٣ و ٢٨٧.

● قلت: وقد قدم العالم الجليل الدكتور حامد عبد المجيد بتحقيقه، وصدر في ثلاث مجلدات عن الهيئة العامة للكتاب في مصر، القاهرة ١٩٨٢ - ١٩٨٧ (الترجم).

(٣٨) نفع ٢٢١/٢.

وثمة كتاب آخر يدرس النحو والتاريخ أكثر مما يعرض للغة والشعر، ولقى إعجاباً بالغاً، وأعنى به كتاب «الكامل» للميرد، وجاء به من المشرق محمد بن أبي علاقة البواب، على أيام الحكم المستنصر^(٣٩)، وكانت العروضية، مولاة أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون الكاتب البليسي، تحفظه عن ظهر قلب^(٤٠).

وقد نال كتابا الكامل والنوادر شهرة عريضة، حتى أن علماء اللغة الإسباني، أو المهاجرين إلى إسبانيا، قلّدها: فألف صاعد اللغوي كتاب «الفصوص»، وألف أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي كتاب «النوادر»، وهو ميار لكتاب الكامل^(٤١).

ومن الواضح تماماً أن ابن حير لا يدعى لنفسه أنه أورد في فهرسته كل المؤلفات الأدبية التي كانت تدرس على أيامه، أو في العصر الذي سبقه، وهو أبعد عن الشمول فيما يتصل بدواوين الشعراء، والكتب المتصلة باللغة، وعليها أن نكمل وثيقته بالإشارات التي أمدنا بها البلاغيون في القرن الحادي عشر الميلادي، وبخاصة ابن رشيق القيرواني، وألف كتاب «العمدة في صناعة الشعر ونقده» في هذا القرن، وهو كتاب موجز وأساسي في الدراسات الأدبية^(٤٢).

يقول ابن رشيق: «وليس في المولدين أشهر اسماً من الحسن أبي نواس، ثم حبيب والبحري، ويقال أنها أختا في زمانها خمسمائة شاعر كلهم مجيد. ثم يتبعها في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن في المولدين، وأمرئ القيس في القدماء، فن هؤلاء الثلاثة لا يكاد أن يجيهم أحد من الناس، ثم جاء المتنبي فملا الدنيا وشغل الناس»^(٤٣).

يرسم لنا ابن رشيق، في سطور قليلة، الطريق الذي سلكه الشعر العربي منذ الجاهلية حتى أيامه، وأعلامه المميزين، أولئك الذين اعتبرهم شعراء من الطبقة الأولى. نعم، إن ابن رشيق ومعاصريه، وما جاء به ليس إلّا صدى أفكارهم، يعتبرونهم عباقرة، لكن مع ذلك لا مفر من الظن بأن هذه القيم تغيرت مجيء المرابطين مع نهاية القرن الحادي عشر، ومطلع القرن الذي يليه، لأن هؤلاء لا يظهرون جميعاً في فهرسة ابن حير.

ومع ذلك فإن أبا نواس الشاعر المحدث أكثر الشعراء قراءة، وأقربهم ذوقاً إلى النملسيين. وشاع الاعتقاد في القرن العاشر الميلادي بأن شعره يضعف النفوس، كما نفهم من رواية أوردتها لنا ابن القوطية، ومؤداها: أن أمية بن عيسى بن شهيد، وزير الخليفة محمد بن عبد الرحمن، «خطر بدار الرهائن المجاورة لباب القنطرة، ورهائن بني قسي يشدون شعر عنقته، فقال لبعض الأعوان إيتني بالمؤدب، فلما نزل في فراش المدينة وأتاه المؤدب فقال له: لولا أني أعزرك بالجهل لأدبتك، تعدد إلى شياطين قد شجى الخلفاء بهم، فتروهم الشعر الذي يزيدهم بصيرة في الشجاعة، كف عن هذا، ولا تروهم إلّا خريات الحسن بن هاني، وشبهها من الأجزاء»^(٤٤).

(٣٩) نفع ١٧٢/٣.

(٤٠) نفع ١٥٠/٢.

(٤١) نفع ١٧٢/٣.

(٤٢) نفع ١٧١/٤.

(٤٣) عن ابن رشيق، المغوي ٤٥٦ هـ = ١٠٦٦ م. انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٤٣٤/٢. وكب المادة ابن شيب.

(٤٤) ابن رشيق، العنفة ٦٤/١.

(٤٥) ابن القوطية، ط مدريد، ص ٩٤، وانظر: ربيع، نيز ومقالات ٢٩٠/١.

وعن مشاهد مماثلة يروى لنا «المغرب» أن الأمراء كثيرا ما كانوا يدعون شعراءهم إلى معارضة هذا البيت أو ذاك من شعر أبي نواس، وأن صاعداً البغدادي كان يحسّ بعجزه عن ذلك حتى مع الروية والتفكير الطويل^(٤٦). ويروى عبد الرحمن بن شبلان الحضرمي الإشبيلي أنه رأى في النوم أنه مرَّ على قبر، وقوم يشربون حوله، وسط أزاره، فأمره أن يرثي صاحب القبر، ولم يكن غير أبي نواس، فرثاه^(٤٧). والدليل الأكثر إقناعاً على ذبوعه في القرن الحادي عشر الميلادي أن عدداً كبيراً من الشعراء كانوا يقلّدونه، فعارض ابن درّاج القسطلي رائيته الشهيرة في مدح ابن الحنصيص حاكم مصر^(٤٨)، ونظم أبو عامر بن شهيد، وابن سارة، قصائد من نفس البحر، وفي نفس القافية، التي نظم فيها أبو نواس داليته الشهيرة^(٤٩). وعارض أبو تمام غالب بن رباح الحنّام سينية أبي نواس في الكئوس والحانة، ولكن في قافية مختلفة^(٥٠).

ورأى الإشباني في ابن الرومي المتوفى ٢٨٤ هـ - ٨٩٧ م شاعراً هجاءً^(٥١)، وعرفوا قصائده التي وصف فيها الطبيعة، ومن بينها تلك التي يَن فيها تفضيله زهرة الرّجس واحتقاره الورد، مما جعل كثيرين من الشعراء الأندلسيين يردون عليه^(٥٢)، وأبياته الثلاثة التي يصف فيها خبازاً ذات شهرة عالمية^(٥٣).

أما البحترى المتوفى عام ٢٨٤ هـ - ٨٩٧ م، فكان مثل أبي نواس شاعراً عزيزاً على الأندلسيين، واعتقدوه نبياً حيث يقول:

إِنَّ شَعْرِي سَارَ فِي كُلِّ بَلَدٍ وَاشْتَهَى رَفَقَهُ كُلُّ أَحَدٍ
أَهْلُ فَرَاغَةٍ قَدْ غَنَوْا بِهِ وَقرى السوس^(٥٤) وَأَلْطَأَ وَسَدَّ
وَقَرَى طَنْجَةَ وَالسُّدَّ الَّذِي بِغَيْبِ الشَّمْسِ شَعْرِي قَدْ وَرَدَ^(٥٥)

ولم تتوقف شهرة البحترى عند طنجة ولكنها عبرت المضيق، وكان الشعراء الإشباني يلتقون معه في كثير من النقاط، حتى أن ابن بسام لم يجد ما يعبر به عن عبقرية أفضل من قوله: «ذلك هو

(٤٦) نفع ٩٧/٢.

(٤٧) نفع ٤٨٤/٣.

(٤٨) ابن حكان، الوفيات ٤٢/٦، ط القاهرة، وزكى مبارك، الموازنة بين الشعراء ٢٢٦ - ٢٥٢، وفون شاك، الشعر العربي في إسبانيا وصلبة ٢٢٨/١.

● ترجع كتاب شاك إلى اللغة العربية ومصدره الجزء الخاص بالقرن، بعنوان «الفن العربي في إسبانيا وصلبة» عن دار المعارف، طبعته الثانية، القاهرة ١٩٨٥، وسوف يصدر، وعن دار المعارف أيضاً، القسم الخاص بالشعر. (الترجمة).

(٤٩) نفع ٥٤٩/٣ ولقلائد ٣٦٦ - ٣٦٣.

(٥٠) نفع ٤١٦/٣.

(٥١) نفع ٢٩٣/-، وكان ذلك بمناسبة أبيات ماجة لولادة.

(٥٢) انظر فيما بعد ص ١٦٧ وما بعدها من هذا الكتاب.

(٥٣) نفع ١١١/٢، وقد اقتبس ابن خاقان النشطر الأول من البيت الثالث في جلة له: لقلائد ٢٧، ونفع ٢١٨/٤.

(٥٤) السوس تقع في فارس، ونظر فيما يتصل بها دائرة المعارف الإسلامية ٥٩٢/٤، والمادة كتبها شتريلك.

(٥٥) من لطول، ياقوت، معجم البلدان ٣٥٠/١ و ٨٨٠/٣.

● توجد أيضاً في ديوان البحترى، المجلد الثاني، القصيدة رقم ٣٩٣، ص ٧٩٢، طبعة دار المعارف، القاهرة. (الترجمة).

البحترى، طريقته في الشعر غموضية، لسلاسته وجزالاته، ولطلاوته وقوته»^(٥٦). ولم يفلت البحترى من التقليد، ومن نسخ أبياته، وابن أخت غانم، العالم اللغوى أبو عبادة محمد بن معمر، شاعر المرية، يهجو ابن شرف، أبا الفضل جعفر، من برجة فيقول:

قولوا لشاعر برجة هل جاء من أرض العراق فحاز طبع البحترى
والى بأشعار تضح بكفه وتقول هل أغزى لمن لم يشعر
باجعفراً ردّ القريض لأهله واترك مياراة لتلك الأبحر
لا تزعمن ما لم تكن أهلاً له هذا الرضاب لغير فيك الأبحر^(٥٧)

وأخيراً يجيء المتنبي:

ويقول ابن رشيق بحق: إن هذا الشاعر «ملاً الدنيا وشغل الناس»، وعانى الغرب الإسلامى من سلطانه^(٥٨)، وإذا لم يستطع أن يحو ذكرى البحترى وابن المعتز من ذواكر الناس، فقد استطاع أن يحتكر العقول، لأنه جمع إلى طلاوة الشاعر فكر الفيلسوف. وقد شرح ديوانه الأعلام الشنتمرى^(٥٩)، والإفليلقى المتوفى عام ٤٤١ هـ = ١٠٤٩ م^(٦٠)، وابن سيده المرسى المتوفى عام ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ م^(٦١)، ووجد ابن بسام نفسه مضطراً لأن يلمع بيسر من أخباره في الذخيرة، وكانت في الحقيقة تاريخية أكثر منها أدبية^(٦٢).

وفي مختاراته غير كل كتابه، نرى المجلدات الثلاثة الضخمة، لم يتوقف أبداً عن ذكرى بيت المتنبي وجد شبيهاً بينه وبين أشعار الأندلسيين، وكان هذا التشابه في الحق كثيراً إلى حد بعيد. وبين كل صفار ملوك إسبانيا في القرن الحادى عشر الميلادى، كان المعتمد، فيما يبدو أكثر من درس المتنبي وقدره، غير أن هذا الإعجاب لم يبهز فيه روح النقد^(٦٣)، مما أغضب الشعراء الذين كانوا يحيطون به، ويقص علينا المقرئ أن المعتمد استحسن يوماً قول المتنبي:

إذا ظفرت منك المطى بنظرة أتاب بها معنى المطى ورازمه
فارتجل ابن وهبون بديهة البيتين الآتين، وفيها يلتقى النغيط والإعجاب:
لئن جاد شعر ابن الحسين فأتما تحيد العطايا واللها فتفتح للها^(٦٤)

(٥٦) الذخيرة، القسم الثانى، مخطوطة اكسفورد، الورقة ٧١ ب، وعنها نقله دوزى في «بنو عبادة» ٢٠٢/١. وترجمته ص ٧٠٦. ولم أعتد إلى النص في النسخة المطبوعة، والتي نشرها الدكتور إحسان عباس (المترجم).

(٥٧) من الكامل، نصح ٣٩٧/٣، ودوزى في أبحاث ط ٣ ج ٢ ص ٢٥٠.

(٥٨) بلاشيب، الشاعر العربى التنبى والغرب الإسلامى، في مجلة الدراسات الإسلامية، عام ١٩٢٩، العدد الأول، ص ١٢٧ - ١٣٥، وأبو الطيب المتنبي ص ٢٩٣ - ٢٩٩.

(٥٩) نصح ١٨٤/٣، والصغدى، نكت الهيمان ٣٦٤، وبلاشيب، أبو الطيب ٢٩٦.

(٦٠) الصغدى، نكت الهيمان ٣٦٤، وبلاشيب، أبو الطيب ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٦١) بلاشيب، أبو الطيب ٢٩٦.

(٦٢) الذخيرة ٤٩٤/٣.

(٦٣) نصح ٢٦١/٤، وبلاشيب، أبو الطيب ٢٩٥.

(٦٤) أى أن النبرع والانتشار يطلق اللسان.

تَنْبَأٌ عَجَبًا بِالْقَرِيضِ وَلَوْ دَرَى بِأَنَّكَ تَرَوِي شِعْرَهُ لَنَأْهَأَ (٦٥)

ولم تنف إسبانيا الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي عند المتنبي، وإنما استرعى انتباهها شعراء آخرون. وابن خفاجة، وأصبح أكبر مصوّر للطبيعة، ولم يكن في الحقيقة غير مقلد ذكي، اعترف بأنه يدين بجانب كبير من إلهامه لشعراء من المشرق مثل: الشريف الرضي الموسوي، المتوفى عام ٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م^(٦٦)، وعبد المحسن الصوري، المتوفى عام ٤١٩ هـ = ١٠٢٨ م^(٦٧)، ومهيار الديلمي، المتوفى عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ م^(٦٨)، وليس صعباً أن نظهر ما يدين به للبحتري، وعرضنا له من قبل، وللصنوبري المتوفى عام ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م^(٦٩). ألم يطلقوا عليه لقب صنوبري إسباني؟^(٧٠) وأما مهيار الديلمي فكان موضع تقليد شعراء آخرين غير ابن خفاجة، فنحن نجد بين صفحات «نفع الطيب» للمقرئ مقطوعة، ميمية القافية، ليحيى بن هذيل، استلهمها على نحو واضح من ميمية مهيار^(٧١).

وفيا يتصل بأبي العلاء المعري، (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ = ٩٧٣ - ١٠٥٧ م)، نفاجاً بعض الشيء حين نعرف أن من بين أعماله كلها لم يعرف الأندلسيون غير كتابين اثنين هما: سقط الزند والزرديات، ومع ذلك نعرف أن ولد ابن عبد الغفور صنع رسالة سماها «الساجعة»، هذا بها حذو أبي العلاء المعري في رسالته «الصاهل والشاحج»^(٧٢)، ولكن من غير المقول أن رسالته الأخرى لم تقع في يد الإسبان، على الأقل في النصف الثاني من القرن الحادي عشر.

أما مسألة تأثير «رسالة الففران» في «الكوميديا الإلهية» لدانتي، ونجرت منذ ثلاثين عاماً، على نحو ما نعرف، أبحاثاً مثيرة عن الصلة بين الآداب المشرقية والأعمال الأوربية الوسيطة، ذات الإلهام المسيحي، فقد ظهرت في إسبانيا الإسلامية في صورة مختلفة تماماً، وربما يتوقف على حلها أن تأخذ مشكلة دانتي وأدب الآخرة الإسلامي وجهة جديدة، ومن المثير حقاً أن نلاحظ أن إسبانيا الإسلامية عرفت منذ نهاية القرن العاشر، أو بداية الحادي عشر على أكثر تقدير، أي قبل رسالة الففران لأبي العلاء المعري، عملاً كان موضوعه رحلة شاعر إلى الجنة. وهو «رسالة التوابع والزواجع» لأبي

(٦٥) نفع ١٩٤/٣ و ١٣٥، وغرسة غومث، ترجمته لرسالة فضائل الأندلس للشقندي ص ٥٥٩ - ٦٠، ويبت المتنبي يوجد في شرح العكبري ٢٣٣/٢، وفي ديوان المتنبي شرح البرقوقى ٢٣٥/٢، القاهرة ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م.

(٦٦) أورد عنه ابن بسام خبراً في الذخيرة ٥٨٠/٤.

(٦٧) ديوانه مفقود فيها يبدو وعن الشاعر انظر: ابن خلكان، الوفيات ٣٠٨/١، وترجمة دي سلان ١٧٦/٢.

(٦٨) خصه ابن بسام بخبر في الذخيرة ٥٤٩/٤.

(٦٩) أخبار الصنوبري المتأثرة جمعها محمد داغلب طباط، بعنوان «الروضيات»، حلب ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م.

(٧٠) نفع ٤٨٨/٣.

(٧١) نفع ٣٥٧/٣، وقصيدة مهيار في ديوانه ٣٢٧/٣.

(٧٢) ابن خاتكان، مطمح الأنس ٢١٨، وعنه نقلها المقرئ في النفع ٥٥١/٣، ولا يوجد نص الساجعة إلا في الذخيرة، مخطوطة نلسان، الورقة ١٦٣ ب - ١٦٦ أ.

● قلت: هذا النص لا يوجد في الذخيرة التي نشرها الدكتور إحسان عباس كاملة، وابن عبد الغفور هذا هو: أبو القاسم محمد بن عبد الغفور، انظر: المغرب ٢٣٧/١، (الترجمة).

عامر بن شهيد^(٧٣)، الشاعر والناقد الذي سنعرض له في مناسبات كثيرة. وفي هذه الرسالة يقدم لنا ابن شهيد قليلا من وصف الجنة، وكثيرا من النقد، من وجهة نظر أدبية خالصة، ولكن بطريقة ساخرة، عن شعراء العرب في الجاهلية والإسلام حتى المنتهى.

وبعد ذلك بقليل، في بلاط المعتصم أمير المروبة، عالج مؤلف آخر يسمى ابن الشهيد أيضا، ويكنى أبا حفص، الموضوع نفسه، ومن وجهة النظر ذاتها، في مقامة أدبية^(٧٤)، وتشبه كثيرا رسالة «التواضع والزواجع»، وغيل إلى الاعتقاد بأن أبا حفص عمر بن الشهيد، وإن كتب مقامته في فترة معاصرة لآخرة أيام أبي العلاء المعري، أو بعد موته، إلا أنه استلهم قريبه، وسلفه، أب عامر ابن شهيد، وهذا الأخير لم يعرف رسالة الغفران، ولم يستلهم فكرته إلا من نفسه، أو من الوسط الذي عاش فيه. وهنا نخمن بأن أبا عامر بن شهيد، وكان كثير الاختلاط بالمستعربين، وبالقسس المسيحيين، ووجود قرطبة، استطاع بتدخله معهم أن يقرأ ترجمة، غير كاملة دون شك، لكتاب محاورات لوسيان dialogues de Lucien، أو كتاب Cratyle أو فيدون Phédon لأفلاطون^(٧٥).

ونظن أن المصادر الأقل استبعادا لهذا العمل الأصيل، وهو الوحيد في الأدب العربي حتى مطلع القرن الحادي عشر، يمكن أن نبحث عنها في المناقشات التي كانت تجري بين ابن شهيد المراهق وبين والده أو جده، أنس منطقيا أن تقبل أن الراهب نقولا، والذي أرسله إمبراطور بيزنطة الرومانية إلى عبد الرحمن الناصر ليترجم ويشرح كتاب ديوسقوريدس Dioscorides في الطب استطاع خلال إقامته في قرطبة أن يوطد علاقاته مع أحمد بن عبد الملك بن شهيد، والذي بلغ مكانة عالية، وله أنشأ عبد الرحمن الناصر رتبة «ذى الرزازتين» في عام ٣٢٧ هـ - ٩٣٩ م^(٧٦)؟ وأحمد بن عبد الملك هذا هو جد صاحبنا مؤلف «رسالة اتواجع والزواجع»، وكان مفرما بالأدب، واستطاع أن يعرف جيدا شيئا عن بعض المؤلفات اليونانية القديمة الهامة، وعن لوسيان وأفلاطون. والحكايات التي جمعها لنفسه انتقلت مع هذا الطابع الساخر، وكان اقتضاها مجزا لأسرة بني شهيد في الأدب، إلى ابنه أولا، ثم إلى حفيده من بعده، مع التغيير الذي لا مفر منه، أو بالأحرى تطويرها لتوائم عبقرية لشخص الذي يروىها وهكذا خلال نيف وسبعين عاما من الامتداد الزمني يظهر الفكر اليوناني أو اللاتيني ثانية، بعد إعداد بطيء، خلال أشكال ليس فيها من الطابع العربي شيء، في مثل رسالة أبي عامر بن شهيد هذه، والتي تجسد المثل الأروع دقة في الأدب الأندلسي.

هذه الافتراضات التي عبرنا عنها، مهما كانت حسنة، تظهر في احتمالاتها، أن دراسات الأدباء

(٧٣) الأخيرة ٢٤٥/١، وأحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس ٤٩، وابن شهيد الأندلسي، رسالة لتواضع والزواجع، ط. ب. البستاني ص ١١٥ - ٢٠٩ (وزعم هو الذي قاد ابن شهيد). وفيما يتصل بسبق رسالة التواضع والزواجع لرسالة لغفران، انظر: زكي مبارك، التثر اللقي في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلاص، باللغة الفرنسية ص ٢٣٩٤، وفي النص العربي ٢٥٨/١. (٧٤) الأخيرة ٦٧٠/١ وما بعدها.

(٧٥) ألف ابن جبيرول في عام ١٠٤٥ م في سرقسطة أول كتاب له عن الفلسفة الأخلاقية، وهو «إصلاح الأخلاق»، ويضم آيات من التوراة، وأمثالا من التلمود، وخطا من الحكم لسقراط وأفلاطون وأرسطو، والفلاسفة العرب وغيرهم، انظر: جريتر، يود إسبانيا من ١٥٠.

(٧٦) ليبي «وقتنال إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي ص ٦٨ و ١٠١ - ١٠٢.

الإسبان و «الإنسانيين» كما نفهمهم، لا تقف عند دراسة المؤلفين العرب وحدهم، وشعراء المشرق من بينهم بخاصة، وإنما تمتد أيضاً إلى المؤلفين اليونان، وإلى اللاتين احتمالاً، عن طريق الترجمة. والإشارة إلى الحكمة اليونانية والفارسية تتناثر بكثرة عبر أبيات الشعر العربي في المشرق والمغرب، ويُعتبر المتنبي، ولا يزال، أكثر الشعراء فلسفة، وقد كتب الحاققي رسالة ذكر فيها إلى جانب كل بيت من شعر المتنبي تَصْنَعُ حكمة جملة لأرسطو تلتقي، أو تتشابه على نحو واضح، مع فكرة البيت وعنايه^(٧٧).

يقول الوزير أبو عامر بن يعق، ونقّى كلمة إسبانية أصله Inigo، في قصيدة يدح بها المظفر بن جمهور:

دُعْ عنك ما خلّدت يونانٌ من حكمي وسار في حكماء الفرس من مثل
وانظر إليها تجدّها أحرزت سبقاً في الجهد منها وحاز السبق في مهل^(٧٨)

ويقص علينا ابن الأثير فيما يتصل بالدراسات التي أكتب عليها أمراء أسرة بني عباد أصحاب إشبيلية، أن الرشيد بن المعتمد طالع شيئاً من العلوم الرياضية، وكشف له غيب الأغاني، حتى قيل إنه أجاد الضرب على العود، وكان له أدب وشعر، وفي الفقه كان يطبق في إشبيلية مذهب مالك وأصحابه^(٧٩). وهذا الاهتمام بالعلوم الخالصة لدى تلميذ مالك هذا يشير إلى لون من الفضول العلمي كان شائعاً بين الأندلسيين على نحو أكثر مما نظن.

وحالة الراضي، أخو الرشيد، نموذج أشد دلالة بكثير، لقد أظهر هذا الطفل المدلل لدى والده المعتمد ميلاً فورياً إلى القضايا الفكرية، وكان يؤثر دراسة النحو والفقه، ومجالسة الشعراء والفلاسفة، والرياضيين والفلكيين، على خوض معامع الحروب^(٨٠).

كان ذلك أكهناً انتجسيد الأشد وضوحاً «للأنسية humanisme» كما كانت تفهم في ذلك العصر، وثمة توازن متسجم بين العلوم والآداب، والفن بكامل الشعر، ويحيى البحث عن «الإنسان» في أوج قدرته في الخط الأول من اهتمامات العصر، ومن الآن فصاعداً أصبحت الاهتمامات الحربية غير ذات أهمية بالنسبة إلى القضايا الثقافية والتأملات الفكرية، ولكن الدراسة مع ذلك لم تأت على كل فضائل العمل.

لقد تميّزت إسبانيا القرن الحادى عشر الميلادى بمعركة هذا الجانب الجديد من الفكر الإسلامى،

(٧٧) الحاقى، التوفى ٢٨٨ هـ = ٩٩٨ م، الرسالة الحاقية في النحلة البهية ص ١١٤ - ١٥٩، ط. بيروت ١٩٣٩، وط. بلاشير في مجلة إسلاميكيا، المجلد الثانى ١٩٢٦، العدد ٣، من ٤٣٩ وما بعدها.

(٧٨) من السسيط، لقلاند ١٨٧.

(٧٩) الحلة السرواه ٦٨/٢، وبتر عباد ٧١/٢ - ٧٢.

(٨٠) يقول ابن الأثير: «كان الراضى من أهل العلم والأدب، كلفا بالمطالعة والدراسة، فرأى كعب القاضى أبى بكر بن الطب، وأشرف على مذهب أبى محمد بن حزم الظاهرى، قهر في الأصول، ونهب إلى النظر والاختيار». الحلة ٧١/٢، وبتر عباد ٧٥/٢. وفيها بعد ص ٢٨٠ - ٢٨١ من هذا الكتاب.

وواصلت التقاليد الايبيرية الرومانية سيرها لاشعوريا، وتركت تأثيراً واضحاً في الثقافة العربية الإسلامية، وحقق الأدباء الإسبين نتيجة الحرية التي تمتعوا بها بعث الفكر القديم، وأعطوه هذا اللون الخاص، الذي يعود إلى التأثير اليهودي المسيحي، وفيما يلي ستتاح لنا أكثر من فرصة لتشير إلى مظاهره الواضحة.

○ الفصل الثالث:

المشرق والمغرب

استفدت «الإتسية» الإسبانية الجانب الأكبر من عناصر دراستها في الأدب العربي في المشرق، وكانت التقاليد القروية في القرن العاشر قوية جداً فأصبح من الصعب بعد ذلك التخلص منها.

وقد ترك المثقفون العرب المشاركة الذين وفدوا إلى إسبانيا تأثيراً عميقاً بثقافتهم الواسعة، وبلغت استعداداتهم الذهنية حداً يصعب معه أن تكون على صورة أخرى. وكان الأمويون في إسبانيا يتجهون بأبصارهم دائماً إلى العباسيين في بغداد. ولم يكن المظهر والأدب اللذان سادا في قرطبة، وفي البلاطات الصغيرة التي تكوّنت حول عمال الولايات، إلا تقليداً لما يجري في العراق. وأخذ خلفاء قرطبة يغرون أدباء بغداد بالنزوح إلى عاصمتهم، على نحو ما حدث مع أبي علي القالي، وكان لغويّاً أكثر منه شاعراً^(١)، وصاعد البغدادي، وكان شاعراً ماهراً، ولغويّاً جسوراً، وعرفنا تاريخه مفصلاً من قريب^(٢). وكان بجوار إبراهيم بن حجاج عامل إشبيلية لغوي من الحجاز يدعى أبا محمد العذري^(٣). وثمة تأثير آخر لا يقل أهمية مارسه الجوّاري المغنيات، ونشأن وتربى في المشرق، في المدينة وبغداد، واشتراهن للأمرء والولاة في إسبانيا، وأحياناً كانوا ينتزعوهن من بلاط بغداد بأسعار باهظة، واحتفظ لنا المقرئ بأخبار أشهرهن^(٤). ومن بينهن: العجفاء من بغداد، وفتيات المدينة الثلاث: فضل وعلم وقلم، وهذه الأخيرة رغم أنها نشأت في المدينة ليست مشرقية الأصل، وإنما بشكسية، أسرت صغيرة في حملة على نيرة، شمال شرقي الأندلس، ثم سُمِلت إلى المدينة، وفيها مرت بكل مراحل التعليم التي يجب أن يجتازها من تعدّد نفسها لتكون مغنية، حتى إذا مهّرت في الفناء والأدب والخط، وفي حفظ الشعر بخاجة، اشتراها عبد الرحمن الثاني، أمير قرطبة الأموي، وكان دون أدنى شك يقدّرهما كثيراً.

(١) كان عبد الرحمن الناصر، المتوفى ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م، هو الذي دعا أبا علي القالي إلى إسبانيا، فوصل إلى قرطبة في ٣٣٠ هـ = ٩٤٣ م. وقد قام كاتب مصري حديث هو عبد الرحمن البرقوقي بتصوير رحلة القالي من الإسكندرية إلى المدة في شكل رواية تاريخية بعنوان: «حاضرة العرب في الأندلس» القاهرة ١٣٤١ هـ = ١٩٢٣ م. متأثراً فيها بكتاب حضارة الإسلام في دار السلام الذي كتبها جميل مندر، وصدرت طبعته الأولى في بيروت عام ١٨٨٩، وطبعها الثانية ١١٠٥، والثالثة في ١١٣٢. إن تواتر طبعها، بعد ذلك في القاهرة، وكان جميل نضلة متأثراً بكتاب رحلة الشاب أنشوس في اليونان، للقس برتيليمي، ولكن البرقوقي لم يكن يعرف أن القالي مر بأفريقية (تونس) انظر: نفع ٧٠/٣ وما بعدها، الذخيرة ١٤/١، وفي «بنو عبادة» ٤١/٢، وابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس ٦٥/١، الترجمة رقم ٢٢١.

(٢) بلاشير. راند الثقافة العربية الشرقية في إسبانيا في القرن العاشر للهجرة، صاعد البغدادي، في مجلة هيسبيريس، ١٩٣٠، ص ١٥. ٣٦. صاعد وصل إسبانيا قريباً من عام ٣٨٠ هـ = ٩٩٠ م.

(٣) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ج ٢ ص ٨٩، اعتماداً على البيان المغرب ١٣٢٢/٢، ٢١١.

(٤) نفع ١٤٠/٢.

لأنها حتى مع إقامتها الطويلة في المشرق احتفظت بلونها الأشقر صافيا جميلا، ونحن نعرف أن الأمويين بالأندلس كانوا مغرمين بالشقرات إلى حد بعيد^(٥).

وقد اشترى الشريف العربي إبراهيم بن الحجاج اللخمي، والى إشبيلية، المغتية قمر الجارية، وهي تستحق منا وقفة خاصة، فقد كانت دون ريب إحدى هؤلاء النسوة اللاتي حملن إلى بلاط إشبيلية اللطف والدق، وتركت معاملتها الراقية تأثيرا طيبا في أخلاق سيدها، والرجال الذين حولها، وكان فيهم شيء من جفاف ومن خشونة^(٦). وأسهمت بفصاحتها الفطرية، واستعدادها الطبيعي لقول الشعر، في إشاعة تذوق الأدب العراقي، وكانت تحفظ كل روائعه عن ظهر قلب.

ويجب ألا تنسى في هذه النظرة الخاطفة، ونحن نعرض لتأثير المشرق في المغرب، في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، الدور الذي اضطلع به زرياب، المغني الفارسي الشهير، وبناته عليّة ومحمدونة، وتلميذته متعة^(٧).

لكن الوافدين من المشرق إلى إسبانيا في القرن الحادي عشر الميلادي لم يكونوا من المستوى الذي عرضنا له، كما أن إسبانيا نفسها بدأت تقلل شيئا فشيئا من نظرتها إلى المشرق، واحتدائها ما يجري فيه، بعد أن أصبح عندها من الأدباء والشعراء والمفكرين والمغنين والموسيقيين من الجنسين من ليسوا في حاجة لأن يحسدوا ما عليه زملاءهم في بغداد أو المدينة على الإطلاق. وكانت الحياة في البلاطات الصغيرة للملك الطوائف تسبح في مظاهر من الترف دونها مدن المشرق الكبرى. وإذا صح أن شخصا كأي على القلي، أو قمر المغتية مثلا - كانا أوسع ثقافة وأدق حضارة، من الوسط الأندلسي الذي أحاط بهما في القرن العاشر الميلادي، فقد رجحت الموازين لصالح الإسبان المسلمين في القرن الذي تلاه، وبدأ الناس يتساءلون: ماذا يستطيع أن يضيف واحد مثل هذا السفيه اللحوج، الهجاء بلا حياة، أبي الحسن البغدادي، الملقب بالفكيك، إلى بلاط المعتمد بن عباد في إشبيلية، أو المقتدر بن هود في سرقسطة؟ وأي مهرج في البلاط الملكي يمكن أن يكون أكثر إضحاكا من هذا الشاعر الذي تنكر يوما في شكل هدهد، فلبس «طاقا أحمر على بياض، وفي رأسه طرطور أخضر، عثم عليه عمة لا زوردية» وكل ذلك ليقول إنه هدهد، ويشبه المعتمد بأنه سليمان^(٨).

ومثل أبي الفتوح الجرجاني، وشرفته بغداد عالما واسع الثقافة، ثم جاء ونزل ضيفا بعض الوقت في بلاط مجاهد صاحب دانية، وارتحل إلى بلاط المقتدر صاحب سرقسطة، ثم استقر أخيرا في غرناطة، أدبيا

(٥) ابن حزم، طرق الحماة ٤٨ طبعه دار المعارف بتحقيق د. الطاهر أحمد مكي، وترجمة ليكل ٣٩، وترجمة برشيه ٢٦.

(٦) فتح ١٤٠/٣، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٨٩، والمصادر الواردة هناك.

(٧) عن زرياب وتأثيره في إسبانيا في عصر عبد الرحمن الثاني انظر: فتح ١٢٢/٣، وابن دحية المغرب ١٤٧، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ١ ص ٣٠٩، وديبا ص ١١٢، وهنري نواس، الفن الإسباني العربي منذ بدايته حتى القرن الثالث عشر ميلادي ص ٧١، وليفى برونسال، الحضارة العربية في إسبانيا ص ٦٩ [وترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي له إلى العربية ص ٦٥، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥]، وعنه في تاريخ إسبانيا الإسلامية ط ٢ ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٢.

(٨) فتح ١١٩/٣، وخصه ابن بسام في النخبة القسم الرابع بغير.

● الحق أن ابن بسام أورد اسمه في الفهرس لمفصل الذي أوردته في مقدمة كتابه، وأنه سوف يتحدث عنه في القسم الرابع، ولكنه واقعا لم يعرض له في هذا القسم ولا بكلمة واحدة، على الأقل في طبعه إحصان عباس التي بين أيدينا، ولم يعرض له في بقية الأقسام الأخرى، وكل ما هنالك أنه في القسم الثالث، ص ٦٧٤، أورد له بيتين من الشعر. (الترجم)

حيث، ومحارباً عندما تضطره الظروف، واشتهر بأنه مغامر مفسد، وانتهى به الحال أن قتله بيده باديس بن حيوس، وكل ما يستطيع الأندلسيون أن يذكروه له بالغير، أنه دُوس في غرناطة حماسة أبي غام^(٩).

الشرقي الوحيد الذي استرعى اهتمامنا هو: أبو الفضل التميمي الدارمي البغدادي، وخرج من بغداد رسولا لأمر المؤمنين القائم بأمر الله العباسي، إلى صاحب أفريقية المعز بن باديس، وعبر إلى إسبانيا بعد فتنة العرب، وأقام في بلاط المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة، وبقي هناك حتى توفي عام ٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ م، أو في العام الذي بعده، وكان يجمع بين لطف التفكير، ولياقة الأسلوب، والنهذيب المصقول، وهي صفات أتاحت له أن يتعمق بسهولة في مجتمع الأندلسي، لأن الطرف البغدادي لم يجد منذ قمر رسولا أقوى كما لا أشد جاذبية منه. وقد لقي من قبل في القيروان حفاوة بالغة، وفتن به المثقفون الذين كانوا يكتفون إلى جانب الأمير المعز بن باديس، الوسط المثقف، الأكثر صقلا ورقة في بلاد البربر لشرقة، ثم اضطرت الأحداث السياسية إلى أن يذهب إلى إسبانيا، وفي طليطلة منها وجد المناخ ملائماً له، إلى جوار المأمون بن ذى النون، فتفتحت مواهبه، وأمضى بقية حياته يتغنى بالحب، ولم يحدث أن ازدهر شعره العاطفي إلا في إسبانيا^(١٠).

قبل أن يبحر أبو الفضل الدارمي إلى أفريقية اجتمع مع أبي العلاء المعري في مرة النعمان^(١١)، ويمكن أن نتخيل الحديث الذي دار بين الرجلين؛ نتحدثا بالضيع عن بغداد، ثم التفتا دون شك نحو المغرب، وحولاً مفكرين غيّل ما يجب أن تكون عليه الحياة الفكرية هناك. وفي البدء تخوف أبو الفضل شيئاً من هذه الرحلة، رغم أن مهمته رسمية، ثم اطمأن سريعاً عندما سمع حديث أبي العلاء، فقد كان شيخ المرة على معرفة حقيقية بالإنتاج الأدبي في بلاد البربر الشرقية وفي إسبانيا، وربما كان هذا هو الذي أقنعه بأن يتوقف قليلاً في القيروان. وأبو العلاء المعري هو صاحب الرأي القاسي في ابن هاني الأندلسي، فقد وجد في كلماته كثيراً من الخشونة، وقليلاً من الفكر، فشبه أشعاره بأنها «مثل رحي تطحن قرونا»^(١٢). ولكنه أحس بالشعر يغمره حين سمع أبيات الشاعرة الأندلسية حمدة بنت زياد المؤدب^(١٣)، من وادي آش، وحفظ المقطوعة عن ظهر قلب. أه، باللفظ الجميل الذي اجتاحه عندما جاءه الشاعر المنازى، المتوفى عام ٤٣٧ هـ = ١٠٤٥ م^(١٤)، ليراه وينشده هذه الأبيات الجميلة، ترتفع واقصة، في غنائية يجهلها المشرق، وكان رأيد قبيها كذلك^(١٥). ولم يكن المعري يجهل المغرب، وآخرون غيره دون شك كانوا على علم بما يحدث في الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط. ولا بد أن التبادل الأدبي كان يتم في سرعة فائقة، فقد ظن المنازى أنه يستطيع أن يسرق أبيات حمدة دون عقاب، ولكنه وجد أبا العلاء المعري سبقه في معرفة هذه الأبيات.

(٩) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣٠ - ٣٥، وقائمة المصادر التي في ص ٣٦، الماش رقم ٨، وانظر فيما سبق ص ٣٤، الماش رقم ٤ من هذا الكتاب.

(١٠) نفع ١١١/٣، وسوف نتاح لنا الفرصة لتحدث عن هذا الشاعر فيما بعد، انظر ص ٣٦٨ وما بعدها من هذا الكتاب.

(١١) نفع ١١٢/٣.

(١٢) ابن خلكان، الوفيات ٥/٢، وترجمة دى سلان ١٢٧/٣.

(١٣) حمدة، أو حدونة، عاشت في أواخر القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، وربما شهدت بداية القرن الذي يليه. وقد خصها القرى بجملة أخبار في نفع ٢٨٧/٤، وفيما بعد سوف نتحدث عن وصفها لوادي آش، ص ١٤٢ من هذا الكتاب.

(١٤) عن المنازى، انظر: وفيات الأعيان ٤٤/١، وترجمة دى سلان ١٣٦/١، (١٥) نفع ٢٨٩/٤.

ويمكن أن نفترض أن أبا الفضل الدارمي فكر بعد زيارته لأبي العلاء المعري أن يستغل مهمته في بلاد البربر ويزور الأندلس بعدها، وآخرون قبله، على نحو ما رأينا، قاموا بهذه الرحلة الطويلة. وإذا كان المغاربة المسلمون يترددون كثير على المشرق للحج أو الدراسة، فإن المشاركة على الرغم من تقدمهم كانوا يترددون بعض الشيء في الذهاب إلى بلد تصلهم عنه أخبار غير مرضية.



لقد أسماها الجاحظ «طينة حمقاء»^(١٦)، وزارها الرحالة ابن حوقل في نهاية القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، وكتب عنها الفقرة التالية التي أثارت نيا بعد غضب ابن سعيد: «ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده، مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدمهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الأتجاد والأبطال، مع علم أمير المؤمنين بحملها في نفسها، ومقدار جباياتها، ومواقع نعمها ولذاتها»^(١٧).

الصورة كما ترى غير جميلة فعلا، وقد وجدت الجارية المغنية قمر، وتعودت على ظرف بغداد وأدبها حيث نشأت، كثيرا من الجفاء والخشونة في بلاط إبراهيم بن حجاج عامل إشبيلية^(١٨).

أما أبو علي القالي، ومر ببلاد البربر الشرقية قبل أن يلبي دعوة عيد الرحمن الناصر في أن يذهب إلى الأندلس^(١٩)، فلاحظ فزعا أنه كلما ابتعد عن المشرق وجد من يرب به من أهل الأمصار «درجات في الغباوة، وقلة الفهم، بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد، حتى كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم محاسة ومقايسة». فقال لنفسه: «إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم بقدر نقصان هؤلاء عن قبلهم، فسأحتاج إلى ترجمان بهذه الأوطان»^(٢٠).

ومع ذلك لم تكن معرفة المغرب مقلقة تماما في وجوه المشاركة، والفضل للرحلات، وقليلون جدا أولئك الذين يستطيعون أن يتكلموا بأشياء سمعوها فحسب. وقد التقى أبو تواس الشاعر الإسباني عباس بن ناصح في بغداد، وقال له: أنشدني لأبي الأجرم فأنشده، ثم قال له: أنشدني ليكر الكناقي فأنشده، وفعل ذلك كله عن طيبة خاطر^(٢١)، وكما ترى فإن شهرة هذين الشعارين الأندلسيين

(١٦) الاستدوي، أدب الجاحظ ٦٩.

(١٧) ابن حوقل، المسالك والممالك، المجلد الثاني من المكتبة الجغرافية العربية ص ٧٣، وعنه في نفع ٢٦٦/١، وترجم النص دوزي في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٢٥، ولويس بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٢٥ ويقول ابن مامة وهو قائد نصراني كان خلال «الفتنة» مع البربر والخليفة المستعين ضد الصقالبة والأمويين، عن القرطبيين: «تشأظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة، فإذا القوم لا دين لهم، ولا شجاعة فيهم، ولا عقول معهم»، البيان المغرب ٩٠/٣، وانظر في سبين ص ١٨ من هذا الكتاب، للمامش رقم ١٩، وقد رد ابن سعيد على ابن حوقل في صفحة توجد في نفع ٢١٢/١.

(١٨) البيان المغرب ١٣٢/٢ و ٢٦١، وابن الأثير، تكملة الصلاة، رقم ٢١١٤، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٩٠.

(١٩) انظر فيما سبق ص ١٦ من هذا الكتاب.

(٢٠) اللخيرة ١٤/١، وبنو عباد ٤١/٣، وعنها في نفع ١٥٤/٣.

(٢١) نفع ٢٢٤/٣، وعيسى بن ناصح تقي النسب وشغل منصب القاضي في الجزيرة الخضراء في مطلع القرن لتاسع الميلادي.

نفع ٣٤٣/١، و ٢٦١/٢ و ٢٢٤/٣.

وأبو الأجرم عوانة بن الصمة الكلي شاعر هجاء، عاصر جريرا والقرزق، نفع ١٧٧/٣، أما أبو بكر الكندي فلا نعرف عنه شيئا.

تجاوزت إسبانيا وبلغت العراق. ولكن شعراء العراق بعامة كانت فكرتهم سيئة عن الأندلسيين، ويروى أن الغزّال «قذع في هجاء علي بن نافع المعروف بزيّاب، فذكر ذلك لعبد الرحمن فأمر بنفيه، فدخل العراق، وذلك بعد موت أبي نواس بمدة يسيرة، فوجدهم يلهجون بذكره، ولا يساوون شعر أحد يشعرو، فجلس يوماً مع جماعة منهم فأزّروا بأهل الأندلس، واستهجنوا أشعارهم، فتركهم حتى وقعوا في ذكر أبي نواس، فقال لهم: من يحفظ منكم قوله:

ولما رأيت الشرب أكثت سماؤهم نأبطت زقي واحتبست عنائي
فلما أتيت الحان ناديت ربي فشاب خفيف الروح نحو ندائي
قليل هجوع العين إلا تعلّة على وجل مني ومن نظرائي
فقلت: أذقنيها فلما أذاقها طرحت عليه ريطتي وردائي
وقلت: أعرتي بذلة أستر بها بذلت له فيها طلاق نسائي
فوالله ما برت بمي ولا وقت له غير أني ضامن بموقائي
نأبت إلى صبي ولم أك أبداً فكل بُفديتي وحق فدائي!

فأعجبوا بالشعر، وذهبوا في مدحهم له، فلما أفرطوا قال لهم: خففوا عليكم، فإنه لي، فأنكروا ذلك، فأنشدهم قصيدته التي أولها:

تداركت في شرب النبيذ خطائي وفارقت فيه شيمتي وحيائي
فلما أتم القصيدة بالإنشاد جعلوا، وافترقوا عنه»^(٢٢).

وكان المتنبي على شاكلة أبي نواس يعجب ببعض الشعراء الأندلسيين، وقد التقى في مسجد عمرو بن العاص بمصر مع أبي الريد بن عبال^(٢٣). منصرفاً من الحج، ففاوضه قليلاً ثم قال له: أنشدني للملح الأندلس، فأدوك ابن عبال أي شاعر أندلسي يريد المتنبي، فأنشده مقطوعة من أربعة أبيات لابن عبدويه:

إيا لؤلؤا يسبي العقول أنيقاً ورشاً بتعذيب القلوب رقيقاً
ما إن رأيت ولا سمعت مثله ذراً يعود من الحياه عقيقاً
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريقاً
يامن تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقاً!

فلما كمل إنشادها استعدها، ثم صفق بيديه وقال: يا ابن عبد ربه، لقد تأتيتك العراق حبوا»^(٢٤).

(٢٢) نفع ٢٦٠/٧ - ٢٦١، وديبا في مقدمة الطبعة الأولى ٥٤، والطرب ١٤٨.

(٢٣) اعتمد المؤلف رواية المطبع ص ٢٧٣، فذكر أنه أبو الوليد بن عبال، ولكن الرواية في نفع الطيب ٥٦٤/٣ «ابن عبال»، وهي التي أخذنا بها، وفي طبعة الشيخ محمد محيي الدين «ابن عبال» المترجم.

(٢٤) من الكامل، نفع ٥٦٤/٣.

وكلمة «حبوا» تكررت في الحديث النبوي سبع مرات. انظر: ابن خلدون، المقدمة ١٥٤/٢، وترجمتها ١٧٦/٢، وعن هذه القصة انظر المطبع ٢٧٣، وعنه نقلها نفع ٥٦٤/٣، وأحمد ضيفه بلاغة العرب ٩٠، الهاشمي، وفاقوت، إرشاد الأريب ٧١/٢، والمتعالي، القيمة ٣٦٤/١، ولكن المتنبي كان أقل إعجاباً بأبيات قاطة الرمادي متوجهاً بها إلى أبي علي القالي، نفع ٧١/٣.

إجمالاً كان المشاركة يحتفظون للمعاربة بكثير من الاحتقار والاستخفاف أكثر مما يحملون لهم من الإعجاب أو التقدير. نرى أكانوا يحسون بشيء ما، غريب وغير عربي، في شعر هؤلاء القريين جداً من العجم، والمختلطين كثيراً بالمسيحيين؟ ألم يندهش شيشيرون كذلك في كتابه «دفاعاً عن أرسيا Pro Archia» من رؤية مولانيه قساة جداً مع هذا اليوناني، وعلى التقيض شديد الترحيب بشعراء قرطبة، رغم أن أشعارهم كانت تنوء بكل غريب؟^(٢٥).

وكانت تسيطر على المشاركة، دون أدنى شك، فكرة أن النور لا يمكن أن يصدر إلا عن المشرق، ومع ذلك أشاد المتنبي بقضائل شخصيات وُلدت بعيداً عنه، يقول:

كَبُرْتُ حَوْلَ دِيَارِهِمْ لَمَّا بَدَتْ مِنْهَا لَتَمُوسُ وَلَيْسَ فِيهَا لِمَشْرِقٍ^(٢٦)

ولكن هناك أوهاما ومزاعم من الصعب اقتلاعها، وبخاصة في مجال الأدب، ويجب أن نعرف فيما يتصل بالغرب أن الإسبان مسئولون إلى حد كبير عن لاحترار الذي كان يوجه إليهم. يقول ابن عبدون في رسالة توجه بها إلى ابن أبي الحصل^(٢٧):

«وما أنا وقلان، وهل هو إلا من الغرب، وإن كان بزعمه في الصميم من الغرب، وصل الغرب في الأقطار، إلا كاللحق بين الأسطار؟»^(٢٨) هل هذا نواضع من الكاتب أم إحساس حقيقي بقلة قيمته؟ إن الذي تلقى هذه الرسالة يعرف جيداً أن ابن عبدون يتحدث على هذا النحو تواضعاً جليلاً منه. وعندما يقول عبد الواحد المراكشي إن الناس أعجبوا كثيراً بابن هاني حتى أنهم نسيوه بالمتنبي، وهيئات^(٢٩)، فإنما يستجيب لفكرة مسيئة أكثر مما يقرر نتيجة لها مقدماها. ونجد المظفر بن الأقطس صاحب بطونوس «بتكر الشعر على قائله في زمانه، ويُفيل رأى من «رئسم في ديوانه، ويقول: من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو المعري فليسكت، ولا يرضى بدون ذلك»^(٣٠).



بدأت الثقافة الأدبية في إسبانيا بالشعر المشرقي، على نحو ما رأينا، وفرض نفسه نهراً على كل العقول، حتى أن الأندلسيين عندما يريدون وصف أديب أو شخص مثقف يبحثون فوراً في ذو الكرم عن المشرقي الذي يمكن أن يقرن إليه، فهم يشبهون المعتضد بأبي جعفر المنصور من ملوك بني العباس^(٣١)، والمعتمد بالواطى بالله، لذلك جاء الحاد، واتساع معارفه الأدبية^(٣٢)، ولشاعر مروان الطليق، وينحدر من سلالة عبد الرحمن الناصر «في بني أمية كابن المعتز في بني العباس، ملاحة شعر

(٢٥) شيشرون، دفاعاً عن أرسيا ص ٢٦.

(٢٦) من الكامل، ديوان المتنبي، طبعة البروقى ١/٨٠، ونفع ٣/٢٢٢.

(٢٧) سها المؤلف، وأخال الأثر جاء عقول فجعل الرسالة موجهة من ابن أبي الحصل إلى ابن عبدون، فأصلحناها. (الترجم)

(٢٨) المعجب ١٦٩، وترجمته ١٤٥.

(٢٩) المعجب ١٦٦، وترجمته ٩٤.

(٣٠) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ١٨٣ - ١٨٤، وانظر فيما سبق ص ٣٥، الحاشي رقم ١٣ من هذا الكتاب.

(٣١) المعجب ١٧، وترجمته ٨٢.

(٣٢) المعجب ١٠١، وترجمته ٨٦.

وحسن تشبيهه»^(٣٣). ويذهب الرمادي بأنه يركب في الصباح جواد، جمع كل الصفات الحسنة التي جمعها شعراء المشرق: زيد الخيل، والغنوي، والمري، والملوك الضليل، أي امرؤ القيس^(٣٤)، مما يوحي بأن كل القراء يعرفون دواوين هؤلاء الشعراء المشاركة، ويذكر عبد الواحد المراكشي عن ابن زيدون أنه «كان إذا نسب أنسالك كثير عزة، وإذا مدح أزدى يزهر، وإذا فخر أناف على امرئ القيس»^(٣٥). وابن بسام، وطالما أطرى مواطنيه في كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» يثنى عليه أبو بكر ابن عباد القزاز الوشاح الشهير بهذه الأبيات من الشعر

يأمنياً على السماكين سام حُزِنَ خَصَلَ السباكِ عر سـ
 إن تحك منحة فانت زهير أو تشيب فعرة بن حزام
 أو تباكر صيد المها فابن حجر أو تباك السديار فابن حذام
 أو تذل الزمان وهو حقيق فأبو الطيب البيهقي المرامي^(٣٦)

كما شبهوا ابن السقاط بأبي عام. وأبا عبد الله اللوشى بالبحترى^(٣٧)، وعندهم أن ابن قزمان بين الزجالين بمنزلة المتنبي بين الشعراء، على حين أن مدغليس مليفت إلى اللقط^(٣٨) وابن حزم في رسالته عن «فضل أهل الأندلس» يرى أن ابن دراج القسطل لا يتأخر «عن شأو بشار بن برد، وحبيب، والمتنبي»^(٣٩) وابن طاهر المرمسى، أبو عبد الرحمن، «يمثل صاحب إسماعيل بن عباد وأمثاله في الكتب عن نفسه»^(٤٠). وكان الخليفة المهدي يشبه الشاعرة الأندلسية مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري، بالخنساء، ويفضلها على الشاعرة المشرقية قيسا يقال^(٤١). ويمكن أن تأتي بالكثير من الأمثلة ولكني أرى الكفاية قيسا ذكرنا.

ويتجلى إعجاب الأندلسيين بالمشاركة في أنهم يحبون أن ينادوا مواطنيهم من الأدياء بأسماء لشعراء أو لغويين من المشرق، فالأصمعي يقصدون به في إسبانيا محمد بن سعيد الزجالى، وهو من أصل بربرى^(٤٢)، وخنساء المغرب حمدة، أو حمدونة، بنت زياد المؤدب من وادى آش^(٤٣) وثمة شاعر من بطليوس لم يكن يعرف بغير الكميث^(٤٤) وابن زيدون يحترى المغرب^(٤٥)، وابن خفاجة يدعى

(٣٣) الحلة السيرة، نقلا عن ابن حزم، ٢٢١/١، ونفح ٥٨٦/٣.

(٣٤) المظمح ٢١٢.

(٣٥) المعجب ١٠٥، وترجمته ٩٠.

(٣٦) من الخفيف، نفح ٤٩٢/٣.

(٣٧) القلائد ٢٢٢.

(٣٨) نفح ٢٨٥/٣، وأنخل جوثالت بالثيا، تاريخ الأدب الأندلسي ١١٠.

(٣٩) نفح ١٧٨/٢، والعمالي، في بئمة الدهر ٤٣٨/١، يقول: «ابن دراج بالصقع الأندلسي كالمثني بصقع الشام» نفح

١٩٥/٣، وابن خلكان في الوفيات يطلق اسم المتنبي على ابن هاني والرمادي وابن دراج.

(٤٠) الحلة السيرة ١١٨/٢.

(٤١) نفح ٢٩١/٣.

(٤٢) نفح ٥٣٩/٣.

(٤٣) نفح ٢٨٧/٤.

(٤٤) نفح ٤٥٣/٣.

(٤٥) الصغرى الوافي، في نفح الطيب ٥٦٦/٣.

صنوبري الأندلس^(٤٦)، وأبو عبيد الله الرصافي ينادي بأبن الرومي^(٤٧)، وكان ابن سعد المغربي يطلق على أبي بكر المخزومي لقب امرئ الثاني^(٤٨) وأما الذين أطلق عليهم لقب المتنبي فكانوا كثيرين على نحو ما رأينا.

وانتقلت المقارنات من دنيا الرجال إلى عالم المدن والأقاليم، يقول الحجازي في «المسهب»: «الأندلس عراق المغرب عزة أنساب، ورقة آداب، واشتغالا بفنون العلوم، وافتنانا في المنظوم والمنثور»^(٤٩)، كان العراق، مع بغداد، يمثل في نظر الأندلسيين، المكان المثالي حيث أعقبة والموهبة معترفا بها من الجميع، ولها قدسية لا يمكن إنكارها. وهو لون من «البرناسية» مارس جاذبية طاغية على عقول المغاربة، ويراها الشعراء وكبار الرجال «عدنا» أخرى على الأرض، فبغداد والعراق وسورية موطن كبار الشعراء امجددين أمثال: بشار بن برد، وأبي نواس، وأبي تمام، والبحتري، وابن الرومي، وابن المعتز، والعباس بن الأحنف، والمتنبي نفسه، والشريف الرضي، ومهيار الديلمي والمعري أيضاً.

يقول الحاجب المظفر، ابن المنصور وخليفته من بعده، «ما أحسن الذكر الجميل في بطون الأوراق، والمحاسن تنشأ بالأندلس، ثم تطير إلى الشام والعراق»^(٥٠)، فالقائد يدير عينيه نحو الحمدانيين في حلب، والشاعر يحب أن تبلغ شهرته العراق. وأنشد أبو عبيد الله البكري من قوطية، مخاطب ابن السقاويزر أبي الوليد جهوره، وقد خرج رسولا إلى باديس بن حبوس في غرناطة:

كذا في بروج السعد ينتقل البدرُ وتحسن حيث احتل أنثره القطرُ
وتقسم الأرض الحظوظ؛ فيقعة لها وافر منها، وأخرى لها نذرُ
لذل مكان غاب عنه مُملكي وعز مكان حلّه ذلك البدر
فلو نقلت أرض خطاها لأقبلت تهنيه بغداد بقربك قومصر^(٥١)

ويقول ابن درّاج القسطل في قصيدة يمدح بها خيران الصقلبي صاحب المرية، عام ٤٠٧ هـ = ١٠١٦ م:

فإن غربت أرض المغرب موطنى وأنكرنى فيها خليط وخيلان
فكم رحبت أرض العراق بمقدمي وأجزلت البثري على خراسان^(٥٢)

(٤٦) نفع ٢/ ٤٤٨.

(٤٧) نفع ٢/ ٤٨٦.

(٤٨) نفع ١/ ١١٩١.

(٤٩) نفع ٢/ ١٥٥.

(٥٠) فيما يخص هذا الموضوع يمكن العودة إلى: غرسه غوث، بغداد وملوك الطوائف في مجلة «العرب» العدد ١٢٧، يناير

١٩٣٤، ص ١ - ٢٢.

(٥١) أعمال الأعلام ٨٧.

(٥٢) الحلة ٢/ ١٨٦، وأبحاث ط ١ ص ٢٨٨ - ٢٩٦.

● في الأصل الفرنسي ابن السقاط، وهو خطأ المترجم.

(٥٣) بن الطويل، أعمال الأعلام ٨٧.

وهذا الشعر واضح الدلالة. نعم كان الشعراء يطمحون في الذهاب إلى العراق لأنهم يعانون من خيبة الأمل في إسبانيا، فهل مرّد هذا أن الاضطرابات السياسية وحدها في مطلع القرن الحادى عشر، حالت بينهم. وبين أن يظهروا مزايدهم، وأن يتمتعوا بحريتهم كاملة في إرضاء كبريائهم؟ نحن نغفل إلى الاعتقاد بأن خيانة الأصدقاء، وتشهير الزملاء، أخرى بأن يكون سبب ضيق الكتاب النهمين إلى المديح، فوجدوا أنفسهم مكرهين على أن يرتدوا بأبصارهم نحو فردوس برئى من الحسد، وحيث الشعراء في قامة الملوك.

ويؤكد لنا ابن حزم نفسه قلق إسبانيا المثقفة، في النصف الأول من القرن الحادى عشر، فالعراق فيها يرى «دار هجرة الفهم وذويه، ومراد المعارف وأربابها»^(٥٤)، ولكن ابن حزم يعبر عن أفكاره بطريقة أروع، خلال أبيات له، توجه بها إلى عبد الرحمن بن بشير أبي المطرف، قاضى الجماعة في قرطبة، وفيها يكشف لنا عن روح استبدت به الأمانى القلقة لا ترضى حتى ولو أتيح لها أن تذهب إلى العراق، وهو ما يصبو إليه ويطمح فيه:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة
ولو أننى من جانب الشرق طالع
ولى نحو أكناف العراق حباة
فلن ينزل الرحمن رحلي بينهم
فكم قاتل أغفلته وهو حاضر
هنالك يدري أن للبعد قصة
فيا عجباً من غاب عنهم تشوفوا
وإن مكاناً ضاق عنى لصيق
وإن رجلاً ضيعوى لضع

ولكن عيسى أن مطلعتي الغرب
لجذ على ما ضاع من ذكرى النهب
ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فحينئذ يبدو التأسف والكرب
وأطلب ما عنه تجئ به الكتب
وأن كساد العلم آفته القرب^(٥٥)
له، ودنو المرء من دارهم ذنب
على أنه فيح مهمه سهب
وإن زماناً لم أتل خضبة جذب^(٥٦)

ولم يسبق أن وصف ابن حزم نفسه أبدا بهذه الدقة كما وصفها في هذه الأبيات، وتعتقد أنه لم يكن الوحيد الذى اجتاحت داخله هذا القلق الروحي العميق.

نعم بعد ابن حزم، في النصف الثانى من القرن الحادى عشر، قلت الرغبة في الرحلة إلى المشرق، أو الإقامة في بغداد ورغم ذلك ظل الناس يعتبرون العراق المكان المثالى الذى يشجع الشعراء على الإبداع.

(٥٤) ابن حزم، رسالة فضل أهل الأندلس، في نفع ١٣٧/٣.

(٥٥) يمكن أن نقارن هذا بالمثل الأندلسي: «العالم كالحمام، يأتيه الجيد ويذهب فيه الغريب» البكري، كتاب الأمثال، نقلا عن الرحلة التجانية، طبعة مرسية ٩٧.

(٥٦) من الظهري، نفع ٨١/٢، المصنوع ٤٨، وترجمته ٤١، والذخيرة ١٧٣/١، وماقوت، إرشاد الأريب ٩٦/٥، وأسبن بلاتوس، ابن حزم ٢٣٧/١.

● قلت: هذه القصيدة طويلة، جاءت في أكثر من مئة بيت، كلها في الفصحى، وكانت ضائعة، ليس بين أيدينا منها إلا أبيات شوارب، تنبأها المصادر المختلفة، ثم عثرنا عليها في مخطوطة بدار الكتب المصرية، ونشرناها كاملة. انظر: الطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن حزم وكتابه طرق الحماة، ط ٣، ص ٤٠٩، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢، (المترجم).

وسوف نجد مثل شكوى ابن دراج وابن حزم بعد ذلك في عصر المرابطين، عندما تكان الشعراء بجيوبون إسبانيا والمغرب طلباً للهداب، وتأميناً للقيمة العيش حتى لا يموتوا من الجوع. وقد كتب بن بقي إثر عودته من المغرب ولم يحسنوا استقباله هناك:

نا امرؤ إن نبتت بي أرضٌ ندلسُ جئتُ العراقَ فقامت لي عي قدم^(٥٧)
وإذا كان ابن حزم، وهو في النهاية عالم نفسى وذكى، استطاع أن يبطل في أعماقه، وأن يفهم روحه جيداً، واعترف بأن العراق سوف يخيب أمه، مثل إسبانيا، إلا أن بقية الشعراء والأدباء ظلوا على سنتهم في التطلع إلى المشرق، لأن «كساد العلم آفته القرب» على ما يقول ابن حزم، رغم أن الذين ذهبوا منهم إلى هناك عادوا غير سعداء. فالحسد والوقية ينتشران في بغداد، كما هو الحال في قرطبة، وفي بقية المدن الإسبانية الأخرى، وقد مرّ الغزال بهذه التجربة، وعاناها ابن عيشون أبو حامر كذلك، قريباً من نهاية القرن الحادى عشر^(٥٨).



كان ابن حزم حكماً عندما فكر أنه ليست هناك فائدة في لذهاب بعيداً للبحث عن شيء موجود تحت يده. غير أن الشغف بالمشرق لم يكن عاماً كما يُظن، لأن «الإنسية» الإسبانية أدركت أن دراسة الشعر المشرقى وحده ليست كافية لإعطاء معرفة كاملة عن الإنسان، وأن المبالغة في شادة المشرق تجعل الناس يجازفون بالآراء من الأشياء إلا جانباً واحداً، ربما الأقل جمالا، وربما كسر الحاسم في تحديد الفكرة غيره، وعمّ الناس شعور قوى أنه إذا كان المغرب يدين للمشرق بالكثير فقد ظهرت هنا على أرضه قيم جديدة، لا تلقاها هناك إلا نادراً، ويجب على الأديب الذى يهيم بالموازنة بين لكفاءات ألا يتجاهلها.

ومن الملاحظ حقاً أن إسبانيا في القرن الحادى عشر تمتعت بفهم للثقافة واسع جد، وكان هناك من يرى بأن يلتحق المغرب بالمشرق، ومن ينادى بوقف احتقار الأدب المغربى في المشرق، والذى انساب، في جانب منه، عبر برامج التعليم نفسها حتى بلغ إسبانيا، وأن يقرأ الأندلسيون ابن هاني الأندلسى ويترسوه، كما يقرأون المتنبى ويترسونه. وكان حسام الدولة بن روين، صاحب السهلة، يقرأ ديوان بن دى، هذا الشاعر الذى خلق في سناء الشعر مكرراً واعتبط شاباً^(٥٩). ولد يأنف ابن البين ابطليوسى من أن يستلهم ديوان ابن هاني في بعض قصائده^(٦٠). وكان ابن عمّر، طبقاً لعبد الواحد المراكشى «أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبى القاسم محمد بن هاني الأندلسى»^(٦١). وقد أدى الكبرياء الأندلسى بأهده إلى مناقسة المشاركة، ويقص علينا الحميدى: «تند بحصرة بعض ملوك الأندلس قطعة لبعض أهل المشرق، وهى:

(٥٧) انظر: دراسى عن «الشعر في فاس في عصر المرابطين والموحدين»، مجلة هيسبيريس ١٩٣٤، المجلد ١٨ ص ١٤.

(٥٨) نفع ٤٩٤/٢.

(٥٩) نفع ٤٠٧/٣.

(٦٠) نفع ٤٥٣/٣.

(٦١) المعجب ١١١، وترجته ٩٤.

وماذا عليهم لو أجابوا فسلموا وقد علموا أني المشوق الميّم
سروا ونجوم الليل زهر طوالح على أنهم بالليل للناس أنجم
وأخفوا على تلك المطايا مسيرهم فتم عليها في الظلام التيسم
فأفرط عض الحاضرين في استحسانها، وقال: هذا ما لا يقدر أندلسي على مثله، وبالحضرة
أبو بكر يحيى بن هذيل، فقال بديها:

عرفت بعرف الربيع أين تيمموا وأين استقل الطاعنون وخيموا
خيلتي ردائي إلى جانب الحمى فليست إلى غير الحمى أنتم
أبيت سمر الفرقدين كأنما وسادى قتاد أو ضجيجي أرقم
وأحور وسان الجنون كأنه قضب من الريحان لذن منعم
نظرت إلى أجفائه وإلى الهوى نأيقنت أني لست منهن أسلم
كما أن إبراهيم أول نظرة رأى في الدراري أنه سوف يسقم^(٦٢)

ولم يعلق الحميدي، وروى لنا القصة، على ما حدث، ولو أنه تركنا نفهم في وضوح أن أبيات
الأندلسي، في نظره، كانت في مستوى الشاعر المشرقى المجهول، إن لم تفقها.

حتى القرن الحادى عشر يمكن القول أن نمة أسبابا مادية، ربما، أدت إلى عدم تقدير الإسيان
لشعرهم ونثرهم، أهمها أن دواوين الشعراء لم تكن قد جمعت بعد، ولم تؤلف أية مختارات أدبية أندلسية،
وقد حاول ابن فرج الجياني أن يعوض هذا النقص فألف كتاب «الحدايق»، متأثرا بابن داود
الأصفهاني و كتابه «الزهر»، ولكن «الحدايق» ضائع، ولم يصلنا منه إلا النصوص التي احتفظت بها
كتب التراجم والمختارات المتأخرة، التي نقلت عنه، وهي تسمح لنا بأن نقرأ أن كل القطع التي وردت
فيه كانت لشعراء أندلسيين^(٦٣). وكان الغرض منه تعريف الإسيانيين بأديهم، وفيما يبدو لنا محاولة أولى،
وجفلة في الوقت نفسه، جاءت كرد فعل ضد المشرق. وبعد ذلك بأقل من نصف قرن^(٦٤) أكمل أدب
شاب من قرطبة، هو أبو الوليد الحميرى ابن حسب، وزير القاضى أبى القاسم بن عبّاد صاحب
إشبيلية، حداثى ابن فرج الجياني، بعنوان: «البديع في وصف الربيع»، ولحسن الحظ وصلنا هذه
لمختارات كاملة^(٦٥)، وأغلبها قطع سرية نصف الربيع والحدايق والأزهار، ولكنها لشعراء أو كتاب من

(٦٢) من أطول، فتح ١٥٣/٢.

(٦٣) عن الحدايق لابن فرج الجياني انظر: ابن بسام، الذخيرة ١٤٢/٢، والخصى، البقية ١٤١، وابن دحية، المطرب ٤، ونفع
٦٠٤/١ و ٥٠١/٢ و ١٧٣/٣ و ١٨٢ و ٤٨/٤ و ٢٨٦، وابن الأثير، الحلة ٣٩/١ وأمكنة أخرى كثيرة و ٣٧٢/٢، وعن كتاب
الزهره انظر، ماسنون، مجموعةصوص غير منشورة ص ٣٢ - ٢٤٠، ونيكل، مقدمته لطبعة الجزء الأول من كتاب الزهره.
(٦٤) يشير فتح الطب إلى اثنين من كتب المختارات ألفا في القرن الحادى عشر الميلادى، وهما: «أخبار شعراء الأندلس» لعبادة
بن ماء السهام، وكتاب «التهنیهات من أشعار أهل الأندلس» لأبى الحسن على بن محمد بن أبى الحسن الكاتب، انظر: نفع
١٧٣/٣.

(٦٥) مخطوطة الإسكوريال رقم ٣٥٢، وقد استخدمنا هذه المخطوطة أساسا عند دراستنا لزهور الأندلس.
● قلت: وقد نشر المؤلف هذه المخطوطة فيما بعد، وصورت في سلسلة مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الجزء السابع، في
الرباط عام ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠ م، وإليها نحيل في الإشارات المنصلة بالكتاب، (الترجم).

شيبيلة، وأثار اتساع الكتاب يومها إعجاب الناس، فتساءلوا: كم مجدداً يحتاج إليها الكتب ليسجل جميع القصائد التي من هذا النوع في إسبانيا كلها.

وكانت مقدمة أبي الوليد الحميري للكتاب إعلاناً حقيقياً بولده الأدب القومي: «وأما أشعار أهل المشرق فقد كثر الوقوف عليها والتنظر إليها حتى ما تميل نحوها النفوس، ولا يروقه منها القلب النفيس، مع أنى ستغنى عنها، ولا حوج إليها، بما أذكره للأندلسيين من النثر المبتدع، والظم المخترع، وأكثر ذلك لأهل عصرى، إذا لم تغيب وادهم عن ذكرى... ولأهل المشرق في تأليف أشعر شعرائهم، وتدوين أخبار علمائهم، الفضل عينا، والسبق لنا، حتى لقد يجمعون خشيتها مع حسنها، ويضيفون لحنها إلى الحنأ لا قلة مئز بها، بل تخرجنا عن تركها، ولو جرى أهل الأندلس على تلك الطريقة، لأوردت على الحقيقة أمثال ما أوردت، وأضعاف ما اجتلبت، لكن أهل المشرق على تأليفهم لأشعارهم، وتنقيهم لأخبارهم، مد تكلمت العرب بكلامها. وشغلت بنثرها ونظامها، إلى هلم جرا، لا يجدون لأنفسهم من التشبيهات في هذه الموصوفات، ما وجدته لأهل بلدى» (٦٦).

وفي نهاية القرن الحادى عشر، ومطلع القرن الذى تلاه، رأى كاتب آخر ضرورة تكرار المحاولة بالنسبة إلى القرن الحادى عشر كله، لكن القضية وإن أصبحت مفهومة لم يربحها الأنالسون تماما. ولكي ينتصر فيها ابن بسام نهائيا ألف كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» ويعتبر يدلسية لعصر الفتنة وملوك الطوائف وثيقة أدبية وتاريخية قيمة جدا، وفيه لم يقتنع ابن بسام بذكر الأخبار ورواية الأشعار لكل من عرض لهم من الكتاب والشعراء، وإنما قدم لهم، وأضاف إليهم، صفحات مطوّلة عن أحداث عصرهم التاريخية نقلها، أو الجانب الأكبر منها، من كتاب «المبين» لابن حيان، وهو لم يصنف (٦٧).

وإذا كان ابن بسام لم يقدر أبا الوليد الحميرى، فإن هذا تجاهل أيضا ابن فرج فما يظهر، ولقد نقل ابن بسام أفكارها بعد أن أعطاها شكلا أكثر يريفا، لتتمشى مع ذوق العصر الذى يعيش فيه، فمن الأفضل أن يبلغ قلوب وعقول معاصريه بأسلحتهم نفسها: «نثر لو رآه البديع لتسى اسمه، أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه، ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح، أو تتبعه جـزول ما عوى ولا نبح، إلا أن أهل هذا الأفق أبو إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم معتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعى بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنأ، وتلوا ذلك كتابا محكما، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمى القصيدة، ومناخ الرذيلة،

(٦٦) أبو الوليد الحميرى، البديع ص ٢.

(٦٧) عن أهمية كتاب الذخيرة من الوجهة التاريخية انظر: بروفنسال، عن الجديد في مخطوطات الذخيرة لابن بسام، وهو بحث ألقاه في مؤتمر المشرقين السابع عشر، الذى انعقد في أوكسفورد في ٢٨ أغسطس ١٩٢٨، ونشر في مجلة هيسبيوس عام ١٩٣٣، انجلد ١٦ ص ١٥٨ - ١٦١.

● قلت: نشر الدكتور إحسان عيس الذخيرة كاملة، في ثمانية مجلدات، وألحق بها فهراس كاملة، وإن شاب النشر كثير من النقص في الضبط، ومتابعة كل النسخ المخطوطة، إلا أن العمل في جلته سد فراغا هائلا في مجال الدراسات الأنسسية وقدم لجمهور الباحثين خدمة مقدرة ومشكورة. وصدر الكتاب عام ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

وعن الذخيرة وصاحبها انظر الفصل الخاص بها في كتابنا دراسة في مصادر الأدب، الطبعة السادسة، دار المعارف القاهرة ١٩٨٥ (الترجم).

لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يُصرف فيها لسان ولا يد. فتأخلفي منهم ذلك، وأنفت بما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهرى، وتبع محاسن أهل بلدى وعصرى، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة، وتصبح بحاره نماداً مضمحلة، مع كثر أدبائه، ووفور علمائه، وقديما ضيعوا العلم وأهله، ويارب محسن مات إحسانه قبله، وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالإحسان؟»^(٦٨).

ولم يغفل ابن بسام على امتداد كتابه المطول أية فرصة تواتره ليسجل تفوق الأندلسيين على المشاركة، وفيما يتصل بالعباسيين لم يتردد في أن يعلن، وهو بصدد الحديث عن بني عباد، أن إقليم إشبيلية اجتمع فيه ما تناهى به الأقاليم العراقية، ونسب بلغاء الدولة الديلية، «فقلها رأيت فيه نائرا غير ماهر، ولا شاعرا غير قاهر، دعوا حرّ الكلام فلبى، وأرادوه فما تأبى، وطريقتهم في الشعر الطريقة المنلى، التى هى طريقة البحرى فى السلاسة والمتانة، والعذوبة والرصانة»^(٦٩).

وكان الفتح بن خاقان معاصرا لابن بسام، وألف في الوقت نفسه كتابه: «قلائد العقيان» و«مطمح الأنس»، ووقفها على القرن الحادى عشر والقرون التى سبقتها^(٧٠).

وفي هذا العصر جمع كبار الشعراء قصائدهم في دواوين، فصنع ذلك المعتضد والمعتد، وابن عمار، وابن زيدون. وابن خفاجة، وابن حمديس، وآخرون. وكان واجبا على هذه الكثرة من الشعراء الممتازين في القرن الحادى عشر أن تكرر جهدها لتظهر مكانة الشعر الإسياني الإسلامى في نطاق الأدب العربى.

وبعد ذلك بقليل سوف يبلغ ابن دحية، المتوفى عام ٦٣٣ هـ = ١٢٣٥ م، درن شك، عندما يتحدث عن إحدى قصائد الغزال فيقول: «وهذا الشعر لو روى لعمر بن أبى ربيعة، أو ليشار بن برد، أو لعباس بن الأحنف، ومن سلك هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستغرب له. وإنما أوجب أن يكون ذكره منسيا أن كان أندلسيا، وإلا فماله أخل، وما حق مثله أن يحل»^(٧١).

وماذا أيضا عن أبى جعفر أحمد بن طلحة، الوزير الكاتب، الذى أثب مواعظيه في عصر الموحدين قائلا: «تقيمون القيامة لحبيب والبحرى والمتبى، وفي عصركم من يعتدى إلى ما لم يهتدوا إليه»^(٧٢).

ولكن الشاهد على أن الشعر الإسياني يمثل في نهاية المطاف جانبا من عالم الأدب العربى يتجلى لنا فيما يرويه الصفدى في كتابه «الوافى»: «قال بعض الأدباء: من لبس البياض، وتحتم بالعقيق، وقرأ لأبى عمرو، وتفقه للشافعى، وروى شعر ابن زيدون، فقد استكمل الظرف»^(٧٣).

(٦٨) ابن بسام، الذخيرة ١٢/١، وبنو عباد ٣٩/٣، ونفع ٥٠٠/٢. تفسير بعض الألفاظ الواردة بالنص:

الرذية، الناقة الهزيلة اثروكة التى لا تهدد أن تلحق بالركاب، يعنى أن أشعارهم وأخبارهم منبوذة.

الأعلام: لبديع المصداق وابن هلال من كتاب النثر في العصر العباسى، وجرويه وهو الخطيئة، وكثير عزة شاعران من العصر الأموى. وقلادة بن دعامة المتوفى ١١٨ هـ = ٧٣٦ م، كان من حفاظ أهل زمانه، ومن العلماء بالقرآن والفقه في البصرة.

(٦٩) الذخيرة ١٢/٢، وبنو عباد ٢٠٢/١.

(٧٠) وألف الحجارى، المتوفى ٥٥٠ هـ = ١١٥٥ م كتابه «المسهب في فضائل المغرب»، نفع ١٨٣/٣.

(٧١) ابن دحية، المطرب ١٤٥، تحقيق إبراهيم الإيبارى وآخرين، القاهرة ١٩٥٤.

(٧٢) نفع ٣٠٧/٣.

(٧٣) نفع ٥٦٦/٣.

○ الفصل الرابع:

شِعْرُ البلاط وشعراؤه

أحبُّ الأندلسيون الشعر مهما كانت طبقتهم ويمكن القول أنهم ولدوا جميعا ينظمون الشعر، أو على الأقل يفتنون بالجمال الحفى الذى ينساب عبر أبياته المنقومة. ألم يقل ابن بسام من مقدمة كتابه «الذخيرة» لا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر فاهر^(١)؟. ويدعى مؤرخون وجغرافيون آخرون أن الشعراء العظام كانوا يوجدون أيضا في أهدى الضياع النائية، على نحو ما هم عليه في أكبر المدن المتميزة، مثل: شلب ووداي آش^(٢).



وهذا الازدهار لا يعود فحسب إلى الأمراء والأعيان والقضاة، وبعمامة كل هؤلاء الذين أتاحت لهم طبقتهم الاجتماعية، ومركزهم المالى، أن يدرسوا الشعر في سن الصبا والمراهقة، وإنما يعود أيضا إلى الفنانين الأشد بساطة في الحياة، وعامة الشعب الأكثر حرمانا من الثقافة الأدبية بجناها الدقيق. ولنلقى في كل مكان بالشعراء الأميين الذين يجهلون القراءة والكتابة، ولأن التحميم كان عاما وشائعا فإن التفسير الوحيد الذى نستطيع أن نندمه لأبيتهم، أنهم تذوقوا الشعر والعلم في سن متأخرة، مستمعين إليه في لحظات فراغهم، بعد أن تجاوزوا السن التى يمكن أن يذهبوا فيها إلى لكتاب، وكان الكتاب والأدباء يقبلون مقتطفين أن يكون في صحبتهم أى شخص، شريطة أن يظهر بعض الاستعداد لإلقاء بعض العبارات الأدبية، أو لمزج بعض أبيات الشعر، كما هو حال ابن جاج البطليوسى الأُمى، «وهو من أعاجيب الدنيا، لا يقرأ ولا يكتب»، وستكلم عنه فيما بعد، وكان ذلك أيضا حال ابن لبال الأُمى، والذى أصبح أستاذ ابن عيودون^(٣).

ويجب أن نذكر المكفوفين إلى جانب هؤلاء العلماء والشعراء الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، وما أكثر الأدباء الذين حملوا في إسمائهم الإسلامية صفة كفيف، أو أعمى، أو ضريب. ويتحدث الصفدى في كتابه «نكت الحميان في نكت العميان»^(٤) عن كثير من الأندلسيين الذين تميزوا في الأدب أو العلوم الإسلامية، رغم أنهم حرموا نعمة البصر منذ ولادتهم، أو خلال حياتهم، ويكتفى أن نذكر هنا، بالنسبة للقرن الحادى عشر، عالم اللغة ابن سيده المرسى، والأعشى التطيلى الشاعر.

(١) الذخيرة ٢٢/١، ونفع ١٥٤/٢.

(٢) انظر فيما سياتى ص ١٣١ - ١٣٤ من هذا الكتاب.

(٣) ابن دحية، المطرب ١٨١.

(٤) الصفدى، نكت الحميان، طبعة لقاهرة ١٣٢٩ هـ = ١٩١١م، وانظر ترجمة أحمد زكى باشا له إلى اللغة الفرنسية، القاهرة

أما الفنانون المتقنون فكانوا كثيرين أيضاً، وكان ابن عسار، وهو من أسرة متواضعة للغاية، يعرف مدى الفائدة الكبرى التي يمكن أن تعود على المرء من مخالطة عامة الشعب، وبخاصة أولئك الذين يكسبون من أجل لقمة العيش، وكثيراً ما كان يرحل، قبل أن يرتبط بالمعتمد، طلباً لما يصدر عن أرباب المهن من نتاج أدبي، ولم يكن هؤلاء يأنفون، وجهدهم موزع بين عملين، أن ينظموا الأبيات في موضوعات مألوفة لهم. ولقد أدرك ابن عسار واعياً ما يمكن أن يكسبه من صور جديدة، ومن تشبيهات دقيقة، يلتقطها من الواقع في الأناظر عذبة صحيحة، حين يتردد على هذه المهابط، وإليه يعود الفضل في اكتشاف ابن جهم، وكان صباغاً في بطلينوس، وبحيى، وكان جزّاراً في سرقسطة^(٥)، وأبى تمام غالب بين رباح، وكان حجاجاً في قلعة رباح، واشتهر بأبياته الواقعية المنفرة أحياناً، كأن يصف القروح المقطاة بالذباب، أو الأحشاء تلتهمها الطيور الجارحة^(٦). وسنحدث المراكشي عن أبي بكر الداني، الشهير بابن اللبانة، فيقول: «ولابن اللبانة هذا أخ اسمه عبد العزيز، وكانا شاعرين، إلا أن عبد العزيز منهم لم يرض الشعر صناعة، ولا اتخذ مكياب، وإنما كان من جملة التجار»^(٧).

ولكن إضافة الفلاحين إلى الحياة الأدبية هي الأكثر أهمية، دون شك، فالحياة في الحقول ليست دائماً عملاً متصلاً، إنها أيضاً تدع للأحلام مكاناً. ويمكن القول إن أعمق الشعر ذاتية هو ما تفجر من رجال ونساء التصقوا بالأرض والطبيعة عن قرب، وهم يصورونها لنا في دقة وتعمكن المشاهد في أبياتهم، خشنة أورقيقة، وهؤلاء الشعراء هم الذين انقسموا فيما بعد في حياة المدن المرفهة، وعبروا عن أقوى الأفكار، في أحلى الصور نضارة وأزهارها لونا. وهم الذين أضفوا على الشعر الأندلسي هذه الظلال الريفية، أو لرعية إن شئت، ويضارع أروع ما كان يكتب في اليونان أو روما من أدب صادق، في نطاق هذا الجنس الأدبي من اللون الزراعي، سواء عكس رقة أشعار أتا كريوت^(٨) أم لا. ولقد أحس ابن عسار بمهبريته تفتتح فيما حول شلب من حقول، ومثله ابن شرف في قرية برجة أما ابن مقان، وهو من قرية القيداق، بالقرب من شترة، فقد اجتاحه الحنين إلى قريته في أخريات حياته، فعاد إلى حقوله وزراعته^(٩).

وكانت لطبقات العليا تتذوق الشعر بقوة وفي عمق، ووجد مروان الطليق، ذلك الأموي الإسباني، مملكته الحقيقية في الشعر، شأن ابن المعتز بين بني العباس في المسرق، ولم يبعد عن الحقيقة حين يقول في قصيدة طويلة له، ذاعت شهرتها:

شَرَفِي نَفْسِي وَخَلِيِّي أَدَبِي وَحُسَامِي يَقُولِي عِنْدَ اللَّقَا

(٥) بن طغر، بدتبع الديانة ٧٤ - ٧٥، عنه نسخة ٦٠٨/٢، ولقد ترك يحيى لشعر وعاد جزاوا فأرسل إليه ابن هود الحاجب أبا الفضل بن حسداى ليؤخذه على ذلك، فرد عليه يحيى بيت من الشعر:

تَرَكَتَ الشَّعْرَ مِنْ عَدَمِ الْإِصَابَةِ وَبَلَغْتَ إِلَى الشَّجَاوَةِ وَالْقَصَابَةِ
وَسَمِعْتُ لَهُ فِيمَا بَعْدَ عِنْدَ حَدِيثَا عَنْ الْمَهْنِ الَّتِي وَصَفَهَا الشُّعْرَاءُ، وَانْظُرْ: نَجْع ١٥٢/٤.

(٦) نَجْع ٤١٥/٣.

(٧) المعجب ١٤٩، وترجمته ١٢٦.

(٨) أنا كريوت، ٥٦٠ - ٤٧٨ ق.م. شاعر يوناني غنائي شهير، تفتق بالمهاج الحسية، وتميز باللطف والرفقة، واشتقت منه صفة نطق على الشعر الذي يجننى نهجه (المترجم).

(٩) انظر فيما بعد ص ١٨١ - ١٨٢ من هذا الكتاب.

أنا فخر العيشمين وبى جَد من فخرهم ما أحققا
أنا أكسو ما عفا من مجدهم بحلى رونق شعري رونق^(١٠)

وكان المظفر ابن المنصور بن أبي عامر يعجب كثيرا بالأبيات التي تصف الزهور، ويقترح على شعرائه في بعض أوقات الربيع من دولته قطعاً ثوابة، عن الحدائق والبراري، ويحب أن تغنيها قيانته^(١١).

ولم تشغل الحرب أو السياسة الأندلسيين عن اهتماماتهم المفضلة، فالخليفة الأموي المستظهر يتباحث، رغم أحداث الفتنة ومعارك البربر التي لا تنتهي، «في الآداب، ونظم الشعر، والتسلق بذلك الأهداب» مع أبي عامر ابن شهيد، وأبي محمد ابن حزم، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم^(١٢).

وكان المعتضد قاسياً وطموحاً، وينظم الأبيات من الشعر يصف فيها نفسه، فكان أعبدق من أبي مؤلف أو مؤرخ أو كاتب آخر تحدث عنه، وتكشف لنا من حين لآخر عن نزوع إلى التعبير عن عواطفه بطريقة يفار منها أرق الشعراء العذريين، لأنه درس قبل أن يتولى الحكم بعد والده القاضي أبي القاسم دواوين الشعر المشرقي، على نحو ما يستطيع أن يفعله الأمراء الموهوبون. وكما لحظ ابن بسام تأثر من الشعر بما فيه الكفاية، إلى جانب ما يتمتع به من مواهب عقلية، ليصبح قادراً على نظم أبيات رائعة، دون أن يتعمق في الأشياء^(١٣). وكانت قصائده الشعرية كثيرة حتى أن ابن أخيه إسماعيل استطاع أن يجمع منها ديواناً^(١٤). وله ألف العالم النحوي واللغوي الشهير الأعلم الشتمري تروحه على المختارات الشعرية الكبرى، وهي: ديوان الشعراء الستة الجاهليين، وحاسة أبي تمام، وكلاهما قاعدة الدراسات الأدبية^(١٥).

أما ابنه المعتمد فكان يمثل شخصية الشاعر الأندلسي النموذجي، وحاول خلال حكمه الطويل أن يجعل من إشبيلية مهوى الأفئدة، وأشد البلاد، إن لم تكن وحدها، جذبا للأدباء في شبه الجزيرة، ونزعت عاصمة بني عباد إلى أن تضيف التفوق الثقافي إلى ما تتمتع به من نفوذ سياسي. ويقرر المؤرخون العرب - وبحق - مستخدمين صورة مؤثرة لوصف عصر المعتمد: «وكان له في الأدب باع وساع، ينظم وينثر، رقى أيامه نفقت سوق الأدباء، فتسابقوا إليه، وتهافتوا عليه. وشعره مدون موجود بأيدي الناس، ولم يك في ملوك الأندلس قبله أشعر منه، ولا أوسع مادة»^(١٦).

(١٠) من الرمل، الحلة ٢٢٤/١.

● قلت: الدراسة الجيدة، وربما كانت الوحيدة، لهذا الشاعر الرقيق، قام بها السنشري الإسباني إميليو غرسية غومت، وبجدها القارئ في كتابه الذي ترجمه إلى اللغة العربية بعنوان: «شعراء الأندلس والشتى» الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥ (المترجم).

(١١) البيان المغرب ١٨/٣، ولم يترجمه دوزي في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣.

(١٢) فتح ٤٨٩/١.

(١٣) الذخيرة ٢٨/٢، وعنها في «بنو عبد» ٢٤٥/١، وترجمته ص ٢٦٧.

(١٤) الذخيرة ٢٩/٢، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٥/١، وترجمتها ص ٣٦٨، والحلة ٤٣/٢، والبيان المغرب ٢٨٤/٣. وقد جمع

كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة قصائد المعتضد أخيراً، في آخر ديوان ابن زيدون، القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م، ص ٣٧٠ - ٣٧٦.

(١٥) البيان المغرب ٢٨٤/٣، نقلاً عن ابن القطان. وانظر فيما سبق ص ٢٤ من هذا الكتاب.

(١٦) الحلة ٥٥/٢، وفي «بنو عباد» ٦٣/٢.

وكان بلاط المريّة، عدا بعض الفترات النادرة، مكاناً محبباً إلى شعراء شبه الجزيرة، يترددون عليه، ويحيي في مرتبة تالية لإشيبيلية بنى عبّاد. ومع أن الشعراء الذين كانوا في رعاية المعتصم درجوا على أن يغار بعضهم من بعض، إلا أن الأمير أصم أذنيه دون الغيبة والتهمية والوشاية، وظل يستقبل الجميع بنفس طيبة، وعرف كيف يعفو عن الإهانات عندما يعتذر عنها أصحابها بأبيات جميلة من الشعر^(١٧). وكان أولاده وبناته من حوله يظهرون الحلم والوداعة نفسها، ويتذوقون القضايا الفكرية إقبالاً وإدباً^(١٨).

أما ملوك الطوائف الآخرون فكان شغفهم بالشعر أكثر من تذوقهم الحقيقي له، وقد أخذ قول المظفر صاحب بطليوس إنه لا يرضى بشعراء دون المتنبى والمعري مكانة^(١٩) همة أدباء بلاطه بخاصة وقتل من رغبة هؤلاء الذين يريدون التقرب والذهاب إليه بعامّة، وقد استطاع بعضهم الوصول دون شك، ولكنهم دفعوا الثمن ملقاً خسيّاً، ومن بين هؤلاء هذا الذي يدعى أبا الوليد بن ضابط النحوي، وترك مألقة إلى بطليوس بحثاً عن الثراء. أليس هو القاتل:

نظمتنا لك الشعرَ البديعَ لأننا علمنا بأنّ الشعرَ عندك ينفق
فإن كنتَ مني بامتداحٍ مظفراً فإني في قصدي إليك موفق^(٢٠)

ولكن ابن جاح الصبّاغ، وهو أصلاً من بطليوس نفسها، أعطانا في قصيدته التي مدح بها المعتضد إيقاعاً آخر مختلف النغم:

إنّ القريضَ لكاسدٌ في أرضنا وله هنا سوقٌ بغير كساد
فجلبت من شعري إليك قوافياً يفي الزمان وذكرها متماد^(٢١)

وعاش الشعراء في غرناطة في رعب أكيد متصل فيما يبدو، على الأقل تحت حكم باديس بن حبوس، وحين كان يستقبل بعض الأدباء في حفاوة، مثل غانم المخزومي^(٢٢)، فلأنه يعتبرهم دون شك فقهاء أولاً، أكثر منهم لغويين أو شعراء، وكان يلاحق كل أولئك الذين يحاولون أن يحتفظوا بأى لون من الاستقلال الفكري. ولقد شجع غانم المخزومي أحد أبناء إخوانه على أن يترك دولة باديس قائلاً له: «رئيس غرناطة شير مأمون على الدماء، فكأن أنت بالمريّة، فإنّ قتلني بقيت أنت، وتنت في أول فتوتك، فأعطاني من كتبه جملة، وأقمت بها»^(٢٣).

- (١٧) انظر م. بروي عن ذلك في: نفع ٥٠٤/٣، وأبحاث ط ١ ص ٨٨، و ط ٢ ج ١ ص ٢٤٦.
(١٨) عقار فقيع الدولة بن المعتصم عن لشاعر الأندلس في شعر مدح به ابن النفرة اليهودي وزير أمير غرناطة، نفع ٣٨٧/٣.
وعن تكاد أبناء المعتصم في قول الشعر انظر: النخبة ٧٢٩/١ وما بعدها، والحلة السرد ٧٨/٢، وصفحات ١١٠ - ١١٢ و ١٢٠ - ١٢١ و ١٢٤ - ١٣٧ من أبحاث الطبعة الأولى، وص ٢٦٣ - ٢٦٥ و ٢٧٠ - ٢٧١ و ٢٧٢ - ٢٧٤ من أبحاث ط ج ١، ونفع ٣٦٦/٢ - ٣٦٨، وص ٣٨١ من هذا الكتاب.
(١٩) انظر فيما سبق ص ٥٠، الملحق رقم ٣٠ من هذا الكتاب.
(٢٠) من الطويل، نفع ٣٩٨/٣.
(٢١) من الكامل، نفع ٢٤٥/٤، وعنه في «بنو عباد» ٢٢٠/٢، وص ٧٣ - ٧٤ من هذا الكتاب.
(٢٢) نفع ٢٦٥/٣.
(٢٣) السويطي، بغية الوعاة ١١٧/١، ترجمة رقم ١٩٦، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م، ودوزي، أبحاث ط ١ ص ٩٣ - ٩٤، و ط ٣ ج ١ ص ٢٦٩، وملحق ص ٥٢ - ٥٣.

ولكن خفاء باديس، وكانو أندلسيين حقاً، أحاطوا أنفسهم بالشعراء والمفكرين، وأظهروا بعض الشغف بالفنون المختلفة، وإذا لم يكن أمراء البربر الآخرين قادرين على أن ينظروا الأبيات من الشعر، فعلى الأقل كانوا يظهرون سعادتهم الغامرة بالاستماع إليه. «وكان لناصر على بن حمود، على عجمته وبعده عن الفضائل يصفى إلى الأمداح ويثيب عليها» وحتى يشجع عليها من حوله^(٢٤). وثمة حكاية تظهر لنا قوة تأثير الشعر حتى على أشد القلوب قساوة، فقد كان الوزير الصهاجى سماجة، وعمل في شيخوخته مربياً لأمرء غرناطة، «حازماً شديد السطوة، مرهوب العقاب، جواداً شجاعاً فاضلاً، ذكر عنه الغرناطيون أنه اشتد في منع اتخاذ الخمر، وجعل بإزاء ذلك القتل غريزة، لم يحل عقدها، ولا نسخ حكمها، فبينما طائفة من أبناء الأعيان، وصدور الطلبة أولى الوجوه الحسن، على راحة لهم بجهة المصلى القديم خارج القصبة، إذ أظلمهم سماجة فجأة، فسقط في أيديهم، وأيقنوا لهلكه، فابتدره قبل الوصول إليهم فتي منهم، فأنشده:

بينما نحن بالمصلى نُسقى وجناح العشي فيه جنوح
إذ أنا سامة يتلألا رُدَّ في الشرق من تجلید نوح
فطفقنا نقول بعض لبعض أغبوق شرايبنا أم صَبوح

قال: فخجل سماجة، وأس الصبي، ووعده بالإحسان، وانصرف من طريقه، إغضاء وتغافلاً^(٢٥). رى هل كانوا يتذوقون التعرُّ كذلك، على هذا النحو الواضح، في بقية الممالك الإسلامية الأخرى في شبه جزيرة إيبيريا؟ ثمة شواهد تدعونا إلى تصديق ذلك. وإذا كان أمراء سرقسطة وطليطلة عرفوا باهتمامهم الخاصة بالفلك والرياضيات، فقد شهرُوا أيضاً بحماية الأدباء والشعراء من بينهم بخاصة^(٢٦).

أليس مدهشاً أن ينتشر شعر على هذا النحو في إسبانيا القرن الحادى عشر؟ من النادر أن تجد لهذا الواقع شبيهاً في المشرق منذ أن أشرقت شمس الإسلام، ولا شيء منه في الغرب الإسلامى في القرون التى سبقت عصر ملوك الطوائف، ففي المشرق ظهر الشعر نتاجاً أُرستقراطياً، أما في إسبانيا القرن الحادى عشر فأخذ في الحقيقة خطأ قومياً كامل الوضوح، لأن الظروف السياسية والاجتماعية كانت مهية على نحو رائع، والعصور الوسطى المسيحية في القرنين الثانى عشر والثالث عشر يمكن أن تقدم أيضاً مثلاً متشابهاً ومنهلاً في شخص شعراء التروبادور.

كان الشعر بالنسبة للعامل وانفلاخ أنشودة الجحام التى تنسيه مشقة التعب، وللكاتب والوزير انفلاته من عبودية المهام والهمم، وبالنسبة للشعراء المحترفين وسيلة لكسب لقمة العيش، ورغم ذلك

(٢٤) نفح ٤٨٣/١.

(٢٥) أعمال الأعلام ٢٣٤، وهذه القصة تشبه حكاية قديمة جداً تقول إن عامل الحاج من يوسف ذجا ليلا ثلاثة شبان وعذعنهم لا يجاهلهم أبياتا من الشعر، انظر: لتواجى، حلبة الكميت ٤٦، ومثيل، المؤلفون العرب ١٦٥ - ١٦٦ ونذكر أن المستعين بالله، خليفة الأموى خلال أيام الفتنة عفا عن أحد عقاله لأنه تقدم إليه باعتذاره شعراء الحلة ١١/٢.

(٢٦) ألف المؤرخ أمير سرقسطة تتابى في العلوم الرياضية، وها: كتاب المناظر وكتاب الاستكمال. انظر- نفح ٤٤١/١، وابن حلدون، البر ١٦٢/٤، والتلقتنويه صبح الأعشى ٢٥٥/٥.

فإن ظاهرة البيع والشراء لم تأت على كل الاهتمامات الفنية، وكان بالنسبة للجميع موضع فخر ومباهاة، وبجلاً متسعاً لا يحيط من قدر أمير يقتحم عالمه، بل على النقيض، يعلى من شأنه ومقامه. والأندلسيون يحبون الشعر لذته، ولأنه كلام موزون مقفى، ينساب من الشفاه ألقاً وأنغاماً، ولأنه كلام مجتج، وموسيقاً قبل أن يكون خطباً، والناس يتغنون به أكثر مما يلقونه كلاماً مرسلًا^(٢٧).



أحب الأندلسيون الشعر في صدق وحرارة بلغت ببعضهم حد العشق، ويقول عجزو: «شيتان يقهرانى، ولا أملك نفسى عندهما: النظر إلى الوجه الحسن، وسماع الشعر المطبوع»^(٢٨). ومن حكاياتهم «أن القاضي أبا عبد الله محمد بن عيسى، من بنى يحيى بن يحيى، خرج إلى حضور جنازة، وكان لرجل من إخوانه منزل بقرب مقبرة قريش، فعزم عليه في الميل إليه، فنزل وأحضر له طعاماً، وغنت جارية:

طابت بطيب لثانك الأقداح وزهت بحمرة وجهك التفاح
وإذا الريح تسمت أرواحه تمت بعرف نسيمك الأرواح
وإذا الحسادس ألست ظلماءها فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فكتبها القاضي طرباً على باطن كفه، قال الراوى: فلقد رأيته يكبر على الجنازة والأبيات على ظهر يده»^(٢٩).

وترجمة الأبيات، على مافى الترجمة من خيانة، تعكس حقيقة الانفعال بالشعر، والتي نجدها عند كل الأندلسيين، وجاءت وليدة إحساس عميق بالطبيعة، يشوبه لون من عبادة مثالية للمرأة. لقد استعدوا شعراء الأندلس من الطبيعة بخاصة أجل مافيه من خطوط، لكي ينسجوا منها صورهم الشعرية.

فلنصغ إلى المعتمد فى بيتين يختم بهما قصيدته التى نظمها «يستعطف بها أباه المعتضد، لما فرط منه فى أمر مالفقه، وخذله أصحابه فأخرج منها»:

إليك روضة فكر جاذ منبتها ندى يمينك لا طل ولا مطر
جعلت ذكرك فى أرجائها زهراً فكل أوقاتها للمجتى تشر^(٣٠)

التكلف بين، ولكننا لا نستطيع غير الاعتراف بما فى البيتين من نضارة رفيعة.

(٢٧) كثيرون من الشعراء كانوا فى الوقت نفسه نافرين وموسيقين، أمثال: أبى عبد الله بن الحداد من المره، وابن باجة من سرقطة، والرواضى بن المصدد بن عباد.

(٢٨) نفع ٤٠٣/٢. وعن معنى «الوجه الحسن» انظر: ماسنون، الحلاج، ص ١٧٨ هامش ٣ و ٧٩٦ هامش ٧، رص ٣١٧ من هذا الكتاب.

(٢٩) من الكامل، نفع ٥٦٤/٣.

(٣٠) من البسيط، ديوان المعتمد ص ٤٠، جمه وحققه أحمد أحمد بدوى، وحامد عبد المجيد، القاهرة ١٩٥٦. وخريدة العصر وعننا فى «بنو عاد» ٣١٤/١. وأخذنا برواية الديوان. وهذه الأبيات قد قُدمت لها، دون أدق شك، شاعراً مشرقياً، انظر: دوزى، معجم اللباس ١٢٣.

وأبو العلاء بن صهيب يمدح صديقه أبا أمية يقول:

وعندي حديثٌ من علاك علقتهُ يسيرُ كما سار النسيمُ على الزهرِ
فيلغُ أقصى الأرضِ وهي عريضةُ ويهدى جنَى النورِ من روضةٍ لشعرِ
ففى كلِّ أفقٍ من حديقك عاطرٌ يسيرُ به لفظي ويطلعه فكري
ودرنك منى قطعة الروض قطعةً تحيك عن ودَى وتنفع عن شكرى^(٣١)

وهذه النماذج من الأمثلة كافية لتصوير مفهوم الشعر عند الأندلسيين في جانب منه، فهو بالنسبة لأرواحهم فنانين لا يمكن أن يمضى، إذا أردنا له تجسيدا رائع المجاذبية، إلا في صورة حديقة أرجة، تجذب البصر، وتمتع الشم في الوقت نفسه.

ولكن الشعراء لم يتوقفوا عند هذا المفهوم، ويمكن أن نعتبره ملحة بارعة أكثر منها حقيقة، وإذا لم يصلوا إلى تصوّر مجازي للشعر كما صنع اليونان حين رمزوا له بـ «موز Muse» ربّة الفنون، فعلى الأقل كان لديهم مفهوم يقترب كثيرا مما لدى اليونان. وثمة صورة شاعت في المشرق في القرون التي سبقت، ونجدها في تعبير قديم يصف قصيدة بأنها عذراء. ولكن الأندلسيين بما جيلوا عليه من ميل طبيعي إلى تجسيد الأفكار المجردة، صنعوا من هذا التعبير المعاد صورة حية متوهجة، فالشعر، وهو فن رفيع في نظرهم، نجده مجسما عندهم في صورة عذراء حقيقية، وتزف لزوجها ليلة عرسها. سكرى تجر ذيوها.

يقول أبو بكر، محمد بن أحمد بن رُحيم، من قصيدة طويلة يهني فيها أخاه أبا الحسن يولود:

وإليكها مثل العروس زففتها سكرى تجرُ ذيوها يتبخترُ
عذراءٌ إلا أنني حملتها علز التأخير ليت لم أتأخير^(٣٢)

ويقول أبو محمد بن السيد لبطليوسى من قصيدة يحيب بها شاعرا قرطيبا مدحه:

لله عذراء زُفت منك رائحة تحتال من حيرها المرقوم في حبر
صداقها الصدق من ودَى ومنزلها بصيرى وسواد القلب والبصر^(٣٣)

وعند شعراء آخرين لن تكون العذراء، ولكن المرأة يتألق جسمها كله جمالا، وزينتها تجسد الشعر، وعلى هذا النحو يصف ابن عمار قصيدة تلقاها من أبي عيسى بن لبون:

لله درُ عقيمة برزتها من خلد فكرك في حلّ الإنشاد
فرعاء عاطرة الفرائب واللى غيداء حالية الطلى والهدى^(٣٤)

غير أن هذا التصور الرفيع للشعر، والتحمس لكل ما يتصل بالكلام المنظوم، يقابله من جانب آخر

(٣١) من الطويل. الثلاث ٢٨٣.

(٣٢) من الكامل. الثلاث ١١٨.

(٣٣) من البسيط. الثلاث ١١٦.

(٣٤) من الكامل. الثلاث ٩٤.

تحفظ عدد كبير من الأندلسيين، لأن اللعنة التي وسعها القرآن لا تزال قائمة أبداً^(٣٥).
وأشد وأخطر ما وُجّه إلى الشعر من ملامة، اعتماده القوى، بعامته، على المشاعر والخيال، أي باختصار انصافه بالكذب. يقول القاضي أبو عبدالله بن زرقون:

أَسْأَلُ اللَّهَ عَفْوَهُ فَلَيْتَنِي سَاءَ مَا لِي لَقَدْ تَعَفُّ الْقُلُوبُ
قَدْ بَنَى الْفَقِي الصَّغَائِرَ ظُرْفًا لَا سِوَاهَا، وَلِلذَنُوبِ ذُنُوبٌ
وَأَخُو الشَّعْرِ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ وَسِوَاءَ صِدْقِهِ وَالْكَذُوبِ^(٣٦)

ولكن أشد الأحكام قسوة على الشعر أورده ابن بسام في مقدمة كتابه الذخيرة، ولو أن كل مختاراته من الشعر تشهد بحب واضح له، وبخاصة ما نظمه مواطنوه الأندلسيون. أما مقدمته فعمل النقيض، لقد كتبها في لحظة كانت الأحداث السياسية في وطنه، بعد سقوط ملوك الطوائف، تجعل حياة الأدباء غير آمنة، وتركت خيبة الأمل تعم، وجعلت من ابن بسام أكثر نقاد الحياة الأدبية مرارة في نهاية القرن الحادي عشر، يقول:

«ومع أن أشعر لم أرضه مركباً، ولا اتخذته مكسباً، ولا ألفتني مثنى ولا متغلباً، إنما زرتني لما ما، ولحنته تهباً لا اهتماماً، رغبة بمرّة نفسي عن ذله، وترفعاً لموطئ أخصي عن محله، فإذا شعشت راحه، ودأبت أقداحه، لم أذقه إلا شميماء، ولا كنت إلا على الحديث ندياً، وما لي وله، وإنما أكره خدعة محتال، وخلعة محتال، جده تمويه وتخيل، وهزله تدليه وتضليل، وحقائق العلوم، أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم»^(٣٧).

لقد أراد ابن بسام دون شك أن يلتقي على مشاعره الحقيقية ستارا، لأن المرابطين أصبحوا سادة إسبانيا، في اللحظة التي حرّر فيها كتابه، ورأى من واجبه أن يحامل أبطال العقيدة الجدة، و«حقائق المعلوم»، أي تدريس العلوم الدينية، تحجى في المقام الأول من اهتمامهم، واضطر، دون شك أيضاً، أن يحكم على الشعر بهذه القسوة من خلال مشاهد الحياة الأدبية في إشبيلية، على نحو ما عرضت له في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي. لقد رأى الأدباء والشعراء والكتاب يهتمون في المقام الأول بكسب المال عن طريق نظم الشعر، أكثر من اهتمامهم بالإلهام الصادق والإبداع الحقيقي، يقول في المقدمة نفسها:

«الأدب بها [الضمير يعود على إشبيلية] أقل من الوقاه، حامله أضيع من قمر الشتاء، وقيمة كل أحد ماله، وأسوة كل بلد جهاله، حسب المرء أن يسلم وفره، وإن تلم قدره، وأن تكثر فضته وزهيه، وإن قل دينه وحسبه»^(٣٨).

(٣٥) سورة الشعراء الآيات ٢٢٤ - ٢٢٦. وكان هذا هو الرأي الشائع بين أوساط المسلمين النفاة في الصور الأولى. وفي مقابلة رأى آخر وضع في القرن الحادي عشر الميلادي. وعرضه ابن رشيق نقضاً في كتابه العمد ج ١ ص ٤ - ٩ و ١٢ و ٢٨ - ٣٠.

(٣٦) من الخفيف، نفع ٤٧٥/٣.

(٣٧) الذخيرة ١٨/١، وعنها في «بنو عباده» ٤٢/٣، والترجمة اللاتينية للنص ص ٦٣.

(٣٨) الذخيرة ٢٠/١، وعنها في «بنو عباده» ٤٥/٣.

ولكن، ليست هذه المرة الأولى التي ينتهم فيها الناس أدباء الأندلس بأنهم يهتمون بالتفاهات، ويعيشون حياة منحلة، على حين يفرض عليهم الذين أن يلتفتوا إلى الحياة الآخرة. وقد تعرض ابن شهيد لحملة تشهير لدى أمراء الشيعة الأندلسيين، في بدء أيام الفتنة، وموجها الحديث إلى أحد أقربائه الذي وضعه في السجن يقول:

وما ضره إلا مزاج ورقة ننته سفيه الذكر وهو رشيد
جنى ما جنى في قبة الملك غيره وطوق منه بالعظيمة جيد^(٣٩)

وبعد هذين البيتين من الشعر يخالف الشاعر بحقه في نظم قصائد رفيعة، حتى لو ضلت غير مفهومة من الجمهور. وبين لنا ابن شهيد في نبذة بالغة الحداثة تمامًا، كيف يستطيع الشاعر من خلال تفاهة في الظاهر أن يقدم نغماً صادقاً في شعره، وكيف يخطئ الذين يرون في هذا الجمع من الكلمات الموزونة، والقوافي البراقة مجرد تلاعب بالخيال:

وما في إلا الشعر أنينه الهوى فسار به في العالمين قريب
أفوه بمالم آمنه منعرضاً لحسن المعاني تارة فأزبد
فإن طال ذكرى بالمجون فإنها عظام لم يصبر حين جليد
وهل كنت في العشاق ول عاقل هوت بحجابه أعين بخدود
فراق وشجوة، واشتياق وذلة وجبار حفاظ على عنيده^(٤٠)

قابن شهيد بروحه الحساس، ودكائه الحاد. لا يرى الشعر إذن ملحة عابثة، ولكن ضرورة نفسية بلوذ بها، وتتيح له أن يهرب من البيئة حوله وقاسى فيها، كما حدث لابن بسام معه الكثير من الصدام والإهانات.

وتشعر بقوة أن الذي يرقضه المتقفون ليس الشعر في ذاته، ولكنه النظم الذي يتكسب به صاحبه، ويقصد من ورائه أن يربح لقمة العيش^(٤١). فهم يرون الشعر لعبة فكرية جليلة القدر، وحيلة روحية بالغة السمو، ومن الإسامة إليه أن نجعله يخدم أغراضاً وضعية.

ويصف المعتمد الغري، وهو يتحدث إلى رجل يعرف بابن الزنجاري، طلب منه إشعراً يتزود بها في غربته:

يا سائل الشعر يجتأب الفلاة به تزويدك الشعر لا يغني عن السغب
زاد من الريح لارئي ولا شيع غدا له مؤثراً ذو اللب والأدب^(٤٢)

ويبدو فقدان الثقة في الشاعر استكسب واضحاً في الحكاية التالية، ويرى ابن شهيد ابن عيود عن نفسه، وجرت بينه وبين مؤدبه إلى الوليد ابن ضابط النحوي المالكى، وسن ابن عيود إذ ذاك

(٣٩) من الطويل، الطبع ١٩٨، وعنه في نفع ٣٦١/٣. وانظر فيما سأتى ص ٩٠ - ٩١ من هذا الكتاب.

(٤٠) من الطويل، الطبع ١٩٨، وعنه في نفع ٣٦١/٣.

(٤١) يروي أن بكراً المرواني الزاهد، وهو أموي الأصل كما انتهى إليه نسبه قال ذات يوم: إن شاباً من قرأته جاء يزوره، وصرح له بأنه يرتقى بالشعر، فقال له: «إنه يشأ يرتقى به، ونعم ما يتحل به إذا كان لغير هذا الوجه». نفع ٣٢٤/٣.

(٤٢) من البسيط، الذخيرة ٦٨/٢، وعنها في «بنو عباد» ٣١٤/١، وترجمته ص ٢٥٦.

ثلاث عشرة سنة، وجرى بين يديه ذكر الشعر، فعن المؤدب أن قال:
الشعرُ خُطَّةٌ خَسَفَ

وجعل يرُدُّ هذا القول، فكتب ابن عبدون في لوحه مجيزاً، ومعرضاً به حين كان يستجدي بالنظم وهو شيخ:

لكلِّ طالبٍ عَرَفَ

ثم خطر له بيت ثان وهو:

لشَيْخٍ عَمَبَةُ عَيْبٍ وَلِلْفَقْرِ ظَرْفٌ ظَرْفٌ

«قال: فنظر إلى المؤدب وقال: يا عبد المجيد، ما الذى تكتب؟ فأرثته اللوح، فلما رآه لطمنى وعرك أذنى، وقال: لا تشغل بهذا! وكتب البيتين عنده»^(٤٣).

ومن الحق أن نسأل عما إذا كان النقد الموجه للشعر بصدور عن فقهاء غلب عليهم الميل إلى الزهد، أو نحاته ساخطين لأن جراحاً مَتَّ كبريائهم، أم أنه ارتبط بوضع الشاعر نفسه خلال الفترة التى ندرسها.

وعندما يقول ابن ضابط لتلميذه ابن عبدون: .. الشعر خطة خسف، فأشارته هنا لا تنصرف لغير الشعراء المتكسبين، وهذه الطبقة الخاصة، وتتكون من عدد مدهش، تستحق منا قبل كل شيء وقفة مستأنية، واهتماماً أكبر^(٤٤).

يجب أن نعترف بدءاً بأن هذه الحركة لم تكن شائعة من قبل على النحو الذى حدث فى القرن الحادى عشر الميلادى، ويرجع هذا فى المقام الأول إلى الطريقة التى كان الناس يفهمون بها منهج الدراسة فى إسبانيا. لقد رأينا من قبل أنهم كانوا يبدؤون بالشعر، وكان من الطبيعى، وساعدت البيئة فى ذلك، أن يندفع الطلبة أثناء دراستهم لإعطاء مكان راجح للعبة القوافى، والتى يمكنهم أن يروا فيها أرق فنون الكتابة والفكر وأسماها، وبالتالي يمكنهم أن يجدوا فى مهنة الشاعر الطريق الوحيد المحتمل الذى يمكن أن يرضى كبريائهم.. وأن يجلب لهم المال. وكان النجاح البسيط فى محيط الأصدقاء حولهم والحكايات الكثيرة، مشرقية أو مغربية، تعرض لما يلقاه الشاعر من مكافأة أو تدليل، مقابل جواب رشق حاضر، أو قصيدة جيدة، تؤكد هذه القيم فى أعماقهم.



(٤٣) من المجلد، نفع ٣/٣٩٧، وألفلاذ ١٤٧، وابن زاكور الورقة ١٠١ب، والمعجب ٨٧، وترجمته ٧٤.

(٤٤) نحن مضطرون هنا إلى أن نترك جانباً الشعراء الذين لا يقولون الشعر إلا فى لحظات سباهجهم، إما لطبقتهم الاجتماعية أو لظروفهم المادية، وعندما يجيئون أنفسهم مدفوعين لقول الشعر فحسب، كالأمراء وكبار الوزراء، فأبناء المعتقد، وأبناء شهيد لا يقولون الشعر فى الحقيقة إلا استجابة لضواغط داخلية قوية، وقد رأينا كم هو سام ورفيع مفهوم الشعر عند ابن شهيد. وهذه الطبقة من الشعراء لا يمكن أن نتحدث ونحن بصدها عن التنافس من أجل لقمة العيش، أو مطالب احترام الشعر، ولتقد الوحيد الذى يمكن أن يوجه إليها أنها أنصحت مكاناً رحيماً للترقى والمهت والمزاج، وسوف تكتشف أن رجال الدين كانوا أكثرهم قابلية لقوله فى هذا المجال. وأنشئ الذى يمكن أن نصنعه معهم، أن نتناول شعرهم شكلاً ومضموناً، ونرد إلى دوائهم، وأن تحدد طبقتهم شعراء مطبوعين، وهم قد لا يمكن أن يصدر عن شعراء آخرين منها كانت الطبقة الاجتماعية التى يتنمون إليها.

من الخير إذن أن نبعث في الطريقة التي يبدأ بها الشاعر، وكان عندما يصل أخيراً يحافظ على مكانته، مهما تكن الوسائل التي استخدمها.

سنحاول أن نرسم صورة لحياة الشاعر الإسباني، القادم من أصول متواضعة، ويمكن أن نوجزها في كلمات بسيطة: الدراسة في قرية صغيرة، ثم في مدينة كبيرة، تتلوها حياة متشردة، إلى اللحظة التي يجيئه فيها النجاح.

كثيرون من الشعراء كانوا ينحدرون من أصول ريفية، ويمكن الظن أن بعض رجال السحو من هواة الشعر، ومن وقفوا طموحهم على ممارسة مهنة «المؤدب» في بعض الضياع المغمورة غرسوا فيهم صغاراً تدوق الشعر وحبّه، والقصص التي تحكى عن ابن عمار تؤكد هذا، إنها تقدمه لنا وقد «ورد في بعض سفراته شلب، لا يملك إلا دابة لا يجد علفها، فكتب بشعره إلى رجل من وجوه أهل السوق، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيراً ووجه بها إليه»^(٤٥). وتقدمه لنا مرة أخرى، وقد قدم على أبي عبد الرحمن بن طاهر صاحب مرسية، «في فروة طويلة، وغفارة جبلية ضئيلة»، فكان منظره غريباً مضحكاً^(٤٦).

وقد أبو الفضل ابن شرف من برجة على المرية، بحثاً عن الثروة، وقدم على المعتصم في زى تظهر عليه البداوة، ويتناقض بشدة مع ما فيه حاشية الأمير من ملابس جميلة، فنكر عليه أحد الحاضرين، وسأله في وقاحة: من أى البوادي أنت؟ فجاء رد الشاعر عليه جارحاً ومصححاً، وأظهر أن الموهبة في الحديث ليست وقتاً على أبناء المدن وحدهم^(٤٧).

(٤٥) المعجب ١١٤، وترجمته ٩٧، وقد عاد ابن عمار إلى شلب مرة أخرى، ولما عليها في هذه المرة، ودة إلى التاجر الذي أعطاه الشعر المخلاة مملوءة درهم، وقال له: «لو كنت قد ملأتها لي قمحا لأعديتها لك الآن مملوءة ذهباً». وتجد القصة في المصادر نفسها، وانظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٨٣ و ٩٢.

(٤٦) الهبة ١٢/٧، وبنو عباد ٨٨/٢، ومعجم الملابس لادريز ٣١٤ - ٣١٥، والنخبة ٢٦/٣. ذهب ابن عمار يحارب ابن طاهر لحساب المعتصم بن عبد، ولكنه هزم أخيراً. واعتقله ابن طاهر، فأرسل إلى ابن طاهر في وقت القبض عليه عرضي عليه خلعة، فرد بن طاهر: لا أختار من خلعه إلا «فروة طويلة وغفارة ضئيلة» يرضى بربه يوم قصده للمرة الأولى شاعراً مداحاً. انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١١٠ - ١١١.

وبعد ذلك بأعوام قدم من شلب المجبوري صاحب المسهب، وهو يبررى من صنهاجة، ووقف على عبد الملك بن سعيد، جد مؤلف المغرب في حل المغرب، في قلعة بني سعيد، فلما وقف على يده وهو يزي بدابة ازدهاء البواهر، فقال لهم: استخفوا لي على القائد، فصحكوا به، وقالوا له: ما كان وجد القائد من يدخل عليه في هذه الساعة إلا أنت، فمد يده إلى دواة في حزامه وسحامة، وكتب بها: يباب القائد الأعلى - لا زال أعلا بالقضيلة - رجل وقد عليه من شلب بقصيدة مطلعها:

عليك أحوالي الذكر الجميل فصح العزم واقتضى الرحيل

ورغب إلى أحد غلمانة فأوصل الورقة، فلما وقف عليها القائد قال: من شلب، وهذا مطلع قصيدته، ما لهذا إلا شأن، ولعله الوزير ابن عمار، عجلوا له بالإفخ. لا يمكن أن يكون هناك من هو «عرف بالتاريخ الأدبي لإسبانيا من قائد قلعة بني سعيد: لقد رأى في الطلب شاعراً، قد يكون ابن عمار أو مثله، وزيه يجب ألا يحق حائلاً دون تقدير موهبته الشعرية. انظر: نفع ١٢٢/٤، والفيجاني، تحفة القروس، في «بنو عباد» ١٤١/٢.

وقد ظهر ابن عبيد بن شيخان عند الوزير أبي مروان عبد الملك بن زهر، ويقص ولد أبي مروان أنه جاء إليه «ود الهبة، عليه ثياب غليظة، أكثرها صوف، وعلى رأسه عمامة قد لاتها من غير إنقان لها، فحسبه لما رأيته من بعض أهل البداوة». انظر: المعجب ٨٩، وترجمته ٧٥.

(٤٧) أبحاث، ط ١ ص ٩١ و ٩٥، وط ٣ ج ١ ص ٢٤٩، ونفع ٣٩٢/٣.

وكذلك وصل إلى المزية الشاعر أبو الوليد النحلي، أثناء تجواله، « في أسعال دنسة، والناس قد لبسوا البياض »^(٤٨).

عندما ينحدر الشخص من أصول متواضعة يحتاج، دون شك، إلى قدر كبير من الإرادة والثقة بالنفس، لكي يحقق مجداً، واحتمال أن يصبح المرء شاعراً مشهوراً، وفي الوقت نفسه وزيراً مقتدرًا، كان بلا شك يدفع الفلاحين والحرفيين الذين يشتمون بشيء من الثقافة كي يجرؤوا حظهم، ومن جهة أخرى لم تكن الصعوبات التي تواجه أرباب هذه المهنة تخفى عليهم، فقد كان الشعراء كثيرين جدًّا، وكان النقاد غاية في الذكاء والدقة، ولكن الموهبة وحدها لا تكفي، وإنما يحتاج الأمر معها لكثير من العمل والصلابة لتحقيق النجاح.

ولا ينبغي أن ندهش عندما نقع على إشارات عبد الشعراء تلمح إلى السهرات الطويلة التي كانوا يوقفونها على دراسة الشعر، لأنهم يشغلون سحابة نهارهم بالعمل اليدوي غالبًا، حتى يضعنوا على الأقل ما يقيم أود حياتهم، والليل وحده يمكن أن يتيح للحرفي، إذا بقيت لديه فضلة من قوة، أن يكب على دراساته المفضلة، فيقرأ للشعراء وينظم الشعر.

وأحيانًا كان الشاعر يفقد الأمل، يقول ابن الخطاط الكفيف:

لم يخلُ من نوب الزمانِ أديبُ كلاً فشان النائبات عجبُ
وغضرة الأيام تأتي أن يرى فيها لأبناء الذكاء نصيبُ
وكذاك من صِيب الليالي طالِبًا جدًّا وفهما فاته المطلوب^(٤٩)

وقد لعب ابن الخطاط بلفظ « الليالي »، لأنه في صورته جمعاً يعنى « الكوارث » أيضاً، وهو في البيت الثالث يشير على التأكيد إلى عادة الطلاب الفقراء الذين يسهرون على وميض قنديل خافت. وكان ابن الزقاق، وأصبح مشهوراً بين مواطنيه مثل ابن خفاجة وابن عائشة، « يسهر في الليل، ويشغل بالأدب، وكان أبوه فقيراً جداً فلامه، وقال له: نحن فقراء، ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه. فاتفق أن برع في الأدب والعلم ونظم الشعر، فمدحها بكر ابن العزيز صاحب بلنسية، فأطلق له ثلاث مئة دينار، فجاء بها إلى أبيه وهو جالس في حانوته، مكب على صنته، ووضعها في حجره، وقال: خذها فاشتر بها زيتاً »^(٥٠).

واليك هذه الحكاية التي تضع اثنين في موضع الخصام، فقيه وشاعر، وكلاهما من القرن الحادى عشر: أبا الوليد الباجي وابن حزم، وكانت ظروفها متباينة جداً، على الأقل في شياهما، وهى أيضاً بالغة الدلالة.

(٤٨) المجلد ٢/٨٨، والنخيرة، طبعة القاهرة، قسم ١، مجلد ٢، ص ٢٤٢، وسنعود إلى هذا الموضوع عند الحديث عن ألوان الملابس والمزّن.

(٤٩) من الطويل، نفع ٣/٢٨٨.

(٥٠) نفع ٣/٢٨٩. لقد كان يوسع الأب، مغلوباً على أمره، أن يعطى بالمثل اللاتينى: ما أروع رائحة الدرس حين تتبع بأريج الزيت!

● قلت: شك المستشرق الإسحاق إمبايو غرسيه غومت - بحق - في هذه القصة، وناقشها في دراسته لابن الزقاق. انظر ترجمتنا لكتابه «مع شعراء الأندلس والمنتقى» الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥. (المترجم).

« ناظر أبو الوليد الباجي ابن حزم فقال: أنا أعظم منك همة في طلب العلم، لأنك طلته وأنت معان عليه، تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق»

« فقال ابن حزم: هذا الكلام عليك لا لك، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حال، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته، فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في دنيا والآخرة، فأفحمه»^(٥١).

وعندما يحس الشاعر الناشئ بالثقة في نفسه يرحل ليحرب حظه، ولم يعرف العالم لإسلامي أبدا مثل هذا العدد من الرحالة، يذرعون لأندلس طولا وعرضا، على نحو ما سيفعل شعراء التروبادور بعد ذلك بقليل، يذهبون من بلد إلى بلد، ويتنقلون من بلاط إلى بلاط، يعرضون شعاعهم، مدحون بها تاجرا موسرا أو موظفا كبيرا، أو أميرا سخيّا، وغايتهم أن يحصلوا على الهدايا، عينا أو عرضا.

ومن الواضح تماما أن هذه الرحلات على الأرض الإسبانية كانت قاعدة وضرورة عند شعراء القرن الحادي عشر، ونجدهم خلال سنوات، وربما في عدة أشهر، في مدن مختلفة ومتباعدة، أحيانا في الشمال وأخرى في الجنوب، مرة في العرب وأخرى في أقصى الشرق، فأبو المطرف ابن الدباغ مثلا، عاش على التوالي في سرقسطة وإشبيلية وبطليوس، ثم رجع أخيرا إلى المدينة الأولى^(٥٢). وابن عمار جاء من «العرب» في الأندلس، وطالت به الرحلة حتى بلغ سرقسطة في الثغر الأعلى^(٥٣).

يمكن تفسير هذه الرحلات بأن مردها في المقام الأول الحصول على المال، وقد يملّ المحسن سماع الشاعر نفسه، عندما لا يعرف هذا كيف يجدد في موضوعاته وصوره. الحاجة إذن هي التي كانت تدفع الشاعر إلى التنقل والترحال.

يقول ابن سارة:

مقام حُرُّ بأرض هون عجزَ لعمري من المقيم
سافرَ فلان لم يجد كريما فمن ثبم إلى لثيم^(٥٤)

ولا يمكن أن تتصور بلاطات الأمر في إسبانيا إلا لونا من المجامع العلمية، الشعراء فيها أطفال مدللون، وإن لم تكن تحسن استقبال لأدباء على الدوام، والشكاوى الكثيرة التي سجلها المؤرخون وكتاب التراجم والسير والمختارات تجعلنا نعتقد بأن هذه الثورات ضد مصير ظالم تنعزى على شيء من الصدق. ويغمر الشاعر، باستثناء بعض الحالات، إحساسا بالخيبة، لأنه غير مفهيم أينما ذهب.

يقول أبو بحر يوسف بن عبد الصمد:

فوصلت أقطارا لغير أحية ومدحت أقواما بغير صلات
أموال أشعاري تحت فتكاثر ف جعلت مدحي للبخيل زكّي^(٥٥)

(٥١) نفع ٧٧/٢، وديبا، مقدمة طبعة نفع الطيب الأوربية، ٤٨/١، وأسبن بلاطيس، ابن حزم لترطبي ٢٠٦/١.

(٥٢) الأخيرة ٢٥١/٣، وعنها في أبحاث ط ١ ص ١٦٣ - ١٦٨ و ١٧٠.

(٥٣) أشار ابن قزمان إلى رحلاته الكثيرة في الزجل رقم ٧٤.

(٥٤) من مخنق البسيط، نفع ١١/٤.

(٥٥) من الطويل، نفع ٥٣٤/٣.

وكانت الشكاوى تحت حكم المرابطين أشد مرارة، ولم يحدث أبداً أن صيغ قرار اتهام ضد لا مبالاة مجتمع القرن الحادى عشر إزاء قضايا الفكر بعامة، والشعر منها بخاصة، فى قسوة الذى وجهه ابن بقى وعنه. ومن الواضح أن الشاعر، وهو فنان، بالغ وتطأرف بعض الشيء ضرورة، وأحس بأن إخفاقاته الصغيرة جراح قاتلة، وهو لا يرى فى أى مكان إلا جهلةً وأجلافاً، لأن قصائده لم تتل إلا إعجاب فوراً. ولم يلق معها ما كان يتوقع من سخاء. ومع ذلك يمكن القول إن حياة شعراء التروبادور هؤلاء لم تكن بهجة دائمة، رغم أن شاغلهم الوحيد أن يقنوا للحياة.

يقول ابن بقى:

إلى الله أشكو من نوى أجنبيّة لها من أبيها الدهر شيمة ظالم
إذا جاش صدر الأرض بي كنت منجداً وإن لم يجش بي كنت بين البهائم
أكل بينى الآداب مثلى ضائع فأجعل ظلمي أسوة فى المظالم
ستبكي قوافى الشعر ملء جفونها على عربى ضاع بين الأعاجم^(٥٦)

كان حتماً أن يثبت ابن بقى على رأيه مع الزمن، لقد ذهب إلى المغرب فلم يجد غير اللامبالاة، ولأنه يدرك قيمة نفسه جيداً ففكر أن يترك المغرب ويذهب إلى العراق، وتصور أنهم سيلقونه هناك بالأحضان، وكان مخطئاً دون شك^(٥٧). إنه العصر الذى أخذ فيه الحجارى حظه من اليأس شاعراً جوالاً، وشبه فيه نفسه منتقلاً مثل الحمام^(٥٨).

وكان على الشاعر، حتى وهو متشرد أفاق، عندما يصل إلى مدينة يحكمها أمير، أن يخضع لبعض العادات التى وجدت فى القرن الماضى تحت حكم الأمويين، وأصبح لها فى القرن الحادى عشر قوة القانون.

فى البدء على الشاعر الذى يطمع فى أن يكون له شرف لقاء الأمير، أو الحاكم، أن يسأل عن القلعة أو القصر الذى يسكنه، ولم يكن يجد فى هذا أية صعوبة. وعلى باب القصر يكفى أن يقول إنه شاعر، فيقوده فى الحل إلى الداخل موظف مسئول، كان يطلق عليه اسم «صاحب الإنزال»، وهى وظيفة تشير إليها بعض الفقرات فى كتاب «نفح الطيب» للمقرى، وكتابه «تحفة القادم» و«الحلة السرياء» لابن الأبار. ومهمة هذا الموظف أن يقوم على راحة الشعراء والمدعوين من ضيوف الأمير فى ملحقات القصر، وعندما يتعلق الأمر بإنزال الجنود فى بيوت الأهالى^(٥٩)، على صاحب الإنزال، دون شك أن يعرف الحجرات الشاغرة، والأمكنة الصالحة والمعدة، ببيان شفوى يتلقاه من المالك، أو طبقاً لتحريرات الشرطة.

ولم يكن الشعراء راضين تماماً عن إقامتهم هذه، وتذكر هذا من الشكاوى التى ترد فى أشعارهم

(٥٦) من الطويل، القلائد ٢٨٠.

(٥٧) انظر دراستنا عن الشعر فى فاس تحت حكم المرابطين والموحدين، فى مجلة هيسيريس، المجلد ١٨، عام ١٩٣٤، العدد الأول ص ١٤.

(٥٨) نفح ٣٦٥/٤.

(٥٩) نفح ٢٧٨، ٢٧٩. وقد أحس الأديب أبو الموكل الهيثم لدى صاحب الإنزال، لأنه أرسل إليه قولت تتألف من المبيد الأفاقد.

بخاصة، وجاءت في نظم فكّه وساخر، وعرفنا منها وجود وظيفة «صاحب الإنزال» هذه، ولابد أن أهميتها تلاشت من بعد، فلم نعد نسمع عن صاحبها شيئاً.

وأقدم قصة لدينا تتصل بهذا الأمر بطلها الشاعر الرمادي، أبو عمر يوسف بن هارون، وجرّت مع فرحون بن عبد الله، ويُعرف بابن ويلة، أي ابن المطر *hijo de la lluvia* وكان حاكماً على شنترين بغربي الأندلس، في نهاية القرن العاشر الميلادي، أو مطلع القرن الذي تلاه على أبعد تقدير. قدم عليه الرمادي منتجعاً، فأمر الوالي بإزاله، ولكن متولى الإنزال قصّر في ذلك، فأنزله حجرة مفرّقة، سهواً منه أو إهمالاً، فوجه الشاعر شكواه إلى الوالي شعراً، فجاءته وهو خارج إلى غزو المسيحيين:

قائداً أَقْنَتَ مَفْصَازِيهَ الْعِدَا سُبَيْبَا يَنْتَبِلَا	هَ الْعِدَا سُبَيْبَا يَنْتَبِلَا
إِنْ ضَيْفًا قَاصِدًا قُلْتُ لَه: أَهْلًا وَسَهْلًا	تَ لَه: أَهْلًا وَسَهْلًا
قَدْ تَوَسَّعَتْ لَه فِيهِ	بِمَا يَسُرُّ الضَّيْفَ نُزُلًا
مَالَه فَرَشَ عَلَى الْأَثَرِ	خَصِرَ سَوَى وَجْهِ مُصَلِّي
فَأَنَا لَوْلَا أَصْطَبِرُ	رَدَّ مِنْهُ الْوَعْرَ سَهْلًا
لَمْ تَجِدْ عَمِي لَنَوْمٍ	بِمَيْتِ السَّوْءِ كَعَلَا ^(٦١)

كان العتاب حاداً، وحين قرأ فرحون الأبيات خجل من موقف موظفه، وردّ على الرمادي بأبيات من الشعر أيضاً، يعتذر فيها عن قصيره، وأمر له بما طلب، وقرن ذلك بجارية، ورجاه نيلها هدية منه، ليتأكد من عفوه، فالشاعر لغاضب خطر دائماً.

والشاهد الأكثر إقناعاً بوجود وظيفة «صاحب الإنزال» يقدمه لنا نص ورد في نهج الطيب وفي «تحفة القادِم»، وجرّت أحداث قصته في بطليوس، خلال إمارة المتوكل بن الأفطس، وكان ابن عبدون بادئ الشدو في دنيا الأدب، فقدم قصر الأمير، فعين له صاحب إنزال الدور داراً واهية البناء، وسقفها قديم، فهطل عليه المطر منه، فلم يتوان ابن عبدون في أن يحسن شكواه إلى الأمير مباشرة، في أبيات من الشعر فكّه الأسلوب وهي تشطير لامية امرئ القيس، أعظم شعراء الجاهلية:

أَيَا سَامِيًا مِنْ جَانِبِيهِ إِلَى الْعِلَا	«سَمُوْ حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا إِلَى حَالٍ»
لِعَبْدِكَ دَارٌ حَلٌّ فِيهَا كَأَنَّهَا	«دِيَارٌ لِسُلْمَى عَافِيَاتٍ بِذِي الْخَالِ»
يَقُولُونَ هَا لِمَا رَأَى مِنْ دُثُورِهَا	«لَا عِمَّ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي»
فَقَالَتْ: وَمَا عَيْتُ جَوَابًا بِرَدِّهَا	«وَهَلْ يَعْنِي مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي»
فَمَرَّ صَاحِبُ الْإِنْزَالِ فِيهَا بِفَاصِلٍ	«فَبَانَ الْفَتَى يَهْدَى وَلَيْسَ بِفَعَالٍ» ^(٦٢)

ويتطلب إيواء الشاعر تحديد موعد لمقابلة الأمير ويحدث أن يطول به الانتظار كثيراً، لأن الأمير نسي، أو لديه مشاغل تجعله يؤجل مقابلة الشعراء لوقت آخر، فإذا لم يكن الشاعر كريماً على نفسه

(٦٠) لم يعد في ذلك الوقت يسمى صاحب الإنزال وقد التقط ابن الأثير هذه الرواية واكتفى بأن يتل: «متولى ذلك».

(٦١) من الرمل، اللطلة ٢٨٠/٦.

(٦٢) من الطويل، فتح ٢٩٢/٣، وابن الأثير، المختضب من تحفة القادِم، ١١٩، والأشطار الأخيرة في هذه الأبيات مأخوذة من نصيحة لامرئ القيس. انظر: أعلوارد، سنة دراوين، ص ١٥٦ - ١٥٣، القطعة رقم ٥٢، وديوان امرئ القيس، ضبعة السندوي، ص ١٠٥ - ١٠٨، القطعة ٥٢. ونشرت تحفة القادِم، في مجلة المشرق عام ١٩٤٨، ص ٥٥٩ لم يضبط لديران بالشكل.

رضى أن يصبر، سعيد النفس ربما، وبخاصة إذا جاءه الأمر بعد فترة من التجوال قليلة الفائدة، وحرصه على أن يجد المأوى، ويصبح حتى الليال من مشاكل الغد. و«صاحب الإنزال» مسئول دون شك عن توفير كل ضروب العيش لجميع الضيوف.

ونعرف مثلاً أن ابن حمديس الصقل ترك صقلية وقدم إلى إشبيلية، وأقام بها، والمعتمد لا يلتفت إليه ولا يعا به، حتى يش منه وفكر أن يرحل إلى ممالك أخرى أكثر تساعاً وكرماً^(٦٣). فهو إهمال عفوى أم اختبار مقصود؟ لا أحد يجزم بشيء. وأظهر المعتمد مع شاعر آخر تهاوفاً أشد خطراً، فقد نسبته قائماً، ولم يستطع الضحية، أبو الحسن جعفر بن الحاج اللورقي، أن يمك عنه سهامه الهائلة، في اللحظة التي ابتعد فيها عن إشبيلية:

تعرّ عن الدنيا ومعروف أهلها إذا عُدِمَ المعروف في آل عبّاد
حللت ضيفاً ثلاثة أشهرٍ بغير قرى ثم لرتحت بلا زاد^(٦٤)

وعندما يسمح للشاعر بأن ينشد مالدیه، عليه أن يتقدم في قاعة الأمير، في يوم محدد، يختلف من مدينة لمدينة، ومن أمير لأمر، ونعرف أن هذا اليوم كان «الاثنين» عادة في إشبيلية على عهد المعتمد، واحتفظ لنا المقرئ بفخر إحدى هذه المقابلات، وفي أسلوب يتراوح بين الجذ والهزل، وخير ما تفعله هنا أن ننقل النص كاملاً للمعلومات الدقيقة التي يقدمها لنا، بمناسبة حديثه عن بلاط كان القدوة المحتذاة في العادات لكل شبه الجزيرة.

عندما وصل ابن جاح الشاعر إلى إشبيلية قادماً من بطيوس، دخل «الدار المخصوصة بالشعراء، فسألوه، فقال: إني شاعر، فقالوا: أنشدنا من شعرك، فقال:

إني تصدّت إليك يا عبادي قَصْدَ القلائق بالجسرى للوادي

فضحكوا منه وازدروه، فقال بعض عقلائهم: دعوه فإن هذا شاعر، وما يبعد أن يدخل مع الشعراء ويتدرج في سلوكهم، فلم يبالوا بكلام الرجل، وتنادروا على المذكور، فبقى معهم، وكان لهم في تلك الدولة يوم مخصوص لا يدخل فيه على الملك غيره، وربما كان يوم الاثنين فقال بعض لبعض: هذا شئعة بنا أن يكون مثل هذا البادي يقدم علينا، ويحتري على الدخول معنا، فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم في اليوم المخصوص بهم عند جلوس السلطان، وقد رأوا أن يقول مثل ذلك الشعر المضحك فيطرده عنهم، ويكون ذلك حساً لعل إقدام مثله عليهم. فلما كان اليوم المذكور، وتعد السلطان في مجلسه، ونصب الكرسي لهم، رغبوا منه أن يكون هذا القادم أول متكلم في ذلك اليوم، فأمر بذلك، فصعد الكرسي، وانتظروا أن ينشد مثل الشعر المضحك المتقدم فقال:

قطعت يا يوم النوى أكبادي وحرمت عن عيني لذيت رُقادي

(٦٣) نفح ١١٦/٣، ومنهذه استقباله سريد في هذا الكتاب فيما بعد ص ١٩٢.

(٦٤) من الطويل، الفلاذ ١٤٣، ونفح ٤٢٦/٤، وابن دحية المطرب ١٧٧. ومن حق المسلم أن يستضاف ثلاثة أيام لا ثلاثة شهر، ولهذا يبدو بن الحاج مبالغاً جداً. واحتج كثير من المؤلفين على هذا الكلام واعتبروه افتراءً خالصاً. انظر: نفح ٢٢٦/٤، والمطرب في الصلحة السابقة نفسها.

ونركننى أرعى النجوم مُسهِّداً والنار تُضرم فى صميم قوادى

يا أيها الملك المؤمِّل والذي قُمُما سِما شرقاً على الأنداد
إنَّ القريض لكاسدٌ فى أرضنا وله هنا سوقٌ خير كساد
فجلبت من شعري إليك قوافياً يفنى الزمانُ وذكرها متمادى
من شاعري لم بضطلع أدباً ولا خُطت يدهُ صحيفة بمداد

فقال له الملك: أنت ابن جاح؟ فقال: نعم، فقال: اجلس فقد وليتك رئاسة الشعراء، وأحسن إليه، ولم يأذن فى الكلام فى ذلك اليوم لأحد بعده» (٦٤).

ليس مبالغة إذن أن نقول إن المرشح يمر بتجربة حقيقية، ولكن فيما يتصل باللجنة المكلفة بتقدير موهبته، لم يكن لنظرائه دائماً حق إبداء الرأى. وكان يكفى أن يقتنع رب البيت، لكى يُقبل على الفور. والحق يقال كان الأمير الذى يرأس هذه الاجتماعات الأدبية على قدر من الثقافة والذوق لا يقل عما عند هؤلاء الشعراء المحترفين، غير أنه لا يتأثر فى قراره بالغيرة التى تفسد أحكام الشعراء الحاضرين، القلقين، ويمكن أن ندرك سر هذا فى سر، فإن صعود منافس جديد يمكن حتى لو كان القرار بلا جدوى، أن يصبح أنصف الآراء تقديراً لقيمة الوافد الجديد.



رأينا الطريقة التى كان الشعراء يقولون بها رسمياً فى حاشية أمير ما، أو حاتم قوى، وطبقاً للشقندى كان من أعظم مباهاتهم أن يقال: «الشاعر الفلانى يختص بالملك الفلانى» (٦٦) وهو اعتراف مخلص وصادق فى تصوير حالة التبعية التى كان على الشعراء أن يحبوها فى مواجهة العظماء. وكان الشعراء أبعد ما يكونون عن الصفوف الأولى، وبحيىء ترتيبهم دائماً فى المكان الأخير، طبقاً لنظام المراسم (٦٧). وفى حالات غير قليلة كانوا يقومون بدور الخدم فى القلاع أو القصور، فكان على الشاعر النحلى مثلاً، وقد واثاه الحظ ونال إعجاب المعتمد أن يقف ليل نهار بباب الجناح الخاص بالأمير ليستجيب لأول نداء (٦٨) وكان لدى ابن الحساد قُدْر كاف من الشجاعة لكى يقول للمعتصم صاحب المريقة فى أبيات من الشعر:

(٦٥) نفع ٢٤٣/٤، وعنه فى «دبر عباد» ٢٢٩/٢، وترجمتها فى: تيجنى، شاعر ملك، ص ١٧٨، والقونير مرتينيث، نقابة الشعراء، ص ١٧٥ - ١٧٨.

(٦٦) نفع ١٩٠/٢، وغرسيه غوث، ترجمة رسالة الشقندى ١٤٧.

(٦٧) البيان المغرب ٩/٣، وترجمه لطفى بروفنسال للنص فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ١ ص ١٩١. خلال عصر الموحدين كان هناك «حسيب» أى يتعذر من أسرة كانت تحكم مقاطعة، كتب اسمه فى قائمة لشعراء الموصولين. وحمه حسيب آخر هو أبو محمد القاسم بن مسعدة الأوسى مدح أمير المؤمنين عبد المؤمن، كتب الوزير اسمه فى جله الشعراء، فلما رقد الأمير على ذلك ضرب على اسمه ونال: إنما يكتب هذا فى جله الحسباء، لا تدنسه بهذه النسبة، فلما سمع يتقاضى على غمط حسيب، ثم أبجل صلت، وأمر له بضجة، يعنى بذلك أنه من ذرية الملوك، لأن جده كان ملك وادى الهجرة انصر: نفع ٤١٩/٢. وفيما بعد، فى عصر ابن الخطيب، كان الشعراء يأتون أخيراً مع المغنيين، وبعد لاعبي الشطرنج، رؤساء الجبائين، والأطباء البيطريين، والأطباء، والمنجمين وغيرهم، انظر: المقرئ، نفع الطيب ٤٤١/٤، طبعة بحسب الدين، والإحاطة، فى دبر عباد» ١٦٦/٢. (٦٨) نفع ٢٣٤/٣.

رجلٌ إذا أعطاك حبة خردلٍ ألفاك في قيد الأسير الطائع^(٦٩)

وكان الشعراء يعتبرون، دون شك، وضعهم هذا، حتى في حالة التبعية الوثيقة للأمير، مما يُحسدون عليه، ويعترضون بسببه للهجوم الغادر من زملائهم، الذين لا ينكصون في أن يقوموا بأية وشاية. ولا يترددون في استخدام التشهير، وهو أشد الأسلحة خداعاً وتأثيراً في رجال الأدب، وذلك حتى يزجهم عن مكانتهم، وكأنّ الكفاح ضد الفقهاء ليس كافياً، وكان هؤلاء يرون الشعر أحد أسباب هلاك الناس، ويلعبون دورهم التقليدي في المراقبة، وينتظرون بحبي الشعر بما ينتظرهم من هلاك في الآخرة، معتمدين على بعض الآيات القرآنية، والكثير من الأحاديث النبوية التي تتفاوت صحتها^(٧٠). وكان على الشعراء أن يواجهوا لنقاد الماكزين بخاصة، وهؤلاء قد يدفع بهم المنافسون إلى الانتقاص من مواهب أساعر، وتسقط كل مواطن ضعفه.

ويوجه النقد عادة إلى الشاعر ليفقده مكانته في ذهن الجمهور المثقف، وقبل كل شيء ليزجحه عن المكانة المفضلة التي يحتلها عند أمير جواد، أو شخصية ذات نفوذ، ويستهدف الشاعر في إبداءه أكثر مما يتجه إلى سلوكه الخاص، فهو يتعقب آتفه الأخطاء في قصائده، ويدين فوراً، وبلا رحمة، التقليد أو الاقتباس حين يأتي دون اعتراف به أو إشارة إليه. وهو يحلل الألفاظ في أدق خصائصها، ويزن الصور البلاغية في دقة متناهية، وكل ذلك يقدم لنا صورة واضحة عن أهمية الشكل عند شعراء الأندلس. ولن نجد أحداً يمكن أن يقول مثل ما قال الفرزدق، عن سبب خروجه على بعض قواعد الإعراب: «على أن أقول، وعليكم أن تحتجوا»^(٧١).

ولم يحدث أبداً أن بلغت فكرة التشهير هذا القدر من الحدة بين الشعراء العرب مثل ما كانت عليه في الأندلس. فنصغ إلى ابن حزم، الرجل الذي شهد القرن الحادى عشر، وعاشه كأعمق ما يكون، يتحدث إلينا عن هذه القضية:

«وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل، السائر: [أزهدهم للناس في عالم أهلهم]، وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال: لا يفقد النبي حرمة إلا في بدنه»^(٧٢). وقد تيقنا ذلك بما لقي النبي ﷺ من فريس - وهم أوفر الناس أحلاماً، وأصحهم عقولاً، وأشدهم تنبهاً، مع ما خصوا به من سكناتهم أفضل لبقاع، وتغذيتهم بأكرم المياه - حتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس، والله يؤتي فضله من يشاء.

«ولا سيما أندلسنا فإنها خُصّت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير

(٦٩) من الكلل، نفع ٥٠/٣، وأبحاث، ط ١ ص ١٠٢، وط ٣ ج ١ ص ٢٥٤.

(٧٠) في المسند الذي ملأه فما سبق، قال عدو الرماوى المتصور بن أبى عامر: «إن هذا الصنف (يعنى الشعراء) صنف زور وهنيئان، لا يسكروا، نعمه، ولا يرعون إلا ولا ذمة كلاب من غلبه، وصحاب من أخصب، وأعداء من جُنب، وحسبك منهم أن أته حين حالته يقول فيهم: «والشعراء يتبعهم الغاؤون» (الشعراء، الآية ٢٢٤)، والابتعاد عنهم أولى من الاقتراب، وقد قيل فيهم: ما ظلك يقوم الذى يستحسن إلا منهم؟» انظر، نفع ٣٦٤/٣.

(٧١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ٨٩/١، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٣٨٦ - ١٩٦٦ ومقدمة جود فردى - ديومين لطيمته وبرجته ص ٢٥.

(٧٢) ص ٦ في إنجيل لوقا، الإصحاح ٤، الآية ٢٤: «إنه ليس نبياً مقبولاً في وطنه».

ما يأتي به، واستهجانهم حسناته، وتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته، بأضعاف ما في سائر البلاد، إن أجاد قالوا: سارق مغير، ومتحل مدع، وإن توسط قالوا: غث بارد، وضعيف ساقط، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلم؟ وفي أي زمان قرأ؟ ولأنه الخيل! «وإن ولجت به الأقدار أحد طريقين إما شفوفا بآثنا يعليه على نظرائه، أو سلوكا عبر السبيل التي عهدوها، فهناك حمى الوطيس على الهائس، وصار عرضا للأقوال، وهدفا للمطالب، ونصبا للنسب إليه، ونهيا للألسنة، وعرضة للتطرق إلى عرضه، وربما نجل ما لم يقل، وطوّق ما لم يتقّل، وألحق به ما لم يَفْه به، ولا اعتقده قلبه، وبالحري وهو السابق المبرّز إن لم يتعلق من السلطان بحط أن يسلم من المتالف، وينجو من المخالف، فإن تعرّض لتأليف غمز ولز، وتعرّض وهمز، واشتط عليه، وعظم يسير خطيه، واستنزع عين سقطه، وذهبت محاسنه، وسُرت فضائله، وهُتِف ونودي بما أغفل، فتنكس لذلك همته، وتكل نفسه، وتبرد حميته.

«وهكذا عندنا نصيب من ابتداء يحوك شعرا، أو يعمل رسالة، فإنه لا يقلت من هذه الخيائل، ولا يتخلص من هذه النُصَب، إلا الناهض الضائن، والمطنف المستولي على الأمد»^(٧٣)
هذه الفقرة الحادة من كلام ابن حزم تثير فينا الإعجاب والدهشة، ومع أن ابن حزم كان يفكر في نفسه خاصة وهو يكتبها، لأن آراءه تعرضت لهجوم شديد فيها عرف، ودار حولها نقاش عنيف، إلا أن أفكاره فيها أخذت بعدا عاما لا يمكن تجاهله^(٧٤).

ولم يكن الشعراء المحترفون وحدهم الذين يقومون بهذا النقد الدقيق، فأبو العرب الصقلي، وهو أصلا من صقلية، مثل ابن حمديس، حضر مجلس المعتمد يوما، ودفع له يورقة خط فيها قصيدة، ونص الشاعر أن المعتمد «أخذ البطافة وجعل يطيل النظر والفكر في القصيدة، وأنا مترقب لتفنده، لكنّه في هذا الشأن من أئمنته، وكثيرا ما كان الشعراء يتحامونه لذلك، إلا من عرف من نفسه لتبريزه ووثق بها»^(٧٥).

(٧٣) نفع ١٦٦/٢. ولم يكن ابن حزم الوحيد الذي لحظ ميل الأندلسيين إلى الذم وانتشهر، فابن سمي أيضا لحظ أن أهل الأندلس كثير الانفعال على كاتب لرسائل. نفع ٢١٧/١.

(٧٤) هذه الأفكار نجعلنا نفكر بالضرورة في متسكير الذي يقول في كتابه «دفاع عن روح القوانين»: لناس الذين يريدون أن يتعلموا كل شيء يصعب عليهم كثير أن يتعلموا أي شيء، وليست هناك عيقرية لا تضيق إذا أحاط بها مليون ربة باطة، وحتى لو حملت أفضل النوبا في العالم سوف يضطرونك إلى الشك فيها، ولن يمكنكم أن تتسوا بالكلم الطيب في الوقت الذي تخافون فيه أن تقولوا السيئ، وبمثل أن تخفونوا أفكاركم لا يخلوكم غير الكلمات التي يمكن أن تقلت من فطنة النقاد، إنهم يصرون في رؤوسنا جوقا يقون لنا مع كل كلمة، حاذروا السقوط! نتم تريدون الحديث على طريقتكم، وأنا أود أن تخاطبوني على طريقتي، وإذا حاولنا أن نعلق شدون من أدوعنا، وإذا كانت لدينا قوة الحياة انتزعوه ما بقرة الوخن، وإذا رفضتم قليلا حينئذ يظهر لاس الذين يسكرون قدمك وقامت، يرفسون الرأس ويصيحون فيكم أن انزلوا ليتخلوا منكم وسية... ليس هناك علم ولا أدب يمكن أن يقاوم هذه المخلقة! انظر: دفاع عن روح القوانين، القسم الثالث.

● قلت: ترجم الكتاب إلى اللغة العربية عادل زعير، ونشره بعنوان روح القوانين. (المترجم).

(٧٥) نفع ٢٨٧/٢ طبعة أوروبا، واختيجاتي. تحفة العروس، في ٢ يونيو عاده ١٤٨٨/٢، وانظر أيضا: تاريخ سلمى إسبانيا ط ٢،

حد ٣ ص ٩٢.

● قلت: وهم المؤلف في نسبة هذه القصة لأبي العرب الصقلي، ومن ثم فهي تحتاج إلى فضل بيان الذي أورد القصة المجاري في «المسهب»، وعنه نقلها نفع الطيب ٥٧١/٣، عن عمه أبي محمد عبد الله بن إبراهيم، ولقد =

ويقول ابن زيدون في قصيدة توجه بها إلى المعتمد أيضاً:

قد كان مُجَرِّى الشعر - قَبْلُ - صَرِيحاً حَذَرى لِمَاكَ النَقْدَ فيها عَادِرٌ (٧٦)
كان الشعراء إذن يستطيعون أن يلجأوا إلى فكر المعتمد المستتير، على حين أنهم لا يستطيعون أن يقتربوا من أبي الجيـش مجاهد العامري، صاحب دانية، دون أن يتغشاهم الرعب، لأنه «أزهد الأمراء في الشعر، وأنكرهم على منشد»، وبخاصة في فترات تشاؤمه، وكانت تضيف على أخلاقه أسلوباً متناقضاً وقاسياً في تعامله مع رجال حاشيته. وهو يتعقب قصائد الذين يتملقونه بالنقد الدقيق، ويكشف في بهجة غامرة عن كل لفظة غير مناسبة، وكل تشبيه خاطئ، وكل سرقة أو إحالة (٧٧). وفضلاً عن هذا النقد الكثير، وممطه لا يقوم على أساس فيبا تعتقد، كانت هداياه قليلة، ومحدودة القيمة (٧٨)، فكف الشعراء عن إنشاد الشعر لزوتيل Zolil المتوج هذا، إلا إذا ترحّضوا لضائقة شديدة (٧٩).



وإذا أخذنا في الاعتبار كل شيء فإن الشاعر في عصر الطوائف كان يتمتع بظروف أفضل شيئاً مما كان عليه أيام الفتنة، في مطلع القرن الحادى عشر، ويقول أحد المؤرخين: إن «شعراء العامرية والدولة الأموية» نسجت على أفواههم ومحاريبهم العناكب أيام الحرب والفتنة، واشتدت فاقنتهم، وحث طبايعهم، وكانوا كالبراة الفضة الجياح، انقضت لفرط الضرورة على الجريدة، فم يبال صدامها، ولا شد خلتهم، لاشتغاله بشأنه، واشتداد حاجة سلطانه» (٨٠).

وكانوا يعينون أنفسهم سعداء حتى وهم في وضع الخدم، وأقصى أمانهم أن يلتحقوا بخدمة أحد الأمراء، وأن يندرجوا في قوائم المرتبات، أو الديوان إن شئت، وقوائم الديوان هذه كانت موجودة خلال الحكم الأموى في إسبانيا (٨١)، ولم تكن إلا استمراراً لتقليد كان قائماً في المشرق، وبقي تكريماً

- أنصار في المعتمد وكان ممن داروه في منفا في أغمات، وأورد له المقرئ أخباراً كثيرة، نقلًا عن المسهب. وليس للقصة صلة بأبي العرب، ولم يشر دوزى إلى اسم معن عند حديثه عن المعتمد الناقد، وإنما قال بالحرف: «وما أن المعتمد ووزيره (الضمير يعود على ابن عمار) كانا مفرمين بالشعر خاصة، فقد عول بلاط إشبيلية إلى مهبط خير الشعراء، ولم يكن أمام الصغار منهم أى احتمال لكي يصلوا ويعتقروا حظاً وثروة، لأن المعتمد كان ناقدًا قاسيًا، يدرس ستاية ثامة كل القصائد التي تقدم إليه، ويقف عند كل كلمة، ويتأمل كل بيت، وعندما يلتقى بشاعر موهوب قبل سخطه، يصبح بلا حدود».

(٧٦) من الكامل، ديوان ابن زيدون ص ٥٠٨، تحقيق علي عبد العظيم، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٧٦ ١٤٥٧.

(٧٧) أعمال لأعلام ٢١٩، وفي الاحتفال الخوى بأمارى ١٣٠/٢.

(٧٨) لم يكن على التأكيد مستجيباً للدوافع نفسها التي خضع لها شارل التاسع عندما كان يقول عن روسلورد «أخاف أن أفقد صديقى وروسلارد، فإن الكثير من الخير يجعله كسلان في وظيفة ربات الشعر، والشاعر الجيد يجب ألا يسمن كثيرا، كالجنود الأصيل، وعليتنا أن نطعمهم دون أن تشبههم». انظر: ف. فونك - برنتانو، النهضة ١٤٦.

(٧٩) وقد اشتهر أيضاً أبو مروان حسان الدولة بن رزين لسمه السهلة بأنه قاس جدا مع الشعراء. انظر المجلد ١١٠/٢.

● قلت: روتيل ناقد إغريقى من القرن الرابع قبل الميلاد، اشتهر بنقده القاسى والمربو والمتعامل على هومر، وأصبح اسمه مرادفاً لمص الناقد المسود والمتعامل. (المترجم).

(٨٠) أعمال لأعلام ١٢٢.

(٨١) الإحاطة ٧١/٢ طبعة القاهرة وقد صحب المنصور في إحدى حملاته «الشعراء المرتزقين بديوانه». ولما وقف الحكم الأول

على شعر حسنة التميمية استحسنه وأمر بإجراؤه مرتب لها، نفخ ١١٧/٤.

لدمشق^(٨٢). وتحت حكم ملوك الطوائف حرص كل واحد من هؤلاء الملوك الصغار أن يكون له ديوانه الخاص بالشعراء. وعندما قِيم ابن عمّار، ولما يزل مغموراً، على المعتضد وأنشده رائيته الشهيرة، استحسنتها «رأمر له بآل وثياب ومركب، وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء»^(٨٣). وتحت حكم المعتمد نعرف من شكوى لابن الحج اللورقي أن القائم على دفع هذه المرتبات يدعى بن ماض^(٨٤). وأحياناً كانت المرتبات النقدية تستبدل بمحصول أرض، أو بضيعة يمنحها الأمير للشاعر الذي يعطى بإعجابه، وكان ذلك شأن الشاعر أبي الفضل ابن شرف، حين قدم إلى بلاط المعتصم صاحب لمرية^(٨٥).

ولم تكن المرتبات التي يتلقاها الشعراء من رعاتهم الدخل الوحيد، ففي أوقات معينة من السنة: كالأعياد الدينية الكبرى، أو بمناسبة حدث هام، كعودة الجيش منتصراً، أو استقبال سفارة أجنبية، أو حفل إعدار، أو زواج أو غيرها، ينظم الشعراء قصائدهم، وينشدونها في الحفل، ويأون عليها المنح والهدايا.

وهم يعترفون بلا حياء بأن مَنْ قُيدَ بالإحسان طلق لسانه بالشكر^(٨٦)، ويمكنهم أن يفخروا بأن فقيها معروف في هذا العصر، وهو ابن عبد البر، أباح قبول الهدايا، فقد بلغه وهو بناطبة أن أقواما عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزه، فقال:

قل لمن يُشكر أكل طعام الأُمراء
أنت من جهلك هذا في محل السفهاء

«لأن الاقتداء بالصلحين، من الصحابة والتابعين. وأئمة الفتوى من المسلمين، من السلف الماضين، هو ملاك الدين، فقد كان زيد بن ثابت - وكان من الراسخين في العلم - يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد، وكان ابن عمر رضى الله تعالى عنها - مع ورعه وفضله - يقبل هدايا صهره المختار بن أبي عبيد، ويأكل طعامه، ويقبل جوائزه»^(٨٧).

ولكن، هل كان ابن عبد البر يستطيع أن يتنبأ بأن بين الشعراء من سيبلغ حد السقه، فيلج في طلب الهدايا حتى على التفاهات؟ فإذا أريد يقاؤهم يجب إذن أن تنهال عليهم الهدايا، بمناسبة أو بدونها، إلى جانب مرتباتهم الجارية، وكل ذلك من أجل كلمة طيبة، أو قصيدة، أو بيتين من الشعر، أو محاكاة بارعة.

يقول أبو مروان ابن سراج للمظفر بن جهور:

أتعودُ دُلوى من بحور سماحكُم جِفْراً وليست رثّة الأُسْطَآنِ

(٨٢) انظر مقال: اسميال الخليفة عمر بن عبد العزيز للشعراء، في المجلة التونسية، عام ١٩٣٤، ص ٢٢٤ وما بعدها.

(٨٣) المعجب ١١٧، وترجمته ٩٩.

(٨٤) الثلاث ١٤٣.

(٨٥) نفع ٣٩٦/٣، ويُبحث ط ١ ص ٩٥ وط ٣ ج ١ ص ٢٥٠.

(٨٦) نفع ١٩٩/٣، ونظر فيما سبق ص ٤٠ المامش رقم ٦٤ من هذا الكتاب.

(٨٧) نفع ٢٣٥/٣.

ويكون ربي مستبيناً جديده
 قسنى بمن ينأى برفع مكانه
 أمن السوء أن يخلوا بالربى
 إن ترخصوا خطرى فكم مغل به
 حتى أهيم بنجعة السدر
 بنديك العالى وخفص مكى
 من أرضه وأحل باليطان
 يستام فيه بأرفع الأثمان^(٨٨)

وإذا لم ينالوا ما ينتظرون غضبوا ورحلوا. ويحدث أحياناً أن يعاملوا في مدينة أخرى بقسوة متناهية، فيصبح منتهى سعادتهم أن يستطيعوا العودة إلى راعيهم الأول. كتب أبو العلاء إدريس بن أزرقي إلى ابن رشيق ملك مرسية، وقد طالبت إقامته عند ابن عبد العزيز صاحب بلنسية:

ألا ليت شعري هل أعود إلى الذي
 فوالله مذ فارقتم ما تخلصت
 فمنا بآذن كي أطيّر إليكم
 فلاعار في شوق إلى المال والمجد^(٨٩)
 عهدت من التعمى لديكم بلاجهد
 من الدهر عندي ساعة دون ماكد

بعد هذا المثال، ويمكن أن ندعمه بشواهد أخرى، نستطيع القول بأن الشعراء الذين كانت تجري عليهم المرتبات ظلوا وحدهم أوفياء لراعيهم، أما الذين يعيشون على الهبات المتقطعة فيرحلون بلا انقطاع بحثاً عن حظ أفضل.

وبعض الشعراء رغم أنهم يعيشون من سخاء رعاتهم، لم يكونوا ينظمون الشعر بقصد الفائدة. هل هم مخلصون حقاً؟ يمكن أن نشك في هذا، ويقول أبو محمد بن السيد البطلوسى:

جفنا بلاجرم كأن موته
 ولو لم تفتد منا سوى الشعر وحده
 فكيف ولم نجعل بها الشعر مكسباً
 ولانحن ممن يرتضى الشعر خطية
 ومن أوهته غير ذاك ظنونه
 فتم مجال للمقال وميدان^(٩٠)
 نقي نحونا منها الأعنة شأن
 لحق لنا بر عليه وإحسان
 فيوجب للمكدي جفاء وحرمان
 وإن قصرت عن شأونا فيه أعيان

وهذا الاهتمام الراسخ في البحث عن المال، حتى لو صحبه احتجاج قزیه، يصدمنا بقوة. دون أدنى شك، في مذائح شعراء العرب في الغرب الإسلامى، وكنا نحب عفة أكثر، ولكن يبدو أن هذا الأمر كن يجري وفقاً لسلوك المجتمع وأدابه إذ ذاك، ولم يكن هذا الوضع يصدم أحداً في هذا العصر، باستثناء رجال الدين.

وليس أقل أهمية أن نلاحظ أن بعض الشعراء كانوا، بعيداً عن تسول أية مكافأة، يتحدثون مقدماً ثمن قصيدة المديح من نظمهم، وكان الانحناء أمام رادتهم لونا من الفضيل لخواههم. ألم يحك أبو على إدريس بن اليماني أنه حلف ألا ينظم قصيدة مدح بأقل من مئة دينار؟ ألم يتراجع المعتضد، واشتهر بالنزوات الطاغية، أمام هذا الطلب؟^(٩١)

٨٨. من جديس، خلاصة، ١٩٠.

٨٩. من الطويل نفع ٥٧٣/٣.

٩٠. من الطويل، نفع ٦٤٨/١.

٩١. الأخيرة: ٣٣٦/٣، ونفع ٧٥/٤، والشقيسى، رسالة فضل الأندلس، في نفع الطيب ١١٠/٣، وترجمتها لغربية غوث ٤٨.

وإذا بلغ القدر ببعض الشعراء أن يحدّثوا ثمن قصائدهم، فمن الضروري أن نشير إلى أن الهدايا التي كان يمنحها الأمراء لتأقيهم أدت إلى الاضطراب والتشويش في خيال الشعراء وإيساعهم، فقد كانت أحيانا مفرطة باهرة، مبالغاً فيها، ومعها يجد الشاعر نفسه وقد اغتنى بقية حياته. ومن هذا أن أبا بكر بن عبيد العزيز نظم داليتة في مدح المعتضد، إبان معركة الزلاقة، وتلقى عليها هدية قدراً كبيراً من المال، سمح له أن يعيش هادئاً في مدينة المريّة، وكان يعجبه سكنهاا والتعارة بها^(٩٢).

وكانت الظروف، فيما نعتقد، تلعب دوراً هاماً في الوصول إلى هذا السخاء، وليس من الصعب أن نشير إلى قصص أخرى، نرى فيها شعراء عابرة في مستوى مادم المعتضد، يكافأون بعد فوات الأوان، أو يطردون دون أن يتلقوا شيئاً، لسبب واحد فحسب، وهو أن الشخصية التي توجهوا إليها بشعرهم قد نسيت، أو كانت مشغولة بما تراه أهم، ويرد في الخاطر سوء حظ ابن الحاج للورقي، لأنه ترك إشبيلية. وحضر أبو جعفر بن الحراز البطرقي، نسبة إلى بطرنة Paterna قريبا من لمنسية، جمعا للشعراء في مدينة المريّة، وأحدهم أبو حفص عمر بن الشهيد الذي أنشد المعتضد قصيدته التي يقول فيها:

سُبُطُ ابْنانِ كَأَنَّ كُلَّ غِمامَةٍ قد رُكِبَتْ في راحته أَمَلا
لا عيشَ إِلَّا حيثُ كُنْتُ وإِنَّمَا غَضَى لِيالى العَمَرُ بَعْدَكَ باطلا

فالتفت المعتضد إلى من حضر من الشعراء وقال: هل فيكم من يحسن أن يجلب القلب بثل هذا؟ فقال ابن الحراز: نعم، ولكن للسعادة هبات، وقد أنشدت مولانا قبل هذا أيّاماً أقول فيها:

وما زِلْتُ أَجْنَى مِنْكَ والِدَهُرُ مُمَحَلٌّ ولا تَمُرُّ يَجْنَى ولا الزرع يُخَصَّدُ
نَمَارُ أَيْادٍ دَانِياتٍ قَطُوفُهَا لا غِصَاتُهَا ظِلٌّ عَلَى مَمْدَدٍ
يُرى جَارِيّاً ماءً المَكْرَمِ تَحْتَهَا وأطيارُ شَكْرِى فوقهن تَغَرَّدُ

«فارتاح المعتضد، وقال: أأنت أنشدتني هذا؟ قال: نعم، قال: والله كأنها ما مرّت بسمعي إلى الآن، صدقت، للسعد هبات، ونحن نجزّك عليها بجائزتين: الأولى لها، والثانية لَمَظَل رَجِيها، وغمط إحسانها»^(٩٣).

وقد جرى العرف على أن تُكَافَأَ أية قصيدة بوجه ما، وقد تلقى ابن عمار في بدء حياته كيساً من الشعر مكافأة على قصيدة له. ودخل بعض شعراء الأندلس على الفقيه سعيد بن أضحى، وكان من أعيان غرناطة، فمدحه بقصيدة، ثم بموشحة، ثم برجل، فلم يعطه شيئاً، بل شكاه إليه فقراء حتى أنه بكى، فأخذ لشاعر الدواية والقرطاس وكتب ووضع بين يديه:

شكاه مثالي الذي أشكوه من عِلمٍ وساءه مثلي ما قد ساءني فبكي
إن المقل الذي أعطاك دمعته نعم الجواد فتى أعطاك ملهكاً^(٩٤)

(٩٢) نفع ٥٧٠/٣.

(٩٣) نفع ٤٦٣/٤، وأبحاث ط ١ من ١٠٥ ر ط ٣ ج ١ ص ٧٥٧. وانظر فيها سياق من هذا الكتاب ص ٢٠٣، والأبيات الواردة في الشعر من الطويل.

(٩٤) نفع ٣٤٤/٣.

وكان بين السمسير الشاعر وبين بعض رؤساء المرية واقعٌ لمحج مدحه فلم يميزه عليه، فقرر أن ينتقم منه، وحدث أن صنع ذلك الرجل دعوة للمعتصم بن صامح صاحب المرية، واحتفل فيها بما يحتفل مثله في دعوة سلطان مثل المعتصم، فصر السمسير إلى أن ركب السلطان متوجهاً إلى الدعوة، فوقف له في الطريق، فلما حاذاه رفع صوته بقوله:

يأيها الملك الميمون طائرُهُ ومن لذي مَاتَمٍ في وجهه عُرْسُ
لا تقربن طعاماً عند غيركم إن الأسود على المأكول تفترسُ

فقال المعتصم: صدق والله، ورجع من الطريق، وفسد على الرجل ما كان عمله^(٩٥).

وكان الشاعر يقتصر غالباً على التذكير في ذكاء بأنه في انتظار هدية، ويعاتب ابن سارة القاضي أبا بكر ابن العربي على هذا النحو:

يا كُتَابِي بالله قَبِلْ يَدِيهِ بدلاً من فَمِي ففِيهِ احتشَامُ
ثم بَيْنَ لَه بَأَن ثَوَانِي كان عَاماً وَالْآنَ قَدْ جَاءَ عَامُ
ولَيْدٍ لَمْ يَشْرَطْ لِبَكَاءِ غَيْرِ حَوْلٍ مَضَى وَقَالَ سَلَامُ^(٩٦)

وقد مر ابن عمار بقصر المعتصم بن صامح، وحوله جماعة من الشعراء كانوا قد مدحوه، وأبطأ عنهم عطاؤه، وتعدّر عليهم القول في استنجاهه، فارتجل على ألسنتهم:

يا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي شَادَ الْمَلَا مَعَنَ أَبَوَهُ وَخَالَهُ الْمَنْصُورُ
بِفَنَاءِ قَصْرِكَ عَصْبَةُ أَدْيِيَةٍ لا زال وهو بجمعهم معمور
زَفَوْا إِلَيْكَ بَنَاتَ أَفْكَارٍ لَهْمُ واستيطَأكُ فهل لهن مهور؟^(٩٧)

ولم تكن الهدايا التي يتلقاها الشعراء تدفع لهم عيناً أو عرضاً فحسب، وإنما كانوا يتلقونها في شكل وظائف هامة يعهد بها إليهم، حيث تربطهم عادة بالباط، ويتلقون معاملة طيبة.

يقول عبد الواحد المراكشي: كان للمعتد «لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أدبياً شاعراً، حسن الأدوات، فاجتمع له من الوزراء والشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله»^(٩٨).

ويظهر أن كلمة وزير، وكانت في الاستخدام الشائع تعني «كاتب»^(٩٩)، أصبحت ترادف في القرن الحادي عشر كلمة «شاعراً» عرفاً وتقليداً، لأن الشعراء وحدهم بثقافتهم الأدبية ثراً وشعراً، يستطيعون أن يعلّوا هذه الوظائف العالية، التي تتطلب أيضاً من شاغلها، إلى جانب الذكاء السياسي، القدرة على أن يكتبوا بأنفسهم النصوص الأساسية لوزاراتهم، وتدر بين الكتاب من نال شهرة واسعة في كتابة الرسائل خدمة لأمر ما^(١٠٠)، ويذكرون كمثال فضيحة حفيد عيسى بن

(٩٥) نفع ٣٢٠/٣، والبدائع ٣٧٩، وأبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٦١.

(٩٦) من الخلف، القلائد ٢٦٤.

(٩٧) من أنكامل، الحلة ١٦٥/٢.

(٩٨) النجيب ١٠٥، وترجمته ٩٠.

(٩٩) نفع ٣٢٣/٤، ولقي بروفيساله إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي ٦٥ - ٦٩.

(١٠٠) مثل أبي عمر بن القلاس، وأبي عبد الله بن مسلم، حيث تورد لها الأخيرة عدداً من الرسائل. نظر ٤١٨/٣ - ٤٢٦.

سعيد أبو الأصبح، «هذا الرجل الضخم المراس في آخر هذه «الفتنة»، المرتقى بغير نسياب متينة سماء العزة، حتى نال سامي ذروة خطة الوزارة من غير أدب ولا صنعة كندية»^(١٠١).

وكان رئيس الوزراء يحمل لقب «ذى الوزارتين» تمييزاً له عن بقية الوزراء، ويستطيع أن يخلف الأمير في غيبته، وطبقاً للملاحظة ابن سعيد المغربي: «صار الوزير الذى ينوب عن الملك يعرف بذى الوزارتين، وأكثر ما يكون فاضلاً في علم الأدب، وقد لا يكون كذلك، بل عالماً بأمور الملك خاصة»^(١٠٢). وطبقاً للملاحظة هذا المؤرخ نفسه «صار اسم الوزارة عامّاً لكل من يجالس الملوك ويختص بهم»^(١٠٣)، ويمكن الظن بأنه مدام الأمير يتنوق الأدب فلا بد أن يتألف بلاطه من الشعراء بخاصة.

وثمة وظيفة أخرى يمكن أن تسند إلى الشاعر، وهى: «كاتب الزمام»، أى الشخص الذى يقوم على شئون الضرائب، وهى وظيفة دقيقة، تتطلب قدرًا عالياً من حسن التصرف، وأمانة فوق كل الشبهات ولا يكون صاحبها «بالأندلس وبر العدو لا نصرانيا ولا يهودياً البتة، إذ هذا الشغل نبه يحتاج إلى مصاحبة عظماء الناس ووجوههم»^(١٠٤). ولا يمكن أن يعهد بها إلى أدباء دون الوقوع في خطر، لاشتهارهم بالمريدة والانتماس في اللذات^(١٠٥).

ولهذا السبب نفسه نفهم لماذا لم يكن يتم اختيار القائم على وظيفة صاحب الشرطة من بين الشعراء، وكان يطلق على هذه الوظيفة في إسبانيا اسم «صاحب المدينة» و «صاحب الليل» أيضاً. لقد تغير الزمن، ولم يسجل القرن الحادى عشر، فيما يبدو، حالة تشبه تلك التى حدثت للشاعر أبى مروان عبد الملك بن إدريس الجزيرى، فقد عيّن المنصور على الشرطة، لأنه ارتحل ثلاثة أبيات من الشعر أعجبتة. ذلك أن صاعدا البغدادى دخل على المنصور في يوم عيد، وعيه ثياب جدد، فازدحم على حافة الصهريج فسقط في الماء، فضحك المنصور وأمر بإخراجه، وخلع عليه، وقال له: هل حضرك سىء، فقال:

(١٠١) البيان للعرب ٣/٣٤، وترجمة برومى في تاريخ ملهى إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٢١١. وهذا الوزير الذى «من غير أدب ولا صنعة كندية» أمر المظفر ابن الحاجب المنصور بقتله. وقد انتقد أبو محمد بن جبّير (أو جبّير أو جبّير) فى بعد الكتاب في عصر المراطين. يقول:

رأيت الكتابة والجاهلو	ن تد لبرا عرّها لام
ملت لكل متى كاتب	بديع الفصاحة علّام
إذا عزّ غيركم بالمداد	فلا أنبت الله أعلام

وهى من المقارِب، القلائد ١٥٦.

(١٠٢) ابن سعيد في فتح ١/٢١٧.

(١٠٣) ابن سعيد في فتح ١/٢١٦.

(١٠٤) ابن سعيد في فتح ١/٢١٧.

(١٠٥) ابن سعيد في فتح ١/٢١٧.

● قلب: هذه خثرة على أصبتها أى بما المؤلف في المامش دون مرور، مع أنها تكمل ما قبلها، وأوردها صاحب الفتح في مرة واحدة، فردّها إلى مكانها في الأصل للتوضيح. (المترجم).

(١٠٦) ابن ليون. ملح الشعراء الورقة ٦٣ ب.

شيثان كانا في الزمان عجيبة ضُرط ابن وهب ثم وَقَعُ صاعِد
فاستبدوا ما أقي به، فقال الجزيري، هَلَّا قلت:

سروري مَغَرَّتْكَ المَشْرِقة ودِعة واحتك المَغْدقة
ثنائي نَشَوَانِ حتَّى غرق ست في لجة البركة المطبقة
لئن ظَلَّ عَبْدُكَ فيها الغريق فجوَّدك من قبلها أغرقه

فقال المنصور: لله دَرَكُ يا أبا مروان، قسناك بأهل بغداد فضلتهم، فيمن تُقاسِ بعده، وأنهضه
يومئذ للشرطة»^(١٠٧).

ويمكن أن تؤدي الصداقة أيضًا إلى تعيين شاعر البلاط حاكمًا على مدينة، وذلك ما وقع لأبي الحسن
ابن الربيع، فقد صاحب المعتمد في حملة له جنوب شرقى شبه الجزيرة، وذات ليلة استدعاه المعتمد
ليعترف له بأشواق اجتاحتها، وحنينًا نازعه إلى محظيته أم عبيدة، وأسمعه أبياتًا من الشعر أوجحتها
المناسبة، فكرر أبو الحسن استجاداتها، «فأمر له بخمس مئة دينار، وولّاه لورقة من حينه»^(١٠٨).

وخارج بلاط كان يعهد إلى الشعراء، في حالات غير قليلة، بالسفارة للأمير، فأرسل زهير
الصقيلي صاحب المرية وزيره أبا جعفر بن عباس، ولى رفقته عدد من الكتاب والشعراء بينهم ابن برد
وأبو بكر المرواني، وابن الخياط، والطبني، لمهمة سياسية في قرطبة^(١٠٩). وبعد ذلك بقليل عهد المعتمد
بن صمادح صاحب المرية لأبي الأصبح ابن أوقم، يصحبه أبو عبيد البكري، وأبو بكر ابن صاحب
الأحياس، بمهمة سياسية شبيهة بهذه التي سبقت لدى المعتمد بن عباد^(١١٠). وطبيعي أن أولئك وهؤلاء
أعلنوا عن وصولهم بأبيات من الشعر، وشعر ردّ عليهم الأمير، وحين وقع خلاف بين ابن ذي النون
والمعتمد بن عباد، حاول أمراء بلنسية وسرقسطة والمرية أن يوفقوا بينهما، وأرسلوا إلى إشبيلية
سفيرين ندرج من واقع اسميهما أنها من المولدين، أبا عثمان بن شنتفير Santa ver، وأبا عامر بن
غند شالب Gundisalvo، ولن ندهش إذا عرفنا أن أوضح حليف لهم داخل القصر كان القائد ابن
مرتين Martin. وهؤلاء أيضًا إذا كان لديهم التماس يتقدمون به، فسوف يصنعون ذلك شعرًا^(١١١).

وهؤلاء الشعراء المسلمون لم يكونوا يُوجّهون إلى الملوك المسلمين فحسب، ولكن أيضًا إلى بلاطات
ملوك النصراني في شمال إسبانيا، وهذا ما يسمح لنا أن نعتقد أنه كان عليهم أن يعرفوا لرومانيه، وأن
يتكلموا بها على نحو ما، قل أو كثر. ونعرف أن الكاتب أبا أمية ابن هاشم القرطبي، واتخذ من تطيلة
مقاما أثناء «الفتنة»، أرسل في مهمة إلى دون سانتشو (شانجه) ملك نبرة^(١١٢). وأن ابن عمار كان
عمل المعتمد عند ألفونسو السادس، لحن بعض المشاكل الخاصة بالجزيرة والحدود^(١١٣).

(١٠٧) الفلاد ٩ - ١٠، وعنه في نفح ٤/٢٧٨، وبنو عباد ٤٤/١، وبرجته ١٠٦، وصيف أن ابن البسج كان يحمل لقب ذي
الوزاريتين.

(١٠٨) الذخيرة ٣٠٥/١.

(١٠٩) الفلاد ٨، وعنها في «بنو عباد» ٤٢، والترجمة ٩٥.

(١١٠) نفح ٤٠٥/٣، وأسفوا في بيت من الشعر لأنهم حرموا من شرب النسخ.

(١١٢) البحيرة ١٨٣/١، ونعرف منه أنه وجد الأمير المسحى برندى ثابًا على الطريقة الإسلامية، ولكنه حاسر الرأس.

(١١٣) الحلة السراء ١٢٣/٢، وخريدة القصر في «بنو عباد» ٣٨٦/١.

○ الفصل الخامس:

حياة البلاط في نتاج الشعراء

عندما أضفى ملوك الطوائف حمايتهم، وقدموا مساعدتهم، لكل ذوى النباهة والذكاء، ولشعراء من بينهم بخاصة، لم يفعلوا أكثر من بحث، أو مواصلة، تقليد قديم، يقدر دور الشعراء في المجتمع الإسلامي من كل جوانبه. ولقد ساعد الشعراء خلال الحكم الأموي في المشرق الخلفاء السفينيين. ومن بعدهم المروانيين، في جعل فكرة الخلافة الوراثية مقبولة، وقاتل ضدها الخوارج والشيعة من جانبيهم بكل ما أوتوا من قوة^(١).

وتحت الحكم الأموي في إسبانيا أسهم الشعراء في تثبيت الحكم الجديد وتقويته، وعندما أراد المنصور العظيم بدوره أن يثبت سلطته، عرف كيف يكسب الشعراء الإسبان إلى جانبه، ولم يتردد في أن يعلن رداً على تنقادات خسيمة وجهها إليه ناظمون غيرون: إن الشعر والأدب شوهد بلبقة على عظمة أبة حكومة^(٢).

وحين سقطت الدولة الأموية حاول الشعراء أن يبرروا إدعاءات المطالبين بالخلافة من أوائل ملوك الطوائف، ممن هم من أصل بربري أو أندلسي^(٣). وعندما استبعد موضوع الخلافة نهائياً اكتفوا بالإشادة بفضائل وعائتهم، والاحتفاء شعراً بأبجادهم في السلم والحرب، ولكن تثار شبه الجزيرة مرقا جعل من هذه الأسر ممالك ذات سلطان مزعزع دائماً، ولم تكن بلاطاتهم في الحقيقة، وهي برقة في الظاهر، غير ندوات تعيش في رعب من الملك المسيحي، وله يدفعون الجزية سنوياً.

ومع ذلك، دسم الشعراء لهذه البلاطات لوحة زاهية من الثناء والإطراء، سواء في مدائحهم أم في مراثيهم، وكان دورهم يضطرهم، رغم كل شيء، إلى المجاملة دائماً، ويمكن بهذه المناسبة أن نردد هذه العبارة: «إن اخلو آفة المديح»^(٤). وكان هناك تباين واضح بين الأشخاص والمديح الموجه إليهم، حتى أننا نسأل أي خداع بصرى هذا الذي استطاع أن يجد علاقة بينهما.

وبكذا أصبح شعر البلاط وسيلة لقتل الوقت بلا فائدة، وتفرغ له كبار الشعراء في اجتهد عظيم وجدية تامة، ولم يلمهم أحد على ما فعلوا، لأنهم لم يصنعوا أكثر من الالتصاق ببذعة العصر الشائعة.

(١) انظر هـ. لامنس، دراسات عن معاوية، في «مجموعة مقالات الكلية الشريعة»، بيروت، المجلد ٢، عام ١٩٠٠، ص ١٥٨، وجورج دودي - ديويين، العالم الإسلامي حق الحروب الصليبية، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ وديبل وجورج مرسيد، العالم الشرقي من ٣٩٥ إلى ١٠٨١، ص ٣٤٤، ور. بلاشير، أبو الطيب المتنبي ٦ - ١٢.

(٢) نفع ٣٦٤/٣ - ٣٦٦.

(٣) بعد قليل سوف نقول كلمات بمناسبة دور الكتاب الذي لعبه الشعراء.

(٤) نفع ٤٣٢/٣.

ماذا يمكن أن نقول مثلاً في ابن زيدون، وهو يتقن بانتصارات بني جُهور على بني ذكوان وبني خِدام، ولم يكونوا غير جماعات تافهة تقيم حول قرطبة:

هُمُ الملوِكُ، ملوكُ الأرضِ دَرَنُهُمْ كمثلِ يَضرِ اللَّيالي دوتها الدُّرُعُ

مُهَذَّبُ أَخْلَصْنُهُ أَوْلِيَّتُهُ كَالسيفِ بالغِ في إخلاصه الصَّنْعُ^(٥)

ويُصدِّمُ المرءَ من المدح بالشجاعة والكرم يُورِّعُ عانَ بلا تمييز ولا حساب، وهم يصفون صفار الملوك جميعاً هؤلاء، بأنهم صواعق حرب، أو يثابيع سخذ لا تحف، وأصبحت الصور الشرقية قوالب يرددونها كثيراً، حتى أنها فقدت تدريجاً ما بقي لها من معنى. ومع ذلك، يذل الشعراء الإِسبانيَّ جهدهم، وهم يرددونها، في تجديد التعبير، ولم يهربوا من التقليد حين يستطيعونه، اكتفاء بتعديلها قليلاً، أو المبالغة فيها شيئاً، عندما يسمح لهم بذلك معجمهم اللغوي، ولهذا يقول ابن عمَّار عن المعتضد:

عَبَادُ المَخْضَرِ نَائِلُ كَفِّهِ والجَوُّ قد لبس الرداءَ الأغبرِ
يَحْتَارُ أَنْ يَبِ الحَرِيدَةُ كَاعِيَا والطَّرَفَ أَجْرَدَ والحَسَامَ مجوهرِ
قَبْذَاحِ زَنْدِ المَجْسَدِ لا يَنفُكُ عن نَارِ الوغَى إِلَّا إلى نَارِ القَرَارِ^(٦)

ونجد الصورة نفسها تقريباً في مدح ابن زيدون لابن جُهور:

وفي الرثاء ينادون السحب، كما هو الحال عند المشاركة، لتروى قبرا ضم أكرم الرجال، وخلفه الأمير الأكثر شجاعة على وجه الأرض، يقول ابن زيدون في رثاء المعتضد:

وعَمَادَةُ ذَاكَ اللُّحْدِ عَهْدُ سَحَابٍ إذا استعبرتْ في قَرْيَةٍ - ابتسم الزهرُ
فَفِيهِ عِلَاءٌ لَا يُسَامَى يَفَاعُهُ وَقَدَّرُ شِبَابٍ ليس يعدله قسَدُ
وكيف نسيان وقد ملأت يدي جَسَامُ أَيَادٍ منك أيسرها الرفرُ
ويعد ذلك يتوجه إلى خليفته قائلاً:

هُمَّاسُ إذا لاقى المَسَاجِرَ رَدَّهُ وإقباله خَطْوُ، وإدبارُه حُضْرُ
عِطَاءٌ وَلَا مِنْ، وحكمٌ وَلَا هوى وجَلَمٌ وَلَا عَجْزٌ، وعزٌّ وَلَا كِبَرٌ^(٧)

وأضاف شعراء البلاط إلى وصف ممدوحهم بالشجاعة والكرم صفة الأصل العريق أيضاً، وفي هذه الحالة قد تصبح المبالغة غشاً، لأننا نعرف كم هو قليل الدم العربي الذي يجري في عروق الإِسباني المسلمين، ولو أن الأمراء أنفسهم كانوا يمحون أن يبحثوا عن أجداد أسلافهم من العرب الخالص، ولم يجد الشعراء بداً أن يُشبعوا فيهم هذه الرغبات. لقد مدح ابن الليثاني بني عباد بأنهم يتحدرون من نسل المنذر بن ماء السماء:

(٥) من السيط، الديوان ٢٩٨، وكور ابن زيدون ٩٣، والهاشم ص ١٤١ - ١٤٢.

(٦) من الكامل، القلائد ٩٦، والمعجب ١١٥، وترجمته ٩٨.

(٧) من السراج، الديوان، وكور ابن زيدون ٨٦.

(٨) من الطويل، المعجون ٥٦٥ و ٥٦٨ و ٥٧٥ و ٥٧٦، وكور ص ١٤٦ - ١٤٨.

من بني المنذر بن ماء لساء زاد في فخره بنو عباد
فتية م تلد سواها المعالي والمعالى قليلة الأولاد^(٩)

ولكن شاعرا قدم من تحت، من التسع، لم ير نفسه ملزماً في لحظة فاض فيها غضباً وإحباطاً أن
يخفي أفكاره، فقال في هجاء بني عباد:

ألا حوَّ بالفرب حياً جلالاً أناخوا جبالاً وحازوا جمالاً
وعرَّجَ بيومين^(١٠) أم لقرى عسى أن تراها هناك خيالاً^(١١)

إن أي شاعر آخر لا يستطيع أن يظهر سخافة اللعبة، التي سيقو إليها، وأرعمو على القيام بها،
بأوضح مما يظهرها هذا الشاعر.

إن مطالب أمراء إشبيلية وقرطبة والمرية يمكن الدفاع عنها تماماً من وجهة نظر مفهوم الأنساب
العربية، ولكن ماذا نقول عن صفار الملوك الآخرين في شبه الجزيرة، ممن ينحدرون من أصول بربرية
خالصة لاشبهة فيها، مثل بني الأفتس في بطليوس، وبني ذى النون في طليطلة، عندما يصفونهم
بالعروبة؟

لقد مدح ابن شرف القيرواني المظفر والد المتركل، وهو من بني الأفتس بهذين البيتين:

بامكاً أمست تحيَّب به تحسَّد قحطان عليها نزار
لولاك لم تشرق معدُّ بها جلُّ أبوذر فجَلَّتْ غفار^(١٢)

ولم يستطع ابن حيَّان وأورد هذه الأبيات إلا أن يُعقَّب عليها ملاحظاً: «ومن النادر العرب انتماؤه
في تحيَّب»^(١٣).

وسنرى فيما بعده، في أحد الأبيات الثلاثة التي خص بها ابن الحاج اللورقي عزل ملوك الطوائف
أن باديس أمير غرناطة، وذو النون أمير طليطلة اعتبرا من حمير^(١٤) وبعد ذلك بقليل، افتخر
السقندى في رسالته الشهيرة التي أشاد فيها بإسبانيا والأندلسيين، وحقَّ البربر، بأن من الملوك العربية
الذين عرفتم إسبانيا في العرب لحادي عشر: بنو ذى النون وبنو هودا^(١٥).

(٩) من المخطوطة الحقة ٣٥/٢، وعب في سر عباد، ٤٧/٢، والمطروبة ١٤

● طلب ورد البيت الأول في الأصل على هذا النحو، وهو واضح الانكسار، وقد صوّبه دوزي على النحو التالي
من بني المنذر بنو سبأ زاد في فخره بنو عباد

انظر: بنو عباد ٤٧/٢ (المترجم).

(١٠) يومين رية في مركز Tocina، على ضفاف الوادي الكبير. انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا.

(١١) هذا الشاعر هو ابن عمار. انظر: المجلد ٦٣/١، والأبيات من المتفارب، وفسرها دوري في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج
٣ ص ١١٣، بأن ابن عمار يهجو بني عباد بأنهم رغم كل شيء ليسوا إلا فلاحين من أصل مغربي، من قرية يومين، «م القرى» تلك،
كما يقول عنها ساخرًا وانظر أيضًا المصدر نفسه، ط ٢ ج ٣ ص ٧.

(١٢) من السريع، أعمال الأعلام ١٨٣، والمجلد ٩٧/٢، وعنها في أبحاث، ط ١ ص ١٧٢.

(١٣) المصادر نفسها التي وودت في الرقم السابق.

(١٤) انظر فيما سبق ص ٩٧ من هذا الكتاب وقد احتفى اشعراء بالمر بطون على أنهم حميريون، والموجودون على النقص،
شوا إلى هيس غيلان، وهم معديون، أي مصريون.

(١٥) السقندى، رسالة في فضائل الأندلس، نشق ١٩٠/٣.

○ الفصل السادس:

الشاعر مؤرخاً

كان الشعراء شيئاً أكثر من مجرد منافقين يبذلون جهدهم في إبراز فضائل ومزايا ليست موجودة إلا في خيالهم، فقد وجدت الأحداث التاريخية التي شاركوا فيها، أو شاهدها، صدى في قصائدهم، ومن هنا يصبح الشعر مساعداً قيمياً للتاريخ، وإذا لم يعرف، أو يهدف، إلى عرض كل شيء، أو شرح كل شيء، فهو يوضح، على الأقل، أحداثاً كثيرة تبدو بدونها غامضة، وفي حالات أخرى يكشف لنا ردود فعل ذات طابع نفسي، تتركها المدونات التاريخية في الظلام الدامس كلية.

هل يمكن أن نجد لوحة تصور لنا في روعة لا يُعل عليها، لا مبالاة أواخر خلفاء بني أمية، خلال عصر «الفتنة»، أفضل من بيتي ابن أبي عبدة، وتولى الوزارة مع المستظهر:

إذا غيبتُ لم أحضر وإن جئتُ لم أَسَلْ فَيَآنِ مِنِّي مَشْهُدٌ وَمَغِيبٌ
فأصْبَحْتُ تَيْمِيًّا، وما كنتُ قَبْلَهَا لَتَيْمِيًّا، وَلَكِنَّ الشَّيْبَةَ نَسِيبٌ^(١)

ألا يظهر الشاعر قدراً من الشجاعة حين يدين العادات الواهية لمن بين أيديهم قَدَرُ الخلافة؟:

إذا كان مثلي لا يُجَازَى بِصَبْرِهِ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَقْدَى يُجَازَى عَلَى الصَّبْرِ
وَكَمْ مَشْهُدٌ حَارِبَتْ فِيهِ عِدْوُكُمْ وَمَلَأَتْ فِي حَرْبِي لَهُ رَاغَةَ الدَّهْرِ
أَخْوَضُ إِلَى أَعْدَائِكُمْ لُجْجَ الْوَعْيِ وَأَسْرَى إِلَيْهِمْ حَيْثُ لَا أَحَدٌ يَسْرَى
وَقَدْ نَامَ عَنْهُمْ كُلُّ مُسْتَطَبِّ الْحَشَا أَكُولُ إِلَى الْمَسَى نَوْمَ إِلَى الظَّهِيرِ
فَمَا بَالُ هَذَا الْأَمْرِ أَصْبَحَ ضَائِفٌ وَأَنْتَ أَمِنَ اللَّهُ تَحْكُمَ فِي الْأَمْرِ^(٢)

ولكن أعنف ردود الفعل عند الشعراء نجدها ضد البربر، حتى لو كانوا أندلسيين، رضاء لطموحات سياسية قد برّرها القوضى السياسية إلى حد ما، وقاموا بدور عدو الإسبان المسلمين. والشعراء في هذه الظروف، حتى لو اضطروا إلى الاعتراف بأنهم كانوا مأجورين لهذا السيد أو ذاك من الرؤساء السياسيين، يعبرون بصدق عن رأى الشعب تقريباً. وأحدهم^(٣) رمى بهذه الأبيات في وجه الخليفة سليمان المستعين، وكان يعتمد على البربر:

لَا رَحِمَ اللَّهُ سُلَيْمَانَكُمْ فَلَيْتَهُ ضُدَّ سُلَيْمَانِ

(١) من الطويل، الطبع ٢١٤، وهو في ملح ١٣٦/١ و ٥٤٩/٣.

● قلت: يشير في البيت الثاني إلى قول الشاعر:

وَيَتَضَى الْأَمْرَ حِينَ غَيْبِ تَيْمٍ وَلَا يَمْنَأُونَ وَهُمْ شُهُودُ

(الترجم)

(٢) من الطويل، ملح ٤٣٧١، والأبيات لابن أبي عبدة أيضاً.

(٣) يدعى بن خلدون طبقاً لنسخ الطيب ٤٢٩/١، وترجمها دوزى في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٣٠٩، وهو من الطويل.

ذَاكَ بِهِ غَلَّتْ شَيْطَانِيهَا وَحُلَّ هَذَا كُلُّ شَيْطَانِ
فَبَاسِهِ سَاحَتْ عَلَى أَرْضِنَا بِهَلْكَ سَكَّانٍ وَأَوْطَانِ

ولم يكن لدى سليمان المستعين ثمانين مفتاين فصحب، وإنما عنده شاعره الرسمي أيضا: أبو عمرو بن درّاج القسطلّي، وخص راعيه بقصيدة مدح تضم أكثر من خمسين بيتا من شعر، ودافع عن حقه المشروع فيها يدعيه، وما هو أصعب من هذا، برّر تحالفه مع البربر، زناتية أو صنهاجين^(٤). وقد عانى الخليفة المدّعي، متألما دون شك، من قيود البربر، مما أثار ضده الكراهية وأحذّدا جديدة، بما فيها من البربر أنفسهم، وبعد لحظة ضياع أحس على التأكيد أن مزاجه الإسباني لا يمكن أن يسعد من خلال تحالفه مع أولئك الذين بسبب جنسهم كانوا ألد أعدائه وأكثرهم شراسة. لم يشرح لنا المؤرخون سبب كراهية البربر فجأة للمستعين، ولكن الشعر قدّم لنا مفتاح هذا التفسير المفاجئ: لم يصنع أكثر من تأكيد العداوة العنصرية التي أثارت عنصرا ضد آخر، أو إن شئت أثارت لأفارقة ضد الإسبان.

لقد نظم المستعين الأبيات التالية، مستريحا بها إلى جماعة من خواصه، جلّهم من البربر^(٥):

جَلُفْتُ بِنَ صَلَّى وَصَامَ وَكَبَّرَا لَأَغْمِدَهَا قِيمَن طَخَى وَتَجَبَّرَا
وَابْصُرْ دِينَ اللَّهِ نَحْمَا رَسُولَهُ فَيَدُلْ مَا قَد لَاحَ مِنْهَا رَغَمَا
فَوَاعِجِبَا مِنْ غَبْشَمِي مُطْلِكُ بِرَغَمِ الْعَوَالِي وَالْمَعَالِي تَبَرَّرَا
فَلَوْ أَنَّ أَمْرِي بِالْخِيَارِ نَبَذْتُهُمْ وَحَاكَمْتُهُمْ لِلسِّيفِ حَكْمًا تَحَرَّرَا
فَلَمَّا حَيَاةً تَسْتَلِدُ بِقَفْقَدِهِمْ وَأَمَّا جَمَامَ لَا نَرَى فِيهِ مَا نَرَى^(٦)

ونظم المرتضى المرواني، الذي خلف على بن حوّد خليفة على الأندلس الأبيات الهجائية المحرقة التالية ضد البربر:

قَدْ بَلَغَ الْبَرَبُ فِينَا بِنَا مَا أَفْسَدَ الْأَحْوَالُ وَانْظُرَا
كَالسُّهْمِ لِلطَّائِرِ لَوْلَا الَّذِي فِيهِ مِنَ الرِّيشِ لِمَا أَضْمَى
تَوَمَّوْا بِنَا فِي شَأْنِهِمْ قُوَّةُ تَزِيلُ عَنَّا الْعَارَ وَالرُّغْبَا
إِنَّمَا بِنَا غُلَّكَ، أَوْ لَا نَرَى مَا يَرْجِعُ الطَّرْفُ بِهِ أَعْمَى^(٧)

الشعراء إذن يلقون المزيد من الضوء على بعض أحداث «الفتنة» السياسية، وكثيرون منهم يوضحون الأسباب الخفية التي دفعت البربر والإسبان إلى اتخاذ موقف الخصومة للمينة، ولولاها لم بدت لنا الأحداث غامضة غير مفهومة.



أيضا يقدم لنا الشعراء معلومات عن هذا الجانب من الصراع الذي تواجه فيه البربر والأمويون،

(٤) أعمال الأعلام ١٢٣ - ١٢٥.

(٥) نفع ٤٢٩/١، وترجمها دوزي في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢، ج ٣ ص ٣٠٩، ونسبها إلى الشاعر المذكور، الذي أنثرنا إليه فيها سبق، وهي من الطويل.

(٦) من الطويل، عن موت سليمان المستعين انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢، ج ٢ ص ٣١١ - ٣١٤.

(٧) من المربع، نفع ٤٢٩/١ - ٤٣٠.

والذى أهمله المؤرخون عربا وأوربيين، أو بالكاد رسموا له صورة مجملّة، وتعنى به الجانب الدينى الذى التزمته القوات البربرية قريبا من نهاية خلافة المستعين.



وقد أدت الاضطرابات السياسية التى مزت مطلع القرن الحادى عشر، فيها يبدو، إلى قيام البربر المنشقين عن الجماعة، بمحاولة بث مذهب الخوارج، وكان قبلها، فى القرن الماضى، قد أغرق إفريقية فى بحر من الدماء، واستقر فيها حتى اليوم فى صورة الإباضية. واحتفظ لنا ابن بسّام بفقرات من رسائل كتبها فى العصر الذى نعرض له ابن برّذ الأصغر على لسان سليمان المستعين، داعيا الشعب إلى الابتعاد عن اثنين من الخوارج الدّسّاسين، يُسمّيان: المعطّى والتّاليسى^(٨)، وأخرى باسم الخليفة نفسه إلى ابن صمّادح السرقسطى يعرض عليه النتائج المترتبة على سوء سلوك الخوارج^(٩).

أما سادة قرمونة: محمد بن عبد الله وابنه إسحاق، من بنى برّزال، وهم من أصل زناقي، فقد اشتهروا بأنهم الوحيدون وتومها من بين كل بنى برّزال الذين اعتنقوا «مذهب التاكرين من فرق الإباضية الخوارج»^(١٠). ويضيف ابن الخطيب، وهو الذى ذكر هذه الوقائع نقلا عن ابن حيان، وطبقا للمصدر نفسه، إن أعمال هؤلاء البربر وأقوالهم فيها يتصل بهذا الموضوع معروفة^(١١)، ويؤكد ابن عمار فى إحدى مدائحه للمعتضد هذه المعلومات:

تصايطى الخوارج حتى برزت تقوم من خدّها ماصعرا^(١٢)

ويعبر ابن الحدّاد بالطريقة نفسها، فى قصيدة يمدح بها المعتصم أمير المرية:

وكم قد رأيت رأى الخوارج فرقة فكنيت عليا فى حروب شرايتها
بعرزم أبى لأبرّة مضاهيه وهل تمسك الأفلاك عن حركاتها
هو الخامل الهيجا حشا وسنانه هوئى فهو لا يعدو قلوب كماتها^(١٣)

والترزم المؤرخون العرب الصمت باتفاق عن كل ما يتصل بأخبار الشيعة تحيزا ضدهم، ولقد خلف القاسم بن حمود أخاه عليا، المتوفى عام ٤٠٨ هـ = ١٠١٧ م، ويقول عبد الواحد المراكشى: «وكان أسن منه بعشرة أعوام، وكان وادعا، أمن الناس معه، وكان يذكر عنه أنه تشيع، ولكنه لم يظهر ذلك».

(٨) الذخيرة ١١٤/١، وفى طبعة القاهرة، وطبعة إحسان عباس «التاليسى» بدل التاليسى.

(٩) الذخيرة ١١٦/١.

(١٠) عن هذه الفرقة انظر: دوزى، ملحق المعاجم العربية ٧/٢٧٢، والمصادر المذكورة هناك، ورحلة التيجانى، انص العرق، طبعة وكيم مرسيه ٨٧، وترجمة روسو فى المجلة الآسيوية السلسلة الرابعة، المجلد ٢٠، عام ١٨٥٢، ص ١٦٦ - ١٦٧. (١١) أعمال الأعلام ٢٣٧، ومن المحتمل أيضا أن بنى دمر سانة مؤرور كانوا من الخوارج الإباضية، لأن أصلهم من قابس. انظر: مدونة مجهولة عن ملوك الطوائف، ونصها فى ايبان المغرب ٢/٢٩٥، وترجمه ليلى بروفنسال لها فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٩.

(١٢) من المطلوب، القلائد ٨٩، وقد تقوم من خضا ما صعر، اقتباس من القرآن الكريم، سورة لقمان، الآية ١٨، ووردت أيضا فى بيت للمتلمس، انظر ديوانه، طبعة فوليرز ليزنيج ١١٠٣، ص ٢٠، للقطعة رقم ٩، البيت ٧.

(١٣) من لطويل، الذخيرة ٧١٤/١.

● قلت: فى الأصل، فى البيت الثانى «وהל تمك الأفلاك»، ولا معنى له وقد صوبه على النحو الذى هنا. (المترجم).

ولا غير على الناس عادة ولا مذهبا. وكذلك سائر من ولى منهم (الضمير يعود على بنى حمود) بالأندلس»^(١٤).

ولكن الشعراء على النقيض من المؤرخين، وتفهم منهم أن حركة شيعية قوية إلى حد كبير، ظهرت أثناء الفتنة، وأن محوريتها هم الأمراء العلويون، أي بنى حمود، ويدعون أنهم ينحدرون من نسل علي بن أبي طالب، ابن عم الرسول وزوج ابنته، ويروى لنا ابن خاقان في «المطمح» المضائق التي عاناها أبو عامر بن شهيد من جانب العلويين، بسبب خلاعة شعره، وسخريته في قصائده^(١٥). ويبدو الشعر الذي نظمته الشاعر بهذه المناسبة متناقضا مع ما أورده المراكشي، فقد ضغط بنو حمود على الناس الذين يحيطون بهم لكي يغيروا عاداتهم وأفكارهم التي لم تكن شيعية تماما. ولكن ليس من الضروري، دون أدنى شك، أن نرى في الاجراءات الجبرية التي اتخذوها ضد ابن شهيد أكثر من الرغبة في إصلاح العادات، وأنها مجرد فصل في الحملة لروحية التي يطلق عليها رجال 'ندين': «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، والتي تقع على عاتق الإمام بخاصة، بوصفه أمير للمؤمنين. كان مؤسس المذهب الشيعي في سبيل، كما نفهم من الشعراء، وعلى النقيض من تأكيدات عبد الواحد المراكشي، هو علي بن حمود، وقد بايعه البربر بالخلافة بعد موت المرتضى، ولم تنقطع المدائح حارة وصادقة، ونعتقد أنهم كانوا مخلصين ونزهاء مثل خصومهم من دعاة الأمويين المروانيين، عن إظهار شرعية مطالبة الحموديين بحقوقهم في الخلافة بوصفهم علويين.

ولقد عاد ابن دواج القسطلي. وأسرنا إليه من قبل ساعرا بأحر عند سليمان المستعين، في اللحظة التي رآها مناسبة له. يدافع عن الناصر علي بن حمود، وعن الحموديين^(١٦). ويجب أن نعترف، ونحن أكثر اقتناعا، بأن شاعرا آخر تميز بفضيلة الإخلاص، وظل يائيا للحموديين وللأفكار الشيعية طيلة حياته، ونعني به: أبا بكر عبادة بن ماء السماء^(١٧)، إذ ارتبط بالمذهب الشيعي كلية، وكل مؤلفاته وقفها على الإشادة بالناصر علي بن حمود، وما انفصل به من وقائع وأحداث، وتوفي قبل نهاية الفتنة، مما جنبه أن يشهد فشل أفكاره، وكانت جذوة هامة بالنسبة له، وقد أهدى الأبيات التالية إلى علي بن حمود:

أبوكم عليٌّ كان بالشرقي يَلِيَّ ما ورثتم، وذا بالغرب أيضا سَمِيَّ
فصلوا عليه أجمعون وسلّموا له الأمر، إذ ولّاه فيكم وليَّ^(١٨)

ويقول في قصيدة أخرى:

أبي لك أن تُهاضَ غِلَاكَ عهدٌ هشامِيٌّ وجدٌ هشامِيٌّ

(١٤) المعجب ٥٠، ترجمته ٤٢، ويرى دوري أن إسبانيا لم تعرف المذهب الشيعي حتى نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الميلادي. انظره تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٢٤ - ١٢٨.

(١٥) المطمح ١٩٨، وانظر فيها سيأتي ص ١٠٠، الخامس رقم ٥٨.

(١٦) من الطويل، المطمح ١٩٨، وعنه في فتح ٣٦١/٢، وانظر فيها سبق ص ٦٦ من هذا الكتاب.

(١٧) من المتعارف انظر: ر. بلاشير، حياة بن دواج وشعره، في هيريس، المجلد ١٦، عام ١٩٣٣، ص ١٢ - ١٣.

(١٨) توفي في شول ٤١٩ هـ = ١٠٢٨ م. طبقا لأبي عامر بن شهيد، أو بعد شتاء عام ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م. لمعرب، طبقا لابن حزم. ويجب ألا تخلط بينه وبين آخر يسمى أيضا ابن ماء السماء، وعاش بعد ذلك بقليل، وارتبط بالمعتصم أمير الرمية بخاصة. انظر

عنه: الأخيرة ٤٦٨/١ وما بعدها.

(١٩) من الطويل، فتح ٤٨٤/١، ولم يذكر غير هذين البيتين وما من قصيدة طويلة.

وما سُميت باسم أميك إلا ليحيا بالسمي له السمي
فإن قال الفخور أي فلان فحسبك أن تقول أي النبي^(٢٠)

تبدو لنا الأفكار التي أثارها عبادة بن ماء السماء للدفاع عن بني حمود واهية، وبعثا نفثش عند شاعرين شيعيين آخرين هما: ابن الحنّاط الكفيف القرطبي، وابن مقفّ الإشبوني، عن حجاج أكثر قناعاً.

لقد استخدم الأول^(٢١) كلمة «فاطمي» في إحدى قصائده، يصف بها الخليفة الحمودي^(٢٢)، ونسأل: ألا يريد الشاعر بها أن يشير إلى أن الأمير يستلهم مبادئ الشيعة في سلوكه السياسي والديني، كما نمت وتطورت في إفريقية^(٢٣).

أمّا زيد بن مقفّا الإشبوني فيستحق منا وقفة أطول، وتركيزاً أشد، للمدائح التي خص بها الأمير الحمودي إدريس بن يحيى المعتلى، لا لأنه جاء بأفكار جديدة تدعم جانب العلويين، فهؤلاء الشعراء يكررون أنفسهم كما رأينا دون أن يملوا، وإنما لأنها تؤكد على تقليد هؤلاء الأمراء لمراسم البلاط الشرقية:

وكانَ الشمسَ لما أشرقَتْ فانتثتْ عنها عيونُ الناظرين
وجهُ إدريسَ بن يحيى بن علي بن حمودٍ أمير المؤمنين

يا بني أحمدَ يا خيرَ الوري نزل الوحي عليه فأخْبني
خُلقوا من ماءٍ عذْلٍ وتَقَي وجميعُ الناسِ من ماءٍ وطن
انظروا نقتبسُ من نوركم إنه من نور ربِّ العالمين^(٢٤)

(٢٠) من الواقر، الأخيرة ٤٧٨/١.

(٢١) أصابه العمى في باكّر حياته، ومع ذلك نال شهرة واسعة، أدبياً وطبيباً معالِماً، وعاش في الجزيرة الخضراء وبالقة بخاصة، وجاءه الموت عام ٤٣٢ = ١٠٤٥ في اللحظة التي وضع فيها ملوك الطوائف الصغار حداً لقضية الخلافة، واقتسموا مقاطعات إسبانيا فيما بينهم.

(٢٢) ويصف الأديب غانم بن الوليد في رسالة له إدريس العلوي بالله: «الإمام الهاشمي، والملك الفاطمي، والفرع العلوي»، الأخيرة ٨٦١/١.

(٢٣) استرعى اهتمامنا في بيت من الشعر لابن شهيد، سوف نذكره فيما بعد، غموض كلمة «تَصَر» التي سنخلفها الشاعر بمناسبة حديثه عن سكان قرطبة، وهنا الاستخدام الحديث للكلمة [في تلك الأيام] يمكن أن يعني: «أنهم أصبحوا يشبهون أهل مصر، ويمكن أيضاً أن تعني أنهم أصبحوا أنصار الأمراء الفاطميين الذين كانوا يحكمون مصر». انظر فيما بعد ص ١١٢ هامش رقم ٣١ من هذا الكتاب فهناك بيت الشعر الذي نشير إليه.

(٢٤) تارنه يا ورد عند ابن عيون، البيت ٤١، في الملجب ص ٨٤، وترجمه ص ٧١، والهامش رقم ١:

رأسبت دعة الروح الأمين على دمٍ يفتح لآل المصطفى مدراً

وانظر: دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٣٨، وقد ترجم «الروح الأمين» بالملك جبريل. وعن «الروح الأمين» انظر: القزويني، عجائب المخلوقات ص ٥٤، والقرآن الكريم، سورة الشعراء الآية ١٩٣.

(٢٥) من الرمل، نفع ٤٣٣/١، ويذكر النفع البيت ٢٠ أو ٢١ و ٣٠ منه. أخرى في ٧١٤/١، وانظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط

٢ ج ٣ ص ٣٨ ٣٩.

وهذه الآيات الأخيرة أحدثت، فيما يزعم المقرئ، تأثيراً قوياً في الحمودى، الذى استمع لها من وراء ستار تقليدا للخلفاء العباسيين، حتى أنه أمر حاجبه برفع الستارة، ثم نهض واقترب من الشاعر، وواجهه دون أى فاصل، وأمر بأن يرسل بهدية عظيمة.

اختفت الاهتمامات الدينية تماماً، مع ملوك الطوائف ومع أمراء غرناطة ومالقة من لهربر، وورثوا الخلفاء الحموديين، ولو أنهم صنهاجيين، وليسوا موالين للشعبة كما كان سابقوهم هنا، و أسلافهم فى إفريقية^(٢٦)، وإنما هم بربر فحسب، وقبل أى شىء، ولو أنهم - من جانب آخر - تأندسوا فى سرعة كبيرة جداً، وهكذا تبيّهر آخر عامل فكري كان يمكن يُنهض المسلمين ضد المسيحيين، وفيها تلا ذلك، واصلت الصراعات سيرها دائماً بين صغار الملوك فى جنوب إسبانيا وأمراء الممالك الإسلامية فى شبه الجزيرة على أرض عنصرية، ولم تظهر بينهم أبداً أية اهتمامات دينية، وكان عدم الاكتراث بالتواحي الدينية أكبر ما صدم المراهطين بعد تدخلهم الأول، وكان وراء قرارهم، بعد أن دفعه الفقهاء إليه: الإطاحة بكل هؤلاء الأمراء الصغار فى إسبانيا.



فما يتصل بعصر الطوائف سوف يكون مملاً، وإذا أهمية قليلة ومحدودة أن نأتى على الأحداث السياسية الصغيرة التى أشار إليها الشعراء فى مدائحهم، ولم تدع الحروب، وهى كثيرة أثراً أكثر من أنها معارك بلا امتداد، حيث تتراجع الشجاعة فى كثير من الأحيان أمام الخبت والحيلة. ولكن الحوادث لم تلبث أن أخذت طابعا خطيرا وجادا، وجاء إنذاران ليخرجنا الأندلسيين من هدوئهم الخلو: هزيمة بطرنة وسقوط بربشتر.

فى عام ٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ م حاصر القشتاليون مدينة بلنسية، لكنهم أدرکوا أنهم لا يستطيعون الاستيلاء عليها بالقوة، فظاهروا بالابتعاد عنها، حيثئذ خرج أهالى المدينة فى أبهى ملابسهم ليلاحقهم، فاندلعت المعركة قريبا من بطرنة، وانتهت كارثة بالنسبة للبلنسيين، ويقول أحر إسحاق بن معلى الطرسوفى بهذه المناسبة:

لَبَسُوا الْحَدِيدَ إِلَى الْوَعْرِ وَلَيْسَتْ
مَا كَانَ أَقْبَحَهُمْ وَأَحْنَكُهُمْ يَهَا
حُلَّ الْحَرِيرِ عَلَيْكُمْ نَوَانَا
لَوْ لَمْ يَكُنْ يَطْرُنَةُ مَا كَانَا^(٢٧)

وفى العام التالى، ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م، سقطت بربشتر فى يد جيش النورمانديين، وأسلموا المدينة للذهب والسلم، وقص علينا ابن العبال شعرا ما تعرّض له المسلمون من تعذيب وأهوال بهذه المناسبة:

ولقد رمانا المشركون بأسهم لم تُحْطِ لَكِنْ شَأْنُهَا الصَّهْ

(٢٦) تعرف أن انتشار المبادئ الشيعية يعود فى الجانب الأكبر منه إلى صنهاجة التى غطت بلاد البربر الشرقية، وساعدتهم الزناتيون فى إسبانيا. انظر: أعمال الأعلام ٣٦٦، والبيان المغرب ٢/٢٦٧ - ٢٧٠.

(٢٧) من الكامل، نفع ١٨١/١ و ٤٤٨/٤. وعن المعركة انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٨٨، والمصادر المذكورة هناك والذخيرة ٢/٢٦٤، وأعمال الأعلام ١٩٥، وأبعث ط ١ ص ٣٦٥ - ٣٦٦، وسبولك فى مجلة ZDMG المجلد ٦٣، عام ١٩٠٩، ص ٣٥٥.

لم يبقَ لاجبِل ولا بطحاء
في كِل يوم غارة شعواء
نحماننا في حريمهم جبناء
طفل ولا شيخ ولا عنراء
فله إليها ضجة وبغاء
فوق التراب وفرشه اليبداء
قد أمرزوها ماله استخفاء
فعليه بعد العزوة استغذاء
ركبوا الكيائس ماله خفاء
أيدا عليهم قالذنوب الداء
وصلاح متعلل الصلاح رياء^(٢٨)

هتكوا بخلهم قصور حريمها
جاسوا خلال ديارهم فلهم بها
باتت قلوب المسلمين برعهم
كم موضع غنموه لم يرجم به
ولكم رضيع فرقوا من أمه
ولرب مولود أبوه مجدل
ومصونة في خنوها محجوبة
وعزير قوم صار في أيديهم
لولا ذنوب المسلمين وأنهم
ما كان ينصر للنصارى فارس
فشرارهم لا يخفون بشرهم

ولكن بربرشت^(٢٩) بعيدة جدًا عن الأندلس في الجنوب، ولم تحدث أئى قلق بين جمهرة المسلمين، ولم يشعر بهذه الضربة إلا مجموعة متميزة، وكان من الضروري أن تسقط طليطلة في يد ألفونسو السادس، في ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م^(٣٠)، حتى يجيء الإنذار بالخطر رادعًا، يقول ابن العسال:

يا أهل أندلس! خفوا مسيطكم
الثوب ينسل من أطرافه وأرى
ونحن بين عدو لا يفارقنا
فما المقام بها إلا من الغلط
ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
كيف الحياة مع الحيات في سفيط^(٣١)

واتهم شاعر مجهول في قصيدة طويلة، مثل ابن العسال، العادات الخبيثة السائدة بأنها سبب كل المصائب:

فلن قلنا العقوبة أدركتهم
فإننا مثلهم وأشد منهم
أنامن أن يحل بنا انتقام
وأكل للحرام ولا اضطرار
وجاههم من الله النكير
نجور وكيف يسلم من يجوز
وفينا الفقى أجمع والفجور
إليه فيسهل الأمر العسير^(٣٢)

(٢٨) من الكامل، الروض للقطار، رقم ٢٨ ص ٤٠ - ٤١ و ٥١ - ٥٢.

(٢٩) حول ستيلاء النورماندين على المدينة انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٧٨ - ٧٩، والمصادر المذكورة هناك والذخيرة ١٧٢/٣ وما بعدها، وأعمال الأعلام ١٧١.

(٣٠) عن سقوط هذه المدينة انظر: إلفى برونسال. ألفونسو السادس والاستيلاء على طليطلة (١٠٨٥ م)، في مجلة هيسبيريس، المجلد ١٢ عام ١٩٣١، ص ٣٣ - ٣٩، والمصادر المذكورة هناك.

● قلت: ضم برونسال هذا المقال إلى مقالات أخرى، ونشرها في كتاب بعنوان: «الإسلام في المغرب»، وفيها بعدها ترجمها الدكتور السيد عبد العزيز ومحمد صلاح الدين حلمي، باسم «الإسلام في المغرب والأندلس»، وصدرت في سلسلة الألف كتاب عام ١٩٥٦، بإشراف إدارة الثقافة في وزارة التربية في القاهرة - مصر، والمقال في هذا الكتاب ص ١١٩ - ١٥٠. (المترجم)

(٣١) من البسيط، فتح ٢٥٢/٤، والبيت الأول ترجمه دزى في: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٢٣.

(٣٢) إشارة إلى ما ورد في القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ١٦٨، وسورة الأنعام، الآية ١١٩، وسورة النحل، الآية ١١٦.

ولكن جُرأةً في عُقر دار
يزول السرُّ عن قومٍ إذا ما
كذلك بفعلٍ الكلبُ العفور
على العصيان أزعجت السور^(٢٣)

وقد قرر المعتمد، بعد أن اتفق مع المتوكل، أن يطلب مساعدة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، ويؤكد المؤرخون^(٢٤) أن ملك إشبيلية جاز في ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م «بأسطول الأندلس جواراً فخياً، واختار لمصاحبه في سفره الخواص والأعيان، واستخلف ولده الرشيد بأشبيلية، وشيعة لئس إلى محل ركوبه البحر»، على ضفة الوادي الكبير، ولكنهم لا يسيرون، دون شك، إلى الجزيرة الخضراء، رغم أنها في هذه الفترة كانت جزءاً من مملكة إشبيلية، وقد احتفى بهذا الحادث شاعران: عبد الجليل بن وهبون، وأبو عبيد البكري، وقد هنا الأول المعتمد، ووصفه بأنه،

عزَّمُ نَجْدٍ فيه النصرُ والظفرُ وفكرةٌ خدمتُ من دونها للفكر^(٢٥)

والثاني، واشتهر بأنه عالم جغرافي، يبدو لنا رجل بلاط حقيقي حين يقول

يهونُ علينا - مركبُ الفلك - أن يرى بحبي العلأ لما نبا مرتب الجُد
فجزت أجاج البحر تنحى زلاله وذقت جنى الأحوال تبغى جنى لشهد^(٢٦)

ونعرف نتيجة المساعي التي قام بها المعتمد لدى يوسف بن تاشفين: لقد هبَّ المرابطون لنجدة الأندلسيين، وتقابل الجيش الإسلامي المتحد، وضم المرابطين وبعض ملوك الطوائف فحسب، مع الجيش المسيحي بقيادة ألفونسو السادس، في مكان يطلق عليه المؤرخون اللاتينيون اسم «سجراخس Sagrajas» أو «سكرالياس Sacralias»، ويسميه المؤرخون العرب «الزلاقة»، أما الشعراء فلم يعرفوه أبداً إلا باسم «وقعة الجمعة» أو «يوم العروبة»^(٢٧).

كان عبد الجليل بن وهبون هو الذي أشاد ببطولة المعتمد في هذه الوقعة التي لا تحصى، وأطرى مزايًا يوسف بن تاشفين الحربية أيضاً:

أظنُّ خطوبها قالت سلامٌ فلم يعيَّش لها منك ابتسامٌ
فثار إلى الطمان حليفٌ صدق ثور به الحفيظة ولذمامٌ
نمى في حمير وغتك لقم وتلك وشائج فيها النحام
نهجت لسيله نهجاً فواني وفي آذيه الظامي عرام
فهيل به كئيب الكفر هيلاً وكل رقيقة منه ركام

(٢٣) من الواقعي، تقع ٤٨٣/٤ - ٤٨٦، وتحتوي القصيدة كلها على اثنين وسبعين بيتاً.

● قلت: حسلت هذه القصيدة، وانتهيت إلى حرية قائلها لي كتابي «دراسات أندلسية: في الأدب والتاريخ والفلسفة»، ط ٤ ص ٢٢٩ وما بعدها، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩ (الترجم).

(٢٤) أعمال الأعمال، ٢٤٦، والمجلد ٥٤/٢ و ٥٥، وأبحاث ط ١ ص ٢٨٨ - ٢٨٩، وترجمتها ص ٢٩٧، انظر أيضاً: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٣٣ و ١٢٤ هامش رقم ٣.

(٢٥) أعمال الأعلام، ٢٤٦، وتضم المقطوعة ستة أبيات، وهي من البسيط.

(٢٦) من الطويل، الحلة ١٨٦/٢، وعننا في أبحاث ٢٨٨، وترجمته ص ٢٩٧.

(٢٧) عن هذه المعركة انظر: لفي بروفنسال وغرسية غوث وأوليفر أسين: الجديد حول المعركة المسماة الزلاقة، (١٠٨٦ م)، في مجلة الأندلس، المجلد ١٥، عام ١٩٥٠، العدد ٧ ص ١١١ - ١٥٥.

وصاروا فوق ظهر الأرض أرضاً
عديداً لا يشارفه حساب
تألفت الوحوش عليه شتي
فإن بنج اللعين فلا كحر
فيا أدفنش يا مفروراً هلاً
ستسألك النساء ولا الرجال
وراقبها بأرضك طالعات
كأن وهادهما منهم إكام
ولا يحوى جماعته زحام
فيا نقص الشراب ولا الطعام
ولكن مثلاً ينجو اللثام
تجنبت المشيخة يا غلام
فحدث ما وراءك يا عصام^(٣٨)
كما تهدي صواعقها القمام^(٣٩)

ونلاحظ أن الشاعر يشير في البيت إلى تلال جثث المسيحيين، ويقول المؤرخون إن المسلمين اهتموا «بقطع رؤوس المشركين، وبنوها كالموامع، في صحون الجوامع، وقام المؤذنون في أعلاها بالأذان ثلاثة أيام»^(٤٠)، ولكنهم لم يصنعوا شيئاً في الواقع أكثر من المبالغة في الأخبار التي جاء بها الشعراء.

ومع ذلك، ورغم الشائع عن الشعراء أنهم كذابون يقولون ما لا يفعلون، وأنهم يؤولون في رواياتهم، فقد أظهرنا بخاصة في الحالات المأسوية الجادة، دقة معلوماتهم، كالمؤرخين تماماً، وتميزوا إلى جانب ذلك بأنهم عصفروا لأحداث، وتخذوا منها موضوعاً لقصائدهم، ولا يمكن أن نتجاهل رواية عيد الجليل بن وهبون عندما يقول عن موت ابن عمار، وفكره في المعتمد:

عجياً لمن أيكبه ملء مدامى وأقول: لأشلت بين القاتل^(٤١)

هذا البيت الذين ندين به لقلم ابن وهبون يحمل دليلاً لا يمكن دفعه، أو الشك فيه، على أن المعتمد قتل بيديه نفسها وزيره القديم.

وعندما أزعج المرابطون ملوك الطوائف عن عروشهم أثاروا بين شعراء شبه الجزيرة حزناً عميقاً، سجله المؤرخون ومصنفو الخنثارات بابتهاج واضح، ولكن هذا المديح المتبادل لا يجب أن نغمره اهتماماً كبيراً، ومع ذلك أمدا ابن اللبابة. بمعلومات وفيرة عن رحيل المعتمد من إشبيلية، عاصمة ملكه، بعد

(٣٨) مثل عربي، انظر: فريتايج، الأمتال العربية ٥٨٩/٢ وما بعدها.

(٣٩) من الوافر، الثلاث ١٤، وهذا في «بنو عباد» ٥٠/١ و ١١٦ - ١١٧، والذخيرة ٢٤٥/٢، والطرب ١٢٠.

(٤٠) انظر: خريدة القصر، مخطوطة باريس ٤١، وفيها في «بنو عباد» ٢٨٤/١، وترجمته ٣٩٩، وكتاب الاكتفاء، في «بنو عباد» ٢٣/٢، وريحان الأدب، في «بنو عباد» ٨/٢، ويقول ابن زاكور في شرحه لقلائد العقيان، بماسبة البيت السابع من قصيدة عيد الجليل، وهو في «بنو عباد» ١١٧/١، الملمش رقم ٢٤٥: إنهم فقط رزَعوا رموس الكفار بين مدن الأندلس وبلاد البدوة، والقرطاس، طبعة تورنجر ص ٩٦، وذكره فون شاك وترجمة بالبرا له، في شعر العرب وقتهم في إسبانيا وصقلية ٦٤/١. وروى ابن قزمان أيضاً، معتمداً على من شاعروها، ولم يكن قد مضى على هذه المعركة أكثر من ست سنوات أو ثمان، شدة التحام الفريقين، والمجد الذي حققه المرابطون بهذه المناسبة، انظر: ديوان ابن قزمان، الزجل رقم ٣٨.

● ملته: من المخطوطات السابقة طبعت الحريدة ونشر المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ما بقي من كتاب الاكتفاء لابن الكردوبس، عام ١٩٧١، مع نص آخر لابن الشباط. وترجمت كتاب فون شاك إلى العربية بعنوان «الشعر العربي في إسبانيا وصقلية» وسيصدر عن دار المعارف عام ١٩٨٩، والجزء الخاص منه بالفن صدر فعلاً بعنوان «الفن العربي في إسبانيا وصقلية»، وظهرت طبعته الثانية عن دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥. (الترجم).

(٤١) من الكامل، الحلة ١٦٠/٢، وبنو عباد ١١٩/٢.

أن استولى عليها المرابطون في رجب ٤٨٤ هـ. أغسطس ١٠٩١ م. وصور المشهد في روعة مؤثرة حتى أن وصفه شعراء، وكتب بعد الحدث بأعوام، يقدم اللوحة الأكثر رعباً وفزعاً:

نسيتُ إلاَّ غداةَ النهرِ كسوتهمُ	في المنشآت كأمواتٍ بالحدادِ
والناسُ قد ملأوا العيرين واعتبروا	من لؤلؤِ طافيات فوق أزياد
حطَّ القناعُ فلم تُستَرِ مخدرة	ومزقت أوجهُ تمزيق أبرد
حان الوداعُ فضجت كل صارخة	وصارخ من مُقدِّة ومن فاد
سارت سفائنهمُ والنوحُ يصحبها	كأنها إبل يحدها الحادي
كم سال في الماء من ندمٍ وكم حلت	تلك القطائع من قطعات أكباد ^(٤٢)

قد يدهشنا أن نجد اسم المعتمد وذكره في كل الكتابات تقريباً التي تشير إلى أحداث تاريخية وقعت في عصر الطوائف، فقد كان يجسم بحق نموذج الأمير الأندلسي أو الإسباني، بثقافته وقوته، وكان الرمز الكامل للوطن الإسباني الإسلامي في اختلافه جوهرياً عن العنصر الأفريقي ذي الأصول البربرية، وقد اتجهت إليه كل الأنظار ربما لأنه الوحيد الذي كان قادراً على تحقيق الوحدة الأندلسية، والعتور في هذه اللحظة الحرجة على وسيلة للتعايش مع المسيحيين.

لقد أنجز شاعر دينه إعجاباً بالمعتمد، ومعرضاً بناصر الدولة مُبشِّر حاكم ميورقة، وكان زهواً بعزله في الجزيرة، التي ساعدته على أن يفلت من المرابطين، يقول:

ألا قلّ للذي يرجو مناماً	بعيد بين جنبك والفراش
أبو يعقوب من حدثت عنه	فرش سهم العداوة أو فراش
إذا نقش القضاء جبال رضوى	فكيف تراه يصنع بالفراش ^(٤٣)

وأمام سخط الشعب، واحتمال وقوع غمرد أو أحداث خطيرة تأتي على ملوك الطوائف، أشد السيميسر شاعر غرناطة الأبيات التالية المتينة:

نادِ الملوك وقلّ لهم	ماذا الذي أحدثتم
أسلمتم الإسلام في	أسر العدا وقعتتم
وجبّ القيام عليكم	إذ بالنصارى قمتتم
لا تنكروا شق العصا	فعضا النبي شققتم ^(٤٤)

وله هذه الأبيات أيضاً:

رجوناكم فما أنصفتونا وأملناكم فخذلتمونا

(٤٢) من السبط، الفلاند ٢٣، وعنها في «بنو عباد» ٥٩/١ - ٦٩، ونفح ٢١٤/٤، والذخيرة ٨٠/٢، وعنها في «بنو عباد» ٣٢٢/١، والمعجب ١٤٨، وترجمته ١٢٥، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٦٨.
(٤٣) الذخيرة ٩٤/٣، وأبحاث ط ١ ص ٣٣٦، والترجمة ٣٤٦، وهذا الشاعر هو أبو الحسين بن الحداد، والأبيات من الواقع.
● قلب: في الأصل أبو الحسين حداد، اعتماداً على مخطوطة الذخيرة في جوفته، وصحاحه اعتماداً على النسخة المطبوعة (المرجم).

(٤٤) من الكامل، الذخيرة ٨٨٥/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٣٦.

سنصبر والزمان له انقلاب وأنتم بالإشارة تفهمونا^(٤٥)

ويمكن أن يشير إلى بعض الأشعار المتميزة عن سقوط ملوك الطوائف. يقول أبو تمام غالب بن رباح، المعروف بالحجّام، ملتقطاً صورته من عادة تعدد الزوجات عند المسلمين:

كأنّ بلادهم كانت نساءً تطالبها الضرائرُ بالطلاق^(٤٦)

ويشبههم ابن الحاج اللورقي بأبنية صلبة انهارت:

كم بالغارب من أشلاءٍ تُخترَمُ وعائِر الجسد مصبورٌ على الهون

أبناءً ثمن وعبادٍ ومسلمةٍ والحُميرُ بين: باديس وذى التون^(٤٧)

راحوا لهم في هضابِ العزّ أبنيةً وأصبحوا بين مقبور ومسجون^(٤٨)

وابن الحاج الذى اشتكى من طريقة استقبال المعتمد له في إشبيلية، وأشرنا إلى ذلك فيما سبق، ينسى هنا أحقادهم، ويعرف مثل بقية الشعراء كم خسروا بانهيار هذه المملكة الصغيرة.

إنها ليست ساعة الأحقاد الشخصية!

إنها لحظة جد خطيرة، بلا شك، بالنسبة للمثقفين، أولئك الذين بينهم من أحنى رأسه للظروف، وهم الأغلبية، يبكون الأمراء الذين أزعجوا عن عروشهم، ولكنهم في نهاية قصائدهم يمدحون المهابطين. وهى حالة عبر عنها ابن عبد الصمد، وأما الآخرون فيسبب الألم الذى يشعرون به، عبروا عن أحزانهم دون أن يفكروا في الغد، وقد رأينا أى إيقاع مؤثر حزين عزف عليه ابن الليانة وهو يصف رحيل المعتمد، وبلغ به الأمر أن أراق دمعه خلال إقامته في أعمات حين ذهب ليزور المعتمد، رغم الشكوك التى يمكن أن تحوم حوله عندما يعبر علانية عن إخلاصه للأمير المعزول.



على أن هذا الروح الشعري لم يكن عند الشعراء جميعاً، لأنهم لم يكونوا يصدرون كافة عن اقتناع عميق، ولكن البلاغة لم تتوار عنهم نهائياً، وحين يشهدون بفضائل رعائهم، وبخاصة الكرم والشجاعة فإنما يفكرون قبل أى شيء في أسلوب مصقول، وذكريات تاريخية حاشدة، يلعبون خلالها، وتضفى عليهم شهرة وبريقاً.

لقد تأثروا بفداحة الأحداث، ولم يكونوا من صناعها، وكانوا ضحاياها في الوقت نفسه، فلم يترددوا في أن يشبهوا دول الطوائف الفاذية بأعظم الأمباطوريات، وهى تشبيهات تأتي عند بعضهم موجزة، واكتفى ابن الليانة، وأشرنا إليه من قبل أن يقول:

(٤٥) من الوافر، المصدر السابق نفسه.

(٤٦) من الوفر، النسخة ٩٤/٣، وأبحاث ط ١ ص ٣٣٥، وترجمتها ٢٤٨. وقد ترجم دوزى كلمة ضرائر destin inexorable وهو خطأ ويبدو أن لسان الدين بن الخطيب، في أعمال الأعلام ص ٧٤٤، يعلق على هذا البيت حين يقول: «وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من الحساد والتنافس والفيرة ما لم يجعله بين الضرائر، الخرافات، والعشائر المتخافرات».

(٤٧) يبدو أن الشاعر يعثر البربريين باديس وذا التون كيهنيين، انظر فيما سبق ص ٨٦ من هذا الكتاب.

(٤٨) من البيضة، المجلد ١٠٢/٢، وأبحاث ط ١ ص ١٧٥، وتصويبات ١٠٦، والقتلاد ١٤٣.

إِنْ يَخْلَعُوا فَيَنْتَوِ الْعَبَّاسُ قَدْ خُلِعُوا وَقَدْ خَلْتُ قَبْلَ حَمَصٍ أَرْضُ يَخْدَادٍ^(٤٩)
وَتَوَسَّعَ ابْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ قَلِيلًا، سَائِرًا عَلَى نَهْجِ تَارِيخِي صَاعِدًا:

وَإِذَا انْقَضَتْ أَيَّامُ مُلْكٍ فَالْعَنَا فِي غَايَةِ الْإِكْثَارِ وَإِجْعَادِ
حَازَتْ بَنُو الْعَبَّاسِ مُلْكُ أُمِّيَّةٍ وَهُمْ ذُووُ الْأَعْدَادِ وَالْأَمْدَادِ
وَرَأَى مَعَاوِيَةَ عَلِيًّا هَالِكًا وَعَلَى الْبَيْتِ الْهَزْبُ الْعَادِ
وَالدَّهْرُ أَذْهَبَ تَبَعًا وَجَنُودَهُ وَأَزَالَ مُلْكُ الْأَرْضِ عَنْ عُدَادِ^(٥٠)

ونظم أبو طالب عبد الجبار المتنبى أرجوزته لغاية مختلفة: أن يؤرخ للعالم شعرا منذ بدء الخليقة إلى معركة الزلّاقة، دون أن يبلغ في هذا العرض السريع إظهار كوارث متتابعة جديدة بأن تجعل الأجيال القادمة تفكر فيها^(٥١). ومع أبي محمد عبد المجيد بن عبدون الياقوبى يبلغ هذا النوع المأسوى أقصى غمّه ونظوره، ومرثيته لنهاية بني الأفطس، المتوكل وأبنائه: الفضل والعبّاس، وقتلهم ارباطون، تضم أبياتا قليلة عن ملوك الطوائف^(٥٢). وكانت الأبيات الثمانية الأولى فيها تأملات عامة عن «الدهر» و«الليالي»، وتليها الأبيات، من التاسع حتى الواحد والعشرين، تعدّد سقوط عظماء الملوك، وكبار القبائل قبل الإسلام: دارا والإسكندر وساسان ويطليموس، وطسم وجديس وعاد وجرهم وتبع اليمنى، ومصر وسبأ وكلب ومهلل، وأسد وذبيان وعيس والنعمان ملك الحيرة، وإبرويز ويزدجرد ورسنم. وابتداءً من البيت الثانى والعشرين وحتى البيت الرابع والأربعين يقدم عرضا سريعا للاحداث الأليمة التى وقعت للمسلمين، مثل: جعفر وهمزة وخبيّب، وغيرها. ولا يبدأ تاريخ ملوك الطوائف حتى البيت الخامس والأربعين، وهو أيضًا تاريخ العبّاسيين، فقد تقاسم أولئك وهؤلاء ألقاب الشرف نفسها:

وَرَوَعْتُ كُلَّ مَسَامُونٍ وَمُؤْمِنٍ وَأَسْلَمْتُ كُلَّ مَنْصُورٍ وَمَنْتَصِرٍ
وَأَعْنَسْتُ آلَ عِبَادٍ لَعَالِهِمْ بِذَيْلِ زَبَاءٍ لَمْ تَنْفِرْ مِنَ الدُّعْرِ
بَنَى الْمَظْفَرِ وَالْأَيَّامُ - لَا نَزَلَتْ - مَرَّاحِلَ وَالْوَرَى مِنْهَا عَلَى سَفَرٍ

وهذه الأبيات الثلاثة نقط هي التى تشير إلى ملوك الطوائف، فقد حث ابن عبدون الخطى ليصل إلى بني الأفطس، ولكن الأبيات الثمانية والعشرين التى خصهم بها لا يمكن أن تعرض لها هنا، فليس فيها شيء من التاريخ، وأسلوبها البليغ يحول دون تدوّننا العميق للتأملات الفلسفية المتناثرة فيها.

(٤٩) القلائد ٣٦، وانظر فيما سبق ص ٩٦.

(٥٠) من الكامل، أعمال الأعلام ١٦٦، الأبيات ٢٢ - ٣٥.

(٥١) الذخيرة ١١٨/٦ - ١٤٤، والجزء الذى يتناول إسبانيا في القرن الحادى عشر من صفحة ٩٤١ إلى ٩٤٠. وهذه القصيدة

لا تكون ملحمة، كما يتبادر إلى الذهن دون معرفة محتواها انظر: خوليان ريسيرا، نيز ومقالات ١-٥/٢.

● قلت: أردت رأى ريسيرا، وأراء أخرى، حول دور هذه منظومات في نشأة الملاحم الإسبانية، وتناولت لقضية هناك من كل جوانبها. انظر: الطاهر أحمد مكى، ملحمة السيد ط ٣ ص ١٧١ وما بعدها، دار المعارف القاهرة ١٩٨٣، وسوف تصدر الطيعة الرابعة في بغداد في أواخر عام ١٩٨٨ عن وزارة الثقافة العراقية. (المترجم).

(٥٢) من البسيط، النص الكامل للقصيدة قدمه لنا المراكشى في كتاب المسجب ص ٧٦ - ٨٧، وترجمته ص ٦٥ - ٧٤، وبعض

الأبيات لم تأت يا القلائد ٣٧ - ٤٠، وأعمال الأعلام ١٨٦ - ١٨٥، وكامل كيلانى وأ. خليفة، ديوان ابن زيدون ٣٤٦ - ٣٤٨ (في تملق).

لقد شعرت بعض الأرواح المتميزة فعلا بعمق تعاسة شبه الجزيرة، ولكن هذا الإحساس لم يلمحها أية قصيدة مدحمة حقاً.



بوصول المرابطين ابتعد خطر حركة الاسترداد مؤقتاً، وما أسرع ما التفت الشعراء بأبطال الإسلام، وتوقفوا مع نهاية القرن الحادى عشر هذه عند تسجيل الأحداث التى أشرنا إليها فيما سبق، وبالطريقة نفسها، من الإشادة بالمزايما التى حققها المرابطون على المسيحيين، ولكن بنسبة التى يتصارع حولها فى ضراوة السيد وقواد يوسف بن تاشفين أثارت خيان الشعراء بقوة أكثر من غيرها، بسبب ما عانته من تخريب واسع.

لقد هاجمها السيد عام ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م، فنظم ابن خفاجة الأبيات التالية بهذه المناسبة، يبكى فيها مدينته التى أنت عليها النيران:

عانتُ بساحتك الظُّبا يادارُ ومحا محاسنك البلى والنارُ
فإذا تردّد في جنانك ناظرٌ طال اعتبارُ فيك واستعبارُ
أرضٌ تماذقتِ الخطوبَ بأهلها ومخضتْ بغرابها الأقدارُ
كبتْ يدُ الحداثي في عرصاتِها لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ^(٥٣)

لقد استرد المسلمون مدينة بنسبة نهائياً عام ٤٩٥ هـ = ١١٠١ - ١١٠٢ م^(٥٤)، وهكذا نجد القرن الحادى عشر يبدأ باضطرابات قرطبة، وأحداث تومئ إلى تفكك الخلافة، وتنتهى بحملة حرية استرد فيها الإسلام صلابته مؤقتاً، وأظهر حيويته فى مواجهة المسيحية.



(٥٣) من الكامل، الذخيرة ١٠٠/٣، ورفع ٤٥٥/٤، وأبحاث ط ١ ص ٣٤٠ و ٣٥٧ و ٣٨٠، وط ٣ ج ٢ ص ٢٣، والملاحق ص ١٥، والروض المطار رقم ٥١ ص ٤٨-٦٠، وإسبانيا فى عصر السيد ٥٥٥، والشطر الأخير فى آخر هذه الأبيات أخذه ابن خفاجة من أى تمام التوفى ٢٣١ = ٨٤٦، فى مطلع إحدى قصائدته التى من نفس البحر والقافية، انظر الديوان ص ١٤٤ (الطبعة القديمة - وصدرت للديوان أكثر من طبعة حديثة).

وقبل ذلك بعام، فى يناير ١٠٩٤، بكى الوقشى مدينة بنسبة فى قصيدة لم يصلنا أصلها العربى، ولكننا نلحظ لها ترجمة إسبانية قديمة بفضل المبدئة الأولى العامة، وعن هذه المرتبة انظر: المدونة الأولى العامة فى «مكتبة الخزانة الإنسان الجديدة»، مجلد ٥ ص ٥٧٦ - ٥٧٧، ودوزى، أبحاث ط ١ ص ٥٤٩ - ٥٥٣، ومالورى مولينا، وودريجو الكميادور، الملاحق ص ١٥٠ - ١٥٨، وشاك ترجمة بالراء شعر لعرب ١٩٢/١-٢٠٠، ورييرا، نبذ ومقالات ٢٧٥/٢ - ٢٩١، وقد كتب البحث عام ١٨٨٧، ورامون مينينديث بيدال، عن الوقشى، فى تكميم كوديرة ٣٩٣ - ٤٠٩، وإسبانيا فى عصر السيد ٤٩٣ - ٤٩٥.

● قلت: درست تاريخ السيد، وهى أول دراسة مفصلة له فى اللغة العربية، وحساره لمدينة بنسبة، وما عانته بسببه، وأبيات ابن خفاجة وتلميذى عنها فى كتابي: ملحمة السيد، وصدرت طبعته الثالثة عن دار المعارف بالقاهرة، وسوف تصدو طبعته الرابعة فى بغداد عن وزارة الثقافة العراقية.

وكذلك درست مرتبة الوقشى وأنتيت على ترجمتها الإسبانية القديمة، وترجمة النص الإسباني إلى العامة الأندلسية، ثم ترجمتها إلى العربية الفصحى، فى كتابي: دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩. (المترجم).

(٥٤) أشاد ابن خفاجة بهذا النصر فى قصيدته له من ٢٧ بيتاً، انظر، ديوانه ص ١٠٣، وترجمة ترميمه لها، قام بها مستنيد بيدال فى «إسبانيا فى عصر السيد» ٢٦١/٢، وانظر فيما سأتى ص ٣١٤ - ٣١٥ من هذا الكتاب.

لم يسجل الشاعر في دوره مؤرخا الأحداث لسياسية فحسب، وإنما سجل أيضا الألقاب التي اتخذها الملوك رمزا لسلطنتهم. ويجب أن نلاحظ في المقام الأول أن كلمة «ملك» أو «سيك» لا تعني مفهومها الأوربي Roi. وإنما تعني أميرا أو رئيسا يرتدى سلطة ملكية تقريبا، ويدعو ابن راج القسطل أفكاره أن تعود إلى «الملكين الأكرمين»^(٥٥). وليس إلا الصقليين: «مبارك ومظفر». وقد وصف أبو عمر بن سعدون أمير السهلة ابن رزين بأنه «ملك الأرض»^(٥٦). وحاول أبو إسحاق الإلبيري أن يثير بربر صهناجة في غرناطة ضد اليهود، فوصف باديس بن حموس:

على إنك الملك المرتضى سليل الملوك من الماجدين^(٥٧)

مما لقب أمير المؤمنين فاتحده الخلفاء أيام الفتنة. وفي بداية عصر الطوائف ظن كل الخلفاء، بحق أو بدونه، أن هشاما المؤيد قد توفى، فادعوا أنهم ورثته بوصية شرعية منه، وبما أن المدعين كانوا كثيرين، سواء من الحزب الأندلسي أم من الحزب البربري، فلن يدهشنا أن نرى أبا عامر بن شبيب، وقد وجد نفسه في السجن بسبب موقفه المناهض لمبادئ الشيعة، يدعو الخليفة الحمودي: أمير المؤمنين^(٥٨)، وأن ابن عباد، وحمل فيما بعد لقب المعتضد يتحدى والده القاضي أبا القاسم في قصيدة له يرسل بها إليه: ملك وأمير المؤمنين^(٥٩). وهو نفسه أخذ هذا اللقب عام ٤٥١ هـ = ١٠٥٩ م، عندما أعلن موت الخليفة هشام. وفي الحقيقة هشام المزيف بائع الحصر^(٦٠). وفي الوقت نفسه كانت تسعة «سلطان» تستخدم في القرن الحادي عشر مثل لفظ «ملك» وينصح ابن حزم الشعراء «أن يتعلق من السلطان بحظ ليسلموا من المتالف»^(٦١). وكان ابن رزين أمير السهلة يفخر بسبب وفاته بأنه «السموأل في هذي السلاطين»^(٦٢). وأطلق المؤرخون لقب السلطان على أمراء غرناطة من بني زيري^(٦٣). ولكنه لم يتطور مثل لقب «حاجب» ليطلق على الأسر المالكة في القرن الحادي عشر^(٦٤).

وفيا يتصل بألقاب التفخيم والتعظيم نعرف أن عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر، يخلف والده في الحجابة، كان أول من اتخذ لنفسه لقبى المظفر وسيف الدولة، إلى جانب أنه حاجب الخليفة هشام^(٦٥). وجريا على سنته قلده ملوك الطوائف، وهكذا فإن بني جهور في قرطبة: الوليد بن جهور، وابنه عبد الملك الذي خلفه من بعده، اتخذوا اللقبين: المنصور بالله والظافر بفضل الله^(٦٦). اتخذ عباد بن

(٥٥) أعمال الأعلام ٢٤٤.

(٥٦) القلائد ٥٢، وعنها في نفع ٦٦٨/١.

(٥٧) من التقارب، الديوان، القطعة رقم ٢٥، البيت ٢٤، وأعمال الأعلام ٢٣٢، وأبحاث ط ٣ ج ١، ص ٢٣٨، والملحق ٦٥.

(٥٨) انظر فيما سبق ص ٩٠ من هذا الكتاب، والمطلع ١٩٩، وعنه في نفع ٣٦١/٢، البيت ٦.

(٥٩) الحلة ٤٦، وبنو عباد ٥٣/٢، والذخيرة ٣٢/٢، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٦/١، وانظر حول هذا موضوع: أ. كور في «نخب» في تكريم ربه باسمه، المجلد ٢، عام ١٩٢٥، ص ٢٨ - ٣٠.

(٦٠) المعجب ٩٦، وترجمته ٨١.

(٦١) نفع ١٦٧/٣، وانظر فيما سبق ص ٧٧ وفيما يلي ص ٣٩٢، الخامس ٨٢ من هذا الكتاب.

(٦٢) القلائد ٥٤، وأبحاث ط ١ ص ٦٢٠ - ٦٢١.

(٦٣) انظر: ليفي بروفسال، مذكرات الأمير عبد الله، المجلد ص ٢٥٢، رقم ٢٨ وقصته مستق ص ٢٠.

(٦٤) انظر: ليفي بروفسال في المصدر السابق ونفع ٢١٦/١.

(٦٥) البيان المغرب ١٧/٣، وترجمة ليفي بروفسال في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٩٨.

(٦٦) البيان المغرب ٢٥٩/٣.

محمد لقبي المعتضد بالله والمنصور بفضل الله، وللقب محمد بن صمادح قبل أن يحكم بسراج الدولة ومعر الدولة، فلما ارتقى العرش اتخذ لقبي: لعنصر بالله والوائق بفضل الله^(٦٧).

هذه الأسماء والألقاب التي اتخذوها تقليدا خلفاء بني العباس، وأمرأ بجاية في إفريقية، أو بني حمدان في حلب في المشرق، أثارت إلهام شاعر لا يتفق المؤرخون وأصحاب المنتخبات العربية على اسمه: هل هو ابن رشيق القيرواني، أو ابن شرف القيرواني، أو ابن عمار؟ نحن نعتقد أن هذه المقطوعة الشهيرة، والتي جرت من فم لقم كانت عمل مجهول مستتر بما فيه الكفاية لكي يرصف في بيتين من الشعر اسمين علمين ومثلا، وللنجاح شيء من المهارة في مثل هذا اللون من التديريبات، ولكنه عميق في إسبانيته، وقريب إلى الشعب حتى يصغر بسخريته من هذه التسميات المضحكة^(٦٨):

مما يزهدني في أرض أندلس أسماؤه معتصر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كاهل يحكي انتفاخا سورة الأسد^(٦٩)

هذا الحكم القاسي على ملوك الطوائف، من وجل مها كان مجهولا فهو إسباني في أقوى الاحتمالات، وعبر بأسلوب عميق وحاد عن الشعور بأن الأمور في إسبانيا لا يمكن أن تقاس بما عليه الحال في المشرق.

خلال الحكم الأموي لم تكن سلطة الخليفة معترفا بها من الجميع، في كل الأنحاء، فهناك دانا مناطق منفصلة، نواة اضطرابات يصعب إخمادها، ولم تكن الحملات الحربية توجه فقط ضد المسيحيين في الشمال، وإنما أيضا ضد المتمردين المتناثرين في مختلف المناطق، سواء كانوا مستعربين مثل عمر بن حفصون، أو مسلمين من أصل عربي مثل بني حجاج في إشبيلية، أو بني قجيب في أرغون، ومع ذلك لم ينبثق في أية لحظة شاعر يسخر من ألقاب مؤيد ومستنصر وناصر التي كان يحملها خلفاء قرطبة، وليس لها أية صلة بالأمويين، وما كان يبدو طبيعيا في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين لم يعد كذلك في القرن الحادي عشر، إذ وقع في هذا القرن حدث بالغ الأهمية: خلط من العناصر المختلفة حققت حيويتها ونجاستها أمام العنصر البربري، ومعها أصبح التمييز يزاد كل يوم وضوحا بين الأندلسيين وبين شعوب المشرق الإسلامية.



لقد يرهن شعراء القرن الحادي عشر بما حلوه لنا من معلومات عن الأحداث التاريخية، ومن ردود

(٦٧) الحلة ٨١/٢، وأبحاث ط ١ ص ٨١، والماض رقم ٢.

(٦٨) نجدا مشوبة لابن رشيق في نفح ٢١٣/١ - ٢١٤، وفي ابن لئون، لمح السر، الورقة ٣٥، وابن سعيد، في: قرطاج، منشآت عربية تحوية وقافية ص ١٤٠، والراكشي، المعجب ٧٠، وترجمته ٦١، وابن دينار، كتاب المؤنس، طبعة تونس ١٣٥٠ هـ ص ٩٢، وترجمة بلسيه وبميسا ص ١٦٨ - ١٦٩، وإلى ابن شرف في: ابن خلدون، المقدمة ٢٢٩، وطبعة كاترمير ٢٨١/١، وترجمة دي سلان لها ص ١٣١/٣، وإلى مجهول في أعمال الأعلام ٩٤٤، ونفح ٢٥٥/٤، وابن الواعيني، المتن في ٥٦٤ = ١١٦٨، ربحان الأدب، في «بنو عباد» ٥/٢، والرأي الأكثر قبولا بامانة، أن الأسماء التي ضرب بها الشاعر المثل هي التي حملها أمرأ بنو عباد الأوسع شهرة، ما يسمح لنا أن نستنتج أن ناظم الأبيات كان عدوا هذه الأسرة، ومع ذلك من المحتمل أن نجد في المشرق يوما النموذج الذي صرحت على متواله هذا الأبيات. قلون هذين البيتين بما قبل ضد البربر في ص ٢٣٦ - ٢٣٧ من هذا الكتاب. (٦٩) من البسيط.

الفعل التي عبّروا عنها بمناسبة أحداث معينة، على أنهم ليسوا جميعاً ناظمي بلاط عاجزين عن التعبير عن مشاعرهم الحقيقية. وإذا كان الجانب الأكبر من أشعارهم، على الأقل من وجهة نظرنا نحن الغربيين، ذا أهمية أدبية موضع خلاف كبير، وأحياناً ليست لها أهمية على الإطلاق، فإن ذلك ليس مبرراً لكى ندير ظهراً لشعرهم كله، ونستطيع أن نجد في شعر المناسبات، وحتى في قصائد المديح، عناصر متأثرة، وذات أهمية كبرى فيما يتصل بالوسط الذى عاشوا فيه، والمجتمع الذى اندمجوا في معامه، وعندما نجمع هذه المعلومات ونرتبها فسوف نلاحظ أن الشعر وثيقة له قيمة حقيقية، ومن ثم يمكن أن يقدم لنا مساعدة قيمة في المجالين التاريخي والاجتماعي.

المَبَابُ الثَانِي

الموضوعات العامة المستوحاة من الطبيعة

○ الموضوعات المفضلة:

كانت ظروف الشاعر الأندلسي تضطره إلى الرحلة والنجوال كثيراً، فأتاحت له الفرصة لرؤية مشاهد عديدة حوله، وكما أن رؤيته للعالم الخارجي لم تتأثر دائماً بانشغاله بالرتابة والمديح، على نحو ما رأينا، كذلك فإن قدرته على المشاهدة، إن لم تكن قد انطفأت، لم تدع شيئاً من مفهومه عن البيئة التي يعيش فيها ينعكس في أبيات شعره. وما أوردناه قبلاً عن تكوينه الأدبي يؤكد أن كل شيء في إبداعه ليس أصيلاً، وأن دراسة الشعر المشرقي على نحو ما كانت عليه في إسبانيا تركت بصمات واضحة على نفس الأسلوب الذي يصب فيه الشاعر أفكاره.

وبدا كما لو أن كل شيء قالته العرب في عصورها الأولى، ولكن من الأوفق أن نميز بالنسبة إلى الموضوعات التي يتناولها البحث بين العالم الخارجي والحياة الداخلية. ولقد عرف القرن الحادي عشر الميلادي ألواناً من الإحساس والفهم اختص بها الأندلسيون عن غيرهم من المشاركة. وفيما يتعلق بالطبيعة، جامدة أو متحركة، ألهمت شعراء الغرب الإسلامي موضوعات سبق أن تعرض لها الأدب المشرقي على نحو ما، وبعضها، وبدأ في المشرق، فما هنا وتطور واكتسح كل الإبداع الشعري. فالموضوعات الخاصة بالمدن والقصور والمتنزهات والوديان والجبال والحدائق والبساتين والمياه جارية وراكدة والبحار والسفن، ويمكن أن نعتبر هذه الموضوعات، نظراً لأهميتها، أساسية في إسبانيا، وعلى التقيض من ذلك، توجد موضوعات أساسية في الأدب العربي كانت هه كناية، كتلك التي تنصل بالتحيزات الجوية، من الغروب والليل والشروق والرياح والسحب والأمطار والبرد والثلوج وغيرها. أو تدخل في دائرة الأجرام السماوية من الشمس والقمر والنجوم والكواكب. والحيوانات في مختلف أنواعها، مفترسة ومستأنسة، موجودة على الأرض أو تسبح في الهواء.

وجدير بالذكر أن هذه الموضوعات الأخيرة التي يتناولها الشعراء في المشرق، وتعتبر تقليدية نظراً لقدمها وكثرة دوراتها في الشعر، وجود التعبير عنها، لم يأخذها الشاعر الأندلسي كما هي، وإنما عرف كيف ينفخ فيها من روحه، بتعبيره الأكثر تشخيصاً للطبيعة، وتجسيده الدائم لها، وعودته إلى الواقع الذي يلمسه، واقع أندلسي وليس أسبانياً، ومنه استمد صوره الشعرية، وهذا اللون هو الذي أضفى على الأدب الإبداعى في إسبانيا الإسلامية ملامح خاصة تميزه عن الأدب المشرقي حتى في الموضوعات التي تعتبر تقليدية.

○ الفصل الأول :

إسبانيا والمدن والمتنزهات

إن ما يميز الشاعر الأندلسي، في الواقع، عن الشاعر المشرقى، نظرتة إلى العالم الحادى، والمكان البارز الذى تحتله الطبيعة المحيطة به من فكره^(١).

ويرد الأدباء والنقاد غلبة الموضوعات المستوحاة من الطبيعة على غيرها في الشعر الأندلسى إلى خصوصية التربة الأندلسية النادرة، وهذا التعميم المبكر يدفعنا إلى ما يجب أن نفكر فيه، فلا يمكن عند ذكر لفظ الأندلس تحديد إقليم بعينه، كمقاطعات لأندلس المعاصرة مثلا، أو ما كانوا يسمونه قديماً «باطيقا Bétique» لأن اسم الأندلس يشكل كل إسبانيا الإسلامية، على حين أن المؤرخين والأدباء عندما يتكلمون عن المياه الجارية، والحقول الخضراء، والبساتين النضرة، لا يفكرون إلا في المقاطعات التى سمي الآن الأندلس L'Andalousie، وأقاليم الشرق أو الغرب التى تجاور المدن الكبرى مباشرة، حيث ينهض نظام الرى المنتظم^(٢).

وقد حاول أبو عبيد البكرى، وهو من القرن الحادى عشر الميلادى، أن يحدد تنوع أقاليم إسبانيا، وتعدد مناخها، فاستخدم الأسلوب الأدبى الذى عرضنا له، حين ألمحنا إلى طباع الأندلسيين وأمزجتهم وملاحظهم^(٣)، يقول:

«الأندلس شامية في طيب هوائها، بجانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكاها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحله»^(٤).
وسنرى أن نظرة الشعراء إلى إسبانيا لم تكن تختلف عن هذا، يقول شاعر مجهول:

في أرض أندلس تلتذ نصباء ولا يفارق فيها القلب سراء

(١) انظر قائمة بالموضوعات التى عالجها الأندلسيون في: الحجارى، المسهب في نفع الطيب ١٥٥/٣.
(٢) يقول المراكشى، هي - أى الأندلس -: «أعدل الأقاليم هواء، وأصفها جوا، وأعذبها ماء، وأعطرها بيتا، وأندأها ظلالا، وأطيبها بكرا مستعذبة وأصلا». انظر: المعجب ١٦٣، وترجمته ١٠٤. وحاول لسان الدين بن الخطيب أن يكون أكثر دقة قائلا: «وقد اختلفت طباع هذه الأرض لسمعة خطتها، وأخذها من الأقاليم بحفظها، فمن لماكنها المعتد وغير المعتدل مانلا إلى البرد». وبقيّة وصفه تنطق فيما يبدو على الأندلس Andalusia وحده. انظر: أعمد الأعلام ٤، وعنه في نفع ١٢٥/١ - ١٢٦، ويقول ابن سعيد إنه بعد رحلاته الواسعة لم ير «لما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ومدينة دمشق بالشام». نفع ٢٠٩/١.

(٣) انظر فيما سبق ص ٢٢ - ٢٤ من هذا الكتاب.
(٤) البكرى، في نفع ١٢٦/١، وترجمة ديجا في مقدمته لنفع الطيب في طبعته الأوربية ٢٨/١ - ٢٩، ولقى يروفسال إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٥٨، وينسب القزوينى في آثار البلاد، في Kosmographie، ٣٣٨/١ هذه إشارة إلى العدري (أحمد بن عمر) مؤلف الممالك والملوك الأندلسية، وانظر: أبو حامد الأندلسى القرناطى، تحفة الألباء طبعة فران، في المجلة الآسيوية، عام ١٩٢٥، المجلد ٢٠٧، ص ٢٠٠. وينسب النويرى، في نهاية الأرب ٢٤٥/١، هذه الفقرة إلى ابن حزم في رسالته عن فضل أهل الأندلس.

وليس في غيرها بالعيش مُتَنَفِّع
وَأَيْن يُعَدِّلُ عَنْ أَرْضٍ تَحْضِي بِهَا
وَأَيْن يُعَدِّلُ عَنْ أَرْضٍ تَحْتَ بِهَا
وكيف لَا تُبْهِجُ الْأَبْصَارُ بِرُؤْيِهَا
أَنَارُهَا قُضَّةً، وَالْمَسْكُ تَبْرِيقُهَا
وللهوَاءِ بِهَا لُطْفٌ يَمِيقُ بِهِ
ولا تقوم بحق الماء صهباء
على الشهادة أزواج وأبناء
على المدامدة أفياء وأنداء
وكل أرضٍ بها في الوشي صتعاء
والخضر روضتها، والدر حصاء
من لا يرق، وتبدو منه أهواء^(٥)

وكان ابن خفاجة شاعر جزيرة شقر أشدهم إعجاباً بطبيعة بلاده، وعبر عن مشاعره في مقطوعتين لا يمكن أن نمر بهما صامتين، الأولى:

يا أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ اللَّهُ دَرْكُكُمْ
ما جَنَّةُ الْخَلْدِ إِلَّا فِي دِيَارِكُمْ
لا تحسوا في غِدِّ أَنْ تَدْخُلُوا سَقَرًا
وفي الأخرى يقول:

إِنَّ لِلْجَنَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ
نَسْنَا صُبْحَتِهَا مِنْ شَنْبٍ
وإذا ما هَبَّتِ الرِّيحُ صَبًا
تُجَنَّلِي حُسْنِي وَرَبَّا نَفْسٍ
وَدَجِي لَيْلَتِهَا مِنْ لَعَسٍ
صَحَّتْ وَاشْتَوَقِي إِلَى الْأَنْدَلُسِ^(٦)

ولم يكن ابن خفاجة الشاعر الإسباني المسلم الوحيد الذي أطلق على إسبانيا «جنة الأرض» والراجع أن هذه التسمية تعود إلى مأثور شعبي اختفى أصله في ليل الزمان، ولعله يعود إلى أيام ما قبل الفتح الإسلامي. وتقول أسطورة إسبانية إن إسبانيا طلبت من الخالق عند بدء الخليقة أن يهبها سبأ صافية ونالتها، وبحرا جميلا، وفواكه عذبة، ونساء حلوات، فكان لها ما أرادت، وأخيرا رجته حكومة صالحة، فرد الخالق: لا، هذا كثير، إذن ستكونين جنة الأرض^(٨).

(٥) من الخفيف، نصح/٢٢٧. ويذكر الفصح فترتين أخريين طويلتين يصفان إسبانيا، الأولى تنسب إلى شاعر لاحق للقرن الحادي عشر، هو: ابن سفر المريني، نصح/٢٠٩/١، والأبيات من البسيط، والثاني شاعر مجهول ونستنتج من شكواه وتحسره أنه لابد أن ينتمي د عصر متأخر، نصح/٢٢٨/١، والأبيات من الكامل.

(٦) من البسيط، ابن خفاجة، الديوان، وفيها بعد حين أنشدت هذه الأبيات في حضرة السلطان المريني أبي عنان فارس قال: كذب هذا الشاعر - يشير إلى كونه جعلها جنة الخلد وأنه لو غير لاختارها على ما في الأخرى - وهذا خروج من ريقه الدين. ولكن الأندلسي الذي أنشدها له عرف كيف يرد عليه في مهاوة، **لالتلا**: بل صدق الشاعر، لأنها موطن جهاد، ومثارة للعدو وجلاء، والنبي يقول: «الجنة تحت ظلال السيوف»، انظر: نصح/٦٨١/١.

(٧) من الرمل، ديوان ابن خفاجة.

(٨) أ. فوييه، يجمع تاريخ نفسية الشعوب الأوروبية ١٦٧ - ١٦٨، ويقول ألفونسو العالم في المدونة العامة، معتمدا دون شك على نص عربي: «إسبانيا هذه جنة الله». انظر: مدونة إسبانيا الأولى العامة، طبعة ر. مينينديث بيدال، في مكتبة المؤلفين الإسبان الجديدة، المجلد ٥ ص ٣١١. ويمتيز الجغرافيون إسبانيا إحدى المثلثان المحصن على الأرض، والأربعة الباقية: غوط دمشق، ونهر الأبله، وجنة صجد وشعب يوان. انظر: المقدسي، وصف العالم الإسلامي، ٢٣٤ - ٢٣٥، ويقاوت معجم البلدان ٧٥١/١، ولغويي نهاية الأرب ٢٥٧/١ - ٢٦٢. ولكن من المحتمل أنهم يستخدمون هذا التعبير: «جنة الدنيا» صيغة لا تعنى عندهم أكثر من فكرة أرض فقيرة البقاء والحضرة. وقد انقطع التعالي في القرن الحادي عشر كل التعبيرات التي أصبحت عملة جارية على أفلام الأدباء، وتضمن كلمة جنة، وعد منها اثني عشر، انظر: ثمار القلوب في المضاف والنسوب ٥٥٧ - ٥٥٩.

ولم يخطئ شعراء الأندلس حين شبهوا في قصائدهم البلد الذي أحسن استقبالهم يوماً، ثم أُجبروا على تركه أخيراً لحظيئتهم، بالجنة، التي طرد منها آدم. يقول التُّحَلِّي البطليوسي حين خاف من المعتصم بن صمادح أمير المرية، ففر منها:

رَضَى ابْنُ صَمَادِحَ فَارَقْتُهُ قَمِ يُرِضْنِي بَعْدَ الْعَالَمِ
وَكَانَتْ مَرِيَّتُهُ جَنَّةً فَجِئْتُ يَمًا جَاءَهُ آدَمُ^(٩)

ويناجي ابن عمار مدينة بلنسية، وأرادها أن تنضم إلى جانبه في كفاحه، فيقول:

بَشَّرَ بِلَنْسِيَّةٍ وَكَانَتْ جَنَّةً أَنْ قَدْ تَدَلَّتْ فِي سِوَاءِ النَّارِ^(١٠)

وقد أطلق الشعراء اسم الجنة على بعض المدن التي وجدوا فيها سعادة غامرة، يقول أبو جعفر بن مسعدة القرناطي في أبيات عن بلنسية:

هِيَ الْفَرْدُوسُ فِي الدُّنْيَا جَمَالًا لَسَاكِبُهَا وَكَارِهُهَا الْبَعُوضُ

ولكن هذا الإعجاب ينقلب عند شاعر آخر إلى شيء من المرارة:

ضَاقَتْ بِلَنْسِيَّةٍ بِي وَذَاذَ عَنِّي غَمُوضِي
رَقَصَ الْبِرَاغِبُ فِيهَا عَلَى غِنَاءِ الْبَعُوضِ^(١١)

وبعض الضياع التي تقع بين المزارع الحضراء، ويتناقض جمالها مع وحشة ما حولها، تنير في خيال الشعراء الجوالين ذكريات فردوسية، يقول أبو الفضل بن شرف القيرواني في مدينة بَرَجَة:

إِذَا جِئْتُ بَرَجَةَ مَسْتَوْفِرًا فَخُذْ فِي الْقَامِ وَخَلْ السُّفَرُ
رِياضُ تَعَشَّقَهَا سُندُسُ تَرَشَّتْ مِعَاطِفُهَا بِالزَّهَرِ
مَدَامُهَا فَوْقَ خَنْئِ رَبِّي لَهَا نَضْرَةٌ فَتَنَتْ مَنْ نَظَرَ
وَكُلُّ مَكَانٍ بِهَا جَنَّةٌ وَكُلُّ طَرِيقٍ إِلَيْهَا سَفَرُ^(١٢)

والأرض التي وطنها الشاعر، وكانت معه سخية بلا حدود، لا يمكن أن تكون حنة، وإنما كما يصفها ابن اللبانة:

نَزَلْتُ بِكَافُورٍ وَنَبْرٍ وَجَوْهَرٍ يُقَالُ لَهَا الْحَصْبَاءُ وَالرَّمْلُ وَالتَّرْبُ^(١٣)

(٩) من المقارب، نفع ٩/٤، وأبحاث ط ١ ص ٨٩. وفي ثلاث الأعيان ص ٢٥٢ تنسب هذه الأبيات إلى ابن اللبانة، ووجهها إلى التوكل أمير بطليوس. انظر في سياق ص ١٣٥، رقم ١٥١ من هذا الكتاب.

(١٠) من الكامل، القلائد ٦١

(١١) من الوافر، نفع ١٨٠/١. وقد اشتهرت بلنسية بأنها غامرة بالبعوض.

(١٢) من 'لندارت، نفع ١٥١/١. الأبيات الثلاثة التي تلي البيت الأول تنسب لابن شرف، كما سنرى فيما بعد. وقد نفع

١ ٨٦١ سمى لأول مرة مع مسبوطين يقال بعضهم. ويطلق ابن سعيد على قرية نازحة في مقاطعة مالقة اسم «جنة الفردوس»، نفع

١٧٨/١، ويؤيد بو بحر صفوان بن إدريس عن مرسية، وقد ولد فيها. إنها «جنة الأرض»، نفع ١٧٣/١.

(١٣) من الطويل، القلائد ٢٤٩. ونفع ١٣/٣.

ويقول ابن درّاج القسطلّ، وقد قدم على المنذر ملك سرقسطة عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ م:

وحلّت أرضاً بُدلت حصباؤها ذهباً يروق لناظرى وجوهراً^(١٤)

ويقول ابن الحداد للمعتمد بن صمدح:

لعلك بالوادي المقدّس شاطئى فكالعبر الهندي ما أنا واطئى^(١٥)

وهذه الأمثلة تكفى لإظهار مغالاة شعراء الأندلس في قيمة أرضهم، وليس من العسير أن نجد نماذج لهذه الأمثلة في الأدب الإسباني العربي كما نجد لها شبيهاً في الأدب المشرقي^(١٦)، ولكن ليس ثمة شك في أنه لا توجد طريقة أفضل من هذه للتعبير عن حبهم لوطنهم وإظهار مشاعرهم نحوه. وأخيراً، يمكن القول أن شعراء الأندلس ظلوا مولعين بالأرض التي وُلدوا عليها، رغم كل المعاناة التي تعرضوا لها في شبه الجزيرة، ولعل ابن الحداد من بينهم خير من عبّر عن حبه لوطنه:

وكم خطبتني مصرُ في نيلٍ نيلها ورامت بنا بغدادَ ورَدَ فُراتها
ولم أرضي أرضاً غيرَ مَبْدَأِ تَشَاتِي ولو لحت شمساً في سماءِ ولأنا
ولي أملٌ إن يُسعدَ السعدُ نلتُهُ ويفهمُ سرُّ النفسِ في رمزاتها
وأَسْنَى المني ما نيلٌ في مِيعَةِ الصبا وهل تحسُنُ الأشياءُ بعدَ فواتها^(١٧)



إن شعراء إسبانيا المسلمين في القرن الحادى عشر لم يقفوا عند حد إظهار تعلقهم بإسبانيا بلدا متميزا عن بقية الإمبراطورية الإسلامية فحسب، ولكنهم أيضا وصفوا الأماكن التي أمضوا فيها زهرة شبابههم، أو عاشوا فيها أثناء تجوالهم رجالا ناضجين، وتتيح لنا أشعارهم أن نتصور كل مدن إسبانيا الإسلامية، وتعيد الحياة إلى بيوت الأمراء من القصور والمنتبات^(١٨) والمناظر الجميلة، والتزهات الريفية.

وكان الشعراء يشبهون المدن الكبرى في إسبانيا، وبخاصة تلك التي تحترقها الأنهار، أو تقع على شاطئ البحر، بالعروس ليلة زفافها. يقول ابن جِصْن وكان يوما على شاطئ الوادى الكبير في قرطبة، في مجلس أنس، فتذكر إشبيلية، أو حمص كما يدعوها أحيانا:

ذكرتك يا حمص ذكرى هوى أَمَاتَ الحسودَ وتَغَنَّبَتْ
كَأَنَّكَ وَالشَّمْسُ عِنْدَ الْقُرُوبِ عُرُوسٌ مِنَ الْحَسَنِ مَضُوتَةٌ

(١٤) من الكامل. أعمال الأعلام ١٩٩، ونفح ١٤/٣.

(١٥) من الطويل. نفح ١٥/٣ وانظر أيضا: المطمح ٣٤٠، وابن خلكان، الوفيات، طبعة القاهرة، ٣٥/٢، و ترجمة دى سلان ٢٠٠/٣.

(١٦) انظر: ابن هاني، الديوان، طبعة بيروت ٢٦، طبعة زاهد على ١١٣، وفي نفح ١٤٨/٢ طبعة أوروبا، وابن سارة في نفح ٦٣٩/٢ طبعة أوروبا.

(١٧) من الطويل، الذخيرة ٧٦٤/١.

(١٨) عن معنى هذه الكلمة، وهي جمع منية، وتوجد في مصر من قديم، انظر: رينو، جغرافيه إلى الغداة، الترجمة الفرنسية، المجلد ٢، القسم الأول، ص ١٥٨، رقم ١ (في مصر) وص ٢٥٨، رقم ٢ (في بلنسية)، وج. مسبيرو وفيبيته، مواد لخدمة جغرافية مصر، ص ٢-٤، ٢٠٥، وج. الزيات في مجلة المشرق، المجلد ٤٥، يناير - مارس ١٩٥١، ص ٧ - ٩ (في مصر قبل الإسلام وأثناءه، وفي إسبانيا).

غدا النهرُ بِعَدِّكَ والطَّودُ نَاجِكَ وَالشَّمْسُ فِي أَعْلَاهُ بِاقْوَتِهِ^(١٩)
 وركب بعض أهل المرية في وادى إشبيلية فمر على طاقة من طاقات شَتَّيوس، وهو يقنى:
 خَلَيْنَ مِنْ وَادٍ وَمِنْ قَوَارِبٍ وَمِنْ نَزَاهَا فِي شَتَّيُوس
 غَرَسَ الْحَبَقُ الشَّدَى فِي دَارِي أَحَبُّ عِنْدِي مِنَ الْعُرُوسِ •
 فأخرجت جارية رأسها وقالت له: من أى اللاد أنت يا من غنى؟ فقال: من المرية، فقالت:
 وما أعجبك في بلدك حتى تفضله على وادى إشبيلية؟ وهو بوجه مالح وقفاً أحرش، وهذا من أحسن
 تيسيب، وذلك أنها أنه بالنقيض من إشبيلية، فإن وجهها النهر العذب، وقفاها بجبال الرحمة أشجار
 التين والعنب، لا تقع العين إلا على خضرة في أيام الفرج^(٢٠).

وقد وقف الشعراء بصورهم وتشبيهاهم عند هذا الحد، وعيناً نبحث في قصائدهم عن لوحة متكاملة
 تصوّر المدينة بضواحيها وحدائقها وجبالها، غير أنهم استطاعوا، كما سنرى، أن يرسموا ما رأت أعينهم
 أنه يمثل القيم الوحيدة التي تستحق التسجيل، وجديرة بالإعجاب: القصور والمنيات والمنزهات العامة
 على شواطئ الأنهار أو في الوديان الفاصّة بالأشجار.

وينسب إلى عيد الرحمن الناصر هذين البيتين:

هَيْمُ الْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ فَيَأْتُسْنَ الْبَنِيَانُ
 إِنْ الْبِنَاءُ إِذَا تَعَاظَمَ قَدْرُهُ أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّانِ^(٢١)

والحق أن بناء مدينة الزهراء، وتكملة المسجد الجامع في قرطبة وتوسعته، جعلته يدعى لنفسه هذه
 الصفة، ويردد هذين البيتين ويتمثل بهما، وهو على حق فيما ادعى.

كان الخلفاء والحكام يسرفون في إقامة الأبنية الفاخرة لتخليد ذكراهم، وقد احتج الفقيه منذرين
 سعيد البلوطي باسم الشريعة على جنون الخليفة عيد الرحمن الناصر بالبناء وإسرافه في زخرفة مدينة

(١٩) من المقارب، الذخيرة ١٦٦/٢، ونفع ١٧/٢، وبذائع البدائع ٣٦٧، وذكر ابن الخطيب في أعمال الأعلام عن قرطبة، على
 لسان مؤرخ مجهول أنها «حيث الطود كالتاج، يزدان باللجين العنب لمجاء»، ويقول زجلال من إشبيلية في زجل يشرح به المعتز

إشبيلية عروسنا ويعلمها عبيد
 وتاجها الشرى ولكها الواد

انظر: الشنقى، رسالة فضل الأندلس، في نفع ٢١٦/٣، وترجمتها الإسبانية لفرسيه غوث ص ٩٦، وديح مدخل للطبعة
 الأوربية من النفع ٨٠/١

(٢٠) نفع ١٨/١ و ٢٨٨/٢. ونقلها وترجمها دوزى في أبحاث، ط ١ ص ٨٣، وانظر ص ١٢٢ فيها سأتى من هذا الكتاب.
 ويقول ابن مفتح عن إشبيلية: «إن إشبيلية عروس بلاد الأندلس، لأن تاجها الشرف، وفي عبقها سبط النهر الأعظم، وليس في
 الأرض أتم حسناً من هذا النهر، يضامى دجلة والفرات والتيل» (نفع ٢٠٨/١). والكتاب الذين جاءوا فيها بعد الحوا على استخدام
 مصطلحات الكتاب التقنية، يقول ابن سعيد: «إن حضرة قرطبة إحدى عرائس مملكته، وفي اصطلاح الكتاب أن للعروس الكاملة
 الزينة منصة، وهي مختصة بما يتعلق بذكر المدينة نفسها، وتاجها، وهو مختص بالإيالة السلطانية، وملكها، وهو مختص بأصحاب درر الكلام
 من لنثار والنظام، وحلقة، وهي مختصة بأعلام العلماء المصنفين الذين ليس لهم نظم ولا نثر، ولا يجب إقبال تراجهم، وأهدبا، وهي
 مختصة بأصحاب فنون المزل وما ينحو منحاه (١/٤٥٧). وانظر أيضاً وصف شاعر مدينة سرقند بالأسلوب نفسه في: ابن خرداذبة.
 المسالك والممالك، في مكتبة الجغرافيين العرب، المجلد ٦، ص ١٧٢، والترجمة الفرنسية ص ١٣٢.

(٢١) من الكامل، نفع ٥٢٠/١. وسيبويه، القرن النحوي ١٨.

الزهراء^(٢١)، ولكن معارضته لم تلق منه استجابة، ولم تثنه عن حبه للأعمال العظيمة^(٢٢).

وكان أهل الأندلس بعامة يحبون الأبنية الجميلة، وكل المؤلفين العرب الذين تحدثوا عن أهل إشبيلية ذكروا أن من بين الصفات التي تميز مزاجهم حبهم العيش في مساكن فخمة، ويصف الشقندي من أدياء القرن الثاني عشر الميلادي شرف إشبيلية قائلا: «وتزيد قراه على غيرها من القرى بانتخاب مبانيتها، وتهمم سكانها فيها، داخلا وخارجا، إذ هي من تبيضهم لها نجوم في سماء الزيتون»^(٢٣).

وقد عبر الوزير ابن الحمارة، محمد الغرناطي أبو عامر، عن هذا المعنى في بيت من الشعر، يقول:

لَا حَتَّ قَرَاهَا بَيْنَ خُضْرَةِ أَيْكِمَا كَالدَّرِّ بَيْنَ زَبَرْجَدٍ مَكُونٍ^(٢٤)

قدم لنا الشعر معلومات كافية عن القصور والمنيات، والمتنزهات المتناثرة، ويمكن في ضوءها أن نقوم بدراسة أية مدينة في إسبانيا الإسلامية تختلف حجبا وأهمية تبعاً لواقع هذه المدن في القرن الحادي عشر الميلادي. وحين نتأمل ما أوجت به كل مدينة إلى الشعراء تستحق قرطبة، العاصمة على أيام الأمراء والخلفاء، المكانة الأولى. رغم أنها في القرن الحادي عشر الميلادي أصبحت العاصمة الثانية، وسبقها إشبيلية.

وحين كانت هذه لا تعرف إلا قليلا في إسبانيا، فإن شهرة قرطبة تجاوزت الحدود، ووصلت حتى ألمانيا، وقالت عنها الراهبة الشاعرة السكسونية روزفيتا من القرن العاشر الميلادي، في قصيدة لها: «جوهرة العالم الساطعة، مدينة جديدة رائعة، فخورة بقوتها، شهيرة ببهاجها، مزهوة بما تملك من خير وفي»^(٢٥).

وقد احتفل بها شاعر مجهول على النحو التالي:

بَارِيعٍ نَاقَتِ الْأَمْصَارَ قَرْطِبَةُ مِنْهُ قَنْطَرَةُ الْوَادِي وَجَامِعُهَا

(٢٦) وبناسية السقوف المذهبة الى كانب تغطي قاعات القصر بعد قَرَعُ القفيه منذر بن سعيد ايلوطي الخليفة عبد الرحمن الماحر، وذكره بالآية القرآنية: «ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لن يكثر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهر» سورة الرخرف. الآية ٣٣.

انظر: نفح ٥٧٤/١، والمطلع ٢٤٦، وليفى يروفسال، إسبانيا في القرن العاشر الميلادي ٢٢٩.

(٢٧) وقد انتقل هذا الحب إلى أمراء المغرب، وعندما عرض المهندس على أبي عثان نفقات المدرسة الوعانية قال هذا له: ما هو جميل ليس غالبا منها كلف من ثمن، وليس كثيرا ما تدفعه لكي تهج الإنسان انظر: نفح ٣٠/٤ طبعة القاهرة، وليون الأفريقي، وصف أفريقيا، طبعة شيفر ٧٥/٢، أ. ب.، النقوش العربية في فاس، فصلة مستقلة، ص ٢٦١.

(٢٨) الشقندي، رسالة فضائل الأندلس، في نفح ٢٦٣/٣، وترجمة غرسية غوث لها ٢٧.

(٢٩) من الكامل، نفح ٢٠٥/١.

(٣٠) انظر: شعر العرب وفهم في إسبانيا وصفيلة لعون شاك، ترجمة حران بالسيرا إلى الإسبانية ط ٣ ح ١ ص ٥٧، وهو يعتمد على كتاب روزفيتا نفسها، طبعة شوذ فليش ص ١٢٠، ورامون منيديث يبدال، إسبانيا في عصر السيد ٨١/١، وليفى يروفسال، إسبانيا الإسلامية في القرن لعاشر ٢٢٥، وتاريخ إسبانيا الإسلامية، ط ٢ ح ٢ ص ٣، هامش ٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ح ٢ ص ١٧٤، وشارل منيين، روزفيتا، في مجلة العالمين، ١٥ نوفمبر ١٩٣٦، و. زكي، مدن الفن في بلاد الأندلس، مجلة الهلال، المجلد ٤٣، ديسمبر ١٩٣٤، العدد الأول، ص ١٣٢.

هاتان تثنان، والزهراء ثالثة والعلم أعظم شيء وهو رابعها^(٢٧)

وبما يشير الدهشة أن شعراء القرن الحادى عشر الميلادى لم يصفوا المسجد الجامع، ولا قنطرة قرطبة الشهيرة، وفيما يبدو لم تلهمهم القنطرة في حد ذاتها إلا القليل من الموضوعات، ويمكن الظن بأنها لو كانت مكانا للتزّه لشدّت انتباههم، وأمّا المسجد الجامع فكان مكانا للصلاة والتعليم الدينى، وهما عمليا لم يكونا مناط اهتمام الشعراء، ويمكن أن نتساءل، إذا تركنا جانبا، مؤقتا، مدينة الزهراء، ماذا قال شعراء القرن الحادى عشر في قرطبة أو عنها؟

لقد أخذت عاصمة إسبانيا الإسلامية تسترد قواها بعد الهزات العنيفة التى تعرضت لها في بداية القرن الحادى عشر، أثناء الفتنة البربرية^(٢٨)، وأشدّ مشاعر الألم حزنا عليها نجدها فيما خطه ابن حزم وابن شهيد.

يقول ابن حزم:

«ولقد أخبرنى بعض الرّواد من قرطبة، وقد استخبرته عنها، أنه رأى دورنا ببلاد مغيث^(٢٩)، في الجانب الغربى منها، وقد انحمت رسومها، وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيرها البلى، وصارت صحارى مجدبة بعد العمران، وفيافي موحشة بعد الآنس، وخرائب منقطعة بعد الحسن، وشعابا مفرّقة بعد الأمن...»^(٣٠).

ونجد المشاعر نفسها عند ابن شهيد:

مافي الطلول من الأحيّة تحيّر	فمن الذى عين حالها تستخير
لاتسألن سوى الفراقى فبانه	يتبيك عنهم أتجدوا أم أغوروا
جار الزمان عليهم فتفرقوا	في كل ناحية وباد الأكثر
جرت الخطوب على محل ديارهم	وعليهم فتخيرت وتغيروا
قدح الزمان يصوغ في عرصاتهم	نورا تكاد له القلوب تنور
فيمثل قرطبة يقبل بكاء من	يكي بعين دمعها متفجر
دار- أقال الله عشرة أهلها-	فتبرروا وتغريوا وتقصروا ^(٣١)
في كل ناحية فريق منهم	متفطر لفراقها متحير

(٢٧) من البيط، نشع ٨٥٣/١، والأمية التى يضيفها هذا الشاعر المجهول على العام في هذين البيتين تجعلنا نرجح أنه من عصر المنصور بن أبى عامر، ومع ذلك فإن القرى في مكان آخر من النسخ، ٦١٦/١، نسبها إلى محمد بن عطية المحازى، من القرن الحادى عشر.

(٢٨) انظر فيما يتصل بالفتنة: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٢.

● قلت: ودرست أنا هذه الفتنة في كتابى دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

(٢٩) عن هذا الحى من قرطبة انظر: لىنى برونسفال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر من ٢٠٧ والمماشى رقم ٣.

(٣٠) ابن حزم، طوق الحمامة ١٢٦، والترجمة الإنجليزية لتيكل ١٢٥، وطبعة برشية وترجمته ص ٢٤٠.

(٣١) يمكن أن نفهم لبيب على النحو التالى: بربروا، أى عادوا بربرا شرقيين، أى من صنهاجه، وتغريوا أى من بربر الغرب، أى من زناته، وقصروا، أى اعتنقوا مذهب الخاطمين خلفاء مصر. وفيما يتصل معنى هذه الكلمة الأخيرة انظر فيما سبق ص ٩١ من هذا الكتاب.

من أفلها والعيش فيها أخضر
بروائع يفتد منها العنبر
فيها وباع النقص فيها يقصر
فتعمموا بجمالها وتأزروا
وبدورها بقصورها تتخدر
من كل أمير والخلافة أوفر
والعامرية بالواكب تتمر
يتلو ويسمع ما يشاء وينظر
لا يستقل سالكها المخضر
ريح النوى قدمرت وتدبروا
إذ لم نزل بك في حياتك تفخر
بأوى إليها الخائفون فينصروا
طير النوى فتغفروا وتتكروا
والنيل جاد بها وجاد الكوثر
تحيا بها منك الرياض وتزهو
وظباؤها بفنائها تبخير
من كل ناحية إليها تنظر
لأميرها وأمر من يتأمر
تسمو إليها بالسلام وتبدر
ورقاتها ومخاطها يتكسر
وبهاها وسنائها تحسر
أدبائها طرفانها تنفطر^(٣٢)

عهدى بها والشمع فيها جامع
ورباغ زهرتها تلوح عليهم
والدار قد ضرب الكمال رواقه
والقوم قد آمنوا تثير حسنها
باطيهم بقصورها وخذورها
والقصر قصر بني أمية وانثر
والزاهرية بالسرايك تزهر
والجامع الأعلى ينص بكل من
وسالك الأسواق تشهد أنها
باجتة عصفت بها وبأهلها
أسى عليك من المات وحق لي
كانت عراضك للعمم مكة
يامنزلأ نزلت به وبأهله
جاد الفرات بساحتك ودجلة
وسيت من ماء الحياة غمامة
أسفى على دار عهدت ربوعها
أيام كانت عين كل كرامة
أيام كان الأمير فيها واحدا
أيام كانت كف كل سلامة
جزني على سرواتها ورواتها
نقى على آلائها وصفائها
كبدى على علمائها حلمائها

وعندما وضعت الفتنة أوزارها ضمدت قرطبة جراحها خلال حكم بني جهور وبني عباد، ويمكن أن نستنتج مما كتب المؤرخون ومن قصائد الشعراء أن الكثير من أنقاضها لم يرفع، وإذا كان القصر واسمه علم يدل عليه، لا يزال قائما، فما هو مصير الأبنية الواسعة وقاعات الاستقبال الفخيمة التي تتوسطه، وقدم لنا ابن بشكوال المؤرخ تفصيلات وافية عنها^(٣٣). لقد اختفت نهائيا، ولا نجد لها أثرا

(٣٢) من الكامل، أعمال الأعلام ١٠٥، وتوحد أبيات أخرى عن تعاسة حظ قرطبة خلال الفتنة في البيان المغرب ١١٠/٣ - ١١١.

● قلت حذف المولى الأبيات ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣، ولم أرمروا لذلك ولعلها صحت عليه في الترجمة. أو أن الذوق الغربي لا يسيغها.

(٣٣) هذه القصور، أو القاعات، أو المجالس هي: الكامل، المجندة قصر الحائر، الروضة، الزاهر، المشوق، المبارك، الرشيق، قصر السرور، التاج، البديع. انظر: ابن بشكوال في نفع ٤٦٤/١، ولفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ٢٢٢ - ٢٢٤، ويقدم لنا ابن خلدون قائمة أخرى. بقاعات بنما عبد الرحمن الناصر. وهي: المجلس الأزهر، البهو، الكامل، المنيفه دار الروضة. انظر: كتاب العبر ١٤٤/٤، وعنه نقلها نفع ٥٧٧/١ - ٥٧٨، ولفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية ٢٢٤، والمجلس =

فيا خط المؤرخون أو أنشد الشعراء، والشئ نفسه يمكن أن يقال عن قصور الزاهرة^(٣٥) والحاجبية^(٣٥).

أما مدينة الزهراء فمن الواضح أن مبانيها المختلفة، وأجنحتها العديدة، لم تعد صالحة للإقامة، بعد أن أتت عليها الحرائق والنهب والتدمير الذي قام به البربر في مطلع القرن الحادى عشر الميلادى^(٣٦). وبعض المدران والأسقف التى ظلت قائمة فى الأدوار السفلى ولم يمسه سوى أتاحات للسكان العابرين والزوار القادمين من قرطبة أن يتخذوا منها ملاذاً ومأوى. وفى عام ٤٥٥هـ = ١٠٦٣م أنهض المعتضد نحوها ابنه اسماعيل، الملقب بالنصور ليحتل قرطبة، فنزل بزهراتها فوجد كل أسفلها معطل خالياً، ذهب كل بهائه^(٣٧). وقد اخفى من حديقة الحيوان ما فيها من «محلات للوحش فسيحة القضاء، متباعدة الساج، ومسارح للطيور مظلة بالشباك»^(٣٨).

ولكن بفيه أركان الحديقة ظلت تحفظ بأشجارها وخضرتها، ونجد ابن زيدون فى قصيدة له سنعرض لها عند الحديث عن قرطبة يذكر حبيبته ولادة باللحظات الجميلة التى قضياها معاً فى مدينة الزهراء:

ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح
مقاصير ملك أشرفت جياتها
يُثَلِّي قرطبتها لى الوهم جهرة
محل ارتياح يُذكرُ الخلد طيبة
هناك الحمام الزرقُ تندى جفافها
تقصى تنائبها مدابغه نَزْحاً
فخلنا العشاء الجوى أثناءها ضيحا
فقبَّتها فالكوكب الرُحْبُ فالسطحا^(٣٩)
إذا عزَّ أن يصدى الفتى فيه ويضعى^(٤٠)
ظلال عهدها الدهر فيها فنى سَمْحاً^(٤١)

= رقم ٢. وبعض هذه الأساء كانت تطلق أيضاً على بعض القاعات والقصور فى إشبيلية، (انظر ما سأتى)، ولكن النفع لايد أن يكون خطأ حين جعل مكان «المكرم» قرطبة (١٠٢/١ طبعة أوروبا). (انظر ما سأتى)، والمكرم، بتشديد الراء و مدونه، يطلق على قاعة فى قصر المأمون أمير طليطلة. (انظر ما سأتى ص ١٣٦ المامنى ١٥٣).

(٣٤) عن تدميرها انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٨٦، والبيان المغرب ٦٤/٢. وعن القصور ذاتها انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ٢٢١ - ٢٢٤، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ١ ص ٤٠٦ وج ٢ ص ٢٨١ - ٢٨٣ و ٢٨٢ و ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٣٥) انظر: البيان المغرب ٦٢/٣. وكان قصر الحاجب عبد الملك المظفر ابن المنصور بن أبى علف.

(٣٦) عن تخريب الزهراء انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية ص ٢٨٨، ودائرة المعارف الإسلامية ٩٥/٢ وما بعدها، مادة مدينة الزهراء، وكتبها ليفى بروفنسال.

(٣٧) انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٦٤ وما بعدها، والذخيرة ١٤٣/٢، وعتها فى «بنو عباد» ٢٥٦/١، والفرجة ص ٢٦١.

(٣٨) أقام عبد الرحمن الناصر فى الحديقة منازل للوحوش والطيور، انظر: نفع ٥٧٨/١، نقلاً عن ابن خلدون فى المعبر ٦٤٤/٤.

(٣٩) يعرف عن القرطين شيئاً، أما القبة والكوكب فيها قاعتا استقبال فخيمتان، والسطح ويوصف عادة بالشرف، فكان بهوا كبيراً معطى، انظر ليفى بروفنسال، المصدر السابق ٢٢٩، ونفع ٥٢٦/١، ٥٦٦، ويتبشى ألا تخلط بينه وبين الصرح المرء، انظر: أعمال الأعلام ٣٨، ونفع ٥٧٤/١، والمطمح ٢٥٧، وأقيم تقليد، للقصر الذى أقامه سليمان ليستقبل فيه الملكة سياً، وكان مرءدا من نوادر، انظر: سورة التمل، الآية ٤٤، وما سأتى فى هذا الكتاب ص ١١٩.

(٤٠) إشارة إلى الأيتين القرآنيين رقم ١١٨ و ١١٩ من سورة حة.

(٤١) من الطويل، ابن زيدون، الديوان ١٦٠، والقلند ٧٢، ونفع ٦٢٨/١، ويكرس، Specimen de ibn Zeiduno ص ٢٢

و٧٤، ويكور، ابن زيدون النص رقم ٢٧، والترجمة رقم ٧٥. ويختلف كثيراً فى ترجمتنا للبيتين لأخيرين إلى الفرنسية مع كور.

لقد احتفظت مدينة الزهراء، كما يصورها لنا ابن زيدون بجمال بحيراتها، تظلمها الأشجار السامقة، أما القصور نفسها، في أجل مشاهدتها على أيام الأمويين، فلم يستطع أن يصورها إلا خيالا، ويظن أن أطلال مقر الخلافة القديم أصبحت، فيها يبدو، ملتقى مجتمع قرطبة الراقى، حيث يجيدون الطعام والشراب في سهولة، وينظمون الملتقيات، يروى لوزير الفقيه أبو الحسن ابن سراج للفتح ابن خاقان، يوم البهجة، الذي قضاه في الزهراء مرة، رفقة جمع من الوزراء والكتاب أيام المعتمد بن عباد، يوما «غفل عنه الدهر فلم يرمقه بطرف، ولم يطرقة بصرف، أرخت به المسرات عهدا، وأبرزت له الأمانى خدّها، وأرشقت فيه لماها، وأباحت للزائرين حماها، ومازالوا ينتقلون من قصر إلى قصر، ويتنزلون القصر بجنى وهضر، ويتنولون في تلك الغرفات، ويتعاطون الكؤوس بين تلك الشرفات، حتى استقروا بالروض من بعد ما قضوا من تلك الآثار أوطارا، وأوقروا بالاعتبار قطارا، فحلوا منها في درائك ربيع مفوّقة بالأزهار، مطرّزة بالمداول والأنهار، والنصون تغثال في أدواحها، وتتثنّى في أكف أرواحها، وانار الديار قد أشرقت عليهم كئكالي تنحن على خرابها، وانقراض أطرابها، والوهى بمشيدها لاعب، وعلى كل جدار غراب ناعب، وقد محت الحوادث ضيائها، وقلصت ظلالها وأفياءها، وطالما أشرقت بالخلائف وانهتجت، وفاحت من شذاهم ورجّت، أيام نزلوا خلاها، وتغيّأوا ظلّالها، وعمروا حدائقها وجنّاتها، ونهبوا الآمال من سناتها، ورعوا اللبث في آجامها، وأخجلوا الفيث عند انسجامها، فأضحت ولها بالتداعي تلفع واعتجار، ولم يبق من آثارها إلا نؤى وأحجار، قد وهت قبابها، وهرم شبابها، وقد يلين الحديد، ويئلى على طيه الجديد، فبينما هم يتعاطونها صفارا وكبارا، ويدبرونها أنسا واعتبارا، إذ برسول المعتمد قد واقاهم برقعة مكتوب فيها:

حسد القصر فيكم الزهراء ولعمري وعمركم ما ساء
قد طعنتم بها شموسا صابحا فاطلعوا عندنا بدورا مساء^(٤٢)

ويصورها لنا السمسمر شاعر الرية، ويجب أن يكون قد رأى هذه الأنقاض في نهاية القرن الحادى عشر الميلادى، كما لو كانت شيئا قد تلاشى تقريبا:

وقفت بالزهراء مستعبرا مُتعبرا أندبُ أشتاتا
فقلت: يا زهرا ألا فأرجعى قالت: وهل يرجع من ماتا؟
فلم أزل أبكى وأبكى بها هيهات يئنى الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى نودبُ يندبن أمواتا^(٤٣)

هذه الأشعار والرواية التي أوردها ابن خاقان في كتابه القلائد تبين لنا بوضوح مدى ما كانت تثيره مشاهدة الأطلال التي خلقتها حروب «الفتنة» والصراعات الداخلية المستمرة، من شجن في أعماق أهل الأندلس في القرن الحادى عشر الميلادى^(٤٤)، وكانوا يقيمون فيها الحفلات حيث تقترج الأقراع

(٤٢) من المخطيف، القلائد ١٠، وعنها في نفع ٦٢٣/١ - ٦٢٤، وفي «بنو عباد» ٤٥/١، وترجمتها ص ١٠٣، وفي مناهج الفكر.

نظر: نفع ٥٠٠/١، وترجمتها هنرى ماسيه، في الكتاب التذكارى لرنه باسبه ٢٥١/١.

(٤٣) من السريع، نفع ٥٢٧/١.

(٤٤) من المحتمل أن هجر الزهراء كان سببا من بين لأسباب الأخرى في خرابها، إذ يكفى في الحقيقة أن تترك قصرا مهجورا، بدون رعاية أو عناية لكي يسرع إليه الخراب.

بالأحزان، مما أضفى على وصفهم الأطلال إيقاعاً خاصاً بهم تماماً، ظل مجهولاً حتى أيامهم تلك. لقد كانوا يحاولون كما يقول ابن سراج، إثارة نفوسهم في جو من الود والمرح، مطلقين العنان لتأملاتهم. لقد وصف شعراء المشرق أطلال المخيمات المهجورة، غير أنهم كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى الحديث عن الحبيبة واقفاً أو تخيلاً، أى عن ماضيهم أنفسهم. والحق أن البحترى وحده نجح في التعبير بصدق عن مشاعر الحزن التي اجتاحت أمام قصر القاطول لفقدان المتوكل^(٤٥)، ولكن حتى هذا لم يكن سوى إحياء للماضى. أما الشاعر الأندلسى في القرن الحادى عشر الميلادى فقد ذهب إلى ما هو أبعد من هذا: لم يقف عند بعث الماضى فحسب، ولكنه حاول أيضاً أن يستشف المستقبل، وكان بالنسبة لهم مليئاً بالوعيد والنذير.

لقد اختفى ملوك الطوائف الصغار واحداً تلو الآخر، وكانوا يشجعون الأدب واثقن ويرعون الشعراء والأدباء، وأشاع عبور المرابطين إلى الأندلس موجة من القلق على القدر، وغرس العذاب في قلوب الشعراء، وصاح السيمسرى في صرخته وهو على أطلال الزهراء: «ألا فارجى!»، ونحن ندرك كم كان مخلصاً في دعائه!

ولم تكن الأطلال أبداً أكثر عدداً ولا أطول حديثاً عما كانت عليه في القرن الحادى عشر. ويقول ابن خفاجة واصفاً دون أن يحدد المكان، ولعله في يانسية أو الأمكنة المحيطة بها:

وَمُرْتَبِعُ حَطَطُ الرَّحْلِ فِيهِ بِحَيْثُ الظِّلُّ وَالْمَاءُ الْقِرَاجُ
تَحْرِمُ حَسَنَ مَنْظَرِهِ مَلِكُ نَحْرَمُ مُلْكُهُ الْقَدْرُ النَّاجُ
فَجَرِيَّةُ مَاءٍ جَدُولِهِ بِكَاءٍ عَلَيْهِ، وَشَدِيدُ طَائِرِهِ نُوحُ^(٤٦)

وقد أنرف السيمسرى، أحمد بن فرج الإلبيرى، الدمع على أطلال يجب أن تكون في قرناطة أو ما حولها، ويكى ابن الحناط الأعمى أطلالا أخرى ربنا كانت في اشبيلية^(٤٧)، وتذكر أبو الحزم ابن جهور أمير قرطبة المخلوع بهاء قصور الخلافة، وأصبحت على أيامه أطلالاً فصاح:

قُلْتُ يَوْمًا لِدَارٍ قَوْمٌ تَفَانُوا أَيْنَ سَكَايِكَ الْعِزَّازِ عَلَيْنَا
فَأَجَابَتْ: هُنَا أَقَامُوا قَلِيلًا نَمُ سَارَوَاهُ وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَا^(٤٨)

وقد زار ابن عربى مدينة الزهراء بعد القرن الحادى عشر بوقت قصير، بعد أن أصبحت حراباً، وصارت مأوى الطير والوحش، فخطب منها طائراً شجناً يفرد على غصن:

دِبَارٌ بِأَكْنَافِ الْمَلَاعِبِ نَلْمُ وَمَا إِنَّ بِهَا مِنْ سَاكِنٍ وَهِيَ بَلْقَعُ
يَنُوحُ عَلَيْهَا الطَّيْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَيَصْتُمُ أَحْبَابُنَا وَحِينًا يَرْجِعُ
فَخَاطَبَتْ مِنْهَا طَائِرًا مُتَفَرِّدًا لَهُ شَجْنٌ فِي الْقَلْبِ وَهُوَ مَرْوَعُ
فَقُلْتُ: عَلَى مَاذَا تَنُوحُ وَتَشْتَكِي فَقَالَ: عَلَى دَهْرِ مَضَى لَيْسَ يَرْجِعُ^(٤٩)

(٤٥) البحترى، الديوان طبعة بيروت ص ٤٤، ونفع ٥٠٣/١ و ٥٠٤، وترجمة هنرى ماسيه، في الكتاب التذكارى لرتبه ماسيه

(٤٦) من الواقى، ابن خفاجة، الديوان، ونفع ٥٠٤/١، وترجمة هنرى ماسيه، في الكتاب التذكارى لرتبه ماسيه ٢٥٧/١

(٤٧) نفع ٤٨٣/١، وترجمة هنرى ماسيه في المصدر المذكور سابقاً ٢٥٥/١.

(٤٨) الخفيف، المطبع ١٨٦، وعنه في نفع ٥٢٥/١. (٤٩) من الطويل، نفع ٥٢٣/١.

وما كان يوسع شعراء الأندلس أن يعبروا بأفضل مما قالوا عن مشاعر الندم العميقة التي أحسوا بها، لا حزننا على عهد الأمويين الذي ولّى من زمن بعيد فحسب، ولكن أيضا على القرن الحادى عشر وأدركوا سحره وابعين بعد أن فقدوه.

ونتعتقد أن هذه الأطلال ليست بعيدة عن مشاعر الزهد التي تميزت بها حياة بعض شخصيات القرن الحادى عشر من اتخذوا الصوفية مذهباً، وكانت هذه قد وفدت على الأندلس من قريب^(٥٠).

ثمة قصر واحد من بين القصور العديدة التي أقامها الأمويون نجا من كوارث القرن الحادى عشر، وكان يحمل اسماً يومئى إلى خصائصه: «دمشق»، ويقول الفتح ابن خاقان إنهم شيدوه «بالصفاح والعمد، وجروا في إنقائه إلى غاية أمد، وأبدع بناؤه، وثقت ساحته وفناؤه، واتخذوه ميداناً مراحهم، ومضمار انشراحهم، وحكوا به قصرهم بالمشرق، وأطلعوه كالكوكب الثاقب المشرق».

ولكننا نجهل موقعه، كما أن المؤرخين صمتوا عنه ولم يسيروا إليه، ولكن ابن عمارة وافته الفرصة، فتوقف به لحظة، ووضع بين حياته حداً للحياة شريداً، وأمضى بين جنباته ليلة مع جماعة من أتباعه، وكانت فرحته غامرة حتى أنه لم يستطع أن يحفى تحمسه:

كل قصر بعد الدمشقي يُذمُّ فيه طاب الجنى ولذُّ المشمِّ
منظرٌ رائتي وماءٌ نمرٍ وثرى عاطرٌ وقصرٌ أشمِّ
بث فيه والليل والفجرُ عندى عنبرٌ أشهبٌ ومسكٌ أحمِّ^(٥١)

ثمة قصر آخر أشار إليه ابن خاقان في كتابه القلائد أيضاً، وهو الذى أقام فيه المعتمد عندما احتل قرطبة، وكان يحمل اسم قصر البستان، ويقع بجوار باب العطارين، وهو كما قال عنه الأمير: «حسد القصرُ فيكم الزهراء»^(٥٢) ولكننا لا نجد له ذكراً في أى مكان آخر^(٥٣).

وكانت عائلة الزجالي، وتنحدر من أصول بربرية، تملك من قديم أراضى شاسعة في ضواحي قرطبة، فحوّلتها إلى حديقة عامة حملت اسم «حبر الزجالي»، وهذه أول مرة فيها نعتقد تفتح فيها حديقة خاصة للجمهور، ويجدر بنا أن نشير إليها. إن تجميل المدن والاهتمام بها ليس وليد الماضى فحسب، ولا وقفا على الشعوب الأوربية وحدها، كما نرى، غير أن هذه الحديقة التي تطوّقها الأسوار العالية من كل جانب لم تكن دون شك مفتوحة للناس جميعاً وإنما كانت وقفاً على المجتمع المثقف الراقى، وهو وحده الذى يستطيع أن يتردد عليها، كما هو الحال في مدينة الزهراء. وكلمة «حبر»^(٥٤) التي أطلقت

(٥٠) انظر ص ٣٩٦ و ٣٩٧ فيما سبأى من هذا الكتاب.

(٥١) من الخفيف، القلائد ٨٤، وعنه في نفع ٤٧٠/١. وقد أوضح المقرئ أن هذه المقطوعة نسب أيضاً إلى الحاجب أبى عثمان جعفر بن عثمان المصنفى، انظر: نفع ٤٧١/١.

(٥٢) انظر ص ١١٥ فيما سبق من هذا الكتاب.

(٥٣) القلائد ١١، وعنها في نفع ٦٢٥/١، وبنو عباد ٤٦/١ - ١٠٧، وعن باب العطارين انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٢٦ و ٢٠٥ و ٢٠٧.

(٥٤) وأياً أن كلمة «حبر» في صورتها العملية الخاصة، تنطق في اصغر الأمرى على قاعة داخل سور القصر (انظر في ما سبق من هذا الكتاب ص ١١٣ الهامش رقم ٣٣) وهذه الكلمة نفسها، في صورتها الإيمائية ذاتها، وبالمعنى نفسه، أو بمعنى كشك، نجدنا =

على حديقة، تنحى في الوصف الذى قدمه لنا ابن خاقان قاعة، وهو وصف يستحق أن نورد: «الحير الذى ذكره هنا هو حير الزجالى خارج باب اليهود»^(٥٥) بقرطبة. وهذا الحير من أبدع المواضع وأجملها، وأتمها حسنا وأكملها، صحنه مرمز صافى البياض، يخترقه جدول كالحبة النضناض، به جابية، كل لجة بها كابية، قد قربصت^(٥٦) بالذهب والأزورد سماؤه، وتأزرت بها جوانبه وأرجأؤه، والروض قد اعتدلت أسطوره، وابتسمت من كمالها أزهاره، ومنع الشمس أن ترمق ثراه، وتعتطر النسيم بهبوبه عليه وسراه، شهدت له ليلتى وأياما كأنما تصورت من لمحات الأحباب، أوقدت من صفحات أيام الشباب»^(٥٧).

ولا ترجع شهرة الحير إلى أجنحته وقاعاته وبساتينه فحسب، وإنما أيضا إلى وجود الضريحين اللذين دفن فيها الصديقان اللذان لم يفترقا مدى حياتهما: أبو عامر بن شهيد^(٥٨) وعرضا له من قبل، وأبو مروان الزجالى^(٥٩) صاحب هذا المكان لفاتن، وكأنا «ألفتى صبوة، وحليفتى نشوة، عكفا فيه على جريالهما، وتصرفا بين زهرهما واختيالهما، حتى رداها الردى، وعداها الحمام عن ذاك المدى، فتجاوزا في الممات تجاورهما في الحياة». وقد أمضى ابن خاقان هناك لحظات سعيدة، وكان الوزير أبو بكر ابن القبطرنة البطليوسى يجب أن يتذكر بعد أن عاد إلى بطليوس، حفلات البهجة التى نظمها مع أصدقائه الخالص فى قرطبة:

واذكر لهم زمنا بهب نسيمه	أصلا كنفت الراقيات عليلا
مولى ومولى نعمة وكرامة	وأخا إحام مخلصا وخللا
بالخير ما عشت هناك غمامة	إلا تضاحك إذغرا وجليلا
يوما وليلا كان ذلك كله	سحرا وهذا بكرة وأصيلا
لا أدركت تلك الأهلة نحرها	نفصا ولا تلك النجوم أقولا



وكانت توجد خارج قرطبة بعض المنزهات التى ورد ذكرها فى عدد من قصائد ابن زيدون، نون فى إحداها:

= عدد أبى الوليد الميمرى، المتوفى نحو ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م، فى كتابه البديع فى وصف الربيع، ص ١٩، ولكنها تنفى دقة خاصة فى يسان ويبدو أن لفظي «حائر» و «حير» مترادفان، وأن الأول سها الأقدم فى الاستعمال، (انظر فيها سياتى من هذا الكتاب ص ٢٢٠ و ٢٢٢).

(٥٥) عن هذا الباب، ويطلق عليه كثيرا اسم باب المدى، لتجنب استخدام كلمة اليهود، انظر، ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية ص ٢٠٧، الخامس رقم ٣.

(٥٦) هذا الفعل مبنى للجهول، ولكنه إملايا موضع شك، فنحن نجد على النحو التالى: فى القلائد، طبعة باريس ومرسيليا، قرص، وكذلك فى نفح ٦٣٥/١، وقرن فى القلائد، طبعة بولاق، ص ١٥٣، وانظر أيضا: دى حويه، معجم رحلة ابن جبير ٤٤، والذخيرة السنية ٥٥.

● قلت: لا أعرف فى اللغة «قرص» بهذا المعنى، وإنما هناك «قرنس» السقف والبيت، أى زيت بهخوارح منه ذات تدريج متناسب (المترجم).

(٥٧) القلائد ١٥٣، وعنها فى نفح ٦٣٥/١، وانظر أيضا: ياقوت، معجم البلدان ٣٧٤/٢، مادة حير الزجالى.

(٥٨) أورد لنا القلائد ص ١٥٢، ونفح ٦٣٦/١، الأبيات التى أوصى ابن شهيد بأن تكتب على قبره.

(٥٩) طبقا لابن بسام فإن صديق ابن شهيد وصاحب البستان، كان يكنى أبى الوليد، الذخيرة ٢٢٣/١.

(٦٠) من الكامل، القلائد ١٥٢ - ١٥٣، ونفح ٦٣٤/١.

فما حال من أُمسى مشوقاً كما أضحي
أخصُ بمحوضِ الهوى ذلك السفحا
دواعي ذكرى تعقبُ الأسفَ البرحا
لقلبي لا تالو زناد الأُسى قدحا
فأقبل في خرط الولوع به نُصحا
نزال عتابٍ كان آخره الفتحا
سفيرُ خضوع بيننا أكذ الصلحا
فإلا يكن ميعاده العيد فالنصحا^(٦١)
معاطاة ندمانٍ إذا شئت أو سبحا
قواريرُ خضر جلتها مُردت صرحا^(٦٢)
أجلت المعالي في الأمانى بها قدحا

لأقصرُ من ليلي بآتة فالبطحا^(٦٤)

زكت وعلى وادى العقيق سلام
بأرجائها يبكى عليه غمام^(٦٦)

وفى موشحة أطول من أن تأتي عليها هنا، يتحدث فى الدور السادس منها عن «البتنى» على شاطئ الوادى الكبير، وفى السابع عن «جوفى الرصافة» و«روض الأقحوس» وفى الثامن عن أيام «العقاب» وفى التاسع، وهو الدور قبل الأخير، عن «العقيق» وجسره^(٦٧). وفى موشحة أخرى أطول من التى سبقت يذكر فى الدور السابع «العقيق» و«الرصافة» و«الجعفرية» وفى الثامن يأتى على ذكر «العقيق» ثانية، وفى التاسع يشير إلى «عين شهدة»، وفى العاشر إلى «الجسر» و«الجوسق النصرى» و«الوعساء»، وفى الحادى عشر إلى «مضيعة الدولاب» و«قصر ناصح»، وأخيراً فى الدور الثانى عشر يشير إلى مدينة الزهراء^(٦٨).

(٦١) يذكر الإدريسي فى رحلته بالمركب من إنبيلية إلى قرطبه أن آخر مكان توقف به قبل أن يصل إلى المدينة «طواحين ماصح». انظر: وصف أفريقيا وإسبانيا، ص ٢٠٧ - ٢٠٨، والترجمة ص ٢٥٦، وكتاب فون شاك، ترجمه خوان باليرا، شعر العرب وفنهم ٨٢/٣، اعتماداً على ويجيس Specimen de ibn Zeidunno، ص ٥٤٢.

(٦٢) عن الأعياد المسيحية التى كان يحتفل بها المستعربون والمسلمون، انظر ما سأتى فى هذا لكتاب ص ٢٧١.

(٦٣) قياس واضح من الآية القرآنية رقم ٤٤ من سورة النمل: وانظر فيها سبق ص ١١٤ الهامش رقم ٣٩ من هذا الكتاب.

(٦٤) نظر فيها سبق من هذا الكتاب ص ١١٤ الهامش رقم ٣٩.

(٦٥) رواية ياقوت فى معجم البلدان ٧٨٧/٢، «المنت السعدى» بدل «الغلب الشرقى».

● قلت: فى الذخيرة ٤٢٢/١ «درة الشرقى» وفى الديوان ص ١٥٢ «الغلب الشهيد» (المترجم).

(٦٦) من الطويل، الديوان ٦٥٢.

(٦٧) الديوان ١٢٨ وما بعدها، وكوره ابن زيدون ص ١٥٢. وقرأ «المفاد» بدل «العقيق» واعتبرها صفة

(٦٨) الديوان ١٣٢ وما بعدها، وكوره المصدر السابق ١٥٣.

خليلى لا فطرُ يسرُ ولا أضحي
لئن شاقنى شرق العقاب فلم أزل
وما انفك جوفى الرصافة مُشعري
ويهنج قصر الفارسى صباة
وليس نميما عهد مجلس ناصح^(٦١)
كاننى لم أشهد لدى عين شهدة
وقائع جانبها التجنى فلان مشى
وأيام وصل بالعقيق اقتضيته
وأصال لهو فى مُسناه مالك
لدى راكض تصيبك من صفحاته
معاهد لذات وأطار صبوة

أجل إن ليلي فوق شاطئ نبطه

ويقول فى مطلع قصيدة أخرى:

على الثغب الشرقى^(٦٥) منى تحية
ولا زال نور فى الرصافة ضاحك

ويمكن أن نجمع أسماء كل هذه الأماكن على النحو التالي:

الرصافة والعقيق والعقاب، أو شرق العقاب، وقصر الفارسي، ومحبس ناصح، أو قنطرة ناصح، وعين الشهد، ومُسْتَأة مالك، ووادي نيطرة والبطحاء، والجعفرية، والجسر، والجوسق النصري^(٦٩)، والوعساء، ومضيعة الدواب، وباستثناء الأول والثاني منها فإن البقية لا نجد لها ذكراً عند غير ابن زيدون. أتراها كانت من اختراعه؟ الأقرب إلى المنطق فيما يبدو لي أن نفترض أن هذه الأماكن كلها كانت توجد في الفترة التي كان يتردد فيها عليها مع ولّادته، ولكنها منذ نهاية القرن الحادي عشر لم تعد تشهد انتباه الفُرَّاح من شباب قرطبة.

أما الرصافة فاسمها خالد حتى يومنا هذا، وبقي في اللغة الإسبانية في صورة Arruzafa، وكان عبد الرحمن الداخل هو الذي أعد هذا المنتزه في شمال غربي قرطبة لراحته الشخصية، وأطلق عليه هذا الاسم تيمناً بالرصافة في سوريا، ولم يبق من هذه المنيّة، بعد فترة الاضطرابات التي أتت على خلافة الأمويين في القرن الحادي عشر، إلا بعض هياكل المباني المنهارة، وقد قام أتباع واضح الصقلي عام ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م^(٧٠) بتدمير الحديقة التي غرس فيها أول أمير إشباني بعض الأشجار السورية، ومن بينها أشجار الرمان، وتغيّرت بكبر ثمارها، ولذّة مذاقها^(٧١)، ولاقت طبعاً نفس مصير حديقة الزهراء.

ونعرف أن الزوّار كانوا يتردّدون على وادي العقيق الذي ذكره ابن زيدون، ولكننا لا نعرف أين كان موقعه بالذقة^(٧٢).

أما منية الناعورة التي أقامها عبد الرحمن الناصر بجوار الوادي الكبير، وترونها ناعورة، فقد حُصّرتها أيضاً قوات واضح الصقلي عام ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م في نفس الوقت الذي أتت فيه على الرصافة^(٧٣)، ولم يبق شيء من الزاهرة والعامرية، وقد بكاهما ابن شهيد^(٧٤)، والمصير نفسه لاقته منة السور^(٧٥) ومنية نصر^(٧٦).

(٦٩) تستخدم كلمة جوسق في المشرق أيضاً، وتطلق على القلاع، فهناك مثلاً، الجوسق الجعفري، وهو اسم لإحدى ملاع التوكل في سمرات (المعوية). مروج الذهب ٢٧٦/٧ و ٢٩٠ و ٣٥٠، والجوسق الحديث في بغداد (آدم منز، الحضرة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٣٦٢، والترجمة الإسبانية لسلفادور ليلا ٤٥٩)، وانظر أيضاً مصادر أخرى ذكرها ج. الزيات، في مجلة المنور، المجلد ٤٥، العدد ٦، يناير - مارس ١٩٥٦، ص ٥ - ٦.

(٧٠) حول تدمير منية الرصافة انظر: البيان المغرب ٩٩/٣ و ١٠٢.

(٧١) فيما يتصل بمادة هذا الموضوع انظر: نفح ٤٦٧/١، وأيضاً ليفي بروفسال، إسبانيا الإسلامية ٢٢٤.

(٧٢) يذكر في القرن الثاني عشر أنه كان بجوار قصر الرصافة، وذلك في زجل لأبي القاسم بن عبود الرباعي (انظر: نفح ٤٧٩/١)، وفي كنز الآداب، في قصيدة لأبي القاسم عامر بن هشام القرطبي أورد فيها منتزهات قرطبة (نفح ٥٤٢/١).

(٧٣) انظر: البيان المغرب ٩٩/٢، ١٠٢. وانظر فيها سبق المامش رقم ٧٠، وانظر أيضاً، ليفي بروفسال، إسبانيا الإسلامية ص ٢٢٤، ونفح ٥٦٤/١، وأعمال الأعلام ٧٨، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ص ٢١٦. ومع ذلك يذكر القاسم بن عبود الرباعي في زجل له مكاناً يسمى النواعير، وهو مكان آخر مختلف عن الناعورة فيما يبدو.

(٧٤) انظر فيما سبق ص ١١٢ من هذا الكتاب، البيت رقم ١٥، وانظر أيضاً: ليفي بروفسال، إسبانيا الإسلامية ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٧٥) كان داخل نطاق الزاهرة حيث توجد منية السور، انظر: نفح ٥٨٤/١.

(٧٦) أقامها الخليفة عبد الله بن محمد على شاطئ الوادي الكبير، شرقي قرطبة، انظر: الروض المطار رقم ١٨٠ ص ١٨٧.

٢٢٦ - ٢٢٧.

غير أن النية المصحفية، وبناها الحاجب جعفر المصطفى في القرن العاشر الميلادي، ونُسبت إليه، ثم انتزعها منه المنصور بن أبي عامر نجت من الحراب، وبقيت قائمة إلى القرن الذي ندرسه، لأن حفيد جعفر المصحفي أبو بكر محمد بن أحمد بكأها في أبيات له:

قف قليلاً بالمصحفية وانذب مُقَلَّةً أصبحت بلا إنسان
واسألنها عن جعفر وسطاه ونداء في سالف الأزمان
جعفر مثل جعفر حكم الدهر رُ عليه بمُتَسَرِّة وهوان
ولكنم حذر الردى فصيننا لا أمان لصاحب السلطان
بينما يقتل غدا خافضاً منهُ اكتساب لَكُفَّة الميزان^(٧٧)

اختفت متنزعات كانت معروفة في العصر الأموي، وظهر غيرها مما أنشأه المرابطون في نهاية القرن الحادي عشر، مثل منية الزير، التي بناها الزبير بن عمر بن المثلث وإلى قرطبة، واشتهرت بأن أشجار اللوز فيها تقوم أسطرا، وقد وصفها ابن بقي الشاعر لحظة لفتح نوارها، في أبيات من الشعر حفظها لنا المقرئ في نفع الطبيب، وسوف نوردتها عند حديثنا عن الأشجار^(٧٨).

ولم تنتشر طريقة إعطاء مواعيد التلاقي عند الجسور إلا ابتداء من القرن الحادي عشر، ويشير ابن زيدون في بيتين من شعره، بمناسبة الحديث عن مُسَنَّة مالك، إلى ما كانوا يبتغون ويفعلون بجوار البعيريات الصناعية: يشربون تحت المظلات المقامة على الشاطئ، ويأخذون بحظهم من متعة السباحة أو التجديف، وكان يطلق على هذه الجسور في معظم الأحيان اسم «سُد» أو «أرجاء»، أي الطواحين، لأن المياه المحتجزة كانت تستخدم في تشغيل طواحين القمح، ويجب أن يكون عدد هذه قد تضاعف في القرن الثاني عشر الميلادي^(٧٩).

وكانت قرطبة أكثر إقبالا على العلم ودراسة له من إشبيلية، وجذبت أشخاصا كثيرين للإقامة بها رغم أن مرورهم بها كان عابرا في البدء، ولكنها استطاعت أن تفرهم بالكثير من المتع في إطار من الطبيعة النضرة، وكان العلم أحد الأشياء الأربعة التي فاقت بها الأمصار قاطبة، ولكن ذلك لم يكن في الحقيقة إلا في القرن العاشر الميلادي. أما تحت حكم الطوائف فأصبحت الحياة في العاصمة القديمة بعد سقوط الخلافة أشد صرامة، وأكثر تقشفا، مما كانت عليه في بقية العواصم الأخرى، كإشبيلية مثلا، والتي كانت قد انفتحت على المرح والبهجة، والقرطبيون الذين اضطرتهم ظروفهم الصعبة إلى ترك مسقط رأسهم، ووطنهم المختار، عبروا عن حسراتهم في أشعار ذات مذاق خاص. ويروى أن أبا بكر المخزومي، وكان لاجئا في طليطلة، استقبل الشيخ أبي بكر بن سعادة مع أخيه، فسألها: من أين؟

(٧٧) من الخفيف: نفع ٤٧١/١. «مُقَلَّةً بلا إنسان» أي «حديثة بلا صاحب».

(٧٨) انظر: نفع ٤٧١/١ و ٥٨٤. وسوف نذكرها بمناسبة الحديث عن الأشجار.

(٧٩) اشتهرت السدود والأرجاء في قرطبة في القرن الثاني عشر، انظر: نفع ٤٧٥/١ وما بعدها، ونشك في أن لها المعنى نفسه عند ابن زيدون. وسوف نعود للحديث عن السدود عند دراسة مدن أخرى في إسبانيا الإسلامية. وبعض التنزعات حول قرطبة لم تكن معروفة فيها بعد حتى القرن الثاني عشر، مثل: فحصى السراقق والمرج لتضير (ويدعى أيضا مرج الخنز)، ومرج الحصب، والتواخير، والروض الشرقي، وادي الدهر، ويطحاء عيون (انظر: نفع ٤٧٢/١ - ٤٨١ و ٥٤١ - ٥٤٢). وقد اشتهر المرج لتضير بالإوز الذي يسبح فيه، يرح وينثر ما عليه من الماء فوق المرج، والمرج قد أُمدد به الوادي. انظر: نفع ٤٧٢/١ - ٤٧٤.

فقالا: من قرطبة، فقال: متى عهدكما بها؟ فقالا: الآن وصلنا منها، فقال: اقربا إلى أشم نسيم قرطبة، ففرينا منه، فشم رأسي وقبله، وقال لي: أكتب:

أقرطبة الفراء هل لي أوبة إليك، وهل يدنو لنا ذلك العهد
سقى الجانب الغربي منك غمامة وقفّع في ساحات دوحاتك الرعد
لياليك أسحار وأرضك روضة وتربك في استشاقها عنبر ورد^(٨٠)

وقد غمرت ابن دراج القسطل مشاعر حبة متوهجة، كما لو كان يصدد امرأة معبودة:

قل للربيع اسحب ملاء سحاب فاجرز ذبولك في بحر ذوائبي
وامزج بطيب تحني غدي الحيا فاجعله سقى أحبي وحبايبي
عهدا لعهدك من عهد طاما كسبت البرود معاهدي وملاعي
واجنح لقرطبة فعائق نريها عني بمثل جوانحي وترائي^(٨١)



وقد احتلت إشبيلية في القرن الحادي عشر المكان الذي كانت تحتله قرطبة في القرن الذي قبله، وعرضا في المقدمة للدور السياسي الذي كان بنو عباد يؤمنون أن تلعبه إمارتهم، وأصبحت عاصمتها إشبيلية أهم مركز للنشاط السياسي والثقافي في جنوب إسبانيا كله، وجذبت إليها عددا كبيرا من السكان، وشجعهم على ذلك خصوصية تربتها، وسهولة المواصلات إليها بحرية وبرية^(٨٢)، وكان يروى الوادي الكبير، شأنها في ذلك شأن قرطبة، ولكن النهر هنا يمتد إلى أعالي المدينة، ويب أهلها جزرا صغيرة، وشواطئ أكثر ملائمة للبهجة والمرح.

نعم إن الجبل بعيد، ولكن سلسلة جبال الشارات اقرية جدا من قرطبة تتعد كلها اقرب الوادي الكبير من المحيط، وتتكون في الأطراف بعض الوديان التي تؤدي إلى الشرف تحت ظلال نظيرة. وعندما أخذ ابن الحصن بجمال أشعة الشمس تتناثر وراء الشرف صاح:

ذكرتك يا حصن ذكرى هوى أمات الحسود وتغيبته
كأنك والشمس عند الغروب عروس من الحس منحوته
غدا النهر عمتك والطود تاجك والشمس في أعلاه يا قوته^(٨٣)

(٨٠) من الطويل، نصح ١٥٥/٦ و ١٧٦. وقد أشرنا فيما سبق ص ١١٨ من هذا الكتاب، كيف أن أبا بكر بن القبطنة كان يذكر اللحظات الخالية في قرطبة ويمن إليها، وبخاصة ما كان منها في حير الرجال. وفي مطلع القرن الثاني عشر عبر القاضي عياض، بعد إقامة طويلة في قرطبة عاد بعدها إلى المغرب، في بيت من الشعر، عما أحس به من حزن مضى لافراقه عن أصدقائه القرطبيين، واعتبرهم أهله وأقاربهم، والقطة في سجة أبيات من بحر الطويل، القلائد ٢٢٤.

(٨١) ديوان ابن دراج، القطة ٤٥. ص ١٣٨. وبلاشير. ابن دراج القسطل، في مجلة هيسبيريس، المجلد ١٦، عام ١٩٣٣، من ١١٤. وفي الأبيات: ١ و ٤ و ٥ و ٦.

(٨٢) انظر وصف إشبيلية عند وصول يوسف بن تاشفين إليها في: نصح ٣٦٢/٤، وعنه في «بئر عباد» ٢٥٠/٢.

(٨٣) انظر فيما سبق ص ١٠٩ من هذا الكتاب.

ومثل هذا التشبيه نجده في موشحة أنشدتها أحد الوشاحين يمدح بها المعتضد بن عباد:

إشيليا عروسا وَيَقْلُهَا عَبَاد
وتأجها الشرف وسكها الواد^(٨٤)

وحتى القرن الحادى عشر لا يذكر لنا الشعراء شيئا عن قصور إشيلية، رغم أن عددا من العائلات العريقة كان يسكنها، أمثال: بنى خلدون، وبنى حجاج، وكانوا في نهاية القرن التاسع الميلادى ومطلع المائى يعيشون حياة حافلة بالترف والبهخ. وبعد أن حقق الخليفة عبد الرحمن الناصر وحدة الدولة، وثبت دعائمها المنصور بن أبى عامر، اندثر أمراء الأقاليم ومعهم كل القصور تقريبا، وتحول عدد منها يكثر أو يقل إلى قلاع.

ويجب أن نبلغ عصر المعتضد إذا أردنا أن نجد عند المؤرخين، وجامعى المختارات الأدبية، ذكرا أو وصفا للقصور الملكية في إسبانيا.



في تاريخ المعتضد، وبخاصة عند الحديث على خلافه مع ابنه إسماعيل، نجد إشارة إلى قصر الزاهر أو حصن الزاهر، ولم يكن يقع داخل المدينة، وإنما خارجها، في الجانب الآخر من النهر، على الشاطئ الأيمن، في مواجهة القلعة والمراكب التى تنقل العابرين بين ضفتى الوادى الكبير^(٨٥).

وعندما خلف المعتضد أباه المعتضد فكر في بناء قصر جديد لإقامته يختلف عن قصر أبيه، وكان البهخ الملكى يجعل من مثل هذه الأبنية ضرورة حتمية، ومن المحتمل أن يكون وراء ذلك صعوبة أن تعيم نساؤه في نفس المكان الذى توجد فيه أصلا نساء الأمير المتوفى، مما يجعل انتقال الوارث إلى قصر آخر أمرا ضروريا.

وقد ذكر المعتضد نفسه عدد هذه القصور كاملا، وقاعات الاستقبال، في أبيات تمتاز بالحواظر التجسيمية، نظمها أثناء أسره في أغمات:

بكى المبارك في إثر ابن عباد بكى على إثر غزلان وآساد
بكت ثرىاه لاغمت كواكبها بمنل نوء الثرىا الرائع القادى^(٨٦)
بكى الوحيد، بكى الزاهى وقبته والنهر والتاج، كل ذلّه بادهى
ماء السياء على أفسانه بدر بالجة البحر دوى ذات إزباد^(٨٧)

ونستطيع أن تكمل القائمة من أشعار المعتضد نفسه:

فبالت شعرى هل أبين ليلة أمامى وخلفى روضة وغدير

(٨٤) انظر فيما سبق ص ١١٠ والمائى رقم ١٩ من هذا الكتاب.

(٨٥) الأخيرة ١٦٦/٢. وعنها في «بنو عباد» ٢٥٧/١، والترجمة ٢٩٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٦٥.

(٨٦) يتلاعب الشاعر هنا بكلمة «الثرىا» فهى اسم القصر، وهى فى الوقت نفسه اسم نجم فى السماء. والنوء غروب النجم فى المغرب مع طلوع آخر يقابله فى المشرق. انظر: موتينسكى، المطالع القمرية ٤ رقم ١. ويؤثر هذا النجم فى الفترة بين شروته وغروبه فى الظواهر الماخية: المنظر والمواصف، والهوى والحز، وغيرها. نفس المصدر ص ٨.

(٨٧) من البسيط، القلائد ٢٤، وعنها فى نضج ٢٧٤/٤، وبنو عباد ٦١/١، والترجمة ١٤١ - ١٤٢.

يُنْتَبِئَةُ الزَيْتُونِ مَوْرَثُهُ الْعَلَا يُعْنَى حِمَامٌ أَوْ تَسْدُنُ طَبُور
بَزَاهِرِهَا السَّامِي الَّذِي جَادَهُ الْحَيَا تُشِيرُ الشَّرِيًّا نَحْوَنَا وَنُشِيرُ
وَيَلْحَظُنَا الزَّاهِي وَسَعْدُ سَعُودِهِ غَمُورِينَ وَالصَّبَّ الْمَحَبَّ غَمُورُ
نَرَاهُ عَسِيرًا أَوْ بَسِيرًا مَنَالُهُ إِلَّا كُلُّ مَا شَاءَ الْإِلَهُ يَسِيرُ^(٨٨)

ونفهم من هذه الأبيات أن المعتمد كان يتردد على الزاهر قصر والده، ولكنه أقام قصرا صغيرا لاستعماله الشخصي على الضفة الأخرى من الوادي الكبير. أسماء الزاهي، ويقول الفتح بن خاقان إن المعتمد كان يفضل هذا القصر لأنه يطل على الهر^(٨٩) والقصر الكبير، ويستطيع فيه أن ينطلق بلا حدود مع مباحجه المتنوعة. وحاول المؤرخ نفسه أن يعطينا فكرة عن ارتفاع قصر الزاهي، فوازن بينه وبين قلعة حلب التي عاش فيها بنو حمدان، وبينه وبين قصر غمدان، وتاريخ هذا غامض إلى حد ما، وإنما اشتهر لارتباطه بأسطورة سيف بن ذي يزن، ولا نستطيع الشك في أن الزاهي كان يطل على الوادي الكبير. لأننا نتذكر في الحقيقة قصة المعتمد حين ألقى من فوقه بالمطربة البربرية التي جرؤت على السخرية منه وهي تمدح المرابطين^(٩٠).

كان قصر الزاهي يضم قبة مشهورة يُطلق عليها اسم «سعد السعود»، وذات يوم أنشد المعتمد شطر هذا البيت:

سعد السعود يتيه فوق الزاهي

ثم استجاز الحاضرين فعجزوا، فصنع ولده عبيد الله الرشيد:

وكلامها في حسنه مُتَنَاهِي

ومن اغتدى سَكْنًا لِمَثَلِ مُحَمَّدٍ قَدْ جَلَّ فِي الْعُلَمَاءِ عَنِ الْأَشْيَاءِ
لَا زَالَ يَبْلُغُ فِيهِمَا مَا شَاءَهُ وَدَهَتْ عِدَاهُ مِنَ الْخَطُوبِ دَوَاهِي^(٩١)

ويمكن القول إن المعتمد كان سعيدا بأن يسمع ابنه يشارك أمه اعتماداً الرميكية في بهجة هذا الاجتماع، ولكن ذلك لا يسمح لنا أبداً بأن نظن أن الملكة كانت تقيم داخل هذا القصر الصغير. ولم يكن المعتمد يتردد على قصر الزاهي إلا في الحفلات الخاصة به، التي يقيمها فيه، أما القصر

(٨٨) من الطول، القلائد ٢٤ - ٢٥، وعنها في نفع ٢٧٥/٤ - ٢٧٦، وبنو عباد ٦٣/١، والترجمة ١٤٥ - ١٤٦، والذخيرة ٧٥/٢، وعنها في «بنو عباد» ٣١٨/١، والترجمة ٣٦٤، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٧٤. ويعد أن ذكر ابن بسام الأبيات في المصدر المشار إليه أنفاً، علّق عليها قائلاً: «والزاهي وسعد السعود والزاهي الذي ذكر في هذا الشعر أسماء قهّاب وبصاح سلطانيه كان تائق في بنياتها من قصور إشبيلية».

(٨٩) ربما كان موضعه مكان برج الذهب الحالي، ونحن نعرف أن برج الذهب لم يكن قد بنى حتى مستهل القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، حيث شرع في بنائه حاكم إشبيلية أو العلاء. انظر، روض القُرطاس، نص تورنبرج ٦٦١، وترجمة بومييه له ٣٤٥.

(٩٠) انظر فيما سبق ص ٢٠ من هذا الكتاب.

(٩١) نحن مرة أخرى بوزاء نجميات فلكية، فسعد السعود منزل القمر الرابع والعشرين، ويعتبره العرب مواسماً وسعداً للفتاة انظر: مولنسكي، المطالع القمرية ٥٠، وأيضاً في أمكنة مختلفة في: تالبرين، النجوم، ٣٠ رقم ٦ و ٣١ رقم ٨، و ٦٥ رقم ٩٢ من الكامل، الهدائع ٨٦، وعنها في نفع ٦١٢/٣، والمجلة ٦٩/٢، وعنها في «بنو عباد» ٧٣/٢.

الذى اتخذها مقرا له مع نسائه وكل جهازه الإدارى فيقع في نطاق الدائرة الحصينة التى كان الزاهى يشغل طرفا منها، وتحمل هذه القصور أسماء المكرم والمبارك^(٩٣).

ولا نعرف عن المكرم إلا شيئا قليلا، يحكى ابن خاقان عن ذي الوزارتين أبى بكر ابن القصيرة، «أنه كان بغرفة القصر المكرم مقبلا لرسوم المعتمد وحدوده، ومنشئ لمخاطباته وعهوده، في اليوم الذى خرج فيه ابن عمار إلى شلب معه، مفتقدا لأعمالها، مسددا أغراض عمالها»^(٩٤). ونعرف أيضا من الذخيرة لابن بسام أن المعتمد في عام ما ترك قصر المبارك لبعض الوقت، وأقام في قصر المكرم، فأثار ذلك في نفس الكاتب الوزير أبى جعفر بن أحمد أن ينشئ رسالة على لسان القصر الأول يتناجى فيها القصر الثانى، وأخرى على لسان الثانى يرد فيها على الأول، ولكننا لا نخرج من هذا السجع إلا بمعلومة ضئيلة، وهى أن المكرم أحدث عهدا في بنائه، وأن الحديقة التى تحيط به تفص بالأزهار من كل لون وصنف^(٩٥).

مما المبارك فهو دون أدنى شك القصر الذى بقى حتى يومنا هذا بعد إصلاحه وترميمه، وحمل اسم القصر ALCÁZAR علما حتى في اللغة الإسبانية ويرجع بناؤه إلى أيام المعتضد، ولو أن هذا كان يفضل عليه الزاهر، وقد خص المعتمد قصر المبارك بكل عنايته ليجعل منه تصرا رائع الجمال، جديرا بإقامته، ولكن المؤرخين الذين تحدثوا كثيرا عن قصور الأمويين في قرطبة صمتوا عن القصر في إشبيلية. ولم يقولوا عنه شيئا. ولا نجد عند مؤلفي القرنين الثانى عشر والثالث عشر إلا فقرات قصيرة، نفهم منها أن ابن عمار سجن بعد خيانتة في إحدى الغرف، فوق باب قصر المبارك، وأن جنته دفنت بجانبه^(٩٦)، ويؤكد عهد الواحد المراكشى أن هذا القصر كان قائما على أيامه^(٩٧). ويروى ابن الأبار أنه عندما كان يطلب العلم في إشبيلية عام ٦١٥هـ = ١٢١٨م كان أحد أحياء المدينة يسمى حومة قصر المبارك^(٩٨).

ولكن الشعر لم يلزم الصمت لحسن الحظ، يقول ابن زيدون عندما كان وزيرا للمعتمد في قصبة توجه بها إلى الأمير:

أما «الشرى» فالثريا نسيّة	وإفادّة وإنافّة
قد شاقها الإغياّب حتى إنّها	لو تستطيع سرّ إليك خيالا
رُقّة ورودكها لتغنم راحة	وأطل مزاركها لتتعمّ بالا
وتقلّ القصر المبارك وجنة	قد وسّطت فيها الثريا خالا
وأبّر هناك من المدام أنّها	أرجا زكا، وأشفها جرّ يالا
قصر يُقر العين منه مصنع	نهج الجوانب لومنى لاخنالا

(٩٣) انظر، منشور م. أثونيا: إشبيلية وأثارها العربية، الفصل الثامن ص ٦١ - ٨٢.

(٩٤) القلائد ٥، وعنها في «بنو عباد» ٢٨/١، والترجمة ٨١.

(٩٥) الذخيرة ٧٥٩/٣، وبنو عباد ١٤١/١، الملعش رقم ٤٠٦.

(٩٦) المراكشى، المعجب ١٢٥، وترجمة فتياز له ١٠٩، والقلائد ٨٢، في بدء تعليقه على ابن عمار.

(٩٧) المعجب ١٢٩، وترجمته ١٠٧.

(٩٨) فتح ٦٥/٣.

لَا زِلْتُ تَفْتَرِشُ الْمَرْوَرَ حَدَائِقًا فِيهِ، وَتَلْتَجِفُ النِّعَمَ ظِلَالًا^(٩٩)

ونفهم بوضوح من البيت الرابع من الأبيات التي أوردناها، أن الثريا كانت قاعة فخيمة تقع في وسط المبارك مثل رح وإذا قارنا البيت السادس من هذه القصيدة بالبيت الثاني من قصيدة المعتمد التي ذكرناها فيما سبق (ص ١٢٣) نفهم أن الثريا كانت تحيط به كذلك قاعات صغيرة كما تلتف النجوم حول الثريا في السماء.

وسرى الآن كيف أن القصيدة التي وصف فيها ابن حمديس القاعة الرئيسية وقبتها تمثل وثيقة ذات أهمية بالغة:

وَبَا حَبْنَا دَارَ قَضَى اللَّهِ أَنَهَا
مُقَدَّسَةٌ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَلِمَةً
وَمَا هِيَ إِلَّا خُطَّةُ الْمَلِكِ الَّذِي
إِذَا فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا خَلَّتْ أَنَهَا
وَقَدْ نَقَلْتُ صَنَاعَهَا مِنْ صَفَاتِهِ
فَمِنْ صَلْتِهِ رَحْبًا وَمِنْ نَوْرِهِ سَنًا
فَأَعْلَتْ بِهِ فِي رُتَبَةِ الْمَلِكِ نَادِيَا
نَسِيتُ بِهِ إِيْوَانَ كَسْرَى لِأَنِّي
كَأَنَّ سَلِيمَانَ بْنِ دَاوُدَ لَمْ يَسْخُ
نَرَى الشَّمْسَ فِيهِ لَيْقَةً تَسْتَمِدُّهَا
لَهَا حَرَكَاتٌ أَوْدَعَتْ فِي سَكُونِهَا
وَلَا عَشِيمَا مِنْ تَوَقُّدِ نَوْرِهَا

يُحَدِّدُ فِيهَا كُلَّ عَزٍّ وَلَا يَبْلَى
مَشَى قَدَمًا فِي أَرْضِهَا خَلَعَ النَّعْلَ^(١٠٠)
يَحْطُ إِلَيْهِ كُلُّ ذِي أَمَلٍ رَجُلًا
تَقُولُ بِتَرْجِيْبٍ لِدَاخِلِهَا أَهْلًا
إِلَيْهَا أَفَانِيًّا فَأَحْسَنْتِ النِّقْلَ
وَمِنْ صِيَتِهِ فَرَعًا وَمِنْ حِلْمِهِ أَصْلًا
وَقُلْ لَهُ فَوْقَ السَّمَاءِ أَنْ يُعْلَى
أَوَاهُ لَهُ مَوْلًى مِنَ الْحَسَنِ لَا مِثْلًا
مَخَافَتِهِ لِلدَّجَنِ فِي صُنْعِهِ مَهْلًا
أَكْفُ أَقَامَتْ مِنْ تَصَاوِيرِهَا شَكْلًا
مَا تَبَعْتُ فِي ثَقَلَهِنَّ يَدَ رَجُلًا
تَخْذُنَا سَنَاهُ فِي نَوَاطِرِنَا كَحَلَا^(١٠١)



(٩٩) من الكامل، انظر: ابن زيدون، الديوان ٥٢٠ - ٥٢٦. لم نلاحظ أن الأبيات الثلاثة الأولى من هذه القطعة، وتفسير كود وترجمته لها مما يمكن النفع عنه فيما نرى.

(١٠٠) إشارة إلى الأسطورة الإسلامية التي تجعل موسى يصل إلى سقطة طنجة، وحيث يوجد جبل يحمل اسمه، جبل موسى. (١٠١) من الطويل، انظر: ابن حمديس، الديوان، طبعة شمبر للقطعة ٢٤٨، الأبيات ٣٥ - ٤٣ و ٤٨ - ٤٩ و ٥٦، ونفع ٤٩١/١. وترجمة هنري داسيه في تكريم رينيه داسيه ٢٣٨/١، والنص وترجمته لإمبير في «مختارات عربية» ٩٤ - ٩٦، والنويري، نهاية الأرب، ط ٢ ج ١ ص ٣٩٢.

شير المؤرخون وجعلوا المختارات إلى قصور ومباني أخرى في إشبيلية؛ دار المزيبة، وكانت قصرًا يلوذ به المحمد للشراب. وكان ذكر الدولة آخره من أنه يتردد عليه أيضًا، ولا نجه لهذا القصر ذكرًا في غير القلائد (انظر: نفع ٢٧٨/٤ نقلًا عن القلائد وهو عباد ٤٣/١ و الترجمة ٩٨)، وبعض طبعات القلائد تورد الاسم في صورة مزة. وهناك منه الوزير أبي مروان بن الدب، صهر الفقيه في أيوب بن أبي أمية، وتظل على الوادي الكبير، رقبها استقبال حماء عندما تحرس بيته، ومثل بقية المناب بها حديقة تشتمل على بدع الزهر، وطرق تعبق بأريج لعل. (انظر: الطمع ٢١٧، وعنه في نفع ٥٥٠/٣). وأنشأ المعتمد فوق مكان البحيرة الكبرى، بعد أن جففوها تمامًا، بساتين وحدائق محضرة، وفي وسطها قاعة للراحة، وذات ليلة فاجأ ذكر للدولة أخاه فيها وهو «رجم، وبمنه منسجم، وزفراته تترجم عن غرام، وتهمج عن تغلر مرهم»، (انظر في سياقي ص ٣-٤ الهامش رقم ١٥٦ من هذا الكتاب) وفي عهد الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف أقيم في المكان نفسه قصر منيف، ونعتقد أن ترجمة دوزي لهذا التعبير ب«حمام عظيم غير مقبولة» (انظر: بنو عباد ٩٧/١ والهامش ١٢٦). وانظر: القلائد ٩ - ١٠، وعنها في نفع ٢٨٠/٤، ومختصرهم أنتونيا، إشبيلية وآثارها العربية ٤٥-٤٦ و ٧٣ و ٧٥-٧٨ و ٨١، وغيرها. وهو يعضد على التورخ ابن صاحب الصلاة.

وكان في ضواحي إشبيلية مثل ما كان في ضواحي قرطبة أماكن للتنزه، يذهب إليها السكان طلباً للمرح والراحة، وفوق صفحة الوادي الكبير يتناثر عدد من الجزر الصغيرة تجذب إليها عشاق الحياة، وفوق أرضها أقيمت بعض المنشآت المؤقتة دون شك، ولكنها ثبتت مع الزمن، حيث يجد المترددون عليها الطعام والشراب.

وإحدى هذه الجزر كانت تدعى شَتَبُوس، وفوقها أقيم برج تنعكس أضواؤه ليلاً على صفحة النهر، وحدث أن اقترب قارب من هذه الجزيرة، وفيه شخص من المرية كان لاجئاً في إشبيلية، وحين اجتاحه الحنين لبلده أخذ يتغنى بهذين البيتين من زجل:

خَلَّيْنِ مِنْ وَادٍ وَمِنْ قَوَارِبُ وَمِنْ نَزَاهَا^(١٠٢) فِي شَتَبُوسُ
غُرْسُ الْحَقِيقِ الَّذِي فِي دَارِي أَحَبُّ عِنْدِي مِنَ الْعُرُسِ^(١٠٣)

وسمعه إحدى الفتيات فأطلت برأسها من النافذة وسألته مبدية دهشتها من أنه يفضل المرية على إشبيلية^(١٠٤).

وكتب أبو علي عمر بن أبي خالد إلى أبي الحسن علي بن الفضل بهذه الأبيات:

أَبَا حَسَنٍ وَمَا قَبِمَتْ عَهْدُ لَنَا بَيْنَ الْمَنَارَةِ وَالْجَزِيرَةِ
أَتَذَكَّرُ أُنْسَنَا وَاللَّيْلُ دَاجٍ يَخْمَرُ فِي زَجَاجَتِهَا مَنِيرِهِ
إِذَا الْمَلَأَحُ خَلَّ رَنَا إِلَيْهَا فَأَبْصَرَ فِي مَنَاحِيهِ مَسِيرِهِ^(١٠٥)

وكان مرج الفضة يقع خارج المدينة، بعيداً عنها، على شاطئ الوادي الكبير، ويجذب إليه كبار الشخصيات المعروفة، وتعود المعتمد أن يذهب إليه كثيراً متنقياً رفقة ابن عمار الشاعر، وهناك التقى للمرة الأولى بالفتاة التي سوف تصبح الملكة فيما بعد، بعد أن خدمت جارية رقيقة عند بقال، وكانت تُلَقَّبُ الرميكية، ثم أصبح اسمها اعتماد أو أم الربيع، على حين تدعوها حاشية الملك السيدة الكبرى فحسب^(١٠٦). واستمر هذا المرج قائماً يشهد إليه صفوة المجتمع الراقي حتى القرن الثالث عشر الميلادي، وظل مورفا تعطيه الأنعام حتى أيام ابن سهل الإسرائيلي وابن سعيد الأندلسي^(١٠٧). ولم يعرف القرن الحادي عشر فيها يبدو المتنزه المسمى «السلطانية»، وكان قائماً على ضفاف الوادي

(١٠٢) عن معنى هذه الكلمة وتفسيرها بقاربه، أو حفلة بهجة فوق الماء، انظر فيها سيأتي ص ١٨٨ الهامش رقم ٣٥ من هذا الكتاب.

(١٠٣) انظر: ابن قزمان، الديوان، القطعة ٧٣، الدور الخامس، حيث تجد تعبير «غرس الحق».

(١٠٤) نفع ٣٨١/٣، وعنه في أبيات، ط ١ ص ٨٣، وانظر أيضاً فيما سبق ص ١١٢ من هذا الكتاب، وعن شتوبوس انظر نفع ١٧١/١ و ٢٨١/٢ و ٣٨٩/٣ و ١٩٨/٤، وأبو الفدا، جغرافية، ترجمة ريتو المجدد الثاني، القسم الأول، ص ٢٢٧، وبوري، رسالة إلى فليشور ٩٩.

(١٠٥) من الوافر، نفع ٤٣١/٣.

(١٠٦) انظر: السجاني، تحفة العروس في «بئر عباد» ١٥١/٢، وترجمته في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٨٦، ولفي برونسال، الفقه العربية في إسبانيا ١ [النص] ص ١٩ و ٤٠ - ٤١ [رقم ٣٢]، وعن تاريخ هذا اللقاء الأول انظر: نفع ٢١١/٤، وعنه في «بئر عباد» ٢٢٥/٢، وسوف تعود إلى هذا الهامش بمناسبة الأبيات التي تصف المياه والبوك والأشجار.

(١٠٧) نفع ٢٠٧/٢.

الكبير، ووصفه لنا ابن سعيد^(١٠٨)، ويمكن الظن بأن وادى العروس كان من هذا الطراز، مطابقاً لنزق العصر، جارياً على العادة المتبعة^(١٠٩). وكان أين سعيد الوحيد الذى حدثنا عن طريانة Triana وجزيرة القبطال دون أن يعطينا أية تفاصيل أو يأتي معها أبيات من الشعر نصفها، كما هي عادته وهو يعرض للمتزهات الأخرى المتناثرة هنا وهناك^(١١٠).

وثمة واد آخر يوجد في الشرف نفسه، في الشمال الشرقي من إشبيلية، ونال إعجاب المعتمد وزوجته الرميكية مثل مرج الفضة، ويدعى وادى الطلح، وأكد ذلك ابن سعيد على الأقل، وعاش في آخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الذى يليه^(١١١). ومن المثير أن الإشارة الوحيدة عن هذا الوادى نلتقى بها عرضاً في بيت من الشعر لابن بقمي، وهو شاعر أمضى حياته بين القرنين الحادى عشر والثاني عشر، وذلك عندما اجتاحه اليأس وفكر أن يرحل إلى المشرق^(١١٢).

ونذكر أخيراً «منظرة الفنت» في موقع ريفي من ضواحي إشبيلية، تطلوه المروج من كل جانب، وتكسوه الزهور خلال فصل الربيع^(١١٣).

بعمامة يمكن القول إن إشبيلية لم تثر إلا قليلاً من الحسرة والألم في نفس الذين رحلوا إليها، أو الذين تركوها مؤقتاً أو بلا رجعة.

يقول ابن عمار:

فوحشني لقد انتدبت لوصفه بالنجل لولا أن حصصاً داره
بلد متى أذكره هيج لوعتي وإذا قدحت الزند طار شراره^(١١٤)



أما المربة فلم تكن في القرن العاشر الميلادى غير ضيعة صغيرة، تقع على مصب النهر الذى يمضي

(١٠٨) نفح ٣٠٦/٢، وهي أربعة أبيات.

(١٠٩) نفح ٣١٥/٢.

(١١٠) نفح ١٨٢/١.

(١١١) نفح ٦٩١/١ و ٢٨٥/٢. وقد وصف نور الدين بن سعيد هذا الوادى في قصيدة من ثلاثة وثلاثين بيتاً، بانه القانية، من

بحر السريع، واتخذ الشاعر الحديث أحمد شوقي من هذا الوادى موضوعاً لقريته الشهيرة انظر كتابنا: إشبانيا كما يراها الرحالة

المسلمون، من ١٦١٠ إلى ١٩٣٠، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(١١٢) من الوافر، القلائد ٢٨٣.

(١١٣) ابن طاهر، البنانع ٢٢٥، وعنه في نفح ٢٤٢/٢ وترجمها إلى الفرنسية كور، في ابن زيدون ص ١١٢ - ١١٣. وهو المكان

الذى شهد جندياً فارساً يعدم خائناً يحمل الشراب وطنى عليه، وهثم أعظمه وأجرى دمه، وكسر قمصل (في التضح أو قمل في

البنانع) التيه الذى كان يحمل جرجى.

(١١٤) في مستهل القرن الثاني عشر، خلال فترة الصراع التى كانت نغماً لنهاية عصر المرابطين، قال النحوى الموزن

أبو إسحاق إبراهيم بن قاسم الأعلام البطيوسى عن إشبيلية:

يا حصي لا زلت دلواً لكل يؤس وساحة
ما فبك موضع راحة إلا ومافيه راحة

وهي من المجتثه نفح ٤٥٢/٣.

(١١٥) من الكامل، القلائد ٨٧.

إلى بجانته، ولم تصبح مدينة غنية وهامة إلا في القرن الحادى عشر على أيام أميرها الصقليين: زهير وخيران، ومن جاء بعدهما، ثم أميرها المعتصم بن صُماح المتنافس اللود للمعتصم بن عباد، وهى ميناء لا يقوم فى أرض خصبة وفيرة الثمار أو غنية بمعادنها النفيسة، وإنما تعتمد فى مواردها على ما يأتيتها من الخارج، ويوم أغلق البحر فى وجهها انهارت ولم تقو على النبوض^(١١٦).

وإذا صدقنا قول ابن الخطيب المؤرخ فإن المدينة اتسعت كثيرا فى عهد خيران الصقلي، وأصبحت تفص بالمياه الجميلة الواسعة، وهو الذى أجرى إليها المياه، وأقام الحمامات الرائعة^(١١٧)، وإلى عصره يرجع، دون شك، حفر العيون الشهيرة، ولا تزال أطلالها موجودة حتى الآن وقد وصفها ابن دراج القسطلى حين مر بها بحرا:

منى تلعظوا قصر المرية تنزلوا يبحر ندى يُمناء دُر ومرجان
وتستبدلوا. من موج بحر سجاكم يهوج لكم منه لجين وعقبان^(١١٨)

ونحن نعرف الكثير عن قصور المرية ومتزهاتها فى عهد المعتصم، ويقول ابن خاقان عن هذا الأمير، بعد أن وصف شح الأراضي الزراعية فى أمارته: «فاقتصصر على صمادحيته البديعة وقصبتة المنيعة»^(١١٩).

وقصة تشييد قصر الصمادحية وهم اسم مشتق من أحد أسلافه المسما صُماح، تذكرنا بالوساوس التى انتابت عبد الرحمن الناصر عند توسعته المسجد الجامع فى قرطبة.

ذلك أن المعتصم لما بنى قصوره المعروفة بالصمادحية غضبوا أحد الصالحين فى جنة وألقوها بها، وزعم ذلك الصالح أنها لأيتام من أقاربه، فبينما المعتصم يوما يشرب على الساقية الداخلة إلى الصمادحية إذ وقعت عينه على أبواب قصبة مشمع، فأمر من يأتبه به، فلما أزال عنه الشمع وجد فيه ورقة فيها: «إذا وقعت أيها الناصب على هذه الورقة فاذكر قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِى نَجْةً وَاحِدَةً فَقَالَ أُكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ﴾. لا إله إلا الله، أنت ملك قد وسع الله تعالى عليك، ومكن لك فى الأرض، ويحملك الحوص على ما يفتنى أن تضم إلى جنتك الواسعة لعظيمة قطعة أرض لايتام حرمت بها حلالها، وخُبت طبيها، ولئن تحجبت عنى بسلطانك، واقتدرت على عظيم شأنك، فنجتمع غدا بين يدي من لا يحجب عن حقى. ولا تضع عندك شكوى».

فلما استوعب قرامتها دمعت عيناه، وأخذته خشية خيف عليه منها، وكانت عادته رحمه الله تعالى، وقال: على المشتغلين ببناء الصمادحية، فأحضروا فاستفسرهم عما زعم الرجل فلم يسعهم إلا صدقه، واعتذروا بأن نقصها من الصمادحية يعيبها فى عين الناظر، فاستشاط غضبا وقال: والله إن عيبها فى عين الخالق أقيح من عيبها فى عين المخلوق، ثم أمر بأن تصرف عليه، واحتمل تعويرها لصمادحيته.

(١١٦) عن المرية فى القرن الحادى عشر طبقا للكتاب الثاثرين، انظر: أبحاث، ط ٣ ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٤.

(١١٧) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ٢١٢.

(١١٨) من الطويل، انظر: ياقوت ٥١٧/٤، وابن الخطيب، أعمال الأعلام ٢١٤، ويذكر ابن خلدون أيضا فى «سيرة الطيف» ج ١ خيران، انظر: مولر، Beitrage ص ٣٤، وتحت حكم زهير الذى خلف خيران فى عام ٤١٩ = ١٠٢٨. ثم تشييد منشآت أخرى، نرسم المسجد الجامع، وزاد فيه من كل جوانبه باستثناء الجانب الذى فيه القبلة. انظر أعمال الأعلام ٢١٦. (١١٩) اقتلاد ٤٧.

ولقد مرَّ بعض أعيان المرية وأخيارها معاجاة على هذا المكان الذي أُخرجت منه جثة الأيتام، فقال أحدهم: والله لقد عوّرت هذه القطعة هذا المنظر العجيب، فقال له: اسكت، فوالله ن هذه القطعة طراز هذا المنظر وفخره.

«وكن المعتصم إذا نظر إليها قال: أشعرتم أن هذا المكان المعوج في عيني أحسن من سائر ما استقام من الصمادية؟ ثم إن وزيره ابن أرقم لم يزل يلاطف الشيخ والأيتام حتى باعوها عن رضى بما اشتهاوا من الثمن، وذلك بعد مدة طويلة، فاستقام بها بناء الصمادية، وحصل للمعتصم حسن السمعة في الناس»^(١٢٠).

ليست لدينا أية تفاصيل عن هذا القصر، وكل ما نعرف عنه أنه كان يضم لاعتى استقبال أو مجلسين بالتعبير القديم: مجلس الحاقّة ومجلس البهو^(١٢١)، وذو مظهر نبيل من حُنييه، وشهد من المرمر الحمري^(١٢٢)، وتجري الجدول ثعبانية في حديقته حول الاستراحات الموجودة بها، كما في حير الزبّال في قرطبة، وقد وصف المعتصم هذه الجداول، حين جلس يوماً، ومع أعيان الوزراء، ونهاء الشعراء، على موضع يتداخل الماء فيه، ويتلوى في مناحيه، وهو منشرج النفس، فقال:

انظرْ إلى حُسن هذا ماء في ضَيِّهْ كأنه أرْقَمُ قد جدَّ في خَرِيهْ^(١٢٣)

ويصف ابن الحداد شاعر بلاط المعتصم قصر الصمادية في قصيدة مدح في الأمير، ولكن التفاصيل التي وردت فيها غامضة مع الأسف، ولا نستطيع أن نخرج منها بشيء^(١٢٤).

وكانت الشخصيات الكبيرة تملك بيوتاً ريفية في ضواحي المرية، يطلق عليها اسم «برج»، يذهبون إليها بعد يوم حافل بالمشاغل في المدينة، وكان ابن عباس وزير زهير الصقلبي قد رأى على برج زهير بيتاً من الشعر كتبه بعض الأدباء إشارة إلى أن صاحبه متهم بداء أبي جهل، فيما يـل، ويقول فيه:

خلوت بالبرج فما الذي تصنع فيه بأسخيف لزمانٍ
فأمر بأن يكتب:

أصنع فيه كل ما أشتهى وحاسدى خارجه في هوانٍ^(١٢٥)

ولم يبالغ ابن الحداد كثيراً في قصيدته التي مدح بها المعتصم حين قال:

وما كَيْمَيْتِهِ الْفِرَاتُ وَدَجَلَةٌ وَإِنْ حَكَمُوا أَنَّ الْمَرْءَ بِغَدَانٍ
بِهِ اعْتَدَلَتْ أَزْمَانُهَا وَهَوَاؤُهَا فَكَانُوا أَيْلُولٌ وَقَوُزٌ تِيَانٍ^(١٢٦)

(١٢٠) نفع ٣٦٦/٣ - ٣٦٧، وأبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٤٥.

(١٢١) هذا المجلس الأخير يعود تاريخ بنائه إلى خوان، انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ١٢٩ الهامش ١١٨.

(١٢٢) القلائد ٤٧، وعن معنى كلمة «حمري» انظر: دوزي، تكملة المعاجم العربية ٤٠٤/١.

(١٢٣) من البسيط القلائد ٤٩، والمجلة ٨٥/٢، ونفع ٦٦٦/١ و ٣٢٩/٣.

(١٢٤) من الكامل، خريدة القصر في نفع ١٠٩/٤.

(١٢٥) من السريع، نفع ٥٣٥/٣.

(١٢٦) من الطويل الذخيرة ٧٢٤/١، وانظر فيما سلف من هذا الكتاب ص ١٨٠ الهامش ١١٥. وعتمد طرد ابن الحداد من

وكما رأينا من قبل شبه الشاعر النحلي المريّة بالجنة^(١٢٧) ولكن بعض الشعراء الآخرين يقضون على التقيض من هذا الاتجاه، ولم يتردد السمسيس مثلاً في أن يصيح:

بش نار المريّة اليوم داراً ليس فيها لساكن ما يجب
بلدة لا قار إلا بريح ربحاً قد تهب أو لا تهب^(١٢٨)
وفيها أيضاً يقول شاعر مجهول:

قالوا المريّة صنفها فقلت: نطّ وشيح
وقيل فيها معاش فقلت: إن هبّ ربح^(١٢٩)

وكلا الشاعرين يشير إلى صعوبة تمييز المدينة، إذ لا تجد بفتحها، كما قلنا، في الحقول المجاورة، وهي قليلة الخصب، ويقول المقرئ في نفع الطيب معلقاً على أبيات السمسيس التي سبقت: «يشير إلى أن مرافقتها بجلوبة، وأن الميرة تأتيها في البحر من ير العدو»^(١٣٠). وأما شح الأرض وقلة مواردها الزراعية فيؤكده ابن خاقان، يقول: إنها ولاية قليلة الجباية، شحيحة المطر، عزيزة المنابت، فسيحة المهامه لا تثبت فاكهة ولا تنتج قمحاً، والشيح وحده الذي ينمو في أطرافها^(١٣١).



وتقع برجة، وهي ضيعة في إقليم المرية، في الجنوب الغربي منه، على واد مهبج يعرف بوادي عنراء، تحدى به الأزهر والأشجار، وتتناقض خصوبته مع قحط أطراف العاصمة، وقد غنى بجمالها في قصائده الشاعر أبو الفضل بن شرف، وإليها يرجع أصله، يقول في أبيات له:

رياض تعشّها سندس نوسّث معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدّي ربي لها نظرة فتت من نظر
وكل مكان بها جنة وكل طريق إليها سقر^(١٣٢)

وفي أبيات أخرى يقول:

حطّ الرحال ببرجة وارنذ لنفسك تهجّة
في قلعة كسلاح ودوحة مثل جنة

تركبت قلس وأنشأتى نطّره ومع عيني وأحداسي تحنّره
لو كنت تبصر في تلمير حالتي إذن لأشفتت ما كنت تبصره

وهي من البيت، انظر: ياقوت، معجم البلدان ٨٣١/١ و ٥١٧/٤، وجود فروى - ديومين في: العمري المسالك، الترجمة الفرنسية ١٢٨، خامس ١، ونفع ٤٨/٤، ودوزي، أبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٥٥.

(١٢٧) انظر فيما سبق ص ١٠٨ من هذا الكتاب.

(١٢٨) من خفيف، نفع ٣/٣٩٠، وأبحاث ط ١ ص ٨٤.

(١٢٩) من الجنت، الروض المطار، رقم ١٧٥ ص ١٨٣ و ٢٢١، ومن الكثير أن نلاحظ أن هذه الأبيات مع تغيير في البداية توجد في ألف ليلة وليلة في الليلة ٨٧٠ من طبعة بولاق أو القاهرة و ٨٦١ من طبعة بيروت، ولكنها نقال عن الإسكندرية.

(١٣٠) نفع ٣/٣٩٠.

(١٣١) الثلاث ٤٧، وأبحاث ط ١ ص ٢٤٢.

(١٣٢) من تقاربه نفع ١/١٥١، وانظر فيما سبق ص ١٠٨ من هذا الكتاب.

فَحَفْضُهَا لَكَ أَمِنْ وَرَوْضُهَا لَكَ فَرْجُهُ
كُلُّ الْيَلَادِ سِوَاهَا كَعَمْرَةٍ وَهِيَ حَاجُهُ (١٣٢)

وتفنى الشعراء أيضا، وبخاصة أشاعرات (١٣٤)، بجمال وادي آش، وأسهم مظهره النضير على التأكيد في إيقاظ إحساس سكان المنطقة بالطبيعة وتمييقه، وكانت المدينة نفسها من المدائن الغنية بالشعراء الذين أغرموا بالطبيعة (١٣٣).

ولم تثر غرناطة التي احتلت في القرن الحادي عشر مكانة إلبيرة الانتباه إلا أن عهد ملوك الطوائف (١٣٥)، واستخدم أحد الشعراء في وصفها المعجم الخاص بالمدن في إسبانيا، وليس ذكرناه في بداية هذا الباب:

غَرْنَاطَةُ مَا لَهَا نَظِيرٌ مَامَصْرُ مَا الشَّامُ مَا الْعِرَاقُ؟
مَا هِيَ إِلَّا الْعُرُوسُ تُجَلَّى وَتَلَكُ مِنْ تَجَلَّةِ الصَّدَاقِ (١٣٦)

ولم يكن قصر الحمراء قد وجد بعد، ولم تكن الحمراء نفسها غير برج قرمزي داخل القلعة (١٣٨)، وبنيو زيري الذين سوف يحكمون غرناطة حتى قدوم المرابطين لابد أنهم أقاموا في قصر أقرب إلى القلعة منه إلى قصر ملوكي، في داخل الدائرة التي تعلو التل الذي يشرف على مجموع المدينة، ونعلم أن مؤملاً مولى بإديس بن جوس مد زين المدينة وضواحيها، وأنفق جهدا كبيرا في صيانة الشوارع والأبنية العامة، وأطلق اسمه على ممر أشجار الحور على الضفة اليمنى لنهر شنيل، فأصبح يعرف باسم «حور مؤمل» (١٣٩)، ونال شهرة واسعة منذ القرن الثاني عشر الميلادي لكثرة المواعيد الغرامية التي اتخذته مسرحا، وصفها لنا الشعراء.

(١٣٣) من المجتث، نفع ١٥١/١.

(١٣٤) انظر فيما سأتى ص ١٤٢ - ١٤٤ من هذا الكتاب.

(١٣٥) ابن فضل الله العمري في كتابه سالك الأبحار، في صبح الأعشى للقلقشندي ٢٢١/٥، ترجمه جود فروي - ديرمين ص ٢٤٥ يقول: سكانها مشهورون بواجبهم شعرية. ويقول المقرئ في نفع الطيب ١٤٩/١، «وقد حيا الله ملها بالأدب وحسب النعم».

(١٣٦) عن أصل غرناطة انظر: ل. إيجيانت وبيترجاس، أصل مدن غرناطة وإلبيرة والحمراء، في تكريم كوديرة، ص ٣٣٣ - ٣٣٨.

(١٣٧) من غلام البسيط، نفع ٦٤٨/١.

(١٣٨) يقول الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بقرناطة، في مذكراته، التي تحمل اسم التبيان، أن اليهودي، أي يوسف بن الحفلة، هو الذي بنى حصن الحمراء، نظرا، ترجمته إلى الفرنسية ليفي برونشال ص ٦٨.

● قلت نشر ليفي برونشال هذا الكتاب بعنوان مذكرات الأمير عبد الله، في القاهرة، وصدر عن دار احافز عام ١٩٥٥، وتوجد الإشارة السابقة فيه ص ٥٤ (الترجم).

(١٣٩) هذا الاسم كثيرا ما يصبه التحريث فيصبح حوز مؤمل. وعن هذا المتنزه انظر: نفع ٤٧٥/١ و ٢٨٦/٢ و ٢١٨/٣ و ٥١٣ و ٥١٧ و ١٧٧/٤، والإحاطة ٤٤٩/١ - ٤٩٩ و ٣٣٣/٣. وعن المولى مؤمل انظر: ليفي برونشال مذكرات الأمير عبد الله في مجلة الأندلس، المجلد ٣، سنة ١٩٣٥، العدد ٢٥٨ (وفي نسخة مستقلة ص ٢٦)، وانظر فيما سأتى من هذا الكتاب ص ١٧١.

وثمة مترزه آخر فوق تل في ضواحي غرناطة، نال الشهرة نفسها في القرن الثاني عشر، وهو مترزه «نجد»^(١٤٥)، غير أن شعراء القرن الحادى عشر لم يكونوا قد عرفوه فيها يبدو.

وكان فحصى غرناطة يتمتع بكل خصوبته منذ نهاية القرن الحادى عشر، ووصف لنا بعض الكتاب حدائقه فإذا هي لا تقل في جمالها شيئاً عن حدائق قرطبة وإشبيلية، وسهب ابن خاقان في سجعته الفنى الرقيق الذى عُرف به، ونيس إلّا شعراً حراً في الحقيقة، في وصف ضيعة الوزير القاضى أبى الحسن بن أضحى في خرج غرناطة^(١٤٦) ويقدم لنا ابن سارة أول وصف للفحص وهو يمدح الأمير المرابطى أبى بكر بن إبراهيم:

اليوم أتمدت الضلالة نازها	واسترجعت دار الهدى عمارها
واستقبلت حدى الورى غرناطة	وهى الحديقة فوفت أزهارها
فكانت تشرينا بها نيسانها	يكسو رباهها وردها وهارها
في غب ساقية ترقرق آدمها	يحكي الجمان صفارها وكبارها
ما شئت من نهر كصدر عقيلة	شقت أناملها عليه صدارها
أر جدول كالنصل في يد ثائر	أمهى صحيفته وهز غرارها
ما بين أشجار قيد كأنها	شراب جريال يدبر عفارها
مترنحون إذا لحاها عاذل	تركت سكن حلوبها ووقارها ^(١٤٧)



وإذا كانت غرناطة تستقبل زوارها مرحبة منذ القرن الحادى عشر فإن رندة على النقيض من ذلك، فهى مدينة كريمة إذا صدقنا فيها ما قاله شاعر مجهول:

قُبِحَ لِرندة مثلي	قُبِحَتْ مُطالعة الذنوب
بلد عليه وحشة	ما إن يفارقه القطوب
ما حلها أحد فيند	جوى بعد بين أن يؤوب
لم آتيا عند الضحى	إلا وخيل لى غروب
أفق أغم وساحة	تملا القلوب من الكروب ^(١٤٨)



وتغنى المعتمد بمدينة شلب الفنية بالمواهب الشعرية^(١٤٩)، فقد أقام فيها حاكماً على أيام والده

(١٤٠) عن هذا التل الذى أصبح مترزاً انظر: نفح ٦٧٧/٢ و ٦٧٨ و ١٣/٣ و ١٧١/٢ و ٢٤٢، والإحاطة ٢/٢١٧ و ٣١٨، ورحلة ابن بطوطة ٣٧٢/٤، ولوثيان، مصور غرناطة العربية (في الشرق من المصور) وجود فردى - ديومين، مسالك الأماص للعبرى، ص ٢٢٣ رقم ٢ وص ٢٣٤ رقم ٢.

(١٤١) القلائد ١٧٤ - ١٧٥، وعنها في نفح ٦٧٦/١.

(١٤٢) من الكامل، القلائد ٢٦٤، وعن سيرة تيبادا (جبل شلبي) انظر ما يأتى، ص ٢١١ من هذا الكتاب.

(١٤٣) من الكامل، نفح ١٣٢/٤ - ١٣٣.

(١٤٤) كان اعزقى، المتوفى ٦٨٢ = ١٢٨٣، سيد وهو يشير في مؤلفه الجغرافى إلى أن من النادر أن نجد بين أهل شلب من لا ينظم الشعر أو لا يهتم بالأدب، وأى فلاح واه ممراته يستطيع أن يرتجل الأبيات من الشعر فيها تشاء من الموضوعات. انظر: =

المعتضد، وعندما أصبح أمير إشبيلية وأوفد وزيره ابن عمار في مهمة تفتيشية حمله رسالة سلام وتحية إلى كل الأماكن التي أحب فيها وتوضح بكل مشاعر الشباب ومحاسنه:

أَلَا حَتَّى أوطاني بشلب أبابكر
وسلم على قصر الشراحيب عن فتى
منازل أساد ويبض نواعم
وكم ليلة قد بت أنعم جُنحها
وببض وسمر فاعلاب بهجتي
وليل يسد النهر هو قطعته
نفت بردها عن غصن ياب منعم

وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى
له أبدا شوق إلى ذلك القصر
فناهيك من غيل وناهيك من خدر
بمخصة الأرداف مجدية الحضر
فعل الصفاح البيض والأسل السمر
بذات سوار مثل منعطف اليدر
نضير كما انشق الكمم عن ازهر^(١٤٥)

وتوضح لنا قصيدة المعتضد هذه مهابط الجمال والمجد في شلب في القرن الحادي عشر، فهي: قصر الشراحيب^(١٤٦) وسد النهر، ونحن نعرف أى شيء عن قصر الشراحيب هذا، إلا أنه كان يضارع في الفتنة أروع قصور بغداد وأجملها، وظل قائما على امتداد القرنين الثاني عشر والثالث عشر^(١٤٧).

أما سد النهر فوصفه شعراء آخرون، وهو يذكرنا بجسر قرطبة الذي كان قائما على الوادي الكبير، كما وصفوا النهر نفسه، ويقول ابن عمار وهو أصلا من قرية صغيرة تدعى شنتبوس على مقربة من شلب، في قصيدة يمدح بها المعتضد:

كساها الحيا بمرّة الشرب فإنما
ذكرت بها عهد الصب فكأنما
ليالي لا أوى على رند ناصح
أنال سهادي من عيون نواعس
وليل لنا بالسد بيت معاطف

بلادها عني الشباب تمانى
قدحت بنار الشوق بين الحيازم
عناقي ولا أتتبه عن غي لائم
وأجنى مرادى من غصون نواعم
من النهر ينساب انسياب الأراقم^(١٤٨)



= آثار البلاد، طبعة وستفد ص ٣٦٤، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٨٤، وتيكسون، تاريخ الأدب العربي ١٦٦، وانظر أيضا المعشقي، المتوفى ٧٢٧ = ١٣٢٧، نوبة لشهر، طبعة ميرين، الترجمة ٣٤٤، وميرين، موجز كوزوجرافيا النصر الوسيط ٢٤٨، وأبو الفداء، ترجمة رينو وجوهار ٢٢٧، يقول: لقد اشتهر أهل شلب بحب الأدب عما جعلهم مضرب للنيل.

(١٤٥) من الطويل، الثلاثد ص ٥ - ٦ وعنها في «بنو عباد» ٣٩/١، والترجمة ٨٣، وص ٣٢ البيتان الأولان فقط، وصيح الأعرس ٢٢٦/٥ (البيت الثاني)، وأبو الفداء، سقرافية النص ١٦٧، والترجمة الفرنسية ٢٢٧ (مع ترجمة البيت الثاني المشار إليه فيها سبق)، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٩١، والشندي رسالة فضل الأندلس، في نفع ١٩٢/٣، الأبيات ٦ و ٩، وترجمة غرسة غوث ١٨ ص ٥٧، وانظر فيما سأتى من هذا الكتاب ص ٢٩ وما بعدها.

(١٤٦) عن كلمة «شراحيب» وجمعها «شراحيب» انظر: دوزي، تكملة المعاجم العربية ٧٤٢/١ و ٥٥٥/٢ والفلاند ٣٠، وابن حزم، طوق الحمامة ١٤٥، وترجمة نيكل ١٥٨ وطبعة برشيه ٢٨٤ و ٢٨٥، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣٢٨، والحلة ٢٠٠/٢.

(١٤٧) الحلة ٢٠٠/٢.

(١٤٨) من الطويل، نفع ١٩/١، وابن خنكان، وفيات، طبعة القاهرة ٦/٢، وقد أنشد ابن عمار بيتا من الشعر لحظة احتضاره، وقد ذكر كل أحده:

وحاول بنو الأفطس في عاصمتهم بطليوس، وتقع في الجنوب الغربي من إسبانيا، وسط منطقة حرمتها الطبيعة من غايتها، أن ينافسوا أمراء قرطبة وإشبيلية والمريّة، ولأنهم كانوا يجاورون الإمارات المسيحية جاءت بيوتهم في جملتها قلاعاً أكثر منها قصوراً. كانت قصبة بطليوس تشرف على وادي آنه، ويقول ابن خاقان، إن بيت عدى بن زيد في صنعاء ينطبق تماماً على وصفها:

في قبابٍ حول دُشْكِرَةٍ حولها الزيتون قد ينعا^(١٤١)
وأقام المتوكل في ضواحي المدينة مئنة أسماها البديع، ودرج على أن يذهب إليها مع أصحابه، وخصوصاً بني القبطورنة للاستجمام والاستمتاع هناك، وسط أشجار الأزهار^(١٥٠). وقد أفاقت بطليوس وضواحيها الحسرة والشجن في نفوس كثير من الشعراء، عرفانا بجمائل الأمير المتوكل أكثر منها إعجاباً بالمدينة والمناظر التي تحيط بها.

يقول الرزير أبو عمرو بن القلاس يمدح مدينة بطليوس، وهو من أعيانها:
بطليوسُ لا أنساكَ ما اتصل البعدُ. قلَّه غورٌ في جنابك أو نجدُ
ولله دوحاتٌ تحفُّكُ بينها تفجرُ واديا كما شقَّ البردُ^(١٥١)



وكانت طليطلة مدينة رومانية قديمة، ثم قوطية، وانتهى بها الحال إسلامية، وأصبحت في نهاية القرن الحادى عشر عاصمة مملكة، وحاول بنو ذى النون أمراؤها أن ينافسوا بشدة عظمة قرطبة وإشبيلية، وقد وصف شاعر مجهول موقعها الفريد فوق رابية عالية، يطوقها نهر تاجه من ثلاث جهات:

زادتْ طليطلة على ما حدثوا بلدٌ عليه نضرة ونعيمُ
الله زينه فوشح خصره نهرُ المجرة والفصون نجوم^(١٥٢)

وقد أصبح قصر المأمون فيها مناط إعجاب السكان والزوار على السواء، لأن بني ذى النون قاموا

= تمكى عليهم شهبوس بعبرة كاتبيها المشاعر التمار

البيت من الكامل، في «بنو عباد» ١٥٥/٢، قلا عن الحلة.

● قلت: في الحلة ١٥٧/٢، طبعة القاهرة. البيت ليس لابن عمار، وإنما هو لمحمّد بن عباد، في قصيدة له جاءت تذيلاً على قصيدة لابن عمار من البحر نفسه، واللقافة نفسها، مطلعها:

خيرٌ بالنسبة، وكانت جنة أن قد تدلّك في سواء النار

(المترجم)

ونمة رواية للمقرئ عن شخصين من شلب تسمح لنا بأن نعتقد أن نهر شلب كان عامراً بالصفادح. انظر: نفح ٥٢٠/٢، ولفون شاك ترجمة بالبراء شعر العرب ٧٦/١.

(١٤٩) من المديد الثلاث ٤٣، وعنها في نفح ٦٦٤/١.

● قلت: في النفح ٦٦٤/١ طبعة إحسان عباس «قال عدى بن زيد يصف مصنعا» وخطه واضح (المترجم).

(١٥٠) الثلاث ١٥١، وعنها في نفح ٦٣٧/١.

(١٥١) من الطويل، نفح ١٨٦/١، وصحح الأعشى ٣٣٢/٥ و ٢٢٤. وقد رأيتُ أن مقطوعة للنحل تنسب لابن اللبانة وفيها يشبه

بطليوس بالجنة انظر أيضاً: أهر الفدا، جغرافية، النص ١٧٢، والترجمة ٢٤٧.

(١٥٢) من الكامل، نفح ١٧٠/١.

بتوسيع المقر القديم لحكام المدينة مذ أن تنصروا، واهتموا بتجميله ليجعلوا منه تحفة فنية بالغة الروعة^(١٥٣) وأنصب إعجاب الشعراء كله على البحيرة المبتكرة التي أقامها الأمير وسط القصر، ومنع في وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكم المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلاها على جوانبها، ويصل بعضه ببعض، فكانت قبة الزجاج في غلالة بما سكب خلف الزجاج من ماء لا يفتر من الجرى، والمأمون قاعد فيها لا يسه من الماء شيء ولا يصله، وفي الليل توقد فيها الشموع، وتنعكس أضواؤها، فتكون مشهدا بالغ الروعة والجمال^(١٥٤).

وقد نظم أبو محمد إبراهيم المصري، وهو شاعر مصري كان لائذا في بلاط المأمون، مقطوعة شعرية عن البركة والقبة عليها:

شمسية الأنساب سديئة يحار في تشبيهها الخطر
كأنما المأمون يدرك الدجى وهى عليه الفلك الدائم^(١٥٥)

وثمة حكاية تقول إن المأمون كان جالسا في القبة مع جواريه ذات ليلة إذ سمع نشدا ينشد: أتبنى بناء الخالدين وأنا بقاءك فيها لو علمت قليل لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كل يوم يقتضيه رحل^(١٥٦)

فنفض عليه حاله، وتشام من قوله كما تشام الخليفة عبد الرحمن الناصر من قى من خطبة منذر بن سعيد البلوطي^(١٥٧)، وهو قرعه على الإسراف في بناء الزهراء، وأقسم ألا يحل وراءه في مسجدها، وأخذ المأمون يردد: إنا لله إنا إليه راجعون، أظن أن الأجل قرب، ولم يجلس في تلك القبة بعدها، فقد وافاه الأجل بعد شهر فحسب.

كان المأمون مثل أمراء قرطبة وإسبيلية يملك قصرا للراحة والتنزه، وسط الحدائق من شاطئ نهر تاجه، غير أننا لا نستطيع أن نحدد موقعه بالدقة، ويعتقد دوزي أن هذه المثبة كانت تقو على الشاطئ الأيمن لنهر تاجه، أى على الجانب الذى توجد عليه طليطلة نفسها، بين جسرى القنطرة وسان مرتين^(١٥٨)، على حين يرى المستشرق الإسباني جيا نجوس أنها نفسها التي تسمى اليوم عصور غليانة أو بيوت الملكة^(١٥٩)، بالقرب من أسالى النهر، وبعيدا عن المدينة نفسها، على الضفة اليسرى لنهر

(١٥٣) الوصف الوحيد له وجدناه نثرا في لمحيرة ١٣٢/٤ ويشير ابن بسام إلى أن المجلس الرئسي كان يحمل اسم المكرم (بتشديد الراء أو بدونها)، كأحد مجالس المعتز في إسبيلية.

(١٥٤) انظر: ابن بدرون، شرح الرسا - البغدونية ٢٧٧، وعنها في نفع ٥٢٨/١ و ٣٥٣/٤.

(١٥٥) من السريم، نفع ٥٢٩/١.

(١٥٦) من الطويل، نفع ٥٢٨/١، وابن بدرون المصدر المذكور فيها سبق ٢٧٨.

(١٥٧) انظر فيها سبق ص ١١٠ من هذا الكتاب.

(١٥٨) أبحاث ط ١ ص ٥٩٨ رقم ١، وقد عتمد دوزي على قعره في كتاب الاكتفاء، والذي روى لنا خير استيلاء المرابطين على طليطلة عام ٥٠٣ = ١١١٠، وانظر المصدر نفسه ص ٥٣٢ رقم ١.

● قلت: حقق الدكتور أحمد مختار العبادي نص ابن الكردوبس، وبه نص ابن الضباط في وصف الأندلس ونشرها المعهد المصري في مدريد عام ١٩٧١، والخبر في هذا الكتاب ص ١١٦ (المترجم).

(١٥٩) الدول الإسلامية في إسبانيا ٤٥/٢ وانظر أيضا: داونر مستندت بدال، الأعمال الكاملة، المجلد ٣، تاريخ وملاحم ٢٧٦.

تاجه. وكان بهذه المثبة قاعة استقبال تحمل اسما يومئى إلى طابعها المتميز: مجلس الناعورة. وقد وصف لنا العالم اللغوى أبو محمد بن السيد البطلوسى المثبة، وقاعة استقبالها، فى قصيدة أوردها لنا ابن خاقان، فقد قص الشاعر على مؤلف «قلائد العقيان» أنه حضر مع المأمون فى مجلس الناعورة بالمثبة، ولكن ابن خاقان لم يستطع فى روايته لما سمع، وقد سجن نفسه فى سجنه الذى تميز به، إلا أن يقدم بعض جمل جاء بها مقدمة لأبيات الشاعر، فهى «التي تطمح إليها المني، ومرأها هو المقترح والمتنى، والمأمون قد احتنى، وأفاض فى الحب، والمجلس يروق كأن الشمس فى أفقه، والبدن كالنجم فى مفرقه، والنور عبق، وعلى ماء النهر مصطبغ ومفتق، والدولاب يشن كناقاة إثر الحوار، أو كشكلى من حر الأوار، والجو قد عنبرته أنواؤه، والروض قد رشته أندائوه، والأسد قد ففرت أمواهها، وسجت أمواهها، فقال:

يا منظرًا إن نظرتُ بهجتهُ	أذكرني حسنَ جنة الخلدِ
تربةً مسكٍ وجو عنبرةٍ	وغيمٌ نَدَّ وطشٌ ما وُردِ
والماء كاللازوردٍ قد نظمت	فيه اللآلى فواغرَ الأسدِ
كأنما جائل الحباب به	يلعبُ فى جانبيه بالنردِ
تراه يزهو إذا يحل به الـ	بمأمون زهو الفتاة بالعقدِ
غخاله إن بدا به قمرًا	نما بدا فى مطالع السعدِ
كأنما البست حدائقه	ما حاز من شيمه ومن نجدِ
كأنما جادها فروضها	بوابل من يمينه زغدِ
لا زال فى رفعة مضاعفةٍ	متمم الرقيد وارى الزند ^(١٩٠)

ولا يفوتنا أن نلاحظ أن الشعراء لم يتناولوا الآثار الأخرى ولا المباني العظيمة التى كانت تحفل بها طليطلة، مثل القنطرة المقامة على نهر تاجه، والناعورة التى بجانب اتحدار النهر على الضفة اليمنى^(١٩١)، ولا البليتين اللتين «خارج طليطلة فى بيت مجوف فى جوف النهر الأعظم، فى الموضع المعروف بباب الدباغين»^(١٩٢).



وكان فى سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى قصر شهير فى القرن الحادى عشر الميلادى يسميه الشعراء دائمًا قصر السرور، ولنا أن نتساءل عما إذا كان هو نفسه القصر الذى عرفناه طوال بداية القرن الثانى عشر باسم «الجعفرية»^(١٩٣)، أم هما قصران مختلفان. ولكن إذا وضعنا فى اعتبارنا أن المقتدر بن هود، وتولى الإمارة من ٤٤١ إلى ٤٧٤ هـ = ١٠٤٦ - ١٠٨١ م، كان موضع التمجيد فيها يتعلق بقصر

(١٩٠) من الفسرح، الفلكل ١٩٤، وعنها فى نضج ٦٤٤/١، وابن ظافر، الهدائع ٣٠٩، وعنها فى نضج ٦٤٥/١.

(١٩١) نضج ٣٥٣/٤.

(١٩٢) نضج ٢٠٦/١.

(١٩٣) يذكر ابن عذارى لأول مرة قصر الجعفرية، فى أحداث عام ٥٠٣ = ١١٠٩ الخاصة باستيلاء المرينيين على مدينة سرقسطة، البيان المغرب ٥٤/٤. وعن هذا القصر انظر: تراس، الفن الإسباني العربى منذ نشأته حتى القرن الثالث عشر، ص ٢٠٠ - ٢٠٩.

السرور، وأن هذا الأمير كان يكنى أبا جعفر^(١٦٤) فلا يجا في المنطق في شيء أن ننسب له بناء القصر، وأن نرى أن الاسمين كانا يطلقاء على البناء نفسه وهو واحد^(١٦٥).

وتردد كل كتب الأندلس، بلا توقف، أن المقتدر نظم الأبيات التالية في مانيه:
 قصر السرور ومجلس الذهب يكما بلغت نهاية الأدب
 لو لم يحجز منكى خلافكما كانت لدى كفاية الطلب^(١٦٦)
 وثمة نوافر عديدة تحكى عن حياة المقتدر، وكان مجلس الذهب مسرحا لها^(١٦٧).



أما متنزهاة بلنسية فكانت الوحيدة التي توجد خارج المدينة: الرصافة ومنية ابن عبد العزيز^(١٦٨).

وعن الرصافة لم يقل الشعراء شئاً^(١٦٩)، أما منية ابن عبد العزيز فقد داعيت خيالهم على نحو ما فعلت منية المأمون في طليطلة. وقد شيد منية بلنسية المنصور بن أبي عامر، ويحدر من نسل المنصور العامري الكبير، وحكم بلنسية من ١٠٢١ إلى ١٠٦٦ م، وأقام يوم افتتاحها حفلا جمع كل زهور المملكة الرقيقة، ومئة خادم تتراوح أعمارهم بين عشرة وأربعة عشر عاماً، يقومون على خدمة المدعوين، يقدمون لهم الطعام والشرب، وقدم الأمير نفسه في ذلك اليوم عشرين ألف هدية، وهب أملاكاً واسعة في شكل إقطاعات^(١٧٠).

وكل الأمراء الذين حكموا بلنسية كانوا يقيمون في هذه المنية، وطلبها السيد القنبيطور لنفسه من القاضي ابن جحاف لإقامته الشخصية، ثم عدل عن طلبه مخافة أن يقع في كمين^(١٧١). وفي عهد المرابطين سنحت الفرصة لمؤلف كتاب «قلائد العقيان» أن يزور هذه المنية عدة مرات، وكان الطريق إليها من بلنسية يمر بباب الحش، وبه حديقة شاسعة، تغطيها أشجار الزينة والفاكهة والزهور، ويحرقها مجرى مائي، ويقع القصر في وسطها حيث توجد قاعة رائعة الزخرفة والفخامة، وكل أبوابها تؤدي إلى

(١٦٤) ثمة أمور آخر من بني هود يحمل هات الكنية أيضاً: عماد الدولة، ولكنه حكم علما واحدا بالكاد ثم عزله المرابطون. انظر: بريثوديسس، ملوك الطوائف ١٤٧، ولعمري برونسال، مذكرات الأمير عبد الله، فصلا مستقلة، ص ١٩٢ رقم ٦٦.

(١٦٥) نحن نعرف أن الجعفرية في ضوء زخرفتها تعود إلى القرن الحادي عشر دون شك انظر: ج. مرسي، موجز ٢٩٨/١ و ٣٦٣ - ٣٦٦، وهنري تراس، الفن الإسلامي العربي ص ١١٧ و ٢٠٠ - ٢٠٦.

(١٦٦) من الكامل، نفع ٤٤١/١ و ٤٢٠، وصح الأعمش ٢٣٢/٥.

(١٦٧) نفع ٥٣٤/١، والأخيرة القسم الثالث في: أبحاث ط ١ ص ١٦٦ في الماش. وتحت حكم بني غيب الذين خلفوا بني هود نهت العامة قصر سرقسطة - هل هو قص السرور نفسه؟ بعد أن قتل منقز بن يحيى معز الدولة رجل من بني عمه يدعى عبد الله بن حكم (أو حكيم) في محرم ٤٣١ = سبتمبر أو أكتوبر ١٠٣٩. انظر: البيان المغرب ١٨٠/٢، وأعمال الأعلام ١٩٦، والحلة ٢٤٦/٢، وأبحاث ط ١ ص ٥٣.

(١٦٨) بن سعيد في نفع ١٧٩/١، ومسح الأعمش ٢٣١/٥.

(١٦٩) فيما بعد سوف يتفق بها الرصغي الشاعر، وكانت مسقط رأسه انظر نفع ١٨١/١ و ١٤٠/١ و ١٠.

(١٧٠) القلائد ٦٩، وعنها في نفع ٦٥٢/١ وما بعدها.

(١٧١) أبحاث ط ١ ج ١ ص ٥٤٣.

الحديقة، وقد أصبحت النية مكاناً عاماً للتنزه، ويصف لنا أحد الشعراء المغمورين، واسمه على بن أحمد، هذا المجلس وحله مع طائفة من الوزراء، في أربعة أبيات:

قُمْ فَاسْقِنِي وَالرِّيَاضَ لَابِسَةً وَشِمَاً مِنَ النُّورِ حَاكِهِ الْقَطْرُ
وَالشَّمْسُ قَدْ عَصَفَتْ غِلَاقَهَا وَالْأَرْضُ تَدْنِي ثِيَابَهَا الْخَضِرُ
فِي مَجْسِرٍ كَالسَّاءِ لَاحٍ بِهِ مِنْ وَجْهِ مَنْ قَدْ هَوَيْتَهُ بَلَدُ
وَالنَّهْرُ مِثْلُ الْمَجْرَى حَفَّ بِهِ مِنَ التَّدَامِي كَوَاكِبُ زُهْرُ (١٧٧)

وتغني ابن الزقاق أيضاً في بلنسية، وعاش في آخر القرن الحادي عشر وأول القرن الذي يليه، يقول:

بَلَنْسِيَّةٌ إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا وَفِي آيَاتِهَا أَسْنَى الْبِلَادِ
وَأَعْظَمُ شَاهِدِي مِنْهَا عَلَيْهَا وَأَنْ جَالَهَا لِلْعَيْنِ بَادِي
كَسَاهَا رُبَاهَا دِيْبَاجٌ حُسْنٍ لَهُ عَلَمَانِ مِنْ بَغْرِ وِوَادِي (١٧٨)

وإذا كانت بلنسية قد اشتهرت بخصوبة أرضها، وفرة منتوجها، وتنوع ثمارها، مثل الزعفران والكمثرى، وصفاء سمائها لا تعكرها سحب، وبها أضواؤها (١٧٩)، فقد كانت أيضاً مدينة يغزوها لناموس، ويهاجمها القلاء، مما جعل أهلها في حالة حرب مستمرة، بقول الحصري:

ضَاقَتْ بِلَنْسِيَّةٍ بِي وَذَاذَ عَيْنِي غَمُوزِي
رَقَصُ الْبِرَاغِيثِ فِيهَا عَلَى غَنَاءِ الْبِعُوضِ (١٨٠)

ويقول ابن عيَّاش:

بَلَنْسِيَّةٌ بَيْنِي عَنِ الْقَلْبِ سَلَوَةٌ فَلَيْتَكَ رَوْضٌ لَا أَحْنُ لَزَهْرِكَ
وَكَيْفَ يَحِبُّ الْمَرْءُ دَارًا تَقَسَّمَتْ عَلَى صَارِيٍّ جُوعٍ وَفَتْنَةٍ مُشْرِكِ (١٨١)

ويرد عليه ابن هريق:

بَلَنْسِيَّةٌ قَرَارَةٌ كُلِّ حُسْنٍ حَدِيثٌ صَحِيحٌ فِي شَرْقِيٍّ وَغَرْبِ
فَإِنْ نَالُوا بِحُلِّ غِلَاقٍ يَغْمُرُ وَمَسْقُطُ دِمَقِي طَغَيْنِ وَضَرْبِ
فَقُلْ هِيَ جَنَّةٌ حَفَّتْ رُبَاهَا بِمَكْرُوهِينَ مِنْ جُوعٍ وَحَرْبِ (١٨٢)

(١٧٢) من المنسرح، القلائد ٦٦، وعنها في نفح ٦٥٨/١.

وتحت حكم المرابطين ذهب أبو نعيم الله بن عائشة مع لمة من الأديباء والأصدقاء إلى هذه المنة ليقضوا وقتاً تحت أذراعها. انظر: الطبع ٣٤٧.

(١٧٣) من الوافر، الديوان، رقم ٣٦ ص ١٣٩، وابن دحية المطرب ١٠٨.

(١٧٤) ابن سبيل في نفح ١٧٩/١، وصبح الأعشى ٢٣١/٥.

(١٧٥) من المنسرح، نفح ١٧٩/١ و ١٨٠ و ٣٢٠/٣، وقد رأينا فيها سبق أن ابن مسعدة يعتبرها جنة لولا البعوض.

(١٧٦) من الكامل، نفح ١٧٥/١ و ١٧٩، وياقوت، معجم البلدان ٧٣١/١.

(١٧٧) من الوافر، نفح ١٨٠/١ - ١٨١. وفي القرن الثاني عشر ألف أبو بحر صفوان بن إدريس رسالة تظاهر فيها مدن

الأندلس بالهوان وفيها عُبِّرَتْ تَمَثِيلًا بِلَنْسِيَّةٍ بِصُوبَةِ تَمُوتِنَاهَا وَاسْتِمْرَارِ حَرْبِهَا وَقَتْنَاهَا. انظر: نفح ١٧٤/١، وزاد المسافر ٩٤.

ويقول السمسيس الشاعر من جانبه، مندهشاً خالة القذارة المؤسفة التي عليها:
 بلنسية بلدة جنة، فيها عيوب متى تُختبر
 فخرجها زهر كُله بإخلها برك من قنر^(١٧٨)

كان الأمير مبشر العاصري، والذي تلقب بناصر الدولة، يحكم دانية والجزائر الشرقية ويسخو على ابن اللبانة الشاعر، فرسم لنا هذا لوحة لجزيرة ميورقة:

بلد أعارته الحمام طرقتها كسأه حلة ريشه العاروس
 فكأنما الأنهار فيه مدامة كأن ساحات الديار كورس^(١٧٩)

وفي مسح الأمير يقول:

وعمرت بالإحسان أرض مبرقة بنيت مالم يبنه الإسكندر^(١٨٠)

كان يسعدنا أن نعرف الكثير عن الأعمال المعمارية فيها، والتي تعود إلى عظمة أميرها مبشر، غير أننا لا نعرف أي شيء آخر غير ما قالته لنا هذه الأبيات.

وقد رأيت جزيرة شقر، أو الجزيرة دون إضافة، مولد شعراء كثيرين تأثروا بخضرة الإقليم الفخيمة، وجمال الجزيرة الفريد، وست مياه النهر، فأصبحوا رسامين ممتازين للطبيعة، وكفينا أن نذكر من بينهم: ابن خفاجة وابن عائسة وابن الزقاق يقول ابن خفاجة:

بمين شقة وملتقى نهريها حيث ألفت بنا الأمانى غصاها
 ومضى المكاء في شاطئها يستخفر اللهى فحلت خباها
 عيشة أقبلت تسهى جناها وارف ظلها لذيد كرامها^(١٨١)

وكان يوجد في شاطئية ثلاثة متنهاة شهيرة: الطحاء والتدير والعين الكبيرة^(١٨٢)، وقد مدح شاعر مجهول هذه المدينة وضواحيها:

نعم ملقى الرخل شاطئية لفتي طالت به الرخل
 بلدة أوقاتها سحر وصبا في ذيله بلل

(١٧٨) من المقارب، ياقوت، معجم البلدان ٧٣٢/١.

(١٧٩) من الكامل، نفع ١٦٦/١، وأبر القاء، جغرافية، النص، ١٩٠/٨، والترجمة ٢٧١/٢، وترجمة ديحا له في مقدمة طبعة نفع الطب لأوربية ٣٠/١، وكامبير، مجمل ٣١١ - ٣١٢، وقنيان، فصول غير منشورة حول المغرب ١١٠، وهذان البيتان ينسان أيضا لابن حمديس، انظر: الديوان، طبعة شرطي، الملحق ٤٨٨.

(١٨٠) من الكامل، نفع ١٦٩/١.

(١٨١) من الخفيف، عبد المنعم الحميري، لروض المطار، رقم ٢، مادة شقر، ص ١٠٣ - ١٢٦، وعن نهر لجزيرة، انظر فيما يأتي من هذا الكتاب ص ١٩٠ - ١٩١.

(١٨٢) الفقهندي، صحيح الأعشى ٢٣٦/٥.

ونسيم غرقه أرج ورياض غصنا ثمل
ووجوه كلها غرز وكلام كله قمل^(١٨٤)



هذا الاستعراض السريع للمدن في إسبانيا الإسلامية غير كامل حتماً، لأن القائمة التي يمكن أن نلتقطها من قصائد الشعراء لا تتضمن سوى المدن الهامة أو التي لها بعض الأهمية، حيث أدت الظروف السياسية إلى أن يحكمها أمراء أو حكام فترة من الوقت سمحت لهم بتشيد المباني الهامة في عهدهم، سواء عاشت بعد عصرهم أم لا، وتناثرت هذه القصور والمنزهات على امتداد كل الدولة، على نحو يظهر بطريقة مقنعة وواضحة لا مركزة الحكم الذي كان سائداً في شبه الجزيرة نتيجة سقوط الحكم الأموي، ولم يعد الفن الأندلسي محصوراً في قرطبة العاصمة، وبدأ المهندسون والمزخرفون يجوبون كل إسبانيا، شأن الشعراء والأدياء، وتشهد لهم أعمالهم، ولم يبق منها غير القليل، ربما لأن تنفيذها تم في عجلة خاطئة وبخامات ضعيفة، بذوق سليم رأى أن يستعصى عن البساطة الشديدة في الفن القرطبي بالأناقة الرفيعة، وهو انعكاس صادق، لا يمكن إنكاره، للحياة الفنية في مجتمع القرن الحادي عشر^(١٨٤).

إن قصر المبارك في إشبيلية، والجعفرية في سرقسطة يعيشان في الأطلال المتبقية منها، أما بقية القصور الملكية فأصبحت مجرد ذكرى يحلدها الشعراء في قصائدهم، وضاعت تفاصيلها المعمارية تقريباً، باستثناء ما ورد منها في شعر ابن حمديس، وبخاصة أن مناط التأثير كان يرتبط بالمناخ الذي يحاول الشعراء إضفاؤه على أوصافهم.

ونلاحظ، واقعاً، أن إلهام الشعراء يكتسب عادة ثوب الأسى: فسحر الوطن يزيده البعد فتنة، والمدينة التي تبدو لهم أكثر إثارة للعواطف، وأجدر بالتغنى، هي التي فقدت زينتها من المباني الجميلة وغيرها، وليست تلك التي تفيض بالحركة وتلوح بالحياة، ومن ثم أصبحت قرطبة عاصمة الخلافة ومركز الحضارة الإسلامية مثلاً ثراً للشعراء في القرن الحادي عشر، لأنها سقطت وفقدت امتيازاتها الملكية، وتحولت في الجانب الأكبر منها إلى أطلال.

أما عن المدن نفسها فلا يقول لنا الشعراء شيئاً عنها، وعيننا تبحث عن تفاصيل تحدد شارع^(١٨٥) أو سوق أو باب، ولقد أثارهم القصور لأنهم أحسوا في جنباتها بالجمال المعماري، تمازجه العظيمة، وبخالطه الجلال، وربما أيضاً لأن في مدح القصر تكريماً لسيدته وإطراء. والحق أن المتبقيات كانت ملهمهم الأول، وضواحي المدن، وبخاصة حيث يجري نهر في حقل نظير.

إن الشاعر الأندلسي لا يستطيع أبداً أن يعيش مدينة مجردة من الخضرة والأشجار!

(١٨٣) من المذهب نبح ١/١٨٦.

(١٨٤) انظر: هنري تيراس، الفن الإسباني العربي من البدء حتى القرن الثالث عشر ٢٠١.

(١٨٥) ما عدا بيتاً من الشعر يعطي فكرة قائمة عن الطرق المملة في بنسبة، انظر فيما سبق ص ١٤٠.

○ الفصل الثاني

الوديان والجبال

٥

في إسبانيا، والجنوب منها بخاصة، وديان تظلّل طرقها الأشجار وتصلح للتجوال، وأنهار وقنوب ترحب ضفافها بالمتزهين. وقد ذكرنا عندما عرضنا للمتنزهات وادي الطلح في إشبيلية، وادي العقيق في قرطبة^(١)، ولم يكن أي منها موضوع وصف خاص. وهناك واد نال شهرة عريضة عند أدباء الغرب الإسلامي على نحو ما كان عليه شعب بوان^(٢) عند المشارقة، وهو وادي آش وحملت اسمه بالإسبانية قرية Guadix.

كم ألهم هذا الوادي من شعراء وشاعرات!

وحفظت لنا كتب الأدب أجل وصف قيل فيه، يراء بعضهم للشاعرة حمدة بنت زياد، المؤدب، ويراه آخرون للشاعرة الغرناطية مهجة بنت عبد الرزاق:

أباح الدمع أسرارى بـوادي	له للحسن آثار بـوادي
فمن نهر يطوف بكل روض	ومن روض يرف بكل وادي
ومن بين الظياء مهة إنسر	لها لي وقد ملكت فوادي
لها لحظ ترقده لأمر	وذاك الأمر يمنع رقادي
إذا سدت ذوائها عليها	رأيت البدر في جنب السادي
كان الصبح مات له شقيق	فمن حزن تسرّيل بالسواد ^(٣)

وتقول فيه أيضا حمدة:

وقبنا لفحة الرمضاء واد	سقاء مضاعف الغيث العمير
حللنا دوحه فحنا علينا	حنو المروضات على الفطيم
وأرضقنا على ظمإ زلالاً	ألد من المدامة لتديم
يصد الشمس أنى وجهتنا	فيحببها وأذن للنسيم

(١) من المناسب أن نضيف إليها وادي الزخون في ضواحي سرقسطة، ونجد له وصفا ثريا في الذخيرة ٢٨٢/٣، وعنها في نفع ٥٣٤/١.

(٢) عن هذا الوادي، ويقع في غرب فارس، انظر: ياقوت، معجم البلدان ٧٥١-٧٥٤، والمثنبي، الديوان، طبعة البرقوقى ٤٨١-٤٩١، والأنبوت من الوافر. ويرى بهى مينار، المعجم الجغرافى والتاريخى والأدبى لفارس وما يتأخها ١١٢، وكارادى فو، مفكرو الإسلام ١٨/٢، وبلاشير، المثنبي، مختارات بمناسبة عيد الألفية ٦٢.

(٣) من الوافر، نفع ٢٨٨/٤.

● قلت: الدادى في البيت قبل الأخير، ثلاث ليال من آخر الشهر (المترجم).

يَرُوعُ حِصَامُ حَسَالِيَةِ الْعَذَارَى قَتْلَمُسُ جَانِبِ الْعَقْدِ النُّظِيمِ^(٤)
 إِنهَا آيَاتٌ تَعْمِقُ بَحْثَانِ حَزِينٍ يَلْفَهُ حُبٌ عَارِمٌ لِلطَّبِيعَةِ، وَكَافِيَةٌ وَحْدَهَا لِتَرْبِيرِ الشَّهْرَةِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي
 يَتَمَتَّعُ بِهَا وَادَى آشٍ مَهِيظًا لِلشُّعْرَاءِ الْمُتَازِينَ.



كما رأينا، كانت المناظر الريفية الجميلة، ومشاهد الأعياد في القرى، والأماكن المنعشة من أنهار
 ووديان ظلييلة، أشد ما يجذب انتباه شعراء الأندلس، ولم تكن الجبال تتمتع بأية جاذبية فيما يرون، وتبدو
 لهم لا أهمية لها، ولا تثير فيهم غير مشاعر الرعب، فإذا تحدثوا عنها لم يروها إلا من بعيد، وعندما
 يلتقطون من حجمه المستقر على الأرض في قوة واقتدار بعض الصور البلاغية من تشبيه واستعارة،
 يكونون قد أوقوا على الغاية، واستنفدوا كل ما يمكن أن يوجه إليهم من شعر. وهناك من يظن أن
 البلاد الإسلامية لم يكن بها سوى السهول والوديان، ومع ذلك تقدم إسبانيا الإسلامية للمشاهد في الثغر
 الأعلى قمما ثلجية تعلو جبال البرانس، ومثلها كان يعلو رؤوس جبل شلير قريبا من غرناطة في
 الأندلس، ورسم لنا أحد الشعراء صورة دقيقة للرعب الذي تثيره سلاسل الجبال العالية في نفوس
 المسافرين الذين يسلكون الطرق تحت أقدامها، وكان هذا الشاعر هو ابن خفاجة الذي ترك لنا
 الأبيات الجميلة التالية:

يُطَاوِلُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِغَارِبٍ
 وَيَزْحَمُ لَيْلًا شُهْبَةً بِالنَّكَابِ
 طَوَالَ اللَّيَالِي مُطَرِّقٌ فِي الْعَرَابِ
 لَهَا مِنْ وَمِضِ الْبَرْقِ حُرٌّ ذَوَائِبِ
 فَحَدَّثَنِي لَيْلُ السُّرَى بِالْعَجَائِبِ
 وَمَوْطِنُ أَوَاهٍ تَبْتَلِ تَائِبِ
 وَقَالَ بَظُلِّي مِنْ مَطَى وَرَاكِبِ
 وَزَاخَمَ مِنْ خَضِرِ الْبَحَارِ جَوَائِبِ
 وَبَانَتْ تَرَاوِي مِنْ عَيُونِ كَوَاكِبِ
 وَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النُّوَى وَالنَّوَائِبِ
 وَلَا نَوْحٌ وَوَقَى غَيْرُ صَرْخَةٍ نَادِبِ

وَأَزْعَنَ طَمَاحُ النُّوَابِغِ بِأَذْخِ
 يَسُدُّ مَهَبَ الرِّيحِ عَنْ كُلِّ وَجْهَةٍ
 وَقَوَّرَ عَلَى ظَهْرِ الْفَلَاحِ كَنَاهِ
 يَلُوثُ عَلَيْهِ الْغَيْمُ سَوْدَ عَمَامِ
 أَصْغَتْ إِلَيْهِ وَهَوَّ أَخْرَسُ صَامِتِ
 وَقَالَ لَا كَمْ كُنْتُ مَلْجَأَ فَاتِكِ
 وَكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدْنَجٍ وَمَوْوَبِ
 وَلَا ظَمَ مِنْ نَكْبِ الرِّيَّاحِ مَعَاطِفِ
 وَكَمْ سَفَرْتُ لِي مِنْ شَمُوسٍ وَأَقْبَرِ
 هَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوْتَهُمْ يَدُ الرَّدَى
 فَمَا خَفَقَ أَبْكَى غَيْرُ رَجْفَةٍ أَضْعَفِ

يَمُدُّ إِلَى نَعْمَاكَ وَاحَةً رَاغِبِ
 يَتَرَجَّعُ عَنْهُ لِسَانُ التَّجَارِبِ
 وَكَانَ عَلَى لَيْلِ السُّرَى خَيْرُ صَاحِبِ^(٥)

فَرَحَاكَ يَا مَوْلَايَ دَعْوَةً ضَارِعِ
 فَتَأْسَعُفُ مِنْ وَعْظِهِ كُلُّ غَيْرَةٍ
 فَسَلِّ بِمَا أَبْكَى وَسَرَى بِمَا شَجَا

(٤) من الوافر: ٢٨٨/٤. وهذه الأبيات هي التي نسبها الشاعر المشرقي للغازي لنفسه، ليرفع من قدر مواهبه عند المعري.
 انظر فيها سبق ص ٤٧ من هذا الكتاب.

(٥) من الطويل، الديوان، والذخيرة ٥٨٧/٢، ولنويري: نهاية الأرب ٢١٧/١.

إن تشخيص الجبل متعظماً خالداً بأسى لبؤس البشر الذين يمرون بسفحه تعبير مؤثر وجديد في الوقت نفسه، والبيت السادس الذي يذكر فيه أن الجبل مأوى الخارجين على القانون، وموطن المهموم الذي زهد في الحياة، ورجع إلى الله، يوضع لنا بطريقة أفضل من أكثر الأبحاث طولا الدور الاجتماعي الذي يلعبه الجبل. ولم يقن نادراً أن يحتوى قاطع طريق بأحراش جبل شلير هرباً من العدالة في نهاية القرن الحادى عشر ولقد سحبت الفرصة لابن خفاجة نفسه كي يتحقق من خطر الطرق، فقد كان يوماً راحلاً رُققة عب الجليل بن وهب، فهاجمها قطاع الطرق، وقضوا على صاحبه، ونجا هو بمعجزة^(٦).

ويؤكد لنا هذا البيت أيضاً أن السك والزاهدين في القرن الحادى عشر وبداية القرن الذى يليه تأثروا بالأفكار الصوفية التى كانت قد وفدت منذ مدة قليلة، فزهدوا في الحياة الدنيا، وأحبوا عيش التأمل^(٧).

(٦) الذخيرة ٦٤٨/٣، ونقح ٣/٣١٨، ابن دحية الطرب ١٢٢.

● قلت: في الأصل الذخيرة القسم الحق، وأراه خطأ مطبعياً. (المترجم).

(٧) في القرن الثامن الهجرى = الرابع عشر الميلادى تحدث تدهر إسماعيل مسلم آخر عن الجبل، وهو ابن الحاج البلغيفى، ولكن لينتقد المبالين في الزهد وقد لا ذوا به انتظر: ابن الخطيب، الإحاطة ١١٧/٢، طبعة القاهرة.

○ الفصل الثالث:

الحداائق والبساتين

إذا كان أهل الأندلس يرون الجبل معدنياً وغير إنسانى فإن أحب ألوان الجمال إليهم ما صنعت به الإنسان، وتصوير الحداائق من أكثر الموضوعات الشعرية دورانا، فى الغالب، بين كل ما كتب الأدباء المسلمون فى إسبانيا.

وكان الفن الأدبى الذى حمل اسم الروضيات، نسبة إلى الروضة، يمثل وحده مادة مستقلة فى أكثر من كتاب، ويظنون أن الأندلس، وإسبانيا كلها، حديقة بديقة، واسعة الأرجاء، تتوزعها الزهور وتتناثر فيها الأشجار، وتتقاسمها الألوان الزاهية، والأوراق النضرة، وسوف نلاحظ أن موضوع الحداائق مرتبط بالربيع، والأمطار فى أول موسمها، تدفع بالخصب، وتعلن نهاية الشتاء، وتبشر بمقدم الصيف، ويتضح لنا من بعض الأمثلة المحددة التى سنأتى بها أن شعراء الأندلس كانوا يكررون أنفسهم، ولا يستحقون أن يذكروا فى هذا الجانب فى عدد الأصلاء أو المجددين، فقد سبقهم الشرق فى تناول هذا النوع، ونجده عند معظم شعراء العصر العباسى، من القرن الثامن حتى العاشر، وبخاصة البحترى وابن المعتز والصنوبرى، والذين سبقوا ملوك الطوائف بقليل أو عاصروهم، مثل الشريف الرضى ومهيار الديلمى^(١).

كان شعراء الأندلس فى حاجة إلى كثير من البراعة لكى ينشدوا أشعاراً جديدة فى هذا الجانب، ولم تكن الأفكار غايتهم فى هذا ولا طريقهم إليه، وإنما اختاروا الألفاظ الأكثر تعبيراً، والكتابات الأشد حيوية، ولقبوا بعضهم كائن خفاجة بالجفن، ولا يعنى أن هؤلاء وحدهم يستحقون هذا اللقب، وكل ما هنا لك أنهم أكثر فناً من غيرهم، وهم يحثون عن المستحدث من الكتابات. والحق أن شعراء نهاية القرن العاشر وبداية تاليه لم يكونوا أدنى منهم فى شيء، وإن كان حظهم من الحديث عنهم قليلاً، ربما لأن أشعارهم كانت أقل ذبوعاً وانتشاراً، فقد ضاعت دواوين شعرهم أثناء الفتن والاضطرابات التى حدثت فى مطلع القرن الحادى عشر ونهايته، والحروب المتصلة التى ميزت هذين العصرين.



يقول فضل بن الأعلم وتترّه يوماً بحديقة من الحداائق الخضرة قد أطرد نهرها، وتوقد زهرها، والريح يسقطه فينظم بلبّة الماء، ويتسم به فتخاله كصفحة خضرة السماء؛

انظر إلى الأزهار كيف تطلعت بساوة الروض المَجُودِ يَجُوما
وتساقطت فكأن مسترقاً دنا للسمع فانقضت عليه وجوما

(١) يكفى أن نقول أنه بطريقة غير مباشرة صاحب إلغام فارسى.

وإلى سيل الماء قد رقت به
ترمي الرياح لها نثيراً زهره
صنع الرياح من الحباب رقوماً
فتمده في شاطئيه رقيماً^(٢)

ويصف أبو عامر بن مسلمة خيمة «والربيع قد نشر ردهاء، ونثر على معاطف التصون ثداء» فيقول:

وخيلة رقت الزمان أديها
رشت قبل الصبح ريق غمامة
وطردت في أكنافها ملك الصبا
وأدرت فيها، للهو حق مداره
بفضض ومقسم ومسوب
رشت المحب مراشف المحبوب
وقعدت واستوزرت كل أديب
مع كل وضاح الجبين حسيب^(٣)

ويثير تنوع ألوان الزهور وأريجها الشاعر أبا القاسم البلخي:

انظر ونزه ناظريك روضة
لنريك من صنعاء صنعة وشيا
ألوانها شتى وطيب نسيما
غناء مازالت تروح وتطر
بطارف من تستر لائستر
يقضى العبير به ونسى العنبر^(٤)

وإليك أشعاراً أخرى تصف الحائق دون أن تشير إلى دور الأمطار المفيدة، يقول أبو محمد عبد الله بن السماك:

الروض مخضر الرئي متجمل
فكانا بسطت هناك شوارها^(٥)
وكأنما فتقت هناك توافج
والطير تسجع في الغصون كأنما
والماء مطرد يسيل خبابه
بهجات حسن أكلت فكانها
لناظرين بأجل الألوان
خود زهت بقلائد اسعيان
من مسكة عجت بصرف البان
نقر القني حنت على العيدان
كسلاسل من فضة وجمان
حسن اليقين وبهجة إيمان^(٦)

وقد شخص أبو أيوب سليمان بن بطل

تبدت لنا الأرض مزهوة
كان أزاهرها أكنوس
كان الغصون له أذرع
وقد أعجب النور فيها الذباب
كان تعانقها في الجيوب
علينا بهجة ثوابها
حذتها أنامل غرابها
تناولها بعض أصحابها
فيهزج من فرط إعجابها
تعانق خود وتراها

(٢) من الكامل، لقطح ٣٠٥، وعنه في شرح ٣٢/٤.

(٣) من الكامل، لقطح ٢٠٦، وقد اختصنا رواية النسخ ٥٤٥/٣/٢.

(٤) من الكامل، أبو الوليد الحميري، البديع في وصف الربيع ٢٩، وصنعاء في ليل، وتستر في فارس مدينتان شهيرتان بأقمشتهما المتنازة. انظر فيما سيأتي ص ٢٨٢ من هذا الكتاب والعبير عطر مركب، ويدخل في تركيبه الزعفران بخافضة.

(٥) ابن قزمان، الديوان، القطعة رقم ٨٨، الدور ٢٢.

(٦) من الكامل، القلائد ٢٠٥.

كَأَنَّ تَرَقُّقَ أَجْفَانِهَا يُكَاهَا لِفَرْقَةِ أَحْبَابِهَا^(٧)
 واتخذ أبو الحسن على بن حفص الجزيري مادة صوره البلاغية من بعض أعضاء الجسم تشبه
 الزهور بأجل ما فيه وأغلاه:

كَمْ قَدْ يَكْرَتْ إِلَى الرِّيَاضِ وَقُضِبَهَا قَدْ ذَكَّرْتَنِي مَوْقِفَ الْمُشَاقِ
 يَا حَسَنًا وَالرِّيحُ يَلْهَفُ بَعْضَهَا بَعْضًا كَأَعْنَاقٍ إِلَى أَعْنَاقِ
 وَالرُّودُ خَدُّ وَالْأَقَاحِي مَبْسَمٌ وَغَدَا الْبَهَارُ يَتَوَبُّ عَنْ أَحْدَاقِ^(٨)

واستخدم أبو مروان بن رزين الاستعارات بكثرة في صوره:

وَرَوْضٍ كَمَاهُ الطُّلُّ وَشَيْئًا مَجْدًا فَأَضْحَى مَقِيًّا لِلنَّفُوسِ وَمُقْعِدًا
 إِذَا صَاحَتْهُ الرِّيحُ خَلَّتْ غَصُونَهُ رَوَاقِصٌ فِي خَضَرٍ مِنَ الْعَصَبِ مُيِّدًا
 إِذَا مَا انْكَأَبَ الْمَاءُ عَايَتْ خِلَتَهُ وَقَدْ كَسَرَتْهُ رَاحَةُ الرِّيحِ مَبْرِدًا
 وَإِنْ سَكَنْتَ عَنْهُ حَسِبْتَ صَفَاءَهُ حَسَامًا صَقِيلًا صَافِيًا لِمَتْنِ جَرْدًا
 وَغَثَّ بِهِ وَرَقُ الْحَمَائِمِ حَوْلَنَا غَنَاءً يُنْسِيكَ الْغَرِيضُ وَمَعْبِدًا^(٩)

ونجد عند ابن خفاجة صورا مشابهة، ولكنها أطرف وأكثر، وأقرب إلى المخاطرة:

سُقْبًا لِيَوْمٍ قَدْ أَنْخَضَتْ بِسَرِجَةٍ رُبَا تَلَاعِبَهَا الرِّيحُ قَتْلَعُ
 سَكْرَى يُغْنِيهَا الْحَمَامُ فَتَنْتَنِي طَرِبًا وَيَسْقِيهَا الْقَمَامُ فَتَشْرَبُ
 نَالَهُو فَتَرْفَعُ لِلشَّبِيحَةِ رَايَةً فِيهِ وَيَسْطَلِعُ لِلْبَهَارَةِ كَوَكَبُ
 وَالرَّوْضُ وَجْهٌ أَزْهَرُ وَالظَّلُّ فَرْ عٌ أَسْوَدُ وَالْمَاءُ ثَغَرٌ أَشْنَبُ
 فِي حَيْثُ أَطْرَبْنَا الْحَمَامُ عَتِيَّةً فَتَدَا يُغْنِيْنَا الْحَمَامُ الْمَطْرَبُ
 وَاهْتَرَّ تَطَفُّ الْغَصْنِ مِنْ طَرِبٍ بِنَا وَانْتَرَّ عَنْ ثَغْرِ الْهَلَالِ الْغَرِبُ
 فَكَأَنَّهُ وَالْحَسَنُ مَقْتَرَنَ بِهِ طَوَّقَ عَلَى بُرْدِ الْقِمَامَةِ مُذْهَبُ^(١٠)

ويقول اشاعر نفسه:

وَكَمَامَةٍ خَضِرُ الصَّبَاحِ قَنَاعُهَا عَنْ صَفْحَةٍ تَنْدَى مِنَ الْأَزْهَارِ
 فِي أَطْطَحٍ رَضَعَتْ ثَغُورَ أَقَاجِيهِ أَخْلَافَ كُلِّ غَمَامَةٍ مَدَارِ
 تَثَرَّتْ بِحَجَرِ الرُّوْضِ فِيهِ يَدُ انْصِبَا دَرَزَ النَّدَى وَدِرَاهِمَ النُّوَارِ
 وَقَدْ ارْتَدَى غُصْنُ الثَّقَا وَتَقَلَّدَتْ حَلِيَّ الْحَبَابِ سَوَالِفَ الْأَنْهَارِ
 فَحَلَلَتْ حَيْثُ الْمَاءُ صَفْحَةً ضَاحِكِ جَذَلَ وَحَيْثُ الشُّطُّ بَدَأَ عَذَارِ
 وَالرِّيحُ تَنْفُضُ يَكْرَةً لِمَهْ الرِّبِي وَالطَّلُّ بَنْضَحِ أَوْجَةٍ الْأَشْجَارِ

(٧) من التقارب، أبو الوليد، البديع، ١٤.

(٨) من الكامل، نفع ٦٨/٤.

(٩) من الطويل، القلائد ٥٣، وعنها في نفع ٦٦٩/١، والملة ١١١/٢، وعن مزله القيان المشهورات انظر فيما بعد ص ٣٢٥

و ٣٣٦ من هـ الكتاب.

(١٠) من الكامل، الديوان، القطعة ٢٩٩، ص ٢٨٩، والنخبة ٥٦٩/٣.

مُتَقَسِّمِ الْأَلْعَاطِ بَيْنَ حَسَّاسٍ
وَأَرَاكِ^(١١) سَجَّعَ الْهَدِيلُ بِفِرْعَاهَا
هَزَّتْ لَهُ أَعْطَافَهَا وَلَرَّبَّمَا

مِنْ رِدْفِ رَابِيَةٍ وَخَضِرِ قَرَارٍ
وَالصَّبْحِ يَسْفِرُ عَنْ جَبِينِ نَهَارٍ
خَلَعَتْ عَلَيْهِ مُلَامَةً النُّوَارِ^(١٢)

ونراه في أبيات أخرى له، يمزج بين العَدِّ المباشر والذكريات التقليدية:

وَأَرَاكِ ضَرَبْتَ سِمَاءَ فَوْقَنَا
حَقَّقْتَ بِدَوْحَتِهَا مَجْرَةً جَدُولٍ
فَكُنَّا بِهَا وَكَأَنَّ جَدُولَ مَائِهَا
زَفُّ الزَّجَاجِ بِهَا عُرُوسُ مُدَامَةٍ
فِي رِوضَةٍ جَنَحَ الدُّجَى ظِلًّا بِهَا
غَنَاءٌ يَنْشُرُ وَشِيءَ الْبِرْزَاقِ لِي
نَأْمَ الْغُبَارُ بِهَا وَقَدْ نَضَجَ النَّدَى
وَالْمَاءُ فِي جَلِي الْحَبَابِ مُقْلَدٌ

تَنَدَّى وَأَنْفَلَكَ الْكُؤُوسُ تُدَارُ
نَثَرَتْ عَلَيْهِ نَجْمُومَهَا الْأَزْهَارُ
حَسَنَاءُ شُدَّ بِخَصَرِهَا زُنَارُ
تُحِيلِي وَنُوَارُ الْغُصُونِ نَشَارُ
وَتَجَسَّمَتْ نُورًا بِهَا لِأَنْوَارٍ
فِيهَا وَفَتَقَتْ مَسَكُهُ الْعُطَارُ
وَجَاءَ الثَّرَى وَاسْتَيْقَظَ لِنُوَارٍ
زَرَّتْ عَلَيْهِ جَبُوبُهَا الْأَشْجَارُ^(١٣)

وأخيراً نورد له هذه الأبيات:

حُبُّ الْمُدَامَةِ فَالْتَّسِيمُ عَلِيلُ
وَالنُّورُ طَرْفٌ قَدْ تَنَبَّهَ دَامِعُ
وَقَدْ انْتَشَى عَطْفُ الْأَرَاكِ فَاتَقَى
وَتَطَلَّعَتْ مِنْ بَرْقِيَّةٍ وَعِمَامَةٍ
حَتَّى تَهَادَى كُلُّ خَوْطَةٍ آتِكَةٍ
فَالْبَرُوضُ مَهْتَزُّ الْمَعَاطِفِ نَعْمَةً
رِيَانُ فَضْضِهِ النَّدَى ثُمَّ انْجَلَى

وَالظَّلُّ خَفَاقُ الرِّوَاقيِ غَلِيلُ
وَالْمَاءُ مَبْتَسِمٌ يَسْرُوقُ صَقِيلُ
سُكْرًا وَرَجِمَ فِي الْغُصُونِ هَدِيلُ
فِي كُلِّ أَتَقٍ رَابِيَةٌ وَرَعِيلُ
رِيًّا وَغَضَّتْ تَلْعَةً وَمَسِيلُ
نَشْرَانٌ تَعَطَفَهُ الصَّبَا فِيمِيلُ
عَنْهُ فَذَهَبَ صَفْحَتَيْهِ أَصِيلُ^(١٤)

كما رأينا. كان ابن خفاجة يُلقَّبُ بِالْجَنَانِ^(١٥). فقد وقف حياته على وصف أشجار الحدائق، وكان أشد ما يشيره من بينها منظر الأوراق الخضراء تتطاير في الهواء، وتتأثر ظلالاتها على الأرض، على حين يعتبر الزهور عنصراً مساعداً لتكملة اللوحة، فهو شاعر ريفي يرى الشجرة قبل أي شيء آخر، ودون أن يفرق بين هذه وتلك بصورة واضحة.

ولا تختلف نظرة بقية شعراء الأندلس عنه، فهم لا يقدمون لنا وصفاً محدداً، ولا تستشف منهم بوضوح أحواض الزهور أو أروقة الحدائق، وأبياتهم تذكرنا بجنة العريف حيث تأخذ الحديقة شكل

(١١) هذا الاسم ليس من الضروري أن يحى الشجرة التي تحمل الاسم نفسه في الجزيرة العربية، وعبتا حاولنا أن نصل إلى حقيقتها.

(١٢) من الكامل، الديوان، القطعة ٢٣٠ م ص ٣٦، والنخبة ٥٦٨/٢، ونفع ٦٨٢/١ و ٢٠١/٣ (ولي هذا الأخير البيت السامع فقط).

(١٣) من الكامل، الديوان، القطعة ٢٢٩ م ص ٣٥١، والنخبة ٥٩٦/٣.

(١٤) من الكامل، الديوان، القطعة ٢٩٦ م ص ٢٥٤، والنخبة ٦١٠/٣، ونفع ٢٠١/٣.

(١٥) الديوان ٩، طبعة القاهرة ١٢٨٦ هـ، وص ١٤٢ لها سبق من هذا الكتاب.

روضة حقاً، فقد احتفظوا فيها بالمساحات الواسعة، تغطيها الأشجار الضخمة عالية الظليلة، وتجري تحت أقدامها المياه موشوشة حلوة، وتغمر أحاسيسنا النظارة المنبعثة من تلك الحدائق، تخرج فيها زقزقة المصافير بأريج الزهور.



وكانت انزهور، إلى جانب الحدائق من الموضوعات المفضلة لدى شعراء الأندلس، وانتشرت «النوريات» مثل «الروضات» قائماً، وإذا م يكن الغرب الإسلامي قد أبدع شيئاً في هذا المجال فقد تميز على الأقل بتعبيرات أكثر جدية، وأقرب إلى ماهر طبيعي، فيما يتعلق بزخرفة الحدائق. ومن الحق أننا نجد في إسبانيا في القرن التاسع الميلادي شعراء وصفوا الزهور مثل ابن عبد ربّه وصاعد البغدادي^(١٦٦) وأبي بكر بن القوطية، غير أن أبياتهم، فيما نشعر، تغلب فيها البلاغة على المشاهد الحقيقية، والنظائر على الإعجاب الصادق.

كان تذوق جمال الطبيعة صفة عامة في القرن الحادي عشر عند كل طبقات المجتمع، وأدى انعدام مركزية السلطة، وما ترتب عليه من قيام إمارات عديدة في كل واحدة منها أمير مستقل، أو شبه مستقل، وله بلاطة الخاص، إلى إسراع كل من يملك ثروة إلى بناء القصور الفاخرة، وسط الحدائق الزاهرة، ولم يحدث أن كان في إسبانيا أبداً مثل هذا العدد من المنبات والحدائق والمتنزهات كما كان في القرن الحادي عشر. وأصبح من العادي أن تلتقي بالورود والأشجار في كل مكان، وأصبح من أماني كل فرد أن يملك قطعة أرض، وأن يفرسها زهوراً ورياحين! وقد عبر رجل من المربة عن حب الأندلسي بالفطرة لكل ماهر أخضر ومزهر، فقد تحسّر وهو في إسبيلية على زهور الريحان التي خلفها رواءه في داره، وأنها أحب إليه من الجنة، فهو يقول:

غرس المسبق في داري أحبّ عندي من الفردوس^(١٦٧)

أحب الأندلسي الزهور، ولكن حين نلقى نظرة على ما وصف منها في شعره نجد أنها قليلة، وبعضها يتكرر بطريقة لا فته، مثل زهرة الآس والأقحوان والينفسج والبهار والترجس وخرم والخيري الأصفر والخيري النعمان والسوسن والثيلوفر والورد والياسمين وأنواع أخرى تيجي عرضاً مثل الجنار ونور الرمان وشقائق النعمان والزبان ونور الكتان ونور اللوز والترجس القادوسي ونور الباقلاء، أو نور الجرجير، والغالية^(١٦٨).

وستعرض كيف رأى شعراء الأندلس كل زهرة من هذه الزهور، غير أننا لن نترجم هنا أبياتاً كاملة من القصائد، وإنما سنكتفي بذكر الخطوط الرئيسية، ونحتفظ لنهاية الفصل بإيراد بعض

(١٦٦) عن هذا الشاعر الذي قدم الأندلس من الشرق انظر: ر. بلاشير، طليعة الثقافة العربية للشرق في إسبانيا في القرن العاشر: صاعد البغدادي، في مجلة هيسبيريس، المجلد ١٠، عام ١٩٣٠، ص ١٥ - ٣٦.

(١٦٧) نفع ٣٨٩/٣، وانظر فيما سبق ص ١٢٧ من هذا الكتاب.

● قلت: أخذ المؤلف هنا برواية دوزي لهذا البيت، والصيغة الأوربية من نفع الطيب، والبيت يتكرر معها، والرواية الثانية، وهي الأصح لأن الوزن يستقيم معها «العروس» يعل «الفردوس»، والعروس من متنزهات إسبيلية.

(١٦٨) من المثير أن أندلسي القرن الحادي عشر لم يصفوا من الزهور القرنفل ولا الحبق، ولا الزهر ولا الياسين ولا المردقوش ولا الدفل، وكلها من زهور حوض البحر الأبيض المتوسط الشائعة.

المقطوعات الممتازة والمعبرة كاملة، ورى أنه ليس من الضروري أن نذكر مع كل وصف اسم شاعره، ويكفى أن نذكر هنا أننا اعتمدنا على كتاب «البدیع فی وصف الربیع» لأبي الوليد احمیری، المتوفى عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م، وسبق أن أشرنا إليه.

● زهرة الآس:

اسم الآس هو المتداول، وتسمى أحياناً «الريحان»^(١٩)، وهذا الاسم الأخير هو الذي دخل اللغة الإسبانية في صورة Arayan، وما جذب الشعراء إليها ألوانها المختلفة الأنواع، وأريجها العبق الرائحة، وتنسبه ساقها الزهرة التي تبرز في كل الفصول، وخلفها الصغيرة تشبه لمة الشعر أو غداثه المتداخلة المتربة الشعثاء، وخضرة البات الداكنة أوحى إلى الشعراء بصفات وتشبيهات تسيطر عليها فكرة السواد، وبخاصة أن الأوراق بها تجاعيد كثيرة، مثل زنجي مجعد الشعر أو موج.

والنمرة بيضاء أولاً ثم سوداء عندما تنضج، تخالطها نقاط سوداء بين المرحلتين، يراها الشاعر سبجاً أو سندساً زاهي اللون، وتذكرنا الثمار بالأزوار بيضاء أو سوداء تبعاً لدرجة نضجها، والوزن تقطى زهرة الآس بحلة خضراء لها أزوار من المسك الأسود والكافور الأبيض.

ولكنهم لم يحدوا العطر بوضوح، والنفاذ المنبعث منه يوحى بالهدوء وراحة النفس، مما يجعلنا نظن بأنه قطعة من الجنة، ويستخدم الشعراء الأندلسي عادة لتسمية الأزهار التي تتلألأ أوراقها كالأنوار تلمع في ظلمة الليل الداكنة، أو مثل النجوم تسطع في سماء شهباء الأديم، كلمة «نور» لقي تلتقى في صوتياتها مع كلمة «نور» تلاعباً بالألفاظ، وتلتقى أحياناً بكلمة دامتته الفارسية مختصرة إلى رامة^(٢٠).

● زهرة الأقحوان:

تعني كلمة أقحوان في الغرب الإسلامي الأقحوان الأبيض، ويجذب الشعراء إليها تقابل ألوانها بين أصفر وأبيض أحدهما يتوسط الآخر، وهذا ما حاولوا أن يصوره في تشبيهاتهم.

فالأقحوان كأس من الفضة يعطى قاعها الذهب النضار، أو كوكب من الذهب سقط في مها أبيض، أوجام من المها تحلف فيها تبيد مذهب، وراها شعراء آخرون نقر من التبر في مداهن من الفضة، أو مداهن من الفضة في مه صُتعت بفن ومُلئت بالزعفران، أو هي در أبيض امتلأ عسجداً، أو لؤلؤ مرصوص حول فصوص من الياقوت الأصفر.

وأحياناً يوحى الشكل المدور لكتلة صفراء تتكون من جمع من الزهور الصفراء الصغيرة، وسط أوراق بيضاء، بصورة بلاغية، تشبه فيها بالعيون المشدودة، أو بعيون تذرف دموعاً بيضاء، ولو أنها توحى عدة بالأقواء المبتسمة، أو كما قال أحد الشعراء بقم أسنانه الأوراق ولتته الكتلة الصفراء، وهي تشبيهات تتضمن دائماً فكرة الضحك والمرح. وقطرات الطل وراء هذه السمة الضاحكة، فهي تروى

(١٩) انظر مثلاً ص ٥٥ فيما سبق، رص ١٧٠ فيما ساقى من هذا الكتاب.

(٢٠) عن هذه الكلمة انظر: درزي، تصويبات ٨٦ - ٦٧ وإحالات الأغاني المذكورة هناك، والخفاجي، شفاء الغليل، طبعة القاهرة، ص ٩٤ حيث يذكر بيتاً من الشعر لأبي نواس، يعتمد على الصولي، والفيروز أبادي، القاموس ٣٧٥/٢، مادة رمش، وابن زيد، اللبواب ص ١١٩، طبعة القاهرة وتعليق الناشرين، والحلة.

تويجها بدموع الفرح، لأن مياه السماء تهب دانا الحياة وتجلب السعادة: «ثغرها يتسم عند ما تبيكي السماء، وتزرف الدمع غزيراً».

ومن النادر أن تقع على تشبيه بالأقمشة أو الملابس: «إنها برود بيضاء، وشتها عيون الندى الغزير بالتبر». وفيها يبدو لم يجذب عطر الأفحوان لشعراء، وهو أمر طبيعي، لأن شذاه ضعيف أو غير مستحب.

باختصار، لم ير أهل الأندلس في هذه الزهور إلا الأفواه الضاحكة والجواهر الثمينة.

● البنفسج:

كانت زهرة البنفسج من بين ما عشق العامريون منذ المنصور بن أبي عامر حتى آخر مثل لهذه العائلة الكبيرة في القرن الحادى عشر، وازينت حدائق العامريين القريبة جداً من قرطبة بالبنفسج والترجس والسوسن والورود، وعرفنا هذه الزهور في عهد أكبر وزراء بنى أمية من خلال قصائد صاعد البغدادي، وأبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري.

وفي القرن الحادى عشر انتشرت هذه الزهور في كل مكان، ويصفها الشعراء مستقلة أو في حدائق، ولم يحاولوا أن يكتبوا موضوعات متنوعة عن الكبريت يشتعل، فيضفى على الأوراق لونا أحمر مائلا إلى الزرقة، لأن هذا الباب أغلق نهائيا فيما يبدو منذ أن تناوله أبو العتاهية المتوفى عام ٢١٠ هـ = ٨٢٥ م، وأبو المعز، المتوفى ٢٩٦ هـ = ٩٠٨ م^(٢١)، فبحثوا عن شيء آخر، ووجدوا العوض في تشبيهها بأنار عضة على خد المحبوب، أو في صدره، وتحمروا في وصف اللون الذى يميز هذه الزهرة، وكلماتهم في وصفها تذكرنا باللون الأزرق والفيروداج كقطعة من السماء، والأحمر والأصفر مثل الياقوت، والأسود كالمسك، والأحمر الداكن مثل الفرساد، أى التوت، واللّص الأخرى، مما يسمح لنا أن نعتقد أن هذا الوصف ينطبق على زهرة الثالوث وليس على البنفسج.

وأجمل الصور تشبيهاً أجنحة الفراشة مصبوغة بلون توت البستان، ونقل عنها في الجمال وصفها بخضر الحمام المطوق. والأوراق الخضراء تمتد كسباط تقودنا إلى كلمة زمرد أو الدبجة، وتصبح الزهرة بتجميع هذه الأفكار جوهرة تصلح لتزيين قرط أو سوار كبير، ويسمونه الدُمْلُج، أما العطر فنادر ما يتعرضون له.

● البهار:

يتحدث الشعراء عن البهار، وهو تحريف للكلمة القديمة عيهر، ويقصدون بذلك الترجس الأصفر، أو جانباً منه وهو المصفر، تمييزاً له عن الأصفر العادى^(٢٢)، أو الترجس القادوسى، والذي لا يوجد إلا في إسبانيا، ويتضح التباين جلياً بين البهار، وهو ترجس الشعراء، وبين الترجس الأصفر، في مقطوعات الشعر التى جمعها أبو الوليد الحميرى في كتابه «الديع في وصف الربيع».

(٢١) ابن المعز، الديوان ٣٠٤، ومجموعة النظم واشتر ٧٦، والشرشى، شرح مقامات الحريرى ٥٤٨/٢. وحزرة فتح الله، المواهب الفتحة ٢٤٠/١، والفزولى، مطالع الورود ١٠٢/١ (وفيه منسوبة إلى مجهول).

(٢٢) الشرشى، شرح مقامات الحريرى ٣٢/١ أوضح ضارباً الأمثلة أن الترجس عند الشرقيين هو البهار عند الأندلسيين، والعكس صحيح.

وقد حاول شعراء الأندلس فيه يتعلق بترجس الشعراء وصف ثلاثة ألوان منه: لون الساق والأوراق وهو أخضر، والجزء الأوسط من الزهرة نفسها وهو أصفر، وأوراق الزهرة وهي بيضاء. ويقول الشاعر: «الترجس غصن من الزمرد، به أوراق من الفضة، زهرتها من الذهب النضار». أو «البهار ياقوتة صفراء، تتزين بها أيد رقيقة بيضاء، أو ياقوتة صفراء أخفت معصمها خوفاً من الحسود في مطارف خضراء، وأيدت الفضة»، أو من شدة حياتها أخفت معصمها عن الحسود في أكماع خضراء». وهي «مدهن من التبر، في أصاح من الفضة، لأذرع من زبرجد». وهذا الشاعر، كما ترى، يفرط في تشبيه أوراق الزهرة بالدر الأبيض، وقلبها بالياقوت، وساقها بالزبرجد، ويقول آخر: «إنها سبائك من الفضة وضمت فيها كؤوس من الذهب الإبريز»، وقد يراها إنساناً حياً، و«كأن الأرض خمار تظهر منه أيدى الكواعب الحسن القوية تمسك بكؤوس بيضاء تمتلئ بالنبيذ الذهبي». أو «أيد من الكافور الأبيض تشير إلى الربيع بكأس من الذهب» أو «جذوة نار وسط ماء متجمد في روائه الأبيض الناصع»، أو «درة بيضاء وضع في وسطها ياقوت أصفر فاقع»، أو «زمرد أغصانه كزهور اللؤلؤ، تتزين بياقوتة لونها أصفر فاقع كالذهب يسيل على اللجين». ويحدد أحد الشعراء أوراق الزهرة فيقول: «إنها غصن من الياقوت الأصفر، رصدت حوله ست درر»، ويصف الترجس القادوسي بأنه «مثل جيد من التبر يتحلى بطوق من الفضة».

وإلى جانب هذه التشبيهات المستمدة من الأحجار الكريمة والجواهر، والصناعات الفنية^(٢٣)، فهناك من يشبهها بالعيون.

فهى «مقلة تبت الندى شكواها من السهاد» و«عيون تسلك النوم إلى أجفانها، تقوص في محجربها، ولا تعرف للراحة في الليل طعماً»، و«عيون نظراتها متممة، ورموشها درر، ومقلتها ياقوت أصفر» وعندما تنظر إلى الترجس حول: عيون خليقة، تتمايل ثملة وناعسة. وهذه الإشارة إلى وضع الترجس المائل نادرة.

و«سحر جفون الترجس مثل مقلة العين التي يداعبها النوم»، وكما أشرنا من قبل، نادراً ما نجد إشارة إلى وضع الترجس المائل، وهذه إحداها، ولكنها تبدو مريبة، «يدلى من الترجس حجاجم رقيقة.. كإنسان يدير وجهه عن متحدث لا يروقه».

وعلى النقيض، فإن تشبيه الأصفر والأبيض بالأحبة كثير، فالأبيض هو المحبوب جامد المشهور والأصفر هو المحبيب الذي يعاني من قسوة المحبوب، و«كأن الترجس بلونه الأصفر حبيب ارتدى ملايس الحداد البيضاء بسبب الراق»^(٢٤)، و«اجتمع الحبيب والمحبيب في لونه الأبيض والأصفر، وتأخذ الشفقة بالحبيين فيسرع بالإزهار في وسط الزهور».

(٢٣) وتوجد هذه الإشارة عند شاعر من القرن العاشر، هو ابن المقوطبة:

قد بحثا إليك يا خمر ناسخ
بالدناير فوق محضر الدرهم
لم يسن طبع هذه جعفر قسط ولا ضرب تلك راحة قاسم

وهي من الحفيف، انظر: أبو الوليد الحميري، البديع ١٠٢.

(٢٤) عن المدلل والمخزن في إنسانها الم ص ٢٦٦ فيما ساقى من هذا الكتاب.

وتنقى الشعراء أيضا بالترجس لأنه من ازهور التي تظهر قبل أن يغلي الشتاء مكانه للربيع. ويوصف عطر الترجس عادة، وهو نفاذ، بالمسك والزعفران.

● الترجس الأصفر:

بالإضافة إلى البهار أعطى أهل الأندلس أهمية كبرى للترجس الأصفر، وهو بالدقة أصفر ضلّا، إلا في حالات نادرة، ولا نعتقد أن من الخطأ تسميته بالترجس الأصفر. وطبيعي أن يسود اللون الأصفر هنا، وسيرد أيضا ذكر الساق الأخضر، وهو تير على أغصان من الزمرد، وقاعدته خضراء وأعلاها أصفر، ويراها الشاعر زمردا انتصب يحمل فوقه ذهباً، أو يقف على سيقان خضراء ترتدى معطفا من الحرير السندسي، أو زبرجدا فوقه ذهب نضار.

وتناول الشعراء اللون الأصفر لأنه سائد، ومن المتوقع أن نجدهم يتخذون من الحب مادة لصورهم، كما حدث في ترجس الشعراء، فالترجس الأصفر عين ذابلة، أو يدنو مرهقا، وهو ساهم النظرة كأنه يعاني من عذاب الحزن، ويغض الحظا مراضا تحفها الرموش، وتترقق فيها دموع المحب، واستيقظ لبقثع عيوننا متعبة لا ترمش، وعطره أشد نفاذاً من المسك، وتتبعث منه أجمل الروائح، وأريج نفاذ، وحين نشمه نشعر أنه مفعم بالمسك، ويستقبلك شذاه حتى قبل أن تراه.

● الترجس القادوسي:

هكذا تسميه العامة في الأندلس، تشبهاً له بالقادوس على لغتهم، وصوابه القَدَس، ولم يصفه إلا شاعر واحد هو أبو الحسن بن علي^(٢٥)

في الترجس القَدَسِي النور والقصب	حَسَنٌ يَفُوقُ بِهِ نَزِيهٌ فِي النَسَبِ
له من التبر كأس قاعه لحج	مُوسِعٌ الْعُلُوِّ قَدْ أَبْدَاهُ لِلْعَجَبِ
مَشْمٌ طَيِّبٌ إِذَا اسْتَنْشَيْتَ زَهْرَتَهُ	وَطَرَفٌ انْسَى إِذَا مَاشَتْ لِلنَّخَبِ
ومائل الجيّد من سكر النعيم به	حكى ثنى العمل المشغوف باللعب
كفادّة ثوبها من سندس طلعت	للشرب في كَفِّهَا كَأْسٌ مِنَ الذَّهَبِ
فكيف يعنى حظ النفس من طرب	من كان يلحظ هذا الحسن من كُتُبِ ^(٢٦)

● الحُرْم:

وهو السوسن الأزرق فيما يبدو، ولكن بعض الأوصاف التي تشير إلى أخاديد توجد فيه تثير الشك^(٢٧)، وهو في لون الكحل على ما يقول أبو بكر بن نصر:

وما الحُرْمُ الكَحْلُ إِلَّا كَأَنَّهُ من الحُسْنِ طرف جال في الجفن إتمده
ولونه كالغبرور الأزرق، جرى وسطه ذهب مشرق، في قول الوزير أبي عامر بن مسلمة:

(٢٥) يشير أبو الوليد المعري، في البديع ص ١١٨، إلى أن هذا النوع من الترجس لا يوجد في إسبانيا.

(٢٦) من البسيط المصدر السابق ١١٧.

(٢٧) درزي في كلمة المايم ٣٦٧/١ لم يترجم هذه الكلمة، وروى وكولون في تحفة الأحياء، باريس ١٩٣٤، المجلد ٢٤ من P. I. H. E. M. ، ١٦ ، رقم ٢٨، يذكران: «iris azul : iris أي السوسن الأزرق»، مما يؤكد ترجمتنا.

أَلَا حَبْذَا الْمَوْسَى الْأَزْرَقُ وَبَا حَبْذَا حُسْنُهُ ضَوْبِقُ
حَكِي لَوْنُهُ لَوْنُ مِرْوَجٍ جَرَى وَسَطُهُ نَهَبٌ مُشْرِقُ

وتلمع في هذه الصورة الأخيرة المدقة والسداة عضوا التأنيث والتذكير في الزهرة، وتقابل الأبيات التالية بين السوسن الأزرق والزنبق الأبيض، فقد رمى بازدرء حلة أخيه البيضاء ليرتدى حلة زرقاء، يريقها مستعار من السماء، ولو ارتدّها الطاووس هنأتها باقي الطيور كما لو كان ملكها، وهي لأنى عامر أبيض:

بَزْ ثَوْبَ الْبَهَاءِ وَاللَّاءِ زَهْرُ الرُّوضِ خُرْمُ الصَّعْرَاءِ
عَافَ ثَوْبَ الْبَيَاضِ لَبِنَ أَخِيهِ وَتَرْدَى بِحُلَّةٍ زُرْقَاءِ
لَتَرَاهُ الْعَيُونُ فِي حُلَّةٍ يَغْ حَكِي سَنَا نَوْرِهَا أَدِيمَ لِسْمَاءِ
لَوْحَاهَا الطَّاوُوسُ أَصْبَحَ لَاشْ لَكِ مَهْنًا بِمَلِكِ طَيْرِ الْهَوَاءِ

● الخيري الأصفر:

يمايز الشعراء بين الخيري الأصفر^(٢٨) والنّام دون أن يستطيعوا تحديد الفرق بينهما تماما وبدقة، وحتى فيها يتصل يعطوها، وهو لا يحق إلا ليلاً. فلنحاول أولاً أن نرى كيف رأوا الخيري الأصفر:

لقد صوّره يوسف الرمادي لصا يسبقظ الليل وينام أثناء النهار:

ونرى الْخَيْرِيَّ مُكْتَبِتًا مِثْلَ لَصٍ كَادَ أَنْ يَنبَا
فَإِذَا مَا اللَّيْلُ سَتَرَهُ أَظْهَرَ الْفَتَكَةَ وَاسْتَلَا

ولونه أصفر كالذهب النضار، ولا ما يبق به من أريج، ويرى الوزير أبو عامر بن مسleme أن الأصفر منه أرفع أنواع الخيري:

أَصْفَرُ الْخَيْرِيِّ عِنْدِي أَرْفَعُ الْخَيْرِيِّ نَدْرًا
فَهُوَ لَا يَنْعِ عَرْفًا وَهُوَ لَا يَحْمِيكَ عَطْرًا
مِثْلَ لَوْنِ الذَّهَبِ الْخَا لَصٍ لَكِنْ فَاقَ نَعْرًا

ويره أبو عمرو القسطلي أصفر قد استعار لونه من الترجس:

أَعَارَهُ التَّرْجِسُ مِنْ لَوْنِهِ تَفَضُّلاً وَازْدَادَ مِنْ عَيْبِهِ

وفيما يتعلق بأريجيه يبدو أن هناك لبساً بينه وبين النّام، فهو يخفى شذاه أثناء النار ويرسله خلال الليل، يقول أبو عامر بن مسleme:

وَالْخَيْرِيُّ فِي الْخَيْرِيِّ إِلَّا أَنَّهُ يُخْفَى النِّسِيمُ نَهَارَهُ بِالْجَلَسِ
وَيُذْبَعُ بِاللَّيْلِ فَهُوَ بَضْعُهُ وَبِصْنَعِهِ هَذَا صَدِيقُ الْجِنْدِسِ

وإنّ بيت أريجيه ليلاً لينعم به الساهرون فيما يرى أبو بكر بن نصر:

وَاعْجَبَ الْخَيْرِيُّ الرِّيدَعِي فَيَأْتِي هُوَ بَيْنَ أَنْوَارِ الرِّيَاضِ خَيَارُ

(٢٨) لفظ النّور يطلق أيضاً على الخلل الأصفر قليلاً ما يستخدمه شعراء القرن الحادي عشر.

بالليل للسمار ينتشر نشره
قباذا أضاء الصبح أخفى نشره
لينال ردغ نسيمه السمار
وتقرت من دونه الأوطار

ويرى ابن القوطية أنه يخفى شذاه مع إشراقة الصباح:

من أين للخيرى اللثمر طلاقة الـ
مستتر طول النهار بعرفه
سَمَحَ الكريم ولن يزال بهيلا
كى لا يرى لنسيمه مسؤولا
حقى إذ طرق الظلام سخا به
إذ لا يرى إلا القليل مسؤولا

ويتمتع برائحة المسك النفيس فيها يقول الفقيه أبو الحسن بن علي:

أرى أصفر الخيرى يبدى من الضى
ويكذبهُ سحرُ بأعين نوره
تباريحُ مكولم الفؤاد سقيمهِ
وقضبُ له تئدى بماء نعيمهِ
وعرف ذكى يقصر المسك دونه
ولا يبلغ الكافور طيب شميمهِ

ويراه أبو علمر بن شهيد كالطيب المهذب، يهرب من حبيته في الصباح ليتقرب إليها في المساء:

وكأنما خيرىا تحت الدجى
برجو زيارة من يحب لوعده
بين الأزهير قام كالمتطعم
كلفا فبات مراقبا لم يجمع

ويصفه أبو الوليد الحميرى بأنه كالسكرى لحدته، يترك الكأس صباحا ويشربها على عهد مساء:

هو أتهر الخيرى حسنا فاحبه
متزّه عن أن يرى مستهترا
من يمنه بتحية وسلام
إلا إذا اكتمل الورى بنام

فأما ابن القوطية فيرد تنوّقه إلى عطره ينتشر آناء الليل وأطراف النهار، وفي المساء وفي الصباح:

وأصفر نرجسى اللون غام
زها اعتلاء على النمام يجمعه
مُبرّا من صنوب النقص والذام
به اسمه فعل ذى لب وإهام
فقال: لى الفضل لى فى النهار وفى
ليل أئم وفى صبحى وإظلامى

وبعض التفاصيل النباتية أو الصيدلية المتصلة بتكوينه تستحق أن نقف عندها، فهو «كرنبى الخليقة»، ورائحته كريهة إذا تطّقت قبل تفتحه أو عندما يذبل، أو هكذا يراه ابن القوطية:

ما للكرنبى الخليقة بيتضى
زهم المشم إذا تقادم قطفه
فضّل الرئيس المتعلّ تخيلا
شيتا قليلا أو أحسن ذبولا

وعندما نقرأ كتب الأطباء، أو الحكماء إذا شئت، بحثا عن منافع التّوار نجدها غير معروفة.

● الخيرى النمام:

ويفوق الخيرى الأصفر فى جماله وأريجيه، ويقول أبو الوليد الحميرى، معلّلا صفرة الخيرى: إنها غيرة من النمام وحسد له وكآبة:

أصفر من حسد له وكآبة
لما شاء بحسبه الجسام

والشاعرُ نفسه يرى أن الخيريُّ الأصفرَ عشقُ الخيريِّ النمامِ حقاً، حتى أصبحَ الذبورُ داه، وكست
الصفرةُ لونَ زهره:

كأنما الخيريُّ مسنَهترٌ بالحَبِّ قد أنحلَّه العشقُ
صفَرُهُ تنطقُ عن حالِهِ وربُّ حالٍ دونها التَّطَقُّ

ما الصفاتُ المميزةُ للتمائمِ إذرة؟ له لونُ النحاسِ عند ابنِ القوطية:
وإنَّ لَوْنَكَ من لونِ النحاسِ وَلَوْ في في ملاحته صَرَبٌ من السامى
ويراد أبو القاسمِ بنُ شِراقٍ ينفسجى اللون:

وينفسجى اللونُ يَكْتُمُ طيمه عند الشروقِ وفي الظلامِ يَنُفُّ بِه

ويعرض له ابنُ القوطية في آيتِ أخرى، فيرى ملايسه مصبوغةً باللونِ الأحمرِ ورائحته تعبقُ
مسكاً، وأخذ حلاه من ظلمةِ آخرِ الليلِ، ويشبهُ البنفسجَ في لونه، وكأنه سرته منه:

ومضجُ الأثوابِ يسكنُ النفسَ فكأنما اشتقتُ حُلاه من الغلسِ
شُرْكُ البنفسجِ في الأديبِ فلوْنُهُ من لَوْنِهِ فكأنه منه اختلسَ

ولون شفاهه أحمر داكِنٍ كأنَّ الشمسَ قَبْلَتْه، أو هكذا يراه أبو علي إدريس بن اليماني:
مراسفُ الخيريِّ حوْ لَعَسُ كأنه قد قَبْلَتْهُ الشمسُ

وفيما يتصل بأريجِه ليس ثمة فرق بينه وبين الخيريِّ الأصفرِ، فرائحته ليست طيبة أثاء النهار، يقول
أبو مروان المرادى:

يَنُفُّ الإِظْلَامَ طيبٌ سيمِه ويغفى لدى الإِصباحِ كالنَسْرِ

وخلال النهار كله لا تقر به أنفه من يحب الروائح العطرة، أو الشمَام كما يدعوه ابنُ القوطية:
وَأَنَّهُ يَأْمُلُّعِي اسمي طول يومك لا تُدْنِي أَطْرَاحاً إلى خيشومِ شَمَامِ
وهذا العيب لا تجده في الخيريِّ الأصفرِ، لأن هذا يعبقُ أريجِه في الليل والنهار على السواء،
كما يقول أبو الحسن بن علي:

وسَيَّان طيباً ليلُهُ ونهارُهُ وليس خصوصُ الخيرِ مثلَ عموهِ

وهو يبعثُ عطره في الليل بسخه، شأنه في ذلك شأن الأديب، ليلُهُ نهارُهُ، فهو يعشق السهر، ويتام
الضحى، ويخاف الصبح كأنه رقيب عليه، وهو يخشى طلوع الرقيب، يقول أبو الوليد الحميري:

نهارٌ خيرٌكَ في ليلهِ كذالكِ الليلُ نهارُ الأديبِ

يَنُفُّ فيه وينام الضحى تصاوناً عن كل أمرٍ مغيبِ

كأنما الليلُ حبيبٌ له فهو إذا حل اكتسى كل طيبِ

كأنما الصبحُ رقيبٌ له فيرعوى عند طلوعِ الرقيبِ

وفي أبيات تنسب لعبادة بن ماء السماء يشبهه بفتية من القرن الحادى عشر يرتدى ثوب النفاق،
فيزهد نهاراً ويفتك ليلاً، وهى تحمل تقدماً اجتماعياً واضحاً:

وَكأنُ الخَيْرِيُّ فِي كَتْمِهِ الطَّيِّبُ سَبَّ فَقِيْمَةٌ مُغْرَى بِطَوْلِ رِيَاءٍ
يُظْهَرُ الزَّهْدُ بِالنَّهَارِ وَمُنَى فَاتَكَا لَيْلَهُ مَعَ الظَّرْفَاءِ^(٢٩)

وليس من السهل تحديد طبيعة الخيريّ التمام، وهو ليس الزعتر وفقاً لكل الاحتمالات وسنحاول أن ندعوه «الخيري الأزرق»^(٣٠)، وربما لا نبتعد عن الحقيقة إذا ما رأينا فيه زهرة الثالث Le Pensée.

● السوسن الأبيض^(٣١) :

ويقال له أيضاً السوسان، وتكررت في الشعر صورتان، وتردد الاسمان، بالألف وبدونه، والأبيات التي تصف السوسن الأبيض كثيرة جداً، فقد حاول الشعراء رسم لون هذه الزهرة بخاصة، وشكل التويج الأبيض، والمبسم الأصفر، وهو عضو التأنيث فيها، ونادراً ما يجيء ذكر الساق التي تحمل الزهرة في وصفهم. وهم يصفونه بأنه «عيون من الذهب، وأجفانها من اللؤلؤ، فوق غصن من الزمرد الأخضر». يقول أبو مروان عبد الملك بن سعيد المرادي:

كَأنَ جَنَى الْوَرْدِ أَحَدَقَ حَوْلِهِ جَنَى سَوْسَنِ مُسْتَطَرِفِ اللَّوْنِ أَزْهَرِ
خَدُودُ الْعَذَارَى الْمَخْجَلَاتِ تَحْتَهُ عَوَارِضُهَا مُبَيَّضَةٌ لَمْ تُضْفَرْ
وَأَعْيُنُ عِجَانٍ بِأَجْفَانِ لَوْلُؤٍ عَلَى كُلِّ فَرْعٍ كَالزَّمَرْدِ أَخْضَرِ

وهو ذهبٌ ينمو على كافور عند ابن عبد ربه:

ونرى السوسنَ المنعمَ يحكي ذهباً نابتاً على كافورٍ

وشكل التويج المقطوع يوحى بمنظر ياقة قميص بمزقة في يوم وداع، يقول أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي:

وَكأنما السوسانُ صَبٌّ مُذْنَفٌ لَعِبَتْ يَدَاهُ بِجَنِيهِ الْمَشْقُوقِ
يَوْمَ الْوَدَاعِ وَمَرَّرَتْ أَثْوَابُهُ جَزَعًا عَلَيْهِ أَيْمًا تَمْزِيقَ

وبراه أبو بكر بن هُذَيْل كُتُوساً من ابلور امتلأت تبرا:

كَأنَ جَنَى سَوْسَانِيَا فِي سَفَى الضَّمَى كَوْوُسٌ مِنَ الْبَلُورِ قَدْ حُشِيَتْ تَبْرًا

وبراه أبو الحسن بن علي بن أبي غالب كُتُوساً من فضة غير محللة بالحفر:

وَمِنْ سَوْسَنِ غَضُّ النَّبَاتِ كَأَنَّهُ كَوْوُسٌ لُجَيْنٌ لَمْ تُشْنِ بِزَيْتَالِ
إِذَا مَا بَدَأَ فِيهَا الْحَبَابُ حَسْبَتْهَا سَوَالِفُ غَمِيدٍ قَلَدَتْ بِلَالِ

(٢٩) من الخفيف، أبو الوليد الحميري، البديع ص ١١١.

(٣٠) يؤكد هذا الفهم عالم مغربي في النبات، أبو محمد القاسم بن محمد القسائي، في كتابه حقائق الأزهار، مخطوطة الرباط رقم ٧٦٠، وأيضاً سراج افطرب يتحدث عن الحلّ الأزرق والأصفر (الخيري)، ويقول إن الأول يسمى «البنفسج الليلي» لأن راحته تنتشر خلال الليل. انظر: رينر وكولين، تحفة الأحباب، ص ١٦٣ رقم ٣٧٤. ويضيف هذان المؤلفان أن الحلّ الأزرق نوع من *Malthiola annua* وأن الأصفر هو *Cheiranthus Cheiri*. ويرى جيودفري - ديموبين في كتابه سوريا، ص ٢٦ رقم ٥ أنه *Thymus serpyllum*.

(٣١) عن هذه الكلمة انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٥٩٨/٤، وكتبه المادة روسكا.

بينما يراه أحمد بن فرج الجبائي كؤوساً من الفضة بها آثار لون خمر ذهبية:

بعثتُ بشوسن تُضِرُ يَنْمُ كَجُونَةِ المَطَرِ
كأكُوسِ فضةٍ فيها بَقايا شَهْلَةِ الحُمُرِ
أو الوجناتِ منك دنتِ إلى وَجَناتِ الصَفَرِ

وقدّم لنا أبو عامر بن مسلمة صورة أكثر طرافة، فقد رآها كؤوساً من البلّور، سداسية الشكل، في داخلها ألسنة منك، وهو عضو الذكر في الزهرة، وفي الوسط ميسم اختير ملكاً، وأخذ تكل «ميم» في تقوسه، وحبره من الذهب الذائب الذي يكسبه اللون الأصفر:

كانه كؤُوسُ البلّور قد صُنعتْ سدساتِ تعالى الله مُظهِرُهُ
وبينها ألسنٌ قد طُرِفَتْ ذهباً من بينها قائمٌ بالملك نُؤثِرُهُ
كانها خَلَقَ ميمٌ في نَعْقِفِهِ مدادُهُ ذُوبٌ عَقِيانٍ يُصْفِرُهُ
وهو عند ابن القوطية مداهن من فضة مزينة بالذهب:

مُدَقَنَةٌ من فِضَّةٍ يَتَبَرَّها مُلَبَّسَةٌ

ولها بياض اللؤلؤ، ومكوّنة من ألسنة تمجد الخالق الذي أجرى الذهب في كؤوس من الفضة، فيما يرى ذو الوزانين أبو عمرو عبيد:

كانما السوسنُ الدرُّ ألسنةٌ تُجَدُّ الله مُجَرى التبرِّ في غُرْبَةٍ

ويراه أبو جعفر بن الأبار يندق في هاوون من اللؤلؤ:

يَهْرُ بِهاوونِ دُرٌّ مُشَطِّطٌ قد تَعَضَّطَ

وصوره أبو علي إدريس بن اليماني برادة من الذهب في أوراق من الفضة:

بين اصفرارٍ قاعٍ على ابيضاضٍ يَنَقِي

كانما كلاهها في راحيةٍ أو طَبَقِ

برادةٍ من ذهبٍ في وَرَقٍ من وَرَقِ

وشبهه أبو الوليد الحميري بنافورة من الفضة، في وسطها حارس لا يخفل لحظة:

وسوسنٌ يَتَهَادِي لَأَنسٍ بِالرَاحَتَيْنِ

كانما خَلَقَهُ القَدُّ خَسَةً مِنَ الحَبَنِ

أو أَمَلُ بَضَّةٍ ما تَرَكِبَتْ في يَدَيْنِ

وبينها حارسٌ لا يَنَامُ طَرَفَةً عَيْنِ

وذكرنا بياض السوسن بوجنة المعشوق وجيده في بهاضها، فهي جيد قد استقامت لعابر، وألسنة من الدر، ورقية بياض، وجيد امرأة معشوقة القدرقيقة البشرة، دقيقة الخصر، تزدان بحقود من اللآلئ، وتظهر لمحب مولع بعشق حبيبته.

وتشبه السوسن بالملابس يساعد الشاعر على تشخيص فكره، وقد رأينا قبل أن التويج المقطوع

يشبه جيب قميص تَمَزَّقَ في لحظة فراق، يقول أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي:
 وكأَنا السوسانُ صَبُّ مُذْنَفُ لعبتْ يَداهُ بجيبيه المشقوقِ
 يومَ الوداعِ ومُزَقَّتْ أَثوابُهُ جزعًا عليه أَيْما تمزيقِ
 وقد يكتسى غلائلُ صُنعت في بلادِ السوسِ^(٣٢)، هكذا يصفه ابن القوطية:
 رِدُّ كمثل دمِ الوريدِ وسُوسٍ غَضُّ بسوسٍ الغلائلِ مُكْسِرِ
 ويراه أبو بكر بن نصر يرتدى أقباء ذات أكام واسعة:

غلائلُ خيرى وأقباء سوسٍ وقمصانُ نسرٍ يروقُ توقدُ
 وأن بروده صُنعت من لجين صرف والتصقت به كأنها ملابس داخلية:

وكأَنا صِرْفُ اللجينِ برودُهُ منه شعارُ لاصقٍ وِدثارُ

وهو رفيع الجمال، مشقوق الجيوب، يرى الوجه من الذنوب، يتفرج القميص عن منكبيه مثلما تنفرج لوعة العاشق الكئيب، وطُيئت عمامته باللون الأصفر، ويقف ميسمه مستقيما مثل واعظ، ولكن بلا كلام:

مُهمي الحسنِ مشقوق الجيوب له وجهُ البرى من الذنوبِ
 تفرجُ عن مناكبه قميصُ تفرجُ لوعةَ الدنيِّ الكئيبِ
 وقد علَّتْ عمامته بوزسٍ فقام بلا خطابٍ كالخطيبِ

والمقابلة بين الأبيض والأصفر تجعلنا نفكر في المحبوب وحبيبه.

ووصف الشعراء أيضا السوسن قبل أن تفتح، له مظهر السبيكة النقية البيضاء، يقف مستقيما فوق غصن من الزمرد يلمع على خيط مثل اللؤلؤ، إنها يد تطوى أصابعها في انتظار هدية من الذهب، وهي، أيضا حق من العاج فوق غصن، في أيى الملابس، وأكثر المعاطف أناقة، وعندما تقترب لحظة النثار تنشق أوراق الزهرة لتفرج عن حلج جميلة، وهكذا تحتفظ علب الحلج جيدا بما فيها، لتخفيها من أعين الحائن النوى يباغتها، يقول أبو الحسن بن علي:

أرى صفرةَ السوسانِ فوق بياضِهِ كصفو مُدامٍ في إناءٍ مفضُضِ
 بدا مثلُ حَقِّ العاجِ في فرعِ غصنِهِ بأكرمِ ملبوسٍ وأجملِ معرضِ
 ولما دنا وقتُ النثارِ تشققتْ نواويرُهُ عن حلجِ حُسنٍ له نصي

وأخيرا يذكرون أريج السوسن عنصرا من عناصر الوصف، ويشيرون عادة إلى حبوب اللقاح الصفراء التي تلتصق بأنف الشمائم الجسور.

وليك مقطوعة مثيرة، نظمها ابن دراج القسطلي يمدح بها عبد الملك المظفر، ابن المنصور بن أبي عامر، ويشيد به بعد استيلائه على قلعة مسيحية في أوائل القرن الحادى عشر، ولكن وصفه لها، والصور

(٣٢) انظر ص ٢٨٢ المائى رقم ١١٩ فيها سياتى من هذا الكتاب.

التي تضمنتها، جاءت غامضة. ولعله يريد من الشرفات أوراق السوسن، ومن السيوف النواوير
المصفرة في أسفلها، والأمير القائم وسط السوسة:

جهز لنا في الروض غزوةً مُحَسَّبٌ^(٢٣)
واهزَّز رماحاً من تباشير المني
وانصب مجانيقاً من النسيم التي
لمعاقل من سوسن قد شيدت
شرفاتاً من فضة ومهاشها
مشرقين لأمره وقد ارتقى
كأمر لونة^(٢٥) قد تطلع إذ دنا
فلئن غنمت هناك أمثال الثمن
تحفا لشعبان جلالك وجهه
ناستوف بهجتها وطيب نسمها

● التيلوفر:

كان التيلوفر يزين البحيرات وأحواض النوافير الموجودة في بيوت الأمراء و المنيات في
الريف^(٢٧). ولم تكن أوراقه الخضراء الطافية على الماء مناط اهتمام الشعراء، وإنما كان يجذبهم إليه
زهوره البيضاء، تتوسطها نقاط سوداء، تتفتح نهاراً، وتتطوى على نفسها في المساء. وقد وصفه أبو عامر
بن مسلمة بأنه مضارب من المها:

تخاله مضارباً من المها تروقنا
ويراه ذو الوزارتين أبو عمر عباد مثل كأس من اللؤلؤ، أحكموا في وسطه فصاً من اخرز الأسود؛
كأنه جامٌ درٌّ في تالفه قد أحكموا وسطه فصاً من السَّبج.
وفي بيت آخر رآه خاتماً من فضة وفصه من لسبج:
أوخاتم من فضة وفصه من السَّبج

(٢٣) الحسب هنا لا يراد به الموظف الذي يضطلع في المدن الإسلامية الكبرى بمراقبة حركة الحياة في المدينة والحفاظ على
العادات ونظام العمل في المهنات والمهنات، وإعطاء على عش الحرفيين، ومنع الجرائم في الشئون التجارية (انظر كولين ولبقى
بروفتسال، موجز إسباني في المسبة، رسالة السقطي، المجلد ص ١ وما بعدها)، وإنما يراد بها قائد الجيش والمستول عن كل ما يتصل
بالحرب. انظر، دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج ١ مادة حسبه وكاتريير، تاريخ السلاطين الماليك ١١٤/١.
(٢٤) روطم جمع روطمة، نحن بصد كلة إسبانية قديمة totoma. وفي الإسبانية الحديثة redoma: «قارورة أو قنية من
الزجاج». ولم يستطع دوزي وإنيجلمان الوصول إليها وتحديد معناها في كتابها: معجم الألفاظ الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية
٢٢٩ - ٢٣٠. مادة Redoma. ودوزي، تكملة المعاجم العربية ١٥٨/٢. وسجلها شتيجر مرتين في صورة وضومة، انظر: إضافة إلى
الصوتيات ص ١٦٣ و ٣٥٤.

(٢٥) عن تحديد هذا المكان انظر: ليلي بروفتسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية، ط ٢ ج ٢ ص ٢٨٧ حاشي رقم ١.
(٢٦) من الكامل، البديع ١٢٣.

(٢٧) وأحياناً كانوا يستخدمون نيلوفرًا صناعياً من الفضة. وقد وضع المنصور واحداً من ضخم الحجم جداً في لبركة الكبرى في
مدينة الزاهرة. انظر نفح ٨٥/٣.

ويصفه يرسف الرمادي بأنه كأس من فضة فرش قاعة بالزمرد الأخضر:
 كأنها كؤوس فضة فرشت قيعانها بالزمرد الأخضر

وهو علية من البلور في وسطها زمرد راق، وحول هذا الزمرد السنة ستة من الفضة صنعها فنان
 بدقة، يقول أبو عامر بن مسلمة:

كأنه مخزنة من مهي في وسطها زمرد ساطع
 وحوله السنة سنة من فضة أتقنها صانع
 كل لسان أبيض ناصع والطرف منه أصفر فاقع

وعند أبي عمرو عباد أوراقه مثل كمية من لبن يتوسطها الحجر الأسود:
 وأوراقه كمية من لبن ترسّطها الحجر الأسود
 وقد أدى وجود النقطة السوداء داخل النيلوفر إلى اعتباره يمثل العين الساحرة بأفضل مما يمثلها
 الترجس والترجس الأصفر.

أثار الشعراء إنطواء أوراق زهرة النيلوفر في المساء، فهم يرونها تسمح لزوارها بأن يروا محياها في
 النهار، وتحول بينهم وبينه في الليل، كيائع العطر يقف في دكانه طالما كان النهار وبقي الضوء، فإذا جاء
 المساء أغلق حانوته، ووضع على بابه أقفالاً، هكذا يراه أبو الأصمغ بن عيد العزيز:

يُبِيعُ نهاراً لزواره مُحَيًّا يُرْغَبُ فِي وَصْلِهِ
 ويَمْنَعُ بالليل من وجهه لِيَأْخُذَ بِالْحَزْمِ فِي فَعْلِهِ
 كَبَائِعُ عَطْرِ حَانُوتِهِ ضِيَاءَ النَّهَارِ إِلَى لَيْلِهِ
 فإذا جاءه الليل أفضى به إِلَى سَدُّهِ وَإِلَى قَفْلِهِ

وعندما يقبل الليل يبدأ النيلوفر في الإغلاق، ويراه أبو جعفر بن الأهارج حيث تذرومية تضم طفلاً لها
 من الزنج:

كَأَنَّ نِيلُوفَرَ الرِّيَاضِ إِذَا مَا اللَّيْلُ أَذْجَى أَوْهَمَ أَنَّ يُدْجَى
 رُؤْيَا بَضَّةً مَنَعَةً تَضُمُ طِفْلاً لَهَا مِنَ الزَّنْجِ

بينما يصفه أبو القاسم اليلمي بأنه أحد موك الحيش، يقيم في خيمة بيضاء، ويعلق عليه الباب
 عندما يري الظلام:

وَنِيلُوفَرُ غَدَا يُجْجِلُّ الرَّاءِ فِي إِلَيْهِ نَفَاسَةً وَغَرَابَهُ
 كَمَلِكِ الْأَحْبُوشِ فِي قَبَّةٍ بَيْضاءَ يَرْنُو الدَّجَى فَيَغْلِقُ بَابَهُ

وعندما ينطوي النيلوفر على نفسه يسجن التحل داخلة عادة، فلا يستطيع الفرار، ويموت في سجنه
 الضيق، ومن هنا جاءت تسميته بقاتل النحل، يقول أبو الحسن بن علي:

أَشْبَهَ الْإِنْسَ فِي تَصَرُّفِ حَالِهِ بِهِ دَوَقَى شَهَادِهِ وَمَنَامِهِ
 وَتَوَقُّيهِ فِي الدِّيَاجِي بِإِغْلَا فِي نَوَاطِيرِهِ وَضَمِّ كِمَامِهِ

لَقَبُوهُ بِقَاتِلِ النَّحْلِ لَمَّا أَبْصَرُوا النَّحْلَ مُقْصِدًا لِسَهَامِهِ
لَمْ يَجْرِ فِي الْقِصَاصِ إِذْ ذَاكَ لَصُّ سَارِقٍ بِالنَّهَارِ شَهْدٌ خِتامه

● الورد:

من أكثر الزهور انتشاراً^(٢٨)، وكان يزرع في قرطبة بكثرة، وحملت منطقة في ضواحيها اسم «جبال الورد»^(٢٩)، ويشير الشعراء كثيراً إلى الورد المتفتح قبل أوانه في بجانة ورّيه، وكان يجري قطافه في يناير، أما المتأخر في تفتح وقطافه فكان يظهر في مهرجان ٢٤ يونية، وفيها يتصل بهذه الزهرة نحن في حاجة إلى الاعتراف بأنهم لم يظهروا كثيراً من الفن أو الخصوصية، لأنهم لم يكونوا يعرفون منها سوى نوع واحد، وهو الورد الأحمر، وانحصر وصفهم لها في لون الزهرة الأحمر، ولون «الملك» و«المياسم» الأصفر، وهي أعضاء التذكير والتأنيث فيها، وشبهوا حمرتها بالأحجار الكريمة من العقيق والياقوت الأصفر المائل إلى الحمرة، أو بالدم نفسه أو بالجمرة، ولكن التشبيه الذي يتوارد بكثرة هو تشبيهها بخند الحبيبة، الذي يحمر ارتباكاً، وليس هذا جديداً في شيء.

وأدت فكرة الارتباك والأحمرار إلى اتخاذ الملابس مادة للتصوير، فالوردة تظهر في غلائل حمراء حيث يبدو الإزار والغلائل مرصعة بالمواهر، وتظهر الأزوار من الجبوب، يقول أبو بكر بن نصر:

وَإِذَا ذَكَرْتَ الْوَرْدَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لِنُورٍ أَجْمَعٍ فِي الرِّيَاضِ مَنْارٌ
مُتَدَثِّرٌ بِغَلَائِلِ حُمْرِ الْحُلِيِّ تَنْجَابٌ دُونَ جِيُوبِهِ الْأَزْوَارُ

وعند أبي مروان بن الجزيري جاءت للوداع مسرعة، ترتدى حمراً أخضر وغلالة حمراء:
وَقَدْ أَتَاكَ لِتُودِيعٍ عَلَى عَجَلٍ خُضْرًا مَقَانِعُهُ حُمْرًا غَلَائِلُهُ
وعند أبي القاسم بن شيراز سرت وجهها بالبرقع، وتقدمت مثل حسناء حياء، تحجبت لتخفي وجهها الصبوح:

سَرَتْ وَجْهَهَا. يُرْقِعُهَا وَاسِدٌ تَقْبَلْتُنَا مِنَ الْفَتُونِ فَنُونُ
كَالْفَتَاةِ الْحَيَّةِ انْتَقَبَتْ كَثِي لَأَيْرَى وَجْهَهَا الْجَمِيلَ الْمَصُونِ

ولا ينير عطر الورد أي إحساس خاص عند لشاعر، ولا يعرض له إلا من خلال الألفاظ الغامضة لئى يستخدمها في أبياته لوصف الزهور الأخرى، ولكن تكرار كلمة «مسك» يسمح لنا بأن نعتقد أن الورد الأندلسية كانت تعكس رائحة هذا الطيب.

● الياسمين البستاني:

كان لياسمين، كما في أيامنا هذه، يظلل الخمائيل والتكبيبات وكانت القبة الخضراء تتناثر فوقها الزهور البيضاء مناط إعجاب الشعراء فأكثرها من وصفها.

(٢٨) انظر: ش. جوريه، الورد قنياً في العصر الوسيط، وقد وثقه ياسمين لهذا الكتاب في فصول أفريقية وشرقية ٢٥٣ - ٣٦١.

(٢٩) انظر: جيانجوس، الممالك الإسلامية في إسبانيا ٤٤١/٢، رقم ٦٠، وغرسة غوث، ترجمه وساه فضل الأندلس ص ١٠٦، الماشى ١٥٠، ونقح ٢١٧/٣.

فهو عند القاضي أبي عمرو عباد يأتي في صورة دراهم في مطرف أخضر:
كأنه من فوق أغصانه دراهم في مطرف أخضر
أو مداهن من فضة صافية:

وياسمين حسن المجتلى كأنه في قُضْبِه الضافية
زُمرْدٍ وَصَع ما بينه مداهن من فضة صافية
أو زمرد نُضْدَ فوق الربى بالدر:

كأنما الأغصان من تحته والورق المخضوضر المستبين
زمرْد نُضْدَ فوق الربى وهو على أعلاه در مصون
ويراه أبو الأصبح بن عبد العزيز سرير ملك عليه مشملة خضراء:

سرير ملك عليه مشملة خضراء والقطن فوقها يندف

وتصوره أبو الحسن بن علي عريشه ساء، وفوقه دروع صغيرة بيضاء منفضة ورماع صغيرة:

عريش الياسمين لهم ساء وخضرة أرضه لهم قرار
به حَجَف من التَّوَارِ بيض منفضة وأرماع صفار

وعند إدريس بن اليماني نجوم من انفضة تظهر في ساء من الزبرجد:

نجوم من الجين تجتليها ساء زبرجد خضيل نضير

والإشارة إلى عطره نادرة، ويصوره أبو عامر بن مسلمة عطرا رقيقا يلقاهم على كرسى ملكه:

وذكرى العرف لاقا نأ على كرسى ملكه
أرضه الخضراء بحر نوره فيه كفلكه

وهو فوق عرشه يشي أريج بغيره قبل أن يعرف، يقول أبو الأصبح بن عبد العزيز:

وياسمين يعرشه أشرف عرفه العرف قبل أن يعرف

● الشقائق:

وتسمى شقائق النعمان، ويقصد بها ما نسميه في أيامنا هذه الخشخاش البري^(٤٠)، وهي زهرة حمراء، لها متك أسود ويراه أبو بكر بن نصر قميصا مشربا بحمرة، أو قضباناً من الآس تعلوها النيران:

وشقائق النعمان قمص أشيعت في حمرة فلها يذا إثثار
وكأنها وسط البقاع وقد علت قضبان آس في ذراها نار

ويراه أيضا ترهوا بلونها العصفري:

ويزهى الشقيق العصفري بلونه إذا فاقع الحوذان جاد تولده

(٤٠) كما هو الحال في المغرب الآن، انظر رنر وكولين، تحفة الأحياء رقم ٤٤٦.

والأسرد في شقائق النعمان مثل الغوالى بُسِطت في مداهن من عقيق، هكذا وآها أبو الحسن بن علي:

وكان السواد فيها غوالٍ بُسِطت في مداهن من عقيق
أو نثير من طيب المسك محض صُب بالعنيد في كؤوس الرحيق
ويراه أبو عامر بن مسلمة كأنما من العقيق نلمح في قاعها فتبت المسك:
مثل كأس العقيق في قاع المسك يُلمتح
ويصوره أبو الوليد الحميري، وقد أزهى في الرياض، شعر حسناء يلوح خلا خمار أحمر:
إذا نورَتْ فيها الشقائق خلتها شعور العذارى لحن في الحُمر الحمر
● نور الكتان:

أو يزر الكتان، وكان الإسبان المسلمون يزرعونها ليحصلوا منه على ألياف النسيج، وليس على زهور الزينة^(٤١)، ولكن زهرته الزقاء أثارت خيال الشعراء. وقد وصفه أبو جعفر بن الأثير بأنه يخصب في كل الحقول، نجادها ويوهادها، فإذا تفتحت زهوره بدت كأنها مداهن من اللازورد:
ويزرُ كتانٍ أوفى بكل وفيد ونيد
كأنه حين يبدو مداهن اللازورد

وأما أبو الوليد الحميري فرأى أيدياً فيروزية، تختفي معاصمها في رداء أخضر، وياقوتا أزرق استلقى على بساط سندس:

كأن نور الكتان حين بدا وقد جلا حسنه جدا الأنفس
أكف فيروزج معصها قد سترتهن خضرة الملبس
أو لا فزرق الياقوت د وضعت على بساط تروق من سندس
وتمة شاعر يرحب بزهور اللازورد التي تنحنى في حقول الكتان للرياح الغربية، وعديم لمعرفة يظنها غمر من الماء فيرفع ملايسه عن سيقانه عند خوضها، كما فعلت ملكة سبأ.

● نور اللوز:

وهي شجرة الحقول الجافة، وكانت توجد، كما هو الحال اليوم، متفرقة في شتى أنحاء إسبانيا، وتوجد حكاية لطيفة توجد في كتاب «الكرندى لوكانور» لمؤلفه خوان منويل الإسباني (١٢٨٤ - ١٣٤٨)، وكتاب تحفة العروس للتييجاني، تقول إن المعتمد بن عباد هو الذي بدأ زراعة اللوز في ضواحي إشبيلية، لأن الزهور البيضاء لهذه لأشجار الجميلة تزهى مع انتهاء موسم الثلج، فحلت عند اعتماد الرميكية معبودة الأمير محل كدر الثلج التي طالما أعجبت بها في شتاء إشبيلية^(٤٢).

(٤١) ليفي يروفسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ١٧٠.

(٤٢) المظر: دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٨٧.

يصف أبو بكر بن القوطية لون أوراق هذه الزهرة بأنها بيضاء، ترتدى غلالة في لون الدفلى
نسجتها شهرا ديسمبر ويناير، كأنه قائد أورانيد أو طليعة، يتسلق أعالي الحقول، أو قائد أمام قواته.
وهي هنا ليست إلا أنواع الزهور المختلفة:

وأبيض اللون دِفْلِي غلاله عليه من نَسَجِ كائونين أبرأد
يقول مبصره سِجَانُ فاطره كيف استقلت بهذا الحسَن أفراد
يزور والنور لم تفتح كمانه ولا تَقَمَّه لِزُورِ ميعاد
كأنه رائد أو طالعُ تجداً أو قائدُ صنوفِ النورِ أجناد

● نور الرمان:

لم يعرض له الشعراء إلا قليلا، ومن بين هؤلاء القلة أجاد ابن هاني تصويره، فقد عجب لشجرة
الرمان عندما تزهر، ورأها مثل يدى امرأة جميلة، صُغت بالحناء، أو أصابع الحمام، أو حقائق فتحت
فهدت وسطها غلاتل من البرق:

وبنت أَيْكِ كالشبابِ النضرِ كأنها بين الفصونِ الحضرِ
جَنَانُ بازٍ أو جنانِ صُتْرِ قد خلقتَه لِقوةِ يُونُكرِ
كأنما جَحَّتْ دِمًا من نَجْرِ أو سَقِيتْ بجِدُولٍ من خمرِ
لِو نَبَتَتْ في تربةٍ من جمرِ لو لَفَ عنها الدهرُ صَرْفَ الدهرِ
جاءتْ بِمثلِ التَّهْدِ فوق الصدرِ تَفَرُّ عن مثلِ اللثامِ الحُمرِ

● نور الجُلنار:

واشتهرت به طليطلة، وفيها يكبر حتى يصبح في حجم الرمان^(٤٣)، وللوزير أبي عامر بن مسلمة
أبيات بديعة في وصفه، وشبهه بالورد تضاعفت أوراقه، ولونه يقرب من الحلة المصبوغة بالصُفر:

قد شَبَّهَ الوردَ في تضاعفه وقاربَ اللونَ حُلَّةَ المصفرِ
مثلَ تمارِ الرمانِ زاهرةً لكنه منظرٌ بلا محبرِ

أما أبو الوليد الحميري نراه يتباهى في غطاء من ناره ويحكي خدود العذارى عندما تفتحها
الغمزات والنظرات:

وجُلنارٌ تبديّ يحنّال في جُلِّ نارٍ^(٤٤)
أحلى حُلًى من جميع الأنوارِ والأزهارِ
حكى خدودَ العناري قد سُرِبتْ باحمرارِ
وخُستْ بأَكفِ الأخطا والأبصارِ

● نور الباقلاء:

وتسمى زهرة الجرجير أيضا، ولم تكن تزرع قطعا كنبات للزينة، ولكن زهرته البيضاء ذات النقط

(٤٣) القلشندي، صبح الأعشى (طبقا لتزويد البلدان) ٢٢٨/٥.

(٤٤) استخدم الشاعر هنا أصلا ما يختلف عن الأصل الفارسي، معتبرا أصلها عربي، مكونا من كلمتين: «جل» و «نار».

السوداء، أوحى إلى الشعراء بصور تدكرنا بما أوردناه عند حديثنا عن التيلوفر^(٤٥). فرأه أبو الوليد الحميري خالاً على خد بيضاء بضة:

وبإقلاءٍ قد أبدى بنورٍ الحسن مخضه
كأنما هو خالٌ بخدٍ بيضاء بضه

ويصفه أبو الحسن بن علي بن أبي غالب بأنه مثل أقرط من فضة طليت بذرت المسك:

ونورٌ نباتٍ الباقلاء كأنه شتوفٌ لجين ضمخت بغوالٍ

ورأه في بيت آخر خرزا في كأس من الدرة أو كسوفاً وسط بدر:

سبح في كأسٍ دُرٍّ أو كسوفٍ وسط بدرٍ

وزاد على وصفه هذا أبو الوليد الحميري بيتاً أعطانا فيه صورة أزيد، فهو ذرات من المسك في الألى بيضاء، أو ظلمات وسط فجر:

أو غوالٍ في لآلٍ أو غشاءٍ بين فخرٍ

● نور الغالية:

وتنتهى دراستنا لهذه القائمة من الزهور بالحديث عن زهرة سبأها أبو الوليد الحميري في كتابه «البدیع فی وصف الربیع»: الغالية، وليست هذه الشجرة التي وصفها أبو القاسم بن الخزرج إلا شجرة اللبلاب^(٤٦):

ورخنجي^(٤٧) سحابي^(٤٨) قوائمه
تمس قضبانها والريح يعطفها
كان أوراقه في حسن خضرتها
... سط في الأنهار منبته
وغالب النور حتى قيل غالية
فحسبه غالباً كافى مرشجه^(٤٩)

بقي أن تشير إلى أن الأوصاف التي عرضنا لها إنما تصور الانطباع العام عن الزهور ولما تزل على غصانها في الحدائق والمساتين، غير أن هناك من الشعراء من وصف الزهور بعد قطفها، وجمعها في باقة

(٤٥) نعرف عن طريق الرواية أن ابن طاهر وحكم مرسة من ١٠٦٣ م إلى ١٠٧٨ م كان مولعاً بحب النول. انظر: لمللة ١٢٠/٢، ومثله كان القاضي ابن ذكوان، وعاش حتى نهاية القرن الحادي عشر، مما جعل الورير ابن شهيد يسخر منه. انظر: المقرئ، فتح ٢٤٤/٢. وكان الشبان في ضواحي إشبيلية لا يحقرونها أيضاً. انظر: الذخيرة، ق ١ مجلد ٢ ص ٣٧١ طبعة القاهرة. (٤٦) انظر: تصفة الأحباب، طبعة رينو وكولن، وتم ٢٠٩، «جذرة: اللبلاب، وفي الناحية الغالية وهي سرورة جيداً، وإخلاء اسم لجذرة على الناحية يؤكد المعجم طبعة تشير إلى ٣٦٠، ولكن يمكن أنه يتحدث عن peruvina. (٤٧) الرختج قماش مصنوع من نيسابور، انظر: دوزي، رسالة إلى فليشر ٢٩. (٤٨) سحابي: سحابي اللون، توجد في رحلة ابن جبير، طبعة رابيت، لندن ١٩٠٧ ص ١٤٨، ووضرها الناشر بأنها: «حرير رقيق، كتان شفاف».

(٤٩) من البسيط أبو الوليد الحميري، البدیع ١٥٨، والبيت الرابع طمس منه أول الكلمة الأولى في المبدء وأول الكلمة الأخيرة في نهاية البيت.

أو مُطَيَّب^(٥٠)، وترك لنا ابن درّاج القسطليّ بعض الأمثلة في أبيات له عن الاستخدامات الغريبة لأوراق زهرة النرجس بعد قطعها، ولما يزل ذلك قائماً - ربما - عند التونسيين حتى يومنا:

بَهَارُ يَرْوِقُ بِمَسِكَ ذَكِيٍّ وَصَنَعَ بِدَيْعٍ وَخَلَقِي عَجَبٌ
غُصُونُ الزَّمَرْدِ قَدْ أَوْقَتْ لَنَا قُضَّةً نَوَّرَتْ بِالزُّهْبِ
إِذَا جُمِعَتْ فِي حِمَالِ الْحَدِيدِ رَقَامَتْ أَمَامَكَ مِثْلَ اللَّعْبِ
فَمَنْ حَقَّقَهَا أَنْ تَرَى الشَّارِبِينَ وَقَدْ نَفَقَتْ سَوْقُهُمْ بِالنَّخَبِ^(٥١)



وبالإضافة إلى التّوريات والروضيات في معناها الدقيق يوجد أدب وفير من النثر والشعر، يقوم على عرض حوار بين زهرتين، يجيء المؤلف بالكلام على لسانها، أو جدال بين كاتنين عن المفاضلة بين زهرتين يجب أن تتفوق إحداها على الأخرى^(٥٢)، ويبدو أن هذا اللون من المورد بدأ في إسبانيا إثر أبيات للشاعر المشرقي ابن الرومي، المتوفى نحو عام ٢٨٣ هـ = ٨٩٦ م، أعلن فيها تفضيله البهار على الورد^(٥٣).

وعلى النقيض يُجمع كل شعراء الأندلس، ما عدا قلة مستتاة، على تفضيل الورد، وليس ثمة شك في أن ما نراه هو تعبير عن الذوق العميق الذي يرتد إلى أصلهم الهندي أوربي أكثر منه استعراضاً للبلاغة أو تعلقاً بها.

وأول ردّ على ابن الرومي يعود إلى بداية القرن الحادي عشر، وقام به أبو حفص بن بَرْد الأصغر، وهو عبارة عن رسالة نثرية خاصة تتناثر فيها أبيات الشعر، وتوجد فصول منها في كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بَسَام، وكاملة في كتاب «البديع في وصف الربيع» لأبي الوليد الحميري^(٥٤)، وقد رأى أبو الوليد هذا أن واجبه أن يرّد على ابن بَرْد ليدافع عن البهار، أو نرجس الشعراء كما يُسمّى أيضاً، ريعن تفوقه على الورد، وكان الأندلسي الوحيد الذي شارك ابن الرومي رأيه في رسالة ضمّنها كتابه «البديع»، وجاءت فيه تالية لرسالة ابن بَرْد^(٥٥)، وتكفي هنا بالإشارة إلى هاتين

(٥٠) عن المطيب انظر: المسجب ص ٣٧٠، وترجته ٢٦٤، بمناسبة الحديث عن وصف مدينة بلنسية بأنها مطيب الأندلس، وتوجد كلمة «هافة» في بيت من الشعر لابن حمديس، يشبه فيه نجوم السماء بياقة من البهار، انظر: الديوان القطعة ٩٢ البيت ٢٢ ص ١٢٥. وانظر أيضاً ابن رشيق، الصلحة ٢٢٧/٢، حيث يذكر «بافلت الزهر»، ولعرفة المصادر الأخرى انظر: حبيب الزيات، مجلة الشرق، يولية - ديسمبر ١٩٤٩، ص ٥٢٠ - ٥٢٣.

(٥١) الحميري، البديع ١٠٠.

(٥٢) حول الموضوعات التي دار حولها الحوار في الأدب العربي انظر: الإسلام، المجلد ١٤، عام ١٩٢٥، ص ٣٩٧ - ٤٠١، ومتر، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص ٢٤٩ رقم ٣، وترجته بيلا إلى الإسبانية ص ٢٢٠ رقم ٣.

(٥٣) من الكامل، ابن الرومي، الديوان، قطع مختارة لكامل كلال ٢٨٩/٢، وقد نظم ابن الرومي مقطوعات أخرى ضد الورد من بينها مقطوعة طائية القافية لم يجرؤ أحد من أصحاب المختارات على ذكرها لأنها تتضمن تشبيها جاسيا، انظر: ابن أبي حجلة، كتاب سكران السلطان، على هامش العامل: أسرار البلاغة، تكملة كتاب المختارات، ص ١٩، وأبو القاسم الفراءاني، رفع الحجب المقصورة، وهو شرح لمقصورة حازم القرطاجني، القاهرة ١٣٤٤ هـ ١٥٥/١، والنويري، نهاية الأرب ٢٦٠/١١.

(٥٤) أبو الوليد الحميري، البديع ٥١ - ٥٨، والذخيرة ١٢٧/٢، ونقلها أحمد ضيف في بلاغة العرب في الأندلس ١٥٣ - ١٥٦، والنويري في نهاية الأرب ١٩٦/١١ - ٢٠٠.

(٥٥) أبو الوليد البسيح ٥٨، وابن بَسَام، الذخيرة ١٢٧/٢، وأحمد ضيف بلاغة العرب ١٥٢، رقم ١.

الرسالتين لأنها جاءتا تنزراً، ولكن أحجج التي ساقها طرفا المناقشة، أو على الأصح الأول منها وهو الذى احتقر الترجس، أى البهار، وبدح الورد، نجدها عند شعراء نهاية القرن العاشر وبداية الحادى عشر، ويسود أن الجدل الذى أثار الأساط الأدبية والثقافية فى عهد ملوك الطوائف خلال ما يقرب من قرن بأكمله، حُسم فى عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م، وليس عينا أن تشير هنا إلى بعض الحجج التى أوردها أهل الأندلس ردًا على آراء ابن ابرومي وبعضها يرجع للتجارب المباشرة أو التقاليد الأندلسية والبعض الآخر ليس إلا تلاعبًا بالألفاظ وغير جدير منا بأى انتباه.

البهار، أو ترجس الشعراء، جاحد، له مظهر عجوز شمساء، أما الورد فمخلوق: يُثنى على من أحسن إليه، ويبدو كعذراء بمتلثة العنق فى قميص أحمر، وليس للبهار فوائد، أما الورد فمرغوب فيه دائمًا، نضرا أو بجففا، وعندما يخفى يبقى شكلا ومذاقا فى ماء الورد، والورد يبشر بالحياة، والبهار يعلن عن الموت.

يقول البهار: اسمى يمكن قرءته «بر حبيب».

ويقول الورد: أنت مخطئ، وإنما يمكن قراءته «بيت خرب» وأنا أشبه الوجنات الحمر، أما أنت فكَمين مذهولة دائمًا، مثل عين حيوان المسعور.

ويرد البهار معترفًا بتفوق الورد: يجب أن يُقرأ اسمى «برحت بى»، أو «برح بين»^(٥٦).

وئمة موضوعات أخرى كان يدور حولها النقاش بين شعراء الأندلس، مثل موضوع البنفسج وتفضيله على الترجس والترجس الأصفر، والخيرى الأصفر على البنفسج والعكس، والترجس على الترجس الأصفر، والخيرى الأصفر على الخيرى النعام والعكس^(٥٧)، ولكنهم لا يفسحون المجال إلا للمشاهد العامة، كالتى أوردهاها بالنسبة للورد والبهار، ولذا ليس من الضروري أن نقف عندها أو ندرسها.



أعتقد أن دراسة موضوعات الزهر تبقى ناقصة إذا أغفلنا الأبيات الشعرية التى تدور حول الربيع أو الزهور ونجى مقدمة لمذح أمير أو وصف محبوب، وهذا الشعر كثير جدًا، أكثر مما تتوقع، إذ أن كثيرًا من وصف الزهور أو الحدائق التى تبو وحدة متكاملة مستقلة، كما نقلها لنا جامعو المختارات الشعرية، ليست فى الواقع إلا مقدمات لموضوعات اعتبرها البلاغيون أكثر أصالة، وإذا كان الأندلسى يميل إلى وصف الزهور لذاتها، وتعيم جنس أدبى تحمس له بعض المشاركة كالصنوبرى المتوفى ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م، فليس يستبعد أن أن يعتبر بدء المديح أو الرثاء بمقدمة طلبية تدور حول الوقوف بالديار المهجورة كما كان يفعل القدامى طريقة بالية وذوقا رديئا، ولذلك اعتبر الدخول إلى الموضوع بوصف الحدائق الجميلة التى تزينها الزهور وتنتشر عبر الأندلس ومقاطعات إسبانيا الأخرى، قانونا تلمية الطبيعة نفسها. وهنا أيضا نجد من سبقهم فى هذا، من المشاركة، مثل: اليعتري، وآخرين أكثر قربا

(٥٦) أبو الوليد، البديع ٧٠ - ٧٧، وبن الأبار، الحلة ٢٧٦/١، والمطعم ٢٠٧.

(٥٧) أبو الوليد، البديع ٧٧ - ٨٥.

منهم مثل: مهيار الديلمي والشريف الرضی، ولكن هذا الاتجاه يمثل عندهم أكثر من مجازفة أو غودج: إنه ضرورة يتطلبها مفهومهم للشعر.

واليك فيما يلي أمثلة على ما قلنا:

يقول أبو جعفر بن الأبار يمدح الحاجب أبا القاسم بن عباد:

ليس الريحُ الطلقُ بُردَ شبابه	واقترَ عن عُتْبَاهُ بعد عِتَابِهِ
ملكُ الفصولِ حبا الثرى بثرانِهِ	متبرِّجًا لو هَادِهِ وهضابِهِ
فأراك في الأنوارِ وشيَّ بُرودِهِ	وأراك بالأشجارِ خُضَرَ قِيَابِهِ
أُسيَّ بُنْجُهَا بشمسٍ أصيله	وغدا يُقْضِضُهَا بدمعِ جنابِهِ
عَقَلَ لعقولٍ فما تكيف حسنه	وثقى العيونَ جنائبا بجنابِهِ
بالحاجبِ المأمولِ أضحك ثغره	فرحًا وأنطقَ جهرًا بصوابِهِ (٥٨)

ويبدأ ابن عمار قصيدته في مدح المعتضد على النحو التالي:

أدر الدامة فالنسيم قد انهرى	والنجمُ قد صرف العنان عن السرى
والصبحُ قد أهدى لنا كافوره	لما استردَّ الليلُ منا العنبرَ
والروضُ كالحناءِ كساءَ زهره	وشيا وقلده نداءَ جوهره
أو كالغلامِ زها بورده خدوده	خجلًا وتباهَ بأسهنُ معنرِه
روضُ كأن النهرَ فيه يحصمُ	صافي أطلَّ على رداهِ أخضرِه
وتهزُّه ربيع الصبا فتخاله	سيفُ ابنِ عبادٍ ينددُ عُسكرِه (٥٩)

وإذا كانت هذه الأبيات التي ذكرناها يمكن أنه تتضمن بعض الصور التشابيهة، فليس من المألوف تجسيد الربيع ملكا. ويمكن أن نعتبر من الأصالة الطازجة تصوير المحبوبة لا تنفصل عن الربيع والزهور، وقتل في نظر الأندلسيين تجدد ذكريات الأيام الجميلة، والوردة من بينها بخاصة.

يقول ابن اللبانة يمدح مبشرا ناصر الدولة أمير الجزائر الشرقية:

راقى الربيعُ ورقَ طبعِ هوائِهِ	فانظر نضارة أرضِهِ وسمائِهِ
واجعلُ قرينَ الوردِ فيه سلافةً	يحكي مُشعشعها مُصعدَ مائِهِ
لولا ذبول الوردِ قلتُ بأنَّه	خذُ الحبيبِ عليه صبغُ حيائِهِ
مبهاتُ أين الوردُ من خدِ الذي	لا يستحيل عليك عهد وفائِهِ
الوردُ ليس صفائِهِ كصفائِهِ	والطيرُ ليس غناؤُها كغنائِهِ
يتنفسُ الإصباحُ والريحانُ من	حركاتِ معطِفِهِ وحُسنِ رِوَانِهِ (٦٠)

لقد أظهر شعراء الأندلس في نورياتهم جميع الصادق للزهور، وبعثوا مخلصين عن أدق الأوصاف

(٥٨) من الكامل أبو الوليد، الديج ٢٤.

(٥٩) من الكامل، الثلاث ٥٦، ونفع ٦٠٥/١، والبيتان الأولان في المعجب ١١٥ وترجمته ٩٨، وانظر أمثلة أخرى في ابن قزمان.

الأزجال رقم ٦٨ و ٧٩ و ١٤٨.

(٦٠) من الكامل، المعجب ١٥٤، وترجمته ١٢٢.

المتناهية له، دون أن يقعوا في التحذلق الملموس، والزهور التي وصورها تختلف تماما عن ذكرياتهم المدرسية، والتحديد الدقيق الذي أضوه على صورهم يدل على أنهم قاموا بمشاهدتها عن الطبيعة، ولم يستمدوها من ورق مرسوم، وإذا كانوا في صورهم البلاغية اتخذوا من المعادن النفيسة مادة لتشبيهاتهم، وتناثرت هذه عبر صورهم بكثرة، فإنهم أيضا لم يقصروا في تشبيهها بالكائنات الإنسانية. ومهما اختلف الأسلوب المستخدم في التعبير عن نطباعاتهم فهم يبحثون دائما عن إحياء الطبيعة وفيما يتصل بالألوان ولروائح والأشكال حاولوا أن يبعثوا فيها عن انعكاس حضارتهم المادية، التي تتمثل في كثير من مظاهر الحياة حولهم^(٦١)، ومع إسهابهم في وصف الزهور أصبحوا يملكون، في جانب منها، نوعا من المعرفة عرفه المشارقة، ولكنهم لم يتناولوه إلا بوصفه مكملا.

لقد كانت الزهور حقا، بكل ما تيره من لون وعطر موضع افتتان الأدب الأندلسي على امتداد القرن الحادى عشر.



لم يعشق الأندلسيون الحدائق والزهور التي تشبع نهمهم إلى تذوق الجمال فحسب وإنما أحبوا أيضا البساتين والأشجار بعامة، وأدركوا أهمية هذه النباتات، ويبدو ذلك جليا من الإنذار الذي وجهه الأمير حريز بن عكاشة إلى قلعة رباح إلى ألفونسو السادس الذي جاء الإقليم غازيا، ودمر كل الإنشاءات، وقطع كل الأشجار، فكتب إليه حريز: «... ليس من أخلاق القدير الفساد والتدمير، فإن قدرت على البلاد أفسدت ملكك»^(٦٢).

ويظهر احترام الأشجار هذا الفرق واضحا بين الإسبان المسلمين والعرب البدو فهو يسجل تعلّقهم بالأرض، ويمكن أن نذكر الأبعاد الحقيقية للموقف إذا ما فكرنا أنه في اللحظة نفسها كانت قبائل لغالين نكتسح شمال أفريقيا، وتحرق معظم الغابات العتيقة المتوارثة من قديم^(٦٣).

ولكن هل الأندلس لم يعبروا عز ولعمهم القوى بالأشجار بنفس التفاصيل الفخيمة التي وجدناها في حديثهم عن الزهور، ونلاحظ أن المديقة عند معظمهم مكتظة دائما بأشجار الفاكهة أو الزينة، خاصة عند ابن خفاجة، عاشق الحدائق والمحب بالشاعر الجنان، وصوّروا أيضا المياه الجارية من ترع وأنهار وقنوات إلى جانب الأدغال الظليلة ولوديان، وسنلمس هنا مدى افتتان الذين يتنزهون بالقوارب على صفحة الوادى الكبير بالأشجار اسامقة والدوح تحيط بشواطئه على الجانبين^(٦٤).

(٦١) قارن هذا بتعليقات برنارد دى ست - بير. «لقاحات الزهر الصفراء الملقة على خيط للثير الأبيض تقدم دعائين مزدوجتين مهيئتين في تماثل، فوق عمد أحمل من العاج، والتور، وعقود الزبرجد في ووعة لا يعل عليها، ورحيق الوهر، وأنهار السكر، وبقية أجزاء الزهرة، والكؤوس والقوارير، والأبيد، والقياب، مما لا يستطيع فن المعمار أو الصياغة ما يصنع الإنسان أن يأتي بشيه له بعد. لا أقول هذا غناء وإنما عرض لي مرة أن قحصت زهرة الزعر بالجهر، فاكشفت في دهشة بالغة قارورة حروين، ذات عنق طويل، من مادة تشبه الجمر (من الأحجار الكريمة) ويخرج من عنقها فيما يبدو سيكة ذهب مذاب». دراسات في الطسة ٥/٢.

(٦٢) نفع ٥٥٨/٣

(٦٣) تفسير الأمر على هذا النحو تبسيط للأمور وأكثر مما يجب، فقد كان السيد أمام بشية، وألفونسو السادس حول طليطلة، وبدر والقاسي في كل غزواته، من أعنى النساء يبرقون ويبرقون، ولا يفرون بين الشجرة والزهرة والسكن أو الكنيسة والمسجد، ومرة الأمر فيها يتصل بالإسلام أو المسيحية تمكثها من القنب أو عدم تمكثها. (الترجم).

(٦٤) انظر فيها سيان ص ١٨٥ - من هذا الكتاب، وص ١٢٧ فيما سبق.

وقد شهد القرن الحادى عشر مؤملاً مولى باديس بن حيوس يزرع أشجار الحور فى أحد متنزهات غرناطة، وحل اسمه، وصار يعرف باسم «حور مؤمل»^(٦٥). وعندما انتهى المطاف بالمعتمد أسيراً وسجيناً فى أعماق المغرب لم تبارح مخيلته ذكريات هذه القصور، وكان أحدهما يقع فى حقل يسخو فيه الزيتون، وعرف باسم منية الزيتون^(٦٦).

وتلتقى عند الشعراء ببعض الصور الجميلة يقول أحمد بن مغيث:

وانظرْ إلى الأيكة فى بُردِهِ ولاحظِ البدرَ بأطواقِهِ
وقد بدا السرورُ على نهره كخائضٍ شمرَ عن ساقِهِ^(٦٧)

وقد وصف لنا عبد الجليل بن وهبون شجرة زيتون تنهار من ثقل عريش كرم تسلقها^(٦٨)، كما وصفوا لنا أشجار اللوز المزهرة فى منية الزبير أيام المرابطين فى نهاية القرن الحادى عشر^(٦٩).

ولكننا مضطرون للاعتراف بأنهم رغم عشقهم الرهور وزراعتها إلا أن غرس الأشجار لم يكن يجذبهم إلا قليلاً جداً، تاركين لعلماء الزراعة أن يصفوا كل أنواع أشجار الفاكهة فى مؤلفاتهم الزراعية، وقد كرس الطنجناوى، وهو من خيعة فى ضواحي غرناطة، وترقى وفقاً لكل الاحتمالات فى نهاية القرن الحادى عشر، أبواباً مفصلة فى كتابه «زهر البستان»^(٧٠) لدراسة أشجار التين والزيتون والرمان والنخوخ والبرقوق والمشمش والتفاح والكشمري والكرز والتوت والأرز والبرتقال والليمون واللوز والنخيل والموز والجوز والكروم، ولكننا لن نتوقف عنده لأنه لم يستخدم الشعر فى حديثه عنها.



لقد ظل الشعراء غامضين فيما يتعلق بأشجار الزينة وأشجار الفاكهة، ولكنهم على التقيض تناولوا بأسهاب ووضوح الزهور نفسها، والفواكه ذاتها، مما استطاعوا أن يتأملوه فوق أغصانه أو على موائد الطعام ساعة الأكل أو فى الوجبات الخفيفة التى تتخلل الأكلات الرئيسية.

ويتكرر الحديث عن التفاح والرمان، أو الإجاص، كثيراً فى أشعارهم، ويمكن أن نتخذ مثلاً لذلك

(٦٥) هذا الاسم كثيراً ما يرد فى صورة حوز مؤمل. انظر: نفح ٣١٠/١ و ٦٤٩ و ١٤٧/٢ (رسالة الشقدي) و ٣٤٥ و ٢٤٨ و ٥٤٣.

● قلت: هذا فى الطبعة الأوربية والصفحات السابقة إشارة إليها. وقد صحح إحسان عباس الاسم فى طبعته، وأوردته دائماً فى صورة حور. انظر: نفح ١/٤٧٥ و ٢/٢٨٢ و ٣/٢٦٨ و ٥١٣ و ٥١٧ و ٤/١٧٧. (المترجم).

وانظر: الإحاطة، ويرد فيها فى صورة حبة مؤمل فى ١/٤٤٩ و ٤٩٩ وفى صورة حوزة مؤمل فى ٣/٣٣٣. والمعري، المسالك، ترجمة جوفروى - ديومين ص ٢٢٧ رقم ٥ وقه «قنطرة العود» يجب أن تقرأ «قنطرة الحور» وقد ترجمها سيكو دي لوتينا بدقة Puente del Alamo وسميوسيته، وصف غرناطة ص ٦٧. ولغنى بروفنسال، مذكرات الأمير خيد الله، فى مجلة الأندلس، المجلد ٣، عام ١٩٣٥، العدد ٢ ص ٢٥٠ رقم ٥٤. وانظر فيها سبق ص ١٣٢ ورقم ١٣٩ من هذا الكتاب.

(٦٦) انظر فيها سبق ص ١٢٢ من هذا الكتاب.

(٦٧) من السريح، نفح ٣/٢٤٢.

(٦٨) ابن ليون، ملح السحر، مخطوطة الرباط رقم ١٠٣٣، الورقة ٨٦ وجه.

(٦٩) نفح ١/٤٧٩ و ٤٧٢ و ٥٨٤.

(٧٠) فلان عدة مخطوطات من هذه الرسالة، وقد رجعتنا إلى النسخة التى يملكها القسم الاجتماعى فى إدارة شئون المواطنين

الأصليين فى المغرب.

الآيات التي قالها ابن عمار حين هدى خيرا وطبقا فيه تفاحتان ورماتان، وكتب معها:

خُذْهَا مِثْلًا اسْتَهْدِيَتْهَا عَرُوسًا لَا تُزْفُ إِلَى الثَّامِ
وَدُونَكُمْ بِهَا سُدِّي قَنَاةٌ أَضَفَتْ إِلَيْهَا خُدِّي غَلَامٌ^(٧١)

وأهدى أيضا تفاحا وإجاصا إلى بعض أصحابه وكتب معها:

خُذْهَا كَمَا سَفَرْتُ إِلَيْكَ خُدُودُ أَوْ أَوْجَسْتُ فِي رَاحَتِكَ نَهْدُ
دُرًّا مِنَ التَّفَاحِ تَشْتَرِ بَيْنَنَا وَلَهَا بِأَجْيَادِ الْفُصُونِ عَفُودُ
خُذْهَا وَنَارُهَا النَّدَاءُ فَإِنَّهَا رَاحَ دَهَاها فِي الشَّتَاءِ جَمُودُ
وَشَفَعْتُ بِالْإِجَاصِ قَصَا إِنَّهُ شَكَلَ الْجَمَالَ وَحْدَهُ الْمَحْدُودُ
عِزًّا إِلَيْكَ فَإِنَّمَا هِيَ أَوْجُهُ يَبِضُّ تَقَارِنَا عَيْنُ سَوْدُ^(٧٢)

وأهدى ابن زيدون هدية من التفاح للمعتضد أمير إشبيلية وكتب معها:

يَا مَنْ تَزَيَّنَتْ لِرِيَا سَةً حِينَ أَلَسَ ثَرِيًّا
وَلَهُ يَدُ يَسِّ ائْتَمَّا مُ مِنْ أَنْ يُعَارِضَ صَرِيًّا
جَاءَتْكَ جَامِدَةٌ الْمَذَا مَ فَخُذْ عَلَيْهَا ذَوْبًا^(٧٣)

وكان تفاح شترة، بلدة بالقرب من لشبونة، أعظم التفاح في شبه جزيرة الأندلس حجا، وقدم فلاح من هذه البلدة بعضا منه للمعتضد أربعا ما يقل الحامل على رأسه غيرها، ويحيط كل واحدة خمسة أشبار^(٧٤). وفرض تشبيه التفاح بالخد أو العكس، نفسه على الشعراء، لأن لون التفاح أحمر أو وردي، ولكن هناك نوعا منه أصفر اللون فاتحا، فشبّهه أبو الحسن بن الحاج في أبيات له كتبها مع تفاح أهدها بالوجعات تعاني آلام الفراق:

بَعَثْتُ بِهَا وَلَا أَلْرُكُ حَمْدًا هَدِيَّةَ ذِي اصْطِنَاعٍ وَاعْتِلَاقٍ
خُدُودُ أَحِبَّةٍ وَافِينَ صَبًّا وَعُيُنَ عَلَى ارْتِمَاضٍ وَاحْتِرَاقٍ
فَحَسَرَ بَعْضُهَا خَجَلَ التَّلَاقِ وَصَفَرَ بَعْضُهَا وَجَلَ الْفِرَاقِ^(٧٥)

ونفهم من أبيات لأبي مروان عيد الملك بن رزين أمير السهلة (سهلة بن رزين) أنه يشبه التفاح الأصفر باليهود:

وَتَعَضُّ تَفَاحَ الْيَهُودِ شَفَاهُنَا وَنَرَى مِنْي الْأَحْدَاقَ بِالْأَحْدَانِ^(٧٦)

وأثارت ابن جبير اليمحصى رائحة تفاح أهدها إليه صديق فوصفه، وغلبته طبيعته نحويا، فجرت في

(٧١) من الواقر، الثلاثة ٨٧، ونفح ٣١٤/٤.

(٧٢) من الكامل، الحلة ١٦٣/٢.

(٧٣) من الكامل، ابن زيدون، الديوان ٢٢١، ونفح ٩٤/٤.

(٧٤) نفح ١٦٤/٨، ولفي بروكسال، إسناتيا للإسلامية في القرن العاشر ١٦٧، ومصادر الهاشم رقم ٣، ويكن أن نضيف إليها:

القافشندي، صبح الأعشى ٢٢٣/٥.

(٧٥) من الواقر، القلائد ١٤٣.

(٧٦) من الكامل، القلائد ٥٦.

صوره كتابات لطيفة، فذكر ألفاظ سيبويه وتعنى رائحة التفاح، والخليل ويومئ بها إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، العالم اللغوي الشهير:

خليلٌ لم يزلْ قلبي قدماً يملُ بفطرط صاعيةً إليه
أتاني مُقبلاً والبشرُ يدي وسائلُ برقةٍ كُرمتْ لديه
وجاء بعرفٍ تفاح ذكي فقلت أتى الخليلُ بسبويه
فأهدى من جناه بكل شكل يلوح جمالُ مُهديها عليه^(٧٧)

ونلاحظ أن ابن عمار صور الإيجاص في أحد أبياته التي سبقت بأنها «أوجه بيض تقارنها عيون سود»، ويقون سليمان بن بطلال الأندلسي:

بعثتُ ما يندُرُ لكته في وصفه الناعَتُ لم يترد
جيشاً من الزنج ولكنه جيشٌ متى يلقي العدا يُقهر
ينفى لك الصفراء مهزومة والزنج أعداءُ بني الأصفر^(٧٨)

وأضيف إلى الصور التي نجد فيها الرمان مشبها بالهود الصورة التالية، وهي لرمانة مفتوحة، فقد شبهها ابن سعد الخير الشاعر بأسد يكشف عن أسنانه المضغفة بالدم:

وساكبة في ظلال النصوص بررض يروقك أفنانه
تضاحكُ أترابها فيه إذ غدا الجوى تدمعُ أجفانه
كما فتحَ الليث فاه، وقد تضرَّج بالدم أسنانه^(٧٩)

وكان النوع الذي يحمل اسم الصُفري، أكثرها شهرة، وأحبها ذوقاً، كما قال مبعوث عبد الرحمن الداخل إلى أخته أم الأصمغ، التي مكثت في سوريا، ليحضر من الشرق بذور التينات المجهولة في إسبانيا^(٨٠):

وقد وصفه شاعر مجهول ثمرة القراسيا. وهذا هو اسمها في العربية القديمة، ويقال لها «حب الملوك» في الغرب الإسلامي، طبقاً لرواية المقرئ^(٨١)، في مرحلتين مختلفتين من نضجها:

(٧٧) من الواقر، نفع ٣٠٤/٤.

(٧٨) من لريح، التويري، نهاية الأرب ١١/١٣٦. وعن نصير «بني الأصفر»، انظر ص ٢٥٧ فيما سأتى من هذا الكتاب.

(٧٩) من المقارب، نفع ٦٠٤/٢.

(٨٠) في ارضاقه من قرطبة أنعم الأمير الأموي هذه التينات عن تاريخ الرمان السفي انظر، نفع ٥٤٦/١ و ٢٨/٣. ودوري، نكتة المعاجم العربية ٥٥٩/١، مادة رمان، والإشارات المذكورة هناك. والطنجاري في زهر البطان ص ١٤٢ - ١٤٣. ودوزي وإنجلد، معجم الكلمات الإسبانية والبرتغالية ص ٣٥٨. وقد وصف الشاعر أحمد بن قرج الجباني، مؤلف كتاب الحقائق، والتوفى نحو ٣٦٦ هـ = ٩٧٦، هذه الرمانة بالأبيات التالية:

ولا يسمي صفتاً أحمرًا أنتك وقد ملئت جوهراً
كانك فاتح حق لطيف تظمن مرجائه الأحرار
حبوباً كمثل لسان الحبيب رطاباً إذا شئت أو منظرًا
ولطفر تمزي وما سافرت فتتكو أقوى أو ثقاسي الشرى
بل فازفت أبكها ناعماً رطيساً وأغصانها نُظراً

وهي من المقارب، نفع ٤٦٨/١. ويشير ابن تزمان إلى الرمان السفي في أحد أزجاله، نظم الزجل ١٩، الدور ٥.

(٨١) نفع ٦٠٤/٣.

ودوح تهلل أشطانهُ رعى الدهرُ من حسنه ما اشتهى
فما أحرّ منه فصوصُ العقيق وما أسودّ منه عيونُ المها^(٨٢)
وشبه عبد الله السُّهَيْرِس الليمونة بجلجل من القضة مكسو بالذهب الأصفر:
أهدى إليّ برؤيّة ليمونة وشار بالتشبيه فعلَ لسيّد
فصمتُ حيناً ثم قلتُ: كجلجل من فضة تعلوه صفرة عسجد^(٨٣)
ويصف شاعر أندلسي السفرجل على النحو التالي:

سفرجلة جمعت أربعا ظمن لها كل معنى عجيب
صفاء النضار وطعم الثمار ولون المحب وريح الحبيب^(٨٤)

ونكتفي بهذه الأمثلة التي أوردناها لأن الأفكار نفسها تتكرر عند بقية الشعراء^(٨٥)، وستذكر مقطوعة من ثلاثة أبيات متقنة غامضة نظمها ابن صارة عن السفرجل، وتعيد إلى أذهاننا النقاش الذي دار حول اللفظ، وقدنا بمعلومات عن التصحيف الذي يمكن أن يصيبها، والمعنى الذي يعطيه، والمعتقدات الخاطئة السائدة عن هذه الفاكهة:

ما في السفرجل شيء يُستطار به ولا تكزي منه مطويا على وجل
إني نظرت إلى تصحيف أحرّ فيه فانفك منهنّ تب تفرج لي
ولم أقل سفر حلّ البلاء به أو حلّ منه وقوع الحادث الجلل^(٨٦)
وكان التارنج، وهو مر الثمرة، خشن القشرة، أحر اللون قاتيه، يتمتع بسمعة سيئة في إسبانيا على امتداد القرن الحادى عشر، ويعتقد الطنجارى في كتابه «زهرة البستان» أن كل المآسى التي أصابت أمراء الطوائف في شبه الجزيرة، مثل: المقتدر بالله أمير سرقسطة، والمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، والقادر بن ذى النون أمير طليطلة، تعود إلى زراعة التارنج^(٨٧)، وسهر باديس بن حيوس أمير غرناطة سرا على منع غرسه في إمارته، وحتى الطنجارى نفسه تشاءم منها، وخاف قليلا من هذه الشجرة المهلكة، ولذلك وجد نفسه مضطرا أن يستعين بالله عليها، وهو يكتب لنا الفقرة السابقة. وقد جرؤ على أن يكتب عنها، أو يتعرض لها، لأنه كان في نهاية القرن الحادى عشر خلال حكم المرابطين، حيث خفت حدة المعتقدات والخرافات المتعلقة بأشجار التارنج، والشاهد القوى على هذا أن شعراء ما بعد القرن الحادى عشر وصفوا هذه الشجرة بزهورها وثمارها كأى نبات عادى، وتميّز اثنان منهم في ذلك، وهما: ابن خفاجة وابن سارة:

(٨٢) من المقارِب، نفع ٦٠٤/٣.

(٨٣) من الكامل، نفع ٤٣١/٣، وهو تنسب القطة بعد ذلك بقليل اكتندى، في عصر ابن مردئيش، انظر نفع ٤٦٨/٣.

(٨٤) من المقارِب، التويرى، نهاية الأوب ١٧٠/١١.

(٨٥) في القرن العاشر نظم المصحف الحناجب خصم المنصور بن أبى عامر مقطوعة من تسعة أبيات نجد فيها اللامع نفسها. انظر: الملطح ١٥٨، وعنه في نفع ٥٩٤/١، والحالة ٢٦١/١.

(٨٦) من البسيط، الثلاث ٢٧٠، ولمعرفة تفسير التصحيفات المختلفة لكلمة سفرجل انظر: مجلة المشرق: الأثان، المجلد ٦١ ص ٤٢٧، والمجلد ٦٥ ص ٧٣ و ٦٨١ وما بعدها، والمجد ٦٨ ص ٢٧٥.

(٨٧) الطنجارى، مخطوطة القسم الاجتماعى للمغرب ص ٢٠٢ - ٢٠٣. وانظر أيضا تفسير ابن خلدون في المقدمة، طبعه كاترمير ٢٥٩٦/٢، وطبعة القاهرة ٣٧٣، وترجمة دى سلان ٢٠٤/٢ حيث يذكر خطأ التارنج على أنه شجرة الليمون.

يقول ابن خفاجة:

وَمَيَّاسَةٍ تَزْهَوُ وَقَدْ خَلَعَ الْحَيَا عَلَيْهَا حُلًى حُمْرًا وَأُرْدِيَةً خَضِرًا
يَذُوبُ بِهَا رَيْقُ الْقَمَامَةِ فَضَّةً وَيَجْمَدُ فِي أَعْطَافِهَا ذَهَبًا نَضْرًا^(٨٨)

وساق لنا ابن سارة مجموعة من الصور أقل تكلفاً:

أَجْرٌ عَلَى الْأَغْصَانِ أَبْدَى نَضَارَةً بِهِ أَمْ خَدُودُ أَبْرَزْتِهَا الْهُودُجُ
وَقَضْبٌ تَشَتَّتْ أَمْ قَدُودُ نَوَاعِمٍ أَعَالِجُ مِنْ وَجَدِ بِهَا مَا أَعَالِجُ
أَرَى شَجَرَ النَّارَنْجِ أَبْدَى لَنَا جَنِيً كَقَطْرِ دَمُوعٍ ضَرَجَتْهَا الرَّوَاعِجُ
جَوَامِدُ لَوْ ذَاهَتْ لَكَانَتْ مُدَامَةً تَصَوُّغُ الْبَرَى فِيهَا الْأَكْفُ النَّوَاجِ
كُرَاتٌ عَقِيقُ فِي غُصُونِ زَبَرْجَدٍ بِكَفِّ نَسِيمِ الرِّيحِ مِنْهَا صَوَالِجُ
نُقْبَلُهَا طُورًا وَطُورًا نَشْمُهَا فَهَنْ خَدُودُ بَيْنَنَا وَنَوَافِجُ
نَهَى صَوْتِي إِلَّا تَصِيحُ إِلَى النِّهَى عُرُوسٌ مِنَ الدُّنْيَا عَلَيْهَا دَمَالِجُ^(٨٩)

ونظم الأبيات التالية فيه أيضاً:

يَارَبِّ نَارَنْجَةٍ يَلْهَوُ النَّدِيمُ بِهَا كَأَنَّهَا كُرَةٌ مِنْ أَحْمَرِ الذَّهَبِ
أَوْ جَنُودٍ حَمَلَتْهَا كَفٌّ قَابِسُهَا لَكُنَّهَا جَذُودٌ مَعْدُومَةُ اللَّهَبِ^(٩٠)

وانتشرت أشجار النين في كل مكان، وأفضل أنواعها ما كان ينبت في مالقة، وكان يضرب المثل بحللاته، ويصّر حتى للهند والصين، ويقال: إنه لبس في الدنيا مثله، وفيه يقول أبو الحجاج يوسف ابن الشيخ الهلوي المالقي:

مَالِقَةٌ حُمِيَّتْ بِأَتَمِنَا الْفُلُكُ مِنْ أَجْلِكَ يَا تَمِينَا
نَهَى طَبِيبِي عَنْهُ فِي عَلْتِي مَا لَطِيبِي عَنْ حَيَاتِي نَهَى^(٩١)

وتنحّ تين إشبيلية بسمعة طيبة أيضاً^(٩٢)، ومثلها في ذلك شرق الأندلس، وعن هذا يقول ابن خفاجة:

(٨٨) من الطويل، ابن خفاجة، الدنوان، القطعة، ص ٦٩، ونقح ٦٠٢/٣ - ٦٠٣.

(٨٩) من الطويل، القلائد ٢٦٧، ونقح ٤١٤/٣ (البستان ٥ و ٦ قطع).

(٩٠) من البسيط، القلائد ٢٦٧ - ٢٨٨، ونقح ٦٠٢/٣.

(٩١) من السريع، نقح ١٥١/١، وابن فضل الله الصوري، المسالك، ترجمة جودفروي - ديومين ص ٢٤١، وترجمة أحمد زكي، في تكريم كوديرة ص ٤٧٠، ورحلة ابن بطوطة، طبعة دفريري وسجنيتي ٣٦٦/٤، وابن عبد المنعم الحميري، الروض المطار، النص العربي ١٧٩ والترجمة ٢١٥ - ٢١٦.

(٩٢) ونيل لإمام الخطيب أبو محمد عبد الوهاب المنشي مقطوعة أبي الحجاج البلري على النحو التالي:

وَحْشٌ لَا تَنْسَى لَهَا تَمِينَا وَالْأَكْرَمُ مَعَ السَّيْنِ زَسَاتِينَا

والبيت من السريع، انظر: نقح ١٥١/١.

ويذكر ابن خالفر في كتابه البديع ص ١٣ (وهو في نقح ٦٠٧/٣) أن المعتد ركب لنزهه يظهر إشبيلية في جماعة من ثمائه وخواص شعره ما أبعد أخذ في المسابقة بالخيول، فجاء فرسه بين البستين سابقاً، نراى شجرة تين قد أُنِمت وزهت، وبرزت منها ثمرة قد بلغت وتتهب، فسند إليها عصا كانت في يده فأصابها، وتحت على أعلاها، فأطربه ما رأى، ولتفت ليهجر به من لحقه من أصحابه، فرأى بن جاح الصباغ أول من لحق به، فقال أجز: كأنها فوق العصا. فقال: هامة زنجي عصا.

أَمَّا وَاهْتِصَارُ غُصُونِ الْبَلَسِ وَقَدْ قُلِّصَ الصَّبْحُ ذَيْلَ الْغَلَسِ
وَمَالٌ يَسِيلُ جَنَى يَهْدِيهِ كَمَا سَالَ رَيْقُ حَبِيبِ نَعْسِ
لَقَدْ شَاقَّ مِنْ رَائِقِي لِنَجْتَلِي شَهْيُ الْجَنَى مُسْتَطَابُ النَّفْسِ
فَهَمْتُ لَهُ بِيَاضِ اشْغُورٍ وَأَحْبَبْتُ فِيهِ سَوَادَ الْتَعْسِ^(٩٣)

ووصف شعراء الأندلس في القرن الحادي عشر فواكه أخرى أيضا، مثل: العنب وبخوخ والتوت ولكنهم اقتصروا في وصفها بالتشبيهات التي كانت متداولة في القرن العاشر.^(٩٤)

ولم يرد أي وصف للتخيل أو البديع^(٩٥)، وأبيات محمد بن شرف القيرواني، والد أبي الفضل جعفر بن شرف، عن البلح وطبا وترا قيلت قبل هذا العصر وفقا لكل الاحتمالات، نظمها الشاعر قبل أن يصل إسبانيا، ولا تنطبق إلا على هواكه أفريقية^(٩٦)



ونعرف أن الأدب نادرا ما يتوقف أمام الخضراوات أو يصفها، ومع ذلك نجد لدى من الشعر الأندلسي نصيبا، ووصف الشعراء منها ما دأب خيالهم مثل: الفول والخرشوف والبادنجان والكرنب.

وقد أرحى طعم الفول أو الباملاء إلى ابن شهيد بالأكليات التالية:

إِنَّ لَأَلَمِيكَ أَحْدَثَتْ ضَلْفًا فَاتَّخَذْتِ مِنْ زُمُودٍ صَدْفًا
تَسْكِي ضَرَاتَهَا الْبَحُورَ وَذِي تَسْكِي لِلْحَسَنِ رَوْضَةَ أَثْفًا
هَامَتْ يُلْحَفُ الْجِبَالُ فَاتَّخَذَتْ مِنْ سُندُسٍ فِي جَنَانِهَا لُحْفًا
نَشَقُّهَا بِالْثُغُورِ مِنْ لُطْفٍ حَبُّكَ مِنَّا بِرٍّ مِنْ لُطْفًا

أَكَلُ ظَرِيفٍ وَطَعْمُ ذِي أَدَبٍ وَالْفُؤْلُ يَهْوَاهُ كُلُّ مَنْ شَرُفًا^(٩٧)

(٩٣) من المقارِب، ابن خفاجة الديولن القطعة ١٤٤، ص ١٩١.

(٩٤) يقول إسماعيل بن بدر شاعر أندلسي من القرن العاشر، يصف التوت:

تَنَادَلَتْ بِالتُّوتِ التُّارُ لَزُورٍ وَذَلِكَ قَالَ - مَا عَدَّتْ - حِدُوقُ
مَاهِدِيهِ عِضًا حَكِي حَلَقِ الْمَاهِ لَهُ مِنْظَرُ بِالْحَسَنِ مِنْهُ يَرُوقُ
وَبَعْضُ حَكِي الْبَاقِرَتِ مِنْهُ أَحْمَرَارِهِ وَمَا جَعَلَهُ لِلنَّائِقَةِ رَحِيقُ
فَذَا سَبَّحٌ - فَمَا يَرَى - لَأَسْوَدَانِهِ وَفَا - لَأَحْمَرَارِ التُّوتِ مِنْهُ - عَقِيقُ

انظر: الحلة ٢٥٦/١. وأُنشدت مهجة القرصنة حديقة ولادة بنت المستكفي بينين بمناسبة خوخ أهداه إليها أحد معجبيها تضمنا تشبيهاً فاضحاً. انظر: نفع ٢٩٣/٢. ووصفه ابن زيدون العنب، انظر ديوانه ص ١٥٢ و ٢٦٠.

(٩٥) انظر دراستنا: التخلّة في إسبانيا الإسلامية، في تكريم جود فروي - ديومين، ص ٢٢٥ - ٢٣٩، وفيها سيار من هذا الكتاب ص ١٨١/المائتي رقم ٢٢٣.

(٩٦) يشبهون الرطب بالتوت بيت وبالعقيق عشوا بالذهب، المذاب، ويبدو الثرى من خلال لحم البلح الشفاف كألصنة العصفور، ويشبهون الثمر بمخازن (أي حقوق) العقيق محشرة بالذهب النضار وبالزعفران يحنو على العسل السائل وبأكواب العفار. انظر: التويري، نهاية الأرب ١١/٢٢٨، وتعبير «مخزن البللورة» يوجد في بيت من الشعر لابن الرومي، يصف «العنب الرازقي»، انظر: المسعودي، جواهر الذهب ٨/٢٣٣.

(٩٧) من المنسرح، أبو الوليد، البديع ١٥٦، وابن طاهر، بدائع البديع ١٥٦، ونفع ٣/٢٤٤، وديوان ابن شهيد القطعة ٤١، ص ١٢٧.

وعن حبة فول سوداء قشرتها شديدة يقول أبو الحسن بن علي:
فَصُّ مِنَ الْعَاجِ حُقَّةٌ سَبَّحَ مُتَزَجٌ بِالْجَمَالِ مُزْدَوِجٌ^(٩٨)

ووصف ابن عمار الخرشوف على النحو التالي:

وَتَبَّتْ مَاءٌ وَتُرِبَ جَوْدُهَا أَبَدًا لَمِنْ يُرْجِيهِ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْبَخْلِ
كَأَنَّهَا فِي جَمَالٍ وَامْتِنَاعٍ ذُرِّي خَوْدٍ مِنَ الرُّومِ فِي دِرْعٍ مِنَ الْأَسَلِ^(٩٩)

ويصفها عبد الجليل بن وهبون فيقول:

وَحَرَشْفِيَّةٌ إِنْ كُنْتُ ذَا قُدْرَةٍ عَلَى نَفْوِذٍ إِلَى ذَاكَ الْجَنَى الْجَلُوِّ فَانْفِذْ
كَأَنِّي قَدْ تَوَجَّعْتُ مِنْهَا بَيْضِيَّةٌ وَقَدْ وُضِعَتْ لِلصَّوْنِ فِي جِلْدٍ قَتْفِذٍ^(١٠٠)

ومر ابن شهيد يوما بجوار سوق الخضراوات الطازجة، والتقى بأحد معارفه من الطوائف، وبين يديه زنبيل ملآن خرشفا، فجعل يده في لجام يخته، وقال لا أتركك أو تصف الخرشف، فقد وصفه صاعد البغدادى فلم يقل شيئا، فقال له ابن شهيد: ويحك! أعلى مثل هذه الحال؟ قال: نعم، فارتجى:

هَلْ أَبْصَرْتُ عَيْنَاكَ يَا خَلِيلِي مِنْ خَرَشْفٍ مُعْتَمِدٍ جَلِيلٍ
كَأَنَّهَا أَنْيَابُ بَنَاتِ الْغَوْلِ لَيَقْفَزْتُهُ نَحْوَ أَرْضِ النِّيلِ
نَقْلُ^(١٠١) السَّخِيفِ الْمَائِنِ الْجَهْلُولِ أَقْسَمْتُ لَا أَطْعَمْتُهَا أَكِيلِي
قَنَاظًا تُبَاعُ فِي زَنْبِيلٍ ذِي إِبْرٍ تَنْفِذِ جِلْدَ الْفِيلِ
لَوْ نَخَسْتُ فِي اسْتِ امْرَأَتِي ثَقِيلِ لَيْسَتْ تُرَى طَيِّ حَشَا بِنْدِيلِ
وَأَكُلُ قَوْمٍ نَازِحِي الْعُقُولِ وَلَا طَعِمْتُهَا عَلَى شَمُولِ^(١٠٢)

وقال شاعر مجهول يصف الباذنجان:

وَمُسْتَحْسِنٌ عِنْدَ الطَّعَامِ مُذْخَرَجٌ تَطْلُعُ فِي أَعْمَاقِهِ فَكَأَنَّهُ
غِذَاءٌ نَمِيرُ الْمَاءِ فِي كُلِّ بُحْتَانٍ قُلُوبُ نَعَاجٍ فِي مَخَالِبِ عُقْبَانِ^(١٠٣)



لا يمكن أن ندعى أننا في المقتطفات السابقة أثبتنا على كل الموضوعات الوصفية التي تناوَلها الشعراء الأسيبان المسلمون، ولكننا نعتقد أننا أعطينا فكرة واضحة عن تنوعها، وعن فهم أهل الأندلس لها.

(٩٨) من التشرح، أبو الوليد البديع ١٥٦.

(٩٩) من السيط، المجلد ١٦٣/٢، وانظر فيها سياتي ص ٢٥٤ من هذا الكتاب.

(١٠٠) من لطويل، القلائد ٢٤٥.

(١٠١) عن معنى هذه الكلمة انظر ص ٣٣٠ فيما سأتى من هذا الكتاب.

(١٠٢) من لرجز، ابن ظافر، بدائع ٣٠٤، ونفع ٢٤٦/٣، والديوان، القطعة ٥٢ ص ١٤٠.

(١٠٣) من الخطيب، نفع ٨٨/٤، الاسم والثمرة من أصل هندي، (انظر: ألفونس دي كاندول، أصول النباتات المزروعة ص ٢٢٩). ولكن ثمرة الباذنجان التي عرفتها إسبانيا في العصور الوسطى، وأصلها من المشرق دون أدق شك، تختلف عن الباذنجان الذي أدخل في أوروبا بعد اكتشاف أمريكا. انظر رينو و كوين، تحفة الأحياء، رقم ٢٣٥، ص ١٠٥ ورقم ٤٠٦ ص ١٧٥.

وتكشف هذه الأبيات عن لغة خاصة بالطبيعة، والبيت المثالي في نظرهم هو الذى يستطيع أن يُصوّر في كلمات قليلة حديقة نضرة، كل ما فيها منعة للشم والنظر. وإذا تبارى اثنان من الشعراء وحكم بينهما ناقد فسوف ينجح الجائزة لمن يرى منها في دموع الندى ابتسامة الزهور العطرة^(١٠٤)، لأن الشعر عند هذه اخفوس الرقيقة تصوير قبل أى شيء، ولكنه تصوير يستطيع أن يضى الحياة على كل ما يمسّه. وإذا كان الشعر المشرقي يمس إلى تحجير كل هذه الأفكار، على نحو ما، حين يتبّه الإنسان بالزهرة أو العصفور، والزهرة والعصفور بالأحجار والمعادن النفيسة^(١٠٥)، فإن الشعر الاندلسي سلك فيها ييدو لنا طريقا معاكسا، وكان لنا معه ما يسمى بالنشبية المقلوب، فهو يصعد من الحجارة إلى الزهرة، ومن الزهرة إلى الإنسان.

ورغم أن الزهرة تثير في خيال الأندلسي فكرة الآلآء البيضاء والياقوت والذهب والبضة، لكنها في الوقت نفسه كثيرا ما توّجّز إليه أيضا بصور عناصرها الشعرية مستمدة من الإنسان، رجلا أو امرأة: فاللون الأصفر يذكره بالحبيب البائس والأبيض بالمحبوبة الجامدة، والأحمر بوجنة العنقاء، أو خجل المرأة الحبيّة والعطور التي تضعف في قلب التهار وتقوى بعد أن تغرب الشمس تذكره بالفتناء المنافقين، يتظاهرون بالصلاح نهارا، ويفسقون آناء الليل.

لقد أحب الأندلسيون حدائقهم بصدق، وتذوّقوا جمالها بعشق، وكان معظمهم رفيق الأصل، كما أشرنا، ففعلّمو منذ نعومة أظفارهم أن يتأملوا الطبيعة، وأن يقضوا يومهم بين أحضانها، وفيها بعد عندما رحلوا إلى المدن الكبيرة بحثا عن المجد، ظلّوا يحتفظون في ذواكرهم بالمعالم الأساسية للريف ثابتة فيها، قريبة إلى نفوسهم، كما لم يحتفظوا بأى شيء آخر مثلها، وإن تذكرها أعظم شيء يثير أحاسيسهم. وأمام جمال الحدائق وروعة القصور الملكية، وفنّة باقات الزهور في بيوت اسراة، إنتالت أشعارهم، تتدفق بالصور البلاغية القوية الحية، وتساندها المشاهدات اللاواعية للواقع الذين يعيشون فيه.

وبدل شغفهم بقراءة كل الكتب المراجعة المتصلة بالحدائق على احتفاظهم بخصائصهم الريفية، وقد كانوا يقرأون بعناية كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري، المتوفى ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م^(١٠٦)، وشرحه ابن أخت غانم، وهو شاعر عاش في غرناطة والمريّة، في ستين مجلدا^(١٠٧)، ويدرسون في حاسة كل كتب فقه اللغة التي تتركس بين صفحاتها بما أو أكثر للنبيات^(١٠٨).

(١٠٤) انظر رأى ناقد في حالة شبيهة ن نفع ٤٢٧/٢.

(١٠٥) يسب الأدياء العرب هذه التشبيهات إلى الفرس، ويردّدون دون أن يلحوا، وصف النرجس والورد، ويضيفون الأولى إلى أوشروان والثانية إلى أودنير. نظرو الترمذى شرح مقامات الحريري ٣٢/١ و ١٥١، والمصري، زهر الآداب ٥٢٢/١، وأحمد أمين، ضحى الإسلام ٢٨٢/١، ونظر يخاصة: لوس ماسيون، متاهج الإنجاز الفني عن شعوب الإسلام، في سوريه، عام ١٩٢١، ص ١٩، وهنري ماسيه، الملاحم الفارسية: الفردسي والملاحمة الوطنية ٢٠٧ - ٢٠٨.

(١٠٦) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ١٠٠٤/١، وكتب المادة بركلمان.

(١٠٧) نفع ٣٩٢/٣، نقل عن ابن ليس في كتابه المغرب، وهدري أبحاث، ط ١ ص ٩٩، والسيوطي، البنية ٩٧ و ١٠٦، وابن حجر، فهرسة، المكتبة العربية الإنسانية، المجلد ٩، ٣٧٦/١.

(١٠٨) انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ٣٦ - ٢٨.

وفي القرن الحادي عشر ظهرت لأول مرة في إسبانيا أبحاث ومؤلفات ندوس الزراعة^(١٠٩)، مثل كتب أبي خير الإشبيلي، وابن فاضل الأندلسي، وابن حجاج الإشبيلي، وتميز من بينهم بخاصة ابن وافد اللخمي، وابن بصال والطنجاري.

وقد عمل ابن وافد^(١١٠) وابن بصال^(١١١) مديرين لحديقة نباتات المأمون بن ذي النون أمير طليطلة، وهما اللذان رسبا حدائق القصور والمنيات التي تكلمنا عنها في فصل سابق ونقداها. أما الطنجاري، وأشرنا من قبل إلى كتابه «زهر البستان ونزهة الأذهان» فقد أقام في غرناطة على عهد بني زيري، وبعدهم تحت حكم المرابطين، وسنحت له الفرصة ليلقى العالم الزراعي ابن بصال في إشبيلية^(١١٢).

واشتهر العالم الجغرافي المعروف أبو عبيد البكري^(١١٣) كزراعي أيضا، وكتابه «أعيان النبات والشجيرات الأندلسية»^(١١٤) الذي ضاع ولم يصلنا، لقي رواجاً وشهرة في الأندلس تضارع شهرة كتابه «المسالك والممالك» ورواجه.

وقد واصل أهل الأندلس حبهم للزراعة والنبات، واستمر ذلك طويلاً حتى بعد القرن الحادي عشر، ولا يزال قائماً حتى اليوم في الجانب الآخر من العدوة عند أهل المغرب.

وهذه الدراسات بالإضافة إلى ما شاهدته الشعراء شخصياً أتاحت لهم استخدام تعبيرات فنية رقيقة في وصفهم، وخلت قصائدهم من الألفاظ الحشنة، ونثروا المعجم الشعري بكلمات جميلة مثل: تفتح وخلف وخلوف وعود وغصن وقصيب وكمامة وكمام وكَم وأكمام وورق وأوراق وطاقاة ونوار ونواوير وقائم وشيعة وحبّة وزهر ونور وتوير.

وعندما يحدد الشعراء الأوقات التي تتفتح فيها الأزهار يستخدمون أسماء الأشهر القمرية، والأشهر الشمسية في صورتها العربية، فيقولون: كانون الأول والثاني بدل ديسمبر ويانير، وشباط بدل فبراير، وآذار بدل مارس، ونيسان بدل أبريل، وهو تقليد سوري جاء به الأمويون إلى الأندلس، ومنها انتقل إلى بقية العرب الإسلامي وظل فيه.

(١٠٩) ربما كان مناسباً أن نعتبر تقويم قرطبة لعام ٩٦١ أول محاولة لتقنين قواعد الزراعة، ولكن هذا التقويم يتحدث كثيراً عن أشياء كثيرة علاقتها بالزراعة بمعناها الدقيق بعيداً جداً، وعن محتوى التقويم في نصه العربي وترجمته اللاتينية انظر طبعة دوزي له في لندن عام ١٨٧٣، وديرو دي مال، المناخ الملقان لإيطاليا والأندلس قديماً وحديثاً ٣٢ - ٣٤ و ٦٥ - ٨٤، وليفي بروقسان، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٧١ - ١٧٤.

(١١٠) انظر: ليكتورف، تاريخ الطب العربي ٥٤٥/١، وابن القفطي، تاريخ الحكماء، طبعة ليبير، ص ٢٢٥، ابن خلدون، في مكتبة الإسكوريال العربية الإسبانية لميخائيل غزيري ١٣١/٢، وميلاس فبا كروساء ترجمة لابن وافد، مجلة الأندلس عام ١٩٤٢، العدد ٢ ص ٢٨١ - ٢٣٢.

(١١١) انظر: نفع ١٥١/٣، نقلاً عن ابن غالب في فرحة الأفس، وسميونيت، المعجم ص ١٤٩ رقم ٥، ولهرشندي وسميونيت، منتخبات عربية ص ٩٦ رقم ٨١، وميلاس فبا كروساء ترجمة لابن بصال، مجلة الأندلس عام ١٩٤٨، العدد ٢ ص ٣٤٧ - ٤٣٠.

(١١٢) ابن الخطيب، الإحاطة ٢٠٧/٢، طبعة القاهرة، وسميونيت المعجم ص ١٥٣ ورقم ٢، ومخطوطة مكتبة القسم الاجتماعي للمغرب في أرباط رقم ٤٥٩ و ٤٦٠.

(١١٣) فيها يتصل بحياته انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٦١٩/١، وكتب الددة كور.

(١١٤) ابن خيري، فهرسة ٣٧٧/١، ودوزي، أبحاث ط ١ ص ٢٩٢ - ٣٠٦.

يقول ابن الحداد في مدح المعتصم:

وما كُيِّمَ بِهِ الْفِرَاتُ وَدَجَلَةٌ وَلِىَ حَكْمُوا أَنَّ الْمَرْيَةَ بَغْدَانُ
بِهِ اعْتَدَلَتْ أَرْمَاتُهَا وَهَوَاؤُهَا فَتَنَانُونَ أَبْلُوْا وَتَمَوَّزُ نِسَاءُ^(١١٥)

وقد تملكت حياة الحقول في أعماق الشعراء حتى أن الصور الريفية كانت تبرز ذاتها في قصائدهم،
تُعْطَى الْأَمْكَارُ شَكْلًا تَجَسِّدِيًّا، دَقِيقًا وَمُحَدَّدًا.

يقول أبو محمد بن السيد الطيموسي في مدح المستعين أمير سرفسطة:

وَإِنْ نُصِرْتُ عَمَّا لَبَسَتْ قَرْيَا تَحَاوَزَ دُرٌّ فِي النَّظَامِ وَتَرْجَانُ
مَعَانٍ حَكَّتْ غَنَجَ الْحَسَنِ كَأَنِّي بَيْنَ حَبِيبٍ أَوْ بَطْلَانٍ^(١١٦) بَغْدَانُ

ويقدم لنا ابن الخراز في قصيدته أتي بمدح بها المعتصم أمير المرية جدولاً كاملاً بالدورة الزراعية
تقريباً يقول:

وَمَا زِلْتُ أَجْتُو مِنْكَ وَالِدَهُ مُمَجِّلٌ وَلَا تَمَرُّ يُحْنِي وَلَا الزَّرْعُ يُخَصِّدُ
ثَمَارَ أَيْدٍ دَانِيَاتٍ قَوْفُهَا لَوَاعِصَانِهَا ظِلٌّ عَلَى مُمَدِّ
يُرَى جَارِيًا مَاءُ الْمَكَارِمِ تَحْتَهَا وَطَيَّارٌ شَكْرَى فَوْقَهُنَّ قَرَدٌ^(١١٧)

واستمدَّ أبو عمر بن المرباط صوره، وهو يشكو مواجهه الغرامية، من الظن والرى:

هِنَالِكَ الرَّيُّ مِنْ صَمُوعِي يَاطِيئِي وَالظَّلُّ مِنْ ضُلُوعِي
فَرَدَّ مَعِينًا وَرَدَّ غَلِيلًا سِرٌّ مَذُودٌ وَلَا تَمْرُوعٌ^(١١٨)

وعمل ابن عمار أكثر من أى شاعر آخر إلى القاط صوره من زراعة الحقول يقول مادحا
المعتصم المنتصر:

فَإِنْ يَجِيَنَّكَ الْفَتْحُ ذَاكَ الْأَصِيلِ مِنْ غَرْسٍ قَدِيرِكَ ذَاكَ الشَّجَرُ^(١١٩)

وكتب ابن عمار إلى المعتصم بن تباد، وكان قد غضب عليه أشد الغضب، قصيدة يسترضيه فيها،
منها هذه الأبيات:

تَأَمَّلْتُ مِنْكَ الْجِدْرَ فِي اللَّيْلِ الْخَطْبِ نَلْتُ لَدَيْكَ الْخَصْبَ فِي زَمَنِ الْجَدْبِ
وَمَا زِلْتُ مِنْ نِعْمَاكَ فِي ظِلِّ لَذَّةٍ زِدْكَ نِيَّيَا زَمَنِ الْحَبِّ
إِذَا نَعِيشُ فِي أَفْسَاءِ ظِلِّكَ بَارِدٌ عَنْ مَرْتَعٍ خَصْبٍ إِلَى مَوْدٍ عَذْبٍ^(١٢٠)

وكتب أبو عيسى بن كيون أمير مريبطر، إلى ابن عمار يعاتبه، فرد هذا عليه:

(١١٥) من الطويل، الذخيرة ٢٢٤/١. وانظر فيما سبق ص ١٣٠ من هذا الكتاب.

(١١٦) من الطويل، نفع ٦٤١/١.

(١١٧) من الطويل، نفع ٤١٣/٣، ردوى، أبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٥٧. وانظر فيما سبق ص ٨٠ من هذا الكتاب.

(١١٨) من البسيط، القلائد ٢٩٥.

(١١٩) من المختار، القلائد ٨٩.

(١٢٠) من الطويل، الحلة ١٣٩/٢، بحر عباد ١٥/٢.

وأرد بذكرك من ثنائي روضة غناء حالية بنور وداى
حتى تبين أن غرسك قد دنا ليجنى زرعك قد أتى لحصاد^(١٢١)

ويشير ابن زيدون إلى تلقيح النخل فيقول:

لَقَعْتُ نَهْجِي فَاجْنِي غَضَّ شِمَارِي فَالنَّخْلُ يُحَرِّزُ بِجُتَاهِ الْآبِرِ^(١٢٢)

ويرى ابن روض، محمد بن مروان بن عبد العزيز، أن الصداقة الخادعة ليست إلا شجرة تنمر
حنظلاً مرا:

وَكَيْانَ مِنْ أَمَلِي أَنْ أَتَقَبِّكَ أَخَا فَأَخْفَى الْأَمَلُ الْمَأْمُولُ إِخْفَاقاً
وَقُلْتُ: غَرَسَ مِنَ الْإِخْوَانِ أَكْلُوهُ حَتَّى أَرَى مِنْهُ إِمَاراً وَلِإِرَاقاً
فَكَانَ لَهَا زَهَتْ إِزْهَارِهِ وَدَنَتْ أَمَارُهُ حَنْظَلاً مُرّاً لَمِنْ ذَاقَا^(١٢٣)

ويقول ابن عبدون في رائته الشهيرة عن القدر:

تَسْرُ بِالشَّيْءِ لَكِنْ كَيْ تَسْرِبَ كَالْإِمْرِ نَارَ إِلَى الْجَانِي مِنَ الزَّهْرِ^(١٢٤)

ويقول أبو الفضل بن شرف بطريقة بلغت الغاية التي لا روعة بعدها: «التعليم فلاحه الأذهان،
وليس كل أرض مثبته»^(١٢٥).

وقد بقي حب الأرض شديداً عند شعراء الأندلس، ومعظمهم من أصول ريفية، وأحياناً كان يبلغ
بهم الأمر حد النعب والإرهاق من حياة المدينة، والسأم والملل من العبودية المذهبة في القصور الملكية،
فيطلبون من أمرائهم أن يسمحوا لهم بالعودة إلى مسقط رؤسهم. وكان ذلك هو واقع ابن مقانا
الأشبوني، فبعد أن أقام في بلاط العبادية في إشبيلية، ثم عند بني زيري في غرناطة، شعر بتفاهة حياة
الملق في المدينة، وسئم يريق القاعات الملكية لكاذب، وعاد إلى قريته القيداني^(١٢٦)، على مقربة من
شنترة، ليقضى بقية حياته في زراعة حقله. ويقتص علينا ابن بسام في كتابه «الذخيرة» حكاية رواها له
مواطن للشاعر، التقى معه شيخاً، وقد خف سمعه، ويده مزبزة (أى منجل صغير)، «قلبا رأيته ملتاً
إليه ومال إلى، وأخذ بيدي، وجلسنا ننظر في حرثا يحرث بين يديه، فاستشده فأنشدني ارتجالاً لوقته:

أَيَا عَامِرِ الْقَيْدَانِي لَا تَحْزَنْ مِنْ زَرْعٍ وَمَنْ يَصِلْ تَزِرْ وَشَيْءٍ مِنَ الْقَرْعِ
وَإِنْ كُنْتَ ذَا عَزْمٍ فَلَا بَدَّ مِنْ رَحَى سَحَابِيَّةٍ لَا تَسْتَدُ مِنَ النِّعِ
فَمَا أَرْضُ قَيْدَانِي وَإِنْ جَادَ عَامُهَا بِمَوْقِيَةِ عَشْرِينَ مِنْ حَزْمِ الزَّرْعِ
وَإِنْ أَنْجَتْ شَيْئاً وَزَادَتْ تَوَاتُرَتْ إِلَيْهَا خَنَازِيرُ^(١٢٧) الْمَقَاوِرِ فِي جَمْعِ

(١٢١) من الطويل، القلائد ٦٤.

(١٢٢) من الكامل، الديوان ٥٠٨، البيت ٨٣.

(١٢٣) من البسيط، الحلة ١٣٠/٢، والطبع ١٧٦، ونقع ٥٤١/٣.

(١٢٤) المعجب ٧٦، وترجته ص ٦٦، البيت ٨.

(١٢٥) القلائد ٢٥٣، وديري، أبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٥٢.

(١٢٦) هي التي تحمل اليوم اسم Alca bidache. وليست بعيدة عن أبحر، حول شنترة.

(١٢٧) سوف نعود إلى الحديث عن الخنازير الجبلية في الفصل الخاص بالحيوانات.

يها قِلَّةٌ من كل خيرٍ ونَفْعَةٍ عَقْلُهُ ما ندرى لدى من السَّمْعِ
 تركتُ الملوكَ الخالعينَ بِرُودِهِمْ على وسيرى في المواكبِ والنَّعْ
 وأصحتُ في قِبدانٍ أحصُ شوكتها عزيرةً رَعِشاءَ نايبةِ القطعِ
 فإن قبلَ هَجْوِها وأنتَ تُحِبُّها عقل إن حُبَّ الخَلِّ من شَرِّ الطبعِ
 وحُبُّ إني بكرٍ المظفر^(١٢٨) قادنِ إحسانه حتى انصرفت إلى رَبْعِي^(١٢٩)

ما أبعدنا عن ابن مَقانٍ متعلِّقٍ بنى حمود الذي تكلمنا عنه من قبل !.

إن الشاعر الريفي الأصيل لا يستطيع أن يعبرَ بأفضل من هذه الأشعار البالغة البساطة، وإن تضمَّنت شيئاً من مكر الريف، عن وتباطؤه بسقط رأسه، وحبّه لما تنتجُه أرضه من أشياء. وكان هذا تقليداً راسخاً عند كل الإسبان المسلمين، مهما كان أصهم البعيد الذي يرتدون إليه، عروباً أو بربراً أو من المستعربين، لأن أرض إسبانيا تتكلَّتهم بطريقة بالغة الأصالة، وصنعت منهم يمامةً فلاحين قبل أن يكونوا كتاباً أو وزراء أو جنود^(١٣٠).

(١٢٨) أبو بكر المظفر: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأفطس، أمير بطليوس، ووالد المتوكل، توفي عام ٤٦٠ - ١٠٦٨. انظر: دائرة المعارف الإسلامية ١/١٨٢، وكتب المائة سيليجسوهن، وابن بسام، الفخيرة ٢/٦٤٠، وديري، أبحاث ط ١ ص ٦٦٠.

(١٢٩) من الطويل، الفخيرة ٢/٧٨٧.

(١٣٠) غلغلي للنصور كتاباً من أحد عماله يذكر فيه القلب والتزل، وهما عندهم اسم الأرض قبل زراعتها فاهتم به، انظر: تلح ٩٨/٢، والمعجب ٣٤، وترجمته ٢٧١. ويعتد حاصر النصارى في شمال إسبانيا المنصور بن أبي عامر أثناء إحدى حملاته اختار منزلاً من بلادهم أنماخ به فيمن معه من العسك. وتقدم بيناء الدور ولتأكل. ويجمع آلات الحرث ونحوها، فيشر العدو بأن إقامته دائمة تفح ٥٩٥/١. وابنه عبد الملك المظفر أتته حكمة الشهيرة التي استولى فيها على حصن محقر من ثغر برشلونة عتوه، بعد أن دُوِّخ المقاطعة كلها نادى في المسلمين يد التصر من أراد الإثبات في القيروان بدينارين في الشهر على أن يستوطن هذا الحصن قبل، وله مع ذلك المنزل والمهرات، فرغب في ذلك حتى عظيم واستقروا به. انظر ابن عذارى، البيان المغرب ٢/٣، وترجم النص ليفي بروفنسال في تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ١٨٩، وانظر أيف: ليفي بروفنسال إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٥١. وأخيراً فإن وزيراً يدعى البكري في عصر الفتنة ذاع بين البربر في قرصية أن الخليفة المهدي قد عفا عنهم على أن يرجعوا إلى بلادهم فيصيروا حراثين كما كانوا. ابن عذارى، البيان ٨٢/٣.

○ الفصل الرابع:

المياه جارية وراكدة

وأينا أن الأتھار كان لها السحر الأقوى بين الحقول التي كانت تطوّق المدن، واحتلت الجداول والغدران مكاناً ملحوظاً في الشعر الأندلسي. وقد شبه ابن زيدون الماء الواقف تحت قنطرة مالك في فوطية، أو مُسناة مالك كما تُسمى أحياناً، بالزجاج المصفول. ونلاحظ أن الشعراء أجادوا بخاصة تصوير شفاقة الماء حين يهب النسيم، ويلطّف الجو، ويهوّج سطح الماء، وقد شبهه أبو محمد بن سفيان بنزارة الحياكة عند أسفل الثوب:

ومُضاضة زَعْفٍ كأن قميصها ماء الغدير جرت عليه الشّال^(١)

ويقول أبو القاسم بن العطار:

وقد نسجت كفّ النسيم مفاضة عليه وما غيرُ الحباب لها حلق^(٢)

ويقول في بيت آخر:

هبت الريح بالعشي فحاكت زرداً للغدير ناهيك جنة^(٣)

وهذا التشبيه شائع في الشعر العربي في إسبانيا، ومن الطبيعي جداً أن يحمل الشاعر على استخدام كلمة غدير، وقدماً كانت تعني بحيرة، في معنى جانب الدرع أو الدلاص، ويمكن القول بعامة أن البحيرات لا تهدو إلا مرتبطة مع صورة هذا السلاح الدفاعي، مثيرة باختصار ذكريات حربية، يقول ابن بّقي:

وفتية لبسوا الأذراع تحسبها سَنَخ الأراقم إلا أنها رَسَب
إذا الغديرُ كسا أعطاقهم حلقاً طفا من البيض في هاماتهم حبّ^(٤)

ونستطيع أن نقدّم لهذا أمثلة كثيرة، ولكن نكتفي بأن نذكر هنا البيت الشهير الذي أنشد المعتمد سطره الأول، وأجازت اعتماد الروميكية شطره الثاني، فقد ارتجل المعتمد:

نشر الريح على الماء زرد

(١) من الكامل، القلائد ١٣٨.

(٢) من الطويل، القلائد ٢٨٥، النفع ٦٥١/١.

(٣) من المصنف، القلائد ٢٨٥، النفع ٦٥١/١ و ٣٠٢/٤.

(٤) من السبعة، القلائد ٢٨١، وانظر فيها بعد ص ٣١٢ هامش رقم ٦٦.

فأكملت اعتماد:

أَمْ دِرْعٌ لِقَتْلِهِ لَوْ جَمَدٌ^(٥)

وكانت هناك البرك والحدائق الخاصة تزينا الحمامات وأحواض المياه، تتوسطها التوافير أو بدونها. وترك لنا ابن سارة وصفا لبرجة مستطيلة الشكل، وضعت فيها السلاحف:

لله مسجورةٌ في شكلٍ ناظرةٍ من الأزاهر أهدابٌ لها وُطْفُ
فيها سلاحفٌ ألوانٌ تنامصها من مائها ولها من عَرْمَضٍ لُحْفُ
تسافرُ الشطُّ إلا حين يحضرها سرُّ الشنؤ فتستبدل وتصرف
كأنها حين يبدىها تصرفها جيش النصارى على أكتافها الحُجُفُ^(٦)

وفي وصف المياه الفؤارة نجد الشعراء استغلوا فكرة التجمد وهم يشيرون إلى التبيد والكؤوس والفاكهة، يقول المعتمد:

ولربما سلَّت لنا من مائها سيفا وكان عن النواظر مُغْمدا
طبعته لجا فذايت صفحة منه ولو جمدت لكان مهتدا^(٧)

ورثة أشكال مثيرة، بالغة الغرابة، قام المهندسون الأندلسيون بتنفيذها في عرض المياه، ووصف لنا أندلسي مجهول شكلا يدفع الماء بحوقا في شكل خباء، وتزقه الريح أحيانا:

ومُطَنَّبٌ للماء ما أوتأده لا نتائج فُكِرَ طبٌّ حائق
لعبت به أيدي الصب فكأنها عدى الصباية بالقواذ العائق^(٨)

واندفاع المياه في البرك والتوافير يجعلنا نعتقد بوجود مستودعات لها في مستوى أعلى من مستوى الحدائق والبرك، أو بوجود شبكة من القنوات تحمل المياه من الجبال المجاورة إلى مسافة قريبة حدا من التوافير التي تقذف بالماء، كما أن النواعير التي تقوم برفع المياه يمكن أن نسمع بتحقيق النتائج نفسها، وإليك ما يمكن أن يشيره غدير بغذي الماء المندفع من النافورة في خيال شاعر، يقول أبو الوليد القسطلي:

وفوق الدوحة القنا غديرٌ لئلا صفحة وسجا قرارا
إذا ما انصبَّ أزرَقُ مستقيماً تدور في البحيرة فاستدارا
يجرده قم الأنبوب صلتا حساما ثم يفلته سوارا^(٩)

(٥) من الرمل، والنظر الأول للمعتمد والثاني للرميكية، وينسبها الجباري في السهب إلى المعتمد وابن حمديس، وعنه نقلها نفع الطيب ٢١١/٤، وفي «بنو عباد» ٢٢٥/٢ - ٢٢٦، والبيحاني، تحفة الروس، في «بنو عباد»، ١٥١/٢ - ١٥٢، وقد ترجم دوزي القصة وناقشها في بنو عباد ٢٤٠/٣ - ٢٤٢، وحمريخ مسلمي إسبانيا، ج ٢ ص ٣ - ٨٦، والديهي في لصيح لغتي (على حاشية العكبري)، ٨٤/٢ - ٨٥ يسب النظر الأول إلى الخشيرة والثاني إلى ابن هاني.

(٦) من البسيط، القلائد ٢٧٣.

وفي حوض رشيق في أحد مجالس المنصور تمت توجد سلاحف أيضا، انظر أبيات أبي مروان عبد الملك بن دوس الخولاني في نفع الطب ٥٣٠/١، وأخرى لصاعد البغدلي في النفع أيضا ٨٠/٢.

(٧) من الكامل، نفع ٦٠٧/٣، وابن خضر، يدائع البداة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٧.

(٨) من الكامل، نفع ٦٠١/٣. (٩) من الوافر، نفع ٦٩/٤.

وقد أدخل الأمويون النواعير التي ترفع المياه حين أسسوا دولتهم في الأندلس^(١٠)، لأنها لم تكن موجودة في العصور التي سبقتهم رومانية أو قوطية، وقد أشرنا فيما سبق بمناسبة الحديث عن قرطبة إلى قصر الناعورة الذي أقامه أو أعدّه عبيد الرحمن الناصر^(١١)، وظل فيها يبدو قائماً حتى القرن الثالث عشر تحت اسم «النواعير»^(١٢)، وكانت الناعورة هي التي تنزح الماء من بئر وتدفع بها إلى الميضة في صحن المسجد الجامع في قرطبة حتى عصر الحكم الثاني^(١٣). وقد روى لنا لسان الدين بن الخطيب اعتماداً على «كتاب الفتوحات» بمناسبة حديثه عن الوادي الكبير في قرطبة، أن «نهر المجرة من نهرها الفيض، المسلول حسامه من غمود الغياض، قد لسق بها جارا، وفلك الدولاب، المعتدل الانقلاب، قد استقام مداره، ورجع الحنين اشتياقا إلى الحبيب الأول وأدكاره»^(١٤).

وإلى جانب ما تحمله الدواليب والنواعير من مياه نافعة، فإن دوران قواديسها وأنبيها، كما نسمعه الآن من مثلها في سورية والمغرب على ضفاف Orontes أو نهر فاس، كان يثير خيال الشعراء الأندلسيين، وقد وصف لنا محبوب النحوي، وعاش في آخر القرن الحادي عشر وأول القرن الذي يليه، ناعورة على النحو التالي:

وَذَاتِ حَنِينٍ مَا تَقِيضُ جَفَوْنَهَا مِنْ اللَّجَجِ الْخَضِرِ الصَّوافي عَلَى شَطْ
وَتَبْكِي فَتَحِي مِنْ دَمُوعِ عَيُونِهَا لَأَلَى رِياضٍ بِالْأَزَاهِيرِ فِي بُسْط
فَمِنْ حَمْرِ قَانٍ وَأَصْفَرٍ فاقِعٍ وَأَزْهَرٍ مَبِضٍ وَأَدَكْنَ مُسْطَ
كَانَ ضَرْفُ الْمَاءِ مِنْ قَوْى مَتْنَهَا لَأَلَى جَانٍ قَدْ نَظَمْنَ عَلَى قُرْطِ^(١٥)

ويقول أبو تمام غالب بن تمام الحجام عن دولاب:

يَا حُسْنَ مَا نَظَرُوا مِنَ الدُّولَابِ وَالْغَيْمِ يَحْسُدُهُ لَدَى التَّسْكَابِ
تَشَدُّوا فَيَطْرَبْنَا تَرْدُ شَدْوِهَا فَكأنَّا أَخَذَهُ عَنْ زُرْيَابِ^(١٦)
وَإِذَا الظَّلَامُ أُنِيَ تَشَوَّقَ صَوْتُهَا فَكأنَّا دَاوُدَ فِي الْحَرَابِ^(١٧)

لقد أتاحت لنا الفرصة من قبل لتحدث عن الدُّولَاب الذي كان يروى منية المأمون في طليطلة.

(١٠) انظر حول هذا الموضوع: ج. س. كولان، الناعورة المغربية وآلات الري في العالم العربي، في مجلة هيسبيريس، المجلد ١٦، العدد ١ عام ١٩٣٢، الصفحات ٣٦ و ٤١ و ٤٤ و ٤٥، وقال أصل النواعير في فاس، في هيسبيريس، المجلد ٦٦، العدد ١ ر ٢ عام ١٩٣٣، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(١١) انظر فيما سبق ص ١١٩ اقتداء التي كانت تحمل الماء إلى هذا القصر احتفل بافتتاحها في عام ٣٢٩ أو ٣٣٠ هـ = ٩٤١ أو ٩٤٢ م، انظر نفع ٥٦٤/١.

(١٢) انظر في النفع ٤٧٨/١ زجل قاسم بن عبود الرياحي.

(١٣) لبني روفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، ص ٢٦٨.

(١٤) أعمال الأعلام ١٤٦.

(١٥) من الطويل، نفع ٣٣١/٣، البدائع ٣٥٩.

(١٦) عن هذا المعنى الشهير انظر فيما سبق ص ٤٦.

(١٧) من الكامل، الذخيرة ٨٣٣/٣، وعن المحراب أو قاعة داود راجع: لقرآن الكريم سورة ص، الآيات ٢٠ - ٢١، وابن زيدون، الديوان ص ٤٩٦ القصيدة الغائية الشهيرة، وأيضاً كانت هناك دواليب ونواعير في مئزرقة في القرن الحادي عشر، انظر: العلوي في كتاب القزويني، آثار البلاد ص ٣٨١.

وأطلق اسمه على القاعة العظمى في مقر الإمارة فكانت تسمى «مجلس الناعورة»، وكان في قصر المعتمد فيل من الفضة على شاطئ بركة يقذف الماء، ويتغذى بدولاب^(١٨). وفي القرن الثاني عشر والثالث عشر وصف شعراء الأندلس أيضًا الدواليب الرافعة، ولكنهم لم يصنعوا شيئًا أتيد من تكرار أفكار زملائهم وصورهم في القرن الذي سبق، وباختصار لم ير الشعراء العرب في الدولاب المائي غير متعة الفناء المطرب، ولكنهم عندما تقنوا به أظهروا بوضوح قدرة الماء المخصصة، والتي بدورها يصبح الماء مادة بلا فائدة سواء كان في غولر العيون أم في مجرى الأنهار.



المياه الجارية من أنهار وجداول ومرع وقنوات، وما تبعته من حياة ألهمت شعراء الأندلس صورًا معينة، فقد شبهوها بالزواحف كبيرة أو صغيرة. فالمعتمد بن صامح أمير المرية يقعد على موضع يتداخل فيه الماء، في مجلسه بالصباحية، ويلوى في مناجيه، والمعتمد منشرح النفس فيقول: نظر إلى حسن هذا الماء في صبيته كأنه أرغم قد جد في هربه^(١٩) وحسام الدولة ابن رزين يشبه مياه تجرى بين الحماثل وأشجار الحدائق بالمبرد حين تهزها الريح فتتوج، وبالسيف الصقيل حين تسكن صافية:

إذا ما انسكاب الماء عابث خلته وقد كسرت راحة الربيع ببرده
وإن سكنت عنه حسيت صفاه حساما صقلا صافي الثني جردا^(٢٠)
ووشوشة المياه في غدير^(٢١) الحديقة، تندفع من أفواه الأسود، تذكر أبا الحسن بن هارون بزئيرها:

وحديقة شرفت بعد نهريها يحكي صفاء الجو صفو غديرها
تجري المياه بها أسود أحكمت من خالص العقيان في تصويرها
فكانت أسد الشرى في شكلها وكان وقع الماء صوت زئيرها^(٢٢)
وعندما يكون أكثر ضعفا يشبه أنين العاشق يعانى قسوة الهجر:
شربنا على ماء كأن خريره بكاء يحب بان عنه حبيب^(٢٣)

ومناسبة الأنهار والجداول تعرض من جديد لبعض الصور والتشبيهات التي تتخذ مادتها من البرك والجداول يقول ابن الحداد:

(١٨) انظر أبيات ابن الملح في نفع الطيب ٢٦٣/٤، وص ٢٩٧ من هذا الكتاب.
(١٩) لحلة السيرة ٨٥/٢، والقلاد ٤٩، ونفع ٦٦٦/١ وص ١٣٠، الماش رقم ١٢٣ من هذا الكتاب.
(٢٠) من الطويل، القلاد ٥٣، والنحو ١١٩/٢، ولحلة السيرة ١١١/٢.
(٢١) جدير بالإشارة هنا أن استخدام كلمة غدير ليس يعنى بحيرة أو بركة وإنما يعنى قناة، انظر: دوزي، محق المعاجم العربية ٢٠٢/٢، والقلعة: قناة أو جدول، وفي نفع الطيب ٢٦٠/١، السطور ١ - ٢ توجد كلمة «غدران»، وفي ص ٣٣٢ (غدير)، وفي ص ٣٢٥ «غدران» وفي ١٤٦/٢، ص ٢٦١ (طبعة أوروبا)، وفي الذخيرة ق ١ مجلد ٢ ص ٣٦٩، طبعة القاهرة.
(٢٢) لحلة السيرة ٢٠/٢.
(٢٣) نفع ٦٦٠/٢، والبدائع ٨٦.

إذا صافحته الريح تصقل متته وتضع منه صنع داود في السرد^(٢٤)
ويقول أبو القاسم بن العطار:

مرزنا بشاطير النهر بين حدائقها خلق الأزهار تستوقف الحدق
وقد نسجت كف النسيم مفاضة عليه، وما غير الحباب لها حدق^(٢٥)
وأحيانا يعطى وقع حبات المطر الكبيرة نفس الفكرة التي أعطتها الريح في هبوبها، يقول سهل بن مالك:

يُبدد القطر في أثائه خلقا فتظم الريح منها فوقه زردا^(٢٦)
وإلى جانب الإحساس بالشكل اهتم بعض الشعراء بالصور البصرية كالألوان، وبخاصة لون أشعة الشمس عند الغروب، يقول ابن سارة:

انظر النهر في رداء عروس صيفته بزعفران العشي
ثم لما هب النسيم عليه هز عطفيه في دلائل الكمي^(٢٧)
ويقليل من التأمل والبحث نجد أن ابن سارة يشبه موجات المياه في النهر براقصة تنسج وراء فستانها، وتظهر بعضا من أطرافها تارة:

والنهر قد رقت غلالة صغية وعليه من ذهب الأصيل طراز
تترقق الأمواج فيه كأنها عكن الخصور تضمها الأعجاز^(٢٨)

وجعل ابن حمديس الجدول يشعر بالألم حين ينساب فوق الحصى:
ومطر الأمواج يصقل متته صبا أعلنت للعين ما في ضميره
جريح بأطراف العصي كلما جرى عليها شكا أوجاعه بخبره^(٢٩)

كل هذه الأشعار يمكن أن يقال بلا تمييز عن كل المياه الجارية في إسبانيا، ويمكن أيضا أن يقال عن كل أنهار العالم، ولكن ثمة أنهار عديدة يتجدد وصفها عند شعراء الأندلس، وتغنوا بها أكثر من غيرها، ويمكن القول بأن الوادي الكبير أشهرها بينهم. وهو النهر الذي يروى عاصمتين كبيرتين: إشبيلية وقرطبة، وفي الجزء الأسفل من مجراه يتسع كما لو كان شعبة من بحر، وحيث يقوى الجزر والمد فيتاح نلسفن أن تصعد إلى عاصمة بني عباد على الأقل.

وكان يوجد بين إشبيلية وقرطبة خط ملاحى يسمح فيها يبدو بقطع المسافة بين البلدين بأكثر

(٢٤) من الطويل، الذخيرة ٢٢٠/١.

(٢٥) من الطويل، القلائد ٢٨٥، نفع ٦٥١/١.

(٢٦) من السبعة، نفع ٦٠٠/٢.

(٢٧) من المفقعة، نفع ٦٠١/٢.

(٢٨) من الكامل، نفع ٦٠٠/٢، وهـ ماسية في تكريم ن باسبه ٢٤٩/١.

(٢٩) من الطويل، الديوان طبعة شهربر بل، رقم ١١٤، ص ١٥٨، ونفع ٤٩٩/١، وهـ ماسية في تكريم ن باسبه ٢٤٩/١ -

الوسائل لطفاً، وثمة أبيات من اشعر أرسلها ابن عمر إلى المعتمد بن عباد حين كان هذا في قرطبة تجعلنا نرجح، في الحقيقة، أن هذه الخدمات، وقدم لنا الإدريسي قائمة كاملة بها ومصلة في القرن التالي^(٣٠)، كانت توجد على أيام بني عباد أيضاً

إِنْ شَتَّ فِي الْبَحْرِ فَارْكَبْ ظَهْرَ سَابِحَةٍ أَوْ شَتَّ فِي الْبَرِّ فَارْكَبْ ظَهْرَ طَائِرٍ
حَتَّى تَحُلَّ وَحَفَظَ اللَّهُ يَكْلُونَا سَاحَاتٍ قَصْرَكَ وَاتْرَكْنِي لِي دَارِي^(٣١)

وهناك شاعران تميزا بخاصة في وصف الوادي الكبير عند إشبيلية، يشواطئه تلقها الأنسام، وهما: أبو القسم بن العطار وابن اللبانة. يقول أولهما في شيء من التحذلق:

رَكِبْنَا عَلَى اسْمِ اللَّهِ نَهْرًا^(٣٢) حُبَابٌ عَلَى عِطْفِيهِ وَشَيْءٌ حَبَابٍ
وِلَا حَامٌ جَالٌ فِيهِ فَرْنَدُهُ لَهُ مِنْ مَدِيدِ الظِّلِّ أَيْ قَرَابِ^(٣٣)

والثاني يبكي المعتمد، وانتهى به المطاف أسير في أغصان، وفيها مات، ويشير إلى فتنة الوادي الكبير:

أَرْضٌ كَأَنَّ عَلَى أَقْطَارِهَا سُرُجًا قَدْ أَوْقَدْتَهُنَّ فِي الْأَذْهَانِ أَنْبَاءُ
وَفَوْقِي شَاطِئِي وَادِيَا رِياضٍ رُبَا قَدْ ظَلَّلْتُهُمَا مِنَ الْأَنْسَامِ دُوحَاتُ
كَأَنَّ وَادِيَا سَلَكَ بِطَلَّتْهَا وَغَايَةُ الْحُسْنِ أَسْلَاكُ وَلَبَّاتُ
وَرَبَّمَا كُنْتُ أَسْمُو لِلْخَلِيجِ بِهِ وَفِي الْخَلِيجِ لِأَهْلِ الرَّاحِ رَاحَاتُ
وَبِالْفَرُوسَاتِ لَا جَفَّتْ مَنَابِتُهَا مِنْ النِّعَمِ غُرُوسَاتُ حَيَاتِ^(٣٤)

وهذه الأبيات الأخيرة تبين لنا مدى اقتناع أهل إشبيلية بالوادي الكبير، ولم يكونوا يكتفون بالتزعم على شواطئه الظليلة، وإنما على صفحة الماء أيضاً، في قوارب جميلة، ويبدو أن هذا اللون من تسلية كان ذوقاً أندلسياً خالصاً، وإسبانياً مسلماً بعامه^(٣٥)، ويكرر القول أن الأندلسيين وهم يبحثون في الانزلاق

(٣٠) انظر: الإدريسي، وصف أفريقيا وإسبانيا، النص العربي ص ٢٠٧ - ٢٠٨، والترجمة الفرنسية ص ٢٥٦، وانظر فيما سبق ص ١١٩ هامش رقم ٦١ من هذا الكتاب.

(٣١) من البسيط، الحلة ١٣٣/١ وفي «بنو عباد» ٨٨/٢ وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢، ٤٠/٣.

(٣٢) اسم النهر الوادي الكبير، وقد فصل بينها الشاعر، الكبير وهو من أسباء الله الحسنى، والوادي ومعناها في لغة الأندلس، النهر، واستخدم هذا اللفظ لأخير.

(٣٣) من الطويل، الفلاند ص ٢٨٤.

(٣٤) من البسيط، الفلاند ص ٣٠ الأبيات ٢٢ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٩ و ٤٠، وفي بنو عباد ٧٠/١، والترجمة ص ١٦٣ - ١٦٤. ويجد هذه الأبيات صدى في أزجال ابن قزمان، الديوان القطعة رقم ٢ - ص ٦٧ و ٦٨ و ٣٧٩ - ٣٨٠. ونجد في مقدمة ابن خلدون وصفاً لجلسي ضم خمسة من الوشاحين فوق الماء، في إشبيلية: نص كاترمير ٤٠٥/٣ - ٤٠٧، طبعة القاهرة: ٥٤٨، وترجمة سنان ٤٣٧ - ٤٣٨.

(٣٥) وقد احتفظ المغاربة في الرباط وسلا، وهم في مجملتهم بتحترون من أصول أندلسية، بهذا اللوق. انظر لـ بريتو، البحر في التقاليد والصناعة عند سكان الرباط وسلا الأندلسيين، ص ٩٨ - ٩٠. وهذه الجولات في المراكب كان يطلق عليها اسم نزاعة انظر ابن عيسى، رسالة في الحبسة، هامش صفحة ٢٩٦، وابن قزمان، الديوان، القطعة ٢٨ ص ٦٧ و ٣٧٩، وابن خلدون، المقدمة، نص كاترمير ٤٠٥/٣، والقاهرة: ٥٤٨، وترجمة سنان ٤٣٧/٣، وص ٣٦. هامش ١٠٠ من هذا الكتاب. وعن معنى مختلف لهذه الكلمات انظر لـ مرسية، اللهجة العربية المتكلمة في تلمسان، ص ٢٠٠ رقم ٣، ودورى، ملحق المعاجد ٦٦٣/٢.

الخفيف واعتزاز القوارب الهادىء عن تهذبة انفعالاتهم أو غذاء أحلامهم، لم يكونوا مقلدين للمشاركة. وعندما أطلق المنصور العظيم على زورقه اسم الرو^(٢٦) لم يكن قد استورد من المشرق غير اللفظ، أما العادة فكانت توجد في إسبانيا من أزمنة بعيدة خلت، ويمكن القول إنها ربما تعود إلى العصر الرومانى. وتضم المختارات الشعرية صفحات لا تحصى تبث هذه المشاهد نهائية أو ليلية، ولو أنها كانت تتم في الليل غالباً، ويقوم بها عادة الأمراء رفقة أصدقائهم الحميمين، وهم دأباً من الرجال الذين يتميزون بالذكاء العالى، وأحياناً كان الشعراء هم الذين يدفعونهم إلى المغامرة ليلاً، ويحملون معهم فانوساً، فقد يقع الأصطدام بين القوارب المختلفة، وشموعاً مضاءة، تنمكس أشعتها على اللجة، فتأخذ شكل قزح مع توج الماء، ويشير إلى ذلك عبد الجليل بن وهبون حين يقول:

كأنا الشمعتان إذ سَمتا خذاً غلامٌ مُحسِنُ الغَيْدِ
وفي حشا النهرِ من شعاعهما طريقُ نارِ الهوى إلى كبدى^(٢٧)

ونزهة في قارب سراعى مع مغرب الشمس أفضل من غيرها، وأكثر بهجة، عند آخرين، يقول ابن سارة وقد ركب «مع أصحاب له في نهر إشبيلية في عشية سال أصيلها على لجين الماء عقياناً، وطاروت زواريقها في سماء النهر عقياناً، وأبدى نسيهما من الأمواج والدارات سرورا وأعكانا، في زورق يجول جولان الطرف، ويسود أسوداد الطرف»:

تأملُ حائناً والجو طلقٌ محيَّاهُ وقد طفلَ المساءُ
وقد جالت بنا عذراءُ حبلِي تجاذبُ مِرطَها رِيحُ رِخاءِ^(٢٨)
بنهرٍ كالسجَنجلِ كوثرِي تَعبَسُ وجهها فيه السماءُ^(٢٩)

ولم يكن الوادى الكبير النهر الوحيد في إسبانيا الذى يمكن أن يقدم مثل تلك المشاهد نهارة وليلاً، فقد كان نهر الإبر كذلك في عصر المستعنين بالله، ويأخذ في بعض فصول العام شكلاً ألقاً غير مألوف، وبخاصة في اللحظة التى تتكاثر فيها الأسماك، وقد وصف لنا الوزير الكاتب أبو الفضل بن حسداى شعرا حفلة صيد شارك فيها الأمير ورجال البلاط المقربون، وقدم لنا ابن خاقان الذى أورد الأبيات الوصف التالى مدخلاً لها:

«ركب المستعنين بالله يوماً نهر سر قسطة يريد طراداً لذته، ولارتياذ نزهته، وافترقا أحد حصونه المنتظمة بلبته، واجتمع له من أصحابه، من اختصه لاستصحابه، وفيهم أبو الفضل مشاهداً لانقراضهم، سالكا لمناهجهم، والمستعنين قد أحضر من آلات إيناسه، وأظهر من أنواع ذلك وأجناسه، مارق من

(٢٦) هذا الاسم أطلقه من الخلفاء العباسيين المصمم، المتوفى ٢٢٧ هـ = ٨٤٢ م، والنوكل، المتوفى ٢٤٧ هـ = ٨٦١ م، على مركب لها للنزهة تفوق مياه القرات، انظر: دورى، ملحق المعاجم ١/٦١٠، ومتر النهضة ٤٥٢، وترجمه فيل ٥٧٦، وعن المنصور ومركبه الزو انظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٨٠.

(٢٧) من المنسرح، القلاند ٢٤٣، وعنه في النفع ١/٦٥٧.

(٢٨) شبه امركب بسبب شراعها بقناة حبل، لأنها تعمل في جوفها مخلوقات إنسانية، ومع ذلك فهى عذراء، لأنها لم تستطع الزواج.

(٢٩) من الواقر، نفع ٣/٣١٨.

حَضَرَ، وفاق حُسْنَهُ الرَوْضَ الْأَنْضَرَ، وَالزَّوَارِقُ قَدْ حَفَّتْ بِهِ، وَالتَّفْتُ بِجَوَانِبِهِ، وَنَفَمَاتٍ لِأَوْتَارِ تَحْسِنِ السَّائِرِ عَنْ عُدُوهِ، وَتَحْسِنِ الطَّائِرِ الْمَفْصَحِ بِشِدْوِهِ، وَالسَّمَلُ تَشْبِيهَا الْمَكَادِ، وَتَقْوَصُ إِلَيْهَا الْحَصَايِدُ، فَتَبْرُزُ مِنْهَا لِلْعَيْنِ، قُضْبَانٌ دُرٌّ أَوْ سَبَانُكَ الْجَبِينِ وَالرَّاحُ لَا يَطْمَسُ لَهَا لَمَعٌ، وَلَا يَبْخَسُ مِنْهَا بَصَرٌ وَلَا سَمْعٌ، وَالْدَهْرُ قَدْ غَضَّتْ صُرُوفَهُ، وَاقْتَصَصَ مِنْ نَكْرِهِ مَعْرُوفَهُ، فَقَالَ أَبُو الْفَضْلِ:

لَهُ يَوْمٌ أَتَقَى وَاضِحُ الْخَرِيرِ مَنْضُضٌ مُذْهَبُ الْأَصَالِ وَلَيْكِرِ
كَأَنَّمَا الدَّهْرُ لَنَا سَاءَ أَعْتَيْنَا فَهْ يَعْتَنِي وَأَبْدَى صَفَحٌ يَعْتَدِرِ
نَسِيرٌ فِي ذَوْرِي حَفٌّ الْحَفِينُ بِهِ مِنْ جَانِبِهِ يَنْظُومُ وَمُتَنَزِّرِ
مَدُّ الشَّرَاعِ بِهِ نَشْرًا عَلَى مَلِكِ بِذِ الْأَوَائِلِ فِي أَيَّامِهِ الْأَخِيرِ
هُوَ الْإِمَامُ الْهَمَامُ الْمُسْتَعِينُ حَوَى عَلِيَاءَ مُؤْتَمِنٌ فِي هُدًى مَقْتَدِرِ^(٤٠)
تَحْوِي السَّفِينَةَ مِنْهُ آيَةٌ عَجِيبَا بِحَرٍّ تَجْمَعُ حَتَّى صَارَ فِي نَهْرِ
تُشَارُ مِنْ قَعْرِهِ الثَّيْنَانُ مَصْعَدَا صَيْدَا كَمَا ظَفَرَ الْغَوَاصُ بِالْأُثَرِ
وَاللَّيْدَامَى بِهِ عَبٌّ وَمُسْتَشْفٍ كَالرِّيقِ يَعْدِبُ فِي وَرْدٍ وَفِي صَدْرِ
وَالشَّرْبُ فِي وَدٍّ مَوْلَى خُفِّهِ وَهَرَّ يَكُو وَيَهْجُهُ آيِي مِنَ الْقَرِّ^(٤١)

وَيُنَاسِبُ الْمُتَزَهَاتِ وَالْمُتَزَهَاتِ اللَّيْلِيَّاتِ الَّتِي كَانَتْ تَحِيفُ بِالْمَدَنِ الْكَبِيرِ، مِنَ الْمُنَاسِبِ أَنْ تَتَحَدَّثَ عَنِ الْأَنْهَارِ وَالْجُدَاوِلِ الَّتِي يَتَوَاعَدُ رَفَقَهُ الْمَرْحُ وَالْبَهْجَةُ عَلَى قَضَاءِ لِحَفَاتِ لَطِيفَةِ عِنْدَهَا، وَيَكْتَفِي أَنْ تَذَكَّرَ الْوَادِي الْكَبِيرَ، وَالْقَنْطَرَةَ الْمَقَامَةَ عَلَيْهِ عِنْدَ قَرْطِيَّةٍ، وَنَهْرٍ سَلَبَ الَّذِي يَرَوِي شَنْتَبُوسَ أَيْضًا، مَسْقُطَ رَأْسِ الشَّاعِرِ ابْنِ عِمَارٍ، وَتَمَّةٌ تَجْرِي مَاءَ يَدِ هَشْنَا إِلَّا نَجْدَ لَهُ ذِكْرًا هُنَا، وَهُوَ نَهْرُ شَقْرِ، وَقَدْ تَبَارَى كُلُّ شِعْرَاءِ جَزِيرَةِ شَقْرِ، أَوْ الْجَزِيرَةِ فَحَسِبَ، فِي اخْتِفَى بِهِ، وَنَكَتَفَى مِنَّا بِوصفِ ابْنِ خَفَاجَةَ لَهُ، وَهُوَ أَشْهَرُهُمْ جَمِيعًا:

لَهُ نَهْرٌ سَالٌ فِي بَطْحَاءِ أَشْهَى وَرُودًا مِنْ كَمَى الْحَسَنَاءِ
مَتَعَطِّفٌ مِثْلَ السَّوَارِ كَأَنَّهُ وَالزَّهِيرُ يَكْنُقُهُ بِحَرٍّ سَاءِ
قَدْ رَقَّ حَتَّى ظَنَّ قَرَصًا مُفْرَغَا مِنْ قُضْيَةٍ فِي بُرْدَةٍ خَضْرَاءِ^(٤٢)
وَعَدَتْ تَحْضُ بِهِ الْفُصُوفُ كَأَنَّمَا فَنَدَبٌ تَحْضُ بِمَقْلَةٍ زُرْقَاءِ
وَلَطَانًا عَاطِلَتْ فِيهِ مُدَامَةً حَفْرَاءَ تَحْضُ بِأَيْدِيٍّ لِلتَّدْمَاءِ
وَالرَّيْحُ تَعْبَتْ بِالْفُصُوفِ وَقَدْ جَرَى ضَبُّ الْأَصِيلِ عَلَى لَجِينِ الْمَاءِ^(٤٣)

وَمَعَ ذَلِكَ، فَهَذِهِ الْأَنْهَارُ الْإِسْبَاتِيَّةُ الَّتِي فَتَنْتَ سَكَانَ أَحَدِنَ، يُمْكِنُ أَنْ تُكَوِّنَ لَهَا يَقِظَاتٍ مَرْعِيَّةً، وَلِهَذَا لَمْ يَصِفْ شِعْرَاءُ الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ مِيَاهُ الْأَنْهَارِ الْمَادَّةَ، يَرْغَبُونَهَا لِلْمَتْعَةِ فَحَسِبَ، وَإِنَّمَا نَجَدْنَاهُمْ

(٤٠) يَقُمُ لِشَاعِرٍ فِي هَذَا الْبَيْتِ نَسَبُ أَمِيرِ سَرْقِطَةَ الَّذِي يَتَنَسَبُ إِلَى أُسْرَةِ بَنِي هُوْدَ.

(٤١) مِنَ الْبَسِطِ، الْقَلَاءُ ١٨٥ - ١٨٦. وَعَنْهُ فِي نَفْحِ ١٤٢/١، هَابِنُ ظَافَرُ، الْبَدَائِعُ ص ٣٦٧، وَنَقَلَ النَّفْعَ رَوَايَةَ الْبَدَائِعِ أَيْضًا ج ٣ ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٤٢) لَا يَبْدُو أَنَّ نَصَّ الْبَيْتِ قَدْ أَصَابَهُ تَحْرِيفٌ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا نَعْرِفُ الْكَلِمَةَ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَحِلَّ مَكَانَ كَلِمَةِ «نَرَسِ»، وَفِي دَرَاةِ النَّفْعِ بَدَلًا مِنْهَا كَلِمَةُ «فَرْد» وَلَا أَرَاهُ مَرْتَبَةً.

(٤٣) مِنَ الْكَامِلِ، ابْنُ خَفَاجَةَ، الدِّيُونُ، الْخَطْمَةُ ٢٩٠، ص ٣٥٦، وَالشَّقْدِيُّ فِي «رِسَالَةٍ فِي قِصَاصِ الْأَنْدَلُسِ»، فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ ٢٠١/٣، وَفِي تَرْجُمَةِ غُرُوسِ غُوثٍ لِلرِّسَالَةِ ص ٧٢ - ٧٣، وَالتَّوْبَرِيُّ تَوَامَةُ الْأَرَبِ، ج ١ ص ٢٧٢، ط ٢، الْأَبْيَاتُ ١ و ٤ و ٦.

أحياناً يذكرون الأتهار المانجة تفيض متدفعة عقب الأمطار الغزيرة، وتكتسح في طريقها كل ما تلقى، وقد عانت بلنسية من فيضان في ٤٨١ هـ = أكتوبر ١٠٨٨ م، وأغرق برج القنطرة نفسه^(٤٤) وعانت مرسية أيضاً أضراراً كبيرة من الفيضانات في عصر أبي عبد الرحمن بن طاهر^(٤٥)، ونظن أن نهر شقر نفسه لا بد أن يكون أثار مخاوف جادة فيمن يقيمون حوله، في موسم الأمطار الغزيرة، وبخاصة في منطقة الجزيرة، وقد صور لنا ابن خفاجة بعض هذه الفيضانات:

الآ طم بحر أق طيا	وجد انكفاء ساء تجود
فأهوت نحر هناك البني	كما تلقى الملوك الوفود
ومالت كأن عليها صلاة	فبعض ركوع وبعض سجود ^(٤٦)

(٤٤) انظر كتاب الاكتفاء، طبعة المعهد المصري في مدريد، ص ٩٨ - ٩٩ وفي «نهر عباد» ٢/٢٤.

(٤٥) انظر القلائد، ص ٦٢ - ٦٣.

(٤٦) بحر المتقارب، الديوان، القطعة ٢٤٩، ص ٣٠٨، وانظر أيضاً القطعة رقم ٢٤٠ ص ٣٠٧.

○ الفصل الخامس :

البحر والسفن

ليست إسبانيا بلد المدن الكبيرة والوديان والجبال والحدائق والبساتين فحسب، وإنما أيضا بلد ساحلى لا يتصل ببقية دار الإسلام إلا عن طريق البحر. وحين يقول المقرئ:

ثَلَاثَةُ لَيْسَ لَهَا أَمَانُ الْبَحْرِ وَالسُّلْطَانُ وَلِزَمَانُ^(١)

فإنما يعبّر في قوله هذا عن مشاعر الأغلبية من المسلمين على الأقل فيما يتصل بالبحر. بعامة لم يصف الشعراء البحر إلا ليبيّنوا أخطاره كلها، وابن حمديس الذى قطع مسافات كبيرة من صقلية إلى إسبانيا، ومن إسبانيا إلى أفريقيا، لم يذكر لنا من رحلاته سوى الفتيان الذى أصابه والمخاطر التى تعرض لها المسافرون:

لَا أُرْكَبُ الْبَحْرَ نَخْشَى عَلَى مِنْهُ الْمَعَاظِبُ
طِينُ أَنَا وَهُوَ مَاءٌ وَالطِّينُ فِي الْمَاءِ قَاتِبُ^(٢)

وفي أبيات أخرى نجده يتحدّر أصدقاؤه من ركوب البحر:

أَرَاكَ رَكِبْتَ فِي الْأَهْوَالِ بَحْرًا عَظِيمًا لَيْسَ يُؤْمَنُ مِنْ خَطْوَيْهِ
تُسَيِّرُ فَلَكُهُ شَرْقًا وَغَرْبًا وَتُدْفَعُ مِنْ صَبَاءٍ إِلَى جَنْبِهِ
وَأَصْعَبُ مِنْ رُكُوبِ الْحَرِّ عِنْدِي أُمُورُ الْجَنَاسِكَ إِلَى رُكُوبِهِ^(٣)

وتلقى أبو الحسن الحصرى وهو في سبته دعوة من إشبيلية، ولم ير واجبا عليه أن يستجيب لها رغم إلحاح المتمد، وما كان عليه إلا أن يعبر مضيق جبل طارق، وكتب إليه:

أَمَرْتَنِي بِرُكُوبِ الْبَحْرِ أَقْطَعُهُ غَيْرَى لَكَ الْخَيْرُ فَاخْصَصْهُ بِذَا الدَّاءِ
مَا أَنْتَ نَوْحُ فَتَنْجِنِي سَفِينَتُهُ وَلَا الْمَسِيحُ أَنَا أَمْشَى عَلَى الْمَاءِ^(٤)

ويقول أبو الوليد هشام الرقشى، وعزم على ركوب البحر إلى الحجاز فباهه ذلك:

لَا أُرْكَبُ الْبَحْرَ وَلَوْ أَتَيْتُ ضَرَبْتُ فِيهِ بِالْحَصَى فَانْتَلَقْتُ

(١) من السريع، نفع ٣٤/١، وديباج، مقدمة الطبعة الأوربية ٢٧/١.

(٢) من المجتث، نفع ٢٧١/٤، وقد أخذ ابن حمديس هذه الفكرة من شاعر آخر مجهول:

إِنَّ إِبْنَ آدَمَ طِينٌ وَالْبَحْرُ مَاءٌ يَنْبِئُ
لَوْلَا السُّنَى قَبْلَهُ يَتَلَّى مَا جَازَ عِنْدِي وَكُوبُ

من المجتث، نفع ٢٧١/٤.

(٣) من الواو، نفع ٢٧١/٤.

(٤) من البسيط، الصفدى، نكت الحيان في نكت الصبيان ٢١٤، والترجمة الفرنسية به لأحمد زكى ص ٥٧

ما إن رَأَتْ عَمِيَّ أَمَاجُهُ فِي فِرْقِي إِلَّا تَنَاهَى الْفَرَقُ^(٥)

وعندما أُنذر المرابطون موجة من «التطهير» كرد فعل ضد تسبب ملوك الطوائف، اتخذ الشعراء من ذوى الميول الأخلاقية من أخطار البحر صورا وتشبيهات ليعطوا أفكارهم مزيدا من القوة، يقول أبو القاسم بن العطار:

الحُبُّ تَسْبِيحٌ فِي أَمَاجِهِ الْمَهْجُ لَوْ مَدُّ كَفًّا إِلَى الْغُرْقَى بِهِ الْفَرْجُ
بَحْرُ الْمَوْتِ غَرَقَتْ فِيهِ سَوَاحِلُهُ فَهَلْ سَمِعْتُمْ بِبَحْرِ كُلِّ لَجَجٍ^(٦)

وأوحى طوفان الحياة إلى أبي الفضل بن حسان الغساني هذه الأبيات:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا بِحَارٌ تَلَاطَمَتْ فَمَا أَكْثَرَ الْفِرْقَى عَلَى الْجَنَابَاتِ
وَأَكْثَرَ مَنْ صَاحَبَتْ يُفْرَقُ إِلَيْهَا وَقُلُّ قَوْمٌ يُنْجَى مِنَ الْفُجَرَاتِ^(٧)

بَعْدَ ذَلِكَ لَزِمَنَ الَّذِي مَا كَادَ الْعَرَبُ يَخْرُجُونَ فِيهِ مِنْ شِبْهِ جَزِيرَتِهِمْ، وَيَتَدَفَعُونَ لِفَتْحِ الْعَالَمِ حَتَّى تَوْقَفُوا مَدْعُوشِينَ أَمَامَ أَمَاجٍ يَحِرُّ الرُّومُ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الدَّهْشَةَ وَهَذَا التَّرَدُّدَ لَمْ يَدُمِ طَوِيلًا، فَقَدْ أَعَانَهُمُ الْمُسْلِمُونَ الْجَدِيدُ مِنْ مَصْرِيِّينَ وَبِيزَنْتِيِّينَ وَبُيُوتَانِيِّينَ وَبُيُوتَانِيِّينَ، وَكُلُّهُمْ أَلْفَوْا الْبَحْرَ وَاعْتَادُوا السَّفَرَ فِيهِ لِمَسَافَاتٍ قَرِيبَةٍ أَوْ بَعِيدَةٍ، وَالتَّرَدُّدُ عَلَى سَوَاحِلِهِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَمَنْ ثَمَّ لَمْ يَتَأَخَّرُوا فِي الْإِنْتِقَاضِ عَلَى الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمَتَوَسِّطِ، وَالْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ يَدْعَوَانِهِمْ إِلَى مُوَاجَهَةِ هَيْجَانِ الْأُمُوجِ^(٨).

وكان الأمويون في الأندلس، وبخاصة في عصر عبد الرحمن الناصر، يملكون أسطولا قويا يضم عددا كبيرا من السفن، ومصانع لبنائها في المرية وقصر أبي دانس^(٩)، ويقوده أمير البحر الشهير ابن رُمَاحس^(١٠)، وكانت سفنه تحكم البحر الأبيض كله وتسيطر عليه، وتؤمن النقل البحري بين المرية

(٥) من السبع، فتح ٣٧٧/٣، وقد عبر ابن العربي أيضا نثرا عن الرعب الذي أثاره فيه عبور البحر، انظر فتح ٢١٧/٢، وهو نص منقول من «قانون التأويل» لابن العربي.

(٦) من البسيط، القلائد ٢٨٧.

(٧) من البسيط، فتح ٣٢٩/٤، لا نستطيع أن نترك الموازنة بين هذه الأبيات والأشعار الموجزة، وجاءت نثرا لشاعر من القرن الحادى عشر، وأشيرنا إليه أكثر من مرة وهو أبو الفضل بن شرف «المظلي» مال السلطان كالسفينة في البحر إن أدخلت بعضه في جوفها، أدخل جميعها في جوفه»، «والتناقص الدق لا يبلغ لشعده إلا بوضعه كهوجل السفينة لا يُنتفع بضبطه، إلا بعد الغاية في حطه» القلائد ٢٥٢ - ٢٥٣، ونقلها وترجمها إلى الفرنسية دوزي في كتابه أبحاث، ط ١ ص ٩٧ - ٩٨، والطبعة الثانية ٢٥٢/١، والملاحق ص ٥٤.

(٨) انظر القرآن الكريم: سورة هود الآية ٤٣، وسورة إبراهيم الآية ٣٧، وسورة الإسراء الآية ٦٩، وسورة الشورى الآية ٣٢، وصحيح البخارى ٩١/٢، وابن ماجه ٩٢/٢: «المسافرون في البحر كاللؤلؤ على الأسرّة»، وانظر أيضا: ل. بريثوه، البحر في التقاليد والصناعة عند مواطنى الرباط ورسلا الأصليين، باريس ١٩٢٩، ص ١ - ٣ و ٢٣٩ - ٢٤٢.

(٩) في البرتغال، وتسمى اليوم قصر الملح Alcazer do Sal، انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٥٨، والإدرسي في لترجمة الفرنسية ٢١١ - ٢١٩، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٩٤ / ٢٥٤ - ٣١٧ / ٤٩٢.

(١٠) انظره ابن خلدون، المقدمه، طبعه كاتزمر ٣٥/٢، وترجمة دى سلان ٤٠/٢، وطبعة بيروت ٢٥٣، بنة القاهرة ٢٢٠، ولبنى برونسالي، تاريخ إسبانيا الإسلامية، ط ٢ ج ٢ ص ١٧٠، ١٧١، ١٩١، ١٩٣، ٢٣٢، للمارش رقم ١، وبخاصة صفحة ٢٦٢ والملاحق رقم ١.

والإسكندرية، وهو العصر الذي يقول عنه ابن خلدون: «لم تظهر للنصرانية فيه الواسع»^(١١). وكان للفاطميين أيضاً أسطولهم الخاص بهم، وقد وصفه ابن هاني الأندلسي في قصيدة شاعت ودأبت وطوّقت الأفاق^(١٢). ومع الرخاء الذي عمّ إسبانيا في القرن العاشر، والأمن الذي ساد البحر الأبيض المتوسط في ذلك الوقت، بدأت قوافل المسلمين الذين يتجهون إلى مكة لأداء فريضة الحج عن طريق البحر يتزايدون كل يوم، وإذا لم يصبح البحر مألوفاً تماماً لهم جميعاً، لم يعد على الأقل يثير فيهم لحوف كما كان الحال قديماً^(١٣). ومع سقوط الخلافة الأموية في قرطبة، وقيام إمارات بطليوس وإشبيلية والمرية ودانية وبلنسية فإن هؤلاء تقاسموا فيما بينهم أسطول الأسرة الهاوية.

وفي الإمارات التي تقع على شاطئ البحر، حيث توجد المدن الكبيرة، لعبت السفن دوراً هاماً في نقل التحوين في حالات الحصار البري، وتهرب إذا عرضت لها نكبة. وحين تفتقد الطرق الأمان يسبب لجروب التي لا تنتهي بين ملوك الطوائف أخذوا يستخدمون سفناً صغيرة للانتقال من ميناء إلى آخر. وكان ابن دراج القسطلي الشاعر، في بحثه عن نصير للأدب والعلوم إثر تفرق العمرين في كل مكان، قد خلق بحراً بخيران الصقلي أمير المرية، وأول قصيدة طويلة توجه بها إلى راعيه الحديبد يمدحه، صحتها سبعة عشر بيتاً، يصف فيها محنته في ركوب البحر إليه مع بنيه عام ٤٠٧هـ = ١٠١٦م^(١٤).

وعندما اجتمع المعتمد بن عباد مع يوسف بن تاشفين أمير المرابطين لحنه على مساعدة الأندلسيين الذين يضغط عليهم النصارى، عبر المضييق على سفينة خاصة به، ووصف لنا أبو عبيد اليكري وعبد الجليل بن وهبون، رحلة الأمير البحرية في قصائدهم الشعرية^(١٥). حينما استولى المرابطون على إشبيلية قاموا بحرق شوانى المعتمد الراسية في مياه الوادي الكبير^(١٦)، ورحل الأمير عن إشبيلية بعد سقوط الأسرة العبادية مع جانب من أسرته على بعض السفن. ومازلنا نذكر المشاهد المحزنة، والمواقف العصية، التي صاحبت هذه الرحلة، وأتاحت لابن اللبابة الشاعر أن يصورها في قصيدة من أروع قصائد الشعر، وتحفظ بجملاتها المأسوي حتى يومنا هذا، وأشرنا إليها وذكرناها فيما سبق^(١٧).

(١١) ابن خلدون، المقدمة، طبعة كازمير ٣٦/٢، وطبعة بيروت ٢٥٤، وترجمة دي سلان ٤٢/٢، وج ميسيه، ملاحظة عن الرباط في بلاد البربر، في تكريم رينيه باسيه ٤٠٤/٢، وفي الفصل المستقلة ص ١٠.

(١٢) القصيدة من الطويل، نفع ٣/٤، والدروان، تحقيق زاهد علي ص ٨١٨.

(١٣) وصف لنا الحاجب المصفي من القرن العاشر عاصفة في البحر، في قصيدة من الطويل أوردها ابن الأثير في الحلة السراء ٢٦١/١، وصف ابن دراج القسطل المنصور بن أبي هاجر عندما خص أسطول الوزير القوي بقطوعة من أيلان ثمانية أطراف فيها. من الطويل، نفع ٨٧/٤، وانظر: بلاشير، حياة ابن دراج القسطل وشعره، في مجلة هيسبريس، المجلد ١٦، عام ١٩٣٣، ص ١٠٤. (١٤) من الطويل، أعمال الأعلام ٢١٢ - ٢١٥، ونفع ٤٤١/٢، ولتمجروني، النسخة للسكينة، ترجمة كاستريزه ص ١٧، وهذه القصيدة تضمنت البيت الشهير، وما أكثر ما نشير إليه:

ألا هل إلى الدنيا ساد يهل لنا سوى البحر قير أر سوى الماء أكفان

(١٥) انظر فيما سبق ص ٩٤ من هذا الكتاب.

(١٦) لمحب طيبة القاهرة، تحقيق محمد سيد العرين ط ١ من ١٤٨، وترجمته إلى الفرنسية ص ١٢٠ وفي تفسير كلمة شوانى انظر: دوزي، ملحق المعاجم العربية ٣٩١/١. يهودفروى - ديومين في: تكريم ر. باسيه ٢٩٤/٢ هامش رقم ٣. ر. بريشفيج، روبانان ... ص ٩١ رقم ١، وحبيب انوت، مجلة المشرق، يولية - ديسمبر ١٩٤٩، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(١٧) انظر ص ٩٥ و ٩٦ فيما سبق من هذا الكتاب.

وكان المعتصم أمير المرية يحتفظ بأسطول له أيضا، ويقول عنه الفتح بن خافان إنه «اشتغل بترميم أساطيله... ولم يزد على مراعاة أمر جواريه وفلكه»^(١٨). ووصف لنا ابن الخداد هذه السفن في قصيدة وصلتنا في جانب منها بفضل المقرئ:

هَامَ حَزَفُ الرَّدَى بِهَامِ الْأَعَادَى أَنْ سَمْتُ نَحْوَهُمْ طَا أَجْيَادُ
وَسَرَّاتٍ بِسَرِّهَا كَعَيُونِ دَائِبَا مَشَلَّ خَائِفِيهَا سُهَادُ
ذَاتُ هُدْبٍ مِنَ الْمَجَازِفِ حَاكٍ هُدْبٌ بِأَكْ لَدَمْعِهِ إِسْعَادُ
حُمٌّ فَوْقَهَا مِنَ الْبَيْضِ نَارٌ كَيْلٌ مِنْ أُرْسَلَتْ عَلَيْهِ رِمَادُ
وَمِنْ الْخَطِّ فِي بَدْنِ كُلِّ دُرٍّ أَلْفُ خَطِّهَا عَلَى الْبَحْرِ صَادُ^(١٩)

وقد وصف لنا أبو الحسن بن الحاج اللورقي رحيل عز الدولة بعرا هاربا عند دخول المرابطين المرية، في قصيدة غمسة يرثي فيها ابن صمادح، ويندب الأندلس في زمن الفتنة^(٢٠):

ومع ذلك، علينا ألا نبالغ كثيرا في القوة الحقيقية لهذه الأساطيل، لأن دائرة عملها كانت محدودة إلى حد كبير، وظل عبور غربي البحر الأبيض المتوسط يشكل خطرا جسيما للغاية، وبقيت سيادة البحر في يد النصارى، وأبلغ النصوص تعبيراً عن هذا الواقع تركه لنا شاعر من صقلية يدعى أبو العرب مصعب الصقلي، ورفض أن يركب البحر إلى إشبيلية ليلحق بالمعتمد، رغم أن هذا عرض عليه خمس مئة دينار ذهباً، وكتب إليه:

لَا تَجْعَلْ لِرَأْسِي كَيْفَ شَابِ أُسْقِ وَاعْجَبْ لَأَسْوَدَ عَيْنِي كَيْفَ لَمْ يَشَبْ
الْبَحْرُ لِلرُّومِ لَا تَجْرِي السَّفِينُ بِهِ إِلَّا عَلَى غُرَرٍ وَالْبَرْءُ لِلْعَرَبِ^(٢١)

ولكن أسطول أمراء دانية والجزائر الشرقية يحتل مكانة لا بأس بها، فالأساطيل التي خلفها الأمويون وتقاسمها الآخرون ازدادت عددا، وحين استولى مجاهد على جزيرة سردينية كان أسطولها يتكون من مئة وعشرين سفينة^(٢٢)، لأن امتلاك قوة بحرية في مملكة هذه الجزر ضرورة حيوية وهامة، فهي لا تحرس مداخل الجزر بعناية وبقطة فحسب، وإنما تقوم أيضا بحملات من حين لآخر على شواطئ إيطاليا وفرنسا وقطالونية. وعندما لا يكون الأسطول في حملة ما فإنه يُبحر بين شواطئ شبه الجزيرة والجزائر الشرقية، أو يرسو للراحة في الموانئ والحلجان العديدة المنتشرة بين شواطئ الجزر الحالية، وكان الأمير يقيم له مهرجانا كبيرا في ٢٤ يونية^(٢٣) من كل عام. ترى هل نحن بإزاء عادة تتكرر كل عام في العصر نفسه؟ هذا ما لا نستطيع الإجابة عليه، والمعلومات الوحيدة التي لدينا عن الموضوع ندين بها لشاعر وهو: ابن اللبانة، وينتمي أصلا في دانية، وارتبط طويلا بالأمير مُبَشَّر الصقلي، وإليك ما يقول:

(١٨) القلائد ٤٧.

(١٩) من الحقيقه، فتح ٥٦/٤، ويبدو أن البيت الرابع يشير إلى النار الإغريقية.

(٢٠) انظر: فتح ٨٠٤/٤، والقلائد ص ٥٤، وجاءت فيه تنويعا.

(٢١) من السبيط، ابن حلكان في: الصنعي، نكت الهيدان ٢٦٤، ولا بد أن أبا العرب تصب على مخاوفه، لأننا سوف نلتقي به

بعد قليل في بلاط المعتمد، انظر فيما بعد ص ٢٩٨ من هذا الكتاب.

(٢٢) أعمال الأعلام ٢١٩.

(٢٣) عن نخط «المهرجان» انظر فيما يلي ص ٢٧٢ من هذا الكتاب.

بُشْرِى يَوْمَ الْمَهْرَجَانِ فَبَاتَهُ
طَارَتْ بَنَاتُ الْمَاءِ فِيهِ وَرِيشُهَا
وَعَى الْخَلِيجِ كَتِيبَةٌ جَرَارَةٌ
وَبَنُو الْحُرُوبِ عَلَى الْجَوَرِيِّ الَّتِي
مَلَأَ الْكَمَاءَ ظَهْوَرَهَا وَبَطُونَهَا
خَاضَتْ غَدِيرَ الْمَاءِ سَابِحَةً بِهِ
عَجْبًا هَا مَا خَلَتْ قَبْلَ عَيْنَانِهَا
هَزَّتْ تِيَادِفًا إِلَيْكَ كَأَنَّهَا
وَكَأَنَّهَا أَقْلَامُ كَاتِبٍ دَوْلَةٍ

يَسِمُ عَلَيْهِ مِنْ احْتِفَائِكَ رَوْثُ
رِيشِ الْغَرَابِ وَغَيْرُ ذَلِكَ شَوْدَقُ
مِثْلِ الْخَلِيجِ كَلَاهَا تَسْدُقُ
تَجْرِى كَمَا تَجْرِى الْجِبَادُ السَّقَى
فَأَنْتَ كَمَا يَأْتِي السَّحَابُ الْمَفْدُقُ
فِكَأَنَّهَا هِيَ فِي سَرَابٍ أَيْنِي
أَنْ يَحْمِلَ الْأَسَدُ الضَّوَارِيَّ زُورِقُ
أَحْدَابُ عَيْنٍ لِلرَّقِيبِ تَحْدُقُ (٢٤)
فِي عَرْضِ قَرْطَاسٍ تَحْطُ وَتَشَقُ (٢٥)

تظهر الأبيات التي ذكرناها أن الشعراء حين كانوا يتحدثون عن صورهم لوصف السفن استمدوا معجمهم اللفظي الأكثر أهمية من اللغة التقنية البحرية. بالأسطول يتكون من وحدات كل واحدة منها تحمل بعامة اسم سفينة، وتجمع على سفن وسفائن وفلك، وثمة تمييز آخر أكثر شاعرية وهو: بنات الماء، ولا نلتقي بلفظ مركب (٢٦) أو قِصْمَة (٢٧) إلا قليلا. تسمى السفن حين تكون سريعة وتستخدم في المياريه «المجارية» أو «السابحة» (٢٨)، ويتم الإبحار بقصير المدى عادة في زورق، ويطلق اسم «الشراع» على السفن التي تسير بالقلاع، و«المجداف» على التي تستخدمه، ويشبهون سرعة السفينة في سيرها بالحصان الأصيل أو الطائر، والحصان الأصيل غر، أى أنه مُعَلَّم بنجمة بيضاء في جبهته، أى غرة، ولكن التشبيه الأكثر ورودا هو استخدام صورة الطيور المعروفة بشدة بسط جناحيها وقوتها في الطيران، وتهمها في الملاحقة والانتقضص على القريسة، وفي مقدمتها الغراب، وهو الطائر الأسود الذي لم يرجع إلى سفينة نوح. ولكن هنا أيضا الحراقة والفرقاطة، أو السفن ذات الصاريين ويرجع ذلك دون شك إلى أن أشرعتها ضاربة إلى اللون الرمادي فتختلط بالضباب والأمواج. عندما يكون الشراع كله من قماش أبيض لا تشبه بالنورس (أبو فردان) وإنما بالحمام، فإذا كان لونه رماديا فاتحا اتخذت الصورة البلاغية مادتها من حيور الصيد السريعة، وأمدت المعجم الشعري بألقاظ: شَوْدَق، أو شَوْدَق، وشاهين، وهو الصقر الأبيض، وأحيانا ورقاء، وأخيرا فإن السفينة الكبيرة ذات الأشرعة تشبه بالشواقي.

وكان المخزن الذي يستمد منه الشعراء صورهم واحد لكل الشعراء تقريبا، فالقلاع تحبب الأجنحة

(٢٤) انظر فيها بعد ص ٢٦٥ من هذا الكتاب.

(٢٥) من الكامل المعجب في أخبار القرون ص ١٠٧، ورجمة فتيان له إلى الفرنسية ص ١٢٩.

(٢٦) يشبه أبو عامر بن شهيد المركب بالأعفاف الموضوعة حول سجادة من اللباد:

يَنْظُرُ مِنْ لَبِهِ لَدَيْهَا بِحَرِّ دَمٍ تَحْتَهُ يَصْبِي
كَأَنَّ أَغْصَانَهَا عَلَيْهِ سَرَكَبٌ مَالَهَا دَلِيلُ

من مخلف البسيط، نفع ٢٤٥/٣، وانظر أيضا فيها سبق ص ٩٤ من هذا الكتاب أبيات البكري حيث يستعمل كلمة مركب.

(٢٧) انظر فيها سبق من هذا الكتاب ص ٩٦ وعن معنى هذه الكلمة انظر: دوزي ملحق المعاجم ٣٧٧/٢.

(٢٨) وسمى أحيانا «سُنَّات» وفي الترانيم وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام» سورة ص الآية ٢٤، وانظر فيها سبق

ص ٩٦ من هذا الكتاب.

التي ترفرف، وأحياناً أخرى بالقلوب التي تخفق، والمقداف بالرموش، ونعمة مفاجأة جميلة، فيعد كل التشبيهات التي جاءت متقاربة ، وتستقى من نبع واحد تقريباً، لاحظ أن البيت التالى من الشعر يكون لوحة جميلة:

ورأيتُ فوق البحرِ دُرَّ عَاقِلاً من زعفرانٍ^(٢٩)

لقد شاهد يوسف الرمادى حقاً، بطريقة تختلف عن الشعراء الذين سبقوه أكيداً، أشعة الشمس تعوى فى أعماق البحر عند الأصيل، فوصفها لنا فى دقة، وروعة وجمال.

(٢٩) من الكامل، المطم ٣٦٦، وعنه فى النسخ ٣٧/٤.

الموضوعات الثانوية

○ الفصل الأول:

السماء والظواهر الطبيعية

ونحن نتابع الموضوعات التي التقطها شعراء الأندلس من الطبيعة المحيطة بهم، يجدر بنا أن نقسح مكانا للسماء، صافية أو تغطيها السحب، وانعكاس ذلك على الطبيعة تحتها، وأن نعطي اهتماما خاصا للكواكب والظواهر المناخية ذات الصلة الوطيدة بالمصير الإنساني.

ويبدو أن صفاء منتصف النهار، والساعات الساطعة، لم تلهم شعراء الأندلس شيئا، ولا تصبح السماء موضوعا شعريا إلا بعد مغيب الشمس.

وقد شبه أبو الحسين بن سراج أشعة الشمس لحظة الغروب بالزعفران الأحمر بتفتت مسكا على الغيطان:

والشمسُ تنفضُ زعفرانًا بالرُّبَى وقتُ مسكتها على الغيطان^(١)
وشبهها أبو القاسم بن السقاط بالتبر المذاب:
ويوم لنا بالخيِّفِ راقٍ أحبله كما راق يبرُّ للعيون مُذاب^(٢)



ولكن، إذا كان الليل بخاصة مارس سحرا عظيما على الشعراء العرب، فلأن هناك ذوقا لا نستطيع تفسير مصدره بدقة. وثمة مخنارات من «الليالي العربية» تتضمن الشعراء الأروع إبداعا والأشد تواضعا منذ بله الشعر حتى يومنا هذا.

يمكن القول أن الليل شاعرى بطبيعته، فسرَّ الظلام العميق، والضوء الكاشف ترسله النجوم، يثيران أحاسيس الشاعر وخياله، وفضلا عن ذلك، يحى الليل دائما شريكا في الذكريات الغرامية.

ويشبه الليل غالبا بملك زنجي، يقول أبو عامر بن شهيد:

وبتنا زاعى الليلَ لم يَطوِ برَّده ولم يجلُ شيبُ الصبحِ في قوده وَخَطَا
تراه كملك الزُّنَجِ من غرطِ كبره إذا رامَ مشيا في تَبَخُّره أبطَا
مُظْلا على الآفاقِ والبدرِ تاجه وقد جعلَ الجوزاءَ في أذنه قُرْطَا^(٣)

(١) من الكامل، القلائد ١٦٦، الحلة السراء ١٧٣/٢، دوزي، رسالة فليتر ٢٠٨.

● قلت: في الأصل الفرنسي أبو الحسن، وأظنها ربما أو خطأ مطبعاً لأنها في المرجعين اللذين أحال عليهما أبو الحسين

(الترجم).

(٢) من الطويل، القلائد ١٧٣.

(٣) من الطويل، فتح ٤٤٠/٣.

ونسخ أبو محمد عبد الحق بن عطية الصورة نفسها:

وليلة جئت فيها الجزع مرتدياً بالسيف أسحب أذيالاً من الظلم
والنجم حيران في بحر الدجى غرق والبرق فوق رداء الليل كالعلم
كأنما الليل زنجى بكاهله جرح فينبعث أحياناً له بدم^(٤)

وتادرا ما يصف الشعراء الليل دونه أن يعرضوا للقمر بدراً، وتادرا ما يتحدثون عن البدر دون أن يشبهوه بالحبيبة أو يشبهوها به^(٥). والقمر بدراً مثل في خيال الشاعر الأمير سخياً يتألق في جسد ليلة. وعند شعراء الأندلس لا ينفصل القمر بدراً، في أغلب الأحوال، عن الطبيعة التي تحيط به، ويرعو في إبداعهم لكي يجعلوه يهبط من السماء، وبخاصة عندما ينعكس ضوءه على صفحة بركة، في ليلة صيف جميلة. يقول ابن سارة:

انظر إلى البدر وإنراقه على غدير موجه بزهر
كبتحيز من حجر أخضر خط عليه ذهب أحمر^(٦)

أما القمر هلالاً فقد أهد الشعراء موضوعات أخرى، وبخاصة حين يعنى ظهوره نهاية شهر رمضان والاحتفال بعيد الفطر الذي يقبى شهر الصوم، هكذا رأى أبو الحسن بن هارون من إمارة شتمرية الغرب، يقول:

باليلة العيد عُدت ثانية إذ أقبل الناس يضرّون إلى
وعاد إحسانك الذي أذكر هلالك النضو ناحلاً أصفر^(٧)

وأحسن منه قول أبي الحسن بن الزقاق:

وشهر أدركنا لارتقاب هلاله عيوناً إلى نحو السماء موابلاً
إلى أن بدا أخوى المدايع أخور يجر لأذيال الشباب ذلاً
فقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحباً يسر حوى طبيب الشمول شماتلاً
أطلبك الأيسار في الجوى ناقصاً رأيت هنا تمشي على الأرض كاملاً^(٨)

(٤) من البسيط، القلائد ٢٠٩، وعه ٥ نفع ٥٢٨/٢.

(٥) وقد نظم عبد الملك بن إدريس لجزيرة الخولاني من عصر المنصور بن أبي عامر، (القرن العاشر الهجري) ثلاثة أبيات نالت شهرة واسعة:

أرى بدر السماء يلوح حيناً وأهصر وجهك استحيافاً
وذاك لأنه لنا نبتى وأهصر وجهك استحيافاً
مقال لو عسى عسى إليه لراجعني بتصدقني جواهاً

من الوافر، نفع ٥٨٨/١ و ٢٦٠/٣ و ٦٧٢/٤، والمطبع ١٧٩، وفون شاك، الترجمة الإسبانية، شعر العرب في إسبانيا وصقلية ١٣٣/١.

(٦) من السريع، نفع ٦٠٠/٣، والبيت الثاني يشير فيما يبدو إلى حجر عك أقرب منه إلى حجر مشعد.

(٧) من المثنوي، المجلد الجراء ١٩/٢.

(٨) من الطويل، المجلد الجراء ٢٠٢/٢.

● وانظر ديوان الشاعر، القطعة ٩١، ص ٢٣٨، تحقيق عفيفة محمود ديراني، بيروت، بلا تاريخ (الترجم).

وكما نرى، فإن وصف الهلال نحىلاً ضامراً لا يمكن أن يوحى بالحبيبة الجميلة الواصلة، ولهذا تفتن الشعراء في تشبيه رهاقة شكل القمر بموضوع مادي، ولم ينس الأندلسيون الصورة التي وقعت عليها عبقرية الشاعر العباسي ابن المعتز، المتوفى عام ٢٩٦ هـ = ٩٠٨ م، حين يقول:

انْظُرْ إِلَى حُسْنِ هلالٍ بدا يَمْتَكُ مِنْ أَنْوارِهِ الجُنْدَسَا
كَمَنْجَلٍ قد صيغ من فضة يَحْصِدُ مِنْ زَهْرِ الدُّجَى نَرْجَساً^(٩)

ويحتوا لهذه الصورة عن تذّ عندهم، فوجدوه عند أبي المغيرة بن حزم، حيث يقول:

لَمَّا وَايَتْهُ الْهَلَالُ مُنْطَوِياً فِي غُرَّةِ الْفَجْرِ قَارَنَ الزُّهْرَةَ
شَبْهَتُهُ وَالْعِيَانُ يَشْهَدُ لِي بِصَوْلْجَانٍ أَوْفَى بِضَرْبِ كُرَّةِ^(١٠)

يُصِفُ ابْنَ سَارَةَ نَجْمًا جَرَى فِي السَّمَاءِ وَتَرَكَ وَرَاءَهُ مَسْتَيْلًا مَنِيْرًا:

وَكوكِبٍ أَبْصَرَ الْعَفْرِيتُ مُسْتَرْقَاً فَسَانَقَضَ يُذَكِّي إِثْرَهُ هَبْنِ
كَفَارِسٍ حَلَّ إِحْضَارِ عَمَامَتِهِ فَجَرَّهَا كُلُّهَا مِنْ خَلْفِهِ عَدْبَهُ^(١١)

وقد استطاع شعراء الأندلس في وصفهم للمجموعة الفلكية أن يظهروا أبداع صور خيالهم الخلاق، فشبهوا القمر بين النجوم بلمعة تنترّ في ملكتها، يقول المعتمد بن عباد:

ولقد شربْتُ الرّاحَ يسْطَعُ نُورُهَا وَاللَّيْلُ قَدْ مَدَّ الظَّلَامَ رَدَاءً
حَتَّى تَبْدُو الْبَدْرُ فِي جُوزَانِهِ مَلَكًا تَنَاهَى بِهِجَةً وَهَاءً
وَتَنَاهَضَتْ زَهْرُ النُّجُومِ بِحِفْهِ لِأَلْوَاهَا فَاسْتَكْمَلَ الْأَلَاءُ
لَمَّا أَرَادَ تَنْزَهَا فِي غَرْبِهِ جَعَلَ الْمِظْلَةَ فَوْقَهُ الْجُزَاءُ
وَتَرَى الْكُوكَبَ كَالْمُوكِبِ حَوْلَهُ رَفَعَتْ تُرْبَاهَا عَلَيْهِ لَوَاءُ
وَحَكِيكته فِي الْأَرْضِ بَيْنَ كُوكِبٍ وَكُوعَابٍ جَمَعَتْ سَنَا وَسَنَاءُ
إِنْ نَشَرْتَ تِلْكَ الدَّرُوعَ حَنَادَسًا مَلَأَتْ لَنَا هَذِي الْكُوكُوسَ ضِيَاءُ
وَإِذَا تَفَتَّتْ هَذِهِ فِي مِزْهَرٍ لَمْ تَأَلْ تِلْكَ عَلَى التَّرِيكِ غَنَاءُ^(١٢)

وهم أيضاً أول من تصوّر نزهة ليلية للكواكب بين الكواكب، وذكريات لا عن المعراج النبوي، وإنما عن رحلة إلى السماء وإلى جهنم قام بها الوزير والشاعر المدهش، وأُتيحت لنا أكثر من فرصة للحديث

(٩) من السريح، الديوان ج ٢ ص ٦٠٥، قطعة ١٠٦٦، تحقيق الدكتور يونس حبيب السامرائي، بغداد ١٩٧٨.

وهذه الصورة في إيجازها بالغة الجمال والروعة، وشبيه بها قول فيكتور هيجو:

أَتَى إِلَهُ أَمَى حَصَادُ سَيْفِ خَالِدٍ
يَمْضِي مَطَرًا مَبْتَدَأً بِلَا مِيلَاةٍ.

هذا المنجل الذهبي في حفل النجوم

(١٠) من المنسرح، المطمح ٢٠٣، وعنه في نفع ٦٦١/١، والسيوطي، وصف اللال في وصف الهلال، في المجموعة الأدبية، ص ٧٥.

(١١) من البسيط، الفلاند ٢٦٦.

(١٢) من الكامل، الفلاند ٦، وعنه في نفع ٢٨٠/٤، وفي «بنو عباد» ١٤٠/١، والترجمة اللاتينية ص ٨٥ ٨٦، ولي تاريخ

سلمى إسبانيا، ط ٢، ج ٢ ص ١٧٦.

عنه، وهو أبو عامر بن شهيد، وأيضاً «رسالة الففران»، أو الكوميديا الإلهية إن شئت لأبي العلاء المعري^(١٢٢).

يقول أبو محمد بن سفيان في رسالة وجهها إلى أبي عيسى بن ليون أمير مريبطو:

أبا عيسى أتذكرُ حينَ كُنَّا	على هام الكواكبِ نازَ لينا
يدوسُ بخلينا زهرَ اشْرِيَّا	ونوردها المجرةَ إن ظمينا
وتسزلُ جبهةَ الأسدِ اعتسافاً	إذا ما البدرُ مرَّ بها نَمينا
ونسطرقُ هودجَ المذوءِ وفنا	فنسدخلُه عليها آمنينا
إذا عنتَ لنا الجوزُ مددنا	لحلِّ نطاقها عنها يمينا
وإنْ عرضتْ لنا كفَ الثريا	سلبناها الخلاخلَ ولبسنا
إذا ما غار من ددنا سهيل	على لشرى فختتْ به جنونا
تجاوزنا العبورَ إلى لُفْيصا	ولم نرهبْ شجاعهم لمينا ^(١٢٤)

ونجد في شعر القرن الحادي عشر قصائد ومقطوعات أخرى تصف المجموعة الفلكية ولكن بما أن معظم قصائدها يمدد للتشبيه بادناً بكلمة «كأن»، فنحن على ثقة بأنهم يتلدون قصيدة ابن هاني الشهيرة، ذات القافية الغائبة، في مدح أمير المسيلة جعفر بن علي بن حمدون^(١٢٥)، وغير ضروري، فيما يبدو، أن نوردها هنا.

أما الأشعار التي تشير إلى تأثير الكواكب على الإنسان فقد اقتبسوا معلوماتهم فيها من كتب الفلك، وكلها متأثرة على نحو ما بكتاب بطليموس، ولقد رأينا فيما سبق، إجمالاً أن ابن غالب ردّ مزاج الأندلسيين الخاص إلى تأثير فينوس وعطارد^(١٢٦). فقران الكواكب يمكن أن يترك أثره سعادة أو شقاء على سكان الأرض، ويسبب لهم توجسات مشثومة أو متفائلة^(١٢٧). وفي إسبانيا هذه حيث تدرس العلوم البالغة التنوع في حرية واسعة للغاية لم ير أيداً في أي بلد من البلدان - كان فيها من آلات الأبطالاب. وحين فرّ القدرين ذى الثون من طليطلة، لم يتردد في أن يحمل معه واحداً منها، لأنها فيها يرى أئمن من الذهب والمجوهرات.

ومع ذلك أشار الشعراء إلى علوم أخرى مثل الكيمياء، وهم يعرضون لها حين يصفون النجوم أو الكواكب، يقول المعتمد مثلاً:

(١٢٣) انظر فيما سبق ص ٤١ من هذا الكتاب.

(١٢٤) من الوازم، الفلاند ١٢٦ - ١٢٧. لمزيد من المعلومات عن أسماء الكواكب التي تبدو مراكمة، كما لو كانت استعراضاً في هذه القطعة، ينظر ابن هاني، طبعة بيروت ١٢١ - ١٢٢، وطبعة زاهد على القاهرة، ص ٤٤٢ - ٤٤٥، الأبيات ١٦ - ٢٨، وحين

تقليد شعراء القرن الحادي عشر هذه القطعة الطويلة الأخيرة لابن ساس، ٥٠٨/٣ وما بعدها، حيث نلغى بأساً أبي ربيع بن أحمد القضاة وفي الفضل البغدادي الدارمي.

(١٢٦) انظر فيما سبق ص ٢٤ من هذا الكتاب.

(١٢٧) ابن حزم، طرق الحماة، ص ٣١ الصيغة الرابعة، تحقيق د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٥، ودرجة يكرر

للطوى ص ٢٠ - ٢١ وهامش ص ٢٢٥.

جاءتك ليلاً في ثياب نهار
كالمشترى قد لف من مريخه
لطف الجمود لذا وذا فتألفا
ينحير الرءون في نعتيها
من نورها وغلالة البُلال
إذ لفته في الماء جذوة نار
لم يلق صد صد بنفار
أصفاء ماء أم صفاء درارى^(١٨)

والعنى الدقيق لهذه الأبيات يمكن أن يفلت منا في جانب منه، ومع ذلك يمكن أن نفهم أن المعتمد مع كوكب المشترى يشير إلى القصدير، ومع كوكب المريخ إلى الحديد، ويمكن أن يريد بالماء هنا مادة كحولية من أحماض العصور الوسطى تستخدم في إذابة الحديد والقصدير إذا وُضعا على التتور^(١٩).

ويشيع الليل للشاعر أن يمضى أطول وقت مع حبيبته، يقول أبو تمام الحجام:

زوت الحبيب ولا شيء أحاذره
في ليلة خلت من حسن كواكبها
في ليلة قد لوت بالغمض أشفارا
دراهما وحسبت البدر دينارا^(٢٠)
ويقول أبو عامر بن الجند:

له ليلة مشتاق ظفرت بها
نعمت فيها بأوتار تعلقت
أحبب إلى بها إذ كلها سحر
أحلى من المن أو أمنيّة الفل
أراحبت الصب من عثر ومن عذل^(٢١)

ولم يكن العشاق جميعاً سعداء، وليلهم - في انتظار الوفاء بالميعاد - يمضى في سهاد قلق ومؤلم. ياله من ليل طويل في نظر هؤلاء العشاق التمساء. ولكن الموضوع ليس خاصاً بالأندلسيين وحدهم، ومن ثم لن نضرب له غير مثل واحد، يقول ابن سارة:

وليل كأن الدهر أفضي بعمره
يحدث بعض القوم بعضا بطوله
تكانت ظل الغيم فيه فلم يكن
إذا افتقر في استيعاده برق دجته
ضربت بسيف العزم عنق ظلامه
جميعاً إليه فانتهى في ابتدائه
ولم يمض منه غير وقت عشائه
به العين تدرى أرضه من سمائه
حكا حبشياً ضاحكا من بكائه
وضرحت يردى فجره من دمائه^(٢٢)



والليل يعقبه الفجر موضوع آخر تناوله الشعراء الأندلسيون، وأظهروا فيه نبوغاً فذاً، ولم يحدث أبداً أن تجلّى ذوقهم رثماً في التجسيد وفي الأسطورة كما في تصوير هذه الظاهرة الغامضة للنهار يخلف الليل، والضوء يطرد الظلام، والمقطوعات التي عرضت لهذا كثيرة، وآثرنا أن نختار بعضاً منها فحسب.

(١٨) من الكامل، القلائد ٦، وفي «بنو عباد» ٤٦/١، ونظح ٢٧٩/٤.

(١٩) اعتمدنا في هذا التفسير على دوزى في «بنو عباد» ٨٨/١، وانظر فيها بعد ص ٢١٢ من هذا الكتاب إشارة إلى الكيمياء في مقطوعة لابن سارة.

(٢٠) من البسيط، نفع ٤١٦/٣.

(٢١) من البسيط، نفع ٧٠/٤، وفي الفصل الخاص بالمرأة سوف نتاح لنا الفرصة للتعديت عن «ليالى الحب».

(٢٢) من الطويل، القلائد ٢٧٠.

يقول أبو الحسن علي بن السيد البطلوسي:

والليل مُنْحَفَرٌ يَطِيرُ غَرَابُهُ والصُّبْحُ يَطْرُدُهُ بِبَارِ أَشْهَبِ (٢٣)

ويقول أبو حفص بن برد الأصغر:

وَكَيْفَ اللَّيْلُ حِينَ لَوَى هَارِبًا وَالصُّبْحُ قَدْ لَاحَا
كِلَّةٌ سَوْدَاءُ أَحْرَنَهَا عَامِدٌ أَسْرَجَ مَصْبَاحًا (٢٤)

ويقول أبو القاسم الأسعد بن بليطة في قصيدة يمدح بها المعتصم أمير المرية:
وَقَدْ دَابَّ كُحْلُ اللَّيْلِ فِي دَمْعِ قَجَرَةٍ إِلَى أَنْ تَبْدَى اللَّيْلُ فِي اللَّيْلِ لَشُطَا
كَأَنَّ الدَّجَى جَيْشٌ مِنَ الزَّيْنِ نَافِرٌ وَقَدْ أَرْسَلَ الْإِصْبَاحُ فِي إِثْرِهِ الْقِطَا (٢٥)

وأضى أبو الحسن بن زنباع (وابن بِيَّاع) الليل يحلم مع حبيبته:

إِذَا بَلَغْتُ مِنْكَ الْخِيَالَاتُ مَا أَرَى فَأَنْتَ لِمَاذَا بِالشَّخْصِ مَعْرَضُ
إِلَى أَنْ تَبْدَتْ عَنْ سَنَا الصُّبْحِ سَدْفَةٌ كَمَا انْشَقَّ عَنْ صَفْحٍ مِنَ الْمَاءِ غَرْمُضُ
وَنَدَّتْ إِلَى الْغُرْبِ النُّجُومُ سُرُوعَةً كَمَا نَفَرَتْ عَيْنٌ مِنَ السَّيْلِ رُغْضُ (٢٦)
وَأَدْرَكَهَا مِنْ قَبَاجَةِ الصُّبْحِ يَهْتَهُ فَتَحْسِبُهَا فِيهِ عَيُونًا تَرَضُ
كَأَنَّ الثَّرِيًّا وَالْفَرُوبُ يَجْنُهَا لَبَّامٌ عَلَى رَأْسِ الدَّجَى وَهُوَ يَرْكُضُ
وَمَا تَتَرَى فِي الْمَقْعَةِ الْعَيْنُ إِنَّمَا عَلَى عَاتِقِ الْجُوزَاءِ (٢٧) قَرَطُ مَقْضُضُ (٢٨)

وإذا تأملنا مشاعر ابن زنباع العارة فضلنا عليها بساطة أبي الفضل بن شرف في شعره، وطراجة الألوان عنده، حينما يقول:

مَطَّلَ اللَّيْلُ يَوْعَدُ لِفَلْقٍ وَتَشْكِي النُّجُومِ طَوَلَ الْأَرْقِ
ضَرَبَتْ رِيحُ الصُّبْحِ مِسْكَ الدَّجَى فَاسْتَفَادَ الرُّوْضُ طَيْبَ الْعَبْنِ
وَالْأَلَحُ الْفَجْرُ خَدًّا خَجَلًا جَالٍ مِنْ رَشَعِ التَّدْيِ فِي عَرْنِ
جَاوَزَ اللَّيْلَ إِلَى أَتَجَمُّهِ فَتَسَاقَطْنَ سَقُوطُ الْوَرَقِ
وَاسْتَفَاضَ الصُّبْحُ فِيهِ قَيْضَهُ أَيْقَنَ النُّجُومُ لَهَا بِالْتَرَقِ
فَانْجَلَى ذَاكَ السَّنَا عَنْ حَالِكِ وَأَغْمَى ذَاكَ الدَّجَى عَنْ شَقِّ (٢٩)

(٢٣) من الكامل، نفع ٧٣/٤.

(٢٤) من المديد، ابن سعيد، عنوان الرقصات ٥٩، البحيرة ٥١١/١، والشندي، رسالة في فضائل الأندلس، نفع ١٩٧/٣.

وترجمه غرسه غومت إلى الإسبانية ص ٦٥.

(٢٥) من الطويل، المطمح ٣٤٢، نفع ١٠٠/٤، وابن خلكان، وفيات ٣٦/٢، وترجمة دي سلان ٢٠٠، ٣.

(٢٦) ربما كان يجب أن تقرأها «التبيل» بدل السيل، والتبيل هو الأسد في صباه.

(٢٧) عن هذه الأفعالك انظر: موتيلينسكي سارح العرب القمرية، في الفهرس، تالجرين، النجوم في الفهرس.

(٢٨) من الطويل، القلائد ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٢٩) من الرمل، نفع ٢٩٣/٣، دوزي، «بحر ط»، ص ٩١ - ٩٢، والطبعة الثالثة ٢٤٨/١.

وبراء ابن الليانة:

والليلُ قد سدَّى وألحم ثوبَهُ والفجرُ يرسلُ فيه خطاً أيضاً^(٣٠)

وإذا كان الأدب اليوناني قد عرف صورة الفجر الوردى الأصابع، فإن الشعراء الأندلسيين استخدموا صورة أخرى، وهي مثيرة أيضاً، فشبهوا جيد الحبيب بعمود الفجر، يقول أبو الصلت أمية بن عبد العزيز:

كأنما جیده وغُرَّتْهُ من دوتها إذ يَدُونُ في نسقِ
عمودِ فجرٍ من فوقِهِ قمرٌ دأوت به قطعة من الشفقِ^(٣١)

أما أبو القاسم بن عبد الغفور فصور الفجر على نحو مختلف:

رويدكُ يا بدرَ التلم فليأتني أرى لعمري حسرى والكواكبَ ظُلماً
كأن أديمَ الصبحِ قد قد أنجماً وغودرَ درعِ الليلِ فيها مرقعاً^(٣٢)

ولا نستطيع أن نكتم إعجابنا بهذه الصورة العبقريّة التي نلتقي بها في قصيدة ابن الرقاء:
ولما رأيتُ الغربَ قد غصَّ بالدجى وفي الشرقِ من ضوء الصبحِ دلائلُ
توهّت أن الغربَ بحرٌ أغوصه وأن الذي يبدو من الشرقِ ساحلُ^(٣٣)
وجسد أبو محمد بن عيّدون الليل والفجر على السواء:

وما أنسَ ليلَتنا واليَمنا قُ قد مزجَ الكلُّ منا بكلِ
إلى أن تقوَسَ ظهرُ الظلامِ واشمطَ عارضه واكتهلَ
ومن رقيقِ رداءِ النسيم على عاتقِ الليلِ بعضُ الليلِ^(٣٤)

فالفجر والصباح لا ينفصلان في فكر الشارع المرح، المنغمس في لذات العيش، وعن التيبذ الذي يشرّونه تخلصاً من النوم المفرط في الثقل، ولكي يدفعوا بالحويّة من قلوبهم إلى بطونهم، وسرى فيما بعد، حين نعرض للشراب، كيف عالج شعراء الأندلس هذا الموضوع.



الليالي الأندلسية فاتنة، ومضى عليها النسيم الليليل سحراء ويتنشى كل من يعيشها بأريج زهورها، يقول ابن عيّدون:

يانفحةَ الزهر من مسراكِ وإفاني خلوصُ رِيالكِ في أنفاسِ آذارِ
والأرضُ في حُللٍ قد كاد يحرقها توقدُ النور لولا ماؤها الجاري

(٣٠) من الكامل، الفلاند ٢٤٧.

(٣١) نصح ١٠٧/٢، وتيسير «عمود الصبح» قديم، ويرد في أشعار الناهية، والخطبة، وذى الرمة، وعمر بن أبي ربيعة، وأبي تمام.

● ترد صورة «الفجر الوردى الأصابع» في الإلياذة، الفصل ٦، ص ١٧٥ (مترجم).

(٣٢) من الطويل، مطمح ٢٢٠، وعنه في نصح ٥٥٣/٣.

(٣٣) من الطويل، نصح ١٠٧/٤.

(٣٤) من المتقارب، الفلاند ١٤٧.

والطيرُ في وَرَقِ الأشجار شاديةً كأنهنَّ قبانٌ خلفَ أستار^(٣٥)
وأرقُّ هذه النسائم ما يهب مع الفجر أو عند الأصيل، يقول ابن رُحيم:
سلامٌ كما حَبَّتْكَ عاترةُ النَّشْرِ وإلاَّ كما هبَّ النسيمُ مع الدَّجْرِ^(٣٦)
وابن بَلَيْطَةَ يقول:

تتنسَّرُ الصَّهَاءُ في فَوَاتِهِ كتنسَّرَ الرِّيحانُ في الأَصَالِ
وكأنما الخيلانُ في لَبَّاهِ ساعاتُ هجرٍ في زَمَانٍ وصارَ^(٣٧)

وتسمح لنا فقرات أخرى بأن نلاحظ أن أسماء الريح لا تُستخدم كيفما اتفق، فالصبا تعني النسائم الآتية من الشرق أو الشمال الشرقي ويرى المعتمد أنه يستقبل في الصبا أريج حداثق المرية حيث يوجد المعتصم^(٣٨)، ويكتب المعتض إلى صهره مجاهد العامري أمير دانية فيقول:

عرفتُ عَرَفَ الصَّبا إذ هبَّ عاترةٌ مِن أَفْقٍ مَن أنا في قلبِ أشاطِر^(٣٩)
ويكتب ابن اللبانة إلى مبشر ناصر الدولة، أمير الجزائر الشرقية، فيقول:
واشتمُّ في رِيحِ الصَّبا لَرِيحَ الصَّبا فقضى حقوقَ الشوقِ فيه يأنَّ قضي^(٤٠)
ويستخدم ابن زيدون كلمة «قول» مرادفاً لكلمة «صبا» وهو يتحدث عن بلنسية:

راحتُ فراحَ بها السَّقيمُ رِيحَ معطرةِ النسيمِ
مقبولة هبت قبو لا، فهي تعبق في الشميمِ
أفضيض مسك أم بلد سية لرباها نعيم^(٤١)



لقد استرعت الظواهر الطبيعية المختلفة من سحب وبرد ومطر اهتمام شعراء الأندلس كما أثاروا شعراء المشرق من قبل، وكانت لبعضهم هنا وهناك رموزاً تعبر عن سخاء الأمير، أو أية شخصية مرموقة، على حين أنها لدى شعراء الجدلدية والعصر الإسلامي رموز لرقى صحراوية مخشقة، فهناك لا يسوق السحاب المطر إلا حين يشتد البرق، والمطر وحده هو الذي يهب الأرض الحياة، يكفي لنمو

(٣٥) من البسيط، الذخيرة ٣٠/٢، بنو عباد ٢٤٦/١.

(٣٦) من الطويل، القلائد ١١١.

(٣٧) من الكامل، الذخيرة ٤٤/٢، بنو عباد ٢٩٨/١.

(٣٨) الحلة ٤٧/٢، بنو عباد ٨٥/٢، ويعتبرون ريح الشرق خيرة، وفي الحديث ما معناه: لقد ساعدني ريح اسرى، البخاري، ترجمة أوداس ووليم مرسية ٣٤٠/١.

(٣٩) من البسيط، الحلة ٤٧/٢، بنو عباد ٥٥/٢، والذخيرة ٣١/٣، بنو عباد ٢٤٦/١، وواضح أنه في النصف الثاني يلمح لزوجته، وهي ابنة مجاهد.

(٤٠) من الكامل، القلائد ٢٤٦.

(٤١) من مجزوء الكامل، الديوان ٢٠١، كور: ابن زيدون ٩٤ - ٩٥، والقلائد ٧٤، ونضج ٢٧١/٣.

● لمعرفة المزيد عن «الأقوال المطروقة» طر الفقرة الخاصة بها ص ٣٥٥ من كتابنا الأدب المقارن، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨. (الترجمة).

العشب الضروري الذي تقوم عليه حياة القطعان. ولكن أغلب الشعراء الأندلسيين تخلوا عن هذه الموضوعات لأنها ليست دقيقة في شبه جزيرة إيبيريا وقد لاحظوا أن الرعد يجلب البرد غالباً وليس المطر، وأن البرد أبعد ما يكون عن إفادة الأرض أو الزرع. ولكنهم وجدوا في السحب والأمطار فرصة مواتية لوصف مشاهد الطبيعة حيث تلتقي السماء بالأرض، وهم لا يعزلونها عن الجو، ويرون تأثيرها، فيما يشاهدون بأعينهم، يمثل الحالة المثالية للبلد الذي يعيشون فيه، حين تقع على الحدائق المزهرة، والآكام المغطاة بالحشائش والأشجار المثمرة، وهم يلتفتون من هذه الصور أرقها وأعدها، ويعتمدون دائماً في إلهامهم على ملاحظة هذه الظواهر الطبيعية مباشرة، وعلى تأثير البحث الذي يقودهم إلى الرغبة في انحرار من الأقوال المطروقة التي حفظوها خلال سنوات الدرس.

إن السماء مغطاة بالسحب، وتدوى فيها البرق، ويهطل المطر. ألهمت ابن عمار الأبيات الثلاثة التالية:

يومٌ نكائفٌ غيمُهُ نكائفُهُ دون السماء دخانٌ عودٌ أخضرٍ
والكلُّ مثلُ بُرَادَةٍ من فضةٍ منشورةٌ في تربةٍ من عنبرٍ
والشمسُ أحياناً تلوحُ كأنها أمةٌ تعرضُ نفسها للمشترى^(٤٢)

ويكرر الأسعد بن بلطعة الفكرة نفسها، ولكنه يحاول أن يقدم لنا، كفنان يرسم لوحة انطبعاً معبراً عن غروب الشمس:

لو كنتُ شاهداً عشيةً أسينا والمزنُ يكيننا بعيني مذنّبٍ
والشمسُ قد مدتْ أديمَ شعاعها في الأرضِ تجنحُ غيرُ أن لم تعربِ
جَلَّتْ الرِزْدَادُ بُرَادَةٌ من فضةٍ قد غرِبتْ من فوقِ نطعٍ مذهبٍ^(٤٣)

وتثير السحب تدفعها الرياح فتلمع بالبرق أبداً حفص بن برد الأصغر، فينشد هذه الأبيات:

عارضٌ أَقْبَلَ في جُنْحِ الدُّجَى يتهاذى كتهادى ذى السَّوْجَى
بذتْ رِيحُ الصَّبَا لَوْلَاهُ فأنبرى يوقد عنها سُرْجاً^(٤٤)

ويرسم لنا أبو إسحاق إبراهيم بن خيرة الصباغ لوحة أشد تنوعاً في الأبيات التالية.

يَوْمٌ كَانَ سَحَابُهُ لبستْ عمامى المصامت^(٤٥)
حُجِبَتْ بِهِ شمسُ الضحى بمثلِ أجنحة الفواخت

(٤٢) من الكامل، نفع ٦٠٢/٣، وانظر أيضاً بيتاً لرمادى، من بحر الرجز في نفع ٧٤/٤:

والأفق من سحابه ظل ضئيف بمنزل
كانه من فضة برادٍ تغربل

(٤٣) من الكامل، الحلة ١٦٩/٢ - ١٧٠، المطلع ٣٤٣، وفي نفع ٥٢/٤ البيتان الأول والثاني:

(٤٤) من الرمل، الأخيرة ٥١٢/١، ونفع ١٩٧/٣، وابن سعيد: عنوان المرقصات ٥٩، والنفع، في رسالة الشقندي، فضائل

الأندلس، ينسبها إلى أبي جعفر اللعاني.

(٤٥) فيما يتعلق بكلمة عمامى انظر: دوزى، ملحق المعاجم العربية، وكلمة المصامت، جمع مصمم، لا يوجد في المعاجم، ولكننا

نلتقي بها في عطفولة الزهرى، وانظر أيضاً المربة، في تفسير كلمة «خلدى» الحرير، وعن كلمة خلدى هذه انظر: المعجم، ٩٥ و ٢٨٨.

وفي الأخيرة «غمامى».

فَالْفَيْثُ يَبْكِي فَقَدَّهَا وَالْبَرْقُ يَضْحَكُ مِثْلَ سَامِتِ
وَالرَّعْدُ يَخْطُبُ مُفْصَحًا وَالْجَوُّ كَالْمَحْزُونِ سَاكِتِ
وَالرَّوْضُ يَسْتَقِيهِ الْمَيَا وَالنُّورُ يَنْظُرُ مِثْلَ بَاهِتِ
فَاشْرَبْ وَلَذَّ بِجَنَّةِ يَاطْرِبْ فَإِنَّ الْعَمْرُ قَائِتِ^(٤٦)

ويقول لنا يحيى بن قُذَيْلٍ في شيء من التكلف:

نَامَ طِفْلُ النَّبِّ فِي جِجْرِ النَّعَامِ لَا هَتَاؤَ الطَّلَّ فِي مَهْدِ الْحَزَامِ
وَسَقَى الْوَسْمَى أَغْصَانِ النَّقَا فَهَوَتْ تَلْتُمُ أَفْوَاهِ التَّدَامِ
كَحَلِّ الْفَجْرِ لَهْمِ جَفَنِ الدَّجَى وَغَدَا فِي وَجْنَةِ الصَّبْحِ لَتَامَا
تَحْسِبُ الْهَدْرَ مَحْيَا تَمِيلُ قَدْ سَقَتْهُ رَاحَةُ الصَّبْحِ مُدَامَا
حَوْلَهُ الزَّهْرُ كَوُوسٍ قَدْ غَدَتْ مَسَكَةُ اللَّيْلِ عَلَيْهِنَ خَتَامَا^(٤٧)

وقد أثار قوس قزح، ويدعوه العرب قوس ملاك السحب قزح، بعض الشعراء، شذهم بجماله فوصفوه، ومن هؤلاء أبو الفضل بن حسداى الإسلامى، فنظم هذه الأبيات:

وَأَطْرَبْنَا غَيْمٌ بِمَازِجِ شَمْسَةٍ قُيُتِرَ طَوْرًا بِالسَّحَابِ وَتُكْشَفُ
تَرَى قَزْحًا فِي لَجْوٍ يَفْتَحُ قَوْسَهُ مُكْبًا عَلَى قُطْنٍ مِنَ الثَّلَجِ يَتَدَفُّ^(٤٨)

ويقول عز الدولة بن صامح

صَاغَتِ الْجُوزَاءُ قُرْطَيْنِ عَلِي تَسْمِعِيهَا وَالتَّرِيًّا دُمْلَجَا
وَاسْتَجَادَتْ مِنْ سَمَاءِهَا حُلًّا فَكَسَاهَا قَزَحُ مَا نَسَجَا^(٤٩)

ويقول الأسعد بن بليطة يصف جارية غلامية. تورد شفيتها فاقع:

غُلَامِيَّةٌ جَاءَتْ وَقَدْ جَعَلَ الدَّجَى خَاتَمَ فِيهَا قِصَّ غَالِيَةِ خَطَا
فَقُلْتُ أَحَاجِبُهَا بَا فِي جُفُونِهَا وَمَا فِي الشَّفَا اللَّعْسِ مِنْ حَسَنِ الْمَعْطَى
مُحِيرَةَ الْعَيْنَيْنِ مِنْ غَيْرِ سَكْرَةٍ مَتَى شَرِبْتَ الْحَاظَ عَيْنِيكَ اسْفِطَا
أَرَى نَكْهَةَ الْمَسَاكِ فِي حَمْرِ أَلْمَى وَشَارِبِكَ الْمَخْضَرِ بِالمَسَاكِ قَدْ خُطَا
عَسَى قَزَحُ قَبْلَتْهِ فَيُخَالَهُ عَلَى الشَّفَةِ اللَّمَيَّاوُ قَدْ جَاءَ مَخْطَا^(٥٠)

وشبهه بن حزم قوس قزح بذنب لطاؤوس:

أَتَيْتَنِي وَهَلَالُ الْجَوِّ مَطْلَعٌ قُبِيلَ قَرَعِ النَّصَارَى لِلتَّوَاقِسِ
كَحَاجِبِ الشَّيْخِ عَمَّ الشَّيْبُ أَكْثَرَهُ وَأَخْصُ الرِّجْلِ فِي لُطْفِ وَتَقْوِسِ

(٤٦) من الكامل، نفع ٤٨٥/٣، والمطمح ٣٠٦، والذخيرة ٣٦٠/٢.

(٤٧) من الرمل، نفع ٣٥٧/٣، وليت الأخير يشير إلى لجرار حين يكون غطاؤها محكم السد بالشمع.

(٤٨) من الطويل، نفع ٤٠١/٣، والذخيرة ٤٩٠/٣.

(٤٩) من الخفيف، الذخيرة ٤٩١/٣.

(٥٠) من الطويل، الذخيرة ٤٩١/٣، والمطمح ٣٤٣، وعن المطمح نقلها نفع ٥١/٤.

ولاحَ في الأفقِ قوسُ اللهِ مُكَنِّفًا من كلِّ لونٍ كاذنابِ الطواويس^(٥١)
ولا نجد إلا شعرا قلبيلا يصف البردَ، ولكن هذا القليل يجيء في صور أصيلة وأنيقة وذكية، يقول
أبو بكر عبد المعطى بن المعين:

كَأَنَّ الهَوَاءَ غَدِيرٌ جَمَدٌ بِحَيْثُ المَرُوقُ تُذِيبُ البَرْدَ
خَبُوطٌ وَقَدْ عَقِدَتْ فِي الهَوَاءِ وَرَاحَةٌ رِيحٌ تَحُلُّ العُقَدَ^(٥٢)

وتبدو ملاحظة الطبيعة واستلهاها مباشرة في هذه المقطوعة لابن خفاجة:

يَا رَبِّ قَطْرٌ عَاطِلٌ حُلًى بِهِ نُجِرَ الثَّرَى بَرْدٌ تَحْدَرُ صَائِبٌ
خَصَبُ الْأَبَاطِحِ مِنْهُ مَاءٌ جَامِدٌ غَشِيَ الْبِلَادَ بِهِ عَذَابٌ ذَائِبٌ
فَالْأَرْضُ تَضْحَكُ عَنْ فَلَانِدٍ أَنْجَمٍ تَثَرَّتْ بِهَا وَالْجَوَّ جَهْمٌ قَاطِبٌ
وَكَأَنَّمَا زَنْتِ البَسِيطَةَ تَحْتَهُ فَأَكْبُ بَرَجُهَا الغَمَامُ الْحَاصِبُ^(٥٣)

ونادر جدا أن يعرض الشعر لوصف الثلج في إسبانيا، على الرغم من وجوده بكثرة في بعض المدن
مثل: سرقسطة، وبليوس، وطليلة، ومعانة هذه المدن منه عادة في فصل الشتاء بخاصة، ومنها الجبل
العالية، كجبل شلير، حيث تغطيها الثلوج حتى خلال فصل الصيف.

ولكن، إذا لم يجد الثلج مكانا له في ديوان الشعر الأندلسي، فإن قصائد كثيرة تتحدث عن البرد
القارس في شبه الجزيرة، ويسجل ابن سارة الفارق الذي يوجد في هذا الجانب بين الجزيرة العربية
وإسبانيا فيقول:

دَعَا لَامِرِيُّ القَيْسِ بْنِ حُجْرٍ طُلُوءَهُ يَظَلُّ عَلَيْهَا سَائِحَ الْعِبَرَاتِ
وَعُوجُوا بِبِاقُوتِيَّةٍ ذُهَبِيَّةٍ يَمِيمٌ بِهَا المَقْرُورُ فِي السِّبَرَاتِ^(٥٤)

وأصبح برْد مدينة سالم مثلا يتردد^(٥٥)، ويحدثنا أبو بكر عيادة بن ماء السماء في دقة بالغة عن شتاء
عام ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م المربع، وكان في شهر صفر (فبراير - مارس) من هذا العام قاسيا:

يَا عِبْرَةَ أَهْدَيْتِ لِمُعْتَبِرٍ عَشِيَّةَ الْأَرْبَعَاءِ مِنْ صَفَرٍ
أَرْسَلْ مِلءَ الْأَكْفِ مِنْ بَرْدٍ جَلَامِدًا تَهْجِي عَلَى الْبَشَرِ
فَمَا لَهَا آيَةٌ وَمَوْعِظَةٌ فِيهَا نَذِيرٌ لِكُلِّ مُزْدَجِرٍ^(٥٦)

وأثار برد غرناطة الشديد في الشتاء، يسبب قريبا من جبل شلير، ابن سارة فأنشد هذه الأبيات:

أَحَلُّ لَنَا تَرْكُ الصَّلَاةِ بِأَرْضِكُمْ وَسَرَبُ الحُمَيَّا وَهُوَ شَيْءٌ مُحَرَّمٌ

(٥١) من البسيط، طرق الحمامة ١٧٣، ترجمة نيكل ١٩١.

(٥٢) من مختار، المطمح ٣٨٣، وعنه نقلها نفع ٢٣٦/٤.

(٥٣) من لكامل، الديوان، القطعة ٣٩، ص ٧٦، والذخيرة ١١٦/٣.

(٥٤) من لطويل، الفلاند ٢٦٧.

● في الأصل المقرور بدل المقرور، وأظن الأولى تصحيف عن الثانية (الترجم).

(٥٥) ابن حزم، طرق الحمامة من ٨٩.

(٥٦) من المنسرح، الذخيرة ٤٧٠/١.

فرارًا إلى نار الجحيم لأنها
لئن كان ربي مُدْخِلِي فِي جَهَنَّمَ
أرقُّ علينا من شُلَيْبٍ وأرحم
ففى مثل هذا اليوم طابت جهنم^(٥٧)

والنار في الحقيقة عامل رفاهية وراحة، وموضع التقدير الكبير من الجميع، ولكن الشاعر الأندلسي لا يفرق بين النار تلهب والمولد حيث تشتعل^(٥٨)، وفيما يتصل بهذا كان ابن سررة الشنترقي منخصصا، على نحو ما، في هذا اللون من القصائد، ونظم عدة مقطوعات من الشعر عن الموقد والنار بخاصة، ونقدم بعضا منها:

لابنة الزنيد في الكوانين جمرٌ
خبروني عنها ولا تكذبوني
كالدراري في دجى الظلماء
ألديها صناعة الكيمياء
سبكت فحمها صفائح تبر
كلما رفرق النسيم عليها
سفرت في عشائها فأزنت
لو ترأنا من حولها قلت سرت
ويقول في أخرى:

باتت لنا النار دراقا وقد جعلت
زهراء قدت لنا من ذفتها لحف
ولها حريق يكانون لطيف به
تبيحنا قربها حيناً وتبعدنا
عقارب البرد تحت الليل تسعاً
لم يعلم البرد فيها أين موضعنا
كمثل جامٍ رحيق فيه مكرمنا
كالأم ترضعنا حيناً وتقطعنا^(٥٩)



هذه النصوص التي ضربناها مثلاً كافية لكي تظهر لنا بوضوح أن الأندلسيين عرفوا البرد القارس، وعبروا عنه في شعرهم، لأنهم أحسوا به حقاً، وجاءت صورهم انعكاساً صادقاً لانفعالهم، ولم تكن مجرد تدريبات فكرية خاصة يلتقطون مادتها من الجواهر والأحجار الثمينة السائل منها والمتجمدة كما هو عليه الحال في الشعر المشرقي.

(٥٧) من بحر الطويل، ياقوت، معجم الأدباء، ٣/٣٦٧، وصح لأعشى ٢١٥/٥ (الآيات ١ و ٢ و ٥)، ياعمرى، مسالك الأبيصار، ترجمه جودنورى - ديوميين ٢٢٥، وأحد ركني ياشاء في تكميم كوديرة، ص ٤٦٦ (ترجمة الآيات ١ و ٢ و ٥) ● قلت: في صحب الأعشى ابن حادى بدل ابن سارة، وشكبر بدل شلبر وواضح أن ذلك تحريف (الترجم). (٥٨) لا تزال الممرء تحفظ بعض هذه اللقود، انظر: توريس ولباس، في مجلة الأندلس ١٩٣٤، المجلد ٢، العدد الثاني، ص ٣٨٩ - ٣٩٠، والرحاب ٢٤ و ٢٥ و ٢٦، حيث نرى أن الأندلسيين كانوا يستخدمون لتدفئة الحيوانات الكبيرة، فضلاً عن المواد الضخمة، مد في حقيقة، وذلك ما نجده عند أحمد بن سعيد بن كوثر الطليطلي، لمتوفى ٤٠٣ هـ - ١٠١٣ م، حيث يلقى دروسه على أربعين من طلابه، في حجرة في بيته، وتتم تدفئتها بواسطة كئون في قامة الرجل طولا، خلال شهر نوفمبر وديسمبر ويناير، نظر: ابن بشكوال، الصلة رقم ٧٨ ج ١ ص ٣٠، ليرتشوندى وسيمونيت: منتخبات، لقطعة رقم ١٠٠ ص ١١٢ - ١١٣، ودوزى. ملحق المعاجم ٤٩١/٢.

(٥٩) من الخفيف، اقلايد ٢٦٦، ونفح ٤٤٢/٣.

(٦٠) من البسيط، القلائد ٢٦٧.

ومن بين الموضوعات التي تتردد كثيرا في الشعر الأندلسي وصف كأس الببلور الجميلة الشفافة،
تبدو كالماء الصافي متجمدا، أو مليئة بالنبيذ الأحمر المذهب فتبدو كما لو كانت الثبر مذاها. يقول
المعتمد:

لَوْ سَأَيْ مُهْفِفٍ غَنِجٌ قَدْ قَامَ يَسْقَى فَجَاءَ بِالْعَجَبِ
أَهْدَى لَنَا مِنْ لَطِيفِ حِكْمَتِهِ فِي جَائِدِ الْمَاءِ ذَائِبِ الذَّهَبِ^(٦١)

وحين كان المتوكل في رحلة في كورة شنترين تلقى من أبي محمد بن عبدون قطيع راح وطبق ورد،
وبعد ثلاثة أبيات من الشعر يقول آخرها:

فَبَعْضُهَا مِنَ الْخَافِ جَامِدٌ وَبَعْضُهَا مِنَ الْحَيَاءِ ذَائِبٌ^(٦٢)

وفي هذا المجال أبدع الشعراء الأندلسيون عددا من الصور البديعة المتنوعة، فالنبيذ ليس دائما ذهبيا
مذاها، ولا أده الزجاج الذي يُشرب فيه ماء متجمدا، وعلى هذا النحو يتحدث المعتمد عن:

وَكَمْ سَقَانِي، وَالْأَمْلُ مَعْتَكِرٌ فِي جَامِدِ ذَائِبِ الْوَرْدِ^(٦٣)

ويقول أبو محمد المصري في مقطوعة يمدح بها المأمون:

وَكَأَمَّا الْأَتْنَاخُ فِي رَاحِيهِ دُرٌّ جَادٌ ذَابَ فِيهِ الْعَسْجَدُ^(٦٤)

ونقل أبو الفضل بن شرف فكرة التجمد والذوبان من مجال المادة إلى مجال الكائنات المبهجة، وهذا
أحيا ذكر اجتماعات اللهو البريء:

يَأْمَنُ جِفَا فُجْغَانِي الطَّيْفِ، هَجَرَ لِي بَأْيَ عَذْرِ فَعْدُرِ الضَّيْفِ فِي السَّهْرِ
ذَكَرْتُ بِالسَّفْحِ شَمْلًا غَيْرَ مُنْصَدِعٍ بِالنَّائِيَاتِ وَنَظْمًا غَيْرَ مُتَشَرِّعٍ
بِكُلِّ بِيضَاءٍ خَوْدٍ خَلَّتْهَا جَمْدٌ مِنْ السَّكِينَةِ أَوْ ذَابَتْ مِنَ الْخَفَرِ^(٦٥)

ويستخدمون الصور نفسها في وصف الزهور والثمار، يقول أبو محمد المصري واصفا الترجس بأنه
دُرٌّ جامد والحمر بأنها ثبر ذائب:

رَعَى اللَّهُ دَهْرًا قَدْ نَعَمْنَا بِطَيْبِهِ لِيَالِهِ مِنْ شَمْسِ الْكَوْوسِ أَصَابِلُ
وَنَرَجِسٌ دُرٌّ عَلَى الثَّبَرِ جَامِدٌ وَخَرْتْنَا تَبَرٌّ عَلَى الدَّرِّ سَائِلُ^(٦٦)

وصف ابن زيدون التفاح والنبيذ، فيقول:

جَاءَتْكَ جَامِدَةُ الْمَدَا مِنْ فَخْذٍ عَلَيْهَا ذَوْبُهَا^(٦٧)

(٦١) من المنسرح، القلائد ٩، وضع ٢٧٨/٤، وبنو عباد ٤٤/٦.

(٦٢) من لارجز، القلائد ٤٤، نفع ٦٦٥/١، الرحلة ١٠٧/٢.

(٦٣) من المنسرح، خريدة القصر ١١/١٤٩، وبنو عباد ٣٩٣/١.

(٦٤) من الكامل، نفع ٥٢٩/١.

(٦٥) من البسيط، القلائد ٢٥٤.

(٦٦) من الطويل، نفع ١١٨/٣.

(٦٧) من المنسرح، الديوان ٢٢٢، وكور ص ١٠٦.

ويقول ابن عمار:

خُذْهَا كَمَا سَفَرْتُ إِلَيْكَ خَدُودُ أَوْ أَوْجَسْتُ فِي رَاحَتَيْكَ نَهْدُ
دُرًّا مِنَ التَّفَاحِ تَثْرِي بَيْنَنَا وَلَهَا بِأَجْيَادِ الْفُصُونِ عَقُودُ
خُذْهَا وَتَنَاوَلْهَا النَّدَامُ فَإِنَّا رَاحَ دَعَايَا فِي الشِّتَاءِ جُودُ
وَشَفَعْتُ بِالْإِجَاصِ قَصْدُ إِنَّهُ شَكِلُ الْجَمَالِ وَحُدُّهُ لِمَحْدُودُ
عُنْزًا إِلَيْكَ فَإِنَّمَا هِيَ أَوجُهُ بِيضُ تَقَارِنَا عَيُونُ سَوْدُ^(٦٨)

ويصف ابن سارة النارج أيضا بأنه ذوائب تجمت:

أَرَى سَجَرَ النَّارِجِ أَهْدَى لَنَا جَنِيًّا كَقَطْرِ دَمَوْعٍ ضَرَجَتْهَا اللَّوَاعِجُ
حَوَامِدُ لَوْدَايَتٍ لَكَانَتْ مَدَامَهُ نَصُوغُ الْبَرَى فِيهَا الْأَكْفُ النَّوَارِجُ
كَرَاتُ عَقِيْقِي فِي غُصُونٍ يَهْرَجِدُ بِكَلِّ نَسِيمِ الرِّيحِ مِنْهَا صَوَالِجُ^(٦٩)

(٦٨) من الكامل، المجلد ٢/١٦٣.

(٦٩) من الطويل، القلائد ٢٦٧ وسبق أن قلنا عن فكرة الجعد مستخدمة في وصف البرك والتوافير، انظر فيما سبق ص ١٨٢ - ١٨٤ من هذا الكتاب.

○ الفصل الثاني:

الحيوانات

في إطار الطبيعة التي يبعثها خيال الشاعر الخلاق تعيش الحيوانات، أليفة أو متوحشة. وفتننى في أشعار الأندلسيين بمعظم الحيوانات التي وصفها الشعراء المشاركة، ولكنهم يستلهمون الواقع دائماً، ولم يستطع الشعراء الأندلسيون حتى وهم يتحدثون عن الصحراء أو عن النساء في الهواجج أن ينسحوا مجالا في قصائدهم لوصف الجمال رغم أنهم يعرفونها^(١). وعلى النقيض، يذكرون حيوانات لا ترد في الشعر المشرقي إلا نادرا، مثل القرد، والنعام، والخنزير البري، والزرافة. وأظهر الأندلسيون فيها يتصل بالحصان ذوقا منها كالشارقة، وأشعارهم لا تقدم لنا شيئا جديدا عن هذا الحيوان. وقد درسه الفريوني العرب تفصيلا على نحو لم نسمع بمثله حتى الآن، وتذكرنا مقطوعة شعرية للرمادي يمدح فيها أبا على القالي بما في ديوان امرئ القيس، يقول:

فقد اغتدى والصبح في توريسه تقضى العيون له بوجه عليل
بأقب لون الأبنوس مفضض في غرة منه وفي تحجيل
مستغربي لصفات زبد الخيل وال غنوى والمرى والضليل^(٢)

وغالبا ما تكون غرة الحصان وتحجيله إشارة عراقية وكرم وسترعيان الاهتمام، ولكن موطن التقدير الحق يرتبط بسرعه وكان للمتوكل بن الألفطس أمير بطليوس فرس أدهم أغر محجل على كفله ست نقط بيض، فندب الشعراء لوصفه، فصنع النحلي أبو الوليد فيه يديها:

ركب البدر جوادا سابج تقف الريح لأذى سهلة
ليس الليل قميصا سابجا والنريا نقط في كفلة
وعدير الصبح قد خيض به فبدا تحجيلة من بللة^(٣)

وواصل ابن اللبابة القول:

لله طرقت جال يا ابن محمد فحبت به حواؤه التأميلا
لما رأى أن الظلام أديمه أهدى لأربعه الهدى تحجيلا^(٤)

(١) سرى حيا بعد أن بعض الأحياء الغالية تأخذ أحيانا صورة جمل. وكان المتصور ينقل الأخراج والإمدادات الحربية على ظهور الخيل والجمال (انظر أعمال الأعلام ٩٩). ويقول ابن عمار في قصيدة يهجو بها لمحمد أن بني عباد خصو بالجمال. ألا حتى بالقرب حيا حلالا أناخرا جمالا وحازوا جمالا
ودلك في قرية يؤمن. نظر ص ٨٦ من هذا الكتاب.

(٢) من الكامل، الطلح ٣١٣. وانظر فيما سبق ص ٥٠ من هذا الكتاب.

(٣) من الرمل، نفع ٣/٣٣٣.

(٤) من الكامل، نفع ٣/٣٣٣.

وأنى أبو عبد الله بن عبد البر الشنتربي تقول بقطعة منها هذا البيت:

وكأنما عمرٌ على صهواتيه قمرٌ تسيرُ به الرياحُ الأربع^(٥)

ومن بين المؤلفين الآخرين الذين اهتموا بالدراسات اللغوية المشرقية أبو محمد بن السيد البطليوسى الذى شرح كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، وقد وصف لنا حصانا أسود للأمير عبد الرحمن، وهو الظافر بن ذى النون:

وأدهم من آل الوجيه ولا حيي له الليلُ نونٌ والصبحُ حُجولٌ
تغير ماءَ الحسني فوق أدبيه قولا التهابُ الحُضري ظلٌ يسيل
كانَ هلالَ القطرِ لآخِ بوجهيه قاعيننا شوقًا إليه تميل
كانَ الرياحُ العاصفاتِ ثقله إذا ابتل منه محزمٌ وتليل^(٦)

ونلتقى في سهولة بإشارات كثيرة تصف ألوان الحصان العديدة، فهو أشقر وأشهب وأدهم وأصداً وورد وركيت^(٧)، أو وصف الحصان وهو يشارك في القتال^(٨).

وإذا كانت كلاب الصيد، كما سنرى، تميزت في الشعر وأصبح لها مكان مرموق فإن كلاب الحراسة اعتبرت حيواناً نجساً فيما يبدو، والحديث النبوي يقول: [إذا لعق الكلب إناء أحدم سمعته سبع مرات]^(٩).

وكان المتمردون في إسبانيا يصلبون بين كلب وخنزير^(١٠). وعندما رفضت عائشة القرطبية شاعراً تقدم لخطبتها ورأته غير جدير بما كتبت إليه إنها لا تتبل كلباً زوجاً لها في الوقت الذى رفضت فيه الأسود يطلبونها:

أنا لبوةٌ لكننى لا أرتضى غسى مُناخاً طول دهرى من أحذ
ولو أنى أختار ذلك لم أجب كلباً وكم غلقتُ سمعى عن أسد^(١١)

ويقول أبو عيسى بن ليون حين فقد إمارته، يأسى لعظمته الخالية، ولكن دون أن يحنى رأسه:

ذروني أجب شرق البلادِ وغربها لأشقى نفسى أو أموت بدانى

(٥) من الكامل، نفع ٣/٣٢٢.

(٦) من الطويل، الثلاث ٢٠٠، ونفع ٦/٦٥٠.

(٧) عن الحصان الأشقر انظر: ابن خفاجة، الديوان، القطعة ١٠٦ ص ١٩١، ورقم ٤٩ ص ٨٧، و ١٦٤ ص ٢٥١. وعن الحصان الأشهب انظر أيضاً ابن خفاجة، الديوان رقم ١٥٧ ص ٢١١، نفع ٣/٤٨٢. وعن الفرس الأدهم انظر أسات ابن السدي هذه الصفحة. وعن الأسود انظر: المعتز في «بنو عباد» ٢٨٦/١، عن الفرس الورد انظر: نفع ٢/٤٠٦، طبعة أوروبا. وعن المعلومات الخاصة بالملابس المختلفة، انظر ابن هذيل الأندلسي، حلية لفرسان وشعار الشجعان، ص ٨٣ - ٩١، والترجمة الفرنسية له عن ٧٩ - ١٠٠.

(٨) ابن خفاجة، الديوان رقم ١٩٥ ص ٢٥٣، ورقم ١٩٤ ص ٢٥١ الأبيات ١٤ - ١٨.

● قلت: حصر الدكتور سيد غازي، الأبيات التي وردت في الحصان في ديوان ابن خفاجة في تحليله لمادة الديوان، ص ٤٠٧، عندما حققه، (المترجم).

(٩) صحيح البخاري، كتاب ٤، فصل ٣٣، وترجمة أودا ومرسيه ١/٢٧٧.

(١٠) نفع ١١/٢ طبع أوروبا وتاريخ مسلمي إسبانيا ج ١ ص ١٥٩ و ١٦٤ و ١٦٧.

(١١) نفع ٤/٢٩٠.

فلست ككلب السوء يُرضيه مريضٌ وعظمٌ ولكن عِقَابُ سَاءٍ^(١٢)
ولا يرى ابن سارة وسيلة لتوبيخ معاصريه خير من أن يقول لهم:

بني الدنيا بجهلٍ عظموها فجَلَّتْ عندهم وهي الحقيرة
تأرَشُ بعضهم بعضاً عليها مهارشة الكلابِ على عقيره^(١٣)
ويستخدم ابن حزم المثل الإغريقي، فيقول عن محبين متنافسين وغيرين:

صَبَانٌ قَبَانَانِ فِي وَاحِدٍ كَلَامَا عَنْ خِدْنِهِ مَنْحَرَفٌ
كَالْكَلْبِ فِي الْآرَى لَا يَحْتَلِفُ وَلَا يَحِلُّ الْغَيْرُ أَنْ يَحْتَلِفَ^(١٤)

وهذا الرعب من الكلب اختفى تماماً فيها بعد بتأثير الأفكار الصوفية، إذ كان الصوفية يستخدمون الكلاب الوقية النشطة^(١٥)، وأوصاف «الفقير» الرئيسية العشرة مأخوذة من أوصاف الكلب. [وهي: «في الكلب عشر خصال محمودة ينبغي أن تكون في كل فقير: لا يزال جائعاً، وهو من دأب الصالحين، ولا يكون له موضع يعرف به، وذلك من علامة المتوكلين، ولا يتنام من الليل إلا القليل، وذلك من صفات المحبين، وإذا مات لا يكون له ميراث، وذلك من أخلاق الزاهدين، ولا يهجر صاحبه وإن جفاه وطرده، وذلك من شيم المريدن، ويرضى من الدنيا بأدنى يسير، وذلك من إشارة القانعين، وإذا غلب من مكانه تركه وانصرف إلى غيره، وذلك من علامة المتواضعين، وإذا ضرب وطرد ثم دعى أجاب، وذلك من أخلاق الخاشعين، وإذا حضر شيء من الأكل وقف ينظر من بعيد، وذلك من أخلاق المساكين، وإذا رحل لا يرحل معه شيء، وذلك من علامة المتجردين»]^(١٦).

ويبدو أن الزرافة لم تعيش في إسبانيا، لأن الطقوس دون ما شك لا يسمح لها بالحياة، ومثلها الجمل، ولو أن المؤرخين يشيرون من حين لآخر إلى زرافات قدمها سلاطين أفريقيا أو حكماؤها هدية إلى الأمراء الأندلسيين، ومنهم نعرف أن زيري بن عطية أرسل في عام ٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م جنة هدايا إلى المنصور بن أبي عامر، بينها زرافة، ولكن هذا الحيوان المسكين لم يستطع العيش فنفق وهم يقدمونه للحاجب القوى^(١٧).

وفي القرن الحادي عشر الميلادي وصف لنا بعض شعراء الغرب الإسلامي الزرافة، مثل: أبي علي

(١٢) من العويل، الحلة ١٦٨/٢، والفلاذ ١٠٢، وأبحاث، ط ١ ص ٥٢٥ و ٥٢٧.

(١٣) من الوافر، الفلاذ ٢٦٦، ويقول شاعر مجهول في نفع ١١٨/٤:

استد يد يدك بكلية إن ظفرت به فأكثر الناس قد صاروا خنازيرا

(١٤) من السريع، ابن حزم طرق الحطاسة ص ٨٢ وترجمه نيكول ٧٦. ونحن هنا بصدد مثل إغريقي يتردد كثيرا عند لوسيان، انظر: Erasmo, Adagia, X, 13، ونجد أيضاً عند الجاسط في كتابه البغلاء طبعة القاهرة ١٠٢/٢، وفي ترجمته الفرنسية التي قام بها شارل بيلا ص ٢٣٣. ومع ذلك يرى ابن حزم أن الكلب حيوان طاهر، انظر مخطوطة الفسطنطينية التي حلتها أسوين بلا ثيوس في مجلة الأندلس، للجلد ٢ عام ١٩٣٤، العدد ١ ص ١٥٦.

(١٥) الكتاني سلة الأندلس ١٤/١ - ١٥.

(١٦) نفع ١٦٨/٢، وتنسب هذه الفقرة التي تتضمن صفات الكلب العشر إلى الحسن البصري للثوري ١١٠ هـ = ٧٢٨.

(١٧) كتاب مناخر البربر، طبعة ليفي يروفسال ص ٢٧، وبعد ذلك يزين قدم سلطان الموحدين إلى أبي سالم سلطان المغرب زرافة وصفها ابن زمرق في قصيدة طويلة، انظر: ابن الخطيب، الإحاطة ٣٠٦/٢.

بن رشيق، ومحمد بن شرف القيرواني. ولكن فيه يدور وطبقا لكل الروايات، كانوا قد رأوها في أفريقيا^(١٨). وفيما يتصل بابن حديد، وتضمن ديوانه قطعة من سبعة عشر بيتا في وصف الزرافة^(١٩). لا نعرف ما إذا كان قد رأى هذا الحيوان في إسبانيا أو في شمال أفريقيا، في بجاية مثلا، ومع هذا الشك ندع جانبنا المعلومات التي يمكن أن يكون قد حملها لنا فيما يتصل بهذا الموضوع.

ولا نجد شيئا أصيلا على الإطلاق فيما يتصل تلك الحيوانات، والذي كان تجسيدا للنجاعة والنبل في الأندلس والمشرق على السواء.

وفيما يتصل بالذئب فنحن نقرأ في كتاب «البيان المغرب» لابن عذارى فقرة مثيرة، مؤداها أن البربر الذين استدعاهم المنصور بن أبي عامر اجتاحتها إسبانيا «وظلوا ينتصرون، وبعد الهجوم الشهير بقى جزء كبير من إسبانيا خاليا من النرج، وتحول إلى صحراء، وملأته الذئاب والحيوانات المفترسة، التي حرمت البلاد من لأمان بعض الوقت»^(٢٠).

ونعتقد أن الذئاب خلال فترات النجاعة كانت تنتشر، وحتى تهدد الأهالي، وتهجم على قطعان الغنم^(٢١)، وأحيانا على الأشخاص أنفسهم. وأخبر ابن خفاجة يصف هذا الواقع عندما يحدثنا عن ذئب طراق يلاّ الليل بعوانه المخيف:

وَمَفْازَةٌ لَا نَجْمَ فِي ظِلْمَانِهَا	يَسْرِي وَلَا فَلَكَ بِهَا دَوَّارٌ
تَتَلَهَّبُ الشُّعْرَى بِهَا فَكَأَنَّمَا	فِي كَفِّ زَنْجَى الدُّجَى دِينَارٌ
تَرْمِي فِي النَّيْطَانِ فِيهَا وَالرُّبْدُ	دَوَّلًا كَمَا يَنْمُوْجُ اسْتِمَارٌ
وَالْقُطْبُ مَلْتَزِمٌ لِمَرْكَزِهِ بِهَا	فَكَأَنَّهُ فِي سَاحَةِ مَسْمَارٍ
قَدْ لَفَنِي فِيهَا الظَّلَامُ وَظَافٍ بِي	ذَيْبٌ يَلْمُ مَعَ الدُّجَى زَوَّارٌ
طَرَّاقٌ سَاحَابِ الدِّيارِ مَنَاورٌ	خَتَالُ أَبْنَاءِ السَّرَى غَدَّارٌ
يَسْرِي وَقَدْ تَضَحَّ النَّدى وَحَةَ الصَّبِّ	فِي قَرْوَةٍ قَدْ مَشَا اقْتِشْعَارٌ
فَعَشَوْتُ فِي ظِلْمَاءٍ لَمْ يُقَدِّحْ بِهِ	إِلَّا لِمَقْلَتِهِ وَبَأْسَى نَارٍ ^(٢٢)

ويعود ابن خفاجة فيصف الذئب ثانية في هذه الأبيات:

وَأُطْلِسَ زَوَّارٌ مَعَ اللَّيْلِ أَغْبِشُ	سَرَى خَلْفَ اسْتِمَارِ الدُّجَى يَتَكَّرُ
تَتَاهَبُ مِنْ مَسِّ الطَّوِيِّ فَهَوَّ يَشْتَكِي	فَيَعْوَى وَقَدْ لَفَتْهُ نَكْبَاءُ صَرْصَرٍ
وَدُونَ أَمَانِيهِ شَرَارَةٌ لَكُنْ	يَقْبُبُ فِيهَا مِثْلَهَا حِينَ يَنْظُرُ
فَمِنْ جَوْعَةٍ تَغْرِيهُ بِي فَهَوَّ يَدْنِي	وَمِنْ رَوْعَةٍ تَنْبِيهِ عَنِّي فَيَنْقُصِرُ ^(٢٣)

(١٨) الأبيات في نهاية الأثر لسوري، ج ٩ ص ٣١٩ - ٣٢١.

(١٩) ديوان ابن حديد، ط. شهابريز، قطعة ٢٤٩، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٢٠) البيان المغرب، ج ٢ ص ٢٩٣، الترجمة ص ٢٥٥.

(٢١) ٣٥٨/٢ طبع أوروبا.

(٢٢) من الكامل، الديوان، القطعة رقم ٤٧ ص ٨٥، والخيرة ٥٦٤/٣.

(٢٣) من الطويل، الديوان القطعة ١٣٤ ص ١٨٠.

ونعرف من شعر أبي إسحاق الألبيري أن الذئب لم يكن غائبا عما حول البيرة، في مكان يسمى «حصن العقاب»، يقول:

وكم ذئب يجاوره ولكن رأيت الذئب أسلم من فقيه^(٢٤)

وفي زمن المجاعات لم تكن الذئاب وحدها هي التي تضطلع بالتخريب، وإنما كانت تشاركها الخنازير الجبلية في هذا. فهي تقوم بحملات على الأراضي المزروعة، وفي بعض المناطق حيث يكثر عددها تصنع ذلك حتى في زمن الرخاء، فهي تغزو الحدائق والبساتين، ويحضرنا في هذا المقام ما يقوله ابن مقفانا عن أرضه في القباقي:

فما أرض قبداقي وإن جاد عالمها بموفية عشرين من حزم الزرع
وإن أنجبت شيئا وزادت تواترت إليها خنازير المفاوز في جمع^(٢٥)

وأحيانا نجدها حتى في المزارع حول قرطبة، ففي عام ٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م قام جند المظفر خليفة المنصور باستارة خنزير في فحوص بدر، وطاردته خيلهم أثناء انتشارهم، ويقص علينا ابن عذارى أن الحيوان «اقتحم شوارع قرطبة وأكثر أهلها يومئذ لا يعرفون ما هو، لسعة عمارتهم وعدم الوحش بباديتهم فضلا عن حاضرتهم، فلم يزل ذلك الخنزير راكبا وجهه يخترق الناس، وقد تسابقت الخيل في طلبه إلى أن لحقته بالسط، قبالة قصر الخلافة، فأطال الناس وقتا في حديثه، وأكثروا الخوض في شأنه والتطير منه»^(٢٦).

ولم يكن الخنزير البري موضع تقدير إطلاقا في إسبانيا الإسلامية، ويحق، ولهذا السبب فإن أشد شتيمة أو إهانة يمكن أن توجه لمسيحي، أو مستعرب، أو غيرها، أن يوصف بأنه من «أكلة لحم الخنزير»^(٢٧)، ونذكر جيدا صدى المقولة التي تنسب إلى المعتمد حين عزم على دعوة المرابطين وخوفاً منه فقال: «أفضل أن أرعى الجمال في الصحراء على أن أرعى الخنازير في قشتالة». وبني فكرته هذه على واقع معروف جيد، وهو أن المسيحيين كانوا يستخدمون أرقاءهم من المسلمين في الأعمال اليدوية، كالطبخ والحج، وما يشابهها مما لا يتطلب جهدا بدنيا عنيفا، كالعمل في الحماطات ورعي قطعان الخنازير^(٢٨).

(٢٤) من الراس، بحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٨٦، والملمق فيها ص ٦٢، ونظر الديوان أيضا، القطعة رقم ١٩ البيت رقم ٣.

(٢٥) انظر فيها سبق ص ١٨ و ١٩ من هذا الكتاب.

(٢٦) البيان المقرب ٢٢/٣، ترجمة ليفي يروفسال في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٢٠١.

(٢٧) عندما عاد جداد بن شبروط من سفارة أمام الملوك المسيحيين، مدحه أحد أبناء ملته على النحر الثاني: «دون أن يرسل سها أو يشتر سيفا، ويلاغته قصب، أخذ من «أكلة الخنازير» اللاعين المدائن والحصون. انظر تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧١. ويذكر عبد المنعم بن من الله القروي في رده على رسالة ابن غرسية وأفكاره الشنوية، أن المسيحيين كانوا «رعاة الخنازير، وأكلة السنابير»، النشرة ٧٢٤/٣.

(٢٨) انظر غومث مونتو، كنائس المستعربين ص ٢٤٢ - ٢٤٣. ورقم ٧ بمناسبة دير ثيلانوبا، وكان يشرف عليه رودسيندو المتوفى ٩٧٧. وفيه 'تصل المشرق من المثير أن نجد مسلما هو الأعمش، المتوفى ١٤٨ هـ = ٧٦٥ م، يقول لواحد من أصدقائه، وهو شعبة المتوفى ١٥٩ هـ = ٧٧٥ م، وكان يتحدث إلى جمع من الناس: «يا انتعاستك يا شعبة، تعلق اللؤلؤ في رقاب الخنازير». وقد أورد ابن عبد البر هذه الجملة في كتابه مختصر جامع بيان العلم، ولكنه لم يذكر لنا هل هؤلاء الأشخاص مسيحيين أم ينتسبون إلى أديان أخرى (قارن هذا بأمثال سليمان، الإصحاح ١١، الآية ٢٢، رانجيل من الإصحاح ٧ الآية ٦).

وإذا كانت كلمة خنزير أوجيل^(٢٩) احتفظ بها لتطلق على المسيحيين فإن كلمة قرد تانت بعامية من نصيب اليهود، تأثراً بالآيات القرآنية، حيث عاقب الله الإسرائيليين المخطفين لأنهم نسوا ما ذكروا به، وعتوا عما نهوا عنه، واعتدوا في يوم السبت، فقال لهم: كونوا قردة خاسئين^(٣٠).

ويقول أبو إسحاق الإلييري في قصيدته ضد يهود غرناطة:

فكم مسلم فاضلٍ قانتٍ لا رذلٍ قردٍ من المشركين

ورغم قردهم داره وجرى إليها غير العيون^(٣١)

ونادرا ما يستخدم الأندلسيون غظ قرد للسخرية من أندلسي كالمصور، ولكن إبراهيم بن إدريس الحسني استخدمها في هجائه له، يقول:

أَيَكُونُ حِمًّا مِنْ أُمَيَّةٍ وَاحِدٍ وَيَسُوسُ هَذَا الْمَلِكُ هَذَا الْأَحَدُ^(٣٢)

ونلاحظ أيضا أن ألفونسو السادس، لكي يشكر حسام الدولة ابن رزين على الهدايا التي تلقاها منه، أرسل له من جانيه قرداء، ولم ير أمير السهلة، في عمه، أن في هذا إشارة احتقار، وإنما على التقبض سرها^(٣٣).

وذكرين حيوانات أخرى من ذوات الأربع مثل القنفذ (ويشبهونها بالخرشوف كما رأينا في ما سبق)^(٣٤)، والسلحفاة، والتي تعيش في البرك^(٣٥)، والحرباء، وبها يشبه الدهر والحظ المتقلب، يقول ابن اللبانة:

والدهرُ في صِبْغةِ الحرباءِ منغمسٌ ألوانُ حالاته فيها استحالات^(٣٦)



أما عن الزواحف فهناك أشعار هامة لا بد من الإشارة إليها.

(٢٩) انظر فيها سبق ص ٢١٦ رقم ١٠ من هذا الكتاب.

(٣٠) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٦٥، وسورة المائدة الآية ٦٠، وسورة الأنعام الآية ١٦٦. ونلاحظ أن القاضي أبا العباس عبد الله بن أحمد بن طائفة، في بلاد المغرب الشرقية تحت حكم الأغالية، ألزم اليهود والتصارى أن يضعوا على أكفهم درعا بيضاء، في كل رقعة منها قرد وخنزير. ويجعل على أبواب دعوهم لوحا مسمر في الأبواب مصورها قردة. انظر المالك، رياض تنوع، ٢٨٨/١. وروجر هـ إدريس، إضافة إلى تاريخ إفريقية، في مجلة الدراسات الإسلامية ١٩٣٥ المجلد الثاني ص ١٤٢.

(٣١) الديوان، القطعة رقم ٢٥. وانظر ص ٢٤٥ - ٢٤٦ من هذا الكتاب. ويصف أبو عامر بن شهيد في رسالة توجه بها إلى أبي جعفر بن عباس اليهود بأنهم قردة. انظر الذخيرة ٢١٥/١. ويصف الأمير الزيوي عبد الله الوزير اليهودي يوسف بكلمة «خنزير». انظر: التبيان، ص ٣٧ و ٤٠ و ٤١ و ٤٤ و ٦٥ و ٦٧.

(٣٢) من الكامن، ابن عذاري، البيان المغرب ٣٠٢/٢، الترجمة منه ٤٦٨/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٤٢. وابن الأثير، الحطية ٢٢٧/١، ومفاخر البربر ص ٢١.

(٣٣) كتاب الكافية، في «دبو عباد» ١٩٧٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٢١ و ١٢٦.

(٣٤) انظر فيها سبق ص ١٧٦ - ١٧٧ من هذا الكتاب.

(٣٥) انظر فيها سبق ص ١٨٤ من هذا الكتاب.

(٣٦) من البسيط، المراكشي، المعجب، ص ١٤٧، وترجمته إلى الفرنسية ص ١٢٤.

لقد لاحظنا من قبل أن الجداول والأنهار تُشبه بالحيات، ولكن لا يمكن أن تُشبه بالأفعى أو الخنثى، أو بزواحف أخرى دقيقة. وقد أشار ابن حزم إلى الأفاعي، ولدغتها طيقا لعقيدة العامة لا يمكن الشفاء منها إلا بالجسم المتهوك بلدغة الأفعى نفسها، أى بالترياق^(٣٧). والناس الذين من أصول متواضعة وبلغوا مراكز عالية، ومن ثم أصبحوا قوة مرموقة، يشبهون بالأفاعي أو الثعابين أو الأحناس، وبخاصة إذا كانوا أندلسيين ينحدرون من أصول بربرية^(٣٨).



وكان حب الأندلسيين للعصافير ملحوظا وواضعا، ولا يقل عن حبهم للزهور، ولم يجد عبد الرحمن الناصر ليكمل زينة مدينة الزهراء شيئا أفضل من إقامة حديقة حيوان حقيقية، فيها محلات للوحش ومسارح للطيور^(٣٩)، وكم كان يودنا أن نعرف أسوء الطيور التي كانت فيها. ويتيح لنا ابن زيدون في إحدى قصائده، وجاءت في شكل ألفاظ وأحاج، أن نكون على نحو ما فكرة عن عصافير الزينة التي كانت معروفة في الأندلس، فقد أورد لنا كثيرا من أسمائها، مثل: القمري أو الشفنين، والعصفور، والببل، والتسر، والغراب، والفراج، والزُرزور، والفرنيق، والمكاء، والشرشور، والباشق، والشاهين^(٤٠).

ومن أجل الغناء كانوا يبحثون عن بعض هذه العصافير. هل كان الببل يعيش في قفص؟ أظن هذا، ولكنهم يتدقون تغريده عندما يكون طليقا، وحينئذ لا يسمونه بببلا، وإنما يدعونه «أم الحسن»، وهو اسم كتب له الخلود، ولا يزال متداولاً حتى يومنا هذا في شمال أفريقيا، ويصف المعتضد تغريده في هذه الأبيات:

أَتَنَكَ أُمُّ الْحَسَنِ تَشْدُو بِصَوْتِ حَسَنِ
تَدُّ فِي الْحِثَاءِ مَدُّ الْفَتَاءِ الْمَدْنِي
تَقُودُ مَنًى سَلَسَلاً كَأَنِّي فِي رَسَنِ
أُورَاقَهَا أَسْتَارُهَا إِذَا شَدَتْ فِي قَنَنِ^(٤١)

ويصور ابن زيدون غناء الببل بأنه يبيع الورشان للفتاة:

إِنْ تَغَنَّى الْبَبْلُ اهْتَأ جَ غِنَاءِ الْوَرْشَانِ

(٣٧) ابن حزم طرق الحمامة ص ١٣٧، ترجمة نيكل ١٣٥، وطبعة برشية ص ٢٤٠ - ٢٤٦.

(٣٨) أعمال الأعلام ١٥٠، طبعة الرباط ١٩٣٤، والشفنى، رسالة في فضل الأندلس، في نفع ٢١٠/٣.

(٣٩) ابن خلدون، كتاب العبر ١٤٤/٤، وعنه نقلها نفع ٥٧٨/١. وابن زاكور، شرح قلانة الفبيان الورقة ٩٩ وجه. وكان يطلق على حديقة الحيرن في مدينة الزهراء اسم «حير». انظر: ابن زاكور المصدر السابق الورقة ٩٩ وجه، وطبقا لأن بكر بن مفرج في تعليق له على أبي الزهيد الموفى ٣٧٩ هـ = ٩٩٩ م، وانظر أيضا فيما سبق ص ١١٧ هامش رقم ٥٤ من هذا الكتاب، وثمنا سائق ص ٢٢٢ الهامش رقم ٤٣ وعن المشرق انظر: آدم مكن، النهضة ص ٢٨٦، وترجمة بيلا الإسبانية ص ٤٨٧، والترجمة العربية بعنوان «الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري»، وقام بها محمد عبد الهادي أبو ريده، القاهرة ٢٥٨/٢.

(٤٠) ابن زيدون، الديوان ٦٢٤ - ٦٢٧، ونفع ٢٦٨/٤.

(٤١) من الجزء الأخيرة ٣٠/٢. وتحدث الشاعر ابن السراج الملقب عن الببل أيضا بهذا الاسم نفسه، في أبيات له يصف فيها جلسة منادمة، انظر الذخيرة ٨٧١/١، وابن قزمان في ديوانه، القطعة ٧٦، الدور ١ ص ٣٥٢. وفي الفصل المخصص للشاه والموسيقا سوف نحدد ماذا يعنى الغناء المدنى. وأستار المدنى.

فَتَادِي مِنْهُ مَيْتًا غَزَلِمُ مَنفَرْدَانِ
لِحَبِّ فِي حَبِيبٍ عَنْهُ نَاءٌ مِنْهُ دَلِيلٌ
«يَا بَعِيدَ الدَّرْ مُؤْصُو لَا بِقَلْبِي وَلِسَانِي
رَبِّمَا بِاعْدُكَ الدَّمْرُ فَأَذْنُكَ الْأَمَانِ»^(٤١)

وكان من العادات الجارية في الأندلس أن يتعلم المرء كيف يتحدث إلى طائر يحسن نفس الاسم الذي يحمله «الزرزور» ولكن في ضوء كل الروايات ليس شيئاً آخر غير الزرزور نفسه، ويصفه أبو الحسن بن الحاج على النحو التالي:

يَرْبُّ أَعْجَمَ صَامِتٍ لَقْنَتُهُ طَرَفَ الْحَدِيثِ فَصَارَ أَفْصَحَ نَاطِقِ
جَوْنِ الْإِمَابِ أَعْيَرَ فَوْهَ صَفْرَةٍ كَاللَّيْلِ طَرَزَهُ وَمِيزُ الْقَارِقِ
جَحَنَّمُ مِنَ التَّدْبِيرِ أَعْجَزَتْ الْوَرَى وَرَأَى بِهَا الْمَخْلُوقَ لُطْفَ الْخَالِقِ^(٤٢)

وكثيراً ما نلتقي بوصف القطا وحجل الصحراء في شعر المشرق العربي، ويذكرنا المعتمد في الغرب الإسلامي، ولكن فقط عندما كان سجيناً في أعماق^(٤٤). وحدث الشيء نفسه مع الغراب، ولم يكن تعيقه محققاً يفعل شيئاً أكثر من زيادة آلام الأمير المنفى^(٤٥).

أما الورقاء التي تختفي بين الأغصان فقد اتخذ منها الشعراء رمزاً للعاشق الحزين يعاني من قوة المحبوب. وهناك أسطورة تقول إن طيراً جارحاً اعتدى على هديل في عصر نوح، ومنذ ذلك اليوم فإن كل الورق باكية حزينة^(٤٦). يقول ابن زيدون:

وَأَرَّقَ الْعَيْنَ وَالظَّلَاءَ عَاكِفَةً وَرَقَاءُ قَدْ شَفَّهَا، أَوْ شَفَّيْ حَزَنُ
فَيْتَ أَشْكُو وَتَشْكُو فَوْقَ أَيْكُهَا وَهَاتَ يَهْفُو ارْتِيَاخًا بَيْنَنَا الْفُصْنُ^(٤٧)

(٤٢) من الرمل، الديوان ٥٩٦.

(٤٣) من الكامل، القلائد ١٦٣. ولدنا من القرن العاشر حكيمتان تطهران أن ين أمة كانوا مولعين بالزرازمي المروضة الأول منها تقدم لنا ولي العهد هشام المؤيد ومؤبه أبا بكر الزبيدي، وكلاهما في إحدى قاعات مدينة الزمراء التي تطل على حديقة حيوان الحائر. قرأ الأمير الشاب أحد زواجره النحيبه إليه تهاجمه سلحفاة سان، فخرج متدفقا لإيقاظه، أمام دهشة مؤديه الذي لم يكن قد لحظ شيئاً. انظر: ابن زاكور، في المصدر السابق، الورقة ٩٩ وجه وظهر.

والحكاية الثانية حدثت لميد الرحمن الناصر، وفي مدينة الزمراء أيضاً، إذا بينما أراد الفصد، وقد باليهو في المجلس الكبير المشرف بأعلى مدينة الزمراء، واستدعى الطب لسلك، وأخذ هذه لآلة ليجس يد الناصر، أطل زرزور، وصعد على إناه ذهب بالمجلس، وأنشد:

أَيَا الْفَاصِدِ رَقْنَا بِأَمْرِ الْمَوْسِمِ
إِنَّمَا تَفْصِدُ عَرَقًا فِيهِ هَيَا الْعَالِمِ

وجس يكر ذلك مرة بعد المرة، فاستظرف لناصر هذا وسر به، وسأل عن اهتدى إلى ذلك وعلم الزرزور، ذكر له أن السيدة الكبرى مرجانة أم ولده ولي عهده الحكم صنعت ذلك. نفخ ٣٦١/١.

(٤٤) القلائد ٢٨، وعنه في «بنو تباد» ٦٨/١، ونسخ ٣٢٠/٤، والخيرة ٧١/٢، وبنو عاد ٥٣٧/٢.

(٤٥) الخيرة ٧٦/٢، وعنها في «بنو تباد» ٣١٨/١.

(٤٦) ثمة إشارات كثيرة عن هذه الأسطورة عند الشعراء، انظر مثلاً: أبو العلاء المعري، سقط الزند، مقطوعة دلة من بحر الخميس، البيت ١٧، وابن قزمان، الديوان، القطعة ١٤٧، الدور ١، ٧٢٦/٢.

(٤٧) من البسيط، المصعب ١١٠، وبالترجمة ٩٤، وأديوان ١٦٢.

وكتب ابن عمار:

على، وإلا ما يكأ الضمائم وفي، وإلا ما نباح الحمائم^(٤٨)

ويمكن أن نذكر الكثير من الأمثلة^(٤٩)، ولكنها لا تضيف إلى ما نعرفه جديداً، ويبدو لي أن من الأفضل أن نتحدث هنا عن دور الحمامة في نقل البريد، والشعر شاهداً الوحيد على وجودها ابتداء من القرن الحادي عشر فحسب^(٥٠)، وإرسال خبر بواسطة الحمام يعبر عنه بالفعل طير^(٥١).

وقد طير المعتمد عقب وقعة الزلاقة رسالة إلى ابنه الرشيد^(٥٢) وأعلم الراضى والده المعتمد برسالة حملتها إليه حمامة، بأن المرابطين يحاصرونه في الجزيرة الخضراء فأذنه بتركها^(٥٣)، وثمة أبيات عديدة في ديوان المعتمد تبين أن هذه الوسيلة في نقل الرسائل لم تكن مستخدمة في شئون الدولة فحسب، وإنما كان أمير إشبيلية يكتب أصدقائه أو نساءه المحضيات شعراً، ويحمل أبياته للحمام الزاجل، يرد على أبي الوليد بن المعلم فيقول:

مُتَّ بِخَفَافَةِ الْجَنَاحِ وَقَدْ أَمَكْنَ وَرْدُ فَلَ يَطْلُ حَوْمُ^(٥٤)

وكتب إلى إحدى نساته، وحمل ما كتب حمامة، يقول:

وَجِئْتُ الطَّيْرُ مُودَعَاتِ سِرِّكَ يَا سِرَّ كُلِّ مَلِكٍ^(٥٥)

وكتب إلى ابنه المأمون أبي الفتح:

رَدُونِكَ مِنَّا طَبُورًا غَدْتُ تَطِيرُ إِلَيْكَ بِرِيضِ الْوَدَادِ^(٥٦)

وكان المعتمد أمير المروية إذا ابتعد عنها يستخدم الوسيلة نفسها ليراسل محظياته:

وَحَمَلْتُ ذَاتَ الطَّوْقِ مِنِّي تَحِيَّةً تَكُونُ عَلَى أَفْقِ الْمَرْيَةِ مَجْمَرًا
تَبْلُغُ مِنْ وَدَى إِلَيْكُمْ رَسَالًا بِأَعْبَقِ مِنْ نَشْرِ الْعَبِيرِ وَأَعْطَرَا^(٥٧)

وحق السباق الأدنى طبقة بلغ بهم الحال إلى التراسل بالطريقة نفسها، إذا صدقت رواية ابن حزم، يقول: «وإني لأعرف من كانت الرسول بينها حمامة مؤدبة، ويعقد الكتاب في جناحها، وفي ذلك أقول قطعة منها:

(٤٨) من الطويل، المعجب ١١١، وترجمة دى سنان ١٢٨/٣، وهو عباد ١٠٤/٢.

(٤٩) انظر مثلاً: انقلابند ٢١، بنو عباد ٥٦/١، مطمح ١١٩، وعنه في نفح ٣٦١/٣، وثمة وصف مفصل للحمامة للشاعر ابن حصن في رفع الحجب المستورة للشرى الفرناطى، ٥٣/١، وترجمها غرسية غوث في كتابه تصانيد أندلسية، القطعة رقم ٤ ص ٤٢ - ٤٣.

(٥٠) فيما يتصل بالشرق انظر: جو دفرى - ديموين، سوريا في عصر المماليك ص ٢٥٠ - ٢٥٤، وكارا دى نو، مفكرود الإسلام ٣٤٦/٢، وقائمة المراجع المذكورة هناك.

(٥١) بنو عباد ١٢٢/١ و ٤٢٨.

(٥٢) بن الخطيب، الإحاطة ١١٤/٢، وهو عباد ١٣٦/٢.

(٥٣) الحلة لسراة ١٠٠/٢، وأبحاث ط ٢ ص ١٧٤، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢، ١٢٥/٣.

(٥٤) من المنسرح، الديوان ص ٦١.

(٥٥) من البيط، الديوان ص ٥٩.

(٥٦) من المنقاري، الديوان ص ٤٦.

(٥٧) انقلابند ٢٥١ الحلة ٨٤/٢، بنو عباد ١٢٢/١.

تَغَيَّرَهَا نَوْحٌ فَمَا خَابَ ظَنُّهُ لَدَيْهَا وَجَاءَتْ نَحْوَهُ بِمَا بَشَائِرُ
سَأَوْدَعَهَا كَتَبَى إِلَيْكَ بِهَا كَهَا رَسَائِلُ تَهْدِي فِي قَوَادِمِ طَائِرِ^(٥٨)
وَاسْتَحَقَّ الدِّيكُ مِنْ بَيْنِ الطَّيْرِ الدَّاجِنَةِ اهْتِمَامًا أَكْبَرَ مِنَ الشُّعْرَاءِ، وَنَظِمَ فِيهِ الْأَسْعَدُ بْنُ بَلِيطَةَ
أَيَّامًا حَفَلَتْ بِشَهْرَةٍ وَاسِعَةٍ عَلَى يَامِهِ:

وَقَامَ لَهَا يَنْعَى الدَّجَى ذِرَ شَقِيقَةٍ يَدِيرُ لَنَا مِنْ عَيْنِ أَجْفَانِهِ سِقْطًا
إِذَا صَاحَ أَصْفَى سَمْعُهُ لِأَذَانِهِ وَيَادِرُ ضَرْبًا مِنْ قَوَادِمِهِ الْإِطْلَاقِ
كَأَنَّ أَتَوَّ شُرُودَانَ أَعْلَاهُ تَاجَهُ وَنَاطَتْ عَلَيْهِ كَفَّ مَارِيَةٍ الْقَرْطَا
سَبَى حَلَّةَ الطَّائِوسِ حَسْرَ لِبَاسِهَا وَلَمْ يَكْفِهِ حَتَّى سَبَى الْمَشْيَةِ الْبِطَا^(٥٩)

أَمَّا الْإِوْزُ، وَرَبِّمَا الْبَجَعُ أَيْضًا، فَلَا جَدَّ عَلَيْهَا شَاهِدٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ إِلَّا بَدَأَ مِنَ الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ، وَفِي
مَرْجِ الْخَزْ، وَهُوَ مَكَانٌ لِلتَّنَزُّهِ قَرِيبٌ مِنْ قَرْطَبَةِ، عَلَى شَاطِئِ الْوَادِي الْكَبِيرِ، وَكَانَ الْإِوْزُ يَسْبِغُ فِي جَلَالِ
وَجَمَالِ، وَتَتَنَاقَرُ عَلَى قَطَرَاتِ الْمَاءِ كَأَنَّهَا مَاسٌ^(٦٠).

وَكَانَ ابْنُ خُفَاجَةَ الْوَحِيدَ الَّذِي رَصَفَ لَنَا التَّعَامَةَ، وَمَنْ الْمُحْتَمَلُ أَنَّهُ رَأَاهَا فِي إِسْبَانِيَا نَفْسَهَا، وَأَيَّامَهُ
فِيهَا مَعْرُوفَةٌ جَيِّدًا مِثْلَ تِلْكَ الَّتِي كَتَبَهَا عَنْ كَلَابِ الصَّيْدِ:

وَلِرَبِّ طَيْرٍ خَفِيفٌ نَدَّ جَرَى فَخَلَّأَ بِجَارِ خَلْقَهُ طَيْرًا
مِنْ كُلِّ قَاصِرَةٍ الْخَطِئِ مُخْتَالَةٍ مَشَى الْفَتَاوُ تَجَرُّ فُضْلَ إِزَارِ
مُخَضَّبِيَةِ الْمَنْقَارِ تَحَسُّبُ أَنَّهَا كَرَعَتْ عَلَى ظُلْمٍ يَكْأُسُ عُقَارِ
لَا تَسْتَفْرِ بِهَا الْأَدَاخِ خَشْيَةً مِنْ لَيْلٍ وَقَلِّ أَوْ نَهَارٍ بِوَارِ^(٦١)



وَاهْتَمَّ شُعْرَاءُ الْأَنْدَلُسِ بِالْحَشَرَاتِ قَلِيلًا، وَلَا حَظَّ أَبُو قَتَامٍ الْحُجَّامُ، فِي بَيْتٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ، أَنْ النِّحْلَةَ
غَوَتْ مَبَاشَرَةً يَبْدُو أَنَّ تَلْسَعُ غَيْرَهَا:

تَصَبَّرْ وَإِنْ أَبْدَى الْعَدُوَّ مَذْمَةً فَمَهْمَا رَمَى فَرَجَعَ إِلَيْهِ مَهَامُهُ
كَمَا يَفْعَلُ التَّحَلُّ الْمَلُومُ بِلِسَعِهِ يَرِيدُ بِهِ ضَرْأً وَفِيهِ حِمَامُهُ^(٦٢)

وَقَدْ شَهِدَ السَّمِيسِرُ فِي بَيْتٍ مِنَ التَّعَرُّ أَمِيرَ غَرْنَاطَةَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ بَلْقَيْنَ، لَمَّا رَأَاهُ شَغُوفَهُ بِتَنْسِيدِ قَلْعَتِهِ
الَّتِي يَتَحَصَّنُ فِيهَا، بِأَنَّهُ مِثْلُ دَوْدَةَ الْقَرْ:

(٥٨) ابن حزم، طوق الحمامة ص ٥٩، وترجمة نيكول ص ٥٠.

(٥٩) من الطويل المطبوع ص ٣٤٢، وعنه في نفع ٥١/٤، والذخيرة ٢/١ (البیت الثالث فقط)، وابن خلكان الوفيات ٣٦٧/٢، وترجمة ص ٢٠٠/٣.

(٦٠) نفع ٤٧٤/١، والأبيات لأبي الحسين الرُّقَشِي وَابْنِ سَمِيدٍ الْجَدِّ الْأَعْلَى لِلْمَوْزُخِ. وَقَدْ عُرِفَ الْأَوْزُفِيَا بِهِيَ عَلَى التَّأَكِيدِ، كَمَا نَجَدَ ذَلِكَ فِي الْمَعْجَمِ، حَيْثُ يُورَدُ كَلِمَةُ «قَاقُصُ» لِتَحْدِيدِهِ. وَانْتَظَرُ: دُوْزِي، مَاتِقُ الْمَعْجَمِ الْعَرَبِيَّةِ ٢٩٦/٢.

(٦١) من الكامل، الديوان (القطعة ٢ ص ٣٣، الأبيات ٤٠ - ٤٢، والنوادر، نهاية الأرب ١/٣٤٠، والفزلي، مطالع البدر ٢٤٩/٢.

(٦٢) نفع ٤١٨/٣.

يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سَفَافًا كَأَنَّهُ دَوْدَةُ الْحَرِيرِ (٦٣)

وهذه الصور منها كانت دقيقة لانتكفى وحده مع ذلك لتثبت أن الأندلسيين عكفوا على تربية النحل، أو دودة القز لنسج الحرير، وإنما المدونات النثرية الأخرى وحدها هي التي تسمح لنا بأن نؤكد أن هذا كان موجوداً.

وإذا كان تكاثر الخيوان يقاس بعدد الأبيات التي أهمها الشعراء فيمكن القول بأن المبراغيث والبعض لم تكن تغلو منها مقاطعة في أسبانيا الإسلامية، كما في مقاطعة بلنسية، وقد ذكرنا بعض هذه الأبيات بمناسبة الحديث عن المدن الكبرى في شبه الجزيرة (٦٤).

يقول السمسير في كثير من البراعة:

سَمَوْضٌ جَعَلَن دَمِي قَهْوَةً وَعَنْثَنِي بِضُرُوبِ الْأَغَانِ
كَأَنَّ عَرَوْقِي أَوْتَارَهُنَّ وَجَسَمِي الرَّبَابُ وَهَنَ الْقِيَانُ (٦٥)

ولم يكونوا يجهلون في الأندلس الأسطورة التي تقول بأن النمرود قتلته بعوضة، يقول المصري:

فَاحْذَرْ عَدُوَّكَ وَهُوَ أَهْوَنُ هَبِيبٍ إِنَّ الْبَعُوضَةَ أَرْدَتِ النَّمْرُودَا (٦٦)

وقد رأى الأندلسيون في الفراشة كائناً يشبه الضوء وفي انفعالها هذا يبلغ بها الحال حتى أن ترك نفسها تحترق بما تبحث عنه، وكانت تكون جانباً من بهجتهم الليلية يسرون، لأنها فيما يقول أبو عيسى بن ليون:

يَارِبُ لَيْلٍ شَرِينَا فِيهِ صَافِيَةٌ حِمَاءٌ فِي لَوْنِهَا تَتَفَى التَّبَارِجَا
تَرَى الْفَرَّاشَ عَلَى الْأَكْوَاسِ سَاقِطَةً كَأَنَّمَا أَبْصَرَتْ مِنْهَا مَصَائِحَا (٦٧)

ويقدم لنا ابن إدريس اليماني أرق الصور شاعرية:

وَفَتَيَانِ صَدَقِ عَرَسُوا تَحْتَ دُوْحَةٍ وَمَا هُمْ غَيْرُ النَّبَاتِ فِرَاشُ
كَأَنَّهُمُ وَالزَّهَرُ بِسَقَطِ فَوْقَهُمْ مَصَائِحُ يَهْوَى نَحْوَهُنَّ فَرَّاشُ (٦٨)

ويرى ابن حزم في الفراشة تحترق العاشق شفه الوجد:

كَمْ دُرَّتْ حَوْلَ الْحُبِّ حَتَّى لَقِدَ حَصَلَتْ فِيهِ كَحُصُولِ الْفَرَّاشِ

(٦٣) نفع ٤١٢/٣، دوزي، أبحاث ط ١ ص ١٠٧، وطبعة ٣٦١/١٣، وليفي بروفثال، مذكرات الأمير عبد الله، الترجمة الفرنسية، لفظة، ص ٢٧ - ٢٨ (رقم ٦٠) و ٢٠٩.

(٦٤) انظر فيما سبق ص ١٠٨ و ١٣٩ من هذا الكتاب.

(٦٥) من التتاربية نفع ٣٢٩/٣، ابن دحية، المطرب ٩٣.

(٦٦) من الكامل، نفع ١٥٤/٢، وفيما يوصل بالنمرود وبأسطورة البعوضة انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٩٠١/٣، وكتب المدة ج. هليلير.

● قلت: وهم المؤلف فنسب الأبيات لأبي عبد الله محمد بن طاهر الداني، ولحق أن هذا يروى عن المصري، ونص النسخ صريح في هذا، يقول أبو عبد الله: وأشدني المصري لنفسه. (الترجم).

(٦٧) من البسيط، القلائد ١٠١، الحلة ١٧٠/٢.

(٦٨) من البسيط، التواجي، حلبة الكبيت ٢٧٧.

تعثو إلى الوصل. دواعى الهوى كما سرى نحو سنا النار علق^(٦٩)

تظهر لنا المتقطعات السابقة، مع بعض الاستثناءات، أن الأندلسيين لم يكونوا شعراء كونييين، مصورى حيوانات، وكانت الطبيعة بالنسبة لهم قبل أى شيء، إطاراً واسعاً يفضلون أن يضعوا فيه كل شيء يحاولون بحق أن يشخصوه. ولم يضيفوا، بعد المشاركة الذين استنفدوا هذا المجال تماماً فيما يبدو جديداً إلى هذه الموضوعات الشائعة، إلا تنوعاً وعمقا وذكاء فى كثير من الأحيان، مما يجعل أكثر ملمحهم المتعارف عليه. وعوضاً عن ذلك نراهم ركزوا إهتمامهم فى جوانب الوسط الإنسانى. وإذا كان شعرهم يعكس دائماً تأثيراً مشرقياً لا أنه، مع ذلك، يتضمن بعض الإضافات الدقيقة التى تنير بضوء خاص حياة المسلم الإسباني ونفسيته.

(٦٩) من السراج، ابن حزم، الوقى ٩٧، وترجمة نيكل ٩٥، وطبعة برسيه ١٧٠.

الباب الثالث

وثائق عن الحياة الاجتماعية
يُمدُّنا بها الشعر الإسباني

○ الفصل الأول :

الوسط العرقي

قال دوزي قريبا من منتصف القرن التاسع عشر الميلادي: « ليس ثمة شيء أصعب من دراسة عادات المسلمين وتصرفاتهم في العصور الوسطى. وغالبا ما تلعب المغامرة دورا كبيرا في معرفتنا ببعض الأحداث الهامة والمثيرة، ذلك لأن المؤلفين العرب قليلا ما يتحملون عبء تسجيل ما كان معروفا في أيامهم بعامة»^(١).

وهي مشكلة تعرض لنا لا بالنسبة إلى المسلمين فحسب، وإنما أيضًا بالنسبة لكل مجتمعات العصور الوسطى^(٢). ولكن، هل يعني هذا أننا يجب أن نتغلى عن رسم لوحة للحياة خلال هذا القرون الموعلة في القدم؟ لا نعتقد هذا، وإذا كنا بالنسبة لإسهانها الإسلامية لامتلك قصصا تعكس صورة المجتمع بكل جوانبه^(٣)، فنحن نملك على الأقل، وتحت أيدينا، المؤلفات التاريخية، والمنتخبات الأدبية، التي تشكل أحداثا صغيرة عن النشاط اليومي للإسبان المسلمين، ولييان ملامح حياة الأندلسيين في عصر بعينه لا بد من إعطاء مكانة خاصة للأعمال الإبداعية، والإنتاج الشعري من بينها بخاصة.

فالشعر رغم ما فيه من خيال، ورغم ضرورات الأسلوب التي تضغط عليه، ومن ميله إلى خلق حياة مثالية على هامش الحياة اليومية أو فوق مستواها، لا يمكن - دون شك - أن يتجاوز الواقع الذي ينقله لنا، ولكنه الواقع الذي لا يستطيع أن يفصل عنه تماما، وتوضع لنا دراسة النصوص الشعرية في أناة كثيرا من الأحداث أو الملاحظات المباشرة، وتسمح لنا بأن نلمح بعض جوانب الحياة فيها مضى.

وفي الصفحات التي سلفت، بمناسبة الحديث عن الموضوعات الشعرية الشائعة التناول، استطعنا أن نبرز الإشارات الكثيرة إلى نشاط الأندلسيين الاجتماعي والأخلاقي والثقافي وسنحاول أن نجتمع في الفصول التالية الإشارات التي قيل إلى إظهار حياة الفرد في المجتمع بطريقة أكثر مباشرة، وإذا كانت الحياة بهذا الأسلوب نفسه تبدو لنا ناقصة أو مجتزأة، فإنها توضع لنا على الأقل الجوانب الأوضح أصالة، وهذه الطريقة نستطيع على نحو أفضل أن نفهم مزاج الشعب كلاً، والذي رغم الظلال المتفاوتة وغير المتناسقة فيه، كأى مجتمع آخر، يقدم لنا ملامح عامة مشتركة تميزه عن المجتمعات البسيطة الأخرى.

(١) دوزي، أبحاثه نشرت عام ١٨٤٩، ص ١٥٠.

(٢) م. ماريو رولك وقاله في مقدمته لكتاب جوان إلفان: حضارة قرنسا في العصر الوسط، باريس ١٩٣٠.

(٣) ومع ذلك فإن الكافي (وعنه سوف نتحدث في ص ٣٣٧ - ٣٣٨ من هذا الكتاب) ألف كئنا شيئا أسما، ومحمد وسعدى وهو فيها يبدو حياة جامت في شكل رواية، ولكننا لا نملك عنه أية معلومات أخرى، القضية، البقية، ص ٥٧ رقم ٨١.

يحاول الشعر أن يجبرنا، في المقام الأول، بالعناصر العرقية التي كان يتكون منها الشعب الإسباني: العرب والمولدون والصقالبة والبربر والأرقاء الأفارقة والسود واليهود والمستعربون.

وكان العرب حتى منتصف القرن العاشر الميلادي ينقسمون إلى فرعين بمخاضون غالباً: المضربون واليمنيون، أو القيسيون والكليبيون، وفي مصطلح ثالث العدنانيون والقحطانيون، ثم بدأوا يفقدون إحساسهم بأصولهم الشريفة القائمة على مفهوم الانتماء إلى قبيلة معينة، وتخلوا تدريجاً عن أنسابهم العرقية^(٤) التي ارتبطت بوجودهم بدواً أو نصف حضريين وقد هجروها منذ زمن طويل، وما لبثوا أن اتخذوا لهم بهامة أنساباً تذكرهم بالمكان الذي ولدوا فيه: مدينة أو قرية أو ضيعة أو كورة. وفيما يبدو أنها يمكن الدفاع الأساسي الذي يظهر بوضوح تطور العرب في إسبانيا من مرحلة البداوة إلى مرحلة الاستقرار. ويوصف الشخص بأنه فقيه أو قاض أو قائد أو وزير أو شاعر أو أديب قيل أن يكون مخزومياً أو قيسياً أو قرطياً أو إشبيلية^(٥). وقد تعلق العربي بالأرض، وهذا ما جعله يفقد الصفات التي يعتبرها ابن خلدون أساسية في قيام للمالك وبقائها، وهذا التغير في شعوره نحو الأرض وهو ليس بعيداً عن الإحساس بالوضعية، ودعمه قليل من الكفاح والمعاناة المشتركة، تعاوتت كلها على تقوية الوجود الحقيقي، وأشاعت الإخاء بين أفراد المجتمع.

وكان هذا التغير العميق في بناء الجماعات العربية من عمل المنصور بن أبي عامر، طبقاً لفكرة أوردتها ابن غالب في كتابه «فرحة الأنفس» ونقلها لنا المقرئ في «نفع الطيب»^(٦). ولكن يبدو أن المنصور بدل أن يسبق الحوادث ويدعو إلى الإصلاح بأمر منه نفسه، آثر في سياسة فطنة أن يبقى الأمر في الجيش على ما كان عليه الحال واقعا في المجتمع^(٧).

وأدرك المهتمون بدراسة الأنساب أن الأسر التي تنتمي إلى القبيلة الواحدة، أو البطن الواحد،

(٤) نسب السلم الإسباني انتماءه ارتقى إلى إحدى القبائل.

(٥) أشد الأثلة دلالة تنتمي به في أصول الأمرين الإنسان الذين استقروا في ريمية في مقاطعة قرطبة. قد تخطوا عن نسبتهم الروائية كما كان يفعل أسلافهم، وانتسبوا بدلاً منها إلى ريمية، فكان الواحد منهم يقال عنه رسمي، انظر نفع ٥٣٤/٣.

(٦) نفع ٢٩٣/١ وإسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٢٠.

(٧) تاريخ الجند السورين يقدم لنا أقوى دليل، فقبل المنصور بقرن من الزمان أظهر الجغرافيون المؤرخ البيهقي، المتوفى ٢٧٨ هـ = ٨٩١ م، امتزاج تلك العناصر. انظر مؤلفه: كتاب البلدان في سلسلة المكتبة الجغرافية العربية، المجلد ١، ط ٢، ١٨٩٢، ص ٣٥٤ - ٣٥٥، وترجمة فييت له، القاهرة ١٩٣٧، ص ٢١٨ - ٢٢٠. وكان جند دمشق الذين استقروا في البيرة (غرناطة) يتكون من المضربين والقيسيين منهم بغضاً، واستقر جند الأرمين في رية (مالقة) ويتكون من قبائل يمنية، وجند حمص في سمرة (إشبيلية)، وهم من السمين في جملتهم ومن بعض النزاريين (الحمديين)، وجند قنسرين في جيان، وهم خليط من معديين ويمنيين. والمعلومات التي يقدمها لنا علماء الأنساب في القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر، وهي تالية للملك الطوائف قليلاً، تنتهي وإتقاناً. والوثيقة الأعظم أصه هي كتاب جبهة أنساب العرب لابن حزم، ط. القاهرة ١٩٤٨ بتحقيق إيمي بروفيسال والطبعات التالية بتحقيق عبد السلام هارون وهي أدق وأكمل. وقد أخذ ابن حزم جانباً من معلوماته من «كتاب في أنساب مشاهير أهل الأندلس» في خمسة أجزاء لأحمد بن محمد بن موسى، وكتاب في أنساب القاسم بن أصبغ، وكتاب الطوائف في أنساب أهل الأندلس مؤلف مجهول وانظر رسالة ابن حزم في الرد على ابن أريب القرواني، في نفع ١٥٦/٣، وعندما درس المقرئ هذا العصر احتج على اثنين من علماء الأنساب: الحارثي المتوفى ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م، مؤلف «كتاب الفصل»، انظر باقوت، معجم البلدان ١/٧٥ و ٧٥ و ١٧٠ و ٢٥٦، وابن غالب من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، وتبحث لنا الفرصة نتحدثنا عنها فيما سبق، ص ٢٤ من هذا الكتاب انظر نفع ٢٩٤/١ - ٢٩٨.

تفرقت على امتداد كل الأراضي الإسبانية^(٨)، وذلك يمثل أيضاً إحدى الخصائص الأكثر وضوحاً لأن بعض العناصر نسبت أصولها الأولى، وأصبحت لا تولى هذا الموضوع أى اهتمام^(٩).

السبب المبدئى والجوهرى لإهمال سلسلة الأنساب، وكانت تمثل فى الماضى الرابطة الاجتماعية الأقوى، يجب أن نبحث عنه بين العدد المحدود من العرب الذين اتخذوا من أرض إسبانيا مقاما. لقد جاءوا إليها درن زوجاتهم، واضطرتهم الحاجة إلى تكوين أسرة للزواج، أو اتخاذ عشيقات، من نساء إسبانيات. وبعد عدة أجيال امتزجت دماء العرب بالدماء التى كان أصحابها يسكنون إسبانيا قبل الفتح، وجعل منهم الدين، واللغة إلى حد ما، عربا فى الظاهر^(١٠)، ولكنهم واقعاً كانوا إسبانيين. وإذا كان الجانب الأكبر من الشعب نسى أصوله العرقية، ولم يكن يهتم كثيراً بمعرفة الأنساب، فقد كان الأمراء على النقيض، يحاولون أن يرتفعوا بأنسابهم إلى جدودهم الأولين، نبيهنوا على نقاء دهم العربى، ولم يتردد الشعراء الذين درسوا الأنساب العربية أيام طلبهم العلم فى استخدام معارفهم والعرف على هذا الوتر الحساس، وضرينا بعض الأمثلة التى توضح هذا فيما سبق^(١١)، وأبيات ابن عمار التى أورناها فيما سبق عن أصول بنى عبّاد تظهر أن الشعراء لم يكونوا دائماً غافلين عن الدور الذى عليهم أن يلعبوه^(١٢).

كانت غالبية الشعب فى إسبانيا من الإشبانيّ الذين اعتنقوا الدين الإسلامى، ورغم اعتناقهم دين المنتصرين فقد غيروا فى الحقيقة أشياء قليلة من تقاذج حياتهم.

وهؤلاء الذين اعتنقوا الدين الإسلامى قد يكونون من اليهود أو من الجنس الإبرو رومانى، وهذا فى غالبية يدين بالكاثوليكية، وكان المؤرخون العرب يطلقون على الواحد منهم اسم مُسْلِمَانِي، وعليهم جميعاً صيغته فى الجمع مُسَالِمَة، ويمزجون بينهم فيطلقون على الأوائل اسم إسلامى أو إسرائيلى وعلى الآخرين اسم أسلمى، وجمعه أسلاميون أو أسالمية^(١٣). أما أطفالهم الذين انحدروا من أصلهم

(٨) مثلاً اشترى الحضرميون فى مرسية وغرناطة وإشبيلية وطلوس وقرطبة فتح ٢٩٨/١ طبقاً لابن غالب.
(٩) وكان هذا منذ عصر الحكم المستنصر بالله. يقول ابن الأثير نقلاً عن ابن حبان: وكان الحكم «باسطاً عن الأنساب، حريصاً على تأليف قبائل العرب، وإلحاق من درس نسه أو جهله بقبيلته التى هو منها». الحلة ٢٠١/١، وانظر أيضاً فقرة أخرى واضحة الدلالة فى الكتاب نفسه ٢٠٢/١ - ٢٠٣.

ويقول المعتز فى رسالته التى وجهها إلى يوسف بن تاشفين فى جمادى الأولى ٤٧٩ هـ = أغسطس ١٠٨٦ م «لقد اختلطت أنسابنا وأصبحت شعوباً وقبائل»، أنظر: الحلل الموشية، طبعة تونس، ص ٢٩، ط علوش، ص ٣٣، وعنه فى «بئر عبادة» ١٨٩/٢. وهو على التأكيد يشير إلى الآية القرآنية، وهى قاعدة فى مبدأ شعوبى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا»، سورة الحجرات، الآية ١٣، وانظر تفسير البضاوى، طبعة فليشر ٢٧٦/٢.

(١٠) انظر: ريمر، نيز ومقالاته، ٢٦/١ يقول: لقد أعطى الدين الإسلامى لونا للجموع الإسبانية «مثل قليل جداً من الخير الأجر كافٍ ليعضى لونا أمر على بركة ماء دون أن يتغير تركيب الماء الكيميائى جوهرى».

(١١) انظر فيما سبق ص ٨٥ من هذا الكتاب.

(١٢) انظر ص ٨٦ فيما سبق من هذا الكتاب.

(١٣) سيمونيت، تاريخ المستعربين، ص ١٦ هامش ٢، وليفى بركنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، ص ١٨ رقم ١، ودوزى، ملحق المعاجم، مادة مسالمة ٦٧٩/١، وصاعد الأندلسى، طبقات الأمم، ط. شيخو ص ٨١، وترجمة بلاشير ص ١٤٨.

يطلق عليهم المؤرخون اسم «المولدون»، وبعد عدة أجيال لم يكونوا يختلفون أو يتميزون عن المسلمين القدماء، وبلغ التزاوج بين طبقة وأخرى مستوى عالياً حيث غلب الدم الإسباني.

بغامة كان المولدون يتخذون أسماء عربية، وهي شيء طبيعي إذا أخذنا في الحسبان أن المسيحيين الذين احتفظوا بدينهم وظلوا يعيشون بين المسلمين، واطلق عليهم اسم المستعربين، كانوا في حالات كثيرة يتخذون أسماء عربية^(١٤). ولكن، كما حدث في بلاد إسلامية أخرى^(١٥)، كان من الممكن أن يحتفظ المسألة والمولدون بأسمائهم غير العربية دون أن يحدث هذا أى قلق للمسلمين الوافدين، حتى في السنوات الأولى من الفتح^(١٦). ومن الواضح أن المسلمين الذين كانوا يحملون أسماء إسبانية هم أصلاً من طبقة الرقيق قبل الفتح، مما اعتنقوا الإسلام بعده اعتقوا، وأصبحوا أحراراً، أو موالى كما كانوا يُسمون^(١٧).

إن وجود هذه الأسماء واستمرارها دليل لا على الإضافات القوية التي حملتها العناصر لإيبيرية إلى الجنس الإسباني المسلم فحسب، وإنما أيضاً على تأثيرها الفعال في المفاهيم العربية لسلاسل الأنساب. فقد علم الجنس الإسباني الشعب الفاتح استخدام الألقاب العائلية، وليس أصعب، إلا على العلماء المتخصصين في الأنساب ولم يكن عددهم كبيراً، من أن تتعرف الجماهير على أصل فرد في سلسلة طويلة من الأسماء، مرتبطة واحداً وراء آخر بلفظ «ابن». أما السلالة العرقية المنسوبة إلى أساكن الأصل وأسماء العائلة فتشير إلى أن الانتقال من حال البداوة والتجعة بلغ أقصى غاياته من الثبات

(١٤) الأمثلة الأندلالية نجدها في قاضي لىصارى في قرطبة، وكان يحمل اسم وليد بن خيزون، وأُسقف طليطلة وكان يعرف باسم عبيد الله بن قاسم انظر: نصح ١/٣٦٠، وتاريخ مسلمي إسبانيا ص ٢ ج ١ ص ١٧٧ و ١٨١، وتستطيع أيضاً أن تذكر أسماء مصاوى ليرن، وهم مستعربون دون شك، وعاشوا في الأراضي الإسلامية قبل أن يهاجروا إلى الأراضي النصرانية، وتدّ خصمهم غوث مورينو يفصل في كتابه «كائنات المستعربين» ص ١٠٧ - ١١٨، وأبرز هذا العالم الموسوعي الإسباني، ص ١١٠ رقم ٦، الأسماء التالية: سبريانندو الغالب، ثيلا أبو حبس، وغوث عبد الله، ريواس الطائر، وبرمودو أبو الليث.

(١٥) نتيجة تفكيرنا إلى إيران بخاصة حيث بقيت أسماء كثيرة في صورتها الفارسية، مثل: رستم، وسبيويه، وخاوييه، وغرداد به، وغيرها.

(١٦) في إشبيلية خلال حكم عبد الرحمن الذي بلغ بنو أمّجلين وهو شريك شهرة واسعة، انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٤٠، ونهى بروفنسال في: إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي ص ١٩.

ثمة حتى قرطبة يدعى بنير، بالإسبانية Jannarus O Gener، تلقى به عام ٨٢٦ م في قضية لا يتحدث بالعربية، وإنما بالرومانية. انظر: الخشن، قضاة قرطبة، ط. كوديرا، ص ١١٨، وينتدب بيدال، أصول الإسبانية ٤٣٧ - ٤٣٨.

(١٧) سيكون مفيداً أن نحصر كل الأسماء الإسبانية التي تظهر في أنساب الشخصيات الإسلامية، وقد قدم لنا سيمونيت قائمة تحتوي ثمة وعشرين اسماً، انظر: تاريخ المستعربين، ص ٩٦، هامش ٦. ومن السهل زيادة العدد على نحو ملحوظ بقراءة المؤلفات المتصلة بالغرب الإسلامي، وبخاصة كتاب مع الطبيب للمقرئ، والمكتبة العربية الإسبانية، ولكن رد هذه الكميات إلى أصولها الصحيحة، أو على الأقل بعضها، سوف يكون عملاً جافاً، لأن المؤلفين العرب، بما فهم الذين ينتمون إلى الغرب الإسلامي، حوّلوا هذا الأسماء، أو حرفوها، لأنهم لا يعرفونها، أو لا يفهمونها. وثمة صغيرة أخرى ليست بأقل أهمية، هي العثور على اشتقاق الكلمة الصحيح، فحين نعرف أن الاشتقاق القديم للكلمة ابن يشكوال هو Hijo de pascual، وأن هذا حدث مكان مكان كلمة Hijo de Vasquito، انظر: سينديث بيدال، أصول الإسبانية مفرد ط ٢، ٣٩٢٩، ١/١٤٩٦، ولينا يتصل باين قزمان سوف يكون مغامرة أن تؤكد أصل الكلمة الرومانش، إذا أخذنا في الحسبان أن هناك عرباً قدماء كانوا يحملون هذا الاسم، انظر: تاج العرب، ج ٩ ص ٢٥، وتحدث ابن هشام، المشرق ١٨ - ٢٠ م، في «سيرة الرسول» ج ٢ ص ٣٧٢، وفي طبعة وستنلد ٥٧٨/٢، عن محارب كان يدعى قزمان، وأنه بلغ نهايته بسبب جرحه.

والاستقرار^(١٨). ولم يحدث في أى بلد آخر أن استطاع العنصر العربي أن يذوب في الشعب المهزوم. ويمثل هذا التجانس القوى، كما حدث في إسبانيا.



كان الجانب الأندلسي، أو الإسباني إذا شئت، يعتمد منذ بداية «الفتنة» على عنصر ذى أهمية سياسية تساوى أهمية العرب الأندلسيين إن لم تفقههم، وأعنى بهم الصقالبة^(١٩). وهى كلمة تُطلق على كل الرقيق الذين أسرههم القتلان أو المسلمين على شواطئ البحر الأبيض الأوربية، أو اشتروهم من فرنسا أو إيطاليا أو ألمانيا وجاءوا بهم إلى إسبانيا، ويظن أن الخليفة الأموى الحُكم الثانى أول من استخدمهم^(٢٠)، ومن المحتمل جدا أن هذا تم بعد أن تلقى هدية قُدِّمها إليه كونت برشلونة وكونت طركونة فقد أرسل إليه هذان، في الحقيقة، عشرين عبدا خصيًّا ليعملوا في الحريم^(٢١)، ومنذ تلك اللحظة عم استخدامهم: في الجيش، وكانوا جنودا ممتازين، وفي الحريم بعد خصائهم، واضطلعوا بالأعمال التى كان يقوم بها اليهود عادة^(٢٢)، وأصبحوا خدما كتومين^(٢٣) ومخلصين. ومن صقالبة أصبحوا موالى في نفس الظروف التى عرضت للأسرى المسيحيين في شمال إسبانيا، وعلى النقيض من الموالى المسيحيين الذين ظلوا في المجتمع الإسباني الإسلامى وأصل الصقالبة حياتهم متضامنين فيما بينهم، ولم يتخلوا عن هذا الروح أبدا، وقد ازداد عددهم كثيرا، وتعاظم دورهم عند الخلفاء الأمويين، وكان في بداية الأمر متواضعا ثم أخذ يقوى تدريجيا حتى تساوى مع مسئولية الأسر الأُرستقراطية الكبرى، عربية أو بربرية أو مسيحية، التى تحيط بأمر المؤمنين. وبفضل نفوذهم الذى استمدوه من قريتهم من الخليفة، وأيضا بسبب الثروات الهائلة التى عرفوا كيف يجمعونها، وسمحت لهم بمشراء مساعدة الرجال، حاولوا أن يحكموا إسبانيا الإسلامية في مطلع القرن الحادى عشر، وهم الذين حرّضوا على ثورة القصر التى أزاحت عبد الرحمن شنجول ابن المنصور بن أبى عامر عن الحجابة، ونادت بالمهدى خليفة، ورأينا فيما سبق كيف أن هذه المؤامرة أشعلت نيران «الفتنة»، وهى مرحلة الاضطرابات التى انتهت بزال الحكم الأموى نهائيا، وقيام دول الطوائف الصغيرة على أنقاضهم، والتي ظلت قائمة حتى مجيء المرابطين.

(١٨) لا تزال بعض الأسر الأندلسية القديمة التى هاجرت إلى الرباط وتطوان تعرف بأسمائها الإسبانية، مسبقة لفظ «ابن» أو «بنو» انظر: ر. برونو، نصوص عربية من الرباط، ١٠/١، ودائرة المعارف الإسلامية ١١٦٣/٢ وما بعدها، مادة رباط، وكتبها ليفى برونسفال.

(١٩) في العربية صقلبي وجمعها صقالبة نسبة إلى صقلاب أو صقلاب، وأحيانا يفتح الصاد أو السين: صقلاب. وفيها يتصل بأصل هذه الكلمة أنظر: ليفى برونسفال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادى، ص ٢٨ - ٣١. وتاريخ إسبانيا الإسلامية ط ٢ ج ٢ ص ١٣٢ - ١٣٠، ودائرة المعارف الإسلامية ٧٩/٤ مادة صقالبة وكتبها ليفى برونسفال.

(٢٠) نفع ٣٤١/١، حقا لابن خلدون.

(٢١) نفع ٣٨٤/١.

(٢٢) كان برونو قد مر بصنع خصيان، انظر برونو، تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٥٤، ومزيلا من التفصيلات في: المقدسى، في النكبة الجغرافية العربية، مجلد ٣ ط ٢، ص ٢٤٢، وترجمه بيلا له ص ٥٦ - ٥٩.

(٢٣) كان الحكم الثانى يلقبهم بالخمرس انظر نفع ٣٤٢/١ نقلا عن ابن خلدون.

وليفى برونسفال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ١٣٠، هامش ٢.

في بداية الفتنه حاول الصقالبة. ماكرين ومتأمرين: وعلى ثقة من دعم الجيش لهم، حيث الكثيرين منهم يتولون المناصب الهامة، أن ينتهجوا سياسة مليئة بالمبادرة، تضمن لهم تحقيق طموحاتهم، فتظاهروا بالعمل إلى جانب الحزب الإسباني تارة، وإلى جانب الحزب البربري أخرى، ولكنهم سرعان ما أخذوا جانب الحزب الأول، واعتقدوا أن مصيرهم متعلق به. وأثناء ذلك بدأت ثرواتهم تضر، ونفوذهم ينكمش، وفقدوا تدريجاً دعم الذين كانوا يعتمدون عليهم، وبما أن جذورهم في البلد لم تكن بعيدة العمق فإن الحزب الإسباني حقاً اخترع منهم أولاً قرطبة، ثم المرية، وبعدها طرطوشة، وأخيراً بلنسية، وفي اللحظة التي استقرت فيها دول الطوائف قريباً من منتصف القرن الحادى عشر، لم يكن مع الصقالبة غير كورة واحدة، ظل نفوذهم فيها قائماً وأكثداً، وهى دانية، وتتبعها الجزائر الشرقية، وجزيرة سردينية لبعض الوقت، وفيها ينص سياستهم كانت ذات طابع إسباني، أى قومية إذا شئت، وأخذوا جانباً في الكفاح ضد البربر ثم مالوا إلى العزلة تدريجاً، إلى أن أصبحوا سكان جزر. وتخصصوا في القرصنة في الشواطئ الأوربية.

وبانحسار دور الصقالبة السياسى على هذا النحو لم يعودوا يتولون الوظائف الكبيرة في البلاطات الصغيرة في شبه الجزيرة، إسبانية أو بربرية، والتي كانوا يشغلونها بجوار الخلفاء الأمويين خلال القرن العاشر الميلادى، ونجد بعضهم حول الخليفة على بن حمود، وثلاثة منهم اغتالوا هذا الحمودى في الحمام^(٢٤)، واستخدمهم أيضاً أدريس الثانى في مالقة^(٢٥). وعندما استسلم آخر بنى زيرى في غرناطة عبد الله بن باديس للمرابطين في عام ١٠٩٠ م، كان بلاطه يتكون في معظمه من الصقالبة^(٢٦). وقد قَدَّم لنا الشعراء معلومات عن الصقالبة، ضئيلة دون شك، ولكنها دقيقة، وأعطانا ابن دراج القسطلى تفصيلات مميزة عن عادات أميري بلنسية مبارك والمظفر في تزيينهم بالحلقات كالسيدات، يقول:

فللصبح فيها بين قُرُوبِكَ مَطْلَعٌ وقد سكن الليلُ البهيمُ خِيارَكَ
وإذا كان هذا البيت قد أكمل معارفنا عن الطريقة النسائية لهذين الحصريين، فإن البيت التالى وورده في القصيدة نفسها:

هو الملك لا بلقيس أدركَ شأوها مذاك ولا الزباء سقت خياركا^(٢٧)
نجد فيه تشبيه الأمير بالنساء، وهذه صورة وحيدة في الأدب العربى فيما أرى. ولكن من الحق أن نعتزف بأن الملكين القديمتين أضرهما من الرجولة في موقفهما ما يجب أن يجعل الحصريين يشعرا بالهجة لمثل هذا التشبيه.



إذا كان العنصر العربى، على نحو ما رأينا، لم يكن يمثل إلا جانباً يسيراً في الشعب الإسباني فإن

(٢٤) أعمال الأعلام ص ١٢٩

(٢٥) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢، ٣٦/٢.

(٢٦) العصر السابق ١٤٤/٣

(٢٧) من الطويل، أعمال الأعلام ٢٢٣.

البربر كانوا على التقيض، جاءوا منذ الفتح إلى آخر القرن الحادى عشر، وحتى مطلع القرن الذى يليه، فى هجرات متواصلة وكثيفة نسبيا. وكانت المجموعات الواحدة من قبيلة زناتة فى البدء، ثم تقوّت بأخرين من قبيلة صنهاجة، وفى النهاية أصبحت الأغلبية من هذه القبيلة الأخيرة.

وفى بداية القرن الحادى عشر، خلال أيام الفتنة، كان البربر كلهم، دون تمييز بين طوائفهم، من أنصار عبد الرحمن شنجول، وضد المهدي. وبعد ذلك انحاز محمد بن يعلى رئيس زناتة مع أتباعه إلى المهدي^(٢٨)، وأدى هذا التحول إلى نتائج مدمّرة بالنسبة له، وبخاصة بعد معركة قنتيش حيث قتل الكثيرين من أتباعه. وبعد أن قتل المهدي شنجول تجمع البربر من زناتة وصنهاجة حول الخليفة المرتقب سليمان، لعمل جبهة تتأهض الحزب الإسمائى. وفى هذه اللحظة أقطعت لهم الأراضي فى الجنوب، والجنوب الشرقى، من شبه الجزيرة^(٢٩).

وقد تلقى الصنهاجيون بقيادة حبوس بن ماكسن البيرة (غرناطة) وكورنها، وتلقى بنو دمر وأزداجة شقونة ومورور، وبنو خزرون شريش وأرقش، وتبع ذلك بنو إزيان فأخذوا شقونة وأرقش، ومن الزناتيين تلقى بنو برزال جيان وذواتها. على حين أقام بنو إقران فى رندة.

وفىما يبدو لم يكن الاتفاقى قويا بين صنهاجة وزناتة منذ البداية، لأن زاوى بن زبرى وخاف الضغائن والأحقاد القديمة قرر أن يعود إلى أفريقيا^(٣٠)، ولكن الجانب الأكبر من الصنهاجيين لم يتبعه. ومع ذلك، يمكن القول أن عنصرى البربر ظلّا بعامّة طوال القرن الحادى عشر فى حالة وفاق؛ يكوّنان جانباً من جيش الخليفة سليمان، وناضلا ضد الحزب الإسمائى مع الخلفاء من بنى حمود.

وكان جيش على بن حمود يتألف، كما يقول الشاعر الشيعى ابن الخنّاط الضريع، من كتاب من صنهاجة وزناتة^(٣١). وقد استيقظت روح الجنود أمام هجوم الحزب الإسمائى، وبخاصة منذ اللحظة التى طمح فيها المعتضد أمير إشبيلية إلى حكم كل نصف الجنوب على الأقل، إن لم يكن إسبانيا الإسلامية كلها. وثمة حدث جدير بالملاحظة؛ لم يكن أمراء صنهاجة، وإنّما أمراء زناتة هم الذين انهزموا، ولقد قلنا فى الفصل الأول كيف امتصت مملكة إشبيلية فى سرعة كل الإمارات الزناتية الصغيرة^(٣٢).

(٢٨) البيان المغرب ٦٥/٣ - ٦٨. وابن خلدون فى نفح ٦٢٧/١. وأعمال الأعلام ٩٧.

(٢٩) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٣ و ٢٣٠ و ٢٦٨ و ٢٧٠ و ٢٧١ و ٢٩٤. وفى تاريخ مسلمى إسبانيا ٣١٩/٣. وأعمال الأعلام ص ١١٩. طيفا لابن حمادة ٢٢٨ - ٢٤١. ونفح ٤٣٩/١ طبقا لرواية ابن خلدون، وليفى يروفساله المعتضد فى دائرة المعارف الإسلامية ٨٣١/٣. وفى أفريقيا أعطيت ستة لعل بن حمود، وبنجة وأصيلة للقاسم بن حمود، أما سرقسطة فقد عين سليمان لها المنابر بن يحيى.

(٣٠) انظر: البيان المغرب ١٢٩/٣، وليفى يروفساله، مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زوى فى غرناطة ص ١٠ فصلة مستقلة.

(٣١) - ولابد أن كلمة أيضا اختلطت بالصنهاجيين، وأحدهم كان مكلفا بأن يقدم لمحمد بن إدريس فى مالقة عام ٤٤٤ هـ = ١٠٥٣ م كاسا مسموما. انظر: البيان المغرب ٢٦٨/٣ ويمكن أن يكون السطيلى، وهو بربرى روزير إدريس الثانى من كلمة، ويعود أصله إلى سلفه البيان ٢٩١/٣.

(٣٢) حاول بنو برزال أن يفتلوا من المعتضد، واقترحوا على ابن ذو النون أن يقيم فى المدور بدل قرمونة. انظر: البيان ٣٦٩/٣ و ٢٨٣. وأعمال الأعلام ٢٣٧ - ٢٤٠. وأراد بنو إزيان وبنو خزرون أن يدخلوا مملكة غرناطة وأن يتنازلوا لبلدسى بن حبوس عن قلعة أركش وجميع ما بأيديهم من بلاد شقونة، ولكن المعتضد حقق بإزاحتهم القضاء على القيليين الزناتيين، انظر: البيان المغرب ٢٧٢/٣، وأعمال الأعلام ٢٣٩ - ٢٤٠.

ومن الآن فصاعدا لم يعد الزرتيون يقيمون في غير كورتى مالقة وغرناطة^(٣٣)، وكالصنهاجيين تآندلسوا سريعا، وعندما قرر يوسف بن تاشفين إزاحة ملوك الطوائف عن عروشهم هجم غرناطة أولا حيث يحكم الأمير عبد الله، وكان قد فقد كل خصائصه البربرية.

أما الأسر الحاكمة ذات الأصول البربرية والتي حكمت في بطليوس وطليلة والسهلة فكانوا يطبقون منذ «الفتنة» سياسة أناسية.

كان بنو رزين، ويعرفون أيضا بـ «الأصلع» من بربر هواره^(٣٤)، يتبعون سياسة حكماء، ومن خلال سياسة فطنة عرفوا كيف يحتفظون بحيادهم في أرض السهلة، أو شنترية ابن رزين كما كانت تُسمى أيضا، وتآندلسوا بعمق، ولم يحاولوا أبدا، فيما يبدو، أن يقتربوا من العرب، وشاغلهم الأوحاد أن يستمتعوا بمباهج الحياة، وكانت مطربات حسام الدولة ابن رزين من أجمل فنانات إسبانيا وأعظمهن^(٣٥).

وكان بنو ذي الثون يحكمون طليطة، وهم من البربر أيضا، ولم يصب اسمهم القديم «زُون» إلا تحريف يسير، وكان المنصور هو الذي عهد إليهم في القرن الماضي بحكم مقاطعة شنت مرية، وخلال «الفتنة» قام سكان طليطة المتمردون بطرد حكامهم واستدعوا بنو ذي الثون^(٣٦). وحاول هؤلاء البربريون أن يسطنوا لهم نسب حميريا، أي عريبا قديما، ولم يكونوا ينسأهلون أبدا فيما يتصل بقضية لنسب والعرق، وكان الأبناء غير لترعيتين يهاجمون بقسوة على نحو يضطرهم إلى الفرار من طليطة لكي يهربوا من الموت^(٣٧).

أما بنو الأفطس أمراء بطليوس فينحدرون من أبي محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة، ويُعرف بابن لأفطس^(٣٨). ومن اتحاد بربر مكناسة^(٣٩) الذين استقروا لحظة الفتح في فحصى البروط، شمالي قرطبة، وفي القرن الحادي عشر ادَّعوا أنهم ينحدرون من قبيلة قحيب، أي اعتبروا أنفسهم يمينين. أبرز الشعر، كما لاحظنا ونحن نعرض الأحداث التاريخية كما رآها الشعراء، وجود تناقض حاد وضع الأندلسيين في مواجهة البربر لقاديين من قريبه، وسوف توضح هنا مظاهر لهذا التناقض من نوع آخر، وهي أن الشعب الإسباني كان يحتقر بشدة هؤلاء الأفارقة الجهال، وظل يجري على الشفاه بيتان سامان لشاعر مجهول، وبمهما كان استهلاكها فإن هذا لا يقلل من حدائثها:

رَأَيْتُ آدَمَ فِي نَوْمِي قَتَلْتُ لَهُ: أَبَا الْهَرِيَّةِ إِنْ النَّاسَ قَدْ حَكَمُوا

(٣٣) الأعمال ٢٣٠، وكان باديس بن حوس سلطان الصنهاجيين «ويستخدم الكثير من قهائل زناه».

(٣٤) المجلد ١٠٨/٢، والبيان ١١١٦/٣ - ١٨٤.

(٣٥) سوف نعود إلى هذا الموضوع في الفصل الخاص بالموسيقى.

(٣٦) البيان المغرب ٢٧٦/٣، وأعمال الأعلام ١٧٧.

(٣٧) انظر فيها على ص ٢٣٨ من هذا الكتاب.

(٣٨) ابن الأفطس، أي ابن القرد، وربما أُطلق عليه هذا اللقب، بما يقول دوزي، لأن تقاسمه البربرية تدعّر بشكل القرد.

انظر: بحاث ط ١ ص ١٩٨، ومثل هذا التفسير موضع شك كبير فيما نرى.

(٣٩) كلمة مكناسة توجد في إسبانيا يومئذ اسم بلد في صورة Mequinez انظر: ليفي يروفسال، إسبانيا الإسلامية في

القرن العاشر، ص ٢٦ رقم ١٣ ص ١٦٥ و ١٨٠ ودوزي، بحاث ط ١ ص ١٩٦ - ١٩٨.

أَنْ الْهَرَابَ نَسَلُ مِنْكَ قَالَ: إِنْ حَوَّاهُ طَالِقَةٌ إِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا^(٤٠)

وبعض الأشعار توضح لنا الصفات الغالبة في المزاج البربري، وتقدم لنا الأسباب النفسية للعداوة الخفية التي كانت تفصل الأندلسيين عن البربر، لقد كتب المعتمد إلى والده المرعب، بعد النكسة الحربية التي منى بها أمام مالقة^(٤١)، يعتذر إليه، فيقول:

قَوْمٌ نَصَبَتْهُمْ غُشٌّ، وَحُبُّهُمْ بَفْضٌ، وَنَفْعُهُمْ - إِنْ صُرِّفُوا - ضَرَرٌ
تَجْمِزُ الْغَيْظَ فِي الْأَلْفَاظِ إِنْ نَطَقُوا وَتَعْرِفُ الْحَقْدَ فِي الْأَلْحَاطِ إِنْ نَظَرُوا
إِنْ يَحْرِقُ الْقَلْبَ نَيْزٌ مِنْ مَقَالِهِمْ فَإِنَّمَا ذَاكَ مِنْ نَارِ الْقِلَى شَرٌّ^(٤٢)

ربما كان بعيداً أن نتصور أنه قبل المعتمد بزمان طويل، عبر موسى بن نصير فاتح إسبانيا بهذا الرأي القاسي نفسه في وصف البربر، في مقابلة له مع الخليفة الأموي سليمان شقيق الوليد، يقول: «إنهم منافقون لا يعرف لهم شبيهه، ولا يفون بوعده أو عهد»^(٤٣).

بقيت مجموعة اجتماعية أخرى من الواجب أن نقول عنها شيئاً، وهؤلاء هم الرقيق الأفريقي أو العبيد كما يُسمَّون، والذين هم طبقاً لكل الروايات يجب أن يكونوا من الزوج^(٤٤). وقد جرى بهم على نحو خاص ابتداء من عهد عبد الرحمن الناصر ليكونوا حرسه الخاص الشديد الوفاء لسيده، ونراهم يحضرون وفاة الناصر، وحفل تنصيب الخليفة الجديد الحكم المستنصر، ولكن في مرتبة أدنى من الصقالبة^(٤٥). وقد زاد المتصور من عددهم^(٤٦)، على نحو ما صنع مع الصقالبة والبربر أيضاً، ويبدو أنهم كانوا مروضين للصقالبة، ودون أن يصلوا أبداً إلى تولى المناصب العسكرية أو الإدارية العالية.

وعندما اندلعت «الفتنة» في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي أخذوا جانب البربر، مثل الصقالبة فيما يتصل بالأمويين، ولكن بفهوم سياسي محدود للغاية، وقد حاولوا أن يقوموا ببعض الانقلابات الثورية في القصر، ولكن أمراء البربر استطاعوا أن يعيدهم إلى الصواب سريعاً، وفي حمة بالغة

(٤٠) من الطويل، نفع ٤١٢/٣، وأبحاث ١ ص ١٠٦ - ١٠٧، ولطيفة الثالثة ٢٥٩/١. وانظر أيضاً: نفع ٦٣٠/١ أوروبا. وعن حظ هذين البيتين من الشهرة تحت حكم المرابطين، انظر مقالنا: الشعر في فاس تحت حكم المرابطين في مجلة هيسبيريس، المجلد ١٨، عام ١٩٣٤، العدد ١ ص ٣٦ ورقم ١.

● الأبيات يست لشاعر مجهول، وإنما للسهر.
(٤١) عن هذا الحادث انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٦٨ - ٦٩.
(٤٢) من النسيطة المعتمد، الديوان ص ٣٨، الفلاند ١٩، وعنها في «بئر عباد» ٥٣/١، والبيان المغرب ٢٧٥/٣، والمجلة ٥٦/٢.
وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٦٩، والتيجاني، شاعر ملك ص ١٦٣.
(٤٣) انظر البيان ٢٠/٢، والترجمة ص ٢٢.

(٤٤) ابن عديم في رسالته عن الحسبة، حول الحمية في المدينة وحيثا العاملين في إسبيلية في مطلع القرن الثاني عشر، يستخدم تعبير «السودان البربري» ص ٨، وعبيد البربر ص ٢٧، انظر طبعة ليفي بروفنسال في المجلة الآسيوية، أبريل - يونيو ١٩٣٤.
● ونشر الرسالة نفسها مع رسالتين آخرين بعنوان: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٥٥، (الترجم).

(٤٥) نفع ٢٨٨/١، وترجمة ليفي بروفنسال في إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٥٨، ويمزون بين «العبد النحول» وهم المسلحون من أخص أعدائهم إلى قمة رؤوسهم «وين «رجال العبد»، ويرتدون الحواشن والأقنية البيض، وعلى رؤوسهم البيضات الصقيلة، ويأبدهم التراس الملوثة والأسلحة المزينة، ثم «فرسان العبيد».
(٤٦) نفع ٣٩٨/١.

استخدموا ضدهم السوط والسيف والمشنقة بلا شفقة ولا رحمة^(٤٧).

وفرقتهم التي اشتركت مع جيش يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة يجب أن نكون هامة، ويتحدث المؤرخون عن بطولات احرس الأسود خلال المعركة، واستطاع جندي أسود أن يقترب من الملك ألفونسو السادس وأن يجرحه في فخذه بخنجر^(٤٨)، وفي قصيدة لعبد الجليل بن وهبون، وأتينا من قبل على أبيات منها بمناسبة معركة الزلاقة، يشير أحدها إلى وجود السود في جيش المرابطين، ويتوجه الشاعر إلى ألفونسو السادس قائلاً:

أَقَمْتُ لِهَذَا الْوَعْيِ سَوْقًا فَخَذْتُهَا مَنَاجِرَةً وَهَوْنًا مَاسَمًا
فَإِنْ شَنَّتَ اللَّجَيْنُ فَتَمَّ سَامٌ وَإِنْ شَنَّتَ النَّضَارُ فَتَمَّ حَامٌ^(٤٩)

كان عدد الرقيق الأسود في أفريقيا كثيراً، أما في إسبانيا فيمتثلون أقلية، ومن ثم كان تأثيرهم على الحياة الإسبانية عملياً معدوماً تماماً عينا بيدو، ومع ذلك كانت الجوارى السوداوات يشكلن جانباً من الحریم الأندلسي كزوجات شرعيات^(٥٠)، وكعشبات بخاصة، ولم يكن ذلك نادراً، وجارية من بلنسية ملك أبي المطرف بن غليون وتحمل اسماً مميزاً وهو: إشرق السويداء، اشتهرت بسعة معارفها اللغوية، وبخاصة في النثر الفني^(٥١)، ولكي الأبناء الذين كانوا يجهنون من مثل هذه العلاقة بين رجل أبيض وجارية سوداء كان يُنظر إليهم بحسار في مجتمع الخاصة. وهناك حكاية عن ابن غير شرعي حدثت في أسرة بني ذي النون أمراء طليطلة تلقى ضوءاً على فكر بربر الأندلس فيها يتصل بالأنساب، فقد كان للمأمون أخ غير شرعي يدعى أرقم كان ابن أمة مهينة، واقعها أبوه الظافر في حال سكره، ولم يكن قبيح من ينظم ويترجم بالأندب غيره. وقد تسامح المأمون معه ولكن ابنه يحمي القادر جاء على النقيض من أبيه، فمال على أرقم بالأذية. فعز من الملكة، وارتجى هذه المناسبة أبياتاً جديرة بأن تأتي هنا على ذكرها، لأنها تظهر رد فعل إنسان يشعر بأنه أيضاً مولود صالح مها جاء من علاقة غير شرعية، وأنه أفضل من أي أمير آخر بربريا كان أم مسيحياً، معروفاً نسبة للجمع:

لَنْ طَبَنُكُمْ نَفْسًا بِتَرْكِي دِيَارَكُمْ فَنَفْسِي عَنْكُمْ بِالتَّفَرَّقِ أَطِيبُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِي جَانِبٌ فِي دِيَارِكُمْ فَالْعُذْرُ لِي أَنْ لَا يَكُونَ تَجَنُّبُ
زَعَمْتُ بِأَنِّي لَسْتُ نَرَعُ لأَصْلَكُمْ فَهَلَّا عَلِمْتُمْ أَنَّنِي عَنْهُ أَرْغَبُ
وَجِسِّي إِذَا مَا الْبَيْضُ لَمْ تَرَعُ نَسِيَةً بِأَنِّي إِلَى سَيْفِي وَرُحْمِي أَنْسِبُ
وَإِنْ مَدَّتِ الْآيَامُ فِي عُمَرِي لِلْعَلَا يُشْرِقُ ذِكْرِي فِي الْوَرَى وَيُغْرِبُ^(٥٢)

(٤٧) انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ و ٦٨. والمعجب ص ٦٣ و ٦٦، وترجمته الفرنسية ٥٤ - ٥٥. ويستخدم الراكشي في الإشارة إليهم كلمة «السودان».

(٤٨) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٢٩.

(٤٩) من الوافر، القلائد ١٤، وفي ديو عياده ٥٠/١، وعن اللقيلة بين سام وحام انظر فيها بعد ص ٢٠١ رغم ٨ من هذا الكتاب.

(٥٠) لم يجد أمير أموي حرجاً في أن يتزوج من جارية سوداء، كانت تلميذة الأمام مالك، وتأديت على يديه في المدينة، وقروى عنه، رغم أصلها المتواضع، واختلاف اعتنق واللون. انظر: نفح ١٣٩/٣، وريبر، نبذ ومقالات ٣٤٥/١.

(٥١) ابن الأثير، تكملة الصلة رقم ٢١١٥، ص ٧٤٠، وعنه في نفح ١٧١/٤.

(٥٢) من الطويل، نفح ١٣٣/٤.

ولأسباب مماثلة اضطر أحد بنى هود، أبو محمد بن هود الجذامي، أن يرحل عن سرسطة، متجولا ضائعا من بلاط إلى خر في شمال إسبانيا، ذهب إلى طليطلة ثم يابرة، وانتهى به المطاف أخيرا في بطليوس، حيث أشاد المتوكل أميرها بذكائه وحكمته، وعينه حاكما على لشبونة، وهو أيضا يثق باحترافه لآبائه الذين أكيدا لا يجرى في عروقهم كثيرا من الدم العربي:

ضللتهم جميعا آل هود عن الهدى وضيعتم الرأي المسوفى أجمعا
وشتتم عين الملك في فقطعتم بأيديكم منها - وبالفدر - إصبعها
وما أنا إلا الشمس غير غايب دجت، فأبت لي أن أنير وأسطعا
وإن طلعت تلك البدور أهلة فلم يبق إلا أن أغيب وأطلعا
ولا تقطعوا الأسباب بيني وبينكم فأنفكم منكم وإن كان أجدها^(٥٣)

ويظهر لنا الشعر أيضا مفهوم النساء الأندلسيات عن الحب الذي يمارسه أزواجهن مع السوداوات، ولقد مال ابن زيدون إلى جارية ولادة السوداء، فكثبت تعبت عليه هذا الهوى:

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا لم تهو جاريق ولم تتخير
وتركت غصنا ثمرا بجماله وجنحت للفنن الذي لم يثمر
ولقد علمت بأنني بدر السما لكن ولعت، لشقوقي، بالمشتري^(٥٤)



ولم يكن أمام اليهود تحت الحكم العربي غير أن يقتبطوا بالنظام الذي فرض عليهم بوصفهم من أهل الكتاب، وكانوا يقدرون أكثر من المسيحيين الفوائد التي تعود عليهم من الخضوع للفاطميين الجدد، فبعد السياسة الشديدة التي كان يطبقها عليهم ملوك القوط، خلف هؤلاء نظام شديد التسامح، وجعل من اليهود منذ اليوم الأول للفتح مساعدين مهمين للعرب والبربر^(٥٥)، وبلاشك فإن كثيرين منهم اعتنقوا الإسلام وبخاصة مع بدء الخلافة الأموية^(٥٦)، ولكن المكانة التي تمتع بها الذين لم يعتنقوا الإسلام في بلاط الأمراء الحاكمين، والحماية التي كانوا يسيطون عليها أخوانهم في الدين، لا بد أنها هددت من اعتناقهم الإسلام، ونحن نعرف أن الجماعات اليهودية في إسبانيا بعامه، وفي قرطبة بخاصة، تدين بكانتها إلى حسدائ بن شبروط، وكان طبييا ودبلوماسيا، وجعل منه عبد الرحمن

(٥٣) من الطويل، الحلة ١٦٥/٢. والشطر الثاني من البيت الأخير مثل عربي شائع.

(٥٤) من الكامل، نفع ٢٠٥/٤ وكور، ابن زيدون ص ٢٨ هامش ٢. وفي القرن الثاني عشر، قالت حفصة الركونية عن حبيبها أبي جعفر بن سعيد بأنه هجرها من أجل جارية سوداء.

من النسخة هام في جنائن لا تور فيه ولا زهر
هو بيت من أبيات خمسة من البيضا، ابن الخطيب، الإحاطة ٥٠٠/١.

● وانظر دراسة عنها واقية، ودوائها كاملا، في كتابنا: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط ٣ ص ٧٧، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨ (الترجم).

(٥٥) حول هذا الموضوع انظر: ليفي بروفتال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٣٧ - ٣٨، والمصادر المذكورة هناك، ص ٣٢ رقم ٢ وص ٢٨ رقم ١ وص ١١٢ رقم ١ و ٢. ويمكن أن نضيف إليها: جريز، يهود إسبانيا (٩٤٥ - ١٢٠٥ م)،

Ehrempreis، البلد بين الشرق والغرب، وألفه جورج شايفكن، أمثال اليهود.

(٥٦) ليفي بروفتال، L.C. ٢٨ و ١١١ - ١١٢.

الناصر وزيره، وسفيره، ومبته على بيت المال^(٥٧).

كانت توجد جالية يهودية كبيرة، في كل المدن الكبرى، والمكانة العالية التي تمتع بها الوزير اليهودي أبو الفضل بن حسداي. في سرنسطة لدى أمراء بني هود الثلاثة: المقتدر (١٠٤٦ - ١٠٨١ م) والمؤمن (١٠٨١ - ١٠٨٥ م) والمعتصم (١٠٨٥ - ١١١٠ م)، تعطي فكرة عن ازدهار الجالية اليهودية في عاصمة النغر الأعلى^(٥٨). وفي بطيموس التف اليهود حول المتوكل^(٥٩)، ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن بلنسية^(٦٠).

وكان في بلاط حسام الدولة ابن رزوين أمير السهبة وزير كاتب يمكن أن نعتبره يهوديا من اسمه، ولو أن المؤرخين لا يذكرون شيئا عن أصله، ولعب لدور نفسه الذي لعبه ابن حسداي في بلاط بني هود، وكان يدعى أبو بكر بن تدرأي^(٦١).

ولابد أن الجالية اليهودية في إنيسية كانت هامة جدا، حيث تفجر الصراع بين المسلمين واليهود، ويقتص علينا ابن حيان أنه في عام ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م، بمحدا اليوم، والشهر، وأنه في يوم الاثنين ١٣ من ذي الحجة، حدث هيجان كبير في إنيشيلية لأن يهوديا سب الشريعة فأثار ذلك غضب أحد المسلمين فبطش به في وسط السوق، وجرحه وأثار العامة ضده، فتدخل صاحب المدينة عبد الله بن سلام، وقبض على المسلم واعتقله، «فكان لعامة الناس في إنكار حبسه كلام، وإكثار خشى وباله»، ولم يبدأ الأمر ويستقر النظام إلا بعد أن تدخل سراج اندلية بن المعتضد، وابن زيدون الشاعر^(٦٢).

وبلاشك كانت مملكة غرناطة المقاضمة المفضلة لدى ليهود في القرن الحادي عشر خلال عصر ملوك الطوائف، وظل اثنان من الوزراء اليهود هما: صمويل بن النفرلة، وابنه يوسف من بعده، يوجهان سياسة بني زيري، وهم من أصل حنهاجي^(٦٣). وكانت غرناطة في البدء موقوفة على سكنى اليهود وحدهم، مما جعلها تستحق أن يطلق عليها اسم «غرناطة اليهود»، وكان عددهم كبيرا في القرن الثاني عشر الميلادي، حتى أنهم أنشئوا سينة اليأسنة الكبرى^(٦٤)، ويقول الإدريسي، وطاف بإسبانيا في

(٥٧) عن الأسماء التي حملها الذين ستنفوا الإسلام انظر فيما سبق ص ٢٢٩ من هذا الكتاب.

(٥٨) بعد قليل سوف نعرض مره أخرى لهذا الوزير اليهودي. ص ٢٤١ - ٢٤٢ وتشهد ملحمه رولان والتي ألفت فيما يخص في القرن الحادي عشر أو مطلع القرن الذي يليه على وجود بيع يمساجد في سرقسطة. انظر: براسوناد، من حديث حول ملحمه رولان. طبعة للحمه رولاند تحقيق ليون جوتييه، الفترة ٩٦ - ليت ٣٦٢.

(٥٩) نفح ٤٤٧/٣، والمجلة ١-٦/٢، وأبحاث ط ٢ ص ١٣٦، والتصويبات ١-٣.

(٦٠) نفح ١٩/٤، والمجلة ١-٦/٢، وأبحاث ط ٢ ص ٢٧٧، والتصويبات ١-٤.

(٦١) الحجاري، المسهب، في نفح ٤٠٢/٣.

(٦٢) الأخيرة ٤١٨/١، وكور، لين - دون ١٣١.

(٦٣) ليفي بروفسال، إسبانيا الإسلامية، القرن العاشر ص ٣٦، والزيرون في إسبانيا، دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٤ ص ١٣٠٠، والمصادر المذكورة هناك. B. وفي المغرب، في القرن الخامس عشر الميلادي عين السلطان المريني عبد حق لثاني يهوديا يدعى هارون وزيرا له، فأحدث ذلك اضطرابا، واستطاع أن يعيد الأسرة الإدريسية في فاس لمدة قصيرة، انظر ليفي بروفسال، مستند ابن مرزوق، في مجله هيسبيريس، المجلد ١ عام ١٩٢٥، ص ٦٠، هاش ١، وكور، حكم بني وطاس، قسنطينة ١٩٢٠، ص ٦٠ و ٦٣ و ٦٥ و ٦٦، ويبر دي سينفاله، أسطورة اليهود ابن شتمل ومهرحان سلطان الطالبيين في فاس، مجله هيسبيريس المجلد ٥ عام ١٩٢٥، ص ١٧٣، وفريته، مراكش ص ١٩١.

(٦٤) ليفي بروفسال، نفس المصدر، ص ٣٨ والمماش ٢ - ٣.

القرن الثاني عشر الميلادي، عن هذه المدينة^(٦٥): يسكن اليهود داخل المدينة ولا يدعون المسلمين يدخلونها، وهم أغنى اليهود في البلاد الإسلامية كلها، ومتحفظين للدفاع عن أنفسهم في مواجهة منافسيهم.

وكان اليهود مندمجين في الحياة اليومية مع كل طبقات المجتمع، فانكبوا على التجارة، وما رسوا مختلف المهن الحرفية^(٦٦)، وكانوا أيضا، كما سئرى فيما بعد في فصول أخرى نتجىء من هذا الكتاب، موسيقيين ومطربين، وموضع التقدير من المجتمع المصقول في مراكز المدن الكبرى.

وكانت معرفتهم باللغات واسعة، وأكثرهم يتحدث العربية والعربية العامية والرومانشية في نفس الوقت، مما جعلهم مهمين جدا للقيام بالمهام الدبلوماسية بين أوروبا المسيحية وإسبانيا الإسلامية^(٦٧). ومن جانب آخر كان أمراء الشمال المسيحيين في إسبانيا يستخدمونهم للقيام بالوظائف نفسها^(٦٨).

وقد بلغ بعضهم درجة عالية من التمكن من اللغة العربية المكتوبة، وتلقت في المدونات العربية بأخبار قليلة جدا بعامة عن اليهود واليهوديات الذين تفوقوا في معرفة اللغة العربية. وهكذا وقف المقرئ في كتابه نفح الطيب بعض السطور أو الصفحات، دون ترتيب تاريخي، على الشاعرات اليهوديات^(٦٩)، ولكن القائمة أبعد من أن تكون كاملة. وتوجد في الكتاب نفسه، وسط أخبار أخرى، وفي مؤلفات أخرى لما تزل مخطوطة، مثل الدخيرة لابن بسام الذي يجب أن يكون قد أوقف صفحات من كتابه على الشخصيات الأكثر تميزا بين كتاب اليهود باللغة العربية.

(٦٥) ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، ص ٣٨، الهامش ٣، الإدريسي، أحسن تقاسيم في معرفة الأقاليم، وعنوانه بالفرنسية وصف أفريقيا وإسبانيا، ص ٢٠٥، وابتقرة ٢٥٢.

(٦٦) بروي الذخيرة ٤٩٩/٣ الحادثة التي جرت بين أبي الربيع سليمان بن أحمد القضاعي وبين اليهودي يوسف الإسلامي، لأن الأثر حطب من الثاني آلة تجار خدم عنده، فوجه بها حاشا للشار.

(٦٧) استقبل حسداي بن شيروط سفارات من قسطنطين الثامن إمبراطور بيزنطة عام ٩٤٤ م. ومن موتو Otón I ملك جرمانيا في ٩٥٦ م، ونهب إلى ليون بوصفه سائرا ليقابل ملكها أودونيو الثالث في ٩٥٥، وأرسله الناصر سفيرا وطيبا إلى طرطة ملكة نيرة. انظر: ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، ص ١١٢.

(٦٨) في معركة وادي آره عام ٤٠٠ هـ - ١٠١٠ م قتل يهودي، وكان وزير الملك المسيحي، البيلان المغرب ٩٨/٣، وابن شاليب اليهودي وزير ألفونسو السادس معروف جدا في المدونات العربية، وكان مكلفا بقبض الجزية التي فرضها الملك المسيحي على الشعب أمير إشبيلية. عمال الأعلام ١٥٦، ونفح ٤٣٩/١ و ٤٤٦/٤ و ٣٥٨/٤، وتقول الرواية في هذا المصدر الأخير أن المصعد غضب ولم يحصل فأخذ بحجرة كانت بين يده وضرب بها رأس يهودي فأنزل دماغه في حلقه. ونحن نعرف ما حدث في هذه السفارة. وهي أن أمير إشبيلية اغتاد من لجة ابن شاليب المتجرفة، والذي لم يكن في نهاية الأمر غير ناقل لأوامر ألفونسو السادس، والذي كان مزهوا باستيلائه على طليطلة، فأمر المتمد بقتل اليهودي، وقد أدى هذا السلوك المتسرع إلى تدافع الأحداث، وعجل بتدخل المرابطين.

وكان خلف ألفونسو السادس، وتسميه المدونات العربية ألفونسو ملك نصارى طليطلة، وزيان يهوديان، يسمى أولهم إبراهيم بن الفسار اليهودي، وكان شاعرا مجيدا في العربية ومدح، أمره بأبيات لم يقتل من شأنها كيار شعراء المرابطين، كما أن سيده أرسله سفيرا إلى المرابطين، أو إلى ملوك المغرب بحسب تعبير المقرئ، نفح ٥٢٧/٣. وابن ليون، لمح السحر، مخطوطة الرباط الورود ٦٤ وجه، والثاني يدعي حنين اليهودي، وهو الذي دفع ألفونسو عام ٥٢٨ هـ = ١١٣٤ إلى اقتلاع البليتين اللتين في طليطلة لمعرفه سرهما. نفح ٢٠٦/١.

(٦٩) نفح ٥٣٠/٣.

وكان أبو الفضل بن حسداى في سرقسطة نديم المقتدر وصديقا له، وأوقف عليه عددا من قصائد المديح أوردتها لنا الفتح بن خاقان في كتابه قلائد العيون^(٧٠)، وظل كاتباً ووزيراً للمؤمن الذى خلف المقتدر، وعندما زوّج المؤمن ابنه لمستعين من ابنة وزير بنسبة أبي بكر بن العزيز كان أبو الفضل هو الذى تولى تحرير الدعوة التى رُجِّهت إلى أكبر شخصيات إسبانيا^(٧١). ولكن بالرغم من مكانته الفكرية لم يستطع إبداء أن يحتل الوظائف التى يشغلها أمثاله من المسلمين، لأن صفته ذمياً كانت تقعه من ذلك^(٧٢). وكان هذا بلاشك هو الذى دفعه إلى اعتناق الإسلام، وليس عشقه جارية مسلمة كما تشير إليه بعض المدونات العربية^(٧٣). ومع ذلك، ظل أصدقاؤه من العرب، رغم اعتناقه الإسلام، يحبون أن يداعبوه بهذه القصة، فيروى أنه «كان في مجلس المقتدر بن هود ينظر في مجلده، فدخل الوزير الكاتب أبو الفضل بن الدباغ، وأراد أن يمر به، فقال له: وكان ذلك بعد إسلامه: يا أبا الفضل، ما الذى تنظر فيه من الكتب، لعله التورية؟ فقال: نعم، وتجلبدها من جلد - بعد من تعلم، فمات خجلاً وضحك المقتدر»^(٧٤).

أما الآن وقد أصبح مسلماً فإن طروحه بلغ به أعلى المناصب، مما أثار عليه كراهية زملائه القدامى الذين تخلى عنهم، فبعث إليه ابن الدباغ نفسه رسالة قاسية ينصحه فيها بأن يظلمن من غلوائه^(٧٥). ومن المؤكد أن ابن حسداى وعي نصيحة صديقه، لأن علاقته، رغم المداعبات البرينة التى كانت تتخللها، استمرت كما كانت عليه في الماضى، في جو من الصراحة والمحبة إلى جانب الأمراء الذين كانوا يحتفظون بالمحبة لكلا الطرفين.

وإلى جانب اليهود الذين اشتهروا في مجال الأدب والشعر يجب أن ننسح مكاناً لأوثك الذين لم يقولوا الشعر في العربية أبداً، ولكنهم دفعوا الذين حولهم إلى قوله، سواء كان مدحاً أم نقداً، وهكذا فإن يهودياً لطيفاً ألهم ابن الزقاق من جزيرة شقر أن يقول هذه الأبيات:

وحبب يوم السمت عندي أتقى ينادمي فيه الذى أنا أحييت

● كان ذلك من تأليف الكتاب، أما الآن فقد طبعت النسخة كاملة (المترجم).

(٧٠) القلائد ص ١٨٤ و ١٨٦، وانظر فيما سبق ص ١٨٩ - ١٩٠ من هذا الكتاب.

(٧١) ابن خاقان، المصدر السابق ص ٦٧ و ١٨٤ - ١٨٥ وعنه نقلها نفع ٦٤١/١.

(٧٢) القلائد ١٨٤، وقد خصص لطرطوسى كل الفصل الثانى من كتابه سراج الملوك ليظهر أن المسؤولية يجب ألا يعهد بها

لغير المسلمين، وأوضح المؤرخ ابن سعيد أن وظيفة كاتب الزمام، وهو الشخص بتسجيل الضرائب لا يمكن أن يولاها في إسبانيا

وأفريقيا الشمالية نصراني ولا يهودى البتة. الفتح ٢١٧/١، وانظر فيما سبق ص ٨٢ الملمح ١٠٥ من هذا الكتاب.

(٧٣) النسخة ٤٥٨/٣، وتوجد في نفع ٤٠١/٣.

(٧٤) نفع ٤٠١/٣.

(٧٥) يقول ابن الدباغ في رسالته: «كنت عهدك لا تنس من سادعت من يداعبك ولا تنقبض عن مراجعة من يخاطبك، فمن أين حدث هذا التعالى، وما سبب هذا الغفالي سرفى جعلت فساده ما الذى عراك، ولعلك وأبى الحضرة قد خلت من قاض قطعت في القضاء، وجعلت تأخذ نفسك بلحيت، وترشح لرتبت، وأنت لأن لانتك تنفقه في الأحكام، وتطلع شريعة الإسلام، وهيك تحللت بهذا السم، وتبأت لذلك الدست، ما تصنع في قصة السمت، دع التخلق ورحع إلى أخلاقك، وعد في إطرارك، وتجاهل ما فيهك جاهل، وتهاقم مع الحماة وأنت عاقل، فلا تمتنع لذة الاسترسال، ولا تتبع الدنيا بجد منك في سائر الأحوال، فما أنت بدبارها بالإقبال ويكره بالإقبال»، القلائد ١٠٨. وعن الأسطورة التى يتحول فيها يهود قرودا انظر فيما سبق ص ٢٢٠ من هذا الكتاب.

ومن أعجب الأشياء أني مسلمٌ حنيفٌ، ولكنَّ خير أيامي السبت^(٧٦)

وقد أثار وزيراً بنى زوى أمراء غرناطة اليهوديان بخاصة أكبر ردة فعل قوى في الأساطير الأدبية في جنوب شبه الجزيرة للأهمية التي بلغها في إدارة شئون الدولة، ويدهشنا كثيراً أن نرى يهودياً مثل صمويل بن النفرلة يتمتع بمنزلة عالية في بلاط أمير مسلم مثل حيوس بن ماكسن، ولم يصل حسداى ابن شبروط، رغم المكانة التي تمتع بها إلى جوار عبد الرحمن الناصر إلى مثل هذه الدرجة من النفوذ والقوة أبداً، معترف بها رسمياً ويقر بها الجميع، والمثل الذي نجده في أبي الفضل بن حسداى، وعرضنا له من قريب، يظهر أن غيرة اليهود وتحركها طموحاتهم كانت موضع استنكار المسلمين. ويجب أن نوضح هنا أن أمراء غرناطة الصنهاجيين كانوا، دون شك، لا يتقون كثيراً في العرب لكي يسمحوا لهم بالعمل في وظائفهم^(٧٧).

وفيما يبدو من الضروري أن نبحث في جانب آخر عن هذه الثقة التي تمتع بها أعضاء أسرة النفرلة لدى بنى زوى، ولعلها توجد في الخدمات التي كانوا يقدمونها بوصفهم ماهرين في تدبير المال إلى الأسرة المالكة، وكانت تتخطى، شأن آخرين كثيرين في العصر نفسه، في مشكلات مالية صعبة، وهو ما يبرر، في جانب، سياستهم اليهودية^(٧٨) ولكن لا تفسرها تماماً، وربما ألح الشعراء إلى السبب الحقيقي، فابن عمار يمدح المعتضد عدو البربر اللدود في أبيات ذات طابع متميز:

شقيت بسيفك أمة لم تعتقد . إلا اليهود وإن تسمت بربراً^(٧٩)
ويقول في قصيدة أخرى في مدح المعتضد أيضاً:

لك الله إن كانت عدائك بعضها لبعض فكل منهم جميعاً إلى فسرد
يهوداً وكانت بربراً فانتصر الظبي وأنبئهم منها بالسنة لدا^(٨٠)

وربما كانت هناك صلات أسرية، وأن بعض النساء اليهوديات: أخوات صمويل، أو بنات عمه، أو بناته، كنَّ يكنَّ جانياً من حريم زاوى وباديس، لا عشيقات وإنما زوجات شرعيات. وهو ما يفسر لنا خير من أي سبب آخر القوة التي وصل إليها صمويل بن النفرلة، فغن طريق هذه الصلة الأسرية سيطر على عائلة الأمير الحاكم، وبالتالي يمكن اعتباره سيداً من بربر المملكة. وقد استطاع بسياسته الحكيمة أن يكسب الشعراء العرب إلى جانيه، وأن يصبح نصير الأدب، وأن يسخو على أهله، ولم يتردد هؤلاء في أن يرتفعوا به إلى مرتبة عاهل غرناطة الحقيقي. ونعرف أن أبا أحمد عبد العزيز بن خيرة القرطبي المعروف باسم المتقتل، واعتنق اليهودية سرّاً.

(٧٦) من الطويل، نفع ١٩/٤ و ٣٠٠، والمجلة ١٠٦/٢، أبحت ط ١ ص ١٧٧، وتصويبات ١٠٤، وترجمة غرنية غوث، ابن الزقاق ص ٨٩

(٧٧) هذه الأسباب أوردها دوزى في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٩ - ٢٠.

(٧٨) انظر مذكرات الأمير عبد الله، النص العربي ص ٣٨، الترجمة ص ٥٢، وفي مجلة الأندلس المجلد ٣، ١٩٣٥، العدد ٢، ص ٢٦٥ - ٢٨٤.

(٧٩) من الكامل، القلائد ٩٧، المعجب ص ١١٦، ترجمة فنيان ٩٨، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٦٣ هامش ١.

(٨٠) من الطويل، انظر: القلائد ٨٨ و س. موناك في A (السلسلة ٤، المجلد ١٦، ١٨٥٠، ص ٢١٤).

يُجَدُّ قَضَائِلَهُمْ وَسَخَاءَهُمْ فِي رِسَالَةِ مَسْجُوعَةِ أَوَّلًا^(٨١)، ثُمَّ فِي شِعْرِهِ آخِرًا، وَإِلَيْكَ أَكْثَرُ قَصَائِدِهِ تَمْثِيلًا لِهَذَا الْإِتْجَاهِ:

وَمَنْ يَكُ مُوسَى مِنْهُمْ ثُمَّ صُنُوهُ
فَكَمْ لَمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ آيَةٍ نَرِي
أَجَامِعَ شَمْلَ الْمَجِيدِ وَهُوَ مُشْتَت
فَضَلْتُ كِرَامَ النَّاسِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
وَلَوْ فَرَّقُوا بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالْهُدَى
وَلَا سَتَلِمُوا كَفِّكَ كَالرَّكْنِ زُلْفَةً
وَقَدْ فَزَتْ بِالْدُنْيَا وَنَلَتْ بِكَ الْمَنَى
أَدِينُ بَدِينٍ لَسَبْتُ جَهْرًا لَدَيْكُمْ
وَقَدْ كَانَ مُوسَى خَائِفَ مَتَرَقِبًا

فَقُلْ فِيهِمْ مَا شِئْتَ لَنْ تَبْلُغَ الْعُشْرَا
وَكَمْ لَمْ فِي النَّاسِ مِنْ نِعْمَةٍ تَتَرَى
مُطْلَقَ شَخْصِ الْجُودِ وَهُوَ مِنَ الْأَسْرَى
كَمَا فَضَّلَ الْعَقِيَانِ بِالْخَطَرِ لِقَظْرَا
لِمَا قَبِلُوا إِلَّا أَنَا مَلِكُ لِعَشْرَا
فِيمَنَّاكَ لِلْمَنَى وَنُسْرَاكَ لِلْيَسْرَى
وَأَطْمَعُ أَنْ أَلْقَى بِكَ الْقُوْزَ فِي الْآخَرَى
وَلَنْ كُنْتُ فِي قَوْمِي أَدِينُ بِهِ سَرَا
فَقِيرًا وَأَمَنْتُ بِالْمَخَافَةِ وَالْفَقْرَا^(٨٢)

وعندما أورد ابن بسام هذه الآيات قدَّم لها بالكلمات التالية: «وله في هذه القصيدة من الغلو في القول ما نبهنا منه إلى نفي القوة والحوّل». ورأى ناسخ مخطوطة باريس أنه من الضروري أن يكتب في الهامش أمام انبئ السامع: «أعوذ بالله من غمزات الشياطين».

وبعد وفاة حيوس تولى ابنه ياديس الإمارة خلفه له، واستمرت ثقته في صمويل، وعندما توفي هذا خلفه ابنه يوسف، وتولى المنصب بوصفه رئيسًا للوزراء.

وعلى حين كان صمويل هادئًا ومتواضعًا وطيبًا جاء ابنه يوسف على النفیض منه: متكبرًا ومتعجرفًا، وقد دفعته الثروة الطائلة التي جمعها والده، وزادها نفسه، إلى أن يضمر طموحًا أكبر، يتجاوز الرغبة في السيطرة على الأمير: أن يصبح أميرًا بدوره! ويستمع المؤرخون العرب، وربنا مدفوعين بتعصبهم الديني، إلى أنه فكّر في إزاحة ياديس عن الإمارة، ومبايعة المعتصم أمير المرية أو أحد أبنائه ملكًا على غرناطة، وتعيينه ملكًا على المرية التي سوف تصبح عاصمة دولة يهودية.

من الصعوبة بمكان أن نتصور تحقيق مثل هذه الحطة إذا كانت قد دارت بخاطر يوسف يومًا، إذ كيف يصبح ملكًا على المرية في حين أن الجالية اليهودية تتركز في غرناطة وماحولها؟ ذلك شيء لا يمكن تصديقه. ومع ذلك فإن سلسلة الأحداث التي توالى تجعلنا نعتقد أن الإتهامات التي وجهت إلى يوسف بأنه حاول أولاً أن يعيد ياديس عن أية طموح في الحكم الفعلي، ولهذا فعل كل ما في طاقته لكي يدفعه إلى حياة الفسق والفجور، لم تكن كلها كاذبة. وكان أنصاره يشغلون كل المناصب في القصر، وهي دون شك اللحظة التي هرب فيها كل الشعراء والأدباء العرب من غرناطة، لا خوفًا من ياديس وإنما لأن

(٨١) الذخيرة ٧٦٦/١.

● ليس في حياة المنفلت ما يشي بأنه اعتنق اليهودية، وكل ما هنالك أنه أشار في بيت شعر، كمادة الشعراء نقبون ما لا يفعلون، أنه يدين بدين لسبت جهرا لدى اليهود. وسراً بين المسلمين، وجاء هذا في قصيدة يمدح بها صمويل بن النفرلة، وأورد المؤلف تسعة آيات منها، ولم يتكرر له هذا المعنى في أية قصيدة أخرى (المترجم).

(٨٢) الذخيرة ٧٦٥/١، ولم نترجم منها غير تسعة الآيات الأخيرة. وانظر أيضاً تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٠ حيث توجد ترجمة ستة الأسات التي قبل الأخيرة.

يوسف ، وقد خشي أن يفضحوه ، أصدر حكمه بنفيهم ، ووقع ياديس الأحكام وعيناه مغمضتان !.

وكان حاجب الأمير يهودى إعتنق الإسلام ، هو ابن القروى الأسلمى ، واتخذ هذا كاتبا له من الأندلسيين يدعى أبا الحسن ، أو أبا الحسين ، بن الجدة ، ومن المهم أن نلاحظ أفكار هذا الأخير وسمح لنفسه بأن يتوجه بها إلى سيده ، وفيها يلومه على طول غيابه بسبب إهماله في الملذات :

أَسْأَلُكَ عَنَّا نَكَ إِنْ رَكِبْتَ قَلِيلًا وَاسْمِعْ وَإِنْ كَانَ الْحَدِيثُ طَوِيلًا
إِعْزَلْ وَوَلِّ فَفِي حَدِيثِكَ آيَةٌ (٨٣)
هَلَّا عَذَرْتَ عَلَى الْبَطَالَةِ أَهْلَهَا وَرَأَيْتَ رَأْيًا فِي الْمُدَامِ أَصِيلًا
هِيَ مَا عَلِمْتَ فَبِأَنْ عَرَفْتَكَ جِهَالَةً فَاسْتَفْسَرْنَ عَنْ سَرِّهَا الْإِنْجِيلَا (٨٤)

وأورد ابن بسام آياتا أخرى تصور اليهود بعامة وصمويل بخاصة ، وكان هذا ، طبقا لابن بسام ، أعور :

تَحْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى الْفُرُوجِ وَتَاهَتْ بِالْغِيَالِ وَبِالسُّرُوجِ
وَقَامَتْ دَوْلَةُ الْأَنْدَالِ فِينَا وَصَارَ الْحُكْمُ فِينَا لِلْعُلُوجِ (٨٥)
فَقُلْ لِلْأَعْوَرِ الدَّجَالُ هَذَا زَمَانُكَ إِنْ عَزَمْتَ عَلَى الْخُرُوجِ (٨٦)

ولكن يوسف كان واثقا من نفسه ، وطبقا للمؤرخين العرب سمّ الشاب بلقين الذى اعترف به ياديس وليا بعده ، ولكنه بفضل توطئه مع الآخرين استطاع أن يبرئ نفسه أمام عينى سيده .

وبعض الشعراء كانوا يتملقونه مثل ابن القراء ، واسمه الحقيقي الأخفش بن ميمون :

صَاحِبُ مُجِيَاءِ تَلَقَّى النِّجَاحَ فِي الْأَمَلِ وَانْظُرْ بِنَادِيهِ حُسْنَ الشَّمْسِ فِي الْحَمَلِ (٨٧)
مَا إِنْ يَلَاغِي خَلِيلُ فِيهِ مِنْ خَلَلٍ وَكَلِمَا حَالٍ صَرَفَ الدَّمْعَ لَمْ يَحْمَلِ (٨٨)

هذا التملق الوضع لم يكن يبعث الثقة في نفوس عرب المملكة ، ولا في بربرها أيضا ، وتلقى ياديس بعض التحذيرات مما يحدث ، على الرغم من رقابة رئيس الوزراء . ويبدو أن أبا إسحاق الإلبيري التنجيبى ، وهو عربى الأصل ، وأبعدوه عن البلاط لأنه أدرك طموحات يوسف ، وينزل كل جهده لكى يحدث رد فعل ضد تأثير اليهودى على أسرة بنى زيرى .

(٨٣) يتلاعب الشاعر هنا تورية بكلمتى «حديث» و «آية» .

(٨٤) من الكامل ، الذخيرة ٥٦٢/٢ ، وفيها إشارة واضحة إلى سر استحالة الحمر والخيز إلى دم المسيح ولحمه . انظر فيما يأتى ص ٤٠٦ من هذا الكتاب والهامش رقم ١٦٦ .

(٨٥) يقول ابن شهيد في رسالة له إلى الوزير ابن عباس : « فبحثت عن طراً عليك من الأندال (- اليهود) وحل بساحتك من الأعلاج (= التنجيبى) » ، الذخيرة ٢١٤/١ .

(٨٦) من اواخر الذخيرة ٥٦٢/٢ .

(٨٧) عندما تدخل الشمس في برج الحمل أى في اعتدال الربيع ، يبلّغ لمعانها غايتها . انظر : موتيلينسكى ، مساح العرب القمرية ، رقم ٦ و ٨ ، ص ٧٢ و ٨٢ ، والظفرائى ، لامية المعجم ، البيت ٣٦ ، طبعة دى رو ، ص ٢٣ من النص العربى ، وص ٥ من الترجمة .

(٨٨) من البسيط . نفع ٢٨٧/٣ ، وس . موتك فى المجلة الأسبوعية . السلسلة الرابعة ، مجلد ١٦ ، ١٨٥٠ ، ص ٢٢٢ .

ولم يتأخر رد الفعل هذا في أن يؤرق تعاره، ومع الزمن كان يوسف يبدو كل يوم شيئا أكثر لا يحتمل لترفه وغطرسته، وحتى إلحاده. وثمة حدث لم يقع منذ زمن طويل احتل مكانه الآن: تَهَرَّبَ الشعر عزائم الخائفين، وأيقظ مخود الغافلين، وأثار حركة شعبية تحت خلال ساعات قلائل سلحة كانت بالغة الخوار. ولأن أبا إسحاق لم يستطع أن يصل إلى باديس اتجه إلى صهاجة. هل يستطيع هؤلاء البربر أن يفهموا الشعر العربي؟ ربما كان محتملا أنهم لا يستطيعون التقاط معاني كل الكلمات تفصيلا، لكنهم على الأقل يفهمون الفكرة العامة التي يريد الشاعر أن يعبر عنها. ومن الحق أن نقرر أنه عبر في براعة مذهشة عما أراد أن يقوله، بأبيات قصيرة، ذات إيقاع سهل، ومن خلال كلمات يفهمها أي مسلم حفظ القرآن أو درسه، وحتى الأفكار التي عبر عنها من تلك التي يمكن أن يتقبلها الشعب بسهولة:

فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ وَاتَّخَوْا	وَتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الْإِذْلَيْنِ
وَنَالُوا مِنْهُمْ وَجَازَوْا الْمَدَى	فَحَانَ الْهَلَاكُ وَمَا يَشْعُرُونَ
.....
وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي وَحْيِهِ	يُحَذِّرُ مِنْ صَحْبَةِ الْفَلَسْقَيْنِ

واليك بعض الأفكار البسيطة جد التي استمدتها الشاعر الهجاء من الدين في المقام لأول، ونلاحظ أنها تقنع سامعيه على نحو أفضل، مستخدما وقائع محدّدة تمس الحياة المادية، الأكثر التصاقا بفكر الشعب البربري، في كفافه اليومي من أجل لقمة العيش:

وَقَدْ قَسَمُوهَا وَأَعْمَاهَا	فَمِنْهُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ لَعِينٌ
وَهُمْ يَقْبِضُونَ جَبَايَاتِهَا	وَهُمْ يَخْضَمُونَ وَهُمْ يَقْضَمُونَ
وَهُمْ يَلْبِسُونَ رَفِيعَ لَكْسَا	وَأَنْتُمْ لِأَوْضَعِهَا لَا يَبْسُونَ
وَهُمْ أَمْنَاكُمْ عَلَى سُرُكُمُ	وَكَيْفَ يَكُونُ خَوْزُونَ أَمِينُ
وَيَأْكُلُ غَيْرَهُمْ دَرَاهِمًا	فَيَقْصِي وَيُدْنُونَ إِذْ يَأْكُلُونَ

وَرَحِمَ قَرْدَهُمْ دَارَهُ	وَأَجْرَى إِلَيْهَا غَيْرَ أَحِبِّونَ
فَصَارَتْ حَوَائِجُنَا عِنْدَهُ	وَنَحْنُ عَلَى بَابِهِ وَلَقْفُونَ
وَيَضْحَكُ مِنَّا وَمِنْ دِينِنَا	فَأِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاجِعُونَ
وَلَوْ قُلْتُ فِي مَالِهِ إِنَّهُ	كَعَالِكَ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ
فَبَادِرْ إِلَى ذُبْحِهِ قُرْبَةً	وَضَحْ بِهِ فَهُوَ كَبِشٍ سَمِينُ
وَلَا تَرْفَعْ الضُّغْطَ عَنْ رَهْطِهِ	فَقَدْ كُنْزُوا كُلَّ عِلْقٍ ثَمِينُ

وينتهي الشاعر من هذه الأبيات بتبرير قتل يوسف وتهب أمواله:

وَلَا تَحْسَبَنَّ قَتْلَهُمْ عَدْرَةً	بَلِ الْعَدْرُ فِي تَرْكِهِمْ يَعْشُونَ
---------------------------------------	---

وثمة فكرة عليا توجه بها إلى باديس بخاصة:

فَلَا تَرْضَى فِينَا بِأَفْعَالِهِمْ	فَأَنْتَ رَهِينٌ بِمَا يَفْعَلُونَ
--------------------------------------	------------------------------------

وراقب إلهاك في حزبه فحزب الإلاه هم الغالبون^(٨٩) لا يبدو أن ياديس تأثر بهذا التحذير^(٩٠)، ولكن ردّ الفعل عند بربر صنهاجة كان عنيفاً، وبعد أيام من هدوء ظاهري، كانت أبيات الشعر خلالها تنتقل من بيت إلى بيت، ومن قم إلى قم، وموضع التعليق من وجوه مختلفة، ولكن دائماً بطريقة ليست في صالح يوسف ولا اليهود، وأصبح يقال عنهم الآن علانية أنهم كانوا ينتوون إقامة مملكة يهودية، وانطلقت حركة ذبح اليهود من عقابها.

تجمع البربر ثائرين أمام أبواب قصر يوسف واقتحموه مسرعين ويحثوا عن يوسف، وكان قد تخفى في قبو مشترك في ثياب قذرة، ثم وجدوه وقتلوه. وكان هذا بمثابة دعوة إلى السلب والقتل في المدينة، ويقال أن ثلاثة آلاف يهودي قتلوا في هذا اليوم، وانفجر تعصب العامة هذا في يوم ٩ صفر ٤٥٩ هـ = ٣٠ ديسمبر ١٠٦٦ م^(٩١). ولكنها انتهت بانتهاهه ولم تمتد إلى اليوم التالي، لأن البربر كانوا باختصار يكرهون يوسف وحده، أما اليهود فواصلوا حياتهم كما كانوا يعيشون قبلاً في مقاطعة غرناطة، دون أن يبحثوا فيها تلاً ذلك عن مناصب ذات مكانة عالية.



كان المستعربون مع اليهود يكونون جانباً من الشعب في إسبانيا الإسلامية، ويطلق عليهم المسلمون اسم «أهل الكتاب» أو «أهل الذمة».

ولم يقطع المولّدون، ومحدثنا عنهم فيما سبق، كل صلاتهم مع رفاقهم القدامى في الدين، والذين ظلوا على مسيحيّتهم، ونفى بهم المستعربين، وعلى النقيض كل الدلائل، فيما يبدو، تشير إلى الجانبين واصلوا التعامل والعيش كما كانوا يفعلون في الماضي، في صلات يومية مستمرة، وبخاصة في المدن الكبرى. وهذه الحياة المشتركة تسمح لنا أن نفهم على نحو أفضل تسامح المسلمين الإسبان إزاء الجماعات المسيحية الإسبانية. وفي الحق لا يوجد في أي مكان آخر شعب منهزم عومل بمثل هذه الإكرام في تنفيذ الاتفاقيات الخاصة بالتسليم، وفي تطبيق الشريعة الإسلامية المتصلة بالذميين. وكان هناك إسبانيون في كل مكان: حول الأمير، حيث الإسبانيات زوجات شرعيات أو عشيقات، وكرقيق أو موال، وفي الجيش -جنوداً مرتزقة، وفي بعض الحالات كانوا قواد^(٩٢).

(٨٩) من مختار، الديوان، القطعة ٢٥، ص ١٥١ - ١٥٢، وأبحاث ط ٣، النص في ج ١ ملحق ص ٦٣ - ٦٨، والترجمة ص ٢٨٦ - ٢٨٩، وأعمال الأعلام ص ٢٣١، نفع ٢٢٢/٤، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٧١ - ٧٢ والمصادر المذكورة هناك.

● رانظر أيضاً كتابنا: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط ٣ ص ٥٠ - ٧٣، دار المعارف القاهرة ١٩٨٧. وغرسة غومت، مع شعراء الأندلس والنشئ، ترجمة الطاهر أحمد مكي، ط ٥ ص دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨. (مترجم)، (٩٠) من اللات للنظر أن الأمير عبد الله لم يشّر ولا مرة واحدة إلى قصيدة أبي إسحاق في كتابه البيان (= مذكرات الأمير عبد الله).

(٩١) انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٧٣ - ٧٥، والمصادر المذكورة هناك، ودائرة المعارف الإسلامية، المجلد ٤ ص ١٣٠٠ - ١٣٠١، مادة بنو ذري في إسبانيا، وكتب المادة ليفي بروفسال.

(٩٢) يمكن البرهنة أيضاً على أنه في عصر ملوك الطوائف، كما في عصر الفتنة، كان هناك قواد مسيحيون في جيوش لأمرأ المسلمين الإسبان. ويحدث المؤرخون العرب عن شخص يدعى راندو Rando عهد إليه الظفر من بني الألفس بقيادة قلعة قلورية، ولكن خيانتة سمحت لفرناندر الأول أن يحتل هذه القلعة الحصينة. انظر: البيان ٢٢٨/٣، وأعمال الأعلام ١٧٨، ويقي سؤال، هل

وكان يقوم على تطبيق القانون بين المدعين قضاة هم أقارب لهم أحيانا، قرابة دائية أو بعيدة، ومن ثمَّ يمكن أن نستنتج أنه في ظل نظم يتمتع بحرية واسعة استطاع المسيحيون حتى في المراكز الحضارية الكبرى أن يقاوموا التلاشى معها كان ارتباطهم بتقاليدهم الدينية والاجتماعية وهيا ولدنيا وثائق لا تينية وعربية تؤكد وجود هذه الجاليات، وحريةتها في ممارسة شعائرها الدينية^(٩٤).

ونلاحظ أن أبا الوليد بن جهور عيَّن خلال حكمه ابن زيلدون في قرطبة «لنظر على أهل الذمة في بعض الأمور المعترضة»، ولم يوضح لنا المؤرخون طبيعة هذه المهمة^(٩٥).

ونعرف الامتياز الشهير الذي منحه على بن مجاهد أمير دانية لجميع كنائس ممرته، وتشتمل أسقفيات الجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة) ودانة وأوريولة، بأن يجتمعوا عند أسقف يرشونة عام ١٠٥٨ م، وأن كل رجال الدين في ممرته يجب أن يخضعوا في المستقبل لأوامر أسقف يرشونة، وأن يتلقوا منه وحده «الزيت المقدس» والأوامر الدينية، وأيضا قرارات تعيينهم في وظائفهم الرهبانية^(٩٦). ومثل هذا القرار لا يجب أن يدهشنا، لأن على بن مجاهد ربته أمه على المسيحية خلال مدة أسرها الطويلة، ولم تعتن الإسلام إلا بعد أن نضجت وعادت إلى والده مجاهد، ولكنها ظلت طوال حياتها مسيحية أكثر منها مسلمة^(٩٧).

وقد أخذ المستعربون خلال «الفتنة» جانب الحزب الأندلسي، ضد البربر صراحة، وجعلوا غايتهم واحدة مع مواطنيهم المسلمين، وهم إسبان مثلهم، رغم الخطر الذي كان يتهدهم لأنهم لم يظلوا على الحياد، وسعدوا أيضا برؤية اغتصابيين والقتلات يتدخلون في الصراع لصالح الحشقة، ولو أنهم تلقوا في شيء من الخوف شركاءهم في الدين هؤلاء، فقد كانوا ذوي فضائل حرية، ولكهم فوضيون إلى حد ما. ومع ذلك، فعندما انسحبت القوات المسيحية بعد معركة قنتيش ووادى آره، لم يكن المسلمون وحدهم في قرطبة، فيما نعتقد، هم الذين أسفوا على عزلتهم المؤقتة^(٩٨).

ورائد المشار إليه هو سيساندو والذي يعد من ترك خدمة المعتضد صبح حاكما لقلعته مع قرطبة الأولى، انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ص ٢ ص ٩ هاشم ٢، وسيمونيت، تاريخ المستعربين ٦٥٥ - ٦٥٧، ومينديث بيدال، إسبانيا في عصر السيد، ص ١٠٠ و١٦١ و٧٢٣. وحالة السيد القتيبيطور، وكان يقاقل إلى جانب الأمراء المسلمين حينما رآل جانب الأمراء المسيحيين حينما آخر، حية في ذكرتنا ليكون من الضروري الحديث عنها هنا، انظر بخاصة: مينديث بيدال، إسبانيا في عصر السيد. ● قلت: لي مقدمة لترجمة ملحمة السيد درست حياته ونشاطاته المختلفة دراسه وافيه، وفي ظني أنها الترجمة الأولى والوحيدة حتى الآن، كما أن الدراسة أوفى بحث كتب عنها في العربية، انظر: ملحمة السيد، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣ (المترجم).

وكان في جيش المعتضد الذي هاجم قرطبة ٤٦١ هـ = ١٠٦٨ م، فرقة من الجند المسيحيين يقودها عدد من أفراد الكبار، وربما كانوا من الموالي، وأحدهم اسمه أخذ شكلا عربيا كاملا: خلف بن نجح، والثاني حفظ باسمه الإسباني محمد بن مرتين، وكلاهما اشترك في لمعارك كجنود محترفين، انظر: أعمال الأعلام ص ١٤٩ و١٥٠ و١٥٨.

(٩٢) سوف نكتفي بالرجوع إلى الفصل التالية: سيمونيت، تاريخ المستعربين، ومينديث بيدال، أصول إسبانيا، وجونثان بالثيا، مستعربو طليطلة، ولغني بروفنسل، إسبانيا في القرن العاشر وغيت مورنو، كنائس المستعربين، وسانثيت البرس، صور الحياة في ليون منذ ألف عام.

(٩٤) ابن الأبار، إعتاب الكتاب ص ٢١٢ - ٢١٣، وسيمونيت، تاريخ المستعربين ص ٦٤٩ والهاش ٢.

(٩٥) سيمونيت، المصدر السابق ٦٥١ - ٦٥٢.

(٩٦) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢١٩، والذكرى المثوية ليشيل أمارى ١٣٢/٢.

(٩٧) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ص ٢٦٩.

ومنذ هذه اللحظة بدأت العلاقات السياسية بين مسيحيي الشمال والمستعربين والإسبان المسلمين تأخذ شكلاً متواصلاً. وقد سلم عبد الرحمن شنجول، ابن المنصور وخليفته الثاني، قيادة جيشه إلى مسيحي، وبنت إليه بصلة القرابة من ناحية أمه، ومنذ تلقى النصح بأن يسير نحو قرطبة ضد ابن عبد الجبار^(٩٨)، أى المهدي.

فيم يختلف شنجول المسلم عن خاله المسيحي؟ في أشياء قليلة جداً. وهؤلاء الأمراء الذين يرتبطون بالمسيحيين عائلياً، ولكنهم يختلفون ديناً، لم يكونوا يتعاونون إلا في تطبيق سياسة الأخوة الأعداء: الأقوى ينهب الأضعف، ويجعل هذا يدفع ثمن الخدمات التي أدت إليه. وتعرف الاتفاقات التي تمت في تلك الأيام بين هشام المؤيد ويقوده واضح الصقلي من جانب، وبين شنجول ويساعده ابنه من جانب آخر، ومعها المسيحيون، وقد استولى هؤلاء على أكثر من مئتي قلعة على الحدود^(٩٩). ويقول دوزي: ومن هذه اللحظة تغير كل شيء، ومتى؟ في شهور قليلة، ولم يعد المسلمون هم الذين يفرضون القوانين على الأمراء النصاري، وإنما على العكس، كان كونت برشلونة المسيحي هو الذي يقرر مصير إسبانيا العربية^(١٠٠).

إن المعلومات الاجتماعية عن المسيحيين المستقلين منهم في الشمال أم الذين يخضعون للحكم الإسلامي لا نستمدّها من الشعر بخاصة. ويمكن القول بعامة أن شعراء القرن الحادي عشر الميلادي تجنبوا استخدام كلمة عِلج، في تسمية المسيحيين الأسرى^(١٠١). ويجهلون تماماً كلمة مستعرب، والتي أخذت في الإسبانية صورة Mozárabe^(١٠٢)، ويطلقون على المسيحيين الذين توجه إليهم الحملات اسم النصاري، أو الكفار، أو أهل الكفر، أو المشركين، عندما يكون الحديث بصدد الجهاد. أما الكلمة الأكثر شيوعاً لتسمية المسيحيين المستعربين أو مسيحيي البلاد الأجنبية فهي عجم، ويحيى معناها في مواجهة كلمة عرب، وهي تطلق على العرب لأنهم يتكلمون العربية بوضوح. وأما أولئك، أي العجم، وكل الأجانب، فهم الذين لا يفصحون في كلامهم، وهو نفس ما فعله الإغريق، فقد كانوا يطلقون على هؤلاء اسم بربروس Barbaros. وفي إسبانيا كانت كلمة عجم تطلق تبعتها الواسع على غير عرب الجزيرة، ومعناها الضيق على غير المسلمين، أي على الإسبان المسيحيين. ولقد كان المعتضد أمير إشبيلية يطمح أن يحكم العرب والعجم:

فَبِأَن أُرِدْتُ إِلَهِي بِالوَرَى حَسَنًا فَمَلَكْنِي زِمَامَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ^(١٠٣)

(٩٨) نحن بصدد الكونت سانتشو غرسية، انظر الأعمال ص ٩٦.

(٩٩) أعمال لأعلام ١٧٧، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٧ و ٣٠٢.

(١٠٠) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٩٥.

(١٠١) المؤرخون على التفخيز، يستخدمونه بكثرة. انظر: نفح ٥٤٦/٢، و ٣٣٥ طبع أوربا، والنصاري الذين سُرم المنصور واستخدمهم بنائين في توسعة مسجد قرطبة كان يطلق عليهم «أعلاج النصاري». انظر: نفح ٥٤٦/١، ص ٢٤٥ الماش ٨٥ فيما سبق من هذا الكتاب، وعن معنى كلمة عِلج، انظر: دوزي، ملحق للمعجم العربية، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ١ ص ٢٢٤ هامش ١.

(١٠٢) ليفي بروغس، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي ص ٣٥.

(١٠٣) من البسيط، الحلة السراء ٤٥/٢، و «بنو عباد» ٥٢/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٤٩. وقد ترجمها دوزي «على كل العرب والبربر».

وقد أرسل المعتصم وزيره أبا لأخشيغ بن أوقم سفيرا إلى المعتد، فأعلن عن وصوله إليه بهذه الأبيات:

يَا مِلْكًا عَظَمَتُهُ الثَّرْتُ والعِجْمُ وواحدًا وهو في أنوارِ أُمِّ (١٠٤)

وما نعرفه من تاريخ المعتد وسببها الإسلامية بعامة في القرن الحادي عشر الميلادي يسمح لنا بأن نعتقد أن كلمة «عجم» تعني نصارى شبه الجزيرة الإيبيرية، وليس الأجانب عامة. ويقدم لنا بيت من الشعر لأبي عمرو الداني شاعرا أزيد، ونحن نعرف كيف استقبل بالترحاب في عاصمة النصارى الأعلى، وأراد أن يعلن عرفاه على كل سكان إسبانيا، يقول:

أرُوحُ وأغدو بها خاطبًا لدى سامعي عَرَبٍ أو عِجْمٍ (١٠٥)

فالداني، وهو مسلم إسباني لم يستطع أن يوجه الكلمة بطريقة واضحة إلا إلى سكان شبه الجزيرة (١٠٦).

ويقدم لنا الشعراء من خلال قصصهم معلومات عن النصارى المستعربين أكثر أهمية من التوقيعات اللغوية التي أشرنا إليها من قريب فهم الذين يقدمون لنا، في غيبة المؤرخين، الشواهد على حرية المستعربين في ممارسة طقوسهم الدينية وحتى التعمق في فهم العلاقات المتبادلة بين الإسبان المسلمين والنصارى.

ولا غلغ لك شاهدا أكثر قيمة على مطلع القرن الحادي عشر من شهادة أبي عامر بن شهيد، في النص الذي أورده لنا «المطعم»، ويستحق أن ترجمه كاملا:

«أن أبا عامر بن شهيد بات ليلة إحدى كئاس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس، وعُرِشت بسرود واستئناس، وقرعُ النواقيس يهيج صمعه، ويرق الحمى يسرج لَمَعه، والقَسْ قد برؤ في عبدة المسيح، منوشحا بالزنازير أبدع توشيح، قد هجرُوا الأفراح وأطرحوا النعم كل أطراح لا يعمدون إلى ماء بآنية إلا اغترافا من الغدران بلراح وأقام بينهم يعملها حُميا، كأنهم يوشف من كأسها شفة لَمِيا، وهي تنفخ له بأطيب عَرَقه كَلِيا وشفها أعذب وشف (١٠٧). ثم ارتحل بعد ما ارتحل، فقال:

(١٠٤) من البسيط، الفلاذ ٨، رنو عاد ١/٤٢، والترجمة ٩٦.

(١٠٥) من المقارِب، الفلاذ ١٠٣.

(١٠٦) «عجم» بمعنى المستعربين، أو إسبانيين عامة في إسبانيا. ويوجد من القرن العاشر شهادة لسان تدين دي لاكوجويا، تحمل تاريخ عام ٩٥٠، أصدرها فرنان جو ثالث، متصل بن ينغى أورديو ويحمل صفة Zahaggeni، ومن لسان أن نردها إلى أصلها العربي وهو «صاحب العجم»، أي رئيس المستعربين. انظر: غوث مورينو، كئاس المستعربين ص ٢٦٣ رقم ١. ويقول ابن الأثير في الحلة السراء ١٥٩/١ عن عمرو بن حفصون: إنه كان قبل أن يصبح سعيد بن جودي رئيس العرب في القرن الحادي عشر: «ركن العصية للعجم والمولدين». ونشر: ليفي بروقتسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٢٧ وكان يفضل في الدعوى والمضمرات بين المسيحيين قاضي النصارى أو قاضي العجم، وأخيرا فإن اللغة الإسبانية كانت تسمى للعجم، وأخذت شكل ALJAMIA بالهروف اللاتينية.

(١٠٧) أتاج رواية فتح الطيب ١/٤٢٥.

وَلَرُبَّ حَانٍ قَدْ شَمَمْتُ بِدِيرِهِ خَرَّ الصَّبَا مُزَجَّتْ بِصَرْفِ عَصِيرِهِ
فِي فِتْيَةٍ جَعَلُوا السُّرُورَ شِعَارَهُمْ مُتَصَاغِرِينَ تَحْشَعًا لِكَبِيرِهِ
وَالْقَسْ مَا شَاءَ طَوْلُ مُقَامِنَا يَدْعُو بِعَوْدٍ حَوْلَنَا بِزُبُورِهِ
يُهْدِي لَنَا بِالرَّاحِ كُلَّ مُصْغَرٍ كَالْخَشْفِ خَضْرَاهُ التَّمَاعُ خَفِيرُهُ
يَتَنَاولُ الظَّرْفَاءُ فِيهِ وَشَرِيرَهُ لِسَالِيهِ وَالْأَكُلُ مِنْ خَنْزِيرِهِ^(١٠٨)

هذه الأبيات من الشعر ذات صراحة خشنة، وربما فضيحة مقصودة، وتذهب إلى أبعد مما يظن المستشرقون بكثير، وقد أشاروا إليها دون أن يترجموها كاملة، وما أوضحه ابن عبدون في نص رسالته الذي نشر أخيرا يبرهن على أن ابن شهيد لم يبالغ، ولم يُحْمَلْ ألوان لوحته فوق ما تحتمل^(١٠٩).

وقدّم لنا الشعراء مشاهد من حب المسلمين للفلان النصارى من أبناء المستعربين، ويؤكد لنا هذا في جانب متميز العلاقات الحميمة التي يمكن أن توجد بين الطيقتين الدنيا والوسطى في المجتمع، وهنا يجب أن نمرّج إلى مطلع القرن الحادي عشر، ونذكر حالة شاعر أعطى لنا من جانب آخر الأمثلة على هذا الحب الأشد حنانا، وهو أبو عمرو يوسف بن هارون الرمادي^(١١٠). ومرة أخرى كان ابن خاقان هو الذي احتفظ لنا بهذه الرواية:

«كان (أي الرمادي) كلفاً بفقى نصراني استسهل لباس زُنَّارِهِ، والخلود معه في ناره، وخلع بروده لمسوحه، وتسوّغ الأخذ عن مسيحه، وراح في بيعته، وغدا من شيعته، ولم يشرب نصيبه، حتى حطّ عليه صليبه، فقال:

أَذْهَبَا مَثَلُ رَيْفِكَ تَمَّ صَلْبُ كَعَادَتِكُمْ عَلَى وَهْمِي وَكَاسِي
فَيَقْضَى مَا أَمَرْتُ بِهِ اجْتِلَابًا لِمُسْرُورِي وَزَادَ خُضُوعَ رَاسِي^(١١١)

ويقول الرمادي نفسه:

قَبْلَتُهُ قَدَامَ قَسَمِهِ شَرِيفُ كَاسَاتِ بَتَقْدِيسِهِ
يَقْرَعُ قَلْبِي عِنْدَ ذِكْرِي لَهُ مِنْ قَرَطِ شَوْقِي قَرَعُ نَاقُوسِهِ^(١١٢)

دون شك لسنا بصدد مثل وحيد لمسلم تخلى عن عقيدته لكي يرضى في حرية كاملة مشاعره الأئمة. وقدّم لنا أبو القاسم بن العطار مثلاً آخر:

وَسَنَانُ مَا إِن يَزَالُ عَارِضُهُ يَعِطِفُ قَلْبِي بِعَطْفَةِ اللَّامِ

(١٠٨) من الكامل، المطمح ١٩٥، وعنه نقلها تلح الطيب، وانظر أيضاً: سيمويت، تاريخ المستعربين ٦٤٨ - ٦٤٩ و ٨٢١، وليفي برونسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ٣٥ - ٣٦، ولم يصح ابن خاقان غير أنه أخذ الفقرة من رسالة التوايح والزوايح لابن شهيد، بعد أن أدخل عليها تعديلاً خفيفاً، انظر: النخبة ٢٦٠/١، ونقلها أحمد ضيف في: بلاغة العرب في الأندلس ٥٢ - ٥٣، وفي طبعة بطرس البستاني ص ١٤٢ - ١٤٣.

(١٠٩) انظر: وثيقة عن الحياة والمهينات في مدينة إشبيلية في مطلع القرن الثاني عشر؛ رسالة ابن عبدون، نشرها ليفي برونسال مع مدخل ومصحح في المجلة الآسيوية، إبريل - مايو ١٩٣٤، ص ٢٣٩.

(١١٠) عن الرمادي انظر مقالنا في دائرة المعارف الإسلامية ١١٩٠/٣ - ١١٩١.

(١١١) من الوافر، المطمح ص ٣٦٦، وعنه نقلها نفع ٣٧/٤.

(١١٢) من السريع، المطمح ٣٦١، وعنه نقلها نفع ٤٠/٤.

أسلمني لالهوى فوحزننا إن بمرني عفتي وإسلامي
الحاظه أسهم وحاجبه قوس وإنسان عمنه راسي^(١١٣)

ولكن المثل الأكثر جاذبية يقدمه لنا أبو عبد الله بن الحداد، شاعر من بلاط المرة، وأصلا من وادي آش، وفي حالته نحس معه بأننا في حضرة الحب لأكثر إخلاصا، والأشد نقاء، على نحو ما كان عليه بعض شعراء التروبادور فيها بعد ذلك. وحدث ليس بأقل أهمية أن هذه الأبيات تمدنا بمعلومات دقيقة، تبحث عنها عبثا عند ابن شهيد، عن الطقوس المسيحية كما كان يارسها المستعربون في وادي آش، وتعود هذه الأبيات، وسوف نذكرها فيها بعد، إلى مرحلة المراهقة في حياة الشاعر؛ لقد هام قلبه حبا بفنأة مسيحية من وادي آش، وكانت تحمل اسم جميلة فيها يبدو، ولكن العاشق الذي خلدها ظل يدعوها دائما توبة^(١١٤):

وبين المسيحيات لي سامرية^(١١٥) بعيد على الصب الحنيفي أن تدنو
مُثلثة قد وحد الله حسنا فتني في قسيها الوجع والحزن
وطي الخمار الميوني حسرا كأنما تجمع فيه الهدر والليل والدجن
وفي معقد الزنار عقد صباقي فمن تحته دعص ومن فوقه غصن
وفي ذلك الوادي ربا أضلعي له كناس، وقمرى فؤادي له وكُن^(١١٦)
ويدها أيضا في هذه الأبيات:

عساك بحق عيساك	مرجة قلبى الشائى
فإن الحسن قد ولا	في إحيائى وإهلاى
وأولعى بصلبان	ورهبان
ولم أت الكنائس عن	هوى فيهن لولاك
وها أنا منك في بلوى	ولا فرج لبواك
ولا أسطيع سلوانا	فقد أوثقت أشرائى
فكم أبكى عليك دما	ولا ترئين للبائى
فهل تدوين ما تقضى	على عيني عيناك
وما يذكى من نار	بقلبي نورك الذاتى؟

(١١٣) من المشرح، القلاد ٢٢٨، وعنه نقلها نفع ٢٠٢/٤.

(١١٤) الذخيرة ٧٠٤/١ وما بعدها، وتوبة تصغير نوار، وهي حفة تحق خفرة وتافرة، وكانت زوجة العزيز، وهو شاعر

مشرقي من القرن الأول الهجري = الساج الملائى، تحمل الاسم نفسه.

(١١٥) يشير الشاعر إلى قصة السامري التي وردت في القرآن الكريم، في سورة طه، الآيات ٨٥ و ٨٧ و ٩٥، والذي لا يستطيع أحد أن يسه، دون أن يهاني الناس والمساكين من الحمى، فكان سير في الناس ويصيح فيهم إذا رآهم: لا ساس، وإلى ذلك تنبر الآية: «فذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا ساس» انظر فيها بعد ص ٣٩٠ المامش رقم ٦٦ من هذا الكتاب، ونسبة إشاره إلى السامري الذي نحن بصدده في شعر ابن زيدون، انظر: الميوني، ص ٢٧٥. والأبيات من الرمل:

ورأيت سامريا يتقى منه الناس

● السامري أحد زعماء بني إسرائيل لما ذهب موسى لتأجدة ربه ظل السامري بني إسرائيل، ونعاهم إلى الشرك بانه، فعاقبه الله بالوحشة والافتراء، فلا يس إنسان إلا أدركته الحمى ساء فكلو يتحاشى الناس وينادهم إذا رآهم: لا ساس. (المترجم)

(١١٦) من الطويل، الذخيرة ٧٠٨/١، وفي كتاب أحمد ضب بلاغة العرب في الأندلس الأبيات الأربعة الأولى.

وفوق الشمس سيمالك
نقنا المرتج عطفك
ومن رياه ريك
خي أهواك أهواك
ك أنى بعض قتلاك^(١١٧)

حجبت سنالك عن بصرى
وفى النصف الرطب وفى الد
وعند الروض خذاك
نؤيرة إن قلبت فإند
وعيناك المنبتا

وفى هذه الأبيات:

رهين لوعات وروعات
وإن بقوا قبلة بغياني
بالمضبات الزهريات
بالفتيات العيسويات
تكس ما بين الكيسات
بين صواميع وبيعات
بالظبيات الحضريات
بين الأزيطي^(١١٨) والدويحات
واجتمعوا فيه لبيات
ممسك مصباح ومنسة
بأى إنصات وإخيات
كالذنب يغي فرس نجات
وقد رأى تلك الظبيات
على قنود غصنيمات
بحسن ألحان وأصوات
عنى وفى ضغط صباقي
تحت غمامات اللثامات^(١١٩)
ولحها يضرم لوعات
علقتها منذ سنبات
بل تلتطى فى كل أوقات
وإن أبى رجع نحياقي^(١٢٠)

قلبي فى ذات الأثيلات
فوجئة نحوهم إتهم
وعرسا من عقدات اللوى
وعرجا يافتتى عامر
فإن بى للروم رويبة
أحيم فيها والهوى ضلة
وفى ظباء البدو من يزدري
أضح وحدى يوم فصح لهم
وقد أنوا منه إلى موعيد
بوقف بين يدى اسقف
وكل قس مظهر للتقى
وعينه تسرح فى عينهم
وأى امرئ سالم من هوى
فمن خدود قمر يات
وقد تلوا صحف أناجيلهم
يزيد فى نقر يمايرهم
والشمس شمس الحسن من بينهم
وناظري تحتل لمخها
وفى الحشا نار نؤيرة
لا تتطفئ وقتا وكم رمتها
فحى عنى رشأ المنحى

لا يمكن أن ننكر أن الشاعر اتكأ، وهو يؤلف هذه الأبيات، على ذكريات من الدواوين

(١١٧) من الوافر، اللخيرة ٧٠٧/١، وفى أحد ضيف، بلاغة العرب ص ١٨٦ - ١٨٧.

(١١٨) الترجمة تقريبية، لأن النص ليس واضحاً.

(١١٩) الترجمة تقريبية، لأن المصاحبات لم يكن يضمن اللثام أى الثقاب، ولكن موازنته ياليت الثالث فى القطعة الأولى

ص ٢٥٢ من هذا الكتاب.

(١٢٠) من السريع، اللخيرة ٧٠٥/١، وفى أحد ضيف، المصدر السابق له، ص ١٨٥ - ١٨٦.

لقديعة^(١٢١)، ومع ذلك يعطينا الانطباع بأنه لاحظ الواقع مباشرة: فالفتاة التي أحبها ورسم صورتها، رفيعة من قريته، وقد سجل الشاعر لفرق الذين يمكن أن يوجد بين ضيعة وادي آش حيث تقضى الحياة ريفية، وبين المدن الكبرى مثل المرية، والقرية التي فيها من قرطبة وإشبيلية، حيث الحياة أكثر تحضراً وصقلاً، كما يحدث في المدن الكبرى بعمامة. وأضفى عليها الثوب الذي تلبسه طابعاً محلياً، ولا يقلل من تمييزه لها أن وصفه ليس كاملاً، فهي تلبس خماراً، والذي لا يزال يستخدم حتى اليوم في ريف الأندلس في الجنوب وفي الشرق من أسبانيا^(١٢٢) وفي مقاطعة روسيلون Foussillon في جنوب فرنسا على الحدود مع أسبانيا، وتحمل في وسطها زناراً^(١٢٣)، وهو ما فرضه المسلمون على مسيحيي البلاد التي فتحوها، أو إن شئت على نصارى أهل الكتاب، ولم يتواصل العمل به إلا في الشرق، وبلاد البربر الشرقية^(١٢٤). وأنصار ابن شهيد، والرمادي، وابن الحداد، تسمح لنا بأن نعتقد أن المستعربين، قسماً ورجالاً وعلمانيين، رجالاً ونساء، كان عليهم أن يحملوه علامة مميزة.

ولقد شبه ابن الحداد صاحبه نيرة بأنها سامرية طبقاً للأسطورة الإسلامية، بسبب صعوبة الوصول إليها، ويعبر ابن عمار عن الفكرة نفسها بمناسبة وصفه للخرشوف:

كأنها في جمالٍ وامتاعٍ فُرئ
خودٌ من الروم في برحٍ من الآمل^(١٢٥)

ليس هناك مكان فيها يبدو يمكن أن تتوقف عنده الإشارات التي نجدها في الشعر الإسباني الإسلامي فيها يتصل بالقسس أو الرهبان النصارى، وعندما يقول ابن الخياط الأعمى مثلاً بمناسبة حبيبته:

يادارُ علوةٌ قد هيَّجت لي شجناً
رُزِدَتْني حُرْقاً ، حَيَّيت من دارٍ
كم يثُ فيك على اللذاتِ مُعْتَكِفاً
والليل مُدْرَعٌ ثوباً من القمار
كانه رهبٌ في المسح مُلْتَحِفٌ
شدَّ المجدُّ له وَسْطاً بِرِيارٍ^(١٢٦)

فأنه لم يصنع شيئاً أكثر من استخدام «صيغة» جارية في الشعر المشرقي، ولكنني أرى من المهم أن أوضح أن الشعراء الأندلسيين كانوا يشيرون كثيراً إلى قرع النواقيس دون أن يعرخوا مطلقاً بتفوقهم من سماعها. يقول ابن حزم:



(١٢١) مثلاً، ديوان حسان بن ثابت، طبعة القاهرة، تحقيق جبروقي ٤١٥ الأبيات ٦ - ٣.

(١٢٢) انظر: خروسيه برجوا، نفسية الشعب الإسباني، مدريد ١٩٣٤، الصور ص ٥١٥ (أرغون)، و ٥٣٤ (اطلونية)، و ٥٥١ (الجزائر الشرقية)، و ٥٥١ (ليون)، و ٥٧٥ (سلمقة).

(١٢٣) كلمة زنار من الكلمة الإغريقية Ζώνη، ولها المعنى نفسه. انظر طوبيا الأنيسى المحلى اللباني، كتب تفسير الألفاظ في اللغة العربية، ط ٢، تفهيم يوسف توما البستاني، ص ٣٣. أما في الغرب الإسلامي فتطلق أيضاً على نوع من القرس، أو العبادة الخشنة يستخدمها الريفيون. انظر: دوزي، لتعليم الفصل بأسماء الملابس عند العرب ص ١٩٦ - ١٩٨.

● وفي الترجمة العربية للدكتور أكرم فاضل ص ١٦٢ - ١٦٣، بغداد ١٩٧١ (الترجم).

ولهاوست، الكلمات والأشياء البربرية ص ١٢٩ - ١٣٠.

(١٢٤) انظر: فينان، الإشارة المميزة لليهود في المغرب، في مجلة، الدراسات اليهودية، المجلد ٢٨ ص ١٨٩٤، ص ٢٩٤ - ٢٩٨.

(١٢٥) من البسيط، الخلة المبرء ١٦٣/٢، وانظر فيها بيت ص ١٧٧ من هذا الكتاب.

(١٢٦) من البسيط، تفح ٥٠٣/١، والنويزي، نهاية الأرب ٣٩٨/١ ط ٢.

أَتَتْنِي وَهَلَالُ الْجَوِّ مُطْلَعٌ قُبِيلَ قَرَعِ النَّصَارَى لِلنَّوَاقِيسِ^(١٢٧)

إن دراسة مختلف العناصر العرقية التي كان يتكون منها الشعب في إسبانيا الإسلامية تجعلنا نشعر، في بساطة، أننا بإزاء فسيفساء شديدة التناقض في تكوينها، وبالكاد نلمح فيها بعض الإيقاعات المتنافرة، وهذه العناصر أخذت تترجج تدريجاً، وتصبح كل يوم أقوى اتحاشاً.

ويرجع العامل المهم في تعادل الأجناس جيداً إلى التزويج من سيدات إسبانيات أو أورييات، ولا نود أن نقول إن النساء البربريات^(١٢٨) واليهوديات لم يتدخلن أيضاً في هذه «الخلطة» العرقية، ولكن أعدادهن في الحريم الإسباني الإسلامي لم تكن أبداً هي السائدة فيما يظهر^(١٢٩).

ولقد أسهمت المرأة المسيحية بأعدادها الكثيرة في تكوين جنس لا يمكن أن ندعوه عربياً، ولا يبرياً، ولا صقلياً، ولا يهودياً، أما الصفة الأكثر ملاءمة له فهي أن ندعوه أندلسياً أو إسبانياً. وقد سمح لنا المؤرخون كما رأينا باستخدام هذا المصطلح، فوجود حزب أندلسي في بداية الفتنة، وخلال عصر الطوائف، عليه شواهد عديدة، وتظهر حيويته في عداوة الحزب البربري بخاصة.

وتسمح لنا العلاقات بين المواطنين الإسبان الأصليين ونصارى الشمال بأن نفهم على نحو أفضل تكوين هذا الحزب من ذوبان عدة أعراق مختلفة في انبوتقة نفسها.

ويمكن القول بأن المسيحيات بالكاد غيرن شيئاً من طريقة حياتهن، وكذلك أبناؤهن، وقد تلقوا تربية مسيحية على الأقل في الأعوام الأولى من طفولتهم^(١٣٠).

وجدير بالذكر أن نلاحظ أنه رغم أهمية ما أضافه الدم الإسباني الذي كان يجري في عروق الأسر الإسلامية الإسبانية، وهو ليس بالقليل، إلا أن الشعراء العرب أو الأدباء النازحين لم يقولوا أبداً أن هذا العنصر الذي تكون أخيراً كان عجمياً، أي غير عربياً. ذلك لأن الإسلام أقام مفهومًا خاصاً عن دور المرأة في الأسرة، ومن المهم أن نعرض لهذه الأفكار الأساسية، وأن نظهر النتائج التي أدت إليها في إسبانيا نفسها.

وكان يسعد مؤرخو الأدب أن يرددوا هذه الجملة التي ينسبونها إلى الخليفة الأموي المشرقي

(١٢٧) من البسيط، طوق الحمامة ص ١٧٣ وترجمة نيكل ١١١، وطبعة برشد ص ٢٤٦.

(١٢٨) لابد أن نشير إلى حادثة أمير مسيحي مشيرة. وهو الفونسو بن أورديو، إذ كان يدعى «بن البربرية»، فقد نعب علم ٣٩٢ هـ = ١٠٠٣ م إلى مدينة سالم، على رأس كيبية من النصارى ليكون إلى جانب المظفر بن المنصور. انظر: البيان المغرب ٥/٣. ترجمة ليفي بروفسال في تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ١٨٧.

(١٢٩) فيم يتصل بدم اليهود فإن الأمور تغيرت قلماً بعد ذلك بقرن. ذلك أن الكاردينال فرانسيسكو دي موندونا إي بوباديا أراد أن ينتم من حكومة فيليب الثاني فأرغم حفيده على أن يطلب البرهان على نقاء الدم، وأظهر في كتابه «جنوة النبلاء» على أنه لا توجد أية أسرة إسبانية متصورة لا غير في عروقها نقطة دم عربية أو يهودية، انظر: جنوة النبلاء الإسبان أو بقع وعار أسرههم، برشلونة ١٨٨٠ م.

(١٣٠) الحالة الأندلسية تتجلى لنا في مجاهد ملك دانية والجزائر الشرقية، فأمه مسيحية اسمها جند أسروها في سردينية مع ابنها على، وقتل كلاهما إلى أرض مسيحية، واستطاع مجاهد أن يقتدى ابنه على بفدية ضخمة، ولكن أمه فضلت أن تبقى بين النصارى، وهذه الإقامة الطويلة في أرض نصرانية جعلت من على مسيحيًا، وكان معروفًا تمامًا أنه احتفظ طوال حياته بإثارة أولئك الذين ربه في طفولته وبراغمته، وفكرهم وعاداتهم. انظر: أعمال الأعلام، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

عبدالمك بن مروان: «من أراد أن يتخذ جارية للمتعة ليتخذها بربرية، ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية»^(١٣١).

وفي المثال السابق تظهر وجهة نظر 'الرجل' وأنانيته بطريقة لم يعبر عنها أحد بأفضل مما عبر عنها هذا الأمير، وهي أن المرأة حيوان خدمة أو لحم متعة^(١٣٢). وهي دون شك وجهة نظر مسمين آخرين كثيرين، ولكن شخصيات كثيرة اهتمت في مطلع الإسلام بهذه العلاقات المختلطة لما لها من تكوين نفسي على التأثير العرقي، وكان رئيس الدولة يرى، كملاحظ دقيق، إلى جانب تعدد الزوجات الذي يلا حريمه كى يشبع نهمه الجنسي أن العلاقة بين كائنين إنسانيين لا توجد بينهما أية صلة عائلية، قريبة أو بعيدة، تؤدي إلى نتائج طبية في تحسين مستوى الجنس من وجهة نظر ثقافية، قال عمر بن الخطاب: «لس قوم أكيس من أولاد السراري، لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم»^(١٣٣).

ولم يغب عن المفكرين المسلمين الذين تأملوا ظروف تطوّر الأعراق الإنسانية حقيقة أن الزوجة الأجنبية حين لا تربطها بالزوج صلة قرابة تعطى فرية أفضل شكلا وعددا.

وهذا اللون من الملاحظات أصبح كذلك بالغ الأهمية، وليس قليلا بين المسلمين. ولرأى الشائع ويقلبه الإسلام الرشدي أن اشتراك المرأة في تكوين الأعراق محدود للغاية، ويعرض لنا شاعر مجهول هذه الفكرة بوضوح في الأبيات التالية:

لا تشتمنُ امرأً عن يكون له أم من الروم أو سوداء عجباء
فلنما أمهات القوم أوعية مستودعات ولأنساب آباء^(١٣٤)

وفي إسبانيا كان ذلك على التأكيد رأى أبي بكر بن العربي، المتوفى ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م، لأنه يروى أنه سمع في بغداد فقيها حليها يرسل رأيا يدا له من البدائع: «سمعتُ أمام المختالبة بمدينة السلام أبا الوفاء علي بن عقيل يقول: إنما تبع الولد الأم في المالية وصار يحكمها في الرق والحرية لأنه انفصل عن الأب نقطة لا قيمة لها، ولا مالية فيه، ولا متفعة مبنوثة عنده، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها، فلذلك تبعها، كما لو كان أكل رجل تمرا في أرض رجل وسقطت منه نواة في الأرض من يد الأكل فصارت نخلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الأكل بإجماع الأمة، لأنها انفصلت عن الأكل ولا قيمة لها، وهذا من البدائع»^(١٣٥).

ولم يقتنع ابن العربي، وهو إسياني، بهذه النظرية لأن إعطاء الأم مكان الصدارة يتيح للعنصر

(١٣١) أبو الفرج، كتاب النساء، في التيجاني تحفة العروس، مخطوطة الجزائر، الورقة ٤٩ ظهر، والأبشهي، مستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة ١٣٣٠ هـ ٢٠٦٢/٢، وترجمة (٦٠٨/٢)، وانظر أيضا: السقطي، رسالة في الحسبة ٤٩ - ٥٠. (١٣٢) وقد عبر ابنه مسلمة، وهو ابن سوداء، عن الفكرة نفسها بروح فاجر وفاسد «إني لأعجب من ثلاثة: من رجل مضر شره ثم عاد فأطاله، أو شمر توبه ثم عاد. فأسيبه، أو غتم بالسراري ثم عاد إلى المهرات» وهذه جمع مبهمة، وهي المرأة الموهورة. انظر: المبرد، الكامل، ١٢٩/٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعنه نقلها التيجاني في تحفة العروس، مخطوطة الجزائر، الورقة ٤٩، وطبعة القاهرة ص ٤٨.

(١٣٣) المبرد، الكامل، ١٢٤/٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، والتيجاني، تحفة العروس، مخطوطة الجزائر، الورقة ٤٩.

(١٣٤) من البسيط الإشبهي، المستظرف، ٢٠٦/٢، وترجمة را ٦٠٨/٢.

(١٣٥) نفع ٤١/٢

الأجنبي مكاناً مفضلاً في المجتمع الإسلامي، والتسليم به يفترض أن صاحبه قد أخذ جانب الشعوبية^(١٣٦). وفي منتصف القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، أحس ابن قتيبة بخطور ما يحتوي عليه هذا المفهوم فحكف على شجبه^(١٣٧). وفي الترتيب الإسلامي، في القرن الحادي عشر بالدقة، في عصر الطوائف، أثار القضية أحد المؤلدين ويدعى ابن غرسية (أبو عامر)، معاتباً أحد الشعراء لأنه رقص أن يمدح مجاهداً أمير دانية، لأن هذا الأمير غير عربي^(١٣٨). وفي رسالته التي كتبها بهذه المناسبة^(١٣٩) حاول أن يظهر في أسلوب ثري، بالغ الفصاحة والتقاء، وعقل أجل تكريم للغة العربية في عصره وللحضارة الإسلامية، وفيها حاول أن يثبت أن الأمراء غير العرب في العصر الجاهلي سيطروا على تاريخ الشرق الأوسط بأعمالهم العظيمة في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية، ومن المنطقي أن نستنتج أن جنس الروم، أي أبناء عيسار، أو بني الأصفر كما يسميهم المؤلفون العرب^(١٤٠)، يتفوقون على نحو ملحوظ على جنس السواد، أي العرب، لأن جدتهم الأولى هاجر لم تكن غير جلرية متواضعة الأصل. وقد أثارت رسالة ابن غرسية ردوداً وصلتنا^(١٤١)، واهتم مؤلفوها قبل أي شيء أن يردوا اتهامهم بالدونية العرقية لأنهم ينتسبون في أصلهم البعيد، من ناحية الأم، إلى هاجر، وهي النقطة التي شدد عليها ابن قتيبة، ولا بد أن الصدمة التي وجهها ابن غرسية كانت عنيفة، ذلك لأن أحد الذين تحمسوا لشجبتها ردّ بحزن على أن هذا المؤلد الذي يدين بكل شيء لثقافته العربية كان مثل تلميذ الشاعر معز بن أوس المُرُني، حيث يقول:

أَعْلَمُ الرِّمَاءَ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَائِي
وَكَمْ عَظَمَتُهُ نَظَّمَ الْقَوَائِي فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةَ هَجَائِي

(١٣٦) تاريخ الشعوبية يتأدى بمسألة إن لم يكن يتفوق العناصر غير العربية في المجتمع الإسلامي، ودرسها جولدسيهر، ص ١١٠. فيها يتصل بالشرق في كتابه دراسات إسلامية ١٤٧/١، وبطريقة أكثر سطحية فيما يتصل بإسبانيا الإسلامية في مجلة المستشرقين الألمان، المجلد ٥٢، عام ١٨٩٩، ص ١٧١ - ١٨١، وأيضاً كرد على القديم والحديث ص ٦١٩، وطه حسين في الأدب الجاهلي، ص ١٧١ - ١٨١، وأحمد أمين، ضحى الإسلام، ٤٩/١ - ٧٩، ودائرة المعارف الإسلامية ٤/١٠٤، وكتب مادتها مكلونالد. (١٣٧) انظر: كتاب العرب أو الرد على الشعوبية في رسائل البلقاء ص ٢٧٥، و٢١، ٢٣، وابن عبد ربه، العقد الفريد ط. بولاق ١٢٩٢ هـ ٨٨/١١، ١ - ٥٢، وانظر أيضاً، الجاحظ، البيان والبيان، طبعة السندوني ١٨/٢ وما بعدها. (١٣٨) طبعة المؤلف الأخيرة، ق ٣ الورقة ١٦٥ ظهر، هو أو جعفر بن الجزار، وطبقاً لمخطوطة الأسكوريال الورقة ٢٦ ظهر أبو عبد الله بن الحداد.

(١٣٩) نص الرسالة في الأخيرة ٧٠٥/٣ - ٧١٤، وفي مجلة المستشرقين الألمان المجلد ٥٣ عام ١٨٩٩ ص ٦١٠ - ٦١٧. (١٤٠) عن هذا التعبير انظر دائرة المعارف الإسلامية ٨/٤٨٢، مادة أصفر، وكتب المادة جولدسيهر، ودوزي، ملحق المعاجم العربية ٨/٣٦٦.

(١٤١) رد عليه من معاصريه ابن النديم، وابن اسحاق، و أبو الطيب بن من الله القزويني، انظر الأخيرة ٣/٣١٥ وما بعدها. ورد متأخر من عصر الموحدين لأبي يحيى بن سميعة، يوجد في مخطوطة الإسكوريال رقم ٥٣٨، الأوراق من ٢٩ ظهريل ٤١ ظهر، وثمة ردود أخرى أشار إليها المؤلفون العرب، انظر جولدسيهر في مجلة المستشرقين الألمان المجلد ٥٣ عام ١٨٩٩ ص ٦١٨ وما بعدها ١٤٢ - من الوافر انظر الأخيرة ٣/٧٢٤، ودولان من بن أوس، طبعة شواوتز ص ٢٤، وطبعة كمال مصطفى، ص ٣٧.

● تعليق من المترجم:

وهم هنرى بيريس المؤلف في فهم كلمة «البدائع» التي وردت في نص ابن العربي، وترجمها «طافحا بالغواية»، وبنى عليها أن ابن العربي غير موافق على رأى الفقيه الحنبلى، والعكس صحيح، وكلمة «البدائع» جمع «يديع»، تعنى أن البرهان الذى قدمه الفقيه الحنبلى في مثله جيد ومقتنع وتادرا ما يتأق لفقيه، واستشهاده بابن قتيبة في غير موضعه، لأن ابن قتيبة من أصل فارسى وليس عربيا، وإن لم يأخذ جانب الشعوبية. ومن هنا فإن هذه الفقرة من تحليل بيريس لا تقوم على أساس علمى.

(المترجم)

○ الفصل الثانی:

الحياة الاقتصادية

أتاح لنا الشعر أن ننصوّر المجموعات الرئيسية للعناصر العرقية في شبه جزيرة إيبيريا، كما أنه سوف يمدنا أيضاً ببعض المعلومات الدقيقة إلى حد بعيد، والأكثر وضوحاً في الغالب، عن الحرفيين والعمال الذين يحتلون مكاناً في زحام المدن.

كان بضطلع بمهنة الصياغة رجال من العامة أو الطبقة المتوسطة، ولكن شخصيات الطبقة العالية التي انقضت عليها المحن في الظلام لم تنفر من ممارستها، وشاهدنا على ذلك ابن المعتمد الملقب فخر الدولة، فقد عمل بعد أن أزيح والده عن العرش صائناً لكي يربح لقمة العيش. وقد أسف ابن اللبانة حين رآه في هذا الوضع، ولم يستطع أن يكتم أحزانه على ظروفه الحزينة، وقدّم لنا بعض المعلومات عن مهنة هذا الصانع المبتدئ:

شَكَاتَا فِيكَ يَا فَخْرَ الْهَدَى عَظُمْتُ	والرؤى يعظم فيمن قدره عظمًا
طَوَّعْتُ مِنْ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ بِخَنَقَةٍ	ضاقَت عليك وَكَمْ طَرَقْنَا نِعْمَا
وَعَادَ كَوْنُكَ فِي دُكَّانٍ قَارِعَةٍ	من بعد ما كُنْتُ فِي قَصْرِ حَكِي إِرْمَا
صَرَفْتُ فِي آلَةِ الصَّوَاغِ أَغْنَةً	لَمْ تَدِرْ إِلَّا النَّدَى وَالسَّيْفَ وَالْقَلَمَا
يَدُ عَهْدَتِكَ لِلتَّقْبِيلِ تَسْطُهَا	فَتَسْتَقِلُّ الشَّرِيًّا أَنْ تَكُونَ قَمَا
بِأَصَاتِنَا كَانَتْ الْعَلِيَا تُصَاغُ لَهُ	حَلَمًا وَكَانَ عَلَيْهِ الْحَلِيُّ مُنْتَظَمَا
لِلنَّفْخِ فِي الصُّورِ هَوْلٌ مَا حَكَاهُ سَوَى	هَوْلٍ وَأَيْنَاكَ قَبْهٌ تَنْفِخُ الْفَحْمَا
وَدَدْتُ إِذْ نَظَرْتُ عَيْنِي إِلَيْكَ بِهِ	لَوْ أَنَّ عَيْنِي تَشْكُو قَبْلَ ذَلِكَ عَمَى (١)

ونجد بسهولة لدى شعراء آخرين إشارات هامة عن الطريقة المتبعة في صوغ المعادن الثمينة، فأحددهم يحدثنا عن «الورق» و«الوديلة» وآخر عن «قراصة التضار أو يرادة الذهب» و«نقر التبر». كما أن هناك عددا كبيرا منهم يتحدث عن صهر المعادن في سبائك، وآخر يستخدم تعبير «إناء مفضض» (٢). مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الحرفيين كانوا يعرفون كيف يفضضون المعادن كالتحاس، وهناك شواهد أخرى تبرهن على أنهم كانوا يمارسون فن تنهيب الفضة، وقد وصف ابن

(١) من البسيط، الذخيرة ٧٩/٢، وهو عباد ٣٢١/١، والترجمة اللاتينية له ٣٧٢/١، وللاكنشي، المسجب ١٦٠، وترجمته ١٢٥

- ١٣٦، ونفخ ٩٧/٤.

(٢) أبو الوليد، البديع، الورقة ٦٦ ظهر.

عمار طبقاً من فضة مذهب الباهن^(٣)، ووصف أبو بكر بن الملح سواراً من الفضة مذهباً^(٤)، أما المقرئ فيحدثنا عن حجر الشاذلة وكان يستخدم في ذلك التذهيب^(٥).

وراجت صناعة الزجاج في إسبانيا، وبخاصة منذ القرن العاشر، وهي الفترة التي اكتشف فيها عباس بن فرناس خلال حكم الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ = ٨٥٢ - ٨٨٦ م) طريقة صناعة الزجاج^(٦).

وفي القرن الحادي عشر انتشرت مصانع الزجاج الرئيسية حول إشبيلية، وكان اعتمد أميرها يشاهد من نوافذ قصره أفران الزجاج تلمع في الظلام، ووصف لنا المقرئ مشهداً يظهر فيه أمير إشبيلية وقد أرسل في طلب الشاعر ابن حمديس في ساعة متأخرة من الليل: «... دخلت عليه فأجلسني على مرتبة فنك، وقال لي: افتح الطاق التي تليك، ففتحتها فإذا بكور زجاج على بعد، والنار تلوح من بابيه، وواقدة تفتحها تارة وتسدها أخرى، ثم دام سد أحدها وفتح الآخر، فعين تأملتها قل لي: أجزء: انظرهما في الظلام قد نجا

فقلت: كما رنا في الدُّجْنَةِ الأسدُ

فقال: يفتح عَمِينَهِ ثم يُطَبِّقُهَا

فقلت: فَيَقُلْ أَمْرِي فِي جَفْوَنِهِ رَمَدُ

فقال: فَايْتَرَهُ السَّهْرُ نَوْرَ وَاحِدَةٍ

فقلت: وهل نجا من صروفه أحد^(٧)

وصور لنا شاعر أندلسي شخصية لقائم على فرن الزجاج، في مصنع قريب من إشبيلية، في أبيات من الشعر، وكانت هذه الأفران مهبط الراغبين في النزهة من السكان، وتتمتع بشهرة واسعة، وتثير أحياناً حماسه الأمراء والأدباء، يقول عبد الجليل بن وهبون:

رَبُّ فِرْنٍ رَأَيْتُهُ يَتَلَطَّى وَرَبِيعٌ يَخَالِطِي وَعَقِيدِي

قَالَ شِبْهٌ فَقُلْتُ صَدْرُ حَسُودٍ خَالِطُهُ مَكَارِمُ الْحَسُودِ^(٨)

(٣) ابن الأثير، الحلة ١٦٤/٢.

(٤) من البسيط، نفع ٧٠/٤، ويقول أريدي من القرن العاشر الميلادي عن الرجال:

أَعْمَرْنَ قَلْبَكَ بِسَا لَا يَسُ هذا الناس ساسا

ذَهَبَ لِإِبْرِيْزِ مَتَم فَبَفُوا بِعَد نَحَا

نفع ٤٧٥/٣.

(٥) نفع ١٤٢/١.

(٦) نفع ٣٧٤/١، وعن ابن فرناس انظر نفع ١٦٢/١ و ١٣٢/٣، ولغني، البقية رقم ١٢٤٧ ص ٤١٨، ولغني بروفنسال،

إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، ص ١٨٤، وكان في قرطبة مسجد يحمل اسم مسجد الزجاجيين، انظر ابن بشكوال، الصلة، ١٧٣ و

٦٠٠.

(٧) من المنسرح، نفع ٦١٦/٣، ومقدمة ديحا للطبعة الأوربية ٨٥/١.

(٨) من الحفيف، القلائد ٢٤٥. وفي قرطبة حتى يحمل اسم ربيع فرن برآل: نفع ٤٦٦/١، ولغني بروفنسال، إسبانيا الإسلامية

في القرن العاشر ص ٢٠٧ هامش ٣. للعلمد رين عمار وهما يتزهران في ضواحي إشبيلية مرًا قريباً من بعض الجيارين والجيارين،

انظر: نفع ٢٦٠/٤، وثمة مسجد في قرطبة كان يحمل اسم «مسجد القلايين» أي صناع أو باعة القلائد، جمع قلسوة، انظر: ابن

بشكوال، الصلة ٢٤٥، ولغني بروفنسال، المصدر السابق ص ١٠٩.

وكان حتى عمال الرق في قرطبة يقع قريبا من باب العطارين^(٩١)، ويطلق عليه اسم ربض الرقاقين، وفي القرن العاشر الميلادي راجت صناعة الورق مع تزايد استعماله، وبخاصة في شاطبة، ثم أخذت في الازدهار تدريجيا، ويصف ابن سارة في نهاية القرن الحادي عشر صناعة الورق بأنها شاقة وغير مريحة^(٩٢):

أما الوراقة فهي أنكذ حرفة أغصانها وثمارها الحرمان
شبهت صاحبها كإبرة خائض تكسو المرأة وجسمها عريان^(٩٣)

ويرى أن يحيى السرقسطي بعد أن اختبر مهنته شاعرا عاد إلى دكانه جزارا من جديد، فأمر ابن هود أمير سرقسطة وزيره اليهودي أبا الفضل بن حسداي أن يوبخه على ذلك، فكتب إليه: تركت الشعر من عدم الإصابة وملئت إلى التجارة والقصابة فرد عليه يحيى بقطعة من الشعر الجدي الساخر، يعتزق فيها، ولم يغير رأيه، وأبياته تستحق أن تأتي عليها كاملة، لأنه عرف كيف يرسم مهنته في صورة جذابة:

تعب على مألوف القصابة ومن لم يثر قنر الشيء عابه
ولو أحكمت منها بعض فن لما استبدلت منها بالحجاب
ولو ندرى بها كلفى ووجدى علمت علام أحتمل الصاب
وإنك لو طلعت على يوما وحول من بني كلب عصابه
طالك ما رأيت وقلت هذا هزبر صير الأوضام^(٩٤) غابة
وكم شهدت لنا كلب وهر فتكنا في بني العنزى فتكا
لم نلق عن الشورى حتى أقر الذعر فيهم والمهابة
ومن يفتروا منهم بامتناع مزجنا بالدم القاني لعابه
ويهرؤ واحد منأ لألف فلان إلى صور ومنا إيسابه
فيغلبهم وذاك من الغرابه^(٩٥)

ووصف الرصافي نساج حرير، ومع أنه من شعراء مطلع القرن الثاني عشر إلا أن أشعاره يمكن أن تعبر أيضا عن القرن الذي سبقه:

وبنفسى من لا أسخيه إلا بعض الإمامة وبعض إشارة

(٩١) ليني بروكسال، المصدر السابق ص ٢٠٧ رقم ٣.

(٩٢) لا يهتد الوراق فقط، إذا تحدثنا عن المهنة، يبيع الورق، وإذا بقوم أيضا بنسخ المخطوطات، أو يهد إلى من ينسخها لحسابه، ثم يبيعها، انظر: ابن عبدون، رسالة في الحسبة، في المجلة الآسيوية، أبريل - يونيو ١٩٣٤، ص ٢٩٨ وما بعدها. (٩٣) من الكامل، القلائد ٣٦٠.

(٩٤) عن هه الكلمة القديمة انظر: ابن عبدون، رسالة في الحسبة، في المجلة الآسيوية، أبريل - يونيو ١٩٣٤، ص ٢٩٨ وما بعدها، وج. س. كولبن. وثيقة من عربية الغرب العامية ص ٣١ ورقم ٢.

(٩٥) من الأوفر، نفع ١٥٢/٤، والأبيات الثلاثة الأخيرة، وبخاصة البيت الأخير الذي يتضمن الفعل برز، تجعلنا نحول إلى الاعتقاد بأن الشاعر يشير إلى مصارعة الثيران، ولو أن المعنى العام للأبيات لا يسمح لنا بأن نستخلص هذه النتيجة، وتوجد القطعة نفسها في زاد المسافر لصفوان بن عيسى، ص ٩٨ - ٩٩.

هو والظبي في المجال سواء ما استفاد الغزال منه استعاره
أغيد يمسك الحرير فيه مثل ما يمسك الغزال العراوه^(١٤)
وله أيضا يصف حائكا في أبيات يتغزل فيها:

غُرَيْلٌ لم تزل في الغزل جائلةً بنانه جولان الفكر في الغزل
جَدْلَانِ تلعب بالمحواك أنمله علي السدى لعب الأيام بالأمس
ضُمًّا يكفيه أو فحصا بأخصيه تخبط الظبي في أشراكه محتيل^(١٥)



وفيما بعد سوف نتحدث بمناسبة موسيقا والغناء والرقص، عن طبقة خاصة من الحرفيين الذين
يكونون مهنة خاصة تجمع بين استعود والمهرج والجهلوان^(١٦).

(١٤) من الحقيق، نفح ٤٨٦/٢.

(١٥) من البسيط، نفح ٢٠٣/٣.

(١٦) عن المهن الأخرى انظر الملاحظات المتصلة بها من وجهة نظر خاصة في رسالة في الحسبة لابن عيون، طبعة ليفي
بروفنسالي، المجلة الآسيوية أبريل - يوت ١٩٣٤، وبخاصة ص ٢٢٩ - ٢٥٢. ورسالة في الحسبة للسقطي طبعة ليفي بروفنسالي.
وقد ذكرنا فيما سبق ص ٢٢ - ٢٣ من هذا الكتاب قائمة بالحرفيين من الطبقة المتواضعة الذين كانوا يوجدون في جيش المهدي
المرغيل قبل معركة قنطيش، وأشنوا إلى الجورين والفحاميين والزبائين.

○ الفصل الثالث:

الحياة الخاصة

إذا كان الشعر الأندلسي لا يعكس إلا نادرا شخصية الإسباني المسلم في وجوده عاملا يبذل جهده، فهو على النقيض يظهره لنا في جوانب مثيرة ومتنوعة بمناسبة أحداث الحياة الرئيسية.



لقد وقفت النصوص الشعرية عند حد تسجيل الميلاد، وبخاصة مولد الذكور كحدث سعيد، في عبارات تنضح بالمديح، وخالية من المواد الوثائقية، ولكنها على النقيض تخبرنا بملومات مفصلة عن الاحتياطات التي تتخذ لحماية الطفل الرضيع، والصبي الصغير، والفلان اليافع، من التأثيرات الضارة.

ونعلم من ابن رزين في بيت عن ابن ليون أنهم كانوا يضعون التمام للأطفال بعد فطامهم: ذاك الوفي الذي نبطت قوائمُه عند الفطام على جِلم ابن سيرين^(١)

ويؤكد ابن زيدون مثل هذا العمل:

طالبا نافر الهوى منه غرا لم يظل عهد جسدو بالتّميم^(٢)

وقد استخدم الأندلسيون تمام من السّج^(٣) لتمنع عنهم الحسد، وكان استخدام التمام والتعاريف يستمر حتى بعد مرحلة الطفولة، كما تشهد بذلك قصائد الشعراء، فقد كتب المعصم عند وفاة إحدى حَفَواته:

لما غدا القلب مفجوعا بأسوده وفضي كل ختم من عزائمه
ركبت ظهر جوادى كئ أسليه وقلت للسيف كن لي من تائمه^(٤)
وبمناسبة المختار، وهو أول حدث يستهدف الحفاظ على حياة المسلم بطريقة ملموسة، وريّا تأثر

(١) من البسيط الحلة السراء، في أبحاث ط ١ ص ٥٢٠، وابن حيرين مشهور بتقواه وزهده ومهارته في تفسير الأحلام، انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٤٤٦/٢.

● ونقله عن النخبة ١٢٣/٢، وانظر أيضا القلائد ٥٤ (الترجم).

(٢) من الحفظة الديوان ص ٣٧٩.

(٣) انظر: أوسا، قائمة السج ص ٥، طبقا له أبو عبيد ٣٢/١، وفرنانديس، العاج والسج الإسباني، ص ٢٣١، وانظر فيما سبق ص ١٦٠ من هذا الكتاب. وفي مرسى شت بول قريبا من ألتس حجر يعرف بهجر الذهب إذا وضع على ذهب أوسع لم يكن له عدوان، وفارق طبعه من الفساد الرضى للطار رقم ٢٦ وما بعدها، ص ٣٩ - ٣٩.

(٤) من البسيط القلائد ٤٩، والحلة ٨٤/٢.

● في القلائد إحدى حَفَواته، روى الحلة إحيى كرائمه (الترجم).

الأندلسيون في مظاهر الاحتفال به بطقوس التعديد المسيحية، وذلك بإقامة احتفال كبير فخيم تشترك فيه كل طبقات المجتمع. وكانت هذه الحفلات تحمل اسم «إعذار» أو «صنيع»^(٥) أو «طهور» وهي احتفالات كانت معروفة في الشرقي أيضا، ولكنها في إسبانيا كانت تنسم بالفخامة والروعة. وحفلات الإعذار التي أقامها المؤمنون بن ذى النون أمير طليطلة بمناسبة ختان حفيده يحيى^(٦) نالت شهرة واسعة توازي شهرة حفل عرس بوران^(٧)، واعتاد الناس في الغرب الإسلامي أن يُشبهوا الحفلات الكبيرة تصحبها ولانم فحيمة بإعذار ذى النون^(٨)، أو أن يقال: كطهور ابن ذى النون^(٩).

أما الإعذار الذي أقامه المعتضد ومات أثناءه أمراء البربر غداة مغنوقين في حمام، فقد نال شهرة من نوع آخر^(١٠).

وفي الأبيات التالية يثنى أبو بكر الجزار الرقسطي والد طفل تم طهوره:
طهرته وهو المطهر إذ نشأ لله فعل منك راق كماله
فازداد بالتطهر حشا مثل ما يزداد ضوء الشمع عند ذباله^(١١)
وكان الزواج الحدث الثاني الذي يحتفي به الإنسان المسلمون احتفالا شديدا، وإذا كان الشعر لا يتحدثنا عن الاحتفالات بهذه الدقيق^(١٢)، فهو على النقيض كثيرا ما يشير إلى «زفاف العروس» وخروجها من بيت أهلها إلى بيت زوجها^(١٣)، وإلى ثوبها الذي ترتديه^(١٤)، ومشهد الحقل حيث تكون مهبط إعجاب المدعوين^(١٥).

ويروى لنا ابن زيدون بمناسبة زواج المعتضد من ابنة مجاهد أمير دانية، أن الحفلات استمرت أسبوعا كاملا، وأن الزوج لم يظهر أمام المدعوين طوال هذه الأيام:

(٥) نصح ٥٣٠/١.

(٦) للنخبة ١٢٦/٤ وما بعدها، وترجمته في هيسبريس ١٩٣١ المجلد ١٢ ص ٣٩.

(٧) عن بوران انظر الفلمش رقم ١٢ فيما يلي.

(٨) نصح ٤٤٠/١.

(٩) أنظر الرياض، طبعة تونس ١٠٧٢.

(١٠) البيان ٢٧١/٣، وابن الخطيب أعمال الأعلام ١٥٦، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٥٧.

(١١) من الكامل، ابن ليون، مع لحر، لوزة ٥٥ ظهر.

(١٢) لدينا نص يصف حفلة عرس لمستن ياقه أمير سرقسطة حين تزوج من ابنة أبي بكر بن عبد العزيز وزير بلسية، فاحتفل أبوه المؤن احتفالا بلغ من الهاء حدا لا يقرن. وقد تولى الوزير الإسرائيلي أبو الفضل بن حسداي تحرير وقائع الدعوة إلى جميع أعوان الأندلس من الأبطال «لشجعوا» والكتاب القضاة، والحجاب والأمراء، ولذين لبوا مسرعين في جماعات إلى بلاط سرقسطة، وتوالى وقودهم بلا انقطاع. لم تذكر هناك عرسة للاستسلام للثوم في أية لحظة. وفاقحت حفلة المؤن، والد الرئيس في جانبها حفلة الخليفة العباسي المأمون في زواجه من بوران أمة الحسن بن سهل. فقد التقت فيها كل الباهج والمرات الحقيقية، وكل شيء يشع تراء، وكانت مطرا من المتع، والمباريات مفتوحة أمام كل أولئك الذين يريدون أن يستنفدوا كل معهم. اعتلائه ١٦٧ (ونقلها دوزي في أبيات ط ١ ص ٤٦٢، و ص ٢٨٤ - ١٨٥، وعه نقلها نصح ٦٤١/١).

(١٣) انظر فيما سبق ص ٦٤ عن هذه الكتاب.

(١٤) انظر فيما سبق ص ١٨٦ من هذا الكتاب، وص ٢٨٦ عما سوف يأتي.

(١٥) انظر فيما سبق ص ١٠٩ وص ١٤٨ من هذا الكتاب، البيت الرابع من القطعة الأولى.

أَسْبَغُ أَتَمُّ مُحَدِّثٌ لِي وَخَشَنَةٌ عَلِمًا بِأَنِّي فِيهِ لَسْتُ أَرَاكَ^(١٦)
وأخيرا فإن الشعر لم يصمت حتى عن الشجار الذي يقع بين الزوجين^(١٧).

ورغم أن الحياة محروسة بالتمائم والتعاوين أن تنجو من الأمراض، ولكن الشعر خوفا من تأثير
السحر الذي يتسبب إلى «الكتابة» أو سرد الجمل المسجوعة، لم يهتم بالحديث عن كل ما يظن حول
انحطاط الرجل أو ما يشينه جسمانيا^(١٨)، ومع ذلك فنحن نرى الشاعر ينجي صديقا، أو راعيا له،
بالشفاء من مرضه، ونجى التهنة للمريض عادة عند تناول العلاج من قَصْد أو شراب. وقد هنا ابن
زيدون الأمير المعتضد بالفصد، ودعاه إلى معاقرة الشراب ومباشرة الذات:

لِيَهْنِكَ أَنْ أَتَمَدَّتْ عَاقِبَةُ الْفَصْدِ فَلِلَّهِ مِنَّا أَتَجَلُّ الشُّكْرُ وَالْحَمْدُ
وَبَا عَجَبًا مِنْ أَنْ يَهْضَعَ فَاصِدٌ تَلْقِيَتُهُ لَمْ يَنْصَرَفْ نَسَائِي الْحَمْدُ
وَمِنْ يُمَوِّلُ قَصْدِي يَنَّاكَ كَيْفَ لَمْ يَهْلِكْ عُجَابُ الْبَحْرِ فِي مَعْظَرِ الْمَدِّ
لَمْ تَقْشُرْ الشَّمْسُ الْمُنِيرُ شِعَاعَهَا فَيُخْطِئُ خِيَا رَامَهُ سَنَنْ الْقَصْدِ^(١٩)

وسوف نتاح لنا الفرصة لنشير عند الحديث عن النبيذ أن أمراض الكبد كانت تعالج بواسطة
المعتق منه^(٢٠).



أما آخر حدث في الحياة بكل ما يمكن أن يؤدي إليه من نتائج في المجتمع، فقد قدّم لنا عنه
الشعر الكثير من المعلومات، دون شك، وثمة قصيدة جميلة لأبي عامر بن شهيد عن وفاة القاضي
ابن ذكوان تشير إلى عادة حمل النعش على الأكتاف:

وَلَبَّا أَيْ إِلَّا التَّحَسُّلُ رَاتِحًا مِنْحَنَاءُ أَعْنَاقُ الْكِرَامِ رَكَائِيَا
يَسِيرُ بِهِ النُّعْشُ الْأَعَزُّ وَحَوْلَهُ أَبَاعَدُ كَانُوا لِلْمَصَابِ أَقَارِيَا
عَلَيْهِ عَفِيفٌ لِلْمَلَايِكَةِ أَقْبَلَتْ تَصَافِحُ شَيْخًا ذَاكَرَ اللَّهِ تَائِيَا
تَحَالُ لَفِيفُ النَّاسِ حَوْلَ ضَرْبِهِ خَلِبَطُ قَطْلًا وَآتَى الشَّرِيعَةَ هَارِيَا^(٢١)

(١٦) من التكميل، ابن زيدون الديوان ص ٤٤٣.

(١٧) انظر فيما سبق ص ٩٧ من هذا الكتاب، يجب أن يقدم العريس للزوجة صداقا، ولكن مؤرخا ذكر لنا أنه إزاء وفرة
الموارد المسيحية ورخصهن، كان على المسلمين لكي يزوجوا بناتهم أن يتناقصوا في الترف عند إعداد الجهان وكانت متطلبات
العروس تتكون من الثياب والملح والدور، انظر: المراكشي، المعجب ٣٨، والترجمة ص ٣٩.

(١٨) لها بعد سترى كيف يصف لنا ابن شهيد مرض الفالج وقد ألزمه فراش مرضه.

(١٩) من الطويل، ابن زيدون، الديوان ٤٩٩، ولمعرفة الفرق بين القصد والمجاعة انظر: لفي مرونسال، رساله في الحسية لابن
عبدون، في المصدر السابق ص ٢٦٢ - ٢٨٦.

(٢٠) انظر فيما بعد ص ٢٧٢، الهامش ٣٤ من هذا الكتاب.

(٢١) من الطويل، المطمح ١٩٦، ونقح ٣٦٠/٣، وقد وصف ابن قزمان دفنه، كأي وثني:

رَأَى مَا مَتَّ مِنْعَبِي فِي الدَّفْنِ أَنْ تَرَقَّدَ بَيْنَ الْجِسْمَيْنِ
رَتَضَمُوا الْوَرَقَ عَلَى كَفِّ وَفِي رَأْسِي عِمَامَةٌ مِنْ زَرْجُونِ

الديوان، القطعة ٩٠، ص ٤٦٦.

وإذا كان ابن شهيد قد ذكر نموع المجموع الحزينة فهو لم يشر إلى عادة الحزاني يلطمون وجوههم، وهي عادة يحرّمها الإسلام، ومع ذلك فهي شائعة على نحو واسع بين شتى طبقات المجتمع الإسلامي^(٢٢)، وأشار إليها المعتمد في قصيدته التي يبكى فيها ولديه العزيزين: المأمون والراضي، حين ذهب ضحية هجوم المرابطين:

يقولون صبراً لا سبيلَ إلى الصبر سأبكي وأبكي ما تطاول في عمري
هوى الكوكبان الفتح تم شقيقه يربد مهلي عند الكواكب من خبر
تبرى زهره في مائتم تمل ليلة تمش لها وسطه صفحة البدر
ينحن على نجمين، أنكلت ذا وذا وصبر ما للقلب في الصبر من عذر^(٢٣)

ويشير ابن عبد الصمد في قصيدة له يرثى فيها المعتمد إلى عادة أخرى شرفية وجاهلية: شقوا الثياب وجدّدوا حزنكم وصلوا التلّيف يا بني عباده^(٢٤) وهناك أبيات توجه بها ابن شهيد قبل موته إلى صديق ابن حزم يمكن أن نستنتج منها أن أصدقاء المتوفى كانوا يجتمعون حول قبره بعد دفنه ويقومون بتأبينه:

فلا تنس تأبيني إذا ما فقدتني وذاكار أيامي وفضل خلائقي^(٢٥)

وفيما يتصل بالعادات المتعلقة بسوت ثمة موضوع استرعى انتباه دوزي، ولكن المستشرق الهولندي الكبير لم ينته إلى نتائج حاسمة^(٢٦). ويستحق أن يعود إليه ثانية، وأن نجد له جواباً في ضوء الوثائق الجديدة التي ظهرت، وهو يتصل باللون الذي كان يستخدمه شعارا للحزن في إسبانيا الإسلامية.

يمكن القول بعامة إن اللون الأسود ارتبط بفكرة الحزن والحداد، على حين كان اللون الأبيض يعبر عن الفرح والسعادة، وحين اضطر ابن زيدون أن ينفي نفسه عن قرطبة كتب إلى ولادة:

ننتم وبنا، فما ابتلت جرائننا شوقاً إليكم، ولا جفت مآقينا
نكاد - حين تاجيكم ضائرتنا - يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا، فصدت سودا، وكانت بكم بيضا لآلينا^(٢٧)

وقد قال أبو محجن الثقفى قبل ابن ديماء بزمان:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمه رزى عظمى بعد موتى صروفها
ولا تدفني بالآلة قلبي خاف إذا مسامت ألا أنوفها

وهي من الطويل، الديوان ط، أبيه، في د ص ١٤، ونولدكي، Delectus، ص ٢٦، والمسعودي، مروج الذهب ٢١٨/٤ (٢٢) السقطي، رسالة في الحسبة، ص ٦٨، المامش ٦٨.

(٢٣) من الطويل، القلائد ١٢، النخبة ٦٩/٢، وعنها في «خو عباده» ٣١٥/١.

(٢٤) من الكامل، أعمال الأعلام ١٦٩، وانظر فيما يأتي ص ٣١٥ من هذا الكتاب، البيت الأخير من رقم ٢٦. (٢٥) نظر فيما بعد ص ٤٠٨ - ٤٠٩ من هذا الكتاب، ومن المؤسف أن النصوص لا تذكر لنا كم من الوقت مضي بين الوفاة والتأبين ومع ذلك لا تظن أن هذا الوقت يتجاوز أربعين يوماً، كما هو في أيامنا هذه في المشرق في سفلة التأبين.

(٢٦) انظر: دوزي، أبحاث ط ١ ص ٤٥ - ١٥٠ و ٦٣٠ - ٣٣٤، والمعجم المفصل بأسماء أملايس عند العرب ١٩ - ٢٠ و ٤٣٥ - ٤٣٦.

(٢٧) من البسيط، الديوان ١٤٢، وكوره بن زيدون ص ٧١، والتفتتدي، رسالة في فننل الأندلس في نفع ١٩١/٣، وترجمة غرسة غوث لها ص ٥١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٣٥.

ولكن يدهشنا أن نلتقى بالعديد من الشواهد التي تبرهن على أن اللون الأبيض كان شعار الحزن في إسبانيا الإسلامية، في عصور ومناطق سوف نحددها فيما بعد، وإذا تركنا جانباً أبياتا لابن هاني لا نستطيع أن نحدّد لها مكاناً، وهل يقصد بها إسبانيا أم بلاد البربر الشرقية^(٢٨)، فإن أقدم الشواهد التي حصلنا عليها من ابن حيّان المؤرخ، وفيها يتحدث عن حفل تولية الحكم الثاني بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر في ٣ من رمضان ٣٥٠ هـ = ١٥ من أكتوبر ٩٦١ م، في مدينة الزهراء، حيث اصطف الفتيان على جانبي المجلس حيث يجلس الحكم، «عليهم الظواهر البيض شعار الحزن»^(٢٩).

وعادة ارتداء الملابس البيضاء بمناسبة الحزن والحداد يشهد على وجودها في القرن العاشر الميلادي بيت من الشعر لأبي عمر أحمد بن فرج، [وقيل لأخيه عبدالله]:

ونرجس تظرف أجفائه كمقلة قد دبّ فيها الوسن
كانه من صُفرة عاشق يلبس للبين ثياب الحزن^(٣٠)

ويكرر أبو عثمان سعيد بن فرج الجبّاني الفكرة نفسها:

لسّ البياض لصفرة في وجهه صفة كما وُصفَ الحزينُ الفاقد^(٣١)

وتكثر الشواهد في القرن الحادي عشر، ويروى ابن بسام أن الشاعر ابن بُرد الأصغر رأى غلاماً يلبس أبيض «على عادة أهل أفقنا في لباس البياض عند الحزن» فقال:

أجلّ جفونك في ذا المنظر الحسن ولّم على النّار منه حادث الزّمن
واعجب لضدين في مرأ قد جمعا: شخص السّرويه عليه لبسة الحزن^(٣٢)

ويقول أبو بكر بن القيطورث في الموضوع نفسه بمناسبة وفاة زوجته:

وخالف القلب فيك العين من كمد فاسودّ بالغم وابيضّت من الحزن^(٣٣)

ويقول أبو الحسن الحصري (وفي رواية ابن بسام أنه الحلواني، تلميذ أبي علي بن رشبِق) والذي لم يكن قد وطئ أرض إسبانيا فيما يبدو بمناسبة الشب:

لئن كان البياض لباس حزن بأندلس فذاك من الصواب
ألم ترق ليست بياض شيبى لأنّ قد حزنت على الشباب^(٣٤)

(٢٨) من الكامل، الديوان، طبعه زاهد على ص ١٠٧، الأبيات ٦ - ١١، وطبعة بيروت ص ٢٤، ونفع ٤٤٣/٣، وعن معنى هذه الأبيات انظر: نفع الطليح، طبعه أوربا، لمقدمة، ج ٢ ص ١٨ - ١٩.

(٢٩) نفع ٣٨٧/٣، ودوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس لبرية، ص ٢٠، ولفي بروفيساله إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، ص ٥٨.

(٣٠) من لسريع، أبو الوليد الحميري، البديع في وصف اربيع، ص ٩٧، والذخيرة ٥٠٦/١، ويعلق أبو الوليد (توفي نحو ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) على هذه الأبيات بالكلمات التالية: «حزى في ثياب الحزن عن مذهب الأندلس إذ ثياب حزنهم بيض».

(٣١) من الكامل، البديع ص ٧١.

(٣٢) من البسيط، الفخيرة ٥٠٦/١.

(٣٣) القلائد ١٥٤.

(٣٤) من الوافر، نفع ١٠٩/٤، وابن دحية، المطرب، ٨٠، والذخيرة ٥٠٧/١، وخرسية غوث في قصائد أندلسية ص ١٦٩.

القطعة ١٢٣.

وشاعر مجهول لا نعرف لسوء لحظ تاريخه، ولكن يبدو أنه مغربي، وكان معاصرا لأبي الحسن
الخصري، عبر عن الفكرة نفسها، وفي عادة أهل الأندلس في لباس البياض حزنا على موتاهم، مع أن
أهل المشرق يلبسون فيه السواد:

أَلَا يَا أَهْلَ أُنْدَلُسٍ فُطِئْتُمْ بِطُفْكُمُ إِلَى أَمْرِ عَجِيبٍ
لَيْسْتُمْ فِي مَأْتَمِكُمْ بِيَاضًا فَحَتَمْتُمْ مِنْهُ فِي زَيْ غَرِيبٍ
صَدَقْتُمْ فَمَا لِبَيَاضِ لِبَاسٍ حُزْنٍ وَهَاجُزُنْ أَشَدُّ مِنَ الْمَشِيبِ^(٣٥)

جميع الأشعار التي ذكرناها تشير بعامة إلى الأندلس، أي جنوب شبه الجزيرة، فيه يبدو، وإلى
قرطبة بخاصة، ومع ذلك فعادة ارتداء الملابس البيضاء كانت تجري في أرجاء أيباض، وفي
سرقسطة، يروي ابن بسام: «وكان سرقسطة شيخ يكى بأبي عبد الصمد، من شعراء ذلك العصر،
وأراه من سلف أبي بحر، أخيرني ذو الوزانين أبو صهر بن عهودس أنه اجتمع به في ذلك الفجر،
ورآه قد لبس بياضا في جنازة الكاتب أبي عمر بن أفلّاس وقد حضرها المقتدر بن هود»^(٣٦).
ولكن ذكر هذا الحدث في بعض المنجزات فحسب، حتى أنا بصدد شيء غير عادي، ومع ذلك فإن
أديبا من سرقسطة، هو ابن شاطر السرقسطي يقول:

قَدْ كُنْتُ لَا أَدْرِي لَأَيِّ عِلَّةٍ صَارَ الْبَيَاضُ لِبَاسَ كُلِّ مَصَابٍ
حَقَّ كِسَافِي الدَّهْرُ سَخَقَ مَلَاءُ بِيَضَاءٍ مِنْ شَيْبِي لَفَقْدِ نَبَاهٍ
فَبِذَا تَبَيَّنَ لِي إِصَابَةٌ مِنْ رَأْيٍ نَسَّ الْبَيَاضَ عَلَى نَوَى الْأَحْيَابِ^(٣٧)

لكن لا شيء على الإطلاق يجمعنا يؤكد أن الشاعر لاحظ هذه العادة في سرقسطة، والآيات التي
سوف نذكرها فيما بعد تبرهن أن اتخذ السواد حزنا كان أيضا أمرا شائعا جدا، وربما كان أكثر من
استخدام البياض.

وفي المرية كان البياض ليس احتفالات والمهرجانات، وبالتالي كان السواد هو شعار الحزن والحداد.
يقول أبو الوليد النحلي:

وَمِنْ النَّاسِ كُلُّهُمْ نَحَامًا وَأَمْشَى بَيْنَهُمْ وَحْدَى غُرَابًا^(٣٨)

ويقول أبو الحسن بن الحاج من أغاني لورقة، وأقاربه أغلب أيامه في المرية بعد أن حاول الإقامة إلى
جانب المعتمد في إشبيلية، عن علام جميل يدعى أبو جعفر لحظة وفاته:

أَيَا جَعْفَرِ مَاتَ فَيَاكَ الْجَمَالَ سَاطَهَرَ خَدُّكَ لِبَسَ الْحَدَادِ
وَقَدْ كَانَ يَنْبُتُ زَهْرُ الرِّيَاضِ نَاصِبِحَ يَنْبُتُ شَوْكُ الْقَصَادِ
أَبْنُ لِي مَتَى كَانَ يَدْرُ السَّيَا يَدْرُكَ بِالْكُونِ أَوْ بِالْفَسَادِ

(٣٥) من الواو، نفع ٤٤٠/٣، وروى أبحاث ط ١ ص ١٤٨.

(٣٦) ابن بسام، الذخيرة ١١٨/٢، وروى، معجم اللباس ٤٢٥.

(٣٧) من الكامل، نفع ١٠٩/٤، وروى، معجم اللباس ٤٤٨.

(٣٨) من الواو، القلائد ٤٨، الذخيرة ٧٣٦/١، والحلة ١١٠/٢.

وهل كنت في الملك من عيد شمس فأخني عليك ظهور السواد^(٣٩)
ولم يرَ المُنْقِل، وعاش كل حياته تقريبا في غرناطة، في حاشية وزيري بنى زيري اليهوديين،
غير السواد شعارا للحداد أبدا:

بِتْنَا كَأَنَّ مَدَادَ اللَّيْلِ شَمَلْتَنَا حتى بدا الصُّبْحُ في ثوبٍ سَحُولِي^(٤٠)
وبمناسبة الحريق الذي شبَّ في قرمونة، وكان الظافرين المعتضد قد انتهى من الاستيلاء
عليها، فأنشأ ابن عمار قصيدة يمدح بها الأمير:

أَطْلُ على قرمونة متبلِّجا مع انصبح حتى قيل كانا على وَعْدٍ
فأرملها بالسيف ثم أعارها من النارِ أثوابَ الحدادِ على القَدِ^(٤١)
وقد توجه ابن جاح إلى الأمير نفسه بقصيدة أفسحت أمامه لوجودتها الطريق إلى دخول البلاط،
وفيها أيضا رأى في سواد الليل لون الحزن:

ولربَّ خَرْقٍ قد قَطَعْتُ نِياطُهُ والليل يرْفُلُ في ثياب حدادٍ^(٤٢)
وبعد أن نفى المعتمد إلى أغمات بدت السماء وكأنها تشارك الناس أحزانهم، هكذا يراها ابن
اللبنانة:

وَمُرَّقَى ثوبُ البرقي واكتسبَ الدجى حدادا وقامت أنجُمُ الليلِ مائعا^(٤٣)
ويقول ابن خفاجة، وهو أصلا من جزيرة شقر، في رسالة عزاء:

«كتاب قد أظلم بياضه في عيني وسواده، حتى نساوى طرسه ومداذه. فياله كتابا ملئ اكتئابا،
وقرطاسا ليس بدل الحداد أنفاسا! فلو أن الجماد أمكنه البكاء لبكى، وأعلن بالويل وشكا»^(٤٤).

ويقول عن غلام جميل قد خط عذاره:

واقى بنا وله صحيفةٌ صَنَحِي جعلَ العذارُ بها يسيلُ مِدَادَا
مُتَجَهِّمًا بُكْلَ الثَّبابِ وَإِنَّمَا لَيْسَ العَذَارُ على الثَّياب حدادا^(٤٥)

وطبقا لابن حزم كان السواد شعار الحزن في قرطبة، ويصرح بذلك في أبيات له يعلّل فيها لماذا
كان يفضل الشقراوات من النساء:

وَأَبْعَدُ خَلْقِي إِلَهِي مِنْ كُلِّ حَكِيمَةٍ مُفْضِلُ جَرْمٍ فَاحِرٍ اللَّوْنِ مَسْوَدُ
بِهِ وَصَفَتِ الْوَانِ أَهْلَ جَهَنَّمَ وَلَهْسَةٌ بِإِكِّ مَيِّكَلٍ الْأَهْلِ مَحْنَدُ

(٣٩) من المقارب، القلائد ١٤٤، ونفع ١٠٢/٤.

(٤٠) من البسيط، الذخيرة ٧٥٦/١، وسحول مدينة في اليمن.

(٤١) من الطويل، القلائد ٨٨.

(٤٢) من الكامل، نفع ٢٤٤/٤، ونقلها عنه بنو هبل ٢٣٠/٢.

(٤٣) من الطويل، الذخيرة ٧٨/٢، ونقلها دوزي في «بنو عباد» ٣٢٠/١ و ٣٧١.

(٤٤) بن خفاجة، الديوان، القطعة ٣٦١، ص ٣٣١.

(٤٥) من الكامل، الديوان، القطعة ٩٨، ص ١٤٢، والنويري، نهاية الأرب ٨٥/٢.

ومنذ لاحت الرايات سوداً نيقنت نفوس الوري ال سبيل إلى الرشيد^(٤٦)
وفي القرن الثاني عشر نلتقي بحمده، أو حمولة. بنت زياد المؤدب، تقول في وصفها لوادي
أش:

إذا سدلّت ذوائبها عليها رأيت البدر في جُحّ اندآدى
كان الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالحداد^(٤٧)

ماذا يمكن أن نستنتج من كل الإشارات التي سبقت؟ إن عادة لبس البياض حزناً، وفي الحداد
لم يكن تقليداً عاماً بين الأندلسيين كما يمكن أن نفهم من بعض النصوص، ونخطئ على أبة حال
حتى. عندما نفهم من لفظ أندلسيين مدلولاً محدداً يعنى سكان الجنوب من شبه الجزيرة
Amdalucia، لأننا وجدنا في قرطبة بخاصة، حيث تبدو هذه العادة متأصلة، شوهده ونصوصاً
متناقضة، وموضع خلاف فيما يتصل بهذا المعنى أو ذاك. حتى في عصر الأمويين الذين اتخذوا من
اللون الأبيض شعاراً قومياً معارضة للعباسيين الذين كانوا يستخدمون الرايات السوداء^(٤٨)، وتعود
كنؤكد أنه لا يوجد ما يسمح لنا أن نصق هذه الفكرة كيف استطاع زرياب وقد وصل إلى إسبانيا
مع موت الحكم الأول وتولية عبد الرحمن الثاني، أي في عام ٢٠٧ هـ = ٨٢٢ م، أن يجعل من
ارتداء الملابس البيضاء في الصيف «مودة» إذا كان هذا اللون شعار الحداد ومخصصاً للحزن؟
وفيما يتصل بالقرن العاشر فإن التناقض نفسه واضح أيضاً عندما نوازن بين المعلومة التي ذكرناها
فيما سبق في عام ٣٥٠ هـ - ٩٦١ م بمناسبة الفتيان الذين كانوا يرتدون «الظواهر البيضاء» شعار
الحزن، والعادة التي سجلها كتاب الأنواء Calendario de Córdoba، ففي العام نفسه ٩٦١ م
أوصى بتغيير الملابس البيضاء في شهر أكتوبر بملابس أخرى من الصوف بسبب البرد الذي أخذ
يشدد تدريجاً في هذا الفصل من العام.

هل يمكن أن نقبل أن اتخاذ البياض شعاراً للحزن والحداد كانت تقوم به طبقات اجتماعية معينة
فحسب في المجتمع الأندلسي، على حين أن طبقات أخرى كانت ترتدى السواد؟ يبدو قريباً من
المستحيل تحديد أي الطبقات كان يستخدم هذا وأيه كان يستخدم ذلك. ربما كان استخدام البياض
يجرى فقط في نطاق الأسرة المالكة، وحيث يمكن أن نقرر أن هذه العادة اختفت في القرن الحادي
عشر تحت حكم ملوك الطوائف^(٤٩).

(٤٦) من الطويل ابن حزم، طوق الخمة ص ٥٠، وترجمة نيكل ٤١، وطبعة برشيه ٧٦.

(٤٧) من الوافر، نفع ٢٨٨/٤، وبمناسبة المصريين أمراء غرناطة يقول د. كوتريراس: «لا يفرون لون ملابسهم الأحمر
إلا في حالة الحزن، فيصبح أسود مثل المسيحيين». دراسات وصفية ص ٢٦٤.

(٤٨) اتخذ العباسيون خلال حكم برمجة في المشرق اللون الأسود شعاراً إشارة إلى الحزن بسبب موت شهدائهم الذين ينتمون
إلى أسرة الرسول، انظر: دوزي، أبحاث ص ١ ص ١٥٠، وعند الفقرة في معجم الملابس ص ١٩.

وكان عبد الرحمن الداخل في إسبانيا أول من اتخذ السواد فجاءة شعاراً له، حين علق علامة على سهم في أحد المراكب. انظر
تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ١ ص ٢١٩ ورقم ٥.

(٤٩) جدير بالذكر أن تشير أن فكر، نسود تأتي عند الشعراء غالباً مرتبطة بكلمة «سبح»، ونعرف أن هذه الامة كانت متوقفة
في إسبانيا، ولا بد أن الأسماء التي في لون السبح كانت شائعة جداً. انظر ج. فرانديس، العلاج والسبح في إسبانيا، ص ٢٢٧ - ٢٦٤.
ومن المحتمل أنها لم تكن تلبس إلا في الأعراس. وانظر: بنو عاد ٣٢/١ رقم ١٠٧.

لم يكن الشعر يكتفى بملاحظة الأحداث البارزة في الحياة فحسب، وإنما كان يحددنا أيضًا عن الحفلات والبهجة التي كانت تتميز بها كل مرحلة من مراحل العام المختلفة، ويشارك فيها كل سكان إسبانيا تقريبًا، بلا تمييز في العنصر أو الدين. وبعض هذه الحفلات ذو أصول إسلامية، وبعضها مسيحي أو فارسي أخذ بالكاد طابعًا إسلاميًا، وأورد لنا أبو بكر بن القوطية في أبيات توجه بها إلى الوزير أبي عامر بن مسلمة ذكر لنا فيها الأعياد الثلاثة الكبرى في إسبانيا الإسلامية منها:

دمت للمهرجان والعيد والنيـ ... رورز إلفًا من الحوادث سالم^(٥٠)

وفهم ابن القوطية من العيد عيد الفطر حيث ينتهي صوم رمضان، وفي هذه المناسبة يتوجه الشعراء بالتهنئة إلى رعاتهم وحماة الأدب والشعر والفن، وهو تقليد نراه في جميع البلاد الإسلامية، ويبدو لنا من العبث أن نتوقف عنده^(٥١).



أما مهرجان النيروز، وهو فارسي الأصل^(٥٢) فلا يقع في أول شهر مارس كما هو الحال في المشرق، وإنما في الأيام الأولى من شهر يناير^(٥٣)، ويمكن أن يترج في إسبانيا الإسلامية مع احتفال رأس السنة، أو حتى مع عيد الغطاس، ويعتبر الأندلسيون الليلة التي تسبق عيد النيروز أنسب وقت للدخلة بالمرس^(٥٤)، ويقدم عادة في يوم الاحتفال، كما كان عليه الحال في المشرق في أيام الإسلام الأولى^(٥٥) الحلوى التي تشبه، دون أدنى شك محكن، الحلوى التي تقدم للملوك، ولكنها خالية من حبات الفول مخبأة في العجين لاختيار ملك. وكانت هذه الحلوى تصنع في شكل مدائن، ويقال عنها إنها مدائن من العجين، ووصفها لنا أبو عمران موسى الطبراني حين رأى صورة مدينة فأعجبه، فقال ملتزمًا:

مدينة مسورة تجار فيها السحرة
لم تبنا إلا يدا عنزة أو مخدره
بدت عروسًا تجتلى من تومك^(٥٦) مزعفره

(٥٠) من الخفيف، أبو الوليد المصري، البلخ ص ١٠٣.

(٥١) انظر فيما سبق ص ٢٠٣ من هذا الكتاب بمناسبة الهلال.

(٥٢) عن النيروز أو النوروز انظر: دائرة المعارف الإسلامية ١٤٩/٣ والمصادر التي هناك، وكتب المادة ليفي برونسال، والنويري، نهاية الأرب ١/١٧٨، ودوزي، معجم اللباس ٢٧٠ ولكن الدكتور هـ. بيج رينو يرفض هذا التاريخ في B. E. A. العدد ١٥، نوفمبر - ديسمبر ١٩٤٣، ص ١٤٣.

(٥٣) أول يناير، طبقًا لتقويم مرطنة عام ١٩٦١ ص ١٨، ولكن هذا التاريخ رفضه هـ. بيج. رينو في B.E.A. العدد ١٥ (نوفمبر - ديسمبر ١٩٤٣) ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٥٤) نفتح ٦٢/٢ أوربا.

(٥٥) قدمت الحلوى إلى علي رابع الخلفاء الراشدين في يوم النيروز انظر: المصري، زهر الآداب ١٤٠/٤، وفتح الله، المواهب ١٥٣/٢.

(٥٦) الدررملك دقيق من أفسر الأنواع. انظر: دوزي، ملحق المعاجم ١/٤٣٧، والسقطي، رسالة في الحسبة، ص ٢٨ من المعجم. وفي المشرق استخدم الأخطل الشاعر الكلمة بنفس المعنى في حوار مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، انظر: الأغانى، طبعة ساسي ١٩٦٧/٧، وطبعة القاهرة الوطنية ٢٩٠/٨ ورقم ٣.

وصالها ففاتيح إلى البنان العشرة^(٥٧)

واهتم الشعراء بالمادة التي تصنع منها الحلوى في هذه المهرجانات^(٥٨) فوصفوها لذلك وقدموا لنا معلومات لا بأس بها عن الذين يقومون بإعدادها، وهن فتيات المنزل، وحين يصنعن المعجينة من أرق أنواع الدقيق وأنظفها، وبعد أن تتضج الحلوى يقطعنها بالأيدي والأصابع دون استخدام السكاكين.

وفي عيد النيروز كانوا يقدمون الهدايا القيمة، وقد أهدى الشاعر ابن عمار ملابس من الحرير البحري، أو من صوف البحر كما كان يُسمى، وكان يُعتبر من أندر الأقمشة في تلك الأيام^(٥٩). وكان الشعراء ينتهزون الفرصة فيهنئون كبار الشخصيات شعراً^(٦٠).

أما عيد المهرجان، وهو كعيد النيروز من أصل فارسي^(٦١) فلم يكونوا يحتفلون به في شهر سبتمبر من كل عام كما عليه الحال في المشرق، وإنما كان يجري الاحتفال به في ٢٤ من شهر يونية، أي أنه يمتد في إسبانيا مختلطاً مع عيد سان خوان أو العنصرة^(٦٢). وقد تغنى الشاعر حسان بن مالك بن أبي عتبة خفتح الزهور في عيد المهرجان:

أرى المهرجان قد ستبشرا قداءة بكى المزن واستعبرا
وسربلت الأرض أمواتها وحللت السندس الأخضر
وهز الرياح صنايرها فضوعت المسك والمنبر
تهادى به الناس الطافة وسمى المقل به المكرا^(٦٣)

وقد رأينا فيما سبق بمناسبة المهرجان أو عيد تحول الشمس في الصيف، أن مبعشرا أمير الجزائر الشرقية أقام سباقا للزوارق^(٦٤).

(٥٧) من الجزء، فتح ٦٣/٤، وسيونيت، تاريخ المستعربين ٨٢٠. وتوجه بقايا هذه العادة ربما إلى الفانيه، وهو نوع من الحلوى في شكل شمة أو شمعان أو خبز صغير، يخبزونه في تلمسان حتى اليوم ويقدمونه بمناسبة المولد النبوي. نظر: ر. مرسيد اللهجة الربية المتحدة في تلمسان ٢٧٧، وانظر أيضا نصوص من عربة طنجة ١٣٠.

(٥٨) يتحدث ابن قرمان عن حفلة في شهر يناير، ولابد أنها كانت مناسبة عيد النيروز وفيه كانوا يعدون نداء من العجائن يسمى «حلون» انظر: ديوان ابن قرمان لقطعة ٧٢ ص ٣٥٦ والتحليل في طبعة بيكل ص ٤٠٩.

(٥٩) سوف نعود فيما بعد إلى الحديث عن الحرير لحرى و «أبو قلمون».

(٦٠) المجلد ١٦٢/٢، والقلائد ٨٥.

(٦١) مثلا: ابن سارة عني الأمير المرابطي أبو بكر بن إبراهيم في عام ٤٩٩ هـ = ١١٠٦ م. انظر: الأندلس ١١٠. وأبو بكر بن العين عني شخصيه مجهولة، المطمح ٣٨٤.

(٦٢) عن هذا الموضوع انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٥٥١/٣، كتب مادتها بلسنر، وليفي بروقتسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٧٢. وكانت الكلمة في أسباب تطرق بفتح الميم، معجم اتحمة ص ١٩٨ و ٣١٨، وديوان ابن قرمان لقطعة ٣٤ ص ١٧٦.

(٦٣) فتح ٣٢٦/٣، ودوزي، أبحاث ط ١ ص ٥٧١ رقم ١، وملحق المعاجم ٦٢١/٢. وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ١ ص ٣٢٢. وابن البطار، رسالة Simples ترجمة ليكليرك في: ملاحظات وفضل، المجلد ٣٦، القسم الأول ٢٤٨.

(٦٤) من المتقارب، المطمح ٢١٤، فتح ٥٤٧/٢، ولبرشوندي وسيونيت، منتخبات أدبية، النص العربي ص ١٣٥ رقم ١٥٩، وسيونيت، تاريخ المستعربين ٢٨٠.

(٦٥) انظر فيما سبق ص ١٩٥ - ١٩٦ من هذا الكتاب.

تأقلم الأندلسيين هذا مع العادات المحلية والذي بدا فيها تنطوى عليه الحفلات التي انتهينا من دراستها لتلقى به أكثر وضوحاً في الاحتفاء بالحفلات الأخرى وهي مسيحية أساساً، أو يهودية مسيحية في جوهرها. ونعني بذلك عيد الفصح أو القيامة، ولم يكونوا يحتفون به بأن يذهبوا إلى الكنائس، وإنما بالراحة التامة في هذا اليوم، واستغلال الفراغ بالذهاب إلى الريف للزخلة، ووجدنا بيتاً من الشعر لابن زيدون يصف المتنزعات في ضواحي قرطبة، وهو متميز في هذا الجانب:

وأيام وصل بالعقيق اقتضيتُهُ فالأ يَكُنْ ميعادُهُ العيدُ فالقَصَصُ (٦٦)

وكانت صلاة الاستسقاء (٦٧) تنجح مكاناً رحيباً لمظاهر عظيمة، فتقام الصلوات في الهواء الطلق، ويتهيأون في قرطبة بهذه المناسبة (٦٨)، ولكن لم يصف لنا أى شاعر من القرن العاشر أو الحادى عشر هذا المشهد، ومع ذلك فعندما عبر المعتمد إلى المغرب إلى متفاه في طريقه نحو أعماق، رأى في مكان لم يجده جماعة من المسلمين تجمعوا في الهواء الطلق ليؤدوا صلاة الاستسقاء، وأنشد في هذا الموضوع الأبيات التالية:

خرجوا لِيَسْتَسْقُوا، فقلتُ لهم: دمعى ينوب لكم عن الأنواء
قالوا: حقيق، في دموعك مَقْنَعٌ لكنها ممزوجة بدماء (٦٩)

إذا كنا في الصفحات السابقة استطعنا أن نرى كيف أن الإسبان المسلمين اكتسبوا شيئاً من العادات الاجتماعية لمعاشرتهم المسيحيين، فهناك ممارسات أخرى في حياتهم اليومية تعود بالضرورة إلى رواسب وتنبية قديمة، وتلعب فيها الكهانة والسحر دوراً هاماً، رغم أن الدين الإسلامى، وهو توحيدى في جوهره، عمل كل ما في وسعه لاقتلاعها والقضاء عليها.

وهناك فقرة بالغة الأهمية أوردناها المقرئ في كتابه نفع الطيب، جديرة بأن نوردتها كاملة، ومع أنه يقصد بها المعاصرين لجده بخاصة، لكنها تنطبق على الإسبان المسلمين بدقة كاملة. يقول:

«ولما ذكر مولاي الجمد الإمام قاضى القضاة بفاس سيدى أبو عبد الله المقرئ التامسانى في كتابه «القواعد» شرط أهل قرطبة المذكور [وهو أن عملهم حجة في الفقه المالكي]، قال بعده ما نصه: وعلى هذا الشرط ترتيب إيجاب عمل القضاة بالأندلس [وهو اشتراط الإمام على القاضى الحكم بذهب معين]، ثم انتقل إلى المغرب، فبينما نحن تنازع الناس في عمل المدينة ونصبح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل بها من علماء الأمة كعلّ وابن مسعود ومن كان معها:

(٦٦) من الطويل، الديوان ١٥٩، وانظر فيما سبق ص ١١٩ من هذا الكتاب.

(٦٧) عن صلاة الاستسقاء في الغرب الإسلامى انظر: أ. بيل، بعض العناصر للحصول على المطر في زمن الجفاف عند المسلمين المغاربة، في مجموعة دراسات ونصوص نشرت تكرياً للمؤرخ الرابع عشر للمستشرقين... الجزائر ١٩٠٥ - ٤٩ - ٩٨. و. مرسية، نصوص عربية من تكتبة ص ١٢ - ٢٧ و ١٩٧ - ٢٠٤ و ٢٠٥ - ٢٢٥، ومونشيكور، سنوك السكان الأصليين: الرى بالمطر (Talab en No) في المجلة التونسية عام ١٩١٥.

(٦٨) لطفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في اقرن الماشر، ص ٢٢٣ رقم ٣.

(٦٩) من الكامل، الديوان ٨٩، غريدة القصر ١٤٤/١١، وفي بنو عباد نقلا عنها ٣٨٣/١ وفي نفع ٥٧٢/١ وفي المطمح ٢٤٩. توجد روايات تفرقة عن صلاة الاستسقاء، ولم الناس فيها القاضى منقر بن سعيد البلوطى. في خلافة عبد الرحمن الناصر.

ليس التكحل في العينين كالكحل

سنح لنا بعض الجعود ومعدن تقليد:

الله أخر منى فتأخرت حتى رأيت من الزمان عجائب
يا لله وللمسلمين، ذهب قرطبة وأهلها، ولم يرح من الناس جهلها، ما ذاك إلا لأن الشيطان يسمى
في نحو الحق فينسيه، والباطل لا زال يلقيه ويلقيه، ألا ترى خصال الجاهلية كالتياحة والتفاخر والتكاثر
والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والحظ ولتشاؤم وما أشبه ذلك، وأسأها كالعتمة ويثرب^(٧٠)،
وكذا التنايز بالألقاب وغيره مما نهى عنه وحذر منه، كى لم تزل من أهلها، وانتقلت إلى غيرهم مع
تيسر أمرها، حتى كأنهم لا يرفعون بالدين رأساً، بل يجيئون لعادات القديمة أساً، وكذلك عجة الشعر
والتلحين والنسب وما انخرط في هذا السلك ثابتة الموقع من القلوب، والشرع فيها منذ سعمانة سنة
وسبع وستين سنة لا نحفظه إلا قولاً، ولا نحمله إلا كلاماً^(٧١).

لقد اندهش هذا القاضي المدقق من بقاء الممارسات القديمة، وبسبب دراساته، وهى إسلامية فى
جوهرها، شوه طبيعة تلك الممارسات ورددتها إلى عرب لجهلية، ومع أن استمرار هذه العادات والتقاليد
القديمة التى يشير إليها جد المقرئ، رتى تعود إلى أصول بربرية فى شمال أفريقيا، نلاحظها أيضاً فى
إسبانيا الإسلامية، ويمكن أن نعوها هنا إلى ظهور التراث الإيرو رومانى القديم فجاءة، مطعماً
بالإضافات اليهودية المسيحية، والعربية البربرية، دون تبييرات عميقة. ولا يوجد شىء قوى تعبيراً
عن روح الأندلسى ونفسيته من هذه صفحة التى كتبها مؤرخ عن أحد أواخر خلفاء الأسرة الأموية
فى الأندلس:

«ولما كان هشام [المؤيد ابن الحكم الثانى] مندرجاً فى طى كافله الحاجب المنصور - رحمه الله -
بجيت لا ينسب إليه تدبير، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير، إذ كان فى نفسه وأصل تركيه
مضعفا مهيناً مشغولاً بالزخافات، ولعب الصبيان والبناات وفى الكبر بجالسة النساء، ومحادثة الإمام،
يحرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات: فكم ألقى بخزائنه من ألواح منسوبة إلى
سقية نوح، ومن قرون منسوبة إلى كبش إسحاق، ومن حوافر منسوبة إلى حمار عزيز، ومن خفاف
منسوبة إلى ناقة صالح، لم يسترب فى تعددها، ولا فكر فيما مقدار ما يحتاجه الحيوان منها، إلى مصليات
منسوبة لعباد، وأوانى وضوء متوارثة عن زهاد: بهذا فى ذلك من الأموال ما يزن أضعاف وزانها، وهى
بجتلبة من المجازر والمعاطى، ملتصقة من أيدى المخيخ^(٧٢)».

(٧٠) العتمة تسمى بها الصلاة الأخيرة، أى صلاة العشاء، انظر: لسان العرب ٢٧٥/١٥. ويثرب هى مدينة النبى.

(٧١) نفع ٥٥٧/١.

(٧٢) الذخيرة ٨٣/٤، وأعمال الأعلام ٥٨.

● نص الذخيرة أطول وأكثر تفصيلاً (انترجم).

وهذا الميل إلى الأشياء القديمة، سواء أخذت معنى سحرى أم لا، يعود - جانب كبير منه إلى التروية المخنثة التى كان يتلقاها هؤلاء
الأمراء خلال مراعاتهم، وبطل تأثيرها قديماً حتى فى مرحلة التضيغ. وقد كان عبد الملك المظفر يحب فى ساعات فراغه أن يرتدى
البرنس، يحتلظ بنسائه، أعمال الأعلام ص ٨٣. وقد هرب الخليفة استسقى باقة من قرطبة مرتدياً زى امرأة وبين مرأتين، أعمال
الأعلام ١٣٦. ويقول مؤرخ إن يحيى القادر أمير طليطلة تربى بين النساء ونشأ بين الحصيان ولعنات، كتاب الاكتفاء فى «بنو عباد»
١٦/٢.

وبعد أن نقرأ الفقرة السابقة لا أحد يندهش من إعتقاد الأندلسيين في الحسد والسحر والكهانة وتأثير النجوم والتشاؤم من بعض الأعمال، وبالتالي لكي يقاوموا التأثيرات الضارة اعتقدوا في فعالية التامم والأعمال السحرية، وأن لها قدرة على حمايتهم.

ولم يكن بوسع الأندلسيين إزاء الفوضى السياسية التي ضربت بأطرافها في مطلع القرن الحادي عشر، إلى جانب اعتماد الثقة في المستقبل، وكانت هذه نتيجة حتمية لذلك، أن يصنعوا شيئا آخر غير الميل إلى الإيمان بالقوى الخفية، مرعية وفي الوقت نفسه لا تدركها الحواس. فراجعت سرا كتب التنجيم بالغيب، أو كتب الملاحم والحداث كما كانت تسمى^(٧٣)، ونشرت بكوارت واضطرابات مشيرة، وأحدثت خللا عميقا وتشويشا حادا في أفكار أواخر مملكتي الدولة الأموية، وربما كانوا أكثر ميلا من بقية الأسر الأندلسية إلى تقبل هذه الأخبار المرعبة بسبب تربيتهم نفسها والمحيط النسائي والمخنت الذي نشأوا فيه. وقد لاحظ أهل التنجيم أنه في عام ٣٩٧ هـ = ١٠٠٦ م سوف يلتقي كوكبان في برج السنبلة، وتنبأوا بقيام أسرتين تتقاسمان الخلافة^(٧٤). وكان أهل العلم بالآثر والتأثير يؤكدون أن دولة بني عباد في إشبيلية سوف تبلغ نهايتها عندما تصل حدودها إلى مرسية^(٧٥).

وهكذا أصبح التنجيم أو الفلكي في القرن الحادي عشر شخصية أساسية في كل البلاطات التي قامت في شبه الجزيرة، ورغم خطورته إذا أخطأ يتعاملون معه بمنتهى الاحتقار له. وهم يعتقدون في علمه، ولكنه اعتقاد مصحوب بشيء من الشك، وإليك هذه الأبيات التي كتبها المعتمد إلى منجمه أبي بكر الخولاني بعد أن احتل المرابطون إشبيلية، ونحن معها بصدد هجاء مسل، في إيقاع خفيف الظل، ينضح قلقا سوف تبرزه الأحداث تماما:

أرسلت أم بنجويك الرمد	قد عاد ضدا كل مانع
هل في حالك ما نؤمله	أم قد تصرم عندك الأمد
قد كنت تهمس إذا تخاطبني	ونخط كرها إن عصتك يد
فالآن لا عين ولا أثر	أنراك غيب شخصك البلد
ونراك بالعذراء في عرس	أم إذ كذبت سطا بك الأسد
السك لا يبقى على أحد	والسوت لا يبقى له أحد ^(٧٦)

يظهر لنا الكثير من هذه الروايات أن الملوك الصغار في شبه الجزيرة كانوا يستنبئون أقل أحداث

(٧٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ١٢٩، ونفح ٨٢/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣١٠، وملحق المعاجم العربية ٥٢٢/٢. وكان هشام الثالث يعرف من خلال هذه الكتب أن أسرته سوف تهزم على يد شخصية نجية من سبتة، ويبدأ اسمها بحرف العين.

(٧٤) أعمال الأعلام ١٢٧.

(٧٥) مذكرات الأمير عبد الله (كتاب التبيان) فصلة مستقلة، النص ص ٩٢، والترجمة ١٢٩.

(٧٦) من الكامل، الذخيرة ٥٦/٢، وهما في «بنو عباد» ٣٠٦/١، في معركة الزلاقة استطاع الصمد رأى النجم عشية المعركة في المكان الذي كان يحسب فيه جيشه فأنبأه بالطالع الصعيد وأن النصر سوف يكون لحليفه في اليوم التالي. انظر: كتاب الاكتفاء، وعنه نقلها دبري في «بنو عباد» ٢٢/٢. وكان أبو الفتح المرحاني، الذي تحدثنا عنه فيها سبق منجها بمحمود، وكانت تنبؤاته نجية على القبض. وكان قد أعلن قرب نهاية باديس بن حبوس، ولكن هذا قتله بيدي الإحاطة ٦٥/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٣٤.

الحياة، وقد شعر المعتضد في مرضه نه سيموت قريباً، لأن مطربه الصقل غناه بخمسة أبيات عن أحزان الحياة، ويذكر المؤرخون أن الأمير لم يعش بعد ساعه هذا الفناء غير خمسة أيام، وهي مصادفة غريبة^(٧٧).

وأما عن التشاؤم بالغراب فلن نتكلم عنه هنا لأنه معروف جيداً في الشرق والغرب على السواء. ومع ذلك نلاحظ أن النصاري أنفسهم، كالمسلمين، لم يكونوا يتخذون أى قرار قبل أن يزجروا الطير، ويرضوا بما يأتي به تفاؤلاً أو تشاؤم، وإليك كيف تنبأ شاعر مجهول بأن السيد القنizzور متوجه للهجوم على بلنسية^(٧٨):

قولوا للذريق إن الحق قد ظهرا أو نقذوه إذا ما طهره زجرا
سيوف صهاجة في كل معترك تأتي لأطياره أن تصدق الخبر^(٧٩)

وحضر عز الدولة أبو مروان عبيد الله، أحد أبناء المعتصم أمير المرية قبل أن تنهار دولتهم، مع الأمير يحيى بن أبي بكر قائد المراتين غزوته إلى طسيلة، فلما شارفها، وضرب أخبته بساحتها، سقط أحد ألبته من يد حامله، ونكسر الرمح، فطير في وقتال آخرون^(٨٠)، ولكن عز لدولة رأى فيه بشاره نصر، فقال:

لم ينكسر عود اللواء لطيرة يخشى عليك يا وأن تتأولاً
لكن تحقق أنه يصدق في نعر العدو لدى الوغى فتعجلاً^(٨١)

كما لاحظنا فيما سبق هناك شعذات وخرافات ارتبطت ببعض الأشجار مثل السفرجل والتاريخ^(٨٢). وشيء حية تمثل كائنات منمشة، ولها قيمة علاجية، ففي لورقة مثلاً كانوا يتكون جرادة ذهبية تحمي المدينة من غزو هذه الحشرات، وذات يوم حرق هذه الجرادة، ومنذ ذلك الوقت أصبح هجوم الجرادة كارثة سنوية^(٨٣).

وكان المسلمون الإسبان يعتقدون في الحسد أيضاً، وأبنا قبل أنه لحماية أطفالهم من تأثيره الخطير كان يصنعون لهم التمام^(٨٤). والسحر والسعوذة يمكن الممارسة أن تؤثر إلى حد، وهو ما أشار إليه الشعراء، ولكن ليس لدينا معومات دقيقة عن وسائلها مثلاً: ما المرأة التي يتكلم عنها ابن سارة في

(٧٧) انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٣ ج ٣ ص ٨١ - ٨٢، والمصادر المذكورة هناك.

(٧٨) يبدو أن العتمد في أغصان لم يتشام تشيرا من رؤية عدد من اثريان يحرم فوق البيت الذي كان سجننا فيه، والحق أنه في هذه اللحظة عرف أنهم سمحوا لبعض نسائه بزيارته، النخيرة ٧٦/٣، وعنها في «بنو عبيد» ٣١٨/١.

(٧٩) من البسيط، البيان المرب ٢٥/٤.

● لفرقة تاريخ السيد ودوره في الأدب والتاريخ، انظر كتابنا: ملحة السيد ط ٣، دار لمعارف بالقاهرة ١٩٦ (الترجم).

(٨٠) الحلة السيرة ٩٠/٢.

(٨١) من الكامل، الحلة ٩١/٢.

(٨٢) انظر فيما سبق ص ١٧٤ من هذا الكتاب.

(٨٣) القزويني، آثار البلاد، ٣٧٣/١، والروض المطاى رقم ١٦٢. ويوجدوا في الورقة أيضاً ثورين متباينين من الحجر، مدفونين على بعد عميق، وعندما كشفوا عنها اجتاحت قططن الحيوان في المنطقة وبه مهلك وأسد من البازلت كانت له نفس الوظيفة السحرية في حلب. انظر: ج. سوفاجيه، الجواهر المختارة من ابن شحنة، بيروت ١٩٢٣، ص ١٣٦.

(٨٤) انظر ما سبق ص ٢٦٣ - ٢٦٤ من هذا الكتاب.

الآبيات التالية، والتي لا نستطيع أن نرى فيها شيئا آخر غير الخيال؟

ومَهْفَهفٌ يَحْتَالُ فِي أَهْرَادِهِ مَرَحَ الْفَصْنِ اللَّذْنِ تَحْتَ الْمَارِحِ
أَبْصَرْتُ فِي مَرَاةٍ فَكَّرِي خَذَهُ فَحَكَيْتُ فَعَلَّ جَفْوَنِهِ بِجَوَارِحِي
لَا غَرَوُ أَنْ جَرَحَ التَّوَسُّمُ خَذَهُ فَالْسَّعَرُ يَقْعَلُ فِي الْبَعِيدِ النَّازِحِ^(٨٥)

ويجب أن نضيف إلى ممارسة الاعتقادات الخرافية بعض العادات التي أخذت شكل طقوس ولكنها خالية من أى معنى لأن أصلها ضاع في ليل الزمن، وقتل ما تدعوه الآن العناية والصحة والنظافة. لقد كان مسموحاً للنساء فقط أن يخبضن أكفهن، ويمكن أن نستنتج هذا بوضوح من الاتهام الموجه إلى أبي المطرف بن الديباع، فقد قال فيه أحدهم:

خَصَابٌ لِعَمْرُكَ لَا لِلنِّسَاءِ وَلَكِنَّهُ لِفُحُولِ الرِّجَالِ
قَرَدٌ عَلَيْهِ أَبُو الْمَطْرِفِ قَانَلَا:

يُهَانُ بِحَمَصٍ عَزِيزُ الرِّجَالِ وَيُمَزَّى إِلَيْهِمْ قَبِيحُ الْفَعَالِ
وَيُفَرِّقُ ذَوُو النِّقْصِ مِنْ أَهْلِهَا بِتَلَطُّعِ أَعْرَاضِ أَهْلِ الْكَمَالِ^(٨٦)

أما النساء فكان يخبضن أيديهن بالحناء، ويستخدمن في بعض الأحيان صيغة نجهل أصلها، وهكذا يتحدث أبو بكر محمد بن عياض القرطبي عن امرأة يجها:

وَعَلَّقَتْهَا فَتَانَةٌ أَعْطَانَهَا نُزْرِي بِغَصَنِ الْبَانَةِ الْمِيَادِ
مَنْ لِلْفَزَالَةِ وَالضَّرَالِ بِحَسْنِهَا فِي الْخُدِّ أَوْ فِي الْعَيْنِ أَوْ فِي الْهَادِي
خَضِبَتْ أَنْامِلَهَا السَّوَادَ وَقَلْبًا أَبْصَرْتُ أَقْلَامًا بَغِيرَ مَدَادِ^(٨٧)

وكانت النساء تستخدم الكحل والإثمد في تجميل عيونهن، وتعرف المرأة الجميلة الفزلة كيف تزين وجهها بخال أو أكثر من عملها، وهو ما أوضحه ابن حزم في قوله:

فَقَدْ يُتَعَبُ الْإِنْسَانُ فِي الْفِكْرِ نَفْسُهُ وَقَدْ يَحْسُنُ الْخَيْلَانُ فِي الْوَجْهِ وَالنَّقِطُ^(٨٨)
تَزِينٌ إِذَا قُلْتُ، وَيَفْحَشٌ أَمْرُهَا إِذَا أَفْرَطْتَ يَوْمًا، وَهَلْ يَحْمَدُ الْفَرْطُ^(٨٩)

وكان السواك المصنوع من خشب عطري يستخدم للعناية بالفم والأسنان، وهو أمر لا نعرفه مجتمعاتنا الغربية الأوربية. يقول الأسعد بن بليطة:

أَرَى نَكْهَةَ السَّوَاكِ فِي حُمْرَةِ اللَّيْلِ وَشَارِبَكَ الْمَخْضَرِ بِالْمَسْكِ قَدْ خُطَا
عَسَى قَرْحُ قَبْلَتِهِ فَيَاخُلُهُ عَلَى الشَّقَةِ اللَّمْيَاءِ قَدْ جَاءَ مَخْطَا^(٩٠)

(٨٥) من الكامل، القلائد ٣٦٠.

(٨٦) من التقارب القصيرة ٢٥٢/٣.

(٨٧) من الكامل، شمع ٩١/٤.

(٨٨) عن المعنى الخاص لهذه الكلمة انظر: و. مرسيد: ملاحظات حول نص طوق الحمامة، ص ٦٩، وإحاطته على المبرجاني، الكتابات، ص ١١٧ حيث يقول، بين أشياء أخرى: خيلان المتزوجة إذا غسلتها اختتمت، وانظر أيضا: الجاحظ، البخله ١٢٩/٦، والهامش رقم ١٤، وترجمة بيلا ١٠٣، والهامش ٦٠.

(٨٩) من الطويل، طوق الحمامة ص ٦٩، وترجمة نيكول ٦١.

(٩٠) من الطويل، شمع ٥٢/٤.

وكان أبر تمام الحجام، وهو يعرف الأنواء والأسن جيداً بحكم مهنته، يقول في أسى مفاخره :
 فما للملئكَ ليس يُرى مكافئ وقد كُحلت لوحاظهُ بـورى
 كذا المسواك مطرَح مهاناً وقد أبقي جلاءً في الثغور^(٩١)

وأخيراً يمكن القول إن العطور والمراهم كانت تستخدم على نحو شائع في كل طبقات المجتمع، ويستخدمها بكثرة الرجال والنساء على السواء.

وكثيراً ما نرى في قصائد الشعراء الأندلسيين، وبخاصة حين يصفون الزهور، إشارات إلى العطور الأكثر انتشاراً في إسبانيا الإسلامية، ومن بينها: السوس الذى يحتوى على الخلق، وهو ضرب من العطر المزعفر، والعبير، وهو العنبر الرمادى، وزهرة السرير، وتشبه العنبر في رائحتها النفاثة، والورد وله رائحة العنبر أيضاً. ونجد الزعفران في ورد البنفسج والأقحوان رائحة ولونا، وأحياناً يشار إليه بكلمة «ردع». والحشخاش وفيه نقاط سوداء يشبه اسلك، وهو نوع من العطر الأسود، وإلى جانب العبير الرمادى نلتقى بالعنبر الطبيعى، فتيماً أو مفروكً والعنبر الأسود أى الند، ونجد الغالية، والمسك ويذكر بمناسبة الفاصوليا، والسوسن وبقائق النعمان وكان المسك هو العطر الذى يسيطر في إلحاح طاع على حاسة الشم عند الأندلسيين، ويجدون في الريحان والبنفسج والأقحوان والنمّ والحشخاش ولبيلوفر والورد والياسمين.

وكان أهل الأندلس يقولون: «يُستدل على الملوكة بالطيب في المواطن التى يكون الناس فيها غير معروفين، كالحمام ومعارك الحرب، ومواسم الحج»^(٩٢).

وكان المعتمد، ملكاً وعاشقاً، يخاف أن تفصح حبيبته عن نفسها بأريج عطرها:

ثلاثة منعتهَا عن زيارتنا خوف الرقيب وخوف الحاسدِ الخنق
 ضوء الجبين ويشتواس الحلى وما تحوى معاطفها من عنبر عبق
 هب الجبين بفضل الكم نستره والحلى تنزع، ما حيلة العرقى؟^(٩٣)

وكان التشبيه بالعطور شائعاً بدرجة كبيرة في كل الشعر الأندلسى، وابن عائشة يرى في وطنه:

تربة منك وجو عنبرة وغيم ند وطش ما ورد
 كأنما جائل الحباب به يلعب في جانيبه بالبرد^(٩٤)

ويقول ابن اللبّانة للأمير المعتمد، وكان هذا سجيناً في أغصات حين فُكَّت عنه القيود:

تنشق رياحين السلام فأنما أفض بها مسكاً عليك مخنأ^(٩٥)

(٩١) من الوافر، نفع ٤١٧/٣.

(٩٢) نفع ٤٣٠/٣.

(٩٣) من البسيط نفع ٤٢٩/٣، وديح، نصاب غريبة ص ٢٣٣، «نظر فيما بعد ص ٢٦٥ من هذا الكتاب، وقارن بين رسوم.

ديوان ص ٢٥، البيت ١٦، طبعة كاس كيلادى، وألف لية ولة، اللبلة الثمانين بعد المئة، طبعة بولاق ٢٥١/١

(٩٤) من المنسرح، نفع ١٥٨/٤.

(٩٥) من الطويل، للذخيرة ٧٧/٢، وى «هو عباد» ٣٦٩/١.

ويتساءل أبو أيوب بن أبي أمية:

أَمْسَكَ دَارِينَ حَيَّاكَ النِّسِيمُ بِهِ أَمْ عَنَرِ الشَّخِرَ أَمْ هَذَى الْبَسَانِ
بِشَاطَرِ النَّهْرِ حَيْثُ النَّوَرُ مُؤْتَلَقٌ وَالرَّاحُ تَعْبِقُ أَمْ تِلْكَ الرِّيحَانِ^(٩٦)

وبفكر ابن عمار في دارين أيضا على النحو التالي:

مَاضِرٌ لَوْ نَبَّهْنَهُ بِنَحْبَةٍ يَسْرَى النِّسِيمُ بِهَا عَلَى دَارِينَ^(٩٧)
وَابِنَ عَيْشُونَ يَشْكُرُ أَبَا نَصْرِ الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ لِأَنَّهُ أَهْدَى إِلَيْهِ خَاتَمًا وَغَفَارَةً أَيْ بَرَسًا:
نَشَقْنَا مِنَ الْمَجْدِ الْمُؤْتَلِّقِ نَفْحَةً تَزِيدُ عَلَى النَّدِّ الْمَثْلُثِ وَالْمَسْكِ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ سَأَلْتُ فِجَادَ لِي أَبُو نَصْرِ الْأَعْلَى بَيْرَتَهُ الْمَسْكِ^(٩٨)
ولكن العطور لا تؤثر بقوة إلا إذا أُلْقِيَ بها على الفحم المشتعل في موقد أو بحجرة، يقول ابن زيدون:

يَبِي جَهْوَرٍ أَحْرَقْتُمُو بِجَفَائِكُمْ فَوَادِي، فَمَا يَالِ الْمَدَائِحِ تَعْبِقُ
تَعْدُونَنِي كَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ، إِمَّا تَفُوحُ لَكُمْ أَنْفَاسُهُ حِينَ يَحْرِقُ^(٩٩)

ويقول أبو بكر بن رُحَيْمٍ في قصيدة مدح:

وَنَشَرْتُ بَعْضَ خَلَالِهِ فَكَأَنِّي بِالْمَسْكِ قَدْ أَذِ كَيْتُ عَوْدَ الْمَجْمَرِ^(١٠٠)
وكتب ابن عمار إلى المعتضد:

وَمَا هَذِهِ الْأَشْمَارُ إِلَّا بِجَامِرٍ تَضَوُّعٌ فِيهَا لِلْنَدَى قَطْعُ النَّدِّ^(١٠١)
ويقول أيضا:

فَقَتَّهَا وَشَيْئًا بِذِكْرِكَ مَذْهَبًا وَفَقَّتْهَا مَسْكًا بِحَمْدِكَ أَزْفَرًا
مَنْ ذَا يَنَاقِضُنِي وَذِكْرَكَ صَنْدَلٌ وَرَدَّتْهُ مِنْ نَارِ فِكْرِي بِجَمْرٍ^(١٠٢)

ويعبر المعتصم أمير المروعة عن الفكرة نفسها بطريقة أكثر بلاغة حين يرسل إلى بعض حُرَمِهِ في

رقعة طيرها إليها في جناح حمامة يقول فيها:

وَحَمَلْتُ ذَاتَ الطُّوقِ مِنِّي تَحِيَّةً تَكُونُ عَلَى أَفْقِ الْمَرِيَّةِ مُجْمَرًا

(٩٦) من السهول، نفع ٥٥٠/٣، الشعر منطقة في جنوب شرقي الجزيرة العربية.

(٩٧) من الكامل، الحقة ١٥١/٢، وبئر عباد ١١٠/٢، ودارين ميناء في البحرين، حيث يستقبلون العطور الواردة من الهند.

(٩٨) من الطويل، القلائد ٢٩٠، والنند المثلث عطر مكون من ثلاثة عناصر، انظر: دوزي، ملحق المعاجم ١٦٣/١.

(٩٩) من الطويل، النيران ٥٩٠، وكور، ابن زيدون ٩٧ ورقم ٢، والمعجب ص ١٠٦، وترجمة جافنان ٩١، ومول أبو تمام:

لَوْلَا اشْتِمَالُ النَّارِ فِيهَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يَصْرِفُ طِبُّ عَرَفِ السَّوْدِ

من الكامل، النيران ص ٣٩٥.

(١٠٠) من الكامل، القلائد ١١٨.

(١٠١) من الطويل، القلائد ٨٩.

(١٠٢) من الكامل، القلائد ٩٧.

تبلغ من ودى إليكم رسائلًا بأعقب من نشر العبير وأعطرا (١٠٣)
 وذكر الشعراء أيضًا أواني العطور، وهي: النفيجة، وتحتوى على المسك عادة، يقول أبو بكر بن
 رُحيم في رسالة إلى أخيه أبي الحسن عنته بولود:

خلصت إليك مع الأصيل الأنور أنيسة مثل الصباح المسفر
 غراء إلا أنها من خطرى يمكن أسود ناظرى من محجرى
 أرجت شذا أرجازها فكأها قد ضخت بلخالخ من عنبر
 أهنت إلى مع النسب تحية فتقت نوافجها بسك أدقر (١٠٤)

ويمكن أن نلاحظ في الأبيات التى سبقت بعض الإشارات إلى الأواني المخصصة لحفظ العطور
 والمخوط ولمواد ذات الرائحة. فقد كانت العطور تحفظ في سلال صغيرة من الجلد تسمى «جونة»،
 وتحفظ المراهم في علية تسمى «مُدْن»، أو «مُدْهنة»، وأما «الشَّامة» فكانت مخصصة لحفظ أغلى
 أنواع العطور (١٠٥).

إن كثرة الأسماء المشرقية الأصل مثل: «دارين» و«الشجر» تجعلنا نعتقد أن معظم العطور
 والأخشاب العطرية كانت تستورد من المشرق، ومع ذلك، هناك شعراء يتحدثون عن «الهاون» و«يده»،
 و«الفهر»، وفيه كانت تسحق المراهم والعطور. وتدلنا فكاهة رواها المقرئ على أن «سب عود
 الألبنجوج» (١٠٦) كان يوجد في إسبانيا، وله كل صفات انعود الهندى عطرا ورائحة، وأصل متبته كان بين
 أحجار الجبال في ناحية دلالة، من إقليم البشراة، وحملوا شجرته يوما إلى خيران الصقللى أمير المرية،
 فأمر بأن تغرس في ضواحي هذه المدينة.

ويقول المقرئ أيضا إنه كان يوجد في سواطى منطقة الغرب، وأن شجر عود الألبنجوج كان ينمو
 أيضا في أكشونية على جبل هناك، ويتضوع ربح عوده ذكيا إذا أرسلت فيه النار (١٠٧)، [ويصير شدونة
 يوجد العنبر الطيب الغربى، وفي جبل منت ليون المحلب]، وأن إسبانيا كانت تنتج القسط الطيب
 والسبيل الطيب، وكلاهما من نوع جيد (١٠٨).



هذه العطور على قلتها، كما رأينا، تشهد بعامة على أن هناك ذوقا قويا يميل إليها، ويتذوق روائحها،

(١٠٣) من الطويل، الجزء ٢/٨٤، وانظر فيه سبق ص ٢٢٣ من هذا الكتاب.

(١٠٤) من الكامل، القلائد ١١٦.

(١٠٥) وجود «بطيخ من التند» الذى وصفه المتنير في ديوانه، ٢٥٥/١ طبعة البرقوقى و ٢٠١ - ٢٠٢ طبعة صابر، لم يتم شاهده
 على وجوده في إسبانيا في القرن الحادى عشر.

كانت الجواهر تحفظ في علب تحمل أسما مختلفة مثل: حق، وانظر فيما يلى ص ٢٨٩ من هذا الكتاب. وعزقة، واخر وصفها فيما
 سبق ص ١٦٠ - ١٦١ من هذا الكتاب.

(١٠٦) نفع ١٤١/١، وعن عود الألبنجوج انظر: ريتز وكولين التحفة رقم ٢٩٧ و ٢٠٨.

(١٠٧) تحت حكم الحكم الثانى، في علم ٣٦٣ هـ = ٩٧٣ م، وجد حسن بن جئون قطعة كبيرة من العنبر، جعل منها مسوره.
 انظر: ليفى بروقتال، قطع تاريخية عن البربر في العصر الوسيط ص ١١.

(١٠٨) نفع ١٤١/١، والدمشق، نهاية الدرب، الترجمة الفرنسية ص ٢٤٥ عن «العنبر في شتىين واشبوة وأكشونية».

والتي لا يكاد مجتمعنا يتحملها لنفاذ أريجها. ويظهر لنا ميل الأندلسيين إلى استخدام التوابل اللاذعة في الطهي على أنهم كانوا يحبون الإثارات القوية.

والشمر. وهو في حالتنا هذه ذو قيمة عالية، يقدم لنا معلومات عن أشهر المأكولات في القرن الحادي عشر، وإذا لم نجد قصائد في الطهي من النوع الذي كتبه بعد أبو عبد الله بن الأزرق. المتوفى ٨٩٥ هـ = ١٤٨٩ م^(١٠٩) فنستطيع على الأقل أن نستخلص معلومات هامة من بعض المقطوعات المتناثرة في المصادر المختلفة.

لا يبدو أن الأطباق الأكثر شهرة في أيام زرواب، وعلى طريقته، وشاعت في القرن التاسع الميلادي، كانت معروفة في القرن الحادي عشر^(١١٠). وإذا كان الفول أخضر ومطهيا، إلى جانب الخرشوف^(١١١) والعصيدة^(١١٢)، يمثل الغذاء الأساسي للطبقات الفقيرة والمعوزة، فقد كانت هناك أطعمة وأطباق أخرى تتطلب فنا أكثر، وتجعل مأكولات الطبقة المتوسطة والعليا أشهى وألذ. يقول ابن عمارة: شَبِثْتُ الْمَشْلُكَ لِلزَّعْفَرَانِ وَمَلْتُ إِلَى خُضْرَةٍ فِي التَّفَايَا^(١١٣)

وقد أحسنَ المُتَفَتِّلُ بِغِيَّةِ أُمْلٍ كَبِيرَةٍ ذَاتَ يَوْمٍ لِأَنَّ أَحَدَ أَصْدِقَائِهِ جَهَّزَ مِرْقَاسًا وَنَسِيَ أَنْ يَدْعُوهُ رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ وَعَدَهُ بِذَلِكَ:

بَا أَجْوَدَ النَّاسِ بِمَا عِنْدِهِ إِلَّا إِذَا اسْتَعْمَلَ مِرْقَاسًا
فَلَنْ يُنْفِهَا عَنْهُ بَيْنَ إِذَا لَمْ يَجِدْ فِيهِ أَنْفَاسًا^(١١٤)

وقال أيضا:

لَا أَكُلُ الْمِرْقَاسَ دَهْرِي لَتَا وَيَلِ الْوَرَى فِيهِ قَبِيحَ الْعِيَانِ
كَأَنَّمَا صَوْرَتُهُ إِذَا بَثْتُ أَنْمَلِ الْمَصْلُوبِ بَعْدَ الثَّمَانِ^(١١٥)

وكان الأندلسيون يتذوقون طعم المجبَّات ويجذونه جمالا، وهو لون من الفطائر المحشوة جبنا، وتؤكل ساخنة، يقول أبو الحسن بن جابر الدهاج:

أَحْلَى مَوَاقِعِهَا إِذَا قَرَّبْتَهَا وَبُخَارُهَا فَوْقَ الْمَوَائِدِ سَامِ
إِنْ أَحْرَقَتْ لَمَّا فَإِنْ أَوَارَهَا فِي دَاخِلِ الْأَحْشَاءِ بَرْدُ سَلَامِ^(١١٦)

(١٠٩) نصح ٢٩٨/١ - ٢٠٢، وهي قصيدة من ٩٤ بيتا.

(١١٠) ج. س. كولين: وثيقة جديدة عن لجة الغرب العربية في القرن الثالث عشر، ص ١٣ و٢ وما بعدها: زرواب.

(١١١) انظر فيما سبق ص ١٧٦ - ١٧٧ من هذا الكتاب.

(١١٢) كثيرا ما يشير ابن قزمان إلى هذا الطبق الشمسي، انظر: الديوان، القطعة ٦٧، والمجموع ص ١٤٣ و ٥٤٥.

(١١٣) من المقارب، نصح ٣٢٦/٣، ويزي ملحق للمعاجم ١٦٣/١، وطبقا لتعليق المقرئ فإن «التفايا» لون من الطعام يعمل بالكزبرة، انظر: نصح ٣٢٦/٣، وملاحظة بوزي في رسالة إلى فليشر ص ١٥٥.

(١١٤) من السريع، الذخيرة ٧٥٨/١، وعن المرقاس أو المركاس انظر: السقطي، رسالة في الحسية، طبعة ليلى بروفنسال، ص ٤٣ والمجموع القرطبي ٢٧٢، والمجموع ص ١٨٤ و ٤٦١.

(١١٥) من السريع، الذخيرة ٧٥٩/١.

(١١٦) من الكامل، نصح ٤٦١/٣، والصبر الأخير يشير إلى الآية القرآنية المتصلة بإبراهيم: «قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم» سورة إبراهيم، الآية ٦٩.

وهناك مثل أندلسي يقول: «من دخل شريش ولم يأكل بها المجبتات فهو محروم»^(١١٧).



كان الجين معروفا كما نرى، وشتهر من بينه جين شريش، وتساءل بعض الكتاب عما إذا كان جين الروم، أي المسيحيين، غير محرم، وألف الطرطوشي في هذا كتابا أسماه: «في تحريم جين الروم»^(١١٨).

كان الأندلسيون يختلفون عن المشارقة لا في طريقة إعداد طعامهم فحسب، وإنما أيضا في عادة لباسهم. وإذا كانت هناك أساء أقمشة غير أندلسية، وهو ما حدث لقويا مع العطور نفسها والتي أشرنا إليها من قبل، إلا أن هذا لا يدل بالضرورة على أنها كانت كلها مستوردة. وتبرو أساء مثل: رختاجي، وهو قماش مصنوع في نيسابور، وتستري، وهو مصنوع في تستر، والوشى، وهي أقمشة مرسومة، واللاضى، وهو قماش من حرير اللاض، والعصائب، وهي أقمشة حمراء، والسوسى، وهي أقمشة إما صنعت في سوس تونس، أو في سوس خوزستان^(١١٩). وعندما وصف أبو محمد بن السيد البطليوسي الملابس التي يرتديها الأمير عبد الرحمن الظافر بن ذى النون في حفلاته، بدا سعيدا وهو يجمع أساء كل الملابس المشرقية التي توحى بالثراء، وجمال الأقمشة وفخامتها

وجلس جم الملاهى أزهر
لم تر عيني مثله لا ترى
أفنى في نفسي وأبهى نظرا
إذا نرئى وشيمه المصورا
وتسج قرقوب وتسج تئسرا
خلت الربيع الطلق فيه تورا^(١٢٠)

ومع أنهم ظلوا يستوردون بعض الأقمشة، لكن كثيرا منها كان يصنع في إسبانيا، فكانت مصانع المرية تنتج الإصبهاني، نسبة إلى إصبهان، والجرجاني، نسبة إلى جرجان، والمتاي والسقطلون، وكانا مما اقتصت به بغداد وأنطاكية^(١٢١).

لما الأقمشة ذات البريق الذهبي، وتسمى أبو قلمون^(١٢٢) فكانت تصنع من صوف البحر، أو بالدقة من نبات بحري يلتقط من غب شواطئ الإطلنطى قبال شتيرين^(١٢٣)، وتنتجه مصانع أندلسية،

(١١٧) نفح ١٨٤/٦، رابعي برصايل، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر من ١٨٩. وقد دخلت الكلمة اللفظة الإسبانية منها في صورة almojabana، انظر: جوتالك بلنتيا، الإسلام والغرب، ص ٣٨.
(١١٨) نفح ٨٨/٢.

(١١٩) يوجد هذا الاسم في الطبري، التوفى ٣١٠ هـ = ٩٢٣ م، انظر: نفح ١١٥/٥، وفيها يتصل بالقرن الحادي عشر في إسبانيا جند مرتين في كتاب البديع في وصف لربيع لأبي الوليد الحميري، ص ٣٦ و ١٤٠، وانظر أيضا: الإدريسي، الاستبصار، النص العربي ٩ الترجمة ١٧، وجورج مرسيد، الحرب في بلاد البربر، ص ٢٧ و ١٥٦ و ٢٣٠.

(١٢٠) من المرجز، نفح ٤٣٠/١، وصنعاء يعبر في اليمن، وقرقوب ونسق في إيران، وانظر فيه سبق من ١٤٦ المامش رقم ٤ من هذا الكتاب.

● البيت الأول لا يوجد في نفح الطيب، وإنما هو في أذهار الرضا، وارتضينا لتوضيح المعنى (الترجم).
(١٢١) الإدريسي ٢٤٠، ونفح ١٦٣/١، والتوبري، نهاية لأرب، ط ٢ ج ١ ص ٣٥٦، وتوجد كلمة صابي وعناي.
(١٢٢) عن هذه الكلمة انظر: دائرة المعارف الإسلامية ودوزي، ملحق المعاجم ٨٥٢/١، مادة صوف، وميتز، الحضارة الإسلامية ٤٣٣ ورقم ١٢، وترجمة غيلا ٥٤٧ ورقم ٤.

(١٢٣) القزويني، آثار البلاد ٣٦٤، وكافرا بمصدره أيضا في تونس وساحل مصر، انظر: ياقوت، المعجم ٨٨٢/١

ورأينا فيما سبق كيف أن ابن عَمَّار أهدى ثوبا من هذا الحرير إلى المعتد بمناسبة عيد النيروز^(١٢٤). وإذا كانت إسبانيا في القرن الحادى عشر تنتج بنفسها معظم الأقمشة التى تحتاج إليها إلا أنها استعارت أكيدا من المشرق شكل بعض الملابس التى يلبسها أهلها، مع تغيير بسيط، ولو أننا لا نعرف دائما طبيعة هذا التغير بدقة. وهناك أنواع أخرى من الملابس أندلسية الأصل، وما أنها تحمل أسماء شائعة في الأدب المشرقى فمن الصعب تحديد مصدرها تماما^(١٢٥). ويمكن أن نقوم بتصنيف مختصر للتمييز بين ملابس الرجال وملابس النساء.

كانت النساء ترتدى الدرع أو القميص، والمِطْرَف، والحَلَّة، والفَلَّالة، والمنزَر أو الإزار. وهى قطعة من القماش تستخدم كمعطف لتغطية الجزء الأسفل من الجسم، والبُرْد، وهو معطف يغطي الجزء الأعلى منه، والمُستَمَلَّة، وهو معطف يغطي الجسم كله، والقباء، وهو رداء صغير، والجلباب، والصدار، وهو قميص صغير، والسروال، والتكَّة، وهى رباط يشد به السروال إلى الوسط، والخمار، والمِقَنع أو البرقع، وهى طرحة تغطي الرأس، واللثام، وهو لستر الفم.

أما الرجال فيرتدون الظهارة، وهى عباءة خفيفة، والشمار أو الدثار، وهما ملابس داخلية، والصدرة أو القميص، والسروال، والمِعْرَض، وهو لباس المقابلات والحفلات، والغفارة أو البرنس، وهو عباءة بغطاء للرأس. وكان الخنصان يرتدون الخمار، وهو غطاء الرأس^(١٢٦).

ويمكن القول أنه أمكننا بفضل الشعر أن نحدد الفرق بين المنزَر والبُرْد، يقول الشاعر أبو بكر بن حجاج في بيت من قصيدة له:

وما اللُصْنُ إلا ما اثنتى تحت بُرْدِهِ وما الدُّعْصُ إلا ما طوَّقه مآزِرُهُ^(١٢٧)

ويعبر ابن زيدون عن الفكرة نفسها في بيت له، مستخدما كلمة درع بدل منزَر، ومرط مكان منزَر^(١٢٨). وفي بيت آخر يستخدم مثل ابن حجاج، كلمة منزَر ولكن في مقابل كلمة مطرف^(١٢٩).

والبرد والمطرف لا يغطيان إلا النصف الأعلى من الجسم، والمنزَر والمرط النصف الأسفل، أى من

(١٢٤) انظر فيما سبق ص ٢٧٢ من هذا الكتاب.

(١٢٥) انظر مثلا حالة «غفارة» فهى قنسوة في المشرق، وعباءة في الأندلس انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ٢٨٠.

ولمعرفة المزيد عن الملابس انظر: دورى، معجم الملابس، و ج. مرسية الملابس الإسلامية في الجزائر، في الفهرس.

(١٢٦) انظر فيما سبق ص ٢٢٤ من هذا الكتاب. فقد رأينا أن المستربيين، أى النصارى، كانوا يضعون لباسا أسود على

رؤوسهم وبسبب الشعر أيضا خمارا، انظر فيما سبق ص ٢٥٤.

(١٢٧) من الطويل، غم ٤٨٦/٣، وقد وضع ابن الرومي الفَلَّالة في مقابل الإزار، انظر: ابن رشيق العمدة ٢/٢٢٦، والبيت

من الطويل، ثاقية الرء مضمومة.

ويؤكد ابن يَتَّى المعنى الخاص لكلمة إزار، يقول منتزلا:

وهيفاء يحكيها القضيبي تَأَوَّدَا إذا ما اثنت في الربط أو حبرابها

يضيق الإزار الرعب عن ردها كما تضيق بها الأحشاء عن زفرابها

وهى من الطويل، القلائد ١٨٢. وعن الإزار انظر: ابن قتيبة: عيون الأخبار ٤/٤٧٤، وعن التقابل بين إزار ورياء انظر:

جودفروى - ديمون، الحج إلى مكة ص ١٧٢.

(١٢٨) من الطويل، الديوان ٢٨٧، وكوثر ابن زيدون ٧٨.

(١٢٩) من الطويل، الديوان ٤٨٢.

الوسط حتى القدم، وإذا استخدمنا لها مصطلحا فرنسيا قلنا إن الأول هو Cape والثاني Jube^(١٣٠). ويبدو لنا أن الأندلسيين لم يكونوا يلبسون العمامة، ولا البرنس قبل مجيء المرابطين. ويؤكد هذا ما رواه ابن الأثير في الحلة لسراء، يقول:

«ثم تحرك ابن تاشفين من العدة بعد وقعة الزلاقة، وأجاز البحر إلى الأندلس. وتقدمه سفير بين أبي بكر، فلم يخرج إليه المعتمد لبطالة كان منغمسا فيها، وكانت أول وحشة وقعت بينها، ثم توجهوا جميعا إلى حصن أليط من أعمال لورقة - وقد تغلب عليه النصارى - فخرج المعتمد ليلقاهم وينزلهم مؤديا حتى ابن تاشفين ومن معه، فأخجله المعتمد بتياسره عن طريق لقائه فكتب إليه:

يا بعيدا وإن دنيا كم تمنيبت قريبا
أنت حسبي من أئني لئن كنت حسبا

وتلاقيا بعد ذلك عند ابن تاشفين في تلك الغزوة، والمعتمد قد تزنى بحمل العمامة ولس البرنس، يتقرب بذلك على عزمه، فنظر إليه المعتمد، وفهم المعتمد أنه يهزأ به وانصرف، فضاحك المعتمد في ذلك من جالس من الوزراء. وأهدى ذو الوزارتين أبو الحسن بن اليسع منهم عيشي ذلك اليوم من فرجس، فكتب إليه المعتمد، معرضا بابن عمادح بأبيات منها:

ولقد ذكرت فزاد عيني قرّة هون السبال وجزى رب البرنس^(١٣١)

ومع ذلك لا يمكن القول إن العمامة والبرنس كانا مجهولين لدى الأندلسيين، ولو أن العمامة ظل ارتداؤها في الحقيقة وفقا على القضة والعلماء فحسب، دون غيرها، وكانوا يعتبرون ارتداء الجند لها مخالفا للشرع. ونرى ذلك واضح يوم أن فكر عبد الرحمن شنجول قبل أن يتحرك في غزوته ضد ليون عام ١٠٠٩م، في أن يحل العمامة محل الطيلسان، وفكر في أن يرتديها هو نفسه، وخذ من أنكى ما ارتكب حمله «رجال المملكة ونوى الهيئات من طبقات الخدمة» [بطرح قلائسهم، والانتقال عنها إلى العمامات، ومن فرط في ذلك عوقب، فلبسوها على كره، وكانوا بها أقبح منظر، وأهجن زى وملبس، لمخالفة العادة]^(١٣٢). وفيما يتصل باجرنس نعرف أن الأمويين كانوا يستخدمونه، وقد قدّم الحكم الثاني واحدا منه إلى أردون الرابع عند رحلته إلى قرطبة عام ٣٥٢ هـ = ٩٦٣ م^(١٣٣)، وكان عبد الرحمن شنجول نفسه يرتدى البرنس عندما يكون وسط نسائه^(١٣٤).

(١٣٠) السقطي يستخدم جمع الكلمة مأثور حتى اللباس الذي يرتديه الذين يعملون في الحمامات، وسأله في الحلة ٦٧، ومجموعها ١١، مما يتفق مع المعنى الذي يرد في النصوص الشعرية، ولكن ابن عبيدون يستخدمه بمعنى لباس يوضع على الرأس يختلف عن الحمام والثام. انظر: رسالة ابن عبيدون في الحسب، ص ٢٥٥ من المعجم.

(١٣١) من الكامل. الحلة ٨٥/٢ وما جدها في أحاديث ط ١ ص ١٤٥، والدرجة ص ١١٨، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٨٣.

(١٣٢) انظر: التويري، قسم الحاصل بالأندلس في نهاية الأرب، نشره جيسار ديمرو بالعمية وترجمه إلى الإسبانية بعنوان: «تاريخ مسلمي إسبانيا وأفريها»، ودرزي، معجم الملابس ٨-٣، والبيان المغرب ٤٨/٣، وتاريخ مسلمي إسبانيا ٢٨٣/٢.

(١٣٣) ابن حيان في نفع الطب ١/٣٩٠ ودرزي في معجم الملابس ٢٩. وهذا البرنس كان منسوجا بالذهب له بوزة مفرقة من خالص التبر، مرصعة بالجوهر واللؤلؤ. وعن تاريخ البرنس انظر: ج. مرسية، عادات الجزائر الإسلامية، ص ١٧ - ٢٢.

(١٣٤) أعمال الأعلام ٩٠.

ومع مجيء المرابطين انتشر استخدام البرنس سريعا، وثمة فقرة في كتاب القلائد تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن البرنس كان هو الغفارة نفسها^(١٣٥). وشاع أيضا لبس العمامة وحقى الفرسان والجنود كانوا يلبسونها^(١٣٦).

ويبدو أن استخدام الجلود، والملابس المبطنة بها، كان عادة واسعة الانتشار^(١٣٧)، وكثيرا ما يتردد ذكر فرو الأرانب، وفرو حيوان آخر يدعى الفنك في أبيات الشعراء. يقول أبو القاسم بن السقاط: **تُطاعتنا فيه ثُدَى نواهدُ نَهْنَحَ الحربي والسنور أفتاك**^(١٣٨) ويصف ابن سارة فروا له:

أودت بذات يدي فُرَيْة أرنب كفؤاد عُروة في الضى والرقية
إن قلت ياسي الله عند لباسها فرأت على إذا الساء انتشت
يتجشم الفراء في ترقيمها بعد المشقة في قريب الشقة
لو أن ما أنفقت في إصلاحها يحصى ل زاد على رسال الدجلة

وبما أن هذه الفراء كانت تأتي من الشمال، فإن الحيوان الذي تطلق عليه كلمة فنك لا يمكن أن يكون ثعلب الصحراء Fennec، والذي يعيش في شمال أفريقيا فحسب، وإنما يعني ابن عرس، وكان المسيحيون يعرفونه باسم الفنك^(١٣٩).

وعندما عاد المنصور من حملته على مدينة شانت ياقب حمل معه قدرا من هذا الفراء^(١٤٠). وعندما استقبل المعتمد الشاعر ابن حمديس، بعد أن جعله ينتظر طويلا، أجلسه على مقعد مغطى بفراء الفنك^(١٤١). وقدم ابن عمار نفسه على ابن طاهر في مرسية، وهو يرتدي فروة نهجل طبيعتها^(١٤٢). وكان الأندلسيون، كبقية شعوب الأرض، لا يقفون عندلون واحد هو المفضل عندهم دون غيره، ولكنهم أظهروا ذوقا يجعلهم يختلفون في وضوح عن بقية أخوتهم في الدين من المشاركة، وإنما على

(١٣٥) انظر ما سبق ص ٢٧٩ من هذا الكتاب، حيث ترجمنا أبيات ابن هشون التي توجه بها إلى الفتى بن خاقان لأنه تلقى منه غفارة، القلائد ص ٢٩٠. وابن قزمان يطلب دائما من محدثيه غفارة، وصفها يتفق تماما مع البرنس. انظر الديوان المجلد ٢٤، ٨٧ و ١٠٣. وقد ترجمها ناشر الديوان بلفظ Cape، وهو ما يؤكد المعجم ص ١٥٠ و ٢٧٩ - ٢٨٠. وانظر أيضا: الوتريشي La pierre de touche. طبعة إ. أمار، ٣٨٥/١، والهامش رقم ٢، وجودغوري - ديومين، ألف ليلة وليلة، ص ٢٢٠، هامش رقم ٢: غفارة.

(١٣٦) القلائد ٣٦٩، والبيت لابن سارة.

(١٣٧) عن صناعة الجلود والفضة انظر: لينى بروقتسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، ص ١٨٤، والمصادر المذكورة هناك، والهامش ٢ و ٣، وابن عدون رسالة في الحسية، طبعة لينى بروقتسال، النص العربي ص ٤٨، والمعجم اللغوي ٢٨٥. (١٣٨) من الطويل، القلائد ١٧٢، وابن سارة أيضا له أبيات عن فريات الأرانب، القلائد ٢٦١، وأوردناها بعد هذا البيت.

(١٣٩) البيان المغرب ٣١٩/٢، وترجمته ص ٤٩٥.

(١٤٠) انظر: سانتشيت البرنس، صور ٦٩، وملحق ١٨٦/٣. وغوث موريش، كنائس المستعربين ١٢٦. وهذان المؤلفان يترجمان «جلد ابن عرس». وعن الساحة اللغوية لابن عرس انظر: ميتنيت بيدال، أصول الإسبانية، ط ٢ ج ١ ص ٤٢٠، والصور ص ٤١٦.

(١٤١) نفع ٦١١/٣.

(١٤٢) الأخيرة ٣٦/٣، ونقله عنها دوزي في معجم اللباس ٣٦٤، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١١١.

النقبض، تقترب بهم من الشعوب المسيحية في شمال شبه الجزيرة.

والتماذج التي أدخلها زرياب، المتي في عام ٢٤٣ هـ = ٨٥٧ م، وتمثل في ارتداء الملابس البيضاء صيفا، والملونة في بقية فصول العام، لا يبدو أنها تأصلت بحق في إسبانيا^(١٤٣). وقد أشرنا فيما سبق إلى السبب الذي جعل الأندلسيين، أو بعض الطبقات الاجتماعية على الأقل، يرفضون اللون الأبيض، وأشرنا أيضا عندما تحدثنا عن ابرهورة أن الشعراء الإسبان المسلمين كانوا يفضلون اللون الأحمر، على حين أنهم في المشرق كانوا يفضلون اخرجس الأصفر، ونلمس الشيء نفسه فيما يتصل بالملابس، فبينما نجد المشرق لا يعرف المرأة الجميلة إلا في ملابس صفراء، نراها في الغرب الإسلامي تظهر وهي في أبهى زينتها ترتدي ملابس حمراء فحميب.

يقول ابن عمار في قصيدة يدح بها المعتضد:

وصبغت درعك من دماء ملوكهم لما علمت الحسن يلبس أحمر^(١٤٤)

ويؤكد ابن حزم وجهة النظر هذه ويقول:

إذا ما رأيت عيناى لابس حمرة تقطع قلبي حسرة يتمزقا
غدا لدماء الناس باللحظ سافكا وضرج منها ثوبه فتعفرا^(١٤٥)

وإذا كان المشاركة يحترمون اللون الأصفر، فقلة فحسب من ملوك الطوائف في إسبانيا كانت تعجب به في بداية القرن الحادى عشر. وكان مؤسس الدولة الصنادية في إشبيلية أبوعمرو بن القاسم عباد يحب الملابس الفاخرة، ويلبس ثوبا رفيع القدر، نرجسى اللون، وصفه أحد شعرائه، أبوالأصبع بن عبد العزيز في يوم احتفال، يقول:

كأنما صفرة أثوابه وطبيها نرجسه إذ تثنم^(١٤٦)

(١٤٣) انظر فيما سبق ص ٢٦٩ - ٢٧٠ من هذا الكتاب، وابن دحية الطرب ١٤٧ ونفع ٣/٣٢٦، ومع ذلك يجب أن نشير إلى أن تقويم قرطبة لعام ٩٦١، ص ١٠٠، يسجل أنه في شهر أكتوبر، مع وصول ليرد، ترك الناس لبس الملابس البيضاء، وارتدوا ملابس السود.

(١٤٤) من الكامل، القلائد ٩٧. وانظر فيما سبق ص ٢٤٣ من هذا الكتاب، وشعر ابن سعيد وهو من القرن الثانى عشر، إلى استعمال النظارة حمراء أو خضراء، لأن اللون الأصفر مخصص لليهود، نفع ١/٢٢٣.

(١٤٥) من الطويل، طوق الحماة، حر ٢٣٨ ترجمة نيكل ص ١٦.

(١٤٦) من السرج، أبو الوليد الخميرى، البديع في وصف الربيع، ص ١١٧ - ومع ذلك توصف العروس بأنها تلبس الأصفر، انظر، نفع ٢/٤٠٧ طبعة أوربد، وص ٣٠٣، فيما سوف يأتي.

○ الفصل الرابع:

إطار الحياة المترفة

الصفحات التي سبقت عن المنسوجات والعمائر تظهر ميل الأندلسيين إلى الترف والحياة المصقولة^(١)، وكانت الأشياء الثمينة وكماليات الزخرفة التي تحيط بالإسباني المسلم تنم عن فوق رفيع وميل إلى الأشياء الجميلة، وتقدم لنا في الوقت نفسه صورة عن مستوى الحضارة الذي بلغه شبه الجزيرة في القرن الحادي عشر الميلادي، في المجالين المادي والفني.



نحن نهش عند قراءة وصف الطبيعة، وبخاصة الحقائق، والتشبيهات الكثيرة التي تشير إلى الأحجار الثمينة، والمعادن النفيسة، والجواهر، وصياغة الحلي، والأحجار الثمينة الأكثر تردداً في الشعر هي: العقيق، ولونه أحمر، والياقوت، وقد يكون أزرق أو أصفر أو أحمر^(٢)، والزمرد، وهو أخضر، والزبرجد، وهو أصفر مائل إلى الخضرة، واللازورد، وهو أزرق غامق، والفيروزج، وهو أزرق. ونعرف عن طريق المقرئ أنه كانت في إسبانيا أحجار ثمينة بالغة التنوع، كالياقوت الأحمر في حصن منت مايور من كورة مالقة، إلا أنه دقيق جداً لا يصلح للاستعمال لصغره، وحجر آخر يشبه الياقوت الأحمر يكثر بناحية بجانة، في خندق بقرى قرية ناشرة، حسن اللون، صبور على النار، ويكثر حجر الشاذنة^(٣) بجبال قرطبة ويستعمل في التذهيب، وحجر اليهودي في ناحية حصن البونت، وحجر المرقشيا الذهبية في جبال أئدة، وحجر اللؤلؤ في برشلونة، إلا أنه جامد اللون، والمرجان بساحل بيرة من عمل المرية، وكان اللازورد الجيد في لورقة من عمل تدمير، ويذكر المقرئ حجراً آخر مثل البلور على مقربة من حصن لورقة، وقد يوجد بجبل شحيران وهو شرقي بيرة، والحجر البجاري في جبل قريب من لشبونة، يتلأأ فيه ليلاً كالسراج^(٤). ومن جانب آخر لم يذكر العقيق الأحمر ولا الزمرد ولا الزبرجد ولا الفيروزج الأزرق، مما يحملنا على الظن بأنهم كانوا يستوردون هذه الأحجار.

(١) يقول ابن شرف:

من اللوك الألى اعتادت أوتاهم سحب البرود ومسح المسك باللم

من البسيط. القلائد ٢٥٥.

(٢) التيفاشي، الترفي ٦٥٦ هـ = ١٢٥٣ م، في مؤلفه «كتاب أزهار الأفكار في الجواهر والأحجار» يذكر عشرين نوعاً من العقيق. انظر. كلمنت ميبه، دراسة عن المعادن العربية، في المجلة الآسيوية الحلقة ٦، المجلد ١١، عام ١٩٦٨، ص ٢٠ - ٣٧.

(٣) يشك كلمنت ميبه في ترجمة هذه الكلمة *Especie de Lente juega* انظر المصدر السابق ص ١٨٦، ولكن التيفاشي يرى أنها ترجمة الكلمة الإغريقية *aimatitos*.

(٤) تنح ١٤٢/٦، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ١٧٧.

وبالطريقة نفسها، تكشف لنا دراسة الأزهار عن كثرة استعمال أسماء المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة، فالذهب يجمع تحت أسماء مختلفة مثل: الإبريز والتبر والذهب والمسجد والعقيد والنصار، والفضة وتذكر بهذا الاسم أو بكلمة المجين، كانا يوجدان في إسبانيا أيضاً، الأول في رمل نهر لاردة، وشرق، وتاجد، والثاني في مناطق مرسية ولحامة وقرطبة، قريباً من Hornachueios، وفي صوطالي، من كورة بلحة^(٥).

وتتردد بكثرة في قصائد الشعراء كلمات جواهر، وتطلق على اللؤلؤ بعامية، واللؤلؤ وهو الأبيض منه، والرّد وهو لؤلؤ كبيرة الحجم، ويعبر المرجان عادة في الشعر عن فكرة الصفرة الفاقعة أو الحمرة، وكان يستخرج من على ساحل البحر قرب المرية، وأقل ما تقط منه في أقل من شهر نحو ثمانين ربيعاً^(٦). وكان الشعراء يستخدمون في التعبير عن البياض الشفاف كلمات البلور والمها، ومعناها واحد، ولكنهم يستخدمون الأخيرة أكثر من الأولى، وقد أشرنا من قبل إلى أن البلور كان يستخرج على مقربة من حصن لورقة.

كل هذه المواد التي عرضناها كانت تستخدم في صنع الأشياء الثمينة التي أعطانا الشعراء أسماءها، فكانوا يطلقون على الجواهر وما يُخزّن به كلمة حلية أو حلّ، وقد طابق أحمد بن هشام في وصف النرجس بين الجزء الأوسط منه توصفه بأنه مثل الإبريز على حين أن نوره مثل الجمان المصفى:

كَلِمًا فَاحَ نَشْرُهُ قَلَّتْ إِلْفُ فِي دُجَى اللَّيْلِ عَاطِرُ زَارِ إِلْفَا
وَإِذَا مَا لَحِظْتُهُ قَلَّتْ أَلْفَا طُ خَلِيعٌ قَدْ مَالَ سُكْرًا فَاعْفَى
مِنْهُ مِثْلُ الْإِبْرِيزِ فِي صُفْرَةِ اللَّوْ بِنْ وَمِنْهُ مِثْلُ الْجِمَانِ الْمَصْفَى
فَكَأَنِّي بِمَا أَقْلَبُ مِنْهُ ضَيْرُفِي أَضْحَى بِحَاوِلٍ صَرَفَا^(٧)

ومن الحلّ الحواتم، بقص أو يدونه والعقود والتنوف أو القرط لتحل بها الجبهة، والدملج، والسوار، والوقف، والقلب. وكانت محلات الصياغة لكبرى تتركز في قرطبة وإشبيلية^(٨)، ويشير ابن حزم إلى مهارة الصياغ الذين يبرزون بدقة بين الذهب المحض والذهب المشرب بفضة:

كَالْتَبِيرِ إِنْ تَمَرَّجَ بِهِ فِضَّةٌ حَازَتْ عَلَى كُلِّ مَتَى جَاهِلٍ
وَإِنْ تُصَادَفَ صَائِفًا مَاهِرًا مَيَّزَ بَيْنَ الْمُخْضِرِ وَالْحَائِلِ^(٩)



وتشّى أوصاف الشعراء أيضاً بوجود أشياء من العاج والأبنوس. فمن العاج كانوا يصنعون بخاصة

(٥) ليفي بروقسنال، المصدر السابق ص ١٧٦، اعتماداً على القرى والإدرسي ديافوت، وانظر، ابن حزم، مخطوطة القسطنطينية، تحليل أسين بلاثيوس في مجلة الأندلس، المجلد ٢، عام ١٩٣٤، العدد الأول، ص ٣٥ و ٣٦.

● وهي رسالة التلخيص لوجه التلخيص، ونحن بصدد إعدادها للنشر.
(٦) نفع ١٤٢/١ - ١٤٣. والربيع أداة وزن تساوي ٢٥ رطلاً، أي ربع قنطار. انظر: السقفي، رسالة في الحسة ص ٣٠، وابن عيود، رسالة في الحسة ص ٢٧١.

(٧) من الخليفة أبو الوليد البديع ص ٦٦

(٨) ليفي بروقسنال، أسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ١٨٤.

(٩) من السرج، ابن حزم، طوط الحسنة ص ٩٤، وترجمة نيكل ٩٢، وفي طبعة برشييه ص ١٦٤.

عَلَيْهَا لِحْفَظَ الْحَلِي وَالْعَطُور^(١٠١)، وأدوية الحرب، وأغمدة السيوف، وقطع الشطرنج وغيرها^(١٠٢). ومن الأبنوس كانوا يصنعون المحابر^(١٠٣). ومع ذلك فمن الصعب أن نقدم قائمة كاملة اعتماداً على الشعراء بالأشياء التي كان يستخدمها الأندلسيون في حياتهم اليومية من أية طبقة كانوا، والتي تتم عن حضارة مصقولة.

ولم تكن هذه الأشياء توجد في أيدي الناس فحسب، وإنما نلتقي بها في الأبنية الدينية أيضاً. ومن المعروف أن المتبر في جامع قرطبة كان من خشب الأبنوس المطعم بالعاج^(١٠٤). والنسخة القديمة من القرآن الكريم، وتضم فيها يقال، أربع صفحات كتبها الخليفة عثمان بخط يده، [وفيه نقطة من دمه]. كانت طبقاً للإدريسي محفوظة في «غشاء بدع الصنعة، منقوش بأعرب ما يكون من النقش وأدقة وأعجبه». وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعة، وله بموضع المصل كرسي يوضع عليه، ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه، ثم يرد إلى موضعه^(١٠٥). ويقول الإدريسي أيضاً: «وفي أعلى الصومعة، على القبة التي على البيت، ثلاث تفاحات ذهب، وأنتان من فضة، وأوراق سوسنية»^(١٠٦). وكانت أبوابه «مصفحة بصفائح النحاس، وكواكب النحاس، وفي كل باب منها حلقتان في نهاية الإتيان، وعلى وجه كل باب منها في الحائط ضروب من الفص اتخذ من الآجر الأهر المحكوكه أنواع شتى، وأجناس مختلفة من الصناعات والتريش وصدور البراة»^(١٠٧).

وقد تُنخذ ثريات المساجد أحياناً من المعادن النفيسة، وكانت ثرياً مسجد مالقة الجامع من القصة. أهداها إليه تميم بن بُلْقَيْن عامل المدينة، قبل أن يزيج المرابطون عبدالله بن زيري أمير غرناطة عن الإمارة بوقت قليل^(١٠٨). ويصف أبو تمام غالب بن رباح الحبّام قلعة رباح على النحو التالي:

انظرْ إلى سُرُجٍ في الليل مُشْرِقةٍ من الزجاج تراهها وهي تلتهبُ
كأنها أَلْسُنُ الحَيَاتِ قد برزت عند الهجير فما تنفكُ تضطرب^(١٠٩)

(١٠١) سنعود إلى هذا الموضوع فيما بعد بمناسبة التماثيل. ونلاحظ هنا أن الشعر العربي في المشرق يستخدم حتى العاج في تشبيه بطن الحبيبة أو هدها. انظر ملقة عمرو بن كلثوم البيت ١٥. وديوان الأعشى، طبعة جيزر، القطعة ٣٩ البيت ٣٢، ص ١٧٧. وانظر أيضاً فيما سبق ص ٣٠ رقم ١٠٥.

(١١) انظر فيما سيأتي ص ٣٠٥ رقم ٢.

(١٢) الأبيات لأبي الطاهر الميجاني المشهور بابن أبي ركب في نفع ٣٢٢/٤.

(١٣) ليفي برونفساله إسبانيا الإسلامية، ص ٢١٨ ورسم ١.

(١٤) الإدريسي ص ٢١٠ والترجمة ٢٦٠. وقد أصبح هذا المصحف تحت حكم الموحدين أثراً حقيقياً مزينة بالذهب والدر، الأبيض، والياقوت، وحتى العبة التي كان فيها عليها أغشية الديباج، وهو على كرسي لعود الرطب يسامر الذهب. انظر: نفع ١/٥٤٨، و٥٦٣ و ٦٠٥ إلى ٦١٥. والمراكشي، المصجب ص ٢٥٣، والترجمة ٢١٨.

● درست ترويض مصحف عثمان في الأندلس تفصيلاً، وما أحاط به من قصص وحكايات، في فصل الحقته يترجمي لكتاب المستشرق الألماني فون شاك، وصدرت طبعته الثانية عن دار المعارف ١٩٨٥ بعنوان: الفن العربي في إسبانيا وصقلية. (الترجم) (١٥) الإدريسي، المصدر نفسه، للنص العربي ٢١٢، والترجمة ٢٦٢. ونفع ١/٥٤٨ و ٥٦٣. وأعمال الأعلام ٣٨.

(١٦) الإدريسي المصدر نفسه، النص العربي ٢١١، الترجمة ٢٦١.

(١٧) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ٢٣٦.

(١٨) من البسطة نفع ٤٦٦/٣.

وإذا كان مستوى الحضارة يقياس بالقدر الذي بلغت فيه كثرة استخدام الأشياء الثمينة فيجب أن نعرف بأن القرن الحادى عشر فيا يتصل بإسبانيا الإسلامية كان أزهى عصورها، وفيه بلغت أوج بهائها.

وفي هذا العصر تأصل الترف وشاع، ولتذكر جنون المعتمد حين أراد أن يرضى أهواء اعتماد الريميكية «حين رأت ذات يوم بإشبيلية نساء اليداية يبعن اللبن في القرب، وهن رافعات عن سوقهن في الطين، فقالت له: أشتى أن أعمل أنا وجوارى من هؤلاء النساء. فأمر المعتمد باعتبر والمسلك والكافور، وماء الورد، والقرقة والزنجبيل، وعطور مختلفة الأنواع، وصير الجميع طينا في انقصر، وجعل لها قريبا وجبالاً من إبرسم، وحرجت هي وجواريا تخوض في ذلك الطين»^(١٩).

وقد وجّه على بن مجاهد ملك دانية إلى مصر عام ٤٧٧ هـ = ١٠٥٥ م مركبا ضخما ملوفا بالطعام عام المجاعة المضروب بها التل في البلاد، فأعادوه إليه مملوفاً مالا وذخيرة^(٢٠).

ولكى يؤثر عيد الله بن زهير في ألفونسو السادس أعد له سجادا وأقمشة وأواني جمعت كلها في خيمة كبيرة، ولكن الملك المسيحي وجد الأقمشة غير جميلة بقدر كاف^(٢١). وكذلك فعل المستعين ملك سرقسطة حين علم أن يوسف بن تاشفين عاد إلى إسبانيا، فأرسل إليه ابنة عيد الملك بهدايا قيمة، من بينها أربعة عشر ربعا من أنية لفضة مطرزة باسم المقتدر بن هود، فأمر يوسف بن تاشفين بضرها قرايط مرابطة، وفرقتها في طباق الأرباطين على من يحيطون به، ليلة الاحتفال بعيد لأضحى عام ٤٩٦ هـ = ١١٠٣ م^(٢٢).

ومن السهل علينا أن نصيف وقائع تاريخية أخرى. وبخاصة فيا يتصل بالمعارك بين لأندلسيين والبربر، أو بين المسلمين والنصارى، لتثبت وجود ثروات هائلة كان الأمراء أو قادة الجيوش يحملونها معهم، كضرورة من ضرورات الحياة اليومية، أو وسيلة للرشوة والإفساد^(٢٣).



إن الأشياء التي انتهينا من حديث عنها، وهي ذات قيمة في ذاتها من حيث المادة التي صنعت منها.

(١٩) النجاشي، تحفة العروس، ص ١٥٢/٢، وتقع ٤٤٠/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٨، والكوند لو كاتور ص ١٦٨، ويتو عباد ١٥٣/٢ رقم ٤٠.

(٢٠) البيان المغرب ٣/٢٢٨، وأصل الأعلام ٢٢١، ويذكر أنها كانت في عام ٤٤٦ = ١٠٥٦. وانظر: فيسته موجز تاريخ مصر ص ١٨٦، ويذكر أن قطعا عظيما عم البلاد، واستمر عدة أعوام، وبلغ أقصى شدته عام ٤٦١ = ١٠٦٩.

(٢١) عيد الله بن زهير، مذكرات، طبعة ليلى برونسال، فصلة مستقلة، ص ١٢٢/٨٩.

(٢٢) أعمال الأعلام ١٧٤.

(٢٣) انظر مثلا: أعمال الأعلام ص ١٣٧ و ١٨٧ و ٢٢٤ و ٢٤٩، ويشير هنا إلى رؤوس بعض الوثائق المتصلة بالموضوع فتمت؛ لأشياء الثمينة التي قدمها في القرن العاشر رود سيندو ووالده إلى دير نيلانوا عام ٩٣٨. انظر: غومت مورينو، كتاب المستعربين ٢٤٢، والتي قدمها ابن شهيد إلى عبد الرحمن الناصر عام ٣٢٧ = ٩٣٩، انظر: نفح ٢٥٦/١ - ٣٦٠، وابن خلدون، المعبر ١٣٨/٤، وليلى برونسال، أسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٠٢، والتي قدمها جعفر المصطفى إلى الحكم المستعمر عام ٣٥٠ = ٩٦١، انظر: ابن خلدون، المعبر ١٤٤/٤، طبقا لابي حيان في المفتش، والتي قدمها المنصور بن أبي عامر إلى الأمراء المسيحيين والمسلمين في عودته من غزوة شانت ياقب عام ٣٨٧ = ٩٩٧، انظر: ابن عذارى، البيان ٣١٩/٢، والترجمة ٤٩٥.

وأضفت على حياة الأندلس طابعا جماليا خاصا، وشاغلاً فنيا، ولكنها تستمد قيمتها الجمالية من الأشكال التي تصوّرها.

وقد أدت العلاقات المستمرة بين المسلمين والمسيحيين بالطبيعة إلى أن يستخدم كلا الجانبين الأشياء نفسها: الأقمشة والأثاث، وأدوات الزينة والحلي، وفيما يبدو قام المستعربون واليهود بدور الوسيط بين شمال إسبانيا والأندلس والمناطق الواقعة على شاطئ البحر الأبيض، وكان اليهود يجلبون الأعمال الفنية والملابس الغالية من بيزنطة وبيداده والقاهرة، وكانت الأكوأب العراقية^(٢٤)، والأقمشة السلطانية^(٢٥) أهمها فيها يبدو.

ونعرف أن الأشياء المخصصة للاستخدام في قصور الأمراء أو في بيوت عامة الناس، ما عدا المنشآت الدينية، كانت مقبولة كما هي، حتى لو كانت تصور كائنات حية، ولم يعد الناس يهتمون بمحو النقوش الموجودة على الكؤوس، وفيها صور شخصيات، ولا بإزالة رسوم الحيوانات المطرزة على الأقمشة فحسب، وإنما كانوا يصنعون كثيرا من هذه الأنواع، والتحرير الديني الذي يلزم كل المسلمين بتعطيم كل الصور^(٢٦) لم يكن ملتبزا من قبل الإسمان المسلمين، ولا من جانب المسلمين المشاركة أيضا^(٢٧).

ويؤكد الشعراء حين يستخدمون كثيرا كلمات تعبر عن تصوير الكائنات الحية، وحين يصفون التماثيل والأشياء المزينة بالرسوم، تأكيداً واضحاً ما سبق أن قلناه هنا. يقول أبو بكر بن رُحيم عن أخيه:

لو كانتِ العلياء شخصاً ماثلاً لرأيتُ منها مكانَ المُفْسرِ^(٢٨)
ويشبه ابن بقي النساء بأنهنّ دمي من العاج أو الرخام^(٢٩).

(٢٤) حول هذه الأبيات انظر فيما بعد ص ٣٦٦ من هذا الكتاب.

(٢٥) عن السلطان. وهو نسج حريري مرصع، غني بالزخارف الذهبية، يستورد من أنطاكية وبيداده. انظر: ج. س. كوليت، *Latin Sijillatus romance Siglaton escarlat* في مجلة رومانيا، مجلد ٤٦ عدد ٢٢٢، أبريل ١٩٣٠، ص ١٧٨ - ١٩٠، وعدد ٢٢٣، يولية ١٩٣٠، ص ٤١٨، وغموت مورينو، كنائس المستعربين، ص ١٢٦ رقم ٦ وص ٣٢٤ رقم ٤، وص ٣٣٦ و ٣٤٥، والبيان المغرب ٢/٣١٩ - ٤٩٥.

(٢٦) عن هذا الموضوع انظر المقال المتنازع الذي كتبه هينسليك في دائرة المعارف الإسلامية ٤/٥٥٨ - ٥٩٠، مادة صورة. ● وانظر أيضاً الدراسة القيمة التي قام بها المستشرق الألماني فون شاك في كتابه: شعر العرب وفهم في إسبانيا وصقلية، وقد ترجمنا الجزء الخاص بالفن، وصدر عن دار المعارف بعنوان: الفن العربي في إسبانيا وصقلية، القاهرة ١٩٨٥. (المترجم). (٢٧) انظر: ج. فييه مساجد القاهرة ١٦٧ - ١٨٣، و.ج. مرسية، مسألة الصور في الفن الإسلامي، في مجلة بيزنطة، المجلد ٨، العدد ٦، عام ١٩٣٢، ص ١٦١ - ١٨٣، وصور الأشخاص والحيوانات المنحوتة في الأخشاب من العصر الفاطمي، والمحمولة في متحف القاهرة، في تكريم سيبيرو، المجلد ٢ (بحوث المعهد الفرنسي في القاهرة، المجلد ٦٨، ص ٢٤١ - ٢٥٧، وهذا لا مانع، موقف الإسلام الأصلي في مواجهة الفنون المصوّرة، في المجلة الآسيوية، السلسلة الثانية، المجلد ٦، عام ١٩١٥، ص ٢٣٩ وما بعدها، و. ك. أ. كريزويل، شرعية الرسم في صدر الإسلام، في مجلة الفنون الإسلامية، ميتشجان، الأجزاء ١١ - ١٢، عام ١٩٤٦، ص ١٥٩ - ١٦٦.

(٢٨) من الكامل، القلائد ١١٧، المنفر ودخل اللغة الإسبانية في صورة almofar، طاقية أو طرطرور من القماش لحماية الرأس. انظر فيما سبق ص ٣١٢ من هذا الكتاب.

(٢٩) من الطويل، القلائد ٢٧٩.

وقالوا ألا تبكى فتلك مطيهم على الشهب تحمل خرائد كالدمى^(٣٠)
ويعمل شاعر آخر خياله ليضفي على الوهم شكلاً ما^(٣١)، بقول أبو محمد بن السيد البطليوسي
بحبها شاعرا قرطبا مدحه:

ما كنت أحسب أن النمرات غدت يصيدها شرك الأوهام ولقد فكر
ولا توهمت أيام الربيع نرى في ناجر غضة الأنوار والزهر^(٣٢)
ريضي ابن الحداد على فكره مزيدا من الدقة فيكمل التوهم بالتصور:
حجبوك إلا من توهم خاطري وحجوك إلا من تصور بالي^(٣٣)
ولكن الكلمة الأكثر شيوعا في الاستخدام هي صور، وتعني تصوير الشيء المعنوي وانجسد بشيء
محسوس وواضح، ومن قبل قال أبو تمام:

ما لنور الربيع من غير حسن ما لهم من غير انشوان
أنكرتهم نفسي وما ذلك إلا إنكار إلا من شدة العرمان^(٣٤)
ويقول الأندلسي عبادة بن ماء أساء متوجها إلى حبيبته:

ما مر يوم عني لم أرك إلا وجدت الضمير صورك
ولا مبيتني وأنت لست معي إلا مبيت القطاة في الشرك
أما أنا فالبعد غيرني وأنت خوف الرقيب غيرك
يا لعبة صورت لست دمي غطي بفضل التقاب تحجرك^(٣٥)

ويقول ابن دراج القسطلي، في عام ٤٢٨ = ١٠٣٦، حين كان في سرقسطة، متوجها إلى المنذر:
ما صور الإيمان في قلب امرئ حتى يراك الله فيه مصورا^(٣٦)
ويقول ابن عمار متوجها إلى المخذد:
أقسمت باسم الفضل حتى شمته فرأيت في بردتيه مصورا^(٣٧)

(٣٠) عن معنى لسمية أنظر: النشوي، شرح مقامات الحريري ٢٢٤/٣ و ٢٥٦. للقائمة البدوية رقم ٤٢، والقائمة الرملية رقم ٤٥. وينو عباد ١٦٤/١ رقم ٥٢٨.

(٣١) المحجم يعطي الشكل الخامس نفس معنى لشكل الأول «*via prestigii mirari*». انظر: دوزي، ملحقات المعاجم العربية مائة وهم، ٨٤٦/٢.

(٣٢) من البسيط القلائد ١٩٦.

(٣٣) من الكامل، نفع ٥٠٣/٣، ودوزي، بحات ط ١ ص ١٠١، وانظر فقرات أخرى تضيئ مزيدا من اعتماد على معنى تصور. في القلائد ص ٢٦٣ أبيات ابن سارة، و١ ص ١٠٩ يقول الفصح بن خاقان بمناسبة أبي القاسم بن الجند: «به أدب لو تصور شخصا، لكان بالقلوب محتضما».

(٣٤) من الرجز، الديوان ٤٢٦ طبع بيروت.

(٣٥) من المنسرح، الذخيرة ٤٧١/١. وتسب هذه الأبيات لابن الكثاني أيضا.

(٣٦) من الكامل، أعمال الأعلام ٢٠٠.

(٣٧) من الكامل، القلائد ٩٧.

وهذا الشيء المحسوس يمكن أن يكون دمية أو صورة أو رسماً يمثل كائناتاً محدداً، يقول ابن عبدون في مطلع رأيته الشهيرة:

الدهرُ يفجّع بعد العينِ بالأنثى فما البكاءُ على الأشباح والصُّورِ^(٣٨)؛
ويقول أبو الفضل الدارمي في بلاط المأمون بن ذي النون أمير طليطلة، وقد أرق ليلة:
يا ليلُ ألا انجلبتِ عن قلبي طُلْتُ ولا صيرُ لي على الأرقِ
جفا لحاظي التغميضُ فيك فبما تُطبق أجفانها على المَحَقِ
كائننى صورةً ممثلةً ناظرها الدهرُ غيرُ منطبقِ^(٣٩)

ويستخدم ابن حزم التعبيرين: صورة، وصورة مُثَلَّتْ، في الأبيات التالية، متحدثاً عن حبيبته الغائبة:

يا لَيْتَ شعري مَنْ كانت وكيف سرْتُ أطلعتُ الشمسَ كانت أم هي القمرُ
أظنها المقلُّ أبداه تدبُّره أو صورة الروح أبدتها لي الفكرُ
أو صورة مُثَلَّتْ في النفس من أُمِّي فقد تحيَّرَ في إدراكها البصرُ
أو لم يكنْ كل هذا فهي حادثة أتى بها سبباً في حثيِّ القمرِ^(٤٠)

وفي النهاية أصبحت كلمة صورة تعني امرأة جميلة، كما هو الحال في أبيات ابن اللبانة، التي يسترجع فيها لحظات السعادة على ضفاف الوادي الكبير:

نهرُ شربتِ بغيريهِ على صُورٍ كانت لها في قبلِ الراحِ سوراتُ^(٤١)

وما ذكرناه سابقاً يساعدنا على أن نفهم الفقرة التي يقول فيها ابن حزم: «إن أهل الأندلس صيِّنون في إتقان الصنائع العملية، وإحكام المهن الصورية»^(٤٢).

ولدينا شواهد على أنه كانت توجد في الأندلس، وفي قرطبة بخاصة، حرفيون يتركز شاغلهم الأساسي في نسخ صور كائنات معينة، وعندما يصف ابن حُصْن إشبيلية عند غروب الشمس بأنها «عروس من الحسن منحوتة»^(٤٣)، فإنما نجد، فضلاً عن التصوير الجميل، تعبيراً دقيقاً عن واقع الحياة اليومية.

ونعمة نصوص تاريخية تبرهن على أنه كان يعيش في مدينة الزهراء عمَّال نحاتون، وهم الذين قاموا

(٣٨) من البسيط، عبد الواحد المراكشي، المعجب ٧٦، والترجمة ٦٤.

(٣٩) من التشرح، نفع ١١٢/٣.

(٤٠) من البسيط، ابن حزم، طرق الحمامة ص ٣٧، و١٩ طبعة بتروقه، وترجمة نيكل ٣٧، وطبعة بيرشيه ٢٤، وعندما يعرض ابن حزم نظرية أفلاطون «المزاج والتواصل» فإنما يستخدم تعبير «صورة حسنة» «تصاویر متقنة».

(٤١) من البسيط، الفلاند ٣٠، وعنه نقلها «بنو عباد» ٧٠/٦، ونفع ٢٢٢/١.

(٤٢) ابن حزم، رسالة في فضل الأندلس، نفع ١٥٦/٣، وأبو حامد الغرناطي، تحفة الأحياء ط ١٢٠٠، في المجلة الأسبوية ١٩٢٥، ص ٢٠٠، ولويس شوندي وسيموست، حضرات عربية ص ٢٥، وانظر فيها سبق ص ٢٣ من هذا الكتاب.

(٤٣) انظر فيها سبق ص ١٠٩ من هذا الكتاب.

بكل تأكيد بنحت تمثال الزهراء، محطبة عبد الرحمن الناصر، وكان يزِين الباب الرئيسى فى قصر الخلافة^(٤٤).



لم يجد المسلمون إذن أى شيء غريب أو مثير فى التماثيل التى كانت تزين قصور كبار لشخصيات، وكانت من صنع الأندلسيين أنفسهم، ولم تتعرض التماثيل الرومانية، وكانت لما تزل موجيدة فى القرن الحادى عشر، إلى أى تدمير من سكان شبه الجزيرة قيبا يبدو. ويشير المقرئ فى فقرة نقلها عن البكرى، المتوفى ٤٨٧ = ١٠٩٤، وفى فقرات اعتمد فيها على الرازى، أحمد بن محمد، المتوفى ٣٤٤ = ٩٥٥، إلى أنه كانت توجد فى سيانبا فى القرن الحادى عشر ثلاثة تماثيل يونانية: واحد فى جليقية، والثانى فى طركونة، والثالث فى قادس^(٤٥).

وقال قادس الوحيد الذى أثار خيال الإسيان المسلمين^(٤٦)، فقد كان حجمه ضخماً، وفى يده الممى مفتاح من حديد، وعدما نحو المغرب. وفى اليسرى صحيفة منقوشة، ويزعم البحارة أنهم لا يستطيعون أن يتجاوزوه. وفى عام ٤٥٠ = ١١٤٥ اعتقد على بن تيسى بن ميمون قائد الأسطول المراتى أنه من معدن نفيس، ويحتوى على كنوز ضخمة، وأن داخله محشو تبرا، فقام بهدمه وتقطيعه^(٤٧). وفيه يقول ابن شخص شاعر من نهايات القرن العاشر الميلادى:

ورجراجة الأرداف مَوَارِدُ الخَطَا	تُهاذى وليست من حسان الأوانس
إلى أن ترى الشخص الملبغ مؤمياً	على الصنم الموقى على بحى قادس
ولما نزلنا تحته قال صاحبه	أعاجيب روم أم أعاجيب فارس
فقلنا له خفض سؤالك والتمس	تجارتك من مرمى البحار الكوانس ^(٤٨)



وكشف لنا الشعراء عن وجود تماثيل رومانية أخرى، منحوتة من الحجر العادى دون شك، وصمت عنها المؤلفون والناترون تماماً، فكان فوق باب حصن مر بيطر، ويسمى بالمردى، وسمها القديم Sagunto، قتال، أرمصور بلغة العصر الوسيط، وصفه أبو القاسم بن البراق بأنه قديم جداً:
يباب مر يبطر عايت ذل عيطة
يقول هذى بلادى قد فتحت بها كفى فهل أنت يامضرجر متعط

(٤٤) نصح ٥٢٣/١، طقا لابن عربى فى محاضرات الأبرار ١٠٦/٢، ونصها: «نقش صورتها على الباب».

وتشير هنا إلى أنه كان هناك تمثال للعنقاء موضوع فى قرطبة على الباب الذى إلى القنطرة، ويحمل الاسم نفسه: باب القنطرة، وآخر فوق باب بجاعة الرئيسى انظر: ابن عذرى، البيان ١٤/٣، وأخبار مجموعة ١٥١، وقاويح مسلمى إيبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٦٤، ولبنى برونسال، إسبانيا الإسلامية، القرن العاشر ٢٠٥.

(٤٥) نصح ١٢٦/١.

(٤٦) أبو حامد الأندلسى، تحفة الأحباب، طبعه قرطبة، فى مجلة الأسيوية، المجلد ٢٠٢، عام ١١٢٥، ص ٦٩، والمصادر المذكورة ص ٥. باسبه هرقل ومحمد فى مجلة الهند، ١٩٠٣.

(٤٧) نصح ١٢٧/١، و٢٠٣/١، والناصرى السلاوى، كتاب الاستقصا ١٨٥/٣، والرجة التى قام بها إ. حامد ص ١٧٨، ريدوى، أبحاث، ط ٢ ج ٢ ص ٣١٢ - ٣١٣، وإبراهيم، معجم ٦/٤.

(٤٨) من الطويل، عبد المنعم الحسرى، لروض المطار، رقم ١٢٢، ص ١٤٧ - ١٧٥.

هذا مقامتي والأعصار ما ضية والغنى للناس محبوب إذا وعظوا
فكم زجرت ولكن أين مُزدجرُ عبا أحذرهُ وأين مُتَعَطُ^(٤٩)
وصف لنا الشعراء أيضًا تمثالاً آخر كان في شاطبة، ونعتوه بأنه صنم، يقول أبو عامر بن عثمان
البرياني عنه:

بقية من بقايا الروم مُعجبة أيدى الثبات^(٥٠) بها من علمهم حكماً
لم أدر ما أضمرُوا فيه سوى أمم تنابعت بعد سُمُوهُ لنا صنماً
كالبرد الفرد ما أخطأ مثبته حقاً لقد برد الأيام والأهْما^(٥١)
كأنه راعظ طال الوقوف به مما يُحدث عن عادٍ وعن إرمأ
فانظر إلى حجرٍ صلبٍ يكلمنا أسمى وأوعظ من قسٍ لمن فيها^(٥٢)

وتخيّل إلينا أن الشعور الذي ألهمه هذه التماثيل القديمة للشعراء الأندلسيين في القرن الحادي
عشر بخاصة، إنما كان الإحساس بأسرار الزمن الماضي المحملة بها، وبالديمومة التي منحتها سلطة
المتألف الإلهي بالغيب فيها يتصل بالفنانين.



باختصار فضل الأندلسيون كثيراً تماثيل الرخام والصور الحسية الوثنية، وكانوا أقل إحساساً فيما
يتصل بالتماثيل المصنوعة من البرنز أو الحجر العادي، ووجدوا في أطلال طالقة^(٥٣) تنالاً أرسوله إلى
إشبيلية، ووضعوه في حمام الشطارة، «وكان منحوتاً من مرمر، لم يسمع في الأخبار، ولا روى في الآثار،
صورة أبدع منها، في قالب جارية، كاملة القد، حسنة الجسم، جميلة الوجه، صُور كل عضو من
أعضائها، وكل جارحة من جوارحها، على أتم ما يكون، وأفضل ما يستحسن في جوارح المرأة، وفي
حضرها صورة صبي على مثل من الحكمة والإتقان، وقد صُورت حية تصعد من قدمها كأنها تريد نهش

(٤٩) من البسيط، أبو بحر صفوان بن إدريس المرسى، زاد المسافر، ص ١٥٢.

(٥٠) رواية النسخ «البناء» بدل «الثبات».

(٥١) لم أجد لهذه الأبيات معنى.

(٥٢) من البسيط نفع ١١٦/٤. وزاد للسائر ١٣٣ والبتوني، رحلة إلى الأندلس ص ١١٠. ونسب من ساعدة الإبلدي شخصية
أسطورية مشهورة بالبلافة والحكمة، انظر: دائرة المعارف الإسلامية ١٢٢٨/٢، وكتب اللادة الأب هنري لامنس.
وتمة لتماثيل، أو أعتابها، أخرى كانت توجد في إسبانيا الإسلامية قريباً من لامة، في كورة ريد، كان يوجد في سند الجبل تمثال صورة
إنسان يرمض لا يصل إليه إلا من تلتقى بالجمال، ويسقط من منخره الأيمن نقط ماء الروض المططار، رقم ١٦٠ ص ١٧٠، وفي أسوار
لبلة، طبقاً لأسطورة تدعى كانت شائعة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، ويجب أن تكون ضاربة في القدم، كانت توجد أربعة
تماثيل، أو تصاريح، صنم تشبه العامة مدبب، وعليه صنم آخر، وصنم تشبه كعيج، وعليه صنم آخر، انظر: البغدادي، أبو العباس
أحمد بن عمر، انتهى ٤٧٨ = ١٠٨٥، كتاب المسالك والممالك الأندلسية في: القزويني، آثار البلاد الجغرافيون المجلد ٨، ص ٣٧٢.
والروض المططار رقم ١٥٨، ص ١٦٨ و١٦٩ و٢٠٣.

وأحد أبواب قصر قرطبة كان من حديد، وفيه خلق لاطون، قد أثبتت في قواعدها، وصورت صورة إنسان نفع فمه، ويقال أن
الأمير محمد أخذها من حلى باب مدينة أربونة عندما افتتحها، وجلبها معه. نفع ٤٦٤/١. وج مرسيه، موجز الفن الإسلامي ٢٤٣/١.
(٥٣) عن طالقة انظر: ياقوت، معجم ٤٩٤/٣. والروض المططار رقم ١١٢ ص ١٢٢ - ١٢٣، ١٤٩ - ١٥٠، ومرتنيتش، غاية
إسبانيا ص ٢٢ - ٢٨.

الصبي^(٥٤)، فنظرها بين مصعد الحية ومكان الطفل، كاشفة الحذرة، يتبين ذلك في التثنية^(٥٥)، ويقول المؤرخون: «وقد تعشقها جماعة من العوام، وشغف بها أناس من الطعام، فتعطلت أشدهم، وانقطعت متاجرهم بالنظر إليها». ولكن أشد بجمالون الجدد لم يكونوا قادرين على أن يهبوا الحياة لآسرتهم «جالتيها»^(٥٥). وقد وصفها أبرنهام غالب بن رباح الحجام بالآيات الثلاثة التالية:

ودمية مرمر تُجرى بخدّ تنهى في التورّد والبياض
لها ولدٌ ولم تعرف حيلاً ولا ألمت بأوجاع الحاض
ونعلم أنها حجرٌ ولكن تبيّنا بالحِظِّ مراض^(٥٦)

وفي حمامات المياه الساخنة الطبيعية، ولا نستطيع تحديد مكانها بدقة، حيث كان المعتضد يتردد عليها كثيراً للعلاج من الروماتيزم، كان يوجد تمثال من المرمر فيها يدو، وقد وصفه ابن زيدون في يلي:

مرمرٌ أوقدَ الفيندَ عليه سبيلٌ بحرهُ الزلالُ يفيضُ
وسطحها دميةٌ يروقُ اجتلاءً إلَّ كحلٌ منها ويفتنُ النبعيضُ
بشرٌ ناصعٌ، وخدٌّ أسيلٌ ومحياً طلقٌ، وطرفٌ غضيبُ
وقوامٌ كما استقام قضيبٌ إلَّ بيانٌ إذ علَّه ثراه الأريضُ
وايتسأر لو أنها استغربت فيه به أراك اتساقه الإعريضُ
والنفات كأنما هو بالأيـ سحابة من فرط لطفه - تعريض^(٥٧)

أما الرسوم، أو النسيجاء الذي يصور نساء عاريات أو أزواجاً مختلفين، فقد أشار إليها بعض المؤلفين بتعبير صور الحمام^(٥٨). وكان المسلمون المتشدّدون يعتبرونها دائمة فضيحة، ولكن النصوص الشعرية التي أوردناها تظهر أن تماثيل المرمر في إسبانيا الإسلامية في القرن الحادي عشر، كما كانت عليه الحال في الحمامات الرومانية، إنما هي لتزيين الغرف المخصصة للمتريدين، أو على الأقل من البارد إلى الساحن en Prigidarium los Tepidarium.



وكثيراً ما كانت مياه البرك ولواقير تندفع مياه من خلال أفواه الحيوانات المنحوتة من مواد

(٥٤) إن وجود الحية لا يسمح بـ صـ مكر أما مصدره فمثل فينوس وكوبيد.

(٥٥) انظر: نفح ١٥٨/١ و ٥٣٣. وأبرنهام العطار رقم ١١٢، ص ١٥٠/١٢٣، وفون شاك، شعر العرب وفنهم.

مرجعة بالبر إلى الآسيانية ١٠٨/١ و ٢٢١.

● وقد ترجمت هذا الكتاب الجيد لمشرق الألمان، ونشر القسم الخاص بالفن تحت عنوان: «الفن العربي في إسبانيا وصقلية»، وصدرت طبعته الثانية عن دار المعارف ١٩٨٥. أما القسم الخاص بالشعر فهو يصدر قريباً وعن دار المعارف أيضاً بعنوان: الشعر في إسبانيا وصقلية» (انترجيا).

(٥٦) من الوافر، الأخيرة ١٢٦/٣. ينفخ ٥٣٣/١. والبتوفى: رحلة الأندلس ٧١.

(٥٧) من الخفيف، ابن زيدون، الديوان ٢٤، وفي البيت مستخدم غير مباشر ثلاثة مصطلحات بلاغية: تنفات وتعريض، وإيجام.

(٥٨) و مرسيه، ملاحظات على خبر طوق الحمامة، في ذكرى خنري ياسيه ٦٤/٢ (ملاحظة على ص ١٥ من انطوق طبعة بروف)، والمصادر المذكورة هناك. وانظر أيضاً: الغزولي، مطالع البدر ٨/٢، وعنه نقلها نفح ١٩٦/٣ - ١٩٧ وسنعود إلى هذا الموضوع فيما بعد، ص ٣٠١ وما بعدها من هذا الكتاب.

متنوعة، مثل: الحجر والمرمر والفضة، والنحاس^(٥٩)، وتقتل من الحيوانات الأسد^(٦٠)، والفيل^(٦١)،
والسلحفاة^(٦٢). وهكذا يصف عبد الجليل بن وهبون فيلا من فضة على شاطئ بركة يقذف الماء في
قصر المعتمد:

ويفرغُ فيه مثل النّصل يدعُ من الأفيال لا يشكو ملالاً
رعى رطب اللّجين فجاء صلداً تراه قلماً يحشى هزالاً^(٦٣)

وفي الليل توقد الشموع على جانبي الماء، ويدعى الشعراء إلى وصف ما يرون، وقد أعجب
أبو بكر بن الملح المعتمد بن عباد بانطباعاته عن هذا الموضوع، وتأتى على مقطوعة واحدة فحسب من
مقطوعاته:

وبشعلتين من الأضواء قد قرنا بالماء والماء بالدولاب منزوف
لاحاً لعين كالنجمين، بينهما خط المجرة مدود ومعطوف^(٦٤)

ويمكن أن نقارن بينها وبين أبيات الأعمى التطيلي في وصف أسد رخام يرمى بالماء على بحيرة:
أسد ولو أني أنا قش المساب لقلت صخرة
وكان أسد السما و يمج من فيه المجرة^(٦٥)

وكثير من الأشياء الدقيقة من المواد النفيسة تأخذ شكل حيوانات، وقد قدّم المعتمد إلى الأميرة
ابنة مجاهد أمير بلنسية غزالاً من ذهب، وأهدى ابنه الرشيد هلالاً من المعدن نفسه، فألهمه هذا البيت
من الشعر:

بشّنا بالغزال إل الغزال وللشمس المنيرة بالهلال^(٦٦)

(٥٩) ابن يتكوال في نفع ٤٦٤/١.

(٦٠) نفع ٥٦٥/١، وكان في قصر الناعورة، ٥٣٠/١. في مجلس المنصور بن أبي عامر، ٦٤٥/١، وفي بدائع الهداة لابن طاهر
٣٠٩، وكان في منية المؤمن بن ذي النون أمير طليطلة. وقد وصف ابن حمديس أسود البرك والثوافير في بجاية، نفع
٤٩٤/١ - ٤٩٥. وقد ماسه، في ذكرى ر. بانيه ٢٤٦/١. وأومير، مختارات عربية ص ١٠٢ - ١٠٧. ول. برشيه، قصر المنصور في
بجاية، في المجلة التونسية، المجلد ٢٩، ١٩٩٢، ص ٥٠ - ٥٦.

(٦١) نفع ٢٦٣/٤، وقد وجدوا في مجرى قناة مياه قرطبة الكبرى فيلا يعود إلى عصر عبد الرحمن الناصر. انظر ر.
كاستنغون، قرطبة في عصر الخلافة، في «مجلة الأكاديمية الملكية للعلوم والآداب والفنون الجميلة في قرطبة»، العام ٨، العدد ٢٥،
يناير - ديسمبر ١٩٢٩، ص ٣٦٥، ويحتوى صوراً جغرافية. وفي صندوق عاج في متحف فيكتوريا - ألبيرت في لندن، ويحمل تاريخ
٩٢٠ = ٣٥٩ تشهد فيلا يحمل هودجا، انظر: ج. فرائديس، عاجيات، ص ٧٢ - ٧٣ واللوحة ١٢.

(٦٢) نفع ٥٣٠/١.

(٦٣) من الوافر، ابن طاهر، بدائع الهداة ٣٧٣، وعنه في نفع ٢٦٣/٤.

(٦٤) من البسيط، ابن طاهر، بدائع الهداة ٣٧٣، وعنه في نفع ٢٦٣/٤.

(٦٥) من الكامل، نفع ٤٠٤/٣ و ٥٠٠/٣. ولير تشوندي وسيمونيت، منشآت عربية، ص ١٣٤ رقم ١٥٧.

وفي إلبيرة كان يوجد فرس من حجر، ضاع أصله في ليل الزمان، كان الفلماني يركبونه ويلعبون حوله إلى أن انكسر منه عضو،
ويزعم أهل إلبيرة أن في تلك السنة التي حدث فيها كسرهم تقلب البربر على المدينة فكان أول خرابها. انظر: الروض المعطار، رقم ٢٥
ص ٢٧/٢٩.

وكان على باب العقاب في الرية صورة عقاب من حجر قديم بديع المنظر، نفع ١٦٦/١.

(٦٦) من الوافر، بدائع ليداته ١١٤، وعنه نقله نفع ٦٦٤/٣، والخليفة ٥٢٦/٣.

وكان المعتمد يملك دمية من البلّور، أو من العنبر طبقاً لروايات أخرى، في شكل جبل مرصع بالذهب واللاّث، وعيناه من ياقوتتين، ويُقدّر ثمنه إجمالاً بما يقرب من خمس مئة مثقال، وهذا في يوم رقى فيه مزاجه إلى شاعر صقلى نفى من وطنه ولجأ إلى إسبانيا، وهو أبو العرب الصقلى، فسارت بالخير الركايب، وتبادته المشارق والمغارب^(٦٧).



وكانت حلل مالقة الموشية مرينة بصور عجيبة^(٦٨)، وأخرى مثلها يمكن أن تثير إعجابنا في الأقمشة المعلقة على الجدران التي تزين قاعات قصر المأمون في طليطلة^(٦٩).

وكان المعتضد أمير إشبيلية يملك سكيناً أحد جانبيها مزين بغزال، والآخر بأسد، مما فهم ابن جاح الصباغ بالآيات التالية:

أنا إن كنتُ غزلاً وغراً في الليثُ جلاً
فبميتي احورارُ يتركُ الناسَ حياراً^(٧٠)

إن معظم الصناديق، أو العلب، التي وصلتنا تحمل رسوماً منقوشة في شكل مشاهد، تضم شخصيات جالسة أو واقفة، تشرب أو تغنى، في صحبة آلات موسيقية، في رحلة صيد، مع حيوانات متراجحة، أو في رفقة الصائدين، مستوردة من اشرقي أو تقليداً لما هناك، وتشهد بالهام بيزنطي أو ساساني واضح، ولكن الشعراء لم يصفوها لنا^(٧١).

(٦٧) نفع ٥٦٥/٣ و ٢٦١/٤ ودورى - تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ - ج ٣ ص ٩٢، ونذكر هنا بمناسبة الحديث عن الثمانيات الحيوانية ثورين من الحجر، وجردة من الذهب، اكتشفوها في لورقة، وقد عرضنا لها فيما سبق ص ٢٧٥ - ٢٧٦ من هذا الكتاب. عذ الحديث عن الحرفات.

ونذكر أخيراً أن دوائر هراء في شكل ديك كانت تخرج قصر بادس بر حيوس في غرناطة، غربي نهر الغدارو، وقد كان يحسن اسم دار ديك الريح. انظر: دائرة المعارف الإسلامية ١/٤، مادة بين زيري، وكتب لمادة ليفي بروفسال. وعن الأساطير المصلة بها انظر: نفع ٧٩٦/٢ طيمة أوروبا، والعمري، مسلك الأبحار، ترجمة جومفروي - ديومين، ص ٢٢٨، هامش ١ ص ٢٢٩. وترجمة أحمد زكي في تكريم كوديرا ص ٤٦٧ ود. كوسيراس، دراسة وصفية للحمر ص ٣٥٦ و ٤٣٢ و ٤٣٣. ومرمول كرهبال، تاريخ ثورة التوريسكيين وعقائهم، الكتاب ٥. وجسار ريمرو، جو جس المسلمين الإسبان وأهمهم في سقوط غرناطة الوثيك وملكها في يد المسيحيين، في مجلة مركز الدراسات التاريخية لغرناطة وملكها، عام ١٩١١، مجلد ١، عدد ٣ ص ١٤٩ - ١٥١.

(٦٨) نفع ٢١٩/١. وغرسية غومث، ترجمة رسالة فضل الأندلس للثقفى ص ١١٢ رقم ١٦١ وفي ص ٥٢٦ = ١١٣١ خاص جيش مرايطى بقيادة تاشفين بن على ضد مسيحيين قريبا من الزلاقة، فكان قلب الجيش يحمل «حر الرات بالصور المائلة». انظر ابن الخطيب، الإحاطة ١ ط ج ١ ص ٤٦٠. وأعمال الأعلام، مخطوطة الجزائر رقم ١٦٦٧، الورقة ٢٢٢ وجه. (٦٩) الذخيرة ١٤٠/٤.

(٧٠) من الرمل، ابن ليون، لمح السحر، مخطوطة الرياطه ٥٢ أ.

(٧١) كانت هذه العلب أو الصناديق تصنع في ورش قرطبة، في مدينة الهراء في القرن العاشر، وفي كورتكة في القرن الحادي عشر، كما أوضح ذلك من قريب ج. فراندسبر، في قائمه مسهبة مع دراسة مفصلة، وإل المؤلف نفسه يعود الفضل إلى ليفي بروفسال في إظهار النقوش وقراءتها وبرمجتها. انظر: ج. فراندس، العاجيات والكهرمان الإسبانية، في سلسلة لا بور، برشلونة ١٩٢٨، ٩ - ١١٣. وليفى بروفسال، نقوش إسبانيا العربية، ١٨٦/١ - ١٩٢، رقم ١٩٣ - ٢١٠. وانظر أيضاً: تراس، الفن الإسباني الإسلامي، منذ نشأته حتى القرن الثالث عشر، ١٧٣ - ١٧٦ واللوحه ص ١٨٢ - ١٨٣. ونذكر جانباً ما يتصل بالقرن العاشر، ونكتفى بذكر أهم ما يتصل بالقرن الحادي عشر، والتي تمثل سخوها، وهي

وأخيراً فإن مشاهد عديدة نقشت على حجر على امتداد القرن الحادى عشر^(٧٢).
 إذن عاش المسلمون تحيط بهم أشكال مصورة وكانت توجد بكثرة على المباني العامة والخاصة، باستثناء المباني الدينية، وظل هذا التقليد متواصلاً على امتداد القرنين الثانى عشر والثالث عشر، إلى أن تصل الحمراء بأسودها المنحوتة، وشخصها المنقوشة فوق الجملد^(٧٣).

١ - صندوق من العاج أهدى إلى عبد الملك بن المنصور في عام ٣٩٥ = ١٠٠٥، ومصدره دير ليس، ويوجد الآن في متحف نيرة، ورصمة كبيرة: تمثال مشهدا في البلاط، وأخرى رحلة صيد ونقلها فرانتيس في المصدر السابق ص ١٤، ومستندت بيدال، إسبانيا في عصر السيد ١٦٦٢/١، ولينى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن للماشره ص ٢٢، وتوماس ألزولد و أ. جيبوم، تراث الإسلام، أوكسفورد، ١٩٣١، ص ١٤٢، صورة ٦٣.

٢ - صندوق صغير بلا غطاء في متحف اللوفر، في مجموعة دافيليه، يعود تاريخها احتمالاً إلى مطلع القرن الحادى عشر. ورصمه تمثال مشهد شراب مع موسيقا، ونقله فرانتيس، في المصدر السابق ص ١٦ وقم ٢. ومستندت بيدال، إسبانيا في عصر السيد ١٦٠١/١. و ج. سال و ج. بايو، مجموعة الشرق الإسلامي، باريس ١٩٢٨، ص ٣٦، و اللوحة ٥.

(٧٢) نكتفى بالإشارة إلى حوض شاطبة، ويعود تاريخه في ضوء زخرفته إلى القرن الحادى عشر، ويعرض فوق أحد جوانبه بعض المشاهد التي تتخللها شخصيات، ونقش متحف ستيفن جيسل في الجزائر، ويرى فيه مشهد رحلة صيد: «فارس مسلح بقوس، يتبعه صقار يحضر أيضاً توساً في يده اليمنى. ويسلك بها أيضاً أرنا برابا ميتا. ويرفع يده اليمنى صقراً فوق كفل الحصان، ونقطة ترتفع خلف الصقار، وقد ذهب الإطار بجزء منها، تظله بهريدها». انظر: ج. مرسيد، حول حوض إسلامي في متحف ستيفن جيسل، في حوليات معهد الدراسات الشرقية، كلية الآداب في جامعة الجزائر، المجلد ١، عام ١٩٣٤ - ١٩٣٥، باريس، ص ١٦٧ - ١٧٥، والموضى مؤرخ في ٤٤ أو ٤٧.

(٧٣) يقول ابن خلدون عن الأندلسيين في أيامه: «إذا كانت أمة تجاور أخرى، ولها الغلب عليها، فيسرى إليهم من هذا التشبه والاعتداء حظ كبير، كما هو الحال في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يشبهونهم في ملابسهم وشرايتهم، والكثير من عرائضهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت». انظر: المقدمة، طبعة كاتر مير ٢٦٧/١، وطبعة القاهرة ١٤٧، وترجمة دى سالان ٣٠٧/١.

○ الفصل الخامس :

الحَمَامَات

بين كل الأمكنة لعامة التي يمكن أن نجد فيها التماثيل فإن الحمامات أكثرها زخرفة، وهي تجمع بين ما هو مفيد ولطيف، وفيها نلتقي بمشاهد من الأشكال الجميلة منحوتة أو مرسومة هدية للفكر والروح، إلى جانب الراحة البدنية التي يبعثها بخار الماء.



كانت الحمامات الطبيعية معروفة وقد وصف لنا ابن زيدون ثمنالا مصقولا من الرخاء، لغادة هيفاء، يزين القاعة الرئيسية في الحمام الذي كان يتردد عليه المعتضد مع حريمه للعلاج، وهذه المنشأة طبقا للشاعر هي:

جاورت حُمَّة مَشِيدَةَ الْمُبِّ سَحَى، لِهَرَقِ الرِّخَامِ فِيهِ عُمَيْضُ^(١)

وكانت الحمامات التركية منشرة على نطاق واسع، ولم يدخلها العرب إلى إسبانيا فيما أظن، إذ كان الرومان قبلهم قد أنشأوا عددا من الحمامات العامة في المدن الكبرى. وفي العصر الإسلامي لم يكن هناك أى تجمع بشري لا يملك حماما أو أكثر، وكان في قرطبة في القرن العاشر الميلادي، في عصر عبد الرحمن الثاني، ثلاث مئة حمام^(٢)، وبلغت ست مئة في عصر المنصور بن أبى عامر^(٣).

ولا بد أن حمامات المدن كانت في نفس النظام الذي هي عليه اليوم، فحمة قاعة لخلع الملابس والراحة، وقاعة ثانية للموعد دون كبائن خاصة، وربما كانت هناك ثالثة ذات حرارة متوسطة^(٤). وقد اهتم الشعراء بالقاعة الأولى فوصفوها لنا بكثرة، فالأرض عادة من الرخام، والجدران مكسوة به أيضا، والسطح في شكل قبة، بها عند من المضاي المعلقة بالزجاج الملون، ووصف لنا أبو عامر بين شهيد قاعة على هذا النحو، ثبتهما مزخرفة بأحمر وأبيض، وزجاج المضاي أحمر اللون:

تَحَيَّرْتُ مِنْ طَيْبِ حَمَامَا يَحْيَلُ لِي أَنْ فِيهِ الْفَلَقُ
فَمِنْ حَمْرَةٍ فَوْقَهُ وَإِبْيَاضٍ كَعَدَدِ الْحَبِيبِ إِذَا مَا عَرِقَ

(١) من الحفيف، ابن زيدون، الديوان ٢٤٠، البيت السابع، وانظر فيما سبق ص ٢٩٦ من هذا الكتاب، وما اتصل بالحمامات انظر المثل الأسدي المذكور فيما سبق ص ٢٩٦ المامش رقم ٥٦.

(٢) البيان المغرب ٢/٢٤٧، وترجمته ٣٨٣.

(٣) نفح ٥٤٠/١.

● قلت: هذا الرقم في طبعة أورب، أما في طبعات القاهرة وإحسان عباس فهو تسع مئة (الترجم

(٤) عن هذا الموضوع انظر: وليد وجورج ماسيه. الأس. العربية في تلسان ١٦٢ - ١٦٩.

رأى الدهرُ ماشدً من حنينهِ فسدَّ كوى سقفيه بالشفق^(٥)
وحاول شعراء آخرون أن يبرزوا الفرق الواضح بين الحرارة خانقة والماء طرياً. يقول ابن بقي:

حمامنا كزمان القيط محتمدٌ وفيه للبرد جسرٌ غير ذى ضرر
ضدانِ بنعم جسم المرء بينهما كالغصن ينعم بين الشمس والمطر^(٦)

ويعبر الأعمى التطليل عن الفكرة نفسها، يقول:

يا حسن. حمامنا وهجته مَرَأى من السحر كله حَسَنُ
ماءٍ ونارٍ حواها كنفُ كالقلب فيه السروُّ والحَزَنُ

ويقول في مقطوعة أخرى:

ليس على هونا مزيدٌ ولا لحمامنا ضريبٌ
ماءٌ وفيه هيبٌ نارٍ كالشمس في ديمة تصوب
وابيض من تحته رخامٌ كالثلج حين ابتدا. يذوب^(٧)

ولم تكن الحماصات كلها على درجة عالية من النظافة إذا صدقنا أبو جعفر بن سعيد حبيب حفصة الركونية:

ياربِّ حمامٍ لعنّا بما أبقى له قطرٌ حيمٌ كما
أبدى إلينا كلَّ حمامٍ يحرقُ سحماً للدخانِ الذي
أصمتَ سهامٌ من يمدى رامى وقبمٌ يجذبني جذبةٌ
لاح لغيمِ العارضِ الهامى ويجمع الأوساخ من لؤمهِ
وتارة يكسرُ إيهامى وازدحم الأتذال فيه وقد
في عضدى قصدا لإعلامى وجملة الأمر دخلنا بئى
ضجوا ضجيجاً دون إنهام سام وعذنا كيف حمام^(٨)

ويرى شاعر مجهول أن الحمام ملجأ بيكى فيه العاشق بكامل حرمة رجل محبوبه:

ولم أدخل الحمام يوم رحيلهم طلابٌ نعيمٍ قد وضيت يوسى
ولكن لتجرى دمعى مطمئنة فأبكى ولا يدري بذاك جلسى^(٩)

(٥) من المقاربه، الذخيرة ٣٠٢/١، وعن معنى كلمة «مضواه» انظر: دوزى، ملحق المعاجم العربية ١٥/٢.

● قلت: وردت هذه الأبيات في الذخيرة ضمن مقطعات لعدد من الشعراء قالوها في الحمام، وأوردتها ابن بسام بمناسبة مقطوعة لابن شهيد عن حمام له، طلب منه المصور بن أبي عامر أن يتغلى عنه لتوسعة الحمام الخاص به، وهم المؤلف فظن الأبيات لابي دنا لابن شهيد، وهي في الحق للشفتل. (الترجم).

(٦) من البسيط، الذخيرة ٣٠٣/١، ونفع ٣٤٧/٣.

● قلت: في النفع الست الثاني منسوب للأعمى التطليل إجازة (الترجم).

(٧) المقطوعة الأولى من المنسرح، والثانية من البسيط، الذخيرة ٣٠٢/١ و ٣٠٣، ونفع ٣٤٨/٣.

(٨) من السرج، نفع ١٨٢/٤.

● وقد اكتفى المؤلف بالبيت الأخير، وجئت بالمقطوعة كاملة (الترجم).

(٩) من الطويل، الذخيرة ٣٠٢/٨.

وإذا كان الحمام يد الجسم بلذة حسية لاشك فيها، فهو يحدث أيضا، بسبب الاختلاط لسانده فيه، احتكاكات يرتضيها بعضهم ميتهجا، ويحملها آخرون ضائقين، وطالما أبرز الشعراء في قصائدهم هذه التسوية في الظروف الإنسانية التي يحدثها العرى، يقول ابن المفلس:

ومنزّل أقوام إذا ما تقابلوا تشابه فيه وغدّه ورئيسه
يُنفس كربي إذ يتنفس كربي وعظم أنسى إذ يقلّ جليسه^(١٠)

وقد انزعج أبو الحسن مختار الرضوي قاضي زهير أمير المرية الصقلي حين دخل حماما فجلس بإزائه علمي أساء إليه:

ألا لمن الحمام دارا نلتّه سواء به ذر العلم والجهل في القدر
نضيع به الآداب حتى كأنها مصايح لم تنفق على طلعة الفجر^(١١)



ويبقى وصف الحمام ناقصا إذا لم نذكر هنا ما قيل بمناسبة الصور والتماثيل^(١٢)، ذلك أن صور الحمامات سواء كانت تماثيل أم رسوما أم فسيفساء تكثر في هذه المنشآت العامة، ومن المحتمل أن وجودها لم يكن لغايات جمالية فحسب، لأن تماثيل طالقة الذي نقل إلى حمام الشطارة في إشبيلية أحدث كثيرا من المشكلات الفكرية في عقول الشباب، لأن صورته الفاضحة لم تكن تثير غير الأفكار الشهوانية، وهو تقليد إغريقي وفارسي في الوقت نفسه وأصل سيره عبر التاريخ، وأقدم شاهد عليه في العالم الإسلامي ما تثيره حمامات قصير غمرة. ويمكن أن نضيف إلى كل هذه الانفعالات التي تؤثر أن نعتقد أنها فنية خالصة انفعالات أخرى يثيرها منظر الأجسام الجميلة العارية، دون أدنى خجل مزيف، ومثلها لا يمكن إلا أن يزيد المشاعر نارة. ومن السهل علينا بعد كل الذي قلناه عن الحمامات أن نلتقط أصل هذا الحب وامتداده، والذي لا نجرؤ على تسميته في مجتمعا المنتشى بالمشاعر المسيحية، ولكنهم قديما، في المجتمعات الإغريقية والرومانية، كانوا يظهرونه بحرية تامة، وأحد هذه الأسباب الجوهريّة يجب أن يكون ما أشرنا إليه من قريب في المجتمع الإسباني الإسلامي^(١٣)، فالقرآن والحديث النبوي يدينان في صراحة وبخوة اللواط وباء اجتماعيا^(١٤)، ولو أنه واصل سيره في الحياة

(١٠) من الطويل، نفع ٣٥٢/٢.

(١١) من الطويل، نفع ٣٨١/٢، ويرى بن خفاجة في الحمام:

أهلا بيت النار من منزل شهيد لأبرار وفجار
نقصه ملكو لذّة فندخل الجنة في النار

من السريع، الديوان، القطعة ٣٢٠، ص ٣٢٢، نهاية الأرب ٣٩٩/٢.

(١٢) انظر فيما سبق ص ٢٩٦ للملصق رقم ٥٨ من هذا الكتاب.

(١٣) أوضح ماسينيون في روعة الأسباب المعية لهذا البلاء، يقول: «يجب أن نوضح فيما يتصل بهذا الموضوع المخجل، وخطورته لا يمكن إخفاؤها من وجهة النظر الاجتماعية، أن بذلة اللواط رغم ما قاله بورتون ونهائي ليست وليدة مطلقه متاخية محدّدة، ولا جنسا بعينه، فرسا أو إغريقيا، وإن زينو تعلات فلسفية، وليسوا مخترعيه فهو موجود في صورة بدائية عند كل الشعوب، حيث يلجأ السادة، كالحيوانات، إلى القهر أو الحيلة لإخضاع أرفائهم جنسيا، دون تفرقة بين الذكر والإناث منهم، وعاقبوتهم عن إخطائهم بإخضاعهم بنفس لإرضاء شهيقهم». انظر: الخلاص، ٧٩٧ رقم ٣.

(١٤) التصوص الدينية المتصلة بهذا الموضوع، من القرآن والحديث، جمعها التويري في كتابه نهاية الأرب ١٨٩/٢ - ١٩٦.

مثل كل المحرمات^(١٥). وإذا حصرنا أنفسنا في إسبانيا الإسلامية فلن يكون صعبا علينا أن نقدم عددا كبيرا من الشواهد المأخوذة من المؤرخين^(١٦)، ومن مؤلفي رسائل الحسية^(١٧)، ومن الشعراء بخاصة، ومن اشناع أن نشير القصائد إلى أصحاب الوجوه الجميلة من الصبيان، مسلمين ومسيحيين ويهودا، وتذكرهم عادة بأسماء: غلام وسيم، وفقى جميل، وغلام أمرد، وعندما تبدأ لحاهم في النمو يسموهم مُعَدَر، من العذار، أى غلام غطى الشعر خديه^(١٨)، ويصفون هؤلاء الغلمان أيضا بأنهم مخنثون^(١٩) وجوى^(٢٠).

يمكن القول إن اللواط كان ملحوظا في كل بلاطات ملوك الطوائف، ويكفى أن نشير هنا إلى غرام المعتمد بابن عمار ويمملوكة سيف^(٢١)، وغرام المتوكل بغلام، وسخر منه مضحك يدعى الخطارة تحت تأثير الشراب^(٢٢)، ورفع الدولة ابن المعتصم بغلام لا نعرف اسمه^(٢٣)، والمؤقت أمير سرقسطة بواحد من خدمه المسيحيين^(٢٤)، وتغنى الشعراء أنفسهم في قصائدهم بالعلاقات الغرامية غير المشروعة بالغلمان^(٢٥)، وبعضهم لم يكن يبالي بالنساء على نحو واضح وبصورة قبيحة^(٢٦)، وآخرون كانوا لوطيين عرضا^(٢٧).

والقصائد التي تغنى فيها الشعراء بجمال هؤلاء الغلمان اكتفت بأن ترد ما قاله الشعراء المشاركة.

-
- (١٥) انظر ماسينيون، المصدر السابق ص ٧٩٧ رقم ٢، وفيها يتصل بمدينة فاس انظر: ليون لأقريش، طبعة شيفر ٨٧/٢ و ١٢٧، ومقلنا: الشعر في فاس تحت حكم المرابطين والموحدين، في مجلة هيريس المجلد ١٨، عام ١٩٣٤، ص ٣٧ - ٣٩.
- (١٦) البيان المغرب ٤٩/٣ و ٢٦٧، ونفع ٤٤٧/٣ و ٤٥٠ و ٤٥٣، (وأبحاث ط ١ ص ١٨٢، ونفع ٣٦٠/٢ و ٤٦١ - ٤٦٢ و ٤٧٠ طعة أوروبا)، ودوزي، ملحق المعجم ٥٤٧/٢، مادة «استقاء» وابن حزم، طوق الحمامة ١٨١، وترجمة تيكل ٢٠٧ - ٢٠٨، والمدخل له ٢٨ - ٢٩، والمعجب ١٠٣، وترجمته ٩٩.
- (١٧) السقطي، رسالة في الحسية ص ٦٨، ومجموعها ٢٦، وابن عبدون، رسالة في الحسية ص ٢٤١، ومجموعها ٢٦٥.
- (١٨) ومن هنا نشأ كل الأدب الذي يقف إلى جاب العذار أو ضد، الأخيرة ١٣٩/١ - ١٥٢، ونهاية الأرب ٢٥/٢ - ٨٦.
- (١٩) ربا أصل الكلمة آخر الإناث.
- (٢٠) ابن عبدون، رسالة في الحسية ص ٢٤١، والمعجم الخاص بها ٢٦٥، والمعجم ٨٤ و ٣٦٠، ودوزي، ملحق المعجم العربية ٣٤٣/١.
- (٢١) المعجب ١١٧ وترجمته ٩٩، ونفع ٧٣/٤، ودوزي، ملحق المعجم ٥٤٧/٢، والقلائد ٨، وعنها في «بنو عباد» ٤٢/١، ونفع ٢٨٢/٤، والمعجب ١٠٣ - ١٠٤، وترجمته ٨٨، والأخيرة ٤٦/٣، وعنها في «بنو عبد» ٢٩٩/١.
- (٢٢) نفع ٥٤٣/٣، وأبحاث ط ١ ص ١٨٢.
- (٢٣) المظمح ٢٢٣.
- (٢٤) القلائد ٨٤ و ٨٥، ونفع ٦٥٤/١.
- (٢٥) مثل أبي بكر بن قزمان، الديوان في أكثر من مكان، وعبد الجليل بن وهيب في القلائد ٢٤٤ - ٢٤٥.
- (٢٦) مثل ابن قزمان، الديوان، القطعة ١٣، الدور ٨، والقطعة ٣٠ و ٥١ و ٦٢ و ١٢٣، وأبو لقاسم بن العطار في القلائد ٢٨٤ و ٢٨٥ و ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٨٨.
- (٢٧) مثل ابن اللبابة في القلائد ٢٤٩ و ٢٥٢، وأبو الحسن البرقي، اليلسي في المظمح ٣٥٧، وابن الحاج اللوزي، في القلائد ١٤٤، وانظر فيما سبق ص ٣٦٨ من هذا الكتاب، وابن سارة، في القلائد ٢٦٠ و ٢٦١ و ٢٧٣، وابن المرابط في القلائد ٢٩٥، وأشد هذه الحالات إثارة حالة ابن عمار سليبا وإيجابيا، في القلائد ٨٦ - ٨٧.

وبخاصة أبو نواس وبشار وابن الرومي^(٢٨) عن الخال، وأحيانا الشامة والعدار^(٢٩). ولا يبدو لنا ضروريا أن نلح على هذا الموضوع^(٣٠)، ومع ذلك سوف نذكر بعض الشواهد الشعرية لنظهر أن الشعراء عبروا عن اهتمامهم بالغلمان بالطريقة نفسها التي تعاملوا بها مع المرأة.

يقول أبو القاسم بن العطار:

وشنان ما إن يزال ترضه يعطف قلبي بعطفه الدم
أسلمني للهوى فواحرنا إن برزني عفتي وإسلامي
لحظه أسهم وحجبه وإنسان عينه رام^(٣١)

ويقول ابن الرقاق:

وأغيد طاف بالكروى ضحي فحنها والصباح قد وضحا
والرؤى أهدى لنا شقائقه وأسفه العنبري قد نفحا
قلنا: وأين الأقاح قال لنا: أودعته ثغر من سقى القححا
فظل ساقى المدام يجحد ما قال فلما تبسم افضح^(٣٢)

لقد عبر الشعراء عن الشغف الذي يثيره الغلمان بألفاظ حري، ولكن دون أن يتركوا أنفسهم تغل في الفحش طويلا مما يدل بوضوح على أن «الغلمنة» سواء في إسبانيا الإسلامية أم في المشرق، كانت تحط من قدر الرجل.

إن زهرة الحب العذري السامية لا تنمو ولا تزدهر إلا في حديقة المرأة، وهذا ما سوف نظهره في فصل تال.

(٢٨) يقول ما سينيون، المجلد ٧٩٧ رقم ٢: لقد تبقى عدد من كبار الشعراء أمثال بشار بن برد، وأبو نواس، وابن الرومي، واصلين بهذا الأمر المخجل، حتى دون أن يستعصم به واقعا (ملاحظة البرد على نفسه أبي نواس، والشفافية التي لا تكن تقلدها، وتلتقي مع فولتير قلما، وتصطبغ بأسلوبه كثيرا، في وصفه النزهة للعب الشاذ، تجعله شريفا أقدر منه أدبيا).

(٢٩) عن هذا الموضوع انظر: الثوري، نهاية الأرب ٧٣/٢ - ٨٦، وشرف الدين الرامي، أنيس المضائق رسالة في المصطلحات المجازية المصلة بوصف الجمال، ترجمه من الفارسية وعلق عليه كليبت أوار، مكتبة المدرسة العليا للدراسات، للمجلد ٢٥، باريس ١٩٧٥، ص ٤٢ - ٥٤، وبى سلان، ملاحظت عن المعنى المجازي لبعض الكلمات التي توحد كثيرا في الشعر العربي، في المحلة الأسبوية، السلسلة الثالثة، المجلد ٧، عه ١٩٣٩، ص ١٦٩ - ١٧٥.

(٣٠) ترجمنا بعض الأبيات عن العذار فنانسة الحزن، انظر فيما سبق ص ٢٦٨ و ٢٦٩ من هذا الكتاب.

(٣١) من المشرح، القلائد ٢٨٨، ونفع ٣٠٢/٤.

(٣٢) من المشرح، الديوان ص ١٢٤ القطعة رقم ١١، واشتقدي، رسالة فضل الأندلس، في نفع ٢٠٠/٣، وترجمة غربية غوث لها ٧١/٧٠، وتوجد أمثلة أخرى في ديوان ابن قزمان، وبخاصة القطعة ١١٥ و ١١٦. (ص ٢٧٠ - ٢٧٣ في طبعة نيكول، وترجمتها أو تحليلها ص ٤٣٦ - ٤٣٨).

● قلت: في كتاب غربية غوث الذي ترجمته عنوان «مع شعراء الأندلس والكتني»، وصدر عن دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الرابعة عام ١٩٨٦، ص ١٢٦ دراسة جيدة عن التصوير الجديد في هذه الأبيات، فقد أحق عليها الشاعر طابعا مسجيا مأسويا ليخرج بها عن الاستعارة في صورتها التليدية (المترجم).

○ الفصل السادس:

الألعاب الرياضية

لكي ينسى الأندلسيون مشاغلهم اليومية أضافوا إلى سلوة الحمام متعة الاستمتاع بالألعاب والتمرنات البدنية. ونعرف من بينها لعبتين شغف بها الأندلسيون إلى حد كبير. وهما: لعبتا الكُراج والشطرنج.

كانوا يلعبون الأولى بقطع مصنوعة من الخشب في شكل حصان تُسمى كُراج، من الكلمة الفارسية القديمة كُراج، والتي تطلق على المهر أو خيل السباق، وكانت الرافعات يعلفن هذه القطع في أفبيتهم، ولم يكن غرام الرجال بهذه اللعبة بأقل من شغف الصبيان. وقد بوغت ابن مرتين قائد المعتمد في بيته في قرطبة، من قبل فصيلة من جنود أعدائه في لحظة كان يلعب فيها الكُراج^(١).

أما الشطرنج فكان اللعبة المفضلة لدى المسيحيين والأندلسيين على السواء، وكان المعتمد يملك شطرنجا ذا قاعدة بديعة الصنع، وأحجاره من العاج وخشب الصندل المطعم بالذهب^(٢).

وإليك بعض الأشعار التي تتصل بهذه اللعبة. يقول ابن مَقان:

لَعِبْتُ أَسِيفَهُ عَارِيَةً كَمَخَارِيقَ بِأَيْدِي اللَّاعِبِينَ^(٣)

ويشبه شاعر مجهول مناورات ألفونسو السادس التي مكنته من احتلال طليطلة بهارة شطرنج:

يَا أَهْلَ أُنْدَلُسٍ رُدُّوا الْمَعَارِفَا فِي الْفُرُوفِ عَارِيَةً إِلَّا مَرَدَاتُ
أَلَمْ تَرَوْا يَدِ الْكَفَّارِ فَرْزُهُ وَشَاهُنَا آخِرَ الْأَيَّامِ شَهْمَاتُ^(٤)

(١) انظر: الذخيرة ٢٧١/٢، وعنها في «دِينُو عِيَاد» ٢٢٤/١، ودوزي، ملحق المعاجم العربية ٤٥٤/٢، وانظر أيضاً: ابن خلدون، المقدمة، طبعة كاترمير ٣٦١/٢، وترجمة دى سِلان لما ٤٢١/٢، والجواليقي، الحرب ١٣٠، وجود نروى ديومين، Sur le cheval japon et al-kurra، في تكريم ولهم مرسية ص ١٤٥ - ١٦٠.

(٢) لقد أشرنا فيما سبق كيف أن ابن عمار وزير الحمد بن عباد استطاع بفضل مهارة شطرنج انتصر فيها على ايعوسو السادس أن يجعل الملك المسيحي يخلو عن الأراض التي احتلها في مملكة إشبيلية، فيما يتصل بهذه القصة انظر: «المعجب» ١١٩ - ١٢٠، وترجمته ١٠١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٣ ج ٣ ص ١٠٢، وبمجموعة مدام إ. شتيرك، قراءة س. فليري، انظر: ميجون، موجز الفن الإسلامي: الفنون التشكيلية والصناعية، ج ١ ص ٣٥٨.

وقد وصلنا بهذا شطرنج من العاج، أحدها يعود إلى عام ٤٦٠ = ١٠٦٧، ويعود الآخر إلى العصر نفسه فيما يبدو، ويختلن في وجهيهما امرأة ملقوفة في دثار، ويجلس فوق عرش، وحوها طاووس، وغزالتان، ومحارب مسلح بقوس وسهم، انظر: ج. قرانديس، العاجيات والكهرومان الأسود الإسبانية، ص ٩٢ - ٩٣، ورقم ٢١.

(٣) من الرمل، نفع ٤٣٣/١.

(٤) من المصيط، نفع ٣٥٢/٤.

ويقول ابن اللبانة في رثاء المعتمد حين توفي هذا في منفاه:

والدهرُ في صِفة الحرباءِ منغمسُ
والنَّحْسُ في صِفة الشَّطرنجِ في يده
ونحن من لعب الشطرنج في يده
وربما قُبرت بالبيدي الشاة^(٥)

وفضلاً عن لعب الكراخ والشرنج، ولا تتطلب الأوب غير مهارة يدوية نسبية، على حين تحتاج الثانية إلى كثير من التأمل والحسب. كان المسلمون يمارسون ألعاباً أخرى تدخل في نطاق الرياضة البدنية الحقة، مثل «البولو» أو لصيد بمساعدة الكلاب أو الصقور.

وفيما يتصل بالبولو لا نجد إلا إشارات لا جديد فيها لأنها توجد في الشعر المشرقي. كما في هذا البيت الذي يصف فيه أبو المغيرة بن حزم البدر، وهو ذاهب إلى لقاء فينوس فيها يبدو:

لما رأيتُ الهلالَ منطوياً
في غرةِ الفجرِ قارنَ الزُّفرِ
شبهته والعيانُ تشهدُ لي
بصولجانٍ انتفى لضربِ نمره^(٦)

إن النصوص الشعرية قليلة جداً فيما يتصل بالبولو، وعلى التقويض من ذلك نجد مادة وفيرة عن القنص بالكلاب أو الصيد بالصقور واسترعى انتباه الشاعر في هذين اللونين من الصيد الكلب والصقر اللذين يصيخان الغريسة أكثر من الفارس وجواده وكلب الصيد السلوقي^(٧) أكثر الحيوانات وصفاً في الأدبين العربي والغربي^(٨). وقد اشتهرت الأبيات التي قالها ابن المرغري، وهو نصراني من المستعربين كان في خدمة المعتمد^(٩)، ولكن أبيات ابن خفاجة في وصف الكلب، ووردت في ديوانه، أكثر جالاً:

وبكلِّ نائي الشَّاءِ أُمِدَّقْ أَخْزِرْ	طاوى الحشا حالى المفلد صار
يفتر عن مثل النصال وإتما	يمشى على مثل القنا لخطار
مُتَقَرِّباً أُنْزِرَ القنيص على الصفا	والليل مُشْتَمِلٌ بشمعة قار
من كل مسود تلهب طرفه	ترميك فحمته بشقية نار
ومورس السربال يخلع قيده	عن نجم رجم في سجاو غبار
يستن في سطر الطريق وقد عفا	قما فيقرأ أحرف الآثار

(٥) من البسيط، المعجب ١٤٧، وترجمت ١٢٤. ويتبع أبو الفضل بن شرف ريلاً، صغر لرأس، ضم الحشا بأه يشبه البيد:

يا من حكى البيد في شكله أصبح يحكك وتحكيب
أسفله أوسع أجزائه ورأه أصغر مانبه

الأبيات من السرج، نفع ٣٧١/٣.

(٦) من التشرح، المطمح ٤٠٣، وعنه في نفع ٦٢١/١، والسيرطي، وصف المال في وصف الهلال في المجموعة الأدبية ٧٥.

(٧) عن معنى هذه الكلمة انظر: دوزي ملحق المعاجم العربية ١٧٦/١، ودائرة المعارف الإسلامية ١٣٦/٤، وكتب المادة أ. جرومان.

(٨) نرد الإشارة إلى كلاب الصيد في اسعر المشرق، وبخاصة في وصف رحلات الصيد أو لطرديات كما تسمى، وتتضمن دواوين: أبي نواس وابن المعتز وأبي غانم وأتت قصائد مطولة موقوفة على هذا الفرض.

(٩) انظر: نفع ٥٢١/٣، ولويس شيخو، شعراء العرب النصارت، ج ٣ ص ٢٨١.

● قلت: في نفع الطيب المرعري، وفي العرب في حل المغرب لابن سعيد (٢٦٤/١) المرعز، وكلاهما تصحيسه وصحة الاسم المرعري، لأن أصله إسباني Margari (مترجم).

عطفَ الضمورُ سرّاته فكأنّه والنقحُ يحبُّه هلالُ سرار^(١٠)



ويجىء الصيد بالصقور في المرتبة التالية للصيد بالكلاب المدربة، وفي تقدير كبير من الأندلسيين، وكان الخلفاء الأمويون، ومن بعدهم ملوك الطوائف، شغوفين حقاً بهذا اللون من الصيد، «وكان صاحب البيزرة في العهد الأموي يهتم بصيد العاهل الأموي في الفترة التي تكثر فيها الغرائق في سهل الوادي الكبير، وكان الإقبال عليها حينئذ شديداً ومتابعتها أشد صعوبة^(١١)»

وتشهد الصور التي تتضمنها النقوش والرسوم التي على علب العاج، وتعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي، بأن شغف الأندلسيين بالصيد في تلك الأيام كان شيئاً لما يزل بالغ القوة، وهو ما تؤكدُه الوثائق المكتوبة، سواء كانت كتباً حررها المؤرخون أم قصائد أنشدتها الشعراء.

وبالدقة، خلال رحلة صيد، في يوم مطير، سقط أبو مروان بن رزين من على جواده، وجرح أثناء سقوطه جرحاً خطيراً، وكان عليه أن يلزم الفراش ودحا من الزمن فعيّره أعداؤه بهذا^(١٢). وطلب المعتمد إذنا من والده في أن يقوم برحلة صيد يصطاد فيها أرانب يرية مرة، وفي أخرى أرانب بريّة وحجلاً^(١٣)؛

وساعة للزمان مُسَعِفَةٌ قنصتُ فيها أرانباً وحجلاً
فلا أرايَ إلاّ لك رضا إن لم أضدّ من عداك كل بطل^(١٤)

كانوا يصطادون الطيور ذات الريش بخاصة، باستخدام الضيور الجارحة أو بدونها، وهناك مقطوعتان لابن زيدون كتبهما في صورة ألفان، كذلك التي استخدمتاها في دراسة طيور الزينة، تقدم لنا قائمة يمكن أن تعتبرها أقل استيعاباً للطيور التي كان يلاحقها الصيادون، ونجد من بينها: الرهو، أو الغرينق، والعقق والحبري والديك والقبيج، أو الحجل، والسمنة والحمامة والشقراق والقمرى. والطيور الجارحة مثل: النسر والعقاب والصقر والبازي والشاهين^(١٥).

أما طيور القنص المفضلة فهي الصقور، وكانت تربي في إسبانيا، ويقدرّونها منها بخاصة ما كان من حول لشبونة^(١٦)، وفي جبال الشرق والجزائر الشرقية، ويقدم تقويم قرطبة لعام ٩٦٩ م معلومات جيدة

(١٠) من الكامل، ابن خفاجة الديوان، القطعة ٢، ص ٣٣، الأبيات ٢٩ - ٣٤، ونقح ٦/٦٨٤، والويرى، نهاية الأوب ٢٦٤/٩ أربعة أبيات)، والذخيرة ٣/٥٩٤، والفزولي، مطالع البدور ٢/٢١٢ (أربعة أبيات).

(١١) انظر: ليفي يروقتال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٥٥ ورقم ٨.

(١٢) انظر: جورج مارسيه، حول أسفل نقش إسلامي في متحف ستيفن جيسل، في حوليات معهد الدراسات الشرقية في الجزائر، المجلد ١، عام ١٩٣٤ - ١٩٣٥، ص ١٦٢ - ١٧٥، وانظر فيها سبق ص ٢٩٩ من هذا الكتاب.

(١٣) الفلاند ٥٣، وابن الخطيب أعمال الأعلام ٢٠٧.

(١٤) المعتمد الديوان ٣٢ و ٤٢.

(١٥) من الوافر، المعتمد، الديوان ٤٤.

(١٦) ابن زيدون، الديوان ٥٩٥ - ٢٢٦.

(١٧) القرطبي، آثار البلاد، طبعة وستيفيلد، ص ٣٧٢، والقلفشندي، صبح الأعشى ٥/٢٢٢، اعتماداً على أبي التدا في تقويم البلدان.

عن تربية الصقور^(١٨)، وتحدث بخاصة عن لصقور التي أصلها من الجزر القريبة من بلنسية.

وصندوق العاج الصغير المعروف صندوق الأمير المغيرة، ويعود إلى عام ٣٥٧ = ٩٦٨، والمحموظ في متحف اللوفر في باريس، مزخرف ببعض الرسوم البارزة، وأحدها يمثل شخصين يرتدي كل واحد منهما عيade علق أسفلها في الحزام التي في وسطه، لتسهيل حركتهم، ويتجهون إلى عس ليلتقطوا صغار صقر في حماية أمهم^(١٩). أما الوثيقة الأكثر إثارة من القرن الحادي عشر فتتمثل في رسالة كتبها أبو عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية المخلوع إلى المنصور بن أبي عامر أمير بنسية وحفيد المنصور العظيم يعلمه فيها بوصول الشوذانقات^(٢٠).

وقد طلب الوزير الكاتب أبو بكر بن القبطونية من المنصور بن الأفطس أمير بطليوس أن يهديه يازيا:

بأيها الملك الذي أباه	شم الأنوف من الطراز الأول
حليت بالنعم الجمار جسيمة	عنقي، فعل يدي كذاك بأجل
ومنن به ضافي الجناح كأنما	حذيت قوائمه يريح شمال
مُتلفًا والكُل ينثر بُرْدَه	منه على ينثر اليماني لمحل
أغدو به عجبا أصرّ في يدي	ريحا وأخذ مُطلقا بمكيّل ^(٢١)

وتوجه الوزير نفسه بأبيات إلى أبي محمد بن عيرون يطلب الشيء نفسه، وتلاحظ وجود كلمتين فارسيتين: شاهين ودستيان، مما نظن معه أن الصيد بالصقور فارسي الأصل:

مضى الأنس إلّالوعة تستغزّي	إلى الصيد إلّالائي دون شاهين
فمن به ضافي الجناح كأنه	على دستان ^(٢٢) الكف بعض أسلاطين ^(٢٣)

وبالطريقة نفسها توجه عبد الجليل بن وهبون المرسى إلى المعتمد في إحدى رحلات صيده:

وصارم في بديك مصلّت	لو كان لل سيف في الوشى روح
يجتاب مما لبست صاقية	ها على معطفه توشيح
متقدّ اللحظ من شهامته	فالجو من ناظره مجروح
والريح تهفو كغدا طلبت	سيلها في يمينك الريح ^(٢٤)

وجلس المعتمد ذات يوم والنزاة تعرض عليه، فاستحث الشعراء في وصفها، فصنع ابن وهبون بديها:

(١٨) تقييم قرطبة ٢٥ إلى شهر غابر، و ٤٦ إلى شهر مارس، و ٥٨ إلى شهر مايو، و ٩٢ إلى شهر سبتمبر.
 (١٩) جورج مرسية، حول أسبل نقش إسلامي ص ١٦٩ الماش ٤، وج. فرانيس، عاجيات ص ٧١ - ٧٢.
 (٢٠) القلائد ٦٣، راس الجدير بالذكر أن النصوص النثرية حين تتحدث عن الصيد بالصقور تفضل استخدام كلمة «الشدانقات»، نظراً: تقييم قرطبة، والروض لمطار ٦، وملحق المعاجم العربية ٧٣٨/١ - ٧٣٩، مادة شوذانق، يحظى درزي لهذه الكلمة أكثر من صورة.

(٢١) من الطول، القلائد ١٥٤.

(٢٢) من الكامل، نفع ٣١٣/٤.

(٢٣) من النسخ، القلائد ٢٤٥.

(٢٤) دستان كلمة فارسية معاصراً.

لصيد قبلك سنة مأثورة
تغني البزاة وكلها أمضيتها
لكنها بك أبدع الأشياء
عاطيتها بخواطر الشعراء
فاستحسنها الأمير وأسنى جائزته (٢٥).

ويقدم لنا ابن خفاجة آياتا أخرى عن الصيد بالصقور:

طرد القنص بكل قيد طريدة
زجل الجناح موزد الأظفار
ملتفة أعطافه بحبيرة
مكحولة أجفانه ينضار
يرمى به الأمل القصي فينتش
مخضوب راء الظفر والمنقار (٢٦)

وبعض الصور مادتها مأخوذة من الصيد بالصقور. يقول أبو الحسن بن السيد البطليوسي:

والليل منحفض بطير غرابه
والصبح يطرده بياز أشهب (٢٧)

ويقول ابن اللبانة يصف لعب الأسطول يوم المهرجان (أعياد سان خوان):

طارت بنات الماء فيه وريشها
ريش الغراب وغير ذلك شوق (٢٨)

(٢٥) من الكامل، نفع ٢٦٠/٤.

(٢٦) من الكامل، الديوان ص ٣٥، ونفع ٦٨٤/١، وهي الأبيات ٢٦-٢٨ من القصيدة.

(٢٧) الكامل، نفع ٧٢/٤، وانظر فيما سبق ص ٢٠٦ من هذا الكتاب.

(٢٨) انظر فيما سبق ص ١٩٥ و ١٩٦ من هذا الكتاب.

○ الفصل السابع:

الحياة الحربية

كانت لعبة البولو والصيد بالكلاب والفنص بالصقور مقدمة للنشاط الحربي، فلا يدهشنا إذن أن نجد في هذا القرن الحادى عشر الميلادى، وتُميّز بكثرة الصراعات السياسية، والعدوات الحقة، حصادا واسعا من القصائد المتصلة بالقتال. يلم يتوقف شعر البلاط مادحا أوراثا عن إطراء الطعنات انصائية، والرماح النافذة، وحتى لو تأكدت أن يصدد موضوعات مطروقة فقدت بالنسبة لنا أية أهمية هاء. يمكن أن نجد في القليل، ولو صدفة، بعض معالم ذات قيمة توثيقية حقيقية.

ومع أن الشعر لا يقدم لنا أية معلومات كاملة عن ارايات والأسلحة والآلات المختلفة لكنه يتيح لنا أن تصل إلى مزيد من الدقة في بعض النقاط، وإذا كان معجم الشعر الذى نستشهد به لا يختلف في استخدامه عما هو مستخدم في المشرق^(١)، إلا أن التفصيلات التى يقدمها لنا لا يستهان بها في مجال لا نعرف عنه إلا القليل وتدين به كتاب الثر، وهم في الجانب الأكبر منهم ينتمون إلى ما بعد القرن الحادى عشر^(٢).



كانت الكلمات الأكثر شيوعا في تسمية الأعلام هي: الراية، وأحيانا اللواء أو البند، وتختلف ألوانها من مملكة إلى أخرى.

في المرية، يصف أبو الأصبغ عبد العزيز بن أرقم الراية بأنها خضراء مع صيف أبيض، يحملها عالج في خدمة المعتصم:

نشرت عليك من النعم جناحا خضراء صبرت الصباح وتناحا
غكى بخفق قلب من عادته مهما يصافح صفحها الأرواحا
ضمنت لك النعمى برأى ظافر فشرق الفأل المشير نجاحا^(٣)

ووصف المعتصم تحرّكه على رأس كنية من الفرسان، موجها الحديث إلى زوجته، على النحو التالى:

ولمّا التقينا للوداع غديّة وقد خفقت في ساحة القصر رايات
وقربت الجرد العتاق^(٤)، وطول، ولاحت للفراق علامات

(١) القائمة الخاصة بالشرق، وبخاصة من خلال الشعر قام بها ف. و. تشراولوز في: Die Waffen der alten Araber.

ليريج ١٨٨٦.

(٢) استخدم ليفي بروفنسال هذه النصوص الشعرية في كتابه إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٤١ - ١٤٨. وانظر أيضا: ابن

هذيل الأندلسي، حلبة الفرسان وشعار المعتصم، ترجمة وتعليق لويس موسيه ص ٢٢٣ - ٢٧١.

(٣) من الكامل، نفع ٤٩٨/٢. (٤) واحد للسدر، وآخر لتايده.

يكنيا دُماً، حتى كأنَّ عيوننا لجرى الدموع الحمر منها جراحات^(٥)
والطويل التي يتحدث عنها المعتمد في البيت الثاني ذكرها شعراء آخرون أيضاً، وتقتل مع الرقيات
العلامة المادية للسلطة الملكية^(٦)، هكذا يدح ابن زيدون المعتضد بهذه الأبيات:
غداً بخميس يُقسم الغيمُ إنَّه لأحفل منه مُكفهِراً وأكثفُ
هو الغيمُ من زُرقي الأسنة برقه وللطبل رعدٌ في نواحيه يقصف^(٧)
ويورد ابن حزم الفكرة نفسها عن الطويل، يقول:
فالطبلُ جلدٌ فارغٌ وطنينه يرتاعُ منه ويفرق الإنسان^(٨)
وعندما علم المعتمد أن ابنه الذي أرسله سفيراً إلى غرناطة ألقوا به في السجن أشرك كل الجيش
معه في أحزانه:

لقطعت البيضُ أغمادها وشقت بنودُ وناحت طبول^(٩)

وقد جمع ابن اللبانة الأسلحة الدفاعية والهجومية كلها، على ما يبدو، في بيت واحد من الشعر:
رُميت لي فضفاضتي ومهندي وخطيقي والنبل والقوس والترسا^(١٠)
ولا يختلف السيف، وما أكثر ما وصفه الأندلسيون، في شيء على الإطلاق عما ذكره الشعراء
المشاركة، وأفضل السيوف، حتى ما كان مصنوعاً منها في إسبانيا، يوصف بأنه من الهند، فيقال مهند أو
هندواني، وبعضها محفور صدر الرأس على صورة قشور الصنوبر مثلاً، إلا أن تلك ناتئة وهذه
محفورة^(١١).

ويقدم لنا ابن دراج القسطلی معلومات عن أسلحة بربر زناتة وصنهاجة الذين كانوا يقاتلون في
جيش سليمان بن الحكم في عصر الفتنة:

(٥) من الطويل، الديوان ٤، ولقائد ٩ - ١٠، وعنها في «بنو عباد» ٤٤/١، ونفع ٢٧٩/٤، وتسب هذه الأبيات خطأ إلى ابن زيدون، الديوان ص ٦١.

● قلت هذا في طبعة ديوان ابن زيدون التي قام بها كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، ومدرت في القاهرة ١٣٥١ - ١٩٣٢
أما طبعة عن عبد العظيم المحققة فقد خلت منها (المترجم).

(٦) انظر: جودفروي - ديويج، مسالك الأبحار للمعري، ص ٥٦ - ٥٨.

(٧) من الطويل، الديوان ٤٩٥، البيتان ٦٨ - ٦٩، وكور، ابن زيدون ١٠٤، البيتان ٦٩ - ٧٠، وتوجد أيضاً عند المؤرخين كلمة
طبل، وفي الإسبانية Tambo، انظر: ابن الأثير، الحلة في «بنو عباد» ٩٧/٢، وابن عذاري، البيان المغرب ٦/٣، وترجمة نيتي
بروفيسال في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٨٨، في حملة الظفر بن المنصور عام ٢٩٣ = ١٠٠٣ ضد حصن محاصر.

(٨) من الكامل، ابن حزم، طرق الحملة ٣٨، وترجمة تيكال ٢٩.

(٩) من الشوابيب، الحلة ٨١/٢، وفي أبيات ط ١ ص ١٢٠. ونجد في سرسطة قائداً مسيحياً اسمه خبار، في خدمة المنصور بن
يحيى، فجعل يفتح في القرن، بيتاً المنصور يرضى بعض الجند. انظر: نفع ٢٦٥/٣.

(١٠) من الطويل، لقائد ٢٥١.

(١١) نفع ٥٨٥/٣.

بكل زنايُ كأنَّ حَمامَهُ وهامةً من لَقاء نارٍ وقربانٍ
وأبيضُ صَهاجٍ كأنَّ سِنَّه شهابٌ إذا أهوى لِقَرنٍ وشِتانٍ^(١٢)

وهذه المعلومات تؤكد ما أورده ابن سعيد، وهو مؤلف لاحق، عندما يقول: «ولا يكون مدرعا من فرسان البربر إلا أولو الهمة والظرة ولا يقاتلون برس ولا رمح طويل غليظ، بل بالسيوف والأرماح الخفيفة، يزرعون بها دوقا عجيبا لا يكاد يحطى»^(١٣).

وفيا يتصل بسلاح الرماة لا مدى ما إذا كان المعاربون لأندلسيون يعرفون «قوس البندق»، الذى وصفه ابن رشيق القيرواني، من شعراء القرن الحادى عشر، فى أبيات معروفة تماما^(١٤).

لقد وصف أبو بكر بن قزمان سلاح الفرسان الأندلسيين بإيجاز فى المقطوعة التالية:

ركبوا السيول من الخيول ركبوا فوق العوالي السمر زرق نطاف
وتجملوا الصدور من مذهبهم مرتجة إلا على الأكتاف^(١٥)



وذكر الشعراء بكثرة الأسلحة الدفاعية: الدرع والترس والزرد والدقة والخوذة، ولكن هذا المعجم الخاص لا يضيف إلى معلوماتنا أى شيء يختلف عما نعرفه فى المشرق، وسبق أن لاحظنا عند الحديث عن البحيرات بعضا من التشبيهات أحد طرفيها الدرع، أو الدلاص، أو المفاضة، أو الزرد، أو الحلق، أو القدير^(١٦)، ولن نتجاوز هذا القدر، ونكتفى بذكر بعض الأبيات التى تكمل المعلومات التى نعرفها، وعلى هذا النحو يصف المعتمد غلاما رآه فى المراك يوم معركة الزلاقة يقول:

ولما اقتنحت لوغر دارعا وقنعت وجهك بالمففر
حسبنا تحيك شمس الضحا عليها سحب من العنبر^(١٧)

ويطلق على الخوذة أسماء مختلفة طبيا للمادة التى صنعت منها، والشكل الذى صيغت فيه، وبعبارة

(١٢) من الطويل، أعمال الأعلام ص ٤٠٤

(١٣) ذكر ذلك ليفى بـ وفنسال فى إسباجة الإسلامية فى القرن العاشر، ص ١٤٥، اعتماد على فترة فى ماله الأخصار للمعري.

ذكرها ألقر أسين فى كتابه الأصل العرب لدهايط ص ٤٤ رقم ١

(١٤) انظر: ابن رشيق، العمدة ٣٢١/٢، والمص، النصف ٥٨، والشريف أفرغاطي، رفع الحجب المقصورة ١٠٩/١، وانظر أيضا:

ابن هذيل، فى المصدر المذكور سابقا ص ٢٤٩ - ٢٦٢.

(١٥) من الكامل، القلائد ١٨٧، ونفع ٢٥٤، ويطلق النفع على البيتين فيقول: الماذي: السمل، وهو خطأ، لأن بن راکور فى

شرح القلائد (الورقة ٢٢ أ) يقول نصا: الماذي: مرجع. وعن حيدر معنى الزرد انظر: دوزي، تكملة العاظم ٢٠٢/٢، وعن مادي

انظر: تشوارزلوز، Die Waffen ص ٢٧ رقم ٢، وتوجد أيضا كلمة ماذي فى بيت لابن شرف فى قلائد ٢٥٤.

(١٦) انظر فى سبى ص ١٨٣، و٤٤٤، من هذا الكتاب، وابن هذيل، المصدر السابق ذكره ص ٢٦٣ - ٢٦٨.

(١٧) من المخارِب، الديوان ١٧، وقلائد ٨، وعنها فى «بنو عباده» ٤٢/١، وقد انتقلت كلمة المففر إلى اللغة الإسبانية فى صورة

al mofar، انظر: دوزي وإنجليمان، معجم كلمات العربية لى فى اللغة الإسبانية ص ١٧٠، وج. ميجون، موجز اثن الإسلامى.

ط ٢ ج ١ ص ٤١٨، وكاترمير، الموليون، ٣٩، الماليك ١٣٣/١، وابن هذيل، المصدر السابق ذكره ٢٦٨، ومز ٢٩١ هامش

رقم ٢٨ فها سبق من هذا الكتاب، وبيرون، لى العربيت ٢٧٤ رقم ١، وترجمها: "couver - ruque, garde - nuque, nuquière"

فإن لفظ الترس أكرها استعمالاً^(١٨)، ولكنهم أيضا يستخدمون ألفاظ المجنّ والحجف، وعندما تكون ترسا كبيرة أو مستديرة يطلقون عليها عادة اسم ذرقة، وبعض الأبيات كافية لتبرير استخدام هذه الأسماء.

يصف المعتمد مجتأ لا زورديّ اللون، مطوقا بالذهب، في وسطه مسامير مذهبة، وفيه كواكب فضة، يقول:

بِحِجْنٍ حَكِي صَانَعُوهُ السَّمَاءَ لِنَقْصُرَ عَنْهُ طَوَالَ الرِّمَاحِ
وَصَاغُوا مِثَالِ الثَّرِيَّا عَلَيْهِ كَوَاكِبَ تَقْضِي لَهُ بِالنَّجَاحِ
وَقَدْ طَوَّقُوهُ مَذُوبَ النُّضَارِ كَمَا جَلَّلَ الْأَفَقُ ضَوْءَ الصَّبَاحِ^(١٩)

وكانت التروس الجلدية التي يستخدمها المسيحيون تسمى «حجف»، ونذكر أن ابن سارة شبه السلحفاة تسبح على سطح الماء «بجندى مسيحي يحمل على كتفيه حجلة»^(٢٠).

وفيما يتصل بالذرقة كان استعمالها شائعا في نهاية القرن العاشر، واشتهر الشاعر إدريس بن اليمان بأبياته التي وصف فيها الذرقة، ولم يبق لنا منها إلا مطلعها:

إِلَى مَوْشِجَةِ الْأَبْشَارِ مِنْ قَرَقٍ يَكَادُ مِنْهَا صَفَا الْفُؤَادِ بِنَفْطُرٍ
مُؤَنِّشَاتٍ وَلَكِنْ كُلُّهَا فُرَعَتْ تَأْتَتْ الرَّمْحُ وَالصَّمَامَةُ الذِّكْرُ^(٢١)

وكان يطلق على الخوذة اسم البيضاء عادة، وفي أحيان نادرة اسم الزاهقة^(٢٢) والتريقة، يقول المعتمد:

وَإِذَا تَغَنَّتْ هَذِهِ فِي مِزْمَرٍ لَمْ تَأَلْ تَكِ عَلَى التَّرِيكِ غَنَاءَ^(٢٣)



(١٨) الجندى من المشاة الذي يحمل انترس يسمى «تراس» وهذه الكلمة، وهي مستعملة حتى اليوم، لا تعني أكثر من «راجل» وشبه ابن الأثالية، وهو شاعر من القرن العاشر الترس بقرص الغزالة، مما يحدّد لنا شكله بالدقة. انظر: ابن الأثير، الحلة ٢٣١/١، وعن الرايات والأسلحة الشبيهة به انظر: ابن هذيل، المصدر المذكور. فيها سق، ص ٢٦٩ - ٢٧١.

(١٩) من امتقارب، الديوان ٢٩، وابن الأثير، الحلة ٥٦/٢، وبنو عباد ٦٣/٢، ونصح ٩٤/٤، وقد أخذنا بقراءة ابن الأثير. وابن هذيل، في المصدر المشار إليه فيها سق، ص ٢٧١، ينسب هذه الأبيات إلى الأسعد بن بلطعة، وفي قطعة يصف المعتمد المجن بالصفراف، الديوان ٢٩.

(٢٠) انظر فيها سبق من هذا الكتاب ص ١٨٣ وأيضاً ص ١٦٢ بمناسبة الحديث عن الباسين (٢١) من البسيط، الحميدى، جذوة المقتبس، الترجمة ٣١٣، ص ١٧٠، لدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦، وعما في الضمى، البلية ٢٢٢، وابن دحية، المطرب ١٣٠.

(٢٢) ابن الأثير، الحلة، في تعليقات لدوزي ١٢٢، وعن البهز انظر ص ١٨٤ فيها سبق من هذا الكتاب. (٢٣) من الكامل، انظر فيها سبق ص ٢٠٣ من هذا الكتاب. ويقول أبو بكر السيرى، في القرن الثاني عشر، في قصيدة عن سياسة الحرب:

وَاللَّيْلُ مِنْ وَضْعِ التَّرَاتِكِ إِنَّهُ صَبَحَ عَلَى هَامِ الْجَبُوشِ يَلْمَعُ

انظر: مقدمة ابن خلدون، طبعة كازمير ٧٤/٢، وطبعة القاهرة ١٧٢٦، وترجمة دي سلاز ٨٥/٢، وانظر أيضاً: ابن هذيل، في كتابه المشار إليه سابقاً ٢٦٨، وفيما يتصل بالقرن العاشر تلك وثيقة هامة نعدم لنا معلومات جيدة عن الأسلحة الطعومية، وعن الدفاعية بخاصة، عند الأندلسيين، ونعني بها قائمة الهدايا التي قدّمها الحاجب جعفر المصحفى إلى الحكم المختصر بمناسبة =

لم يقف الشعراء عند هذه المعلومات الخاصة بالسلاح، وإنما قدموا لنا أيضا معلومات عن التقنية العسكرية، وقد سمح أبو بكر الصيرفي نفسه، وهو من شعراء القرن الثاني عشر الميلادي، أن ينصح المرابطين بعد هزيمة تلقوها على يد المسيحيين، باستخدام التقنيات الخاصة بالأندلسيين:

أهديك من أدب السياسة ما به
لا إني أدري بها لكنها
والبس من الخلق المضاعفة لتي
والهندوان الرقيق فإنه
واركب من الخيل السوابق عدة
خندق عليك إذا ضربت محله
والوادي لا تديره وانزل عنده
واجعل مناجزة الجيوش عشية
وإذا تضايقت الجيوش بمفرك
واصدمه أول وهلة لا تكثر
واجعل من الطلاع أهل شهامة
لا تسمع الكذاب جاءك مرجفا

كانت ملوكُ الفرس قبلك نولع
ذكرى تحض المؤمنين وتنفع
وصى بها صنع الصنائع تبع^(٢٤)
أمضى على حد الدلاص وأقطع
جصنا حصنا ليس فيه مدفع
سيان تبع ظافرا أو تبع
بين العدو وبين جيشك ينطع
ووراءك الصدق الذي هو أمنع
حنك فأطراف الرماح توسع
شيئا فإظهار النكول يضعف
للصدق فيهم شيمة لا تخدع
لا رأى للكذاب فيما يصنع^(٢٥)

وثمة نصوص أخرى تحكي لنا تفصيلات المعارك، ومشاهد المذابح، وبخاصة في الحروب ضد المسيحيين، يقول ابن خفاجة:

من عسكر رجفت أرض العدو به
وأشهب ناصع القرطاس مؤتلق
تري به ماء نضل السيف تسكبها
فصادر الظن أجفان الجراح به
وأسرق الدم في خد الثرى خبلا
كأنني بعروج الروم سادرة

حتى كأن بها من وطنه وهلا
كأنما خاص ماء الصبح فاختسلا
يجري وجاحم نار الباس مشتلا
رعدا وصير أطراف الفنى مقلا
وأظلم النقع في جفن الوغى كحلا
وقد تضعف ركن الكفر فاستغلا

= توليه الخلافة بعد وفاة أبيه الناصر عام ٣٥٠ = ٩٦١. وهي مائة مملوك من الإفرنج ناشقة، على خيول صافنة، كاملو الشبكة والأسلحة من السيوف والرماح والدرق والفرس والقلانس الحديدية، وثلاثمائة وثوب وعشرون درعا مختلفة الأجناس، وثلاثمائة خوذة كذلك، ومائة بيضة هندية، وخمسون خوذة خشبية من بيضات الفرنجة من خير الخشب يسمنونها الطشطانة، وثلاثمائة حربة إفرنجية، ومائة ترس سلطانية، وعشرة جوشن فضة مذهبة وخمسة وعشرون قرنا مذهبة من قرون الجاموس. انظر: ابن حيان المقبس، في فتح ٣٨٢/١، وابن خلدون، كتاب العبر ١٤٤/٤. وانظر أيضا: ابن الخطيب، أعلام ٤٢ - ٤٣، وفيما يخص مصر بن نصر، انظر: فتح ٣٨٤/٤ وما بعدها.

(٢٤) تبع الغاضب هذا أصبح قسبا مشتركا في الشعر العربي المشرقي فيما بعد، انظر: الزمخشري، المفصل طبعة القاهرة، ص ١١٧، وابن عسيرة، شرح المفصل، طبعة جان، ص ٣٨١.

(٢٥) من الكامل، ابن خلدون، المقدمة، طبعة كلترمير ٧٣/٢، وطبعة القاهرة ٧٧٦، وترجمة دي سلان ٨٦/٢، وأعمال الأعلام، مخطوطة الجزائر، الورقة ٢١٢ ب. وانظر أيضا: الحلال للوشية مؤلف مجهول، طبعة عوش ١٠٣ - ١٠٦، وفي هذا المصدر الأخير الشاعر يسمى أبا ذكريا بن العربي، وعن تقنية الأندلسيين في الحرب انظر أيضا نصا نثريا للطرطوش، في ليفي بروغيمال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٤٦.

قد كبر في لامية خضراء تمسبها
وللتي أصين قد حدثت حنقا
فزاحم النقع حتى شق برده
موسدا فوق نضل السيف تمسبه
فكم تمزقة من جيها طربا

ونقل لنا أبو الحسن بن زنباع انطبعة عن بلادة الحركة في الجيش المسيحي، يقول:
هنت له الردم هذة ملاث
فما طاقوا الولوج في نفق
تغامسوا في الدروع زاخرة
فما أفادتهم الدروع سوى الك
كانهم والرماح في تحفزهم

وقد يبلغ الشاعر في تصوير المشهد فينقله لنا من الأرض إلى السماء، يقول أبو الوليد بن حزم:
إنما إذا رفعت سماء عجاجة
وتمرد الأبطال في جنباتها
برقت لهم من الخنوق كأنما

ووصف شعراء آخرون المشاهد المرعبة، يقول ابن خفاجة:

قد أتربت منهم صحائف أوجه
فلو اطلعت لما اطلعت على سوى
جعلت تمزقها السيوف جراحا
سيف تقلم في قتيل طاحا^(٢٧)

ولكن الأمر لم يصل بعد إلى درجة تعفن جنث القتلى، يقول أبو الحسن بن زنباع:
وقد سهكت تحت الحديد من الصدا
ومست إلى ورد الصبور عيونها
وأشرفت البيض الرقاق إلى الطلي
فلست ترى إلا دماء مراقبة

(٢٦) الديوان، النظم ١٥٤ ص ٢٠٨ - ٢٠٩، الأبيات: ٤ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ و ١٤ و ٢٠ و ٢٤. وانظر فيما سبق ص ٢٩ رقم ٥٤ من هذا الكتاب.

٢٧، م. نسرجه. خلاص ٢٢٧. وهي الأبيات: ٦ و ٧ و ١١ و ١٢ و ١٣.

● قلت: نسب المؤلف هذه الأبيات إلى ابن البياض، وهو سهو منه، لأنها في المصدر الذي أحاطا عليه للفتح القاضي أبي الحسن بن رباح، وقد صوبنا سهوه. (الترجم).

(٢٨) من الكامل، المطمح ٢٢٩.

(٢٩) من الكامل، الديوان، القطعة ١٩٤، ص ٢٥٢، البيتان ٨ و ٩.

(٣٠) من الطويل، القلائد ٢٢٩. ويطن غزيري في فهرس مكتبة الإسكوريال ١٠٥/١، أن الشاعر يشير في هذه الأبيات إلى

البارود، ونحن معه، دون شك، بإزاء تفسير جريد البيت التالي:

وبالأسف لننقع النار حثبا مواخض لكن بالصواعق نخض =

ولمّا نزل الجوارح تحوّم في السماء تتطلع إلى الجثث ويقول شاعر مجهول ييكر طلبطة:
 خذوا ثأر الديانة وانصروها فقد حامت على القتلى النور^(٣١)
 وفي خبايا الأرض ومنعرجاتها تختفي الحيوانات المفترسة، يقول عبد الجليل بن وهبون بصف هزيمة
 النصارى في موقعة الزلاقة، وأن جشهم أصبحت تملأ الأرض:

وأصبح فوق ظهري الأرض رُضًا كأن وهادها منهم إكام
 تألفت الوحوش عليه شق فما قص الشراب ولا الطعام^(٣٢)

ولكن واقعية الشعراء الأندلسيين لا تتضح أبداً على نحو أفضل مما هي عليه في كنمات أبي تمام
 الحجم عندما يصف الطيور الجارحة تمارس دورها القبيح:

نرى النسر والقتلى على عدد الحصى وقد مرّت أحشائها والنراثيا
 مضرجة مما أكلن كأنها عجزت بالحقا خضين ذواثيا^(٣٣)

هذه المقنطرات التي ذكرناها، وقد التقطناها من هنا وهناك لا تقدم لنا فكرة متكاملة عن حياة
 المحارب أو جوانب المعركة، إلا إذا جملناها بطريقة مصنعة على نحو ما فعلنا، ذلك لأن الشعر العربي
 إجمالاً يصف بطريقة ليست منطقية دائماً، يستوى في ذلك لشرقي منه والغربي، مكتفياً بوصف غبار
 المعارك المتصاعد كالسحاب، ولعان السيوف، وبريق السهام، وكر الفرسان، وهزيمة الأعداء بهجوم
 متواصل طبقاً لحطة محكمة وخطفاً. ونذكر أن ما هو جوهري بالنسبة للشاعر أن يبرز بطولات
 حاميه، وما يعد ذلك قليل الأهمية، ونأخذاً ما تنتزع الرياح ملحمة الشاعر من الأرض، وأبطاله رغم
 روعة استعارته لا يتجاوزون بطولات محارب شجاع، ودون شك فإن الظروف لم تساعده، رغم أن
 المواجهة بين المسلمين والسيحيين في معركة الزلاقة، وجرّت في ظروف قاسية، كان ممكناً أن تعد خيال
 الشعراء بموضوع ملحمي جميل. والروح الحربية، مدعوماً بالنافع الديني، لا نكاد نقع له على أثر، حتى
 مع رمول المرابطين، مما يعطى الانطباع بأننا أمام استسلام عام سبق حرب الاسترداد، وبعثا نبهت
 بين ملوك الطوائف وأمراء لتتوّن عن شخصية أسطورية تشبه رستم الفارسي أو رولاند المسيحي.
 ومع ذلك يعكس الشعر البطولي بصدق مجتمع القرن الحادي عشر، ويعبر عن روح حرية خالية
 من الطموح، وربما كان شعر الحمريات والفزل يعبر أفضل من غيره عن خصائص الأندلسي، فهو
 يحب حياة المتعة، ومشاعره مرهقة ومتحضرة.

== ● قلت: أيضاً نسب المؤلف هذه الأبيات في الأصل لابن البياع وحالتها على مصدره كتاب «القلادة»، وهي فيه لابن زنباع
 واضحة، فصولنا سهوه (الترجمة).

(٣١) من الوافر، نفع ٤/٤٨٤، وانظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ٩٣.

(٣٢) من الوافر، وانظر فيما سبق ص ٩٤ من هذا الكتاب.

(٣٣) من الطويل، نفع ٣/٤١٦. وعن الشعراء المشركين الذين عرضوا للموضوع نفسه، انظر الأبيات التي أوردها ابن دحية في
 المطرب ص ١٥٩ - ١٦٢، وهي للشعراء: أي قام وأبو نواس والناطقة الذبيلى والمتنى ويكر بن النطاه. ويمكن أن نضيف إليهم
 الفرزقي، الديوان طبعة بوشيه، القطعة ٩١، ص ٢٨١ - ٢٨٢ من انتمى العربي.

○ الفصل الثامن:

حياة المتع والذائد

يقال «إن الرصانة ليست إلا نقصا في المزاج غالبا»^(١)

والجانب الأكبر من أشعار الأندلسيين وقفوه على وصف مغامراتهم الغرامية البهجة، صحة كأس لا تفرغ، وموسيقا لا تتوقف، وكلها شواهد كافية على ميلهم إلى ارتشاف الحياة حتى آخر قطرة. ومن الثير أن نلاحظ أن المثلية الأساسية التي وجهها المربطون ضد الأندلسيين لإزاحة ملوك الطوائف عن عروشهم، كانت بالضبط حجة البالغ للذائد والاستمتاع. يقول يوسف بن تاشفين: «إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستقذها من أيدي الروم، لما رأينا استيلاهم على أكثرها، وغفلة ملوكهم وإهمالهم الغزو، وتوكلهم وتقاعسهم وإيثارهم الراحة، وبما همّة أحدهم كأس يشربها، وقينة تسمعه، وهو يقطع به أيامه. ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأها عليهم - يعني الروم - خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرجه، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبى دعوته...»^(٢).

وكانت هذه المثلية نفس ما وجهه إليهم السيد القنبيطور بشخصه، يقول في خطابه إلى أعيان بنسبة: «... من كانت له قضية عادلة فليات إلى متى شاه وأسستمع إليه، فإنى لا أحجب عنكم، ولا أخلو مع النساء للشراب والفناء كما كان يفعل أو لو أمركم من لم يمكنكم قط رؤيتهم»^(٣) وقد اتهمهم ألفونسو السادس أيضا بأنهم «أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغاني والعبدان»^(٤).

وأصدر الفقهاء فتوى لتحريض يوسف بن تاشفين: «يحضونه على العدل، والتمسك بالحيز، ويفتونه في شأن ملوك الطوائف بحكم الله» ر «أفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بحلهم واتزاع الأمر من أيديهم»^(٥).

عمق هذا التحرر في العادات، بلا شك، تناثر إسبانيا في إمارات صغيرة، وتراخى السلطة، ولم ينبثق ذلك فجأة نحو منتصف القرن الحادى عشر، وليس من الصعب أن نبرهن على أن الفساد والفجور بلغا

(١) العجيب ص ١٦٢ - ١٦٣، وترجمته ١٣٧.

(٢) اللوحة العامة الأولى، طبة رامون مينيتيث بيدال، ص ٥٨٩، ودوزى، أبحاث ج ١ ص ٥٧٥، ومينيتيث بيدال، إسبانيا في

عصر السيد ٩١/١ و ٥٢٢/٢ و ٦١١.

● قلت: يوجد نص الخطبة كاملا في كتابي ملحة السيد، وصدرت طبعته الثالثة عن دار المؤلف، القاهرة ١٩٨٥. (المترجم).

(٣) ابن الكردوبس، كتاب الاكفاء، طبة المعهد المصرى ص ٨١، وعنه في «بنو عباد» ٢٠/٢، وكان ذلك في رسالة رد بها على

المشيد بواسطة مبحث بيوى يدعى ابن مشعل.

(٤) ابن خلمون، كتاب المعج، ترجمة دى سلان ٨٠/٢ - ٨٢، ورو عباد ٢٧/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٤٦.

القيمة حدة منذ اختفاء المنصور بن أبي عامر، وأعطى أواخر الأمراء من بني أمية المثل^(٥)، يقول أحدهم، وهو المطرف بن عبد الرحمن الأوسط:

أنتيتُ عمرى في الشرِّ بـ والوجوه الملاح
ولم أضيع أصيلاً ولا اطلاق صباح
أحبي الليالي شهذاً في نشوة ومراح
ولست أسمع ماذا يقول داعي الفلاح^(٦)

وكان أبناء المنصور كما لاحظ أحد المؤرخين قد غلب عليهم النيذ واسترقتهم لذاتهم^(٧)، ولاحظ المؤرخ نفسه فوضى العادات في قرطبة في بدء الفتنة بعد الفيضان والجوع، «واشتد حال أهل قرطبة حتى أكل الناس الدم من مذابح الهرة والغنم، وأكلوا الميتة»، «وكان قوم في السجن فمات منهم رجل فأكلوه، ومع هذا السحق فشرب الخمر ظاهر، والزنا مباح، واللواط غير مستور، ولا ترى إلا مجاهراً بعصبة»^(٨).

وإذا لم تكن السلطة تحت حكم ملوك الطوائف تملك صرامة عصور التعادل والازدهار، فقد كان لديها على الأقل قوة كافية للحد من الضلال الأكثر لفتاً للأنظار، وإذا لم يكن كل شيء في نظام فإن التجاوزات لم تكن تعلن عن نفسها على الأقل في وضوح النهار.

لقد كان المعتمد شاباً يحكم في شلب، ويعيش لحظات سعيدة في قصره النائي عن المدينة قليلاً، وفيما بعد أخذ يسترجع ذكرياته تلك منفعل^(٩). وعندما أرسله أبوه ليحتل مالقة أبطأ في الطريق لينعم بقضاء بعض الوقت في اللهو والسرور والطعم والشراب، صحة مفتيات كان يلتقطهن أثناء عبوره^(١٠)، ولهذا لا يدهشنا أنه هُزم، وأصبح عليه أن يعود من حيث أتى، ولكن يهدد من غضب والده المعتمد أرسل إليه قصيدة نيرز من بينها هذه الأبيات المشهورة:

لم أوت من زمني شيئاً ألد به فلست أعهد ما كاس ولا وتر
ولا تملكني دل ولا خفر ولا سمى خلدي غنج ولا حور
هو المدام التي أسلو بها فإذا عدمتها عشت في قلبي التفكير^(١١)

(٥) نرى في أغلب علب العاج التي من القرن العاشر أو مطلع القرن الحادي عشر مشاهد بلاطية الشخصية الرئيسية فيها، وهو الأمير دون شط، يبدو ممسكاً بيده كأساً. انظر، ج. فراديس، العاجيات لإسبانية ٦٣ - ٩٣، ورقم ١١ - ١٩. وانظر فيما سبق ص ٢٩٨ وفيها سابق ص ٣٣١ - ٣٣٢ من هذا الكتاب.

(٦) من المنسرح، نصح ٥٧٨/٣، ومن يدعو إلى الفلاح هو المؤن في قوله: «حي على الفلاح».

(٧) البيان المغرب ٢/٣ و ٢٤ - ٢٨ و ٢٩ و ٦٦ و ٦٨، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٨٥ و ٢٠٢ و ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٨) البيان المغرب ١٠٦/٣.

(٩) القلائد ٥ - ٦، وبنو عبد ٣٩/١ و ٨٩/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٩١، ونظر فيما سبق ص ١٢٣ من هذا الكتاب، وفيما بعد ص ٣٣٧.

(١٠) القلائد ١٩، وبنو عبد ٥٢/١، وخولان ريسرا، موسقا Las Cantigas ص ٢٣ و ٥٢، ومينتشت بيدال إسبانيا في عصر

لسد ٩١/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٦٨ - ٦٩.

(١١) من السيطر المعتمد الديوان ص ٣٩، الأناث ٢٧ و ٢٨ و ٣٠، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٦٩.

ونفس والده صرّح في شيء من الخشونة، فأسية إلى حد ما، وتشهد بقوة مزاجه:
فأسى على اللذات واللهو عاكفاً وأضحى بساحات الرئاسة أختالاً
ولست على الإدمان أغفل بغيري من المجد، في في العالي لمحتال^(١٢)

وعندما خلف المعتمد والده لم يترك نفسه تنغمس في اللذائذ، ولو أنه أصبح من الآن فصاعداً حراً فيما يفعل، فقد عظم لديه الإحساس بمسئوليته ورئيس دولة، وبخاصة أنه لم يكن يملك روح من يهوى أن يعيش الحياة حقاً، ومباهجه كانت، حتى في أبلغ درجاتها حيوية، ملونة دائماً بحزن يدهشنا للوهلة الأولى، وهو منمع ملحوظ في هذا المجتمع الذي درجنا على اعتباره حتى وقتاً هذا غارقاً في اللذة بأجمعه، ولكن إذا أخذنا في الاعتبار أصول الأندلسيين العرقية، إلى أي طبقة انتموا، يبدو لنا هذا الملمح منطقياً في الشخصية الإسبانية، ولا شيء يمكن أن يعبر عن هذا الواقع بأفضل مما تعبر عنه أبيات المعتمد التي يقول فيها:

عَلَّلْ فَوَادَكَ قَدْ أَهْلُ عَيْلٍ وَاعْنَمْ حَيَاتِكَ فَاَلْبَقَاءُ قَلِيلٌ
لَوْ أَنَّ عَمْرَكَ أَلْفَ عَامٍ كَامِلٍ مَا كَانَ حَقًّا أَنْ يُقَالَ طَوِيلٌ
أَكْذَا يَقُودُ بِكَ الْأَسَى نَحْوَ الْبُرْدِي وَالْمَوْدُ عَوْدٌ وَالشُّمُولُ شُمُولٌ
لَا يَسْتَبِيحُكَ الْهَمُّ نَفْسَكَ عَنُودٌ وَالْكَأْسُ سَيْفٌ فِي يَدَيْكَ صَقِيلٌ
بِالْعَقْلِ تَزِدْهُمْ الْهَمُومُ عَلَى الْحَسَا فَالْعَقْلُ عِنْدِي أَنْ تَزُولَ عَقُولُ^(١٣)

أيمكن حقاً أن يدع أمير المعتمد، أندلسي في شخصيته وطموحاته، اللذائذ تعتقه حتى يفقد معها كل وسيلة، فيثير بذلك رد فعل في الرأي العام، سوف يبرر تدخل الرابطين فيما بعد^(١٤)؟ لا يمكن أن نتخذ هذا. ومن المهم أن نلاحظ أن كل اتهامات الانقذات التي وجهت إلى ملوك الطوائف تيجي من مؤرخين لا حقين. كان الجانب الأكبر منهم يتلقى روايت من الرابطين أو الموحدين، وهؤلاء عرف عنهم النقاء الديني الشديد، على الأقل في الأيام الأولى من حكمهم. نقد كان شأن ملوك الطوائف في استسلامهم للمتغ واللفائف شأن الأمويين ولعاريين الذين سبقوهم، لا أكثر ولا أقل، أو الرابطين والموحدين الذين جاءوا بعدهم^(١٥). ولما أن الجانب الأكبر من حملاتهم الحربية كان وجهة مظهرية، وأنهم حتى في المواقف الخطرة راوحوا بين حفلات السمر وضربات الحسام، فذلك أمر لا شك فيه، ولا نفهم أية متعة يمكن أن يكون ابن عكاشة قائد المأمون قد أحس بها عندما سجن محمد بن مرتين قائد المعتمد، وجعله يستعرض أمامه كل المغنيين والموسيقين والراقصات الذين وجدهم في داره، وجعل

(١٢) انظر فيما بعد ص ٣٧٧ - ٣٧٨ من هذا الكتاب.

(١٣) من الكامل، المصجب ١٠٣، وترجمته ٨٨، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٩٦.

(١٤) عن هذا الموضوع انظر: الحلة في «بئر عباد» ٦٢/٢، والقلائد ٢٦ - ٢٢، وفي «بئر عباد» ٥٦/١ و ٣٣٤/٢، ونفع

٢١٥/٤ و ٢٥٩/٤ و ٢٧٤/٤، ويقول ابن غالب في فرحة الأنفس، في النفع ٤٠٥/٢: «كان لا يظهر شرب الراح منذ ولي ذلك».

(١٥) انظر مثلاً المنتهد المخجل الذي اتقد من نهر إشبيلية مسرحاً في اللحظة التي خلف فيها الموحدون الرابطين. في نفع

١١٢/٤، وكل السفالات التي يدكرها ابن قزمان في ديوانه. انظر فيما سبق ص ٣٠٢ وفي ٢٦ من هذا الكتاب.

يسأله عن أسمائهم^(١٦)، وما صنعه المعتمد وأبناؤه^(١٧) في شيبيلة، أو ابن مرتين في قرطبة. أو بنو ذى النون في طليطلة، أو بنو الأفطس في بطليوس، وبقية ملوك الطوائف في قصورهم الخاصة. ومن المؤكد أن بنى عباد أمراء إشبيلية، وبنى صامح أمراء المرية، كانوا يعفونه على نحو أقل علانية^(١٨).

وحلة المباخر من متعلقى المرابطين، شعراء أو مؤرخين، لا يملون القول من أن أمراء الأندلس «مشتغلون بشرب الخمر، واقتناء القين، وركوب المعاصر، وسماع العبدان». ونحن نقب ذلك بقدر، ونرفضه على إطلاقه، لأنه يناقض ما قولونه أنفسهم، حين يصفون مبتهجين عصر أواخر العامريين وملوك الطوائف بأنه العصر الأكثر ازدهارا وسعادة في إسبانيا، يقول المراكشي: إن أيده المظفر بن المنصور بن أبي عامر كانت «أعيادا في الخصب والأمان»^(١٩).

ويقول المؤرخ نفسه عن أيام بنى المظفر من بنى الأفطس أمراء بطليوس أنها كانت «أعيادا ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الآداب»^(٢٠). ويصرح بجهول عن البكرين أصحاب أونة وشلطيش بأن أيامهم كانت أعيادا من رخاء لسر وثن السبيل^(٢١)، وفيما يرى الفتح بن خاقان فإن أيام المعتمد «مواسم، وثغور يره بواسم»^(٢٢).

أليس الشعراء أيضا مسئولين إلى حد ما عن شهرة الأناس في الملاذ التي أضفيت عليهم؟ وما أقل الأشعار التي لا تصور نزعة إلى ريف ورف، أو على ضفاف نهر عليل التسمم، ليلا أو نهارا، وفي ضوء متقدم يبدو أنهم لا يريدون أن يمكوا من الحياة إلا بكل ما هو طيب فيها، ولو أن اللذائذ تأتي فيها أحيانا ممزوجة بشيء من المرارة. كتب ابن عمار إلى عضد الدولة بن المعتمد:

يا عضد الدولة المصطفى من جوهر الثبل والذكاء
ماذا ترى في اصطباح يوم منقَّب الصبح والمساء
نسرقه من يدي زمان لم يقسم الرزق بالسواء^(٢٣)

ولم يعبر أحد عن معنى «ولك السلعة التي أنت فيها» بأفضل مما عبر عنها اليكرى في الأبيات التالية:

خليلي إنى قد طربت إلى لكأس وتقت إلى شَم البنفسج والآس
فقوموا بنا نلهو ونستمع الغشا ونسرق هذا اليوم سرا من الناس

(١٦) أعمال الأعلام ١٥٨.

(١٧) خط ملا مشهد أنس للرشد قصه عليه ابن سام في المخيرة ٣٨٥/٢، وعنها في نفع ٢٧١/٤ - ٢٧٢.

(١٨) انظر: أبو طالب عبدالمبارك الملقب بالمتقى، الأربعة، في النعيم ١١٨/١ وما بعدها، وأبو الحسن بن الجند، في النعيم.

(١٩) أعمال الأعلام ٢٤٦ - ٢٤٢، وكلمة الاكتفاء لابن الكردوس ص ٧٧، وعنه في «بنو عباد» ١٥/٢.

(٢٠) المعجب ٤٠، وترجمته ٣٢.

(٢١) المصدر السابق ص ٧٥، وترجمته ٦٤، ووجدت نصه في بيت زجل لابن قزمان قاله شبنم. الديوان، القطعة ١٤٧.

الدور رقم ٥.

(٢٢) البيان المغرب ٢٩٩/٣، ترجمة ليفي بروفسال في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٢٢٣.

(٢٣) الفلاذ ٤ (وانظر ص ٧ أيضا). وتعبير «مواسم وأعياد» شائع ريت الشعر الآن، وهو مجهول، يوضح عناء بكل دقة.

وعد ذكره ابن الأثير في كتابه «الكمال في التاريخ» طبعة تود نبرج ج ١١ ص ٣٠٣.

(٢٤) من البيط، الفلاذ ٨٥.

فليس علينا في التعلل ساعة
وغي هذا البيت لابن خيرة الصباغ:
فاشرب ولذُ بجنة
واقرب فإن العمر فائت^(٢٤)
ويقول أبو عامر بن مسلمة:

يا نديمي قم اصطبغ
على العود فاقترب
إنا العيش بالسبا
ع وبالنار والقصد^(٢٥)

وإلى جانب هذه الأبيات التي تتغنى بالحاضر، هناك مقطوعات وأبيات أخرى، كثيرة العدد أيضاً، يجب أن تشير إليها، وفيها يعود الشاعر إلى الماضي مصوراً لحظات حلوة، من الخلوات الخاصة، يقول ابن السراج في أبيات كتب بها إلى أبي الحسن بن اليسع يذكره:

غنيماً بذكرك عن رحيق سلسل
وحداتي خضري وعزفي ميان^(٢٦)
وتأخذ الصورة شكلاً أدق عند أبي عيسى بن ليون:

خليلى عوجا بي على مسقط اللوى
فأسأل عن ليل تولت بأتينا
ليالى إذ كان الزمان مسالماً
وإذ كنت أسقى الراخ من كف أغيد
أعانق منه الفصن يهتر ناعياً
وقد ضربت أيدى الأمان قبها
فما شئت من لهو وما شئت من دو
وما شئت من عرد يفتيك مفصلاً
لعل رسوم الدار لم تتغيرا
وأندب يائساً خلت ثم أعصرا
وإذ كان غصن العيش فينان أخضرا
يُنْاولنيها رائحاً أو مكرراً
وألتم منه البئر يطلع مقمرا
علينا دك الدهر عنا وأقصرا
ومن موسم يُجنيك عذبا مؤشراً
«سالك شوق بعد ما كان أقصراً»^(٢٧)

وكانت الموسيقى مثيرة، والخمر معتقة، تقدمها فتاة هيفاء، أو علام لطيفة الرفقة الضرورية، فيما يبدو، لحياة بهجة في الأندلس، ولا ينقصها غير العطور تعبق في الجو، لتقدم للأندلسي الإحساس بأن الاستمتاع بالحياة بلغ غايته. كتب أبو محمد عبد الله، إلى بعض أصحابه من الأسر في طليطلة:

هذا وكم يتنا وفي
أيماننا كأس الشمول
والعود ينفق والدخا
ن العنبري به يحول^(٢٨)



(٢٤) من الطويل، الحلة ١٨٧/٢، وأبحاث ط ٦ ص ٢٨٩ - ٢٩٨، وط ٣ ج ١ ص ٢٦٣.

(٢٥) انظر ص ٢٠١ رقم ٤٦ فيها سبق من هذا الكتاب.

(٢٦) من الخفيف، أبو الوليد الحميري، البدء في وصف الربيع ص ١٥٢.

(٢٧) من الكامل، الفلاند ١٦٩، والحلة ١٧٤/٢.

(٢٨) من الطويل، الفلاند ١٠١، الذخيرة ١٠٧/٢، وأبحاث ط ٦ ص ٥٢٨.

(٢٩) من الكامل، نفع ٥٠٦/٢ - ٥٠٧.

في الأشعار السابقة استلطنا أن نلاحظ كثرة تصوير الخمر بمناسبة الاجتماعات السارة، رغم كل التحريمات، والملاحظة تنطبق على المشرق والغرب الإسلامي على السواء، فقد كان المسلمون يشربون النبيذ، والقصائد التي تتغنى بالخمرة، وسميت اسم الخمريات، كثيرة جداً، ونعتقد أن الشعراء لم يكونوا يتحدثون عن النبيذ الأحمر خيالاً فحسب، وقد اشتهر المشقة بهذا اللون من لقصائد، وعلى رأسهم أبو نواس، وأما في الغرب الإسلامي فإن المطبق الصقلي يافس أياً نواس في خمرياته^(٢٠)، وإذا كان ابن زرقون قد ألف عن المرباطين كتاباً «وهج الجمر في تحريم الخمر»^(٢١) فإن أبا عامر بن مسلمة في نطاق موجة القرن الحادي عشر طرأت في كتابه «حديقة لارتياح في وصف حقيقة الراح»^(٢٢)، ومنه أخذ ابن بسلام قدراً لا بأس به من المعلومات لكتابه الذخيرة^(٢٣).

والروايات التي أوردناها أصحاب المختارات الشعرية والمؤرخون قبل إلى إظهار أن شرب الخمر، ولو أنه لم يكن مسموحاً به صراحة حتى لا يتناقض ذلك مع القرآن والسنة، كان متسامحاً فيه شريطة ألا يبلغ حد السكر. ومن جانب آخر، لا نستخدم في بعض الحالات علاجاً^(٢٤)؟ لقد كان هناك نوع من التمييز موضع تقدير الأندلسيين، على نحو ما هو عليه اليوم، وليس في إسبانيا وحدها وإنما في العالم أجمع، وهو تمييز مألوف^(٢٥). وعبثاً حاول بعض خلفاء بني أمية التفكير في اقتلاع كل الكرم في شبه الجزيرة للقضاء على عادة شرب النبيذ وتظهر لنا بوضوح النصيحة التي تلقاها الحكم الثاني كي يراجع في قراره كيف نوءمت العتات مع ما كان يعتبره بعض المتشددين وباء اجتماعياً إذ قالوا له حين شاور في استئصال شجرة الغنم من جميع أعماله «إنهم يعملونها من التبن وغيره»^(٢٦). وكان المحتسب وصاحب الشرطة^(٢٧) يضطلعان بعقاب الشاربين السكران، وفي غرناطة سن البربري العجوز سماجة الصنهاجي، مؤدب الأمير الزيري عبد الله عقوبة أصبحت مثلاً في القسوة، فقد «اشتد في منع اتخاذ الخمر، وجعل إزاء ذلك القتل غرامة لم يحل عقدها ولا نسخ حكمها»^(٢٨). وكان القرطبيون يميزون، فيما قول والداين سعيد، «بحرف اللباس، والتظاهر بالدين والمحافظة على الصلاة، وتعظيم أهلها لجامع الأعظم، وكسر أواني الخمر حيثما وقع عين أحد من أهلها

(٢٠) ابن ليون، لمع السحر، الورقة ٥٧

(٢١) ابن دحية، المطرب ٢١٩.

(٢٢) المطمع ٢٠٤، ونفع ٤٨٥/٣ و ٥٤٤

(٢٣) الذخيرة ١٠٦/٢ - ٢٠٦. وقد ألفه الرقي القيرواني أيضاً، مختارات خربة أعطلها عنواناً «قطب السرور في وصف النبيذ والمحمرة»، الجزء الأول منه مخطوط في المكتبة الواسية في باريس تحت رقم ٣٣٠٢، والثاني مخطوط في مكتبة الإسكندرية تحت رقم ٥٥٨. وُلّف أيضاً كتاب «معاقرة الشراب»، مكر: نفع ١٣٢/٣.

(٢٤) أبو عامر بن الفرج عالج بهما له مصاباً وكيد بخر معتقة. انظر: لمطمع ١٨٨، ونفع ٤٠٨/٣ و ٥٤٢، والحلة ١٧٢/٢.

(٢٥) نفع ٢١٩/٣. ويقول ابن حديم: إحدى قصائده إن أحد رفاقه في الشرب كان قادراً على أن يميز بواسطة النشوة بين أنواع الشراب التي تتنم له، وحتى تحديده سنوات تمتيقها، انظر ديوانه ١٥٥، الأبيات ٢٠ - ٢٢.

(٢٦) انظر: نفع ٣٩٦/١ و ٢١٤/٣، ومضى البقية ص ١٨، والحلة ٢٠٣/١، وكفى برونسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العشر ١٦٨ - ١٦٩.

(٢٧) انظر نفع ٢١٧/٨ - ٢١٨ وسعيج اقصى إذا لقي سكراناً في الشارع أن يأمر الشرطة بالقبض عليه وأن يقيم عليه الحد. انظر: نفع ٤٥٣/٣.

(٢٨) أعمال الأعلام ٢٣٤، وانظر فيه ستي ص ٦١ من هذا الكتاب.

عليها»^(٣٩). وهو ما يؤكد ابن زيدون في القرن الحادي عشر في قصيدة يمدح بها ابن جهور لأنه كثر كل أولي الخمر في قرطبة:

لقد أوسع الإسلام بالأس جشنة. نَحْتُ غَرَضَ الْأَجْرِ الْجَزِيلِ فَلَمْ تَعُدْ
أَبَاحَ حَمَى الْخَمْرِ الْخَبِيثَةِ حَائِطًا حَمَى الدِّينِ مِنْ أَنْ يُسْتَبَاحَ لَهُ حَبْ
فَسَطَوْنَ بِاسْتِصْلَاحِ الْمَصْرِ مِنْهُ يَكْسَادُ يُؤْدِي شَكْرَهَا الْحَجَرُ الصَّلْدُ
حَمَى الرَّجْسِ إِنْ يَذْهَبُ عَنْهُ فَمَحْنٌ شَهْرُ الْأَيَادِي مَا لَالَانِهِ جَعْدُ
مِظْنَةُ آثَامٍ وَأَمَّ كِبَائِرُ يَقْضُرُ عَنْ أَدْنَى مَعَالِيهَا الْعَدُ
رَأَى نَقْصَ مَا يَجِبُ مِنْهَا زِيَادَةً إِذَا الْعَوْضُ الْمَرْضِيُّ إِلَّا يَرُخُّ يَغْدُو^(٤٠)

ويدل البيت الأخير في هذه الأبيات، دون أدنى شك، على أن الفرامات التي كانت تفرض على المذنبين تحولت تدريجاً إلى ضريبة حقيقية، وأصبحت تمثل دخلاً للدولة بالغ الأهمية، وكان ابن حزم يوصفها فقياً مستقياً وأميناً يعارض ضريبة القبالة هذه التي يدفعها مسلمون ليكون لهم حق الاتجار في الخمر في بعض المقاطعات^(٤١).

وإذا كانت الفرامة مشروعة فالضريبة ليست كذلك، لأنها تفرض على المسلمين بنفس طريقة الضرائب القانونية، وربما كان لابن جهور بعض الفضل من وجهة النظر الدينية عندما ألغى مصدر الدخل هذا لبيت المال، ولكن الوسيلة التي اتخذها لم تستطع أن تغير من العادات شيئاً فيما يبدو، وكان عليه أخيراً كبقية أمراء شبه الجزيرة أن يتسامح مع الخمر وبدائلها.

وإلى جانب الخمر بمناه الدقيق كان الإسبان يشربون النبيذ أيضاً^(٤٢)، وفي المشرق يصنعونه من التمر بخاصة، ولأنهم في إسبانيا الإسلامية لا يفرسون النخيل المثمرة بالوفرة نفسها، كما في المشرق، باستثناء شرقي الأندلس، كانوا يصنعونه من العنب طارحاً أو زبيباً، ولا يتميز عن الخمر الحقيقي إلا في طريقة الإعداد، ومن ثم لا يعطى قوة السكر نفسها. ومن جانب آخر فإن كثيراً من الأندلسيين لا يعتبرون النبيذ محرماً، معتمدين في ذلك على مذهب ما يدعوه الشعراء «العراقي»، يخنون أباً حقيقه، المتوفى ١٥٠ = ٧٦٧^(٤٣). وفي حفلة الإعذار الشهيرة التي أقيمت في طليطلة على شرف

(٣٩) نفع ١/٤٦٣.

(٤٠) ابن زيدون، النيران ٣٦٢، الأبيات ٥٠ - ٥٥.

(٤١) ابن حزم، مخطوطة القسطنطينية التي حللها أسبي بلانكوس في مجلة الأندلس، المجلد الثاني، عام ١٩٣٤، العدد الأول ص ٣٧ و ٤٢. وقد درس ابن سهل في كتاب الأحكام، الورقة ١٩٦ أ، حالة مسلم يدعى أبا عبد الله بن حمدون «يصنع النبيذ ويخزنه ويشربه ويبيعه، ويدعو إلى بيته أناساً ليس لهم هويت ولا إقامة».

(٤٢) عن النبيذ بطامة انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٣/٨٥٨، وكتب المادة فينسينك، ر ٩٤٨/٢، مادة الخمر، وكتبها فينسينك أيضاً، وابن عبد ربه، العقد الفرید ٣/٤٠٠ - ٤٢٠.

(٤٣) كان الحجاج قدماً قبل الإسلام يشربون أثناء أداء طقوس الحج اللحن والنبيذ. انظر: جوقروي - ديومين، الحج إلى مكة ص ٧١ وما بعدها، وفي المشرق، في منتصف القرن الثالث = القرن التاسع، ظهر أدب يستند إلى الجدل الذي كان قائماً بين علماء الشريعة، ويتبن على النبيذ انظر: رسائل المحامض، طبعة السندري ٢٨٥ - ٢٩٦: رسالة في مدح النبيذ. وحتى الشعراء تأثروا بهذا الجدل. انظر: ابن الرومي، قصائد مختارة، طبعة كامل كيلاني ص ٧٨، ومختارات الباهودي ٦٨/٤، وقافية القصيدة رابعة، وهي من بحر الطويل.

الصبي يحيى، عندما علم المؤمنون أن بين المدعويين أشخاص يعتبرون النبيذ حلالاً أمر أن يقدم لهم بكميات وفيرة ليظهر رغبته في إضاد مدعويه^(٤٤).

وإذا بدا لنا في القرن العاشر أن قاضياً مثل صهيبي بن عافى يشرب النبيذ^(٤٥) حالة فريدة، فإن الشراب في القرن الحادى عشر سوء في أيام الفتنة أم في عصر ملوك الطوائف، أصبح عادة شائعة، وأصبحت كلمة «نبيذ» مرادفة لكلمة «خمر»^(٤٦). وفي المدن الكبرى حيث يلعب عنصر المستعربين دوراً بالغ الأهمية كانت توجد حانات لا يتردد عليها المسيحيون وحدهم فقط، وبعض هذه الحانات، إذا صدقنا ابن اللبانة، كانت تدرها النساء:

ولرب ربة حانة نهتها والجو لؤلؤ طله قد رضرها^(٤٧)
وهو ما يؤكد به يحيى السرقسطى حين يقول:

رب حارة سريت لبها والدحى في ثيابه الزنجية
كم عقار بذلته بعقار وثياب صبغتها خمره
إن خير البيوع ما كن نقداً ليس ما كان أجلاً بنسيه^(٤٨)

ويشير ابن شهيد في رسالته «التوابع والزوابع» إلى الحانات التي كانت تجاور الأديرة المسيحية في ضواحي قرطبة^(٤٩)، وقرينه أبو حفص بن شهيد يتحدث أيضاً عن الحانات في إحدى مقامته^(٥٠).

ونعرف من أشعار كثيرة أن الإسبان المسلمين كانوا يشربون الخمر حتى السكر الفاضح، لأن مألهم من نبيذ كان شرساً، ألم يلق بأحدهم في صحبة رفاق يسكرون أن يشهر سيفه ضد أحد

(٤٤) الذخيرة ١٣٥/٤، ويشير ابن خلدون في مقدمته أكثر من مرة إلى مدح أبي حنيفة في اتصال بالسياسة، حجة كاترمير ٢٥/١ و ٢٦ و ٣٩١، وترجمة دى سلان ٣٥٠، ٣٦ و ٤٤١.

(٤٥) الحميدى يشير إلى قصة متصل بذكر الموضوع، ويعلق عليها: ولعله كان يذهب مدح أهل العراق، انظر: الحلة ٢٣٧/١، وابن طاهر، بدائع البداة ٩٧ - ٩٨.

(٤٦) الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤، طبعة القاهرة وعنها في أعمال الأعلام ١٥٨ طبعة الرباط ١٩٣٤ والفخيرة ٢٨٠/٢ - ٢٨٩ (رسالة ابن الدباج ورد من سداى عليها)، ونقح ٢٤٦/٢، وابن طاهر، بدائع البداة ٣٠.

(٤٧) من الطويل، القلائد ٢٤٧.

(٤٨) من الخفيف، نفع ١٥٨/٤، ودورى في تكملة المعاجم العربية (٢٠٤/١) يعطى حارة ما معنى حانة، ويبدو مؤتمداً أننا بإزاء خطأ، لأن السرقسطى عندما نظم أبياته تذكر عراحة أبياتا لابن المعتز، الشاعر المشرقى، يقول فيها:

وخارة من بنات لجوس ترى الزق في بيتها شائداً
مدتنا لها فعباً جامداً فكانت لنا نعباً سائداً

والأبيات من المتعارف، نفع ١١٥/٢، ورائحه ١١٥/٢.

(٤٩) الذخيرة: ٢٦٠/١، والمطبع ١٩٤ - ١٩٥، عنه في نفع ٥٢٥/١، وأحد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس ٥١ - ٥٣ وفي القرن الثامن عشر كان أشهر أنواع الخمر في قرطبة يسمى «خمر الدير»، انظر: نفع ٥٤٤/١، والبيت الأربعة في «مكر الأدب» لابن هشام القرطبي.

(٥٠) الذخيرة ٦٨١/١، وأحد ضعف، بلاغة العرب ٣٦ في العاشق، وفي القرن الثامن عشر قال أبو جعفر بن حميد حبيب حفصة الركوتية عن قوافله (من السبع):

جاهلة حيث سوى مسجد عارضة حانة خمار

نفع ١٨٤/٤، وغريبة غوث، الشعر الأندلسى ٩٠.

أصدقائه، بعد حوار من السهل أن تتخيل أنه لم يكن بالضرورة مهذباً؟^(٥١)
 وكان بعض الشعراء يرون في الخمر عزاء وسلوى، ويؤكد هذا جيداً ما قيل من مثل: يتصل بحالتها
 العارضة، يقول أبو محمد بن السيد البطليوسى:
 سَلِّ الهمومَ إذا نَبَا زمنٌ بدمامة صفراء كالذهب^(٥٢)
 . وكان القَلَنْدَر، وهو اللقب الذى كان ينادى به أبو الأصمغ عبد العزيز البطليوسى، يسكر كثيراً
 رغم أنه طيب، ويقول:

جَرَتْ مِنِّي الخمرُ بِجرى دمي فجلُّ حياتي من سكرها
 ومهما دجيت ظلمَ للهموم فتمزيقها بسنا بدرها^(٥٣)

وحين أقام ابن عمار في سرتسطة لاجئاً، «ورأى غياوة أهلها، وتكاثف جهلها، وشاهد منهم من
 لا يعلم معنى ولا فضلاً، وواصل من لا يعرف قطعا ولا وصلا، فأقبل على راحة يتعاطاها، وعكف
 عليها ما تعدها ولا تخطاها، حتى بلغه أنهم تقوموا معاقرة العقار، وجالت ألسنتهم في توبيخه بحال دى
 الفقار، فقال:

نَقَمْتُمُ على الرَّاحِ أو من شربها وقلتم فنى راح وليس فنى تجد
 ومن ذا الذى قاد الجياد إلى الوغى سوائى ومن أعطى كثيراً ولم يكد^(٥٤)

وإذا كان من الحق أن المسلمين يشربون الخمر، فمن الحق أيضاً أنهم يمتنعون عن شربها في يوم
 الجمعة، ولو أن هناك من لا يمتنعون حتى هذا اليوم، ففى صباح موقعة الزلاقة، وبدأت في يوم جمعة
 كما هو معروف، طلب أبو الحسن بن اليسع خرا من أبي بكر بن القبطونية:

عطشتُ أبا بكر وكفك ديمةً وذبتُ اشتياقاً والمزار قريبُ
 فخففتُ ولو بعض الذي أنا واجدٌ فليس بحق أن بضاع غريب
 ووقر لنا من تلك حظاً نرى به نشاوى وبعد القزو سوف تنوب^(٥٥)

وتتساءل عما إذا كان ابن اليسع يطلب الشراب استجابة لعادة درج عليها، أو أنه كما نقول «من
 القلب للمعدة»، إذ من الحق الثابت أن الأندلسيين في معركة الزلاقة، باستثناء المعتمد، كانوا جنوداً
 أقل من شجعان!



(٥١) الطبع ٣٨٣، ونفع ٢٣٦/٤. وخلال سهرة عند أبي مروان بن زريق، في قصره «منية العيون» سكر أحد المدعوين وتصور
 أنه مقاتل في ساحة حرب. انظر: القلائد ٥٥ - ٥٦، ونفع ٦٦٩/١ - ٦٧٠.

(٥٢) من الكامل، نفع ٦٤٥/١.

(٥٣) من المشدود، نفع ٤٥٢/٣. وهناك طبيب آخر هو أبو العرب يوسف بن محمد، غلب عليه حب الخمر في أواخر حياته،
 فلم يكن يرى أبداً صاحباً. ومع ذلك ترقى عام ٤٣٠ = ١٠٣٩ بعد أن عاش تسعين عاماً تقريباً. انظر: صاعد الأندلس، طبعات
 الأمم، طبعة الأب شيخو، ص ٨٢ - ٨٣، وترجمة بلاشير له ص ١٤٩.

(٥٤) من الطويل، القلائد ٨٤، ونفع ٦٤٦/١.

(٥٥) من الطويل، القلائد ١٦٩، والمجلة ١٧٤/٢، وانظر أيضاً أبياتاً أخرى عن موضوع الخمر في يوم الجمعة في نفع ٤٥٣/٣،
 وابن ليون، لمح المسحر، الورقة ٦٥ أ.

يسمى لنا الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر بإعداد قائمة تقريبية بالأشبه التي كانت تستخدم في مجالس الأتس لشرب الخمر والتبذير، فالأناء المملوء بالشراب يسمى كأساً. ود كان صغيراً منه، ومن معدن، هو القضة غالباً بطبق عليه اسم قدح، وصا من زجاج عُرف بأساء كثيرة: جام^(٥٦) ونخبة^(٥٧) وغرب^(٥٨). وما كان منها منقوشاً أو ملوناً يجيئ من المشرق من العراق على التأكيد، وتسمى «الكأس العراقي»^(٥٩)، ومة شواهد على وجوده لافي الجانب الإسلامي وإنما أيضاً في الجانب المسيحي، وبخاصة في ليون^(٦٠). يقص علينا مؤلف البيان المغرب أن باديس بن حبوس ملك غرناطة أراد في عام ٤٤٤ = ١٠٥٣ أن يخلص من خصمه محمد بن إدريس فوجه له بكأس عراقي مسموم مع رجل من الكتامين، فلما وصل إليه قل له: هذا كأس جُلب للمحاجب المظفر باديس ثم يره يصلح إلا للخلافة فاخضعك به، فأعجب به محمد بن إدريس وملاً خيراً وضعه إلى فمه فأحس في نفسه رغبة منه، فأمر الكامي فشر به فمهرأ حله من عظمه من حينه. وبقي هو ثلاثة أيام ومات من راحته^(٦١). وكان للأوعية والزجاجات أسماء خاصة بها، كما شهد بذلك بيت لابن دراج القسطلي^(٦٢):
ونصب مجانيناً من اليم^(٦٣) إلى أحجارهن من الرواطم^(٦٤) والنخب

(٥٦) اسم فارسي الأصل.

(٥٧) انظر فيما سبق ص ١٦٦ من هذا الكتاب ويرى دوزي أن معنى كأس Coupe يختلف عن «نخب». وأنه وجد هذا في بيت شعر لمسلم بن الوليد (الديوان، طبعه دي غويه، المخططة ٢٨، البيت ١٦). ويقدم الشعراء الأندلسيون شواهد كثيرة على هذا فابن الحزري يتحدث عن «نخب الكؤوس» (البدء في وصف الربيع ص ١٠٠) وكذلك ابن دراج القسطل في المصدر السابق ص ١٠٠، وقارنه بما في القاموس للفرزدق، مادة نخب، حيث يذكر: النخب: الشرية العظيمة ولسان العرب، في الماش، ١٤٩/٢ وابن عذاري، البيان المغرب ٣٠/٢، وترجمته ٤٦٦/٢، ومعنى اتخذه بالكأس، تنادى الكؤوس. انظر دوزي، أبحاث ط ١ ص ٦٠-٦١.

(٥٨) ابن علي في البيع للعمري ص ١٣٧. وانظر فيما سبق ص ١٥٨ من هذا الكتاب.

(٥٩) النخبة ١٠٩/٤ طبعه القادر.

(٦٠) سانتشيت البرنس، طوابع الحيا في ليون منذ ألف عام، ص ٢٠١ «Vasa irakesa» وغرمت مورينو، كائنات المستعرب ١٢٦ - ١٢٧ و ٣٤١ - ٣٤٢، «الأكوب، عظم جنس ضمن مجسرة من الأواني مختلفة الطرز، وبخاصة الكؤوس والكؤوس الفضية والمجلىة الغالية من لبلور والزجاج الأبيض، أو لمنقطة من حوى جوز الهند وغيرها. ويذكر أيضاً بعض الأكواب التي عليها رسوم والمنقبة.

(٦١) ابن عذاري، البيان المغرب ٢١٦/٣، وابن الخطيب، أعمال الأعلام ١٤١ (كلمة عراقي لا توجد في نص ابن الخطيب). وحول كلمة عراقي صفة للكأس من زجاج انظر دوزي وإبيلمان، معجم الكلمات الإسبانية ص ٢٨٧ - ٢٨٨ مادة عراقي، وتغير أكواب عراقية يوجد في ابن عاصب جة الرضا، في تقع ٥١٠/٤، وأيضاً يستخدم ابن جبير، في نهاية القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي تعبير «الزجاج العراقي» انظر: رحلة ابن جبير، طبعه دي غويه، ليد ١٩٠٧، ص ٨٣ و ٢٨٣، والمعجم ٣٥. ويقول القزالي، السفر المغربي الذي جاء من إسبانيا عام ١٧٦٦، بمناسبة إيجاج كنيسة طليطلة الجامعة: الزجاج المخرن للمسمى عندنا بالزجاج العراقي (مخطوطة الجزائر رقم ١٧٣، الورقة ٦٩٣ ب)، ويوجد تعبير الزجاج العراقي أيضاً عند ابن بطوطة، رحلة ٢٦٢/٢.

(٦٢) انظر فيما سبق ص ١٦١ من هذا الكتاب.

(٦٣) انظر: دوزي، تكملة المعجم ٧٤٢/٢، ونفع ١٧٩، وابن الحداد في النخبة ٧٢٢/١: «في جم الزجاج».

(٦٤) انظر فيما سبق ص ١٦١ رقم ٣٥ من هذا الكتاب. ومفرد لكسة وروثة، وهي مأخوذة من الكلمة الإسبانية القديمة retoma، وأصبحت في الإسبانية الحديثة redome، وعلق عليها شيجيو وكبها redomas. انظر: إضافة إلى علم الأصوات ١٦٣ و ٣٥٤.

وكان يطلق على الزجاجات اسم مضربة^(٦٥) أيضا، والكوس الكبيرة اسم «الكبير»^(٦٦) والدوارق اسم «قاطي»^(٦٧).



كان الأندلسيون يراعون سلسلة من الطقوس عندما يقدمون الخمر، وفي رواية أوردها لنا المقرئ نرى ابن صاحب البيت يخدم المدعوين بعد انتهاء الطعام^(٦٨). وعادة، في الاجتماعات الليلية بخاصة، كان هناك الساقى، وهو - كما في المشرق - يملأ الكؤوس ويقدمها للضيوف، ويمكن أن نقرر ونحن على يقين أن لكل مدعو كأس، ولكن في بعض الأحيان كانت هناك كأس كبيرة تنتقل من يد إلى يد، وتُملأ كلها فرغت^(٦٩). وبما أن الشراب يمتد حتى ساعة متأخرة من الليل، وأحيانا حتى صباح اليوم التالي، فمن الضروري أن يكون الساقى شخصية قوية البناء جسم ليتحمل هذا الإرهاق، وحالة الوصيفة الساقية، الصغيرة الطريفة، التي وصفها لنا أبو عامر بن شهيد، بعد حفلة استمرت طوال الليل، خلال حكم المظفر بن المنصور، لا بد أن تكون نادرة^(٧٠).

وكما في التقاليد القديمة كانوا يفضلون غالبا الفلمان على الصبيات، فيختارون الساقى من بين الفلمان أصحاب الوجوه الجميلة، وأبيات الشعر التي تحتفى ببريق الخمر في الكأس، وبجمال وجه الساقى، أو رشاقة حركته في الوقت نفسه، كثيرة جدًّا، يقول المعتمد متغنيا بذلك الجمال:

فه ساقٍ مهفهفٌ غَنِجٌ قد قم يسقى فجاء بالعجب^(٧١)

ونخبرنا ابن شهيد أن السابقات من الفتيات كن يقلدن الفلمان، فيلبس ملابس الرجال، ويقصن شعورهن على طريقة الشباب، وهذه الجاذبية الخاصة عن طريق التنكر مشرقية خالصة:

ظبيّة دون الصبايا قُصِّصَتْ فأتتْ غيداءَ في شكل الصُّبِّي
فتح الوردُ على صَفْحِهَا وحماءُ صدغُها بالعقرب^(٧٢)

ويشرب الأندلسي الخمر مع رفقة نسائية لطيفة، وكثير مع نداسي مبتهجين، أخلاقهم متميزة، ويطلق عليهم الشعراء «الفتيان الكرام»، وربما كان هذا مجرد تقليد للشعراء المشاركة^(٧٣). يقول ابن مقان الإشبوني:

(٦٥) انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ١٦٠ (وصف النيلوفر)، ودوزي، تكملة المعاجم ٧/٢.

(٦٦) القلائد ٧، وبنو عباد ٩٠/١ رقم ٩٥، ودوزي، تكملة ٤٣٨/٢.

(٦٧) القلائد ٦، وبنو عباد ٨٧/١ رقم ٧٨، ودوزي، تكملة ٣٧٢/٢.

(٦٨) نفع ٢٢٣/٢ - ٢٢٤ طبعة أوروبا.

(٦٩) ابن بشكوال يتحدث بمناسبة ليكرى عن «سبائ الشراب»، وسبائ جمع سبية، وهي منديل أبيض، من قماش رقيق، نجعل استخدامه. انظر: الحلة ١٨٥/٢، وأبحاث ط ١ ص ٢٨٧ و ٢٩٧. ومجمع اللابس ص ٢٠٠ [الترجمة لعربية ص ١٦٥]. وتكملة المعاجم ٦٣٠/٨.

(٧٠) اللخيرة ٣٠٤/١، وابن طائز، البدائع ٣٠٢، ونفع ٢٤٤/٣.

(٧١) من التلخيص، القلائد ٩، وعنها في «بنو عباد» ٤٤/١، ونفع ٢٧٨/٣.

(٧٢) من المبدد، اللخيرة ٢١١/١. أحمد صيف، بلاغة العرب في الأندلس ٤٦، وديوان ابن شهيد، القطعة رقم ١٠، ص ٩٢.

(٧٣) انظر مثلا الأعشى في معلقته، «ودع هريزة»، الأبيات ٢٦ - ٢٧. وعن معنى كلمة نقي انظر: بشر فارس، الشرف عند العرب قبل الإسلام ٢٠ - ٣٠، ودائرة المعارف الإسلامية، المعلق، الكتاب الثامن ص ٨٥ - ٨٦، وكتب المادة بشر فارس.

مع فتيانٍ كرامٍ نجيبٍ يشادون رياحينَ الجوى^(٧٤)
ويذكر أحمد بن مغيث في قطوعة الأمانة التي كان الأندلسيون يفضلون الاجتماع فيها،
ويتبادلون الأنخاب:

اشربْ على البستانِ مِن كَفِّ مَنْ يَسْقِيكَ مِنْ فِيهِ وَأَحْدَاقِهِ
وانظر إلى الأيكَةِ في بُرْدِهِ ولاحظ البدرَ بأطواقِهِ
وقد بدا السرُّ على نهرِهِ تخاضعُ شمر عن سائِهِ^(٧٥)

كان الأندلسي يختار عادةً للحدائق والأشجار والمياه الجارية إطاراً لمتعته، وهنا نلتقي من جديد مع
جبه المتميز للطبيعة. يقول الأمير رفيع الدولة ابن المعتصم إلى صديقه أبي الأعلى:

أيا العلاء كؤوسَ الراحِ مُتَرَعَّةٍ وللهندامى سرورٌ في تعاطيهِما
وللفصوى تَنُّ فَوْهٍ طَرِبَا وللمحسانِ سجعٌ في أحاليهِما
فاشرب على النهرِ من صهيلِ صافيةٍ تَأْغَا عَصْرَتِ مِنْ خَدِّ سَاقِيهِما^(٧٦)

وأحياناً يكون المكان قارب يتهادى على صفحة الرادى الكبير أو إبره حيث ينظم الرفاق في
اجتماعاتهم البهجة، ونعتقد أنه يكفي فيها يتصل بهذا الموضوع أن نعود إلى القصائد التي استلهمت
الحدائق، وأشرنا إليها بمناسبة الحديث عن الودياز والمياه الجارية.

وكان الشراب يكثر ليلاً، علانية أو سرا في بيت، وكى شيء مهياً لكي يستطيع المدعوون أن يطلقوا
العنان لأهوائهم، والصورة الأثر ترقداً في أوصاف الشعراء هي ما تصنع الخمر في للكأس الشفافة،
والسراج الذي يضيء ليل الشاربين، حتى عندما تكون المصابيح منطفئة، يقول أبو عيسى بن ليون:

ياربِّ ليلٍ شربنا فيه صافيةً حراء في لونها تنفى اشباريحاً
نرى الفرائش على الأعواس ساقطةً كأننا أبصرت منها مصدريحاً^(٧٧)

وهنا تجاوز مرة أخرى بذثر أبيات سبق أن أوردناها بمناسبة وصف الليل، إذ يذكر لنا أبو محمد
بن السيد البطليوسي مقطوعاً يبدو فيه أصيلاً إلى حد ما، عن سهرة خمرية طالت وامتدت حتى
طلع النجر:

ياربِّ ليلٍ قد هنتت حجابَهُ يسمى بها أحوى بفيونٍ كأنها
من خدِّهِ ورضابٍ فيه الأشنب يسمى بيدرٍ جاسجٍ للمغرب
فإذا نعت برفيفٍ بيدرٍ غارب فأنهم يرتفعون طالعين لم يغرب
حتى ترى زهرَ النجوم كأنها حول المجرة رفرفٌ في مشرب

(٧٤) من الرمل، نفع ٤٢٣/١.

(٧٥) من السريع، نفع ٢٤٢/٢، وانظر فيه سبق ص ١٧١ من هذا الكتاب.

(٧٦) من البسيط، الحلة ٩٤/٢، وأبحاث ص ٦ ص ١١١.

(٧٧) من البسيط، القلائد ١٠١، والحلة ١٧٠/٢.

والليل مُنْحَفِرٌ بِطير غرابه والصبح يطرده يبارز أشهب^(٧٨)
ويرى أبو إسحاق بن خثيرة الصباغ أن الاستيقاظ بعد سهرة شراب امتدت، كمن بُعث وفي فمه
طعم الرماد:

ربُّ ليلٍ طال لا صُبحَ له قد هتكنيا جُنحه من فلق
ذى نجومٍ أقسمت أن لا تنفوز من خمورٍ ووجوهٍ كالبدور
إذ بدت تشبهها في كأسها نأز إبراهيم في برِّدٍ ونور
صرعتنا إذ علوتنا ظُهرها في ميادين الصباي والسرور
وكانا حين قُنا معشرُ نُشروا بعد مماتٍ من قبور^(٧٩)

وهذه المقطوعة التي ذكرناها نعرض لموضوع يتردد كثيرا في الأدب العربي، في المشرق والمغرب
على السواء، ولكن «كأس الصباح» التي احتفى بها المشاركة، لها - طبقا لما يقوله الشعراء - مذاق
يفضل البقية كلها، وجعلت المعتضد يقول:

اشربْ على وَجْهِ الصباح وانظر إلى نور الأقاح
واعلم بأنك جاهل ما لم تقبل بالإصطباح
فالدهر شيءٌ باردٌ إن لم تصخنه بِراح^(٨٠)

ويبدأ ابن عمار قصده في مدح المعتضد قائلا:

أدب الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد حرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافورَه لَمَّا استردَّ الليلُ منا العنبر^(٨١)

ويجعل ابن الرقاق، وهو شاعر الطبيعة، زهور الحدائق تشارك الشاربين في الاصطباح:

رقَّ النسيم وراقَّ الروضُ بالزهر فنبه الكأس والإبريق بالوتر
ما العيش إلا اصطباحُ الراح أوشنَب قل للكواعب غصبي للكرى مُقلا
وللصبح ألا فانشُرْ رداء سنا هذا لدجى قد طوته راحة السحر
وقام بالقهوة الصبَاء ذو هَيَف يكاد يقطعه ينقذُ بالنظر
يطفو عليها إذا ما شجها ثُرر تحالف اختلست من ثغره الخصر
والكأس من كفه بالراح محدقة كهالة أهدت في الأفق بالقمر^(٨٢)

(٧٨) من الكامل، نفع ٦٤٦/١ و ٧٢/٤.

(٧٩) من الرمل، نفع ٤٨٥/٣.

(٨٠) من الكامل، المدخلة ٢٠/٢، وعنها في «بو عاده» ٢٤٥/١ و ٢٦٨ وترجم الأبيات يتصرف قون شاكه ترجمة باليرا. في شعر العرب وفهم ٢٠٢/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٧٧ رقم ١.

(٨١) من الكامل، القلائد ٩٦، و«المجيب» ٩٦، وترجمته ٩٨، وقد ترجم قتيان «التنم» بكلمة Les Pléiades. وانظر فيما سبق ص ١٦٩ - ١٧٠ من هذا الكتاب.

(٨٢) من البسيط، نفع ٢٩٠/٣.

ويجئ ابن مقان في قصيدته لى يمدح بها إدريس بن يحيى الحمودى أن الخمر يجب أن تُشرب صباحا قبل أن ينادى المؤذن للصلاة، يؤكد في الوقت نفسه على الصفات الثلاث التى يجب أن تقدر فى الخمر الجيدة:

قد بدالى وضجُ الصبح المبينُ فاستنيتها قبل تكبير الأذنين
أسقنيها مُرَّةً مشمولةً لبثت فى دنيا بضع سنين^(٨٣)

وتذكرنا هذه الأبيات بتعليق عبد الرحمن شنجول عندما سمع المؤذن ينادى ذات يوم من فوق المنذنة: «حى على الصلاة» قال: «لو قلت حى على الكأس لكان خيرا لك». ويقول أيضا أبو مروان عبد الملك بن غصن فى غنمة ساخرة:

وقام داعى السرهر يدعو حى على الدن وانتهابه
وتاه فيه النديمُ مما يزدحمُ الناسُ عند بابيه^(٨٤)

وكثيرا ما يشير الشعر الأندلسى، ومثله المشرقى إلى الأطعمة اللذيذة التى تقدم للشرابين، وهناك كلمة عامة تطلق عليها وهى النقل^(٨٥)، ولا تعنى الحلوى، الفطائر فحسب، وإنما تتضمن الفاكهة أيضا، مجففة أو طازجة^(٨٦)، وحتى الخضر مثل: الخرشوف والقرول. يقول ابن شهيد عن الخرشوف ولم يكن يقدرها كثيرا:

نقلُ السخيفِ الماتحِ للجهولِ وأقلُّ قومٍ نازحي العقولِ
أقسمتُ لا أطعمُها أكملِ ولا طعمُها على شمولي^(٨٨)

ويقول الشعراء العشاق أن تقولهم هى القيلات التى يأخذونها من حبيباتهم، يقول محمد بن الحسن بن الكتاني:

آلا قد هجرنا الهجرَ واتصل لوصلُ وبات ليالى البين واجتمع الشملُ
فستدى نديمي، والمداة ريقها ووحنتها روضي، وتقبلها انقل^(٨٩)

ويصور ابن خفاجة المداة نفسها، ما زجا بها ذكرياته عن الزهور:

ونقل أقالح النفر أو سوسن الطلى . ونرجسة الأجفان أو وردة الخد^(٩٠)

(٨٣) من الرملة نفع ٤٢٢/١، البنان ٦ و ٧.

(٨٤) ابن عذارى، البيان ٦٨٢/٢، والويرز، القسم الثانى طبعة رامبرو من نهاية الأرب بهنون: تاريخ إسبانيا، ٢٢٩، وتاريخ سلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٨٥) من البيطه نفع ٤٢٢/٢.

(٨٦) ونذكر فى هذا المقام «القرّة» اخرى و Las tapas الإسبانية، عن ضبط «نقل» بضم النون أو فتحها، والأولى عامية، انظر، لسان العرب ١٠/١٤، فهو يقول: «والدنه تضنها والمحاط، الهلاء ١/٨٦، والأب: استساس الكرسي فى المفتطفة، يولية ١٩٤٤، ص ١٧٨، وهو يرى أنها جاءت من الكلمة اللاتينية noclus، وإذا كان يكون ضمها فى العربية هو الأرب إلى أصلها.

(٨٧) ابن المعتز فى كتابه فصول لسانى فى تصير السرور يفرق بين النقل الرطب والنقل اليابس، ص ٨٤ - ٩٠.

(٨٨) من الرجز ابن طاهر، بدائع النقة ٣٠٥، ونفع ٢٤٦/٣، والغنى، الهبة ٥٧، وانظر فيما سبق ص ١٧٧ من هذا الكتاب.

(٨٩) من الطويل، نفع ٣٠٨/٤.

(٩٠) من الطويل، ابن خفاجة، لعيوانه انقطه ٢٧٨، ص ٢٤٨.

ولكن هذه الفكرة سبق بها المشارقة الأندلسيين، وبخاصة أبو نواس، ومن ثم يبدو لنا من غير المفيد أن تلج عليها، ومع ذلك فالحق كل أمير بطليوس يستخدم فكرة «النقل» في المغامرات الحربية: وكيف وراحى تروس كل غريبة وورود التقى شمي وحرب العدا نقل^(٩١)

لقد وصف شعراء الأندلس الخمر في صور ذكية أحيانا ولكن من لديه معرفة بالشعر المشرقي يلحظ أن الأوصاف تنحصر في أشياء قليلة جدا، وشكلية خاصة، فهم يكتبون بأن يقولوا في كلمات أخرى ما عبر عنه شعراء العصر العباسي بطريقة ممتازة. وعندما يصف حسام الدولة بن رزين الخمر بأنها شيء روحى فلانما يذكرنا بأبي نواس:

أورهما مداما كالغزالة مُرَّةً تبين لرائبها وتأي على اللبس
وتبدو إلى الأيصار دين تجسم على أنها تخفي على الذهن والحس
إذا شعثت في الكأس خلّت حباها لآل قد رفعت في لبّ الشمس
مبوكلة بالهم تهزم جيشه بجيش الأساقى والمسرّة والأنس
فإن شئت قل فيها أرق من هوا وإن شئت قل فيها أرق من النفس^(٩٢)

وتقدّر أكثر أبيات أبي محمد بن السيد البطليوسي التي يشبه فيها الإبريق بكائن حي: كأنما الإبريق حين قرقرا قد أمّ لثم الكائن حين ففرا
وحشية ظلت تناعى جودوا ترصعه الدر ويترنو حذرا^(٩٣)

ورغم كل البراعة التي أظهرها شعراء الأندلس فإن النصيدة الخمرية، في خطوطها العامة، تبدو تقليدا للنصيدة المشرقية، ولقد شرب الأندلسيون الخمر، لا شك في هذا، ولكن عندما تقتوا بعصير بنت الكرم عالجوا موضوعا أدبيا فيه عناصر تقليدية كثيرة، وذلك على النقيض من الموسيقى والغناء والرقص، فقد أظهر فيها الشعر الأندلسي، وهو مدين للشعر المشرقي دائما، على الأقل ميلا إلى التحرر في الأشكال الخارجية.



وتقدم لنا عليه لعاج القادمة من دير لير Leyer، والمحافظة حاليا في كنيسة بنبلونة^(٩٤)، في أحد أوجهها أكثر المشاهد أصالة، حيث نرى فرقة موسيقية من ثلاثة أشخاص جالسين: الموسيقي الذي على الشمال عازف أو عازفة، على شابة من قصبتين منفصلتين، والذي في الوسط، وذهب القفل برأسه،

(٩١) من الطويل، القلائد ٤١، والحلة ١٠٥/٢.

(٩٢) من الطويل، النخبة ١١٤/٣، والحلة ١١٢/٢. وواژه بأبي نواس في أبيات همزة القاف، من البسيط، الديوان طبعة أصف، ص ٢٣٤.

(٩٣) من الرجز، نفع ٦٥٠/١.

(٩٤) هذه العلبة مهداة إلى المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر، وخليفه والده في الحجابة، وتحمل تاريخ ٣٩٥ = ١٠٠٥، انظر: ح. فرانسيس، العاجيات والكهرومانيات الإسبانية ص ٥٧ - ٧٧، وليقى بروغنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، ص ٢٢، والنقوش العربية في إسبانيا ج ١ رقم ٢٠٤، الشكل ١٨٩، ومينديث بيدال، إسبانيا في عصر السيد ٨٩/١، وعن حياة السيد، في مجلة أركيتدنت، رقم ٣٢، فبراير ١٩٢٦، ص ١٦٢، وتوماس ألونولد وجيوهم تراث الإسلام ص ١٤٢، صورة رقم ٦٣. ● قلت: كان ذلك عندما حرر المؤلف كتابه، أما الآن فقد نقلت هذه العلبة إلى متحف نبرة، ومقره في بنبلونة أيضا (المترجم).

يعزف على العود فيما يبدو، واتأله وهو أشد تلقاً من الآخرين، رافع فواعيه مثل الأول، ولكن لا يمكن القطع ما إذا كان يحمل في يده شباباً أو طبلية. وأشياء أخرى من العاج، أقدم من علبة بنبلونة أو أحدث، تقدم لنا صوراً لموسيقين ولكن أيّاً منها لا يقدم الفنان بصفته هذه، وإنما يوحد في جمع من الشخصيات من طبقة النبلاء أو الأمراء أو الفرسان يستمعون إلى الموسيقى ويواصلون الشراب^(٩٥). فهو إذن موضوعات تقليدية ماسقية، وربما كانت ذات أصل أسبوري، وعرضها حضور ما كان ليسترعى اهتمامنا لولا أنها شهد عنى على ما يؤكد الشعر لنا من حب الأندلسيين للموسيقى.

وفي هذا المجال، كما هو الحال في الخمر أيضاً، نلاحظ أن التحريم، والمدافعين عن الدين الإسلامي لم يكن لهم تأثير كبير^(٩٦)، فالموسيقى، كالخمر، قاسم مشترك في كل الحفلات والأفراح. وكانت تربية الفتيات تتضمن تعلمهن الموسيقى وتدريبهن عملياً لعزف على العود والرباب وأصوات موسيقية أخرى^(٩٧). وكان من عادة بعض لأسر القرطبية أن يجعلن الفتيات يغنين بالتناوب في حفلاتهم الخاصة، ويعبر أبو محمد بن عالة، دون أدنى شك عن روح الفنان الأندلسي حين يقول:

لا تُلْمِي بَأْنَ طَرِبْتُ لَشَجَرٍ جَعْتُ الْاُنْسَ فَالْكُرِيمُ طَرِبُ
لَيْسَ شَقُّ الْجَيُوبِ حَقٌّ عَلَيْنَا نَحْنُ الشَّانُ أَنْ تُشَقَّ الْقُلُوبُ^(٩٨)

ولم يكن حب الموسيقى وقفاً على الرجال النبلاء، ثم يقول ابن مالك، وإنما كان اسام المشترك بين الناس جميعاً، فالحكام، شأن القود والحرفيين والشراء كانوا مفتونين بها صباية، وبعضهم لم يقف عند حد الاستمتاع بها، وإنما كانوا موسيقيين فعلاً، ليس عملياً فحسب، وإنما في المجال للنظر أيضاً. وكان أبو عبد الله بن الحداد شاعر المرية يرى في الخمر شيئاً آخر غير الوزن يقتصر على أنغام متوالية طويلة أو قصيرة، وإنما اكتشف فيه الموسيقى، وعالج هذه الفكرة في بعض كتبه ونالت شهرة عريضة فيما يقول ابن بسام^(٩٩). وحاله ابن باجة معروفة أيضاً، فلم يكن فيلسوفاً وتعرافاً فحسب، وإنما مؤلف موسيقى أيضاً^(١٠٠). ألم تطوّر الموشحات ويدهر الزجل في القرن الحادي عشر، وكلاهما

(٩٥) حول علبتين أخريين أسطرابيين في متحف اللوفر انظر: ج. فوانديس، المصدر السابق، ص ٧١ - ٧٥ والشكل ٦٦، وص ٧٩ - ٨٠، والشكل ١٦ رقم ٢.

(٩٦) تقدم الفقرة التالية وثيقة، وهي ما يقوله سيدي خليل بناسة استخدام الآلات الموسيقية في حفلات زواج: «لا يحرم استخدام الرباب، حتى لو قام به رجل، فكما يحمل الطبل والمزهر، بعضهم يره جائزاً والآخرين يرونه مكروهاً. ورأى ثالث يحز الطبل فقط، وابن كنانة يحز استخدام الزبارة وجوق». انظر: سيدي خليل، الزواج والطلاق، ترجمة فنان ٨٧. يرى ابن حزم أن الغناء والموسيقى مباحين، انظر: مغطوة اعسطهية وتحميل أسبن بلاتريس لها في مجلة الأندلس، المجلد الثاني ع ١٩٢٤، العدد ٦ ص ٢٥ - ١٢٦.

(٩٧) وهذا ما تشير إليه رواية قرطبة، فلم يترجمتها من العربية إلى العجدة أحد المؤرخين في القرن الثاني عشر، انظر: نصوص عجمية، نشرها خليل ورييرا وإسناشيت، ص ٩٩ - ١٠٥.

(٩٨) ابن حزم، طوق الحسامة ٥٤، وترجمة تيكال ٤٣، وطبعة برشيه ٧٨ - ٨١.

(٩٩) من الحفظة الفلاند ١٧٠، فتح ٦٧٥/٨.

(١٠٠) الأخيرة، في ١، المجلد الثاني ص ٢٠١ طبعة القاهرة.

(١٠١) الفلاند ٣٠١ و ٣٠٥، وابن خلدون، المقدمة، طبعة كاترمير ٣٩٢، وترجمة دي سلان ٤٢٦/٣. وقد آف أيضاً عالم من سرقطة يدعى الممار كتاباً عن الموسيقى. انظر: صاعد الأندلسي لمجت، الأمم، طبعة شيخو ٦٨، وترجم بلاتريس ١٢٩.

قصائد أُهدت قصداً لتفني^(١٠٢)؟ وكان كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني مناط التقيد في إسبانيا^(١٠٣). ولكن هذه المؤلفات ضاعت، وإذا أردنا الحصول على بعض المعلومات الحية عن الموسيقى في القرن الحادي عشر فعلياً أن نلجأ إلى الشعر.

يعدنا الشعر ببعض المعلومات عن الآلات الموسيقية المستخدمة، وبكل وضوح كان العود أكثرها استخداماً، وكان الرشيد بن المعتمد يفضل العزف عليه دون غيره^(١٠٤)، وأرسل المعتمد أبياتاً من الشعر إلى صديق له يطلب منه عوداً، إذ كان يعتقد أن الموسيقى وحدها هي القادرة على إيقاف الندامى وقد أتاهم الشراب^(١٠٥)، وأبو عامر بن يتق يرجو هنذا جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي أن تحيى وممها عودها:

يا هنْدُ هل لك في زيارة فتية نَبِوا المحارم غيرَ شُرْبِ السلسلِ
سمِعوا البلبَل قد شَدَّوا فتذكروا نَعَمَتِ عودِكَ في الثَقيلِ الأولِ^(١٠٦)

وكانت أوتار العود تستأثر بالاهتمام الأكبر، ومن المعروف أن العود البدائي كان له أربعة أوتار: الزبر والمثنى والمثلث والبهَم، وكان زرباب هو الذي أضاف إليه وتراً خامساً، ولكن اسمه غير معروف لنا^(١٠٧). يقول أبو محمد بن السَّيد البطلوسي:

كَانَ المِثاقِي والمِثَالِث هُجِيتَ سرورى ولم أسمع غنَاءَ ولا ضرباً^(١٠٨)
ويأسى ابن عمار على الوشايات اتى أساءت إليه عند سيده المعتمد ويكتب:

ولكنَّ ظُنُونٌ ساعدتها نمائمٌ كم ساعدت صوتَ المِثاقِي المِثَالِثِ

ألا يمكن أن نعتبر أنفسنا مسموحاً لنا أن نعتقد في ضوء هذه الأشعار بأن الانسجام، أو على الأقل التطابق بين الرابع والخامس، كان معروفاً لدى الأندلسيين؟ ولكن نادراً ما يذكر الشعراء المِزهر. يقول المعتمد:

وإذا نَغْنَتْ هذه في مِزْهَرٍ لم تألُ تلكَ على التريك غنَاءَ^(١٠٩)

(١٠٢) دائرة المعارف الإسلامية ٨٤٩/٣ - ٨٥١، وكتب المادة ابن شب، وهي عن الموشحات، وابن خلدون، المقدمة، طبعه كازمير ٣٩٠/٣ - ٤٣٤، وترجمه دى سلان ٤٣٢/٣.

(١٠٣) انظر فيما سبق ص ٣٦ من هذا الكتاب.

(١٠٤) الحلة، ٦٨/٢، وبنو عباد ٧١/٢.

(١٠٥) خريدة القصر، في «بنو عباد» ٣٩٤/١ - ٤١٢.

(١٠٦) من الكامل، نفع ٢٩٣/٤، وقون شاك، ترجمة بالبراء، شعر احرب وقتهم ١٤٤/١، وحول أنواع الموسيقى المختلفة انظر فيما سبقي ص ٣٣٤ من هذا الكتاب.

(١٠٧) نفع ١٢٦/٣، ودجيا، مقدمة الطبعة الأوربية، ٧١/١، وخوارزمي، مفتاح العلوم ١٣٧.

(١٠٨) من الطويل، القلائد ١٩٥، وهي حدى للمعنى يصف شعب يراى البيت ٣٤، الديوان، طبعه المرقوقى ٤٨٩/٢.

(١٠٩) من الطويل، الحلة ١٤٣/٢، في «بنو عباد» ١٠٦/٢. ويوجد صير «المثاق والمثالث» في النثر بكثرة، انظر: القلائد ٦ و ١٨٤، ونفع ٦٤٠/١ و ٦٢٤/١، طبع أوربا، ونادراً بصير «المثالث والأزور» انظر: الذخيرة ١٤/١، وعتبا في «بنو عباد» ٤١/٣.

وكما هو معروف فإن كلمة «مِثاقِي» تعنى أيضاً آيات سورة الفاتحة لسبح، وهي السورة الأولى من القرآن، انظر: ابن خلدون، المقدمة. طبعه كازمير ٣٢٣/٣، وترجمه دى سلان ٣٦١/٣، والقرآن الكريم. سورة المجر، الآية ٨٧، وسورة الزمر، الآية ٢٣.

(١١٠) انظر فيما سبق ص ٣١٣ من هذا الكتاب.

ويشير أبو مروان بن رزين إلى المزمار حين ردّ على أبي جعفر بن سعدون، يقول:
إذا قلتَ لم ينطقَ فصيحٌ مندربٌ ولا ساغٌ في سَمْعٍ غناءٌ ولا زمر^(١١١)

ولكنهم لا يذكرون من آلات للقرع ولا واحدة^(١١٢)، فقد كانوا بعمامة يعتبرون الطبل فنا متدبّيا، يصلح تسلية العامة في تجمعات الأسواق الصاخبة، ومن ثم نستطيع أن نفهم لماذا غضب رلد على ابنة حين عرف أنه تزوج على غير رغبة منه بامرأة لا تليق بحاله، وصار يضرب معها بالدف علاتية، فكتب إليه أبوه:

أما كفاك الزنا ارتكاباً وشربُ مشمولِ الحميا
حتى ضربتَ الدفوفَ جهراً وقلتَ للشرِّ جئُ إلينا^(١١٣)

يتيح لنا الشعر إذن أن نؤكد أن الموسيقى التي أحبها الأندلسيون كانت حضرية في جوهرها، لا تستخدم آلات الضرب، لأنها تعبر هذه بالغة الصخب^(١١٤). ولابد أن البربر صهاجيين وزناتيين هم الذين أحضروا الطبل معهم، وبقي وفقاً على القرع، ولم يدخل المدن إلا لتسلية العامة^(١١٥)، وأصبح ذلك مؤكداً منذ مطلع القرن الثاني عشر بفقرات من ديوان ابن قزمان، حيث يتحدث الشاعر عن النقرة، وهي نوع من الطبل، وكدف، وهو طبل صغير والشيز والبندير والزمير والطبل^(١١٦).



رأينا فيما سبق أن ابن يتقّ يتحدث عن الثقيل الأول اسى تؤديه هند في فتنة بالغة، وهذه الطريقة

(١١١) من الطويل، القلائد ٥٣، وأعمال الأعلام ٧-٢، وانظر أيضاً في سبق ص ٣١٢ من هذا الكتاب. وقد حذ على ملوك الطوائف حب سماع الزمر. وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار من أواخر أمويين يستعمل طبقاً لرواية ابن عذاري مؤلف ليبان المغرب، مثلاً خابية من الخمر، ومثلاً يوق للرم، ومثلاً عود للضرب، انظر: أحيان ٨٠/٣، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٩١. ولا تعرف اسم الشبابة التي من قصيدته (وميسها الإغريق aulos) والتي توجد مرسومة على علية العاج في خبلونة، والتي نراها مرة أخرى في المشهد رقم ١٠٤٧- انظر: متهديت بيدال، شعر الجوالين، ص ٣١٥.

(١١٢) يتحدث ابن حديس في إحدى قصائده عن راقصة تلقي بيدها على الطار، ولكننا على التأكيد بصدد راقصة مغربية انظر: لديوان، القطعة رقم ١١٠، البيت ٢٧١، وانظر فيما سياتي من هذا الكتاب ص ٣٤١ رقم ١٥٣.

(١١٣) من البسيط، نفع ٧١/٤.

(١١٤) هناك نص ترقى في حداثق الأفرح للشرواني، يشير إلى أن وحدة مشرقيا وصل مائة عام ٤٠٦ = ١٠١٥، لم يستطع أن ينال رغم همه للصحيح الذي يحدده العود والقيود والحرف والمزمار، طبعه اساهرة ص ١٤٢، وانظر: خوليان روبرا، موسيقا Las Cantigas ص ٦١، والموسيقا العربية ١٩٩.

(١١٥) الشقندي في رسالته فضل الأندلس، في نفع ٧١٣/٣، قدم لنا قائمة بالآلات الموسيقية التي كانت مستخدمة في إسبانيا في القرن الثاني عشر، ولا نجد فيها غير آلات الاوتار والنقح، وفيما يرى المؤلف فإن آلات الضرب خاصة بالأفريقيين. وحول هذا النص من رسالة الشقندي، انظر: غربية غمسة، ترجمة هذه الرسالة ص ٩٨، وانظر بخاصة الأب أنستاس الكرمل، في المقتبس ٤٣٥/١، ونقل لقال كرد على في مجلة الجمع العربي في دمشق عام ١٩٢٢، ص ٢٢٥، رقم ١، وانظر له أيضاً: غابر الأندلس وحاضرها ص ٩٢ - ٩٣، وغرائب الغرب ١٢٠/٦، وانظر أيضاً: ابن خلدون، المقدمة، طبعه كارمير ٢٥٣/٢ و ٣٦٠، وترجمة دي سلان ٤١١/٢ و ٤٢٠.

(١١٦) لديوان، القطعة ١٢، لدور ١، والقطعة ١٤٧، الدور ٥.

التي لا نعرف عنها شيئا^(١١٧) لا بد أن يكون قد حملها إلى إسبانيا زرياب وآخرون كثيرون مثله. وكان الغناء المدني (نسبة إلى المدينة) يحظى بين الأندلسيين بإقبال كبير. يقول المعتمد:

أَتَيْتُكَ أُمُّ الْحَسَنِ تَشْدُو بِصَوْتِ حَسَنِ
تَمُدُّ فِي أَلْهَانِهَا مَدُّ الْغَنَاءِ الْمَدَنِيِّ^(١١٨)

يمكن لظن أن الغناء على شرف المدينة كان يتميز بتعاقب النغمات السريع في المقطع الواحد، وهو ما بذكرنا بهديل البلابل، ولكنه يسمى أيضا بالغناء المجازي^(١١٩)، نسبة إلى الحجاز حيث توجد الأماكن الإسلامية المقدسة، ونعرف أن الأربعة المغنيين الكبار في المدينة هم: معبد وابن السُرَّيج وابن مُحَرَّر والغريص^(١٢٠). وتكثر الإشارات إلى الغريص ومعبد، يقول حسام الدولة بن رزين:

وَعَثْتُ بِهِ وُورُقَ الْحَمَائِمِ حَوْلَنَا غَنَاءَ بُنْسِينَا الْغَرِيصِ وَمَعْبَدًا^(١٢١)

وحفظ لنا التاريخ أسماء بعض الفنانين الذين برعوا في بلاطات ملوك الطوائف، ولكنهم أبعد من أن يقتربوا من الشهرة التي نالها زرياب في القرن التاسع. فكان الصقل في بلاط المعتمد^(١٢٢)، واستقدم المتوكل أمير بطلوس أبا يوسف، ووصل في يوم مطير^(١٢٣)، وخلال حفلات العذار التي أقامها المأمون أمير طليطلة اضطلع اليهودي دافى بإيهاج المدعوين مع فرقته^(١٢٤)، وفي بلاط العلي بالله أمير مالقة كانوا يستمتعون بأغاني الحمامي وابنه محمد^(١٢٥). ويذكر ابن بسام موسيقيا أصله من المهدية في أفريقية يدعى عتيقا المغني، ولكننا لا نعرف أي بلاط بين ملوك الطوائف احتفى به أو عاش فيه^(١٢٦). وثمة فقرة في الذخيرة تتصل بحركة فنتيش تسمح لنا أن نعتقد أنه كانت في قرطبة فرقة من

(١١٧) حول الإيقاع والأشغال في الموسيقى العربية العديدة انظر: بيرسيغال، نوادر الأخبار عن كبار الموسيقين العرب، في المجلد الأسبوعية عام ١٨٧٣، السلسلة ٧، المجلد ٧، ص ٥٩٠، والموازيم، مفتاح العلوم ص ١٤٠، والمسعودي، مروج الذهب ١٠٠/٨ وما بعدها، رضويان روبرا، موسيقا Las Cantigas ٤٣ - ٤٦، والموسيقا العربية ١٢٢ - ١٢٣. (١١٨) من الرجز، الذخيرة ٣٠/٢، ويتر عبد ٢٤٦/١ - ٢٦٦، وانظر فيما سبق ص ٢٢١ من هذا الكتاب. (١١٩) القلائد ١٧٥: أبو القاسم بن إسحاق أرسل دعوة يقول فيها: لسماع الغناء المجازي، وهذه الطريقة لا تزال حية حتى اليوم في المغرب ومصر.

(١٢٠) فارمر، دائرة المعارف الإسلامية ١٢٤٠/٤ و ٤٤٧/٢ و ٦٤/٢، وتكملتها ٨٦. يقول يزيد، الثاني ابن عبد الملك لمعد: «أجد في أغانيك بعض المانة والقوة اللتين لا توجدان في أغاني ابن سريج الذي ظهرت أغانيه أكثر انحناء وليناً، انظر: الأغاني، في المجلد الأسبوعية، عام ١٨٧٣، ط ٧ ج ٢ ص ٤٨٧ من الأغاني.

(١٢١) من الطويل، الحلة ١١١/٢، القلائد ٥٣، فتح ٦٦٩/١. (١٢٢) الحلة ٥٤/٢، ويتر عبد ٦٢/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٨١، ويسميه القرى في فتح الطبيب ٩٦/٤، السوسي (من مدقة موسي في فارس أو من الموسى منطقة في المغرب).

(١٢٣) القلائد ٤٣، وفتح ٦٦٣/١، والحلة ١٠٦/٢، والذخيرة ٩١٧/١. (١٢٤) الذخيرة ١٣٦/٤، وتذكر أن الموسيقى الذي كان مكلفا باستقبال زرياب عند وصوله إلى الجزيرة الحمراء كان موسيقيا يهوديا يدعى منصور اليهودي. انظر: فتح ٦٢٤/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ١ ص ٣٦١.

(١٢٥) الذخيرة ٨٦٣/١.

(١٢٦) الذخيرة ٨٥٩/١.

الطوبورين على رأسها قنبوط الملهى وزربوط المغنى، وكلاهما قتل في المعركة، وأقام أصحابها عليها مأتما مشهودا بعد الحادثة^(١٢٧).



ومن الضروري أن نوضح أن الأندلسيين كانوا حتى القرن العاشر يستقدمون القان، مغنين وموسيقين، من المشرق، وبخاصة من المدينة وبغداد^(١٢٨)، ولكن ابتداء من القرن الحادى حتر سوف يتم تكوين الفنانين والفنانات فى إسبانيا، وأحيانا فى شمال أفريقيا، وقد تلقى المعتمد مغنية بربرية هدية من يوسف بن تاشفين، وكانت نهايتها مأسوية كما ذكرنا^(١٢٩)، وحين تذكر الأمير نفسه لحظاته السعيدة فى شلب أنشد:

وليلٍ بسدِّ النهرِ هو قطعته بذات سوار مثل متعطفِ النهرِ
نضت برُدها عن غصنٍ إنْ نَعِمَ نضيرٍ كما انشقَّ الكمامُ عن الزهرِ
وبانت تسقى المدام يحفظها فمن كأسها حيناً، وحيناً من الغفرِ
ونظربنى أوتارها. يوكأننى سمعتُ بأوتار الطلى نغمَ اللذة^(١٣٠)

وهؤلاء المغنيات البيض رقيقات لأنس والمتعة، هن أسيرات مسيحيات، ظل المعتمد يتذكرهن حتى وهو أسير فى أعماق، يقول:

من بعد كلِّ عزيمة رومية تُخزى الحمايم فى ذرى الأغصانِ^(١٣١)

وفى مرطبة حيث يوجد نوع من أكايميات الموسيقى، كانت تُقدم للجوارى الموسيقيات والمغنيات الدروس الأكثر صفلا وانتقاء، والمعارف الموسيقية الأشد تنوعا ورقيا، واشتهر ابن الكنفى، وهو طبيب ثرثار، فى القرن الحادى عشر بتلميذته اللاتى كان يحسن إتيادهن، ويبيعهن بأثمان غالية سبالغ فيها، والصفحة التى يروى فيها بنغمة متعلية، وثرثرة تنضح ادعاء، كيف يعدهن لبصحن نجمات تستحق أن نأتى عليها كاملة:

«... فأنا منبه الحجارة، فضلا عن هل القدامة والجهالة، واعتبر ذلك بأن فى ملكى الآن أرع روميات كن بالأمس جاهلات، وهن الآن عادت حكيما منطقيات فلسفيات هندسيات موسيقاويات، أسطرلاويات معدلات نجوميات نحريات عروضيات أدبيات خطاطيات. تدل على ذلك لمة جهلهن الدواوين الكبار التى ظهرت بخطوحن فى معانى القرآن وغريبه وغير ذلك من فنونه، وعموم العرب

(١٢٧) الذخيرة ٤٤/١.

(١٢٨) مثلا: فى عصر عبد الرحمن الثانى المتون ٢٢٨ = ٨٥٢، جادت فضل وعلم من المدينة، وفمر، وسبق أن تحدثنا عما ص ٤٥ فى هذا الكتاب من بغداد، وكانت حال قمر مثيرة للغاية، فهى من الباسك فى شمال شرقى إسبانيا، وقعت أسيرة، وحملت شابة إلى مدينة لتعلم فى فن الموسيقى والغناء والرقص، ثم عادت إلى إسبانيا وحى فى أوج اكتمالها ونضجها فنانة. انظر: نفع ١٤٠/٣. وبنات زرباب وتلميذاته أصلهن من بغداد. انظر: نفع ١٢٢/٣ وما بعدها.

(١٢٩) انظر قيا سبق ص ٢٠ من هذا الكتاب.

(١٣٠) من الطويل، الديوان ص ١٢، والقلائد ٥ - ٦، وبنو عباد ٣٩/١ وقرحتها ٨٤، وانظر أيضا الأبيات نوتة لقائفة، ومن بحر الكاس، فى القلائد ٢٦، وبنو عباد ٦٥٨/٤، ونفع ٢١٩/٤، وص ١٢٤ و ٢١٧ وقفا سبق من هذا الكتاب.

(١٣١) من الكامل، الذخيرة ٧٤/٢، صر سباد ٣١٨/١ و ٣١٣.

من الأنواء والأعاريض والأنحاء، وكتب المنطق والهندسة وسائر أنواع الفلسفة، ومن يتعاطين إعراب كل ما ينسخه ويضبطه فيها لمعانيه ولكرته تكرارهنّ فيه، وفي هذا أعظم الشهود أنّ واحد عصرى ونسيج وحدي، وأنّى أفيت الزمان تجرية، والدهر تبصرة، فاعرف - أعزك الله - قدرى، ووفى قسطى، ولا تطمع أن تظهر بعالم مثلى، أو متفرغ فضولى شبيهى، ولو طفت الآفاق، ومشيت العراق، من زقاق إلى زقاق»^(١٣٢).

وإحدى المغنيات اللاتى رباهنّ وباعها إلى هنيل بن رزين أمير السهلة بثلاثة آلاف دينار (ستون ألف فرنك ذهباً) كانت شيئاً رائعاً فيما يقول ابن بسام:

«كانت واحدة القيان في وقتها، لا نظير لها في معناها، لم ير أخف منها روحاً، ولا أملح حركة، ولا ألين إشارة، ولا أطيب غناء، ولا أجود كتابة، ولا أملح خطأ، ولا أبرع أدبا، ولا أحضر شاهداً على سائر ما تحسّنه وتدعيه، مع السلامة من اللحن فيما تكتبه وتقنيه، إلى الشروع في علم صالح من الطب ينسبط بها القول في المدخل إلى علم الطبيعة وهيئة تشريح الأعضاء الباطنة وغير ذلك مما يقصر عنه كثير من منتحلي الصناعة، إلى حركة بديعة في معالجة صاعقة الثقافة»^(١٣٣)، والمجاوله بالحجفة والمعب بالسيوف والأسنة والخناجر المرفهة، وغير ذلك من أنواع اللعب المطربة، لم يسمع لها بنظير ولا مثيل ولا عدل. وابتاع إليها كثيراً من المحسنات المشهورات بالتجريد^(١٣٤)، طليهنّ بكل جهة، فكانت ستارته في ذلك أرفع سائر الملوك بالأندلس»^(١٣٥).

ويشير ابن بسام في نهاية النص الذى أوودنا إلى أن الموسيقىات والمغنيات اللاتى كن في حوزة الشخصية نفسها كن يتجمعن في فرقة حملت اسم «الستارة»، أخذاً من كلمة الستارة، وكانت تستخدم كما في الشرق، لسترهن عن نظرات المدعوين^(١٣٦). ويشير المعتضد إلى هذه العادة في البيت التالى الذى ينحسب فيه عن الحمام الذى يعيش في الأشجار:

أوراقها أستارها إذا شدت في فنن^(١٣٧)

(١٣٢) الذخيرة ٣/٢٩١ - ٣٢٠. وعن ابن الكنانى انظر فيما سبق ص ٢٢٩ الخامس رقم ٣ من هذا الكتاب، وصاعد الأندلسي، كتاب طبقات الأمم، ترجمة بلاشير ١٤٨.

(١٣٣) انظر: دوزى، تكملة المعاجم العربية، ج ١ مادة «ثقفة»، وربما يجب أن نقرأها «الثقاف»، أو «شقف»، ويصطفا في المعجم معنى tympanum (أى الطينة) و tejuela (لعبة الرمي).

(١٣٤) أسك أنها يجب أن تقرأ لتجويد بمعنى فن قراءة القرآن مضبوطاً كما في التسبيح المخففة، وأرجح التحديد، ويمكن أن يكون معناها «لعبة السيف».

(١٣٥) الذخيرة ٣/١١٢، وفي أخبار ١٨١ - ١٨٢، ويجهول في البيان المغرب ٢/١٨٤، وهامش ص ٣٠٨، وترجمته في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٣٢٠، وأعمال الأعلام ٢٠٦، ونفح ٦٩٣/١ طبعة أربا، وعمها في: دوزى، تكملة ١٨٥/١.

(١٣٦) في حفلة الإعداد التى أقامها المأمور أمير طليطلة كانت هناك فرقة موسيقية تتألف من النساء، وأخرى تتألف من الرجال. ويطلق ابن حبان على الأولى تعبير «ستارة النساء»، وعلى النساء «أهل الحجاب»، ويسمى الثانية «توبة اغنين»، انظر الذخيرة ٤/١٣٥. وكان الرشيد بن المعتز يملك أيضاً ستارة: نفح ١/٩٥، وعنه في «بنو عباد» ٤/٤٠، وابن الأثير، الكامل، ترجمة فنيان، ص ٤٩١. وكان في قصر ابن عباس وزير الصفدى أمير المرية خمس مئة مغنية، كلهن رانعات الجمال، انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٢٢، وفيما يتصل بالشرق انظر: آدم مئز، الحضارة الإسلامية ص ٣٧٩، وترجمة بيل إلى الإسبانية ص ٤٧٩.

(١٣٧) من الرجز، الذخيرة ٢/٣٠، وعمها في «بنو عباد» ١/٢٤٦، ونفح ٤/٤٤٢.

ويعبر ابن عبدون عن الشيء نفسه حين يقول:

والطير في ورق الأشجار شادية كأنهن قيان خلف أستار^(١٣٨)

ولكن عائلة الأمير تستطيع الاستماع إلى الموسيقى والغناء دون أن يكون هناك ستارة تحول بينها وبين أن تتأمل الموسيقى والغنية، يقول النحلي:

ولعبة الوشاح كقصص بان لها أثر بتقطيع القلوب

إذا سوت طريق العود نقرا وشننت في محب أو حبيب

فيمناها فقد بها فزادى ويسراها قد بها ذنوب^(١٣٩)

وشاعر آخر، أبو بكر محمد ابن نصر الاشبيلي، يقدم لنا معلومات عن ملابس المغنيات والموسيقيات يقول:

وكأنما تلك الرياض عرائس ملبوسهن معصفر ومزعفر

أو كالقيان لبسن موسى الحلى قلهن في وشى اللباس تيغتر^(١٤٠)

ويقدم لنا ابن الزقاق المعلومة التالية عن الملابس أيضا:

تشدو ووسواس الحلى يجيها مها اثنت في وشيها وعقوده^(١٤١)

وقد اتخذ مسيحيو الشمال بعضا من لعادات الإسلامية، من بينها أن تكون لهم فرقة من الموسيقى والمغنيات، ويؤكد ابن الكناني هذا امر قع، والذي تحدثنا عنه عندما أشرنا إلى أكاديميات الموسيقى في قرطبة، ونقص علينا: «شهدت يوما مجلس العلبة (- مسيحية إسبانية) بنت شانجه ملك ليشكنس، زوج الطاغية شانجه بن غرسية من مرذلند - يمد الله شيعتهم - لبعض ترددنا^(١٤٢) عن تخرنا إليه في الفتة [عام ١١٣٢]، وفي المجلس عدة نينات مسلمات من اللواق وهبهن له سليمان بن الحكم^(١٤٣) - المتقدم ذكره صدر هذا الديوان - أيام إمارته بقرطبة، فأومات العلبة إلى جارية منهن فأخذت العود وغنت بهذه الأبيات:

خليلى ما للريح تأتي كأنما يخالطها عند المبوب خلوق

أم الريح جاءت من لاد أحبي فأحسبها ربح الحبيب تسوق

سقى الله أرضا حلها الاغيد الذى لتذكاره بين الضلوع حريق

أصار فزادى فرقتين فعنده فريق وعندي للسباق فريق^(١٤٤)

(١٣٨) من البسيط، الأخيرة ٢/٣٠، رمر عباد ٢٤٦/١، وميتدنت بيدال، إسبانيا في عصر السيد ٤٠ رقم ٢.

(١٣٩) من الزافر، نفع ٤٤٥/٣.

(١٤٠) من الكامل، نفع ٤٨٤/٢.

(١٤١) من السريع، نفع ٤١٥/٢.

(١٤٢) لا يفهم من هذه لوحات أنها كانت بسبب ذهابه سمرق، وإنما - تحت ستار الطب - لكي يتاجر في الأسيرات

المسيحيات، انظر فيما سبق ص ٣٣٦ و ٢٣٧ من هذا الكتاب.

(١٤٣) شانجه بن غرسية حكم من عام ١١٥٠ إلى ١٠١٧، وحكم سليمان بن الحكم من ٣٩٩ إلى ٤٠٧ = ١٠٠٨ - ١٠١٦.

انظر: ميتدنت بيدال، المجلة الإسبانية، جلد ٤٠، عام ١٩٣٨، ص ٣٩٣.

(١٤٤) الأبيات من الطويل

فأحسنت وجودت وعلى رأس العلجة جاريات من القوامات أسيرات كأنهن فلقات قمر^(١٤٥)،
فما هو إلا أن سمعت إحداهن الشعر فأرسلت عينيها كأنها مزادتان، فرققت لها وقلت: ما أبكاك؟
قالت: هذا الشعر لأبي، وسمعته فهج شجوى، فقلت لها: يا أمة الله، ومن أبوك؟ قالت: سليمان بن
مهران السرقسطي، ولى في هذا الأسار مدة. ولم أسمع لأهلي بعدى خبراً.
قال ابن الكناني: فما جزعت لشيء جزعى عليها يومئذ^(١٤٦).

وبعد ذلك بما يقرب من خمسين عاماً، بعد أن استولى التورمانديون على بريشت عام ٤٥٦ =
١٠٦٤، ذهب تاجر يهودي إلى هذه المدينة ليقتدى إحدى بنات الأسر الشريفة من الأسر، وكانت
الأسرة قد أفلتت من المذبحة، وجاءت عند قسمة الغنائم من نصيب كونت الحامية، ويقص علينا
التاجر:

جئت «بريشت البانسة بعد الحادثة عليها، ملتصقا فدية بنات لبعض وجوه من نجا من أهلها
حصلن في سهم قومس من وجوه الرابطة فيما كان يعرفه، قال: فهديت إلى منزله الذي كان نزل فيه،
واستأذنت عليه فأجده جالسا مكان رب الدار، مستوليا على غراشه، رافلا في نفيس ثيابه، والمجلس
والسرير كما تخلفها ربهما يوم محنته، لم يتغير شيء من رياسهما وزينتهما، ووصائف على رأسه وروقة،
مضمومات الشعور، قائمات على رأسه، ساعيات لخدمته، فرحب بي، وسألني عن قصدي، فعرفته
وجهه، وأشرت له إلى وفور ما أبذله في بعض اللواق على رأسه، وفيهن كانت حاجتي...».

لكن الكونت رفض أن يتنازل عن الفتيات اللاتي يخدمنه، وبخاصة ابنة صاحب المنزل، وله حسب
في قومه، فقد اصطفاها لنفسه لجمالها، واتخذها محظية له ثم قال: «وأزيدك بأن تلك الخود الناعمة -
وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية - لمغنية السخين العيين والدهاء التي كانت تشدو له على
نشواته، إلى أن أيقظناه من نوماته. يا فلانة - يناديها بلكنته - خوذني عودك ففقي زائرنا بشجوك،
قال: فأخذت العود وقعدت تسويه، وإني لأتأمل دمعها يقطر على خدها، فتسارق العليج مسحة،
واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا، فضلا عن العليج، فصار من الغريب أن حث شره عليه، وأظهر
الطرب منه، فلما قطعت وبشت بما عنده، قمت منطلقا عنه، وارتدت لتجارقي سواء، فاطلعت من كثرة
ما لدى القوم من السبي والمغنم ما طال عجبى منه^(١٤٧).

إن توهج اللغة العربية، وازدهار الشعر الأندلسي، لا يمكن أن يتضح بأفضل مما في هذين النصين
الذين أتينا عليهما.

والملاحع التي أشرنا إليها في حياة الكناني تجعلنا نميل إلى الظن بأن قرطبة بخاصة كانت المكان

(١٤٥) أشار دوزي في تكملة للماجم ٤٢٦/٢ إلى هذه الجملة الأخيرة.

(١٤٦) الذخيرة ٣١٨/٣، وينقل ابن بسام هذه الرواية عن أبي محمد بن حزم، وتوجد أبيات الشعر في: الغني، البقية، ترجمة

رقم ٧٧٣، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(١٤٧) الذخيرة ٣١٨/٣ - ١٨٨، ونفع ٤٥١/٤، وترجمة دوزي لها في أبحاث، ط ٣ ج ٢ ص ٣٤٥ - ٣٤٨، ونعرف أن هذا

الشهد أعطي موريس بريس مادة لموضوعه، «مسلمة شجاعة»، في كراسات، المجلد ٤، عام ١٩٠٤ - ١٩٠٦، وانظر أيضا: ريبيرا،

موسيقا Las Cantigas ص ٦٠ - ٦١، وببنتيه بيدال، الشعراء الجوالون وشعرهم ١٣٦ - ١٣٧.

المهياً لتربية الجوارى المخصصات لكويز جانب من «الستارة»، أو الفريق الموسيقى التي يعمل عند الشخصيات الأندلسية، وثمة حدث يكشف بطريقته عن التنافس الذي كان قائماً بين بني المظفر وبني عباد، ويلقى في الوقت نفسه ضوءاً قوياً على نفسية العو هل الأندلسيين، ويؤكد الشهر. التي كانت تتمتع بها المغنيات القرطبيات في القرن حادى عشر. ذلك أن المعتضد عندما علم بموت بن الرميمى الوزير القرطبي بعث رسولا يشترى له جارية الوزير. وكانت شهرتها قد طبقت الآفاق، وأراد المظفر أمير بطليوس، وكان سوء الحظ من نصيبه في حملاته ضد المعتضد، أن يظهر أن هذه التكاات لا تؤثر فيه، وليقلد خصمه، فبعث بدوره أيضا رسولا إلى قرطبة لى يحصل له على موسيقيات ومغنيات، ولكنه لم يجد غير «صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لا طائل فيها، فاشتراها له، وأقام رسوله يلتمس الخروج بهما فلم يستطع، لقطع حيل المعتضد جميع الطرق، فأقام مدة بقرطبة» إلى أن أرسل له المظفر خيلا كتيقة، لى يستطيع الوصول إلى بطليوس^(١٤٨).

وثمة رواية أخرى تسمح لنا أن نؤكد بأن قرطبة كانت تحتكر الجوارى المغنيات، فقد تلقى أبو الوليد بن جهور أمير المدينة ثلاث رسائل فى يوم واحد، فيما يقول، واحدة من ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوادة، ولثانية من ابن عباد يطلب جارية زامرة، والثالثة من سواجات صاحب مدينة سبته يطلب قارئا يقر القرآن، فوجه إليه من طلبة قرطبة رجلا يعرف بعون الله بن نوح، وعجب أبو الوليد من ذلك وقال: «جاهل يطلب قارئاً، وعلاء يطلبون الأب ليل»^(١٤٩).

والنتيجة التي نستخرجها مما سبق، أنه على التقيض مما كنا نعتقد حتى وقتنا هذا، لم تكن إشبيلية هى التي تحتكر المتعة والموسيقا في قرن الحادى عشر، وإنما قرطبة. ودون شك فإن مصدر هذه الأسطورة أن عاصمة بني عباد أظهرت ملها إلى اللذائذ علانية، على حين أن قرطبة المننودة في مور الدين عرفت كيف تفجر دون أن يكون ذلك علانية وفي وضع النهار، ومع ذلك، فإن قرط تشددت في ميلها إلى الطهر في القرن الثانى عشر، ولم تعد تستر بفناع شفاف من النفاق، على حين واصلت إشبيلية حياة الفراغ والبطالة والبهجة الصاخبة، يومها فقط نستطيع أن نعترف بصدى الفكرة التي وجهها ابن رشد إلى ابن زهر: «إذ ملعت عالم إشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آهنته حملت إلى إشبيلية»^(١٥٠) وهكذا أصبحت إشبيلية الوحيدة التي يمكن أن يطلق عليها «مدينة الأدب واللهو والطرب»^(١٥١).

لم يكن في إسبانيا، على ما يبدو، نساء أو رجال يحرفون الرقص فحسب، والراقصات كن في الوقت نفسه مغنيات وموسيقيات، ورأينا ونحن نتحدث عن ابن الكشاني مدى العناية والتربية التي تتلقاها التلميذات في المعاهد الموسيقية، وكانت قرطبة تحتكرها. وراقصات أبدة اللاتي أشد الشغنى

(١٤٨) الفخرة ٣٦/٢، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٩/١، والبيان المغرب ٣/٢١٢.

(١٤٩) البيان المغرب ٣/٢٥٠.

(١٥٠) نفع ١٥٥/١ و ٤٦٣، وفون شاك ترجمة اليراء، شعر العرب وفهم ٦٦/١، وإرنست رينان، ابن رشد و إشبيلية ١٢/٢، وليلى برونسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ٢٢٤، ودجا مقسة طبعة نفع الطب الأوربية ٤٠/١، وكترس، مذكرة عن حب الكتب عند الشارقة، ص ٢١ - ٢٢.

(١٥١) نفع ٢٠٨/١.

إلى شهرتهن في القرن الثاني عشر لأنهن يتمتعن «بحسن الانطباع والصنعة، فإنهن أخذن خلق الله تعالى باللعب بالسيف والدك، وإخراج القروي والمرايط والمتوجه»^(١٥٢)، لم يكن موجودات في القرن الحادي عشر فيما يبدو، والروعة التي حققها ابن الكناني في قرطبة على نفس المستوى من المهارة والكفاءة، ولكن ذلك كله كان في الفناء والموسيقا بخاصة.

لا نعرف بالدقة طبيعة الحركات التي كانت تقوم بها هؤلاء الفنانات، وهل كانت تتم في المتأديلات والسبوح أم بدونهما، ويسمح لنا الشعر بأن نظن، كما في حالات أخرى كثيرة، بأنهن كنّ يتتبن إلى الخلف، دون شك^(١٥٣) لكي يتظاهرن بإغواء غرامية، يقول ابن الزقاق:

وَقَوِيَّتْهَا سَمَاءٌ غَنَّتْ وَاتَّشَتْ فَنظَرْتُ مِنْ وَرْقَاءٍ فِي أُمْلُوْدَهَا
نَسَدُو وَوَسُوْشَ الْحَلَى بِحَبِيْبِهَا مَهِيَا اَتَّشْتُ فِي وَشِيْهَا وَعَقُوْدَهَا
أَوْ لَيْسَ مِنْ يَدْعِ الزَّمَانِ حَمَامَةً غَنَّتْ فَفَقَى طَوْقَهَا فِي جِيْدَهَا^(١٥٤)

وعندما يصف حسام الدولة ابن رزين حديقة يقول:

إِذَا صَافَحْتَهُ الرِّيحُ خَلَّتْ غَصُونُهُ رَوَاقِصٌ فِي خُضْرٍ مِنَ الْعُصْبِ مُوْدًا^(١٥٥)

وثمة فقرة في مقدمة ابن خلدون^(١٥٦) نفهم منها أن الراقصات كن يعلن الكُرُج^(١٥٧) في ملابسهن،

وتحمل سم «قباء» لتمثيل الفرسان الذين يسارعون إلى الهجوم، ويقاتلون في التفهق، ثم يعودون إلى المعركة من جديد، وهذا القباء يجب أن يكون، في ضوء أوصاف الشعراء، ملابس في شكل عباءات، يمكن أن تفتح تماما من أعلى إلى أسفل، فتسمح للراقصة بأن تظهر فجأة عارية، مثل «زهرة توشك أن تنفتح» كما يقول المعتضد^(١٥٨).

(١٥٢) الشنقيدي، رسالة فضل الأندلس و مع ٢/٢٦٧، وترجمة غربية غوث لها ١٠٧، ودييرا، موسيقا Las Cantigas ٦١. وخير تفسير لهذه الفقرة الصعبة هو، فيها يبدو لنا، ما قدمه الأب أنستاس الكرمل، في المجلد ١/٢٥٥، ونقله كرد على في مجلة المجمع العلمي في دمشق، المجلد ٢، عام ١٩٢٢، ص ٢٢٥، رقم ١، والإسلام والحضارة العربية ١/٢٣٧ رقم ١، وغرائب الغرب ١٧٠/٢ رقم ١.

(١٥٣) يقول ابن حمديس عن راقصة رأها في شمال أفريقيا على التأكيد:

وَرَاقِصَةٌ لَقَطَتْ رِجْلَهَا حَسَابٌ يَدِ نَقَرَتْ طَارَهَا

انظر، الديوان، القطعة رقم ١١٠، البيت ٢٧، ص ١٥٥، وانظر فيما سبق ص ٢٢٤ رقم ١١٢ من هذا الكتاب

(١٥٤) من السريح، نفع ٢/٤١٥.

(١٥٥) من الطويل، القلائد ٥٣، وعنها في «بهر عبادة» ١/٤٤٤، والمجلة ٢/١١١.

(١٥٦) طبعة كاترمير ٢/٢٦١، وترجمة دي سلان ٢/٤٢٦.

(١٥٧) حول هذه الأشياء، انظر فيما سبق ص ٣٠٥ من هذا الكتاب، وديري، تكملة المعاجم العربية ٢/٤٥٣.

(١٥٨) القلائد ١، وعنها في «بهر عبادة» ١/٢٩٦، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ٢ ج ٣ ص ٩١. وانظر ص ٢٥٤ فيما سبق من

هذا الكتاب. وسوف يصف بن تزلز في القرن الثاني عشر شمال راقصة تحيط بها رذاذ الماء بأنها مثل خباء على النحر التالي:

رَأَتْ خَبَاءَ الْمَاءِ تَرْسُلُ سَاهَا فَنَسَاوَعِيَا هَبَ الرِّيحَ وَدَاهَا

تَطَاوَعَهُ طُورًا وَنَعَصِيهِ تَارَةً كَرَاوِصَةٌ حَلَّتْ وَضُمَّتْ قَبَاءَهَا

من الطويل، نفع ٣/٤٩٧.

ونضمن كتاب لأغانى (طبعة برلاق ٧/٢٤) الفقرة التالية، «خرج أهل البصرة يسمتون وخرج فيهم السيد [الحميري] وعلمه

ثياب خز ووجهه بمطرف وعمامة».

وفيها يتصل بألوان ملابس الرافضات يبدو أن اللون الأحمر كان المفضل عندهن، أو كما يقول ابن عسار: الجمال يجب أن يرتدى ملابس حمراء^(١٥٩). ويذكر ابن عذارى وهو يتحدث عن عبد الرحمن شنجول هذه الفقرة المثيرة: «فافتح شنجول أمره بالخلاعة والمجاعة، فكان يخرج من منية إلى منية، ومن منتزه إلى منتزه، مع أخيليين^(١٦٠) والمغنين والمضحكين، مجاهرا بالفتك وشرب الخمر»^(١٦١). ويحدثنا المؤرخ نفسه عن أحد أواخر الأمويين، محمد بن هشام بن عبد الجبار، أنه «بعث إلى نساء كان يصاحبهن، منهن جارية أبي القاسم المصري الخيالي التي يقال لها بستان، وامرأة ابن الشرع التي اسمها واجد»^(١٦٢).

ولقب المصري بقودنا إلى أصل هؤلاء الخياليين، وقد وجدنا واحدا منهم فلكيا، مصري الأصل، إلى جانب المعتمد، وكانت لمصر علاقات وسدلات فنية مع الغرب الإسلامي^(١٦٣)، وظلت أرض الفراعنة في نظر هذا الغرب أرض السحر والرق.

يا للروعة إذن، قالذين يمارسون ألعاب اليدوية هم في الجانب الأكبر منهم مصريون، وكانوا موضع التقدير العظيم سواء في إشبيلية أو قرطبة أم المرية، والمقطوعة الشعرية الأكثر إثارة، وغدكها عن هؤلاء المشعورين، هي من نظم ابن حديد شاعر المعتصم أمير المرية. وسنرى أن تسليية الأمير لم تكن تقتصر على سماع إنشاد الشعر فحسب:

وأسمعنا لاحنا فتننا	وأحضرنا لاعبا ساحرا
يُرقن فوق رؤوس القننى ^(١٦٤)	فتنظر ما يذهل الناظر
ويخطفها ذبل سرياله	فتبصر طالعا غائرا
فظاهرها ينثنى بدعنا	وباطنها ينثنى ظاهرا ^(١٦٥)
وثناء ثان لألسمابه	دقائق تنثى الحجبى حائرا
وفي نيم الراح من سحره	خواطر وهب الخاطر
إذا ورد اللحظ أنساها	فما الوهم عن يردا صادرا
ومن يدع نملك إبلاعه	فما انفك عارضها ماطرا
وسرؤك يجذب المغريبات	ويجمل غائبها حاضرا ^(١٦٦)

= وقد وصف جورج مارسبه القباء على النحو التالي «عباءة عربية وفارسية، تحيط بالقامة، ولكنها تكون نطاقا حول الفخذين» انظر: ملابس ملهى الجزائر ص ٤٦.

(١٥٩) نظر فيما سبق ص ٢٨٦ من هذا الكتاب.

(١٦٠) شك في أن هذه الكلمة نسبة إلى «حياء» بمعنى خيال الظل الصيني.

(١٦١) ليان المغرب ٣/٣٩.

(١٦٢) ليان المغرب ٣/٨٠.

(١٦٣) حول هذا الموضوع انظر: ج مارسبه، لتاريخ لقي بين مصر والغرب الإسلامي، في مجلة ميسيريس، المجلد ١٩، العدد

١ - ٢، عم ١٩٣٤، ص ٩٧.

(١٦٤) برأينا «قنائى» كما في النخبة، وليس بيان (مقنيات) كما في نفح الطيب.

(١٦٥) م أنهم معنى هذا البيت.

(١٦٦) من التقاربه الأخيرة ٧٢٢/١، وعما في بن ظافر، بدائع البداية ٣٦٥، ونفع ٢/٢٦٣، وأحمد ضيفه بلبلة العرب في

الأندلس، ص ١٨٨.

هذا المشعوز، كما يشهد ابن بسام في مقدمته للأبيات السابقة، مصرى أيضا، ولحظنا في البيت الثالث أنه يخفى زجاجات، ووصف لنا ابن بقي مشعوزين آخرين يقومون بالخدعة نفسها:

بأبي قضيبُ البانِ يثنيه الضُّبا عَوْضُ الضُّبا في الروضة الغنَّاءِ
نادمته سحرًا فامتَحَ مسمعى بترنم كترنم السورقماء
وكأنما أكمّامه في رقصه تتعلّم الخفقان من أحشائى
وعمر يلتقط الزجاجَ بذيله مرّ النسيم على حبابِ الماء (١٦٧)

وهكذا فإن إسبانيا الإسلامية إذا كانت تدين للمشرق بشيء فيما يتصل بالخياليين والمشعوزين فإنما تدين به لمصر وحدها، وكل شيء أصيل فيما يتصل بالموسيقا والغناء والرقص، وأما المدينة وبغداد فقد فقدتا في نظرها كل هبتها، ولقد بهت زرياب في الذاكرة، وربما نسوه تماما، وقاموا موسيقا المغرب، وحاولت، أن تفرض آلات القرقع، وهى جد صاخبة بالنسبة لذوقهم. وكانوا في هذا المجال لايزالون، فيما يبدو، يخضعون لاتجاهاتهم الذاتية الوطنية، وتدرجيا أصبحت موسيقاهم شتخصية، وتشكلت بخصائصهم الذاتية، طبقا لمذاقهم الخاص، ومع هدم الجسور بينهم وبين بغداد تطورت موسيقاهم مستقلة، ثم اغتننت بأشكال جديدة أكثر نعومة وأشد حيوية عن ذى قبل، وأفسحت مع الزمن مكانا أوسع للإلهام الشعبى عندما التقطت الترانيم والأغاني الإسبانية الخالصة: الموشح والزجل. ومن الحق أن الموسيقا الأندلسية في القرن الحادى عشر أخذت تقاسيمها التى حافظت عليها فيها بعد، وأشاعتها بدورها بين المسيحيين الإسبان، وصدرتها إلى المغرب وتونس، واحتفظت حتى يومنا هذا باسمها المميز: الغناء الأندلسى أو كلام غرناطة.

(١٦٧) من الكامل، القلائد ٢٨١. ويشير ابن قزمان إلى الأكمّام العريضة، لى تلقها الرافعة بمصاحبة الدف. انظر: الديوان، الفلطة ١٤٧، الدور ٥، والرقص بالأكمّام يتم في مصر أيضا. انظر: مرسية، صورة الإنسان والحيلوان، ص ٢٥١.

البَابُ الرَّابِعُ
الحياة الداخلية

○ الفصل الأول:

المرأة والحب

تحتل المرأة والحب في كل الموضوعات التي حللناها مكانا راجعا، ونجد المرأة في وصف الطبيعة مرتبطة ارتباطا وثيقا بكل ما يضافى الجمال على الحدائق والمياه الجارية، وزهرة أو جوهرة يمكن أن تقودنا بالضرورة إلى تشبيهها بقم الحبيبة أو خذها أو عينها أو خصالها، وحتى الألوان، وبخاصة الأحمر والأصفر من بينها، تبدو دائما وكأنها تحكم العشاق، ومن يحبون: فالأصفر يرمز للحبيب الشاحب بضئ شكا وطول سهاد، على حين يرمز الأحمر إلى المعزاء اللعوب تلتذ بعذاب حبيبها، واللون الأصفر يشير إلى القلق كما أن الأحمر يعني الحياء.

وفي هذا المجتمع الذي استطاع الإسلام أن يسمه بطابعه في بعض مظاهره الخارجية دون أن يشكله بعمق، استطاعت المرأة رغم كل الضواغط الدينية أن تلعب دورا رئيسيا، أوضح مظاهره أنها استحوذت على فكر الرجل. وتدر بين الأندلسيين من اعتبر المرأة كائنات شريرا ويستطيع أن يتشد مع ابن الخداد:

خُنْ عَهْدَهَا مِثْلَ مَا خَاتَكَ مُتَصِفًا وَامْنَحْ هَوَاهَا بَنِيَانٍ وَسُلُوانِ
فَالْقَيْدُ كَالرُّوضِ فِي خَلْقِي وَفِي خُلُقِي إِنْ مَرَجَانِي - أَتَى مِنْ بَعْدِهِ جَانٌ^(١)
وأقل ندرة، في الشعر على الأقل، أولئك الذين يستكرون الحرية التي مُنحت للمرأة، ويطالبون بأن

(١) من البسيط، نفح ٥٠٥/٣، ودوزي، أبحاث ط ص ١٠٦ و ط ٢ ٢٥٣/١، وقيل ابن الخداد أنشد يحيى الغزال:

ياراجيا ود الخواني ضلة	وفزاه كلف بين موكل
إن النماء لكالسروج حقيقة	فالسرج سرجك ريشا لاتنزل
فلذا نزلت فلان غيرك نازل	ذاك المكان وفاعل مانفعل
أومنزل الجناز أصبح غاديا	عنده وينزل بعنده من منزل
أوكالشماس سباحة أغصنها	تدنو لأول من يمر فيأكل
اعط الشبيبة لأبالك حفيها	منها فلان نعيمها متحول
وإذا سلبت ثيابا لم تستفمع	عند النساء بكل ماتعبل

من الكامل، نفح ٢٥٩/٢، وأورد برون هذه الأبيات في كتابه «نساء عربيات» ونسبها إلى شاعر مجهول، ص ٢٨٧ - ٢٨٨. ويقول ابن قزمان أيضا وقد خبر كل الأنواع الرقيقة في الحب، عن المرأة:

النساء كما في علمك	المروء منهم غنيمة
لس ترى الواحد منهم	ما بقت في الدنيا قيمة
وسوى تكون في عيني	المجيدة والتقدمة
والبعيدة والقريبة	والسمنية والدقيقة

ديوان ابن قزمان، الزجل رقم ٨٩.

يلتزم نظاماً أشد قسوة في حياتها، مثل أبي عبيد الله بن المصافى الرندي، الذي طلب من النساء ألا يخرجن كثيراً:

امنع كرائمك المنروح ولا تظهرُ لذلك وجّة منبسطة
لا تعتبرِ منهنّ مسحطةً نيل الرضا في ذلك السطح
أو لسنّ مثل الدرّ في شه والدرّ من صرفٍ إلى سفت^(١)



هذا الموقف المحدد والشاك من الرجل = ليل واضح وحده وب نفسه على أن المرأة الأندلسية لم تكن منزوية على نحو ما نريدنا قواعد الإسلام أن نراه في كل المسلمات، وثمة وقائع عديدة تؤكد ما نشعر به من خلال أحاسيس الشعراء القوية. لارمادى ينتزه في يوم جمعة بين رياض بني مروان في قرطبة، ويلتقي بفتاة شابة تأخذ بجماع قلبه فيحلبوها، ولا يدعها تقضي إلا بعد أن يحصل منها على وعد بلقاء في يوم الجمعة التالية^(٢). وكان اسم الفتاة خلوة، ومن المؤكد أنها كانت ترتدي خماراً. ولكن كيف نتصور أن رجلاً يستطيع أن يتحدث ردحاً من الزمن إلى امرأة علانية، دون أن يتعرض لملاحظات خشنة أو غير سديدة، لو لم يكن الجنس الضعيف يتمتع بحرية حقيقية؟

ويقص علينا ابن حزم في كتابه «طوق الحمامة» مشهداً رآه في إحدى نزواته في قرطبة، وهو أن ابن سهل الحاجب الصقلي كان ماراً، فأخذت امرأة جماله فتتبعته، فلما اختفى في منعطف الشارع ألقت بنفسها على الأرض تقبل آثار خطوه^(٣).

ويمكن أن نشير أيضاً إلى الثقافة امرأة من إشبيلية ألقت بها من أعلى نافذة في جزيرة شنتيوس على رجل كان ينتزه في قارب، ويتخفى بمغنى المرية:

خلّين من راد ومن قورب ومن نزاها في شنتيوس
غرس الحبّ الذي في درى أحبّ عنسدى من العروس
فأخرجت جارية رأسها وقالت له من أى بلد أنت؟

(٢) من الكامل، نصح ٤٣٦/٣، وفي يرى امر حيم، النساء «منفرغات البال من كل شيء، إلا من الجماع ودواحه، والفزل وأسبابه، والتألف ووجوهه، لا شغل من غيره»، ولا حلتّ لسواه»، طوى الحمامة ص ٧٩، ترجمه نيكل ٧٦، طبعة بيرشيه ١٢٦. وأسين بلانيوس، ابن حزم القرطبي ٤٠/١.

(٣) انظر مقالنا عن لرمادى في دائرة المعارف الإسلامية ١١٩٠/٣، والمصادر المذكورة هناك، وذكرت أيضاً رياض بني مروان في البغية للضبي ٤٧٨.

(٤) طوق الحمامة ص ١٣٠ - ١٣١، وطبعة بينوق ٩٠، ومقدمته ص ٢٦، وترجمة نيكل ص ١٣٩، وطبعة بيرشيه ص ١٢٦، وترجمة ل. إيكرب Arabischer Provenzalischer und deutscher Minnesang ص ٢٠٦.

● قلت: هذه الفقرة ترجمة حرفية لعبارة المؤلف هي محتاج إلى إعادة تحريره لأن نص عبارة ابن حزم في طوق الحمامة: «أخبرني بعض إخواني عن سليمان بن أحمد الشاعر أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية، وذكر أنه كان في عربة الجمال، فشاهده يوماً في بعض المتنزهات ماشياً، وامرأه خلقه تتفرّج إليه، فلما أبعد أنت إلى المكان الذي قد أثر فيه مشيه، فجعلت تقبل وتكلم الأرض التي فيها أثر رجله».

أى أن ابن حزم كان ناقلاً ولم يكن شاهداً، وأن حداث القصة وقعت في جزيرة صقلية الإسلامية وليس في قرطبة (الترجمة).

فقال: من المربة.

فقلت: وما أعجبك في بندك حتى تفضله على إشبيلية، وهو بوجه مالح وفا أحرش^(٥). ولا يُظن أن هذه الأحداث تقع في قرطبة وإشبيلية فحسب، وإنما حدثت في مرسية أيضا، ففي إحدى جناتها، في قبة فوق جدول مطرد، وتحت أدواح طيرها غرد، يحكي الجنان لمؤلف كتاب قلاند العقيان كيف استطاع أن يتأمل معجبا «نساء ذوات شعور منشورة، وخدود غير مستورة، وقد رُفعت عنها المرافع، وما منها نظرة إلا ومعها سهم واقع^(٦)».

ومن العادي جدا بين جبهة الحرقين أو الفلاحين أن ترى النساء دون حمار، وفي أشد الحالات تغطي رأسها بحجاب يترك وجهها مكشوفاً، وفي ضواحي إشبيلية، في منزله يُعرف باسم مرج الفضة، أمعن المعتمد النظر في غسالة وسوف تصبح زوجته الشرعية وتحمل اسم اعتماد^(٧). وفي جولة أخرى للأثير نفسه، مع ابن عمار، في حيّ الجبّاسين والجبّارين من إشبيلية، التقى بامرأة ذات جمال مفرط «فكشفت وجهها، وتكلمت بكلام لا يقتضيه الحياء^(٨)». أليس هذا أيضا ما يميّز المشهد الذي نرى فيه ابن السراج المالحى، وكان يوما على نهر مألقة فمر به سرب من الملاح فيهن جارية حسناء، ظرفة النطق، تأكل باقلاء، ناعترضها، وسألها منه، فدفعته إليه، فقال بديعة:

وسرب ملاح مرّ بي وبصاحبي	ونحن على مياه يذكّرنا عذنا
وحملن فولا عندهن نظير	عوان ولكنّ نوره عز أن يجني
فقلت: عسى من فولكنّ بقية	فقلن: وأئى القول ترغبه منا؟
فقلت الذي تحت السراويل قلن لي	جهلت ولم تفهم مقالتنا عنا
حرأى على من كان شيخاً مُتَوَّهاً	وصال ملاح فتنّ الشمس حسنا
وفيهن نشوى الطُرف لم أر قبلها	من الإنسر شمساً تحمل الدعص والنصنا ^(٩)

لكن المثل الأقوى دلالة على حرية المرأة تقدمه لنا ولادة بنت الخليفة المستكفي^(١٠). فقد انتهلت فرصة موت والدها، في لحظة غير متوقعة، خلال الفوضى والاضطراب الذي أدت إليه «الفتن» لتعيش حياة متحررة تماماً، فأقامت «صالونا» يجذب إليه أكبر الشخصيات وأعظم الأدباء شهرة، وقد أظهرت بظرفها، واحتقارها الخمار، وجرأتها في الحديث، وأحياناً شذوذ مواقفها، ما يدل بوضوح على أنها تحررت تماماً من كثير من الأوهام، وربما داخل أخبارها شيء من التزبد، وهو ما يعود إليها نفسها، ومع ذلك فإن التسامح معها بإزاء حياة من هذا اللون يعنى أن الإسلام، وهو متشدد كثيراً وحساس للغاية فيما يتصل بالمرأة، اوتخت قبضته شيئاً في الأندلس بخاصة، ومضطرون للتسليم بأن المناخ الذي أوجدته بيئة ذات عادات مسيحية أتاح للإسلام أن يصل إلى مفهوم أكثر

(٥) انظر فيما سبق ص ١٠٩ و ١١٠ و ١٢٧ من هذا الكتاب. ونفح ٢٨٩/٣.

(٦) القلاند ١١٦، وعنه نقلها نفح ١٧٣/١.

(٧) التيجاني، تحفة الروس، نقلًا عن «بنو عباد» ١٥١/٢، ونفح ٢١١/٤، وعنه في «بنو عباد» ٢٢٥/٢.

(٨) نفح ٢٦٠/٤، وانظر فيما سبق ص ٢٦٠ من هذا الكتاب.

(٩) التلمذ ٨٨١/٨، وانظر أيضًا مشاهد أخرى في ديوان ابن قزمان، القطعة رقم ٨٧ مثلاً.

(١٠) مر ولا، انظر: أ. كور، ابن زبون، ص ٢٢ - ٣٦، والمصادر المذكورة هناك.

تحرراً فيما يتصل بوضع المرأة^(١١).

ويمكن الحكم على نحو أدق فيما يتصل بمستوى تحرر المرأة إذا أضفنا إلى هذه الصورة «المتحررة»، كما تركتنا ولادة ندرهما، صورة أخرى لجارية غلامية^(١٢)، وهى معروفة في المشرق^(١٣)، ولكنها أخذت في الأندلس ملامح متميزة، ولقد ذكرنا فيما سبق أيقنا لابن شهيد يصف فتاة قصت شعرها، فأنت غيداء في شكل صبي^(١٤). ونفهم من بيت في قصيدة أبي الفضل بن شرف، أنه كانت توجد أيضاً أندلسيات مسترجلات:

أشوس الطرف علسه نعوةً يهادى كالغزال الحريق^(١٥)

هذه الحرية التي كانت تتمتع بها الأندلسية في المجتمع الإسباني المسلم تتيح لنا أن نذهب على نحو أفضل وفرة القصائد التي أنشدتها النساء، ويتغنون فيها بجمال المرأة الحسي وبصفتها النفسية على السواء، والكثير من هذه القصائد موجه إلى مقتنيات وموسيقيات دون شك، ولكن إلى جانب الأوصاف التي يحتل منها ما هو حسي مساحة واسعة، نجد مقصوعات أخرى، ليست بأقل عدداً، نلاحظ خلالها إجلالاً حقيقياً للمرأة لا جدال فيه، وحتقد أن هذه الاندفاعات الغنائية، وفيها لا يكاد الهوى الحسي يطل برأسه، لا توجه فحسب إلى المرأة التي جعل منها وضعها رقيقة مجرد جارية تخضع لكل نزوات سيدها، وقد يكون في كل ما يقال شيء من الخيال، وعو ما لا شك فيه، أما القول بأن هذه العواطف السامية لم تكن لها أساس في الواقع فأمر يبدو بعيد الاحتمال.



(١١) ألا يمكن أن تكون هذه الحرية نتيجة التسويات التي كانت تراجمها المرأة المسلمة كى تتزوج، بسبب الأعداد الكبيرة من الأسيرات والعشيقات المسيحيات اللاتي أخذت طريقهن إلى الحرم؟ انظر فيما سبق ص ٢٦٥ رقم ١٧ من هذا الكتاب. ● يريد المؤلف هنرى بيريس أن يرتد حرية المرأة المسلمة في الأندلس إلى بيئة مسيحية مؤثرة زعمها، فلنسمع ما يقوله مستشرق آخر عظيم عن وضع المرأة في هذه ايجة الإسبانية المسيحية: «بتأثير الإسبان كانت لآثرى امرأة قط - شوارع إيطاليا حوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادية

انظر: آدم مزر، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى، ط ٣ ج ٢ ص ١٧٠، ترجمه نود عبد الحادى ليو ريد، القاهرة ١٣٧٧ م = ١٩٥٧ م ولمعرفة رأى السبعة في ثرة في العصور الوسطى، ومكانتها في المجتمع، انظر نقابنا: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ط ٣، ص ٢٠٣ وما حشا دار لمعارف، القاهرة ١٩٨ (المترجم).

(١٢) يقول الأسعد بن بليظة في قصيدة ضجيرة له:

غلامية جاءت وقد جعل العجبى	خاتم بها قص غالبة خطأ
فقلت أحاجيها بما في جفونها	ود في الشفاء اللبس من حشا المعطى
عمسة لعين من غير سكرة	مق شربت أفاط، «تبيك إسفطا
أرى نكهة المواك في حر اللبي	وتلويك الخطر بالمساك قد خطأ
عسى قزح قلبه نلغاله	عل الشقة اللبياء قد جاء تحتها

وهى من الطويل، الطبع ٣٤٣، ونفع ٤/٤، وابن خلكان، الواسط، ٣٦/٢، وترجمة دى سلان ١٠٣١/٣ وانظر فيما سبق ص ٢١٠ الماش رقم ٥٠ من هذا الكتاب

(١٣) انظر المعهود، مروج الذهب ٢٠٨، وآدم مزر، الحضارة الإسلامية، ٣٦٦، والترجمة الإسبانية ٤٢٧ والترجمة العربية ١٥٩/٢.

(١٤) انظر فيما سبق ص ٣٢٧ من هذا الكتاب.

(١٥) من الرمل، نفع ٣٩٤/٣، وأبحاث ط ١ ص ٩٢.

أن تكون الشهوات قد اختفت أمر لا يمكن البرهنة عليه، ووصف المحبوبة حسياً شاهد على ما نقول، ونحن هنا مضطرون للاعتراف بأن جانباً مما كان يترده في الشعر أكبر مما كان يجري في الواقع فعلاً، ولهذا تكثر الذكريات الكلاسيكية المبهمة، صفات الغزال والمهاة والظباء وبقر الوحش الحسية وأخذت مكاناً هاماً^(١٦)، وكذلك وصف التلال ولرمال وما اتصل بها^(١٧). وقد يكون مملاً أن نأتي هنا بمختارات لكل الصور، حتى لو تنوعت، ومن ثم فإن بعض الأمثلة تكفي.

يقول محمد بن البين البطليوسي مصوراً نساءهم، ربما مع شيء من السخرية.

غصبروا الصباح فقسّموه خدوداً واستهيموا قُضِبَ الأراك قدوداً
ورأوا حصي الياقوت دون محلمهم فتقلدوا شهبَ التجوم عقوداً
واستودعوا حديق المها أجفائهم فسبوا بين ضراغبا وأسوداً
لم يكفهم حمل الأسنة والظبي حتى استعاروا أعينا وقدوداً
وتضافروا بصفانير أبدوا لنا ضوء النهار بليلها معقوداً
صاغوا الثفور من الأفاحي بينها ماء الحياة لو اغتدى موروداً^(١٨)

ويبرز المعتمد في بيت واحد من الشعر الملامح المميزة لأُم عبيدة، المرأة التي أحبها؛ هي الظبي جيداً، والغزالة مقلّة وروض الرئي عرفاً، وغصن النقا قدّاً^(١٩). هذه الصور تقدم لنا بعض المعلومات عن ملابس المرأة، وقد أفدنا منها في التمييز بين البرد والمتر أو الإزار، فالأول يغطي الجزء الأعلى فحسب، والثاني النصف الأسفل من الجسم^(٢٠). وسنرى أيضاً أن كلمة «رشاح» لا تعني عند الأندلسي العصابة، وإنما تأتي في معنى الحزام^(٢١). وإذا كان المثل الأعلى الكلاسيكي تعلق بالسمرات داتها، ذات شعر أثيث أسود فاحم^(٢٢) فقد شغل

(١٦) إن ألفاظ بقر الوحش والمها والجوزف قد تصدم الغربيين كثيراً، ولكنها ليست كذلك فيما ينصل بالإغريق، لأن Hete كلمة الزواج عندهم توصف بأنها: «ذات اللون البعري». انظر: الإلياذة ٥٥١/١ وما بعدها، وبوالو، تأملات نقدية حول بعض فقرات بلاغة لوتيجي، التأمل التاسع: «إن كلمة عجلة (بقر صغيرة) ليست جميلة في اللغة الفرنسية، وبخاصة في قصيدة رعبية، وكلمة بقر لا تحتمل، حين ينشئ بها الشعراء اليونان».

(١٧) الصورة المثالية للمرأة العربية في أدق صفاتها وأصدقها تفصيلاً وأكثرها استبطاناً، تقدمها لنا كتب الأدب والبلاغة مثل: العقد الفريد لابن عبد ربه أو أسرار البلاغة ليهاء الدين العامل، وهناك ترجمة فرنسية قام بها بيجرون في كتابه «نساء عربيات» ص ٥٢٢ - ٥٣٣، ونقلها واصف بطرس غالي في كتابه «تقاليد الفروسية عند العرب» بالفرنسية ص ٨٣ - ٨٤. واللافت للنظر أن هذه الصورة تشبه كثيراً ما نجيده في نسيج الأناشيد في انترراء، السفر ٥ الآيات ١٠ - ١٦. وقد استخدم بها، الذين العامل الصورة نفسها لكي يصف نساء الحيرة، متخذاً منها مثلاً، مرحباً بأن الجنس اللطيف واحداتنا انظر الكشكول ص ٧٠ - ٧١، والأرجوزة في اثني عشر بيتاً.

(١٨) من تكامل، نفع ٤٠٣/٣ و٤٥٣.

(١٩) من الطويل ديوان المعتمد، ونفع ٢٧٩/٤، والعلائد ١٠، وعنه في «بنو عباد» ٤٤/١.

(٢٠) انظر فيما سبق ص ٢٨٣ من هذا الكتاب.

(٢١) ابن شرق، القلائد ٢٥٤، ونفع ٣٩٣/٣ ودوزي، معجم الملابس، ٤٣٩، والترجمة العربية ٢٤٦.

(٢٢) أنظر أبيات ابن شرق في نفع ٣٩٢/٣، ودوزي، أبحاث، ط ١ ص ٩٧.

القرن الحادى عشر كثيرا بالشرق اوانت^(٢٣)، ذوات الشعر المقصوص^(٢٤)، ولم تعد المرأة اغيداء، ذات العنق الأوزى، تفضل الوقصاء دائما، وعلى أية حال، وكما لحظ ابن حزم، كان الأمر شخصا بعتا^(٢٥).

يمكن أن نشير إلى مشاهد عديدة نرى فيها المحب ذاهبا إلى لقاء حبيبته أثناء الليل أو أطراف النهار، في إطار مستعار من الطبيعة أو خفية في بيت، وهذه الغنائية التي تتضح وثنية نادرا ما تصل حد التفصيل الحادش للحياء، لأن المجوز نيس من الاتجاهات الأساسية في الشعر الأندلسى على التأكيد، وبعد إثارة شهوانية سطحية يندفع الشاعر فجأة إلى غنائية سامية تظهر أن روحه ليست أسيرة ما هو مادي فحسب، يقول الخليفة عبد الرحمن الخامس الملقب بالمستظهر بالله^(٢٦):

طال عمرُ الليلِ عندي	مُدَّ تَوَلَّعتْ بَصْدَى
يا غزالاً نقض الو	دُ ولم يوفِ بعهى
أنسيت العهد إذ بت	نأ على مفرش وود
واجتمعنا في وشاح	وانتظمنا نظم عغد
وتمايقنا كغفنى	بي وقداننا كقد
ونجوم الليل تحكى	نغمنا في لا زوود ^(٢٧)

ويقدم ابن عمار النصيحة التالية إلى المعتمد وكان عجلا إلى لقاء محبوبته اعتماد بعد أن أنهى إحدى حملاته:

وقيلَ خَلعَ نِجادِ السيفِ فسَحَ إلى ذبِ الوشاحِ وخَذَّ للحبِّ بالشار
ضبا ولشبا يَفنى المَلُى سِنكبا كما تَحياوِبُ أَطمارِ بأَسحار^(٢٨)
وذكرَ المعتمد، وقد ابتعد عن إنبيبة على رأس حملة حربية، في إحدى نساته فكتب إليها يقول لها:
كم يَتَمنى لو أَنه قَريبُ منها:

فَقَبِلْتُ ما نَحَتِ الشَّامِرُ منَ السُّمى وعانَقْتُ ما فوقَ الوشاحِ منَ العَقْدِ^(٢٩)
وصورة العناق تثل عند الشعراء «فكرة ملعة»، يقول ابن الزقاق:

ومِرْجَجَةُ الأَعْطافِ أَمّا قَواشِها	فَلَدُنْ، وَأَمّا رِدْفُها فَردائِ
أَلَّتْ فباتَ الليلُ من قِصرِها	يطير، ولا غيرُ السرورِ جناح
فَبِتْ وقد زارتَ بأنعمِ ليلَةٍ	بما نَقى حتى الصَّباحِ صَباح

(٢٣) انظر أبيات ابن حزم في طرق الحدا ص ٥٠، ترجمة نيكل ص ٤، ط برلنبر ٧٤-٧٧، وانظر فيه سبق ص ٢٦٩ من هذا الكتاب.

(٢٤) انظر فيما سبق ص ٢٢٧ وص ٣٤٠ من هذا الكتاب.

(٢٥) طرق المعامة ص ٥٠، وترجمة نكل ٤٠.

(٢٦) وتسب هذه الأبيات أيضا إلى لروانى الملقب بالحجر، ويقال له البطرشك Pedra Seca.

(٢٧) من الرمل، الفخيرة ٥٧/١، وصحة ١٦/٢، والنصح ٤٣٦/١ و ٤٨٩.

(٢٨) من السبط، الحلة ١٣٢/٢، وبنو عباد ٨٨/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ١٠.

(٢٩) من الطويل، خريد القصر نقل عن «بو عيادة» ٢٨٧/١، وديوان المعتمد ص ٦، وترجمة فقرة منه في معجم الملائس للدورى.

ص ٤٠٠، (والتريجة العربية ص ٤٢٢).

على عاتقي من ساعديها حائلٌ وقدّم لنا ابن بَقِيٍّ أجمل صورة عن ليلة حب:
 عاطفته والليلُ يسحبُ ذيلهَ
 وضمته ضمُّ الكميِّ لسيفه
 حتى إذا مالت به سنة الكرى
 باعدته عن أضلعٍ تشاقه
 وصورة ابن خضاجة أشد شهوانية:

وليل تعطائنا المدام وبيننا
 نعاوذه والكأسُ تعبقُ مسكّةً
 ونقلى (٣٣) أقاح النقر أو سوسن الطلي
 إلى أن سرت في جسمه الكأس والكرى
 فأقبلت أستهدي لما بين أضلعي
 وعانقته قد سلّ من وشي برده
 ليان تجسّ واستقامة قامة
 أغازل منه الغصن في مغرس النقا
 فإن لم يكنها أو تكنه فإنه
 تسافر كلنا راحتي بجسمه
 فتبهط من كشحيه كفى تمامة
 واني وقد فارقتُه لمقبل

حديث كما هبّ التسيّم على الورد
 وأطيب منها مانعيد وماتيني (٣٢)
 ونرجسة الأجنان أو وردة الخند
 ومالا يعطفيو قمال على عضدي
 من الحرّ ما بين الثنايا من البرد
 فعانقت منه السيف سلّ من القمد
 وهزة أعطاف ورونتى إفرند
 وألتم وجه الشمس في مطلع السعد
 أخوها كما قد الشراك من الجلد (٣٤)
 فطوراً إلى خضر وطورا إلى نهد
 وتصدّ من نهديه أخرى إلى نجد
 مواقع هاتيك السوالف من زفدى (٣٥)

ونلتقي عند أبي محمد بن القبطورته بشيء له إيقاع أسر، متوهج ومتهيج، ذات نغم إغريقي، لم يعرفه الأديب العربي في المشرق على ما يبدو، باستثناء قصائد عمر بن أبي ربيعة وبشار بن برد:

يا خليلي لقلب نيل من كل الجهات
 لييم إن هام برماً بالبنينا والبنات

(٣٠) من الطويل، نفع ٢٩٨/٤ (الديوان ص ١٢٩).

(٣١) من الكامل، الثلاث ٢٧٩، والثقتدي، رسالة في فضل الأندلس، في نفع ٢٠٩/٣، وترجمة غرسة غوث ص ٨٨، ونون شاك، شعر العرب وفهم، وترجمة بالوا إلى الإسبانية ١٤٠/١، وقد استشهد دجيا بيت منها في مقدمته بالفرنسية لطبعة النفع الأوربية، ٢٩/١.

(٣٢) وقد عبر المتخذ عن الفكرة نفسها، انظر، الحلة ٤٧/٢، وعنها نقل هزلي الأبيات في «نحو عباد» ٥٨/٢، وهي من بحر الطويل، وموضع الشاهد في البيتين السابع والثامن منها.

(٣٣) عن النقل، وهو ما يؤكد رفقة الشرايد، انظر لها سبق ص ٣٣٠ من هذا الكتاب.

(٣٤) هذه الصورة الأخيرة أظنها مثلاً.

(٣٥) من الطويل، الديوان، القلعة ٢٧٨، ص ٣٤٨، نفع ٦٨٩/١، والنخبة ٥٨٨/٣، وشاك، شعر العرب ١٣٨/١، وجونثال، بالنها، تاريخ الأدب الأندلسي ص ٩١، وزكي مبارك، حب ابن أبي ربيعة ص ٢٨٤.

وبأن صادته منفرٌ من بيضٍ خافرات
بلحافٍ ماحراتٍ وجفوني فائرات
وبجيدٍ الطيبة ارتبا عت فطلت في التفات
وبعيني مغزلي ترُ عى غزالاً في فلات
تتمشى بين أترا ي لها حورٍ لدات
وعليها الوسي والخز وبردة الحمرات
راعها لما لنينا مادت من فتكات
عثرن ذعرٌ فقلنا وا لعا للعائرات
ضحكت عجبٍ وقالت لا خص لفتحات
راجعه ثم قولى أنشنا في السمرات
وارقب الأعداء واحذر للميون التناظرات
فاذا أعلق فيها النورُ أشراك السنات
وعلا السرُ جلابيب لباس الظلمات
فاطرق الحى تجذنا في ظهور المجرات (٣٦)
فالتقينا بعد يأسٍ بدليل النفحات
ونلازمنا عتاقاً كالتواء الألفات
وبشنا بيننا شجواً كنفت الراقصات
وبردنا ليرة الحد حب ياء العبرات
وتناغشنا ز نغمة لم بأن الصبح آت
وبدت منه تباشير سير مشيب في شيات (٣٧)

ونلاحظ أن لشاعر نادراً ما صرح بحبيته عارية، ويبدو أن الأندلسي يفضل جسداً خفياً مستوراً
يغذى الخيال بمزيد من أحلام اليقظة على لحم عار تلتهم الأنظار. وتفتن روح الإسباني المسلم ملابس
المرأة شفاقة، تتيح له أن يكتشف تاسق جسمها. ولا بد أن صير الشاعر قد نقد تماماً حتى يقول
لحبيته:

انزعى الوشنى فهو يدتر حُسنًا لم تحزّه يرقمهن الشياپ
ودعيني عسى أقتر نغراً لَّ فيه اللوى وطاب الرضاب
وعجيب أن تهجريني ظلمًا وشفيعي إلى صباك الشباب (٣٨)

وكما لاحظنا من قبل، كانت لجوى الراقصات والمغنيات العازفات، يرتدين ملابس شفاقة سهلة
الخلع، وهي حالة جارية كانت رقيقة المعتد في ملذاته عندما كان عاملاً على شل:

(٣٦) إشارة قرآنية، سورة المجرات الآية ٤.

(٣٧) من اسرمل، الثلاث ١٤٩. ويبدو أن قزمان أشار إلى قصيدة ابن القبطونة هذه في أحد أبحاثه، التي وازد بينها
غوليان ريبيرا وبين قصيدة مدح برنسية، انظر: ديوان ابن قزمان، القطعة ١٤١. ورييرا، نبذ مقالات ٨٦/١.

(٣٨) من الخفيفه نفع ٤٢٢/٣. يهذ الشاعر هو أبو الحسن بن شبيب.

وَكَيْلٍ بَسَدَ النَّهْرِ أُنْسًا قَطَعْتُهُ بِذَاتِ سَوَارٍ مِثْلَ مُنْعَطِفِ النَّهْرِ
نَضَّتْ بِرَبِّهَا عَنْ غَضَبٍ بَانَ مُنْعَمٍ نَضِيرٍ كَمَا انْشَقَّ الْكَمَامُ عَنِ الزُّهْرِ^(٣٩)

ونمة حكاية معروفة وذاتة تصوّر لنا المعتمد وجارية له تمشي بين يديه، [وعليها قميص لا تكاد تفرّق بينه وبين جسمها، وذوائبها تخفى آثار مشبهاء، فسكب عليها ماء ورد كان بين يديه وقال: عُلِّقْتُ جَانِلَةَ الْوُشَاحِ غَرِيرَةً تَخْتَالُ بَيْنَ أَسْنَةِ وَبَوَاسِرِ^(٤٠)

وتعلّق عليه المقال، فقال لبعض الخدم القائمين على رأسه: سر إلى أبي الوليد البطلبيوس المشهور بالنحلي، وخذ به بإجازة هذا البيت ولا تفارقه حتى يفرغ، فأجابه النحلي لأول وقوع الرقعة بين يديه:

رَاقَتْ مَحَاسِنُهَا وَرَقَ أَدِيمُهَا فَتَكَادُ تَبْصُرُ بَاطِنًا مِنْ طَاحِرِ
وَمَيَّالَتْ كَالْقَصَنِ فِي دَغْصِ النَّقَا تَلْتَفُ فِي وَرَقِ الشَّيَابِ النَّاضِرِ
يَسْدِي بِمَاءِ الْوَرْدِ مُسْبِلَ شَعْرِهَا كَالطَّلِّ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِ الطَّائِرِ
تَزْهِي بِرَوْنَقِهَا وَعِزُّ جَالِهَا زَهْوُ الْمُؤَيَّدِ بِالنِّسَاءِ الْعَاطِرِ
مَلِكٌ تَضَاءَلَتْ الْمُلُوكُ لِقَدْرِهِ وَعَنَا لَهُ صَرَفُ الزَّمَانِ الْجَانِرِ
وَإِذَا نَحَتْ جَبِينَهُ وَعَيْنَهُ أَبْصَرَتْ بِدُرًّا فَوْقَ بَحْرِ زَاخِرِ

فلما قرأها المعتمد استحضره وقال له: أحسنت، أو كنت معنًا؟ وما كنا لنعرض لهذه القصة لولا أنها تقمّ لنا حوارًا مضيئًا وعمما يوضح معنى ظاهري وباطني، وقد تواجها في هذا العصر^(٤١). ويقول ابن مالك الطغئري عن وجه امرأة جميلة:

فَقَدُّهُ مِنْ رَقَّةٍ مَائِيٍّ وَرَدْفُهُ مِنْ ثِقَلٍ مَائِيٍّ
كَأَنَّ مَاءَ الْحُسْنِ فِي خَدِّهِ مُدَامَةً شَعَشَعَهَا الْمَازِجُ
عَنُونٌ مَائِيٌّ ثَوْبُهُ وَجْهُهُ تَشَابَهُ الدَّخْلُ وَالْخَارِجُ^(٤٢)

لكن ابن عبد البر لا يشاركه هذا الرأي، فبينما كان يتجول يوما في سكة الحطايين من مدينة إشبيلية، مع ابن حزم الظاهري، لقيها شاب حسن الوجه، فقال أبو محمد بن حزم: هذه صورة حسنة. فقال له ابن عبد البر: لم تر إلا الوجه، فلمل ما سترته الثياب ليس كذلك. فقال ابن حزم أرتجبالا:

وَذِي عَذَلٍ فِيمَنْ سَبَقَ حُسْنُهُ يَطِيلُ مَلَامِي فِي الْهَوَى وَيَقُولُ
أَمِنْ أَجَلٍ وَجْهِ لَاحٍ لَمْ تَرَ غَيْرَهُ وَلَمْ تَدْرِ كَيْفَ الْجِسْمِ أَنْتَ عَلِيلُ

(٣٩) من الطويل، القلائد ٦، وعنه في «بنو عباد» ٣٩/١ ر ٨٤، والحلة ١٣٢/٢، وعنها في «بنو عباد» ٨٩/١١، ونفع ١٩٢/٣، وتاريخ مسلم إشبيلية ٩١/٣، وغرسة غوث، ترجمة رسالة الشنقي ٥٧، وانظر فيما سبق ص ٣٤٢ من هذا الكتاب. (٤٠) انظر: نفع ٢٢٣/٣، وابن ظافر، البدائع ص ١١٥، وابن ليون، لمح السحر، الورقة ٦٦ ب، والتيجاني، تحفة العروس، مخطوطة الجزائر، الورقة ٨٤ أ.

(٤١) من الكامل، نفع ٢٣٤/٣.

● تصرف بيريس في لقطة قليلاً فجعل النحلي واقفاً باب المعتمد وحذفت الشعر الذي قاله المعتمد، وهو محور القصة، واستغنى عن تعليق المعتمد على أبيات النحلي، وعدت بالقصة إلى أصلها (الترجم).

(٤٢) من السريع، الذخيرة ٨٠٨/١ والإحاطة ٢٨٤/٢.

فقلت له أسرفت في اللزوم فإتد
ألم تر أنني ظاهري ورئفي
فعندى ردُّ لو أشاء طويل
على ما أرى حتى يقوم ليل^(٤٣)



ما أكثر الأشعار الخفيفة في عذوبة اللطيفة في دقة، الغزلة في رقة، لا تكاد تعثر فيها على أثر
للحذلق أو التصنع. إن الروح الأندلسي يرسم نفسه جيدا في بحثه الشائق عن الملمح الذي يخلق
تصويرا قادرا على إثارة القلب من الوقت نفسه يثير الخيال. يقول أبو الفضل بن شرف:
لم يبق للجور في أيامه أثرٌ إلا الذي في عيون المغير من حور^(٤٤)
ولم يصور أحد الفلق في انتظار وصول الحبيب، فيما يبدو لنا، بأفضل مما صورته هذه الأبيات الثلاثة
لأبي محمد بن سفيان:

نفسى فداك وعدتني بزيارة
حتى رأيت قسيم وجهه طالعا
فطلعت أرقبها إلى الإسماء
لم تنتقصه غضاضة استحياه
فعلمت أنك قد حُجبت وأنه
لو رأى وجهك ما سرى بهما^(٤٥)
ومن الإفراط أن نجد خوف الحبيب الذي يحس بالمرح من نظرات محبوبه، يقول أبو الحسن بن
سراج:

لما تبوأ من فؤادي منزلا
ناديته مسترحما من زفرة
وعدا يسلط مُقَلَّتِيهِ عليه
أفضت بأسرار الضمير إليه
رفقا بمنزلك الذي نحتله
يامن يخرب بينه وبينه^(٤٦)

وقوة المحبوب تحدث الرعد الذي يؤثر في صحة المحب، وهي فكرة ليست جديدة في الشعر
العربي، فإن كبار العشاق في صدر الإسلام مثل كثير عزة، وجبل بُثينة، وعروة عفراء، ومجنون ليل من
بينهم بغضاة، وصفوا لنا تياريح المحبة في نغم لا يبدو أن أحدا بعدهم قد فاقهم فيه، ومن هنا لا نجد
تحسرات الشاعر الأندلسي ذات أهمية فهو مريض من الحب، ويذبل تدريجا، ويشحب وجهه، وينحف
جسمه من الأرق والصوم، وعند يقول ابن اللبانة:

صرف الهوى جسمي شيعة خياله
من فرط جفته وفرط خفائه^(٤٧)
أو يقول:
ولى نفس يخفى ويخفى رقة
ولكن جسمي منه أخفى وأخفت^(٤٨)

(٤٣) من الطويل، نفع ٨٢/٢.

(٤٤) من البسيط نفع ٣٩٦/٣، وبعاط ١ ط من ٩٥.

(٤٥) من الكامل، القلائد ١٣٩.

(٤٦) من الكامل، القلائد ٢٠٢ و ٢٠٣.

(٤٧) من الكامل، لمعجب ١٥٤، يترجمت ١٣٠.

(٤٨) من الطويل، المعجب ١٥٣، وترجمته ١٢٩.

لا نرى فيما يقول غير التصنع، لأننا لا نعرف شيئا عن حياته العاطفية وعلى النقيض منه، يثيرنا ابن زيدون بعمق، لأن الآلام التي عاناها بسبب هجر ولادة له، كانت تعبيرا عن شعور حقيقي، وجسمها في نعم صادق مثير:

هل تذكرون غريبا عادَهُ شَجْنٌ من ذكركم وجفا أجفانه الوسنُ
يخفي لواعجه والشوق يفضحه فقد تساوى لديه السرُّ والعلن^(٤٩)

يُمَيِّز هذه اللواعج عادة قلق السهر الذي يجعل المحب حتى وهو قريب من محبوبه، لا يستمتع بسعادته قامة، ولا يستطيع أن ينسى آلامه الماضية، ويدور له الحاضر غير مؤكد. ألا يجب عليه أن يخشى تقلب محبوبه؟ إن اللحظة التي يمكن أن يجنيها سعادة يستمها هذا القلق، وربما كان هذا وهما منه لا يقوم على أساس، يقول أبو الحسن بن الحاج:

وهبت لها نفسًا على كريمة وقد علمت أن الضئالة بالنفس
أعالج منها السخط في حالة الرضا ولا أعدم الإحشاش في ساعة الأتس^(٥٠)

ويصور أبو الفضل بن شرف هذا القلق على نحو أفضل:

وقد حملت عمة الحب ضغفي كحمل الحضر للكفل الرداح
أحن إلى رضاك وفيه بُرئى كما حن العليل إلى الصباح
وقد أحللت حبك من فؤادي محل المال من أيدي الضحاح
سأفزع في هواك لحسن صبرى كما فزع الجبان إلى السلاح^(٥١)

ويصور أبو الحسن اللورقي عن الرعب نفسه:

أذوب اشتاقًا يوم يحجب شخصه وإني على رب الزمان لقاسي
وأدعر منه هيبة وهو المنى كما يذعر المغمور أول كاس^(٥٢)



الثغمة الأصلية حقا في هذا القلق، وربما ليست كاملة، نجدها في تصوير الموت إلى جانب الحب، ويعرف الشعر المشرقى عددا من شهداء الحب، وتناول هذا الموضوع أيضا، ولكن ليس بهذه القوة أيدا، فيما يبدو لي، والتي تضي على الموت وجودا حقيقيا، يقول أبو القاسم بن العطار:

بين الهوى والردى في لحظة نسبي هذى القلوب وهذى الأعين الدعج
بين الورى وصروف الدهر ملحة وإلها الشيب في هاماتهم رجع^(٥٣)

(٤٩) من البسيط، المذهب ١١٠، وترجمته ٩٢، الديوان ص ١٦٢.

(٥٠) من الطويل، القلائد ١٣٤.

(٥١) من الوتر، القلائد ٢٥٦.

(٥٢) من الطويل، نفع ١٠٣/٤.

(٥٣) من البسيط، القلائد ٢٨٧، البيتان ٢ و ٨.

ويقول الأعمى التطيلي:

هو الهوى وقديما كنت حذرهُ السقمُ موردهُ والموتُ مصدرهُ^(٥٤)

ويرى ابن شهيد أن آلام الحب أشد رعباً من حشرات الموت:

أَلَمْتُ بِالْحَبِّ حَتَّى لَوَدِدْتُ أَجْلِي لَمَّا وَجَدْتُ لَطَمَ الْمَوْتِ مِنْ أَلَمِ^(٥٥)

والموت يترصد ليتمكن من العائق أمرضه الحب، يقول أبو العباس اللص لمحبوبته:

وقائِلَةُ وَالضُّفَى شامِلِي عَلامَ سَهْرَتٍ وَلَمْ تَرَقِدِ

وَقَدْ ذَابَ جِسْمُكَ فَوْقَ الْفَرَا شَرِّ حَقٍّ خَفِيتَ عَلَى الْعَوْدِ

نَقَلْتُ: كَيْفَ أَرَى نَائِماً وَرَأَيْتُ الْمَنِيَّةَ بِالْمَرْصِدِ^(٥٦)

ويذكرنا الرمادى في أبياته المحيطة ببعض ملاح الشاعر الفرنسى فيون:

ومن شجنى تهى السحابُ متذرفٌ ومن جزعى تبكى الحمام وتَهْتَفُ

كأن السحابَ الواكفاتِ غواصلى وتلك على قفدى نوائجُ هُتَفُ^(٥٧)

وثمة مثل أندلسى يقول: «تَذَكَّرْ غَائِباً نَزَهَ»^(٥٨)، ويؤكد ذلك ابن الخلداء فيقول:

أَتَرَكُ مِنْ أَهْوَى وَأَمْضَى كَمَذَا وَإِنِّي مَأْمُضِي وَقَلْبِي مَعِي

وَلَا نَأَى شَخْصُكَ عَنْ نَظَرِي حِينَ لَا نَطْلُكَ عَنْ مَسْمَعِي^(٥٩)

ولا يدهشنا أن نجد عند شاعر لحيل الذى أصبح مطروفاً في أيامنا، ويعبر عن مرارة الهجر. يقول الطُّرطُوشى:

يَقُولُونَ ثِكْلِي وَمَنْ لَمْ يَمْدُقْ فِرَاقَ الْأَحْبَبَةِ لَمْ يَتَّكِلْ

لَقَدْ جَرَّعْتَنِي لَيْلَى الْفِرَاقِ كَوْسَا أَمْرٍ مِنَ الْخَسْفِ^(٦٠)

ولكن المحبين العاشقين حقاً هم: نسين يرون في تأثيرات الهجر المشنومة خيراً، يقول الرشيد بن

المعتمد:

لَوْلَا الرِّجَاءُ بَأَنَّ يُعْجَلَ بَيْنَنَا وَشَكُّ التَّلَاقِ لَا شَتَّهَتْ سَاقِي^(٦١)

(٥٤) من البسيط، القلائد ٢٧٤.

(٥٥) من البسيط الطمح ١٩١، والميلولة القطة ٦١، ص ١٥١.

(٥٦) من المتقارب، نفع ١١٢/٤.

(٥٧) من الطويل، الطمح ٣٢٠، ونفع ٣٩/٠.

● ثيرون فرانسوا Villon, F. (١٤٣١ - ١٤٣٢ م) عاش حياة مفامرة، وركب كل الأخطار والأهوال، وبعد ول شاعر غنائى

فرنسى عظيم (المترجم).

(٥٨) نفع ١١٣/٤ و ١٦٠/٤ و ٣٣/٤.

(٥٩) من السرج، الطمح ٣٤٠، وذكرنا في سبق ص ٢٩ بمناسبة الحديث عن التماثيل الشخصة أبياتاً تعبر عن الفكرة

نفسها.

(٦٠) من المتقارب، نفع ٨٦/٢.

(٦١) الحلة ٦٩/٢، وهو عبادة ٣٣/٢.

وكان الموت حاضرا في فكر ابن زيدون دائما، حتى أصبح خاطرا ملحا، لا يمكن أن يمضي دون أن يدع تأثيره فينا، يقول في ولادة:

ثَالِثُهُ لَوْ حَلَفَ الْمَشَاقُّ أَتَهُمُو مَوْتِي مِنَ الْوَجْدِ يَوْمَ الْبَيْنِ مَا حَشَوُا
قَوْمٌ إِذَا هُجِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا وُصِّلُوا مَاتُوا، فَإِنْ عَادَ مَنْ يَمُوتُهُ يَعْشُوا
تَرَى الْمُحِبِّينَ صَرَعِي فِي عِرَاصِهِمْ كَفْتِيَةِ الْكَهْفِ مَا يَمْدُونُ مَا لَيْشُوا^(٦٢)
ولكن أحدا لم يعبر عن خيبة الأمل بأفضل مما عبر عنها أبو حفص بن برد عندما يقول لتلك التي سوف تهجره:

يَا مَنْ حُرِمْتُ لِمَا ذُوقْتُ بِسِيرِهِ هَذِي الثَّوْبِي قَدْ صَحَرْتُ لِي خَدَّهَا
زَوْدٌ جَفَوْنِي مِنْ جِمَالِكَ نَظْرَةً وَاللَّهِ يَعْلَمُ إِنْ رَأَيْتُكَ بَعْدَهَا^(٦٣)

يمكن القول إن الشعر المشرقى، ونجرو على أن نضيف والشعر ذو الإلهام المسيحى فى العصور الوسطى، لا ينطوى على إيقاع أشد إثارة للتعبير عن ألم الهجر مثل ما أوردنا.

ذلك أن المعاناة، فيما يبدو، قد الحب بطاقة لا مناص منها، أو كما يقول ابن هقانا: «إن السقام والضيق دين العاشقين»، ولا شيء يستطيع أن يقى منها، لأن الحب فى ذاته شيء قدرى، وقوته تضرب خيط عشواء، على غير هدى أو بصيرة، وقد نادم المنصور بن أبى عامر يوما أبا المغيرة بن حزم فى منية السرور بالزاهرة، وغنتهم جارية تسمى أنس القلوب فتفاضلا شعرا ملوحين، أبو المغيرة والجارية، وأحس بذلك المنصور فغضب عليها غضبا شديدا، فاعتنر أبو المغيرة: «الله قنر هذا ولم يكن باختيارى»^(٦٤).

ويمكن أن نضيف إلى مفهوم الحب هذا وهو إغريقى فى بعض جوانبه، ونجده فى إسبانيا والمشرق على السواء^(٦٥)، نظرية أخرى عرقتها إسبانيا الإسلامية، ترى فى الحب قوة سحرية تمارسها الجفون الفاتكات خلال النظر، وعن الفكر يصدر سحر النبى الذى يمر عبر العيون^(٦٦). وإذا كان الشعراء لا يتحدثون غالبا عن غيره فلأنهم يخشون هذه القوة الخفية، والتي لن تكون السحر الحلال، ويجدون شاهد صدق فى أبيات ابن اللبابة التالية:

يَا مَنْ رَشَقْتُ إِلَى السُّلُوِّ فَرَدَّنِي سَبَقْتُ جَقُونُكَ كُلَّ سَهْمٍ يُرْشَقُ
لَوْ فِى يَدِي سَحَرٌ وَعَتْدَى أَخَذْتُ لَجَعَلْتُ قَلْبُكَ بَعْضَ حَيْنٍ يَعَشَقُ

(٦٢) من البسيط الديوان ١٧٦، والمعجب ١١٠، وترجمته ٩٢.

(٦٣) من الكامل المطمح ٢٠٨، ونفع ٥٤٦/٣، والبيت الأخير منها قلده أبو الحسن المصرى فى قصيدته المشهورة: يا ليل الصبا فى البيت الثامن عشر منها حيث يقول:

(٦٤) نفع ٤٢٣/١.

(٦٥) من الخفيف، وانظر القصة كاملة فى نفع ٦١٧/١، وتاريخ سلسلى إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٢٧٢، وتون شاك، شعر العرب فى إسبانيا وصقلية ١٥٠/١.

● ترجمته العربية قيد الصدور، وقمت أنا بما (المترجم).

(٦٦) ماسينيون، الحلاج ١٧١/١ وما بعدها.

(٦٧) نفع ٥٠٩/٣، والفكرة مأخوذة من بيت شعر لأبي عبد الله اللوشى.

لتذوق ما قد ذقت من لذة الجوى وترقى لى مما تراه وتشفق^(٦٨)
والفكرة التالية من ابن شهيد.

أَفَيْتُ مِنْ أَفْنَى لَهُ وَنَلَوْتُ مِنْ سُورِ الْعِزَائِمِ^(٦٩)

تظهر الروايات السابقة بقدر كاف قوة المشاعر العاطفية في قلوب الأندلسيين، وبعضهم تركنا نلمح نوعاً من العبادة يستسلم فيها الرجل لعاشق إلى سيدة أفكاره، ونتناول الآن هذا الموضوع بطريقة خاصة. وقد عبر الشعراء المشاركة عن الأفكار نفسها، فنقول ذلك ونفكر فى العباس بن الأحنف بخاصة^(٧٠)، وعاش فى عصر هاروت الرشيد، ولكنها لم تكن أبداً فيما يبدو بمثل هذه القوة، ولا بذات الكثرة، وليس لها نفس العمية. أما هنا فى الحقيقة، وفى نطاق القرن الذى تترسبه، فتكثر هذه القصائد بقدر يتطلب أن نفرزها وأن نتقن من بينها، دون أن نتأكد تماماً أن ما تركناه ليس له نفس قيمة الشعر الذى اخترناه ووردناه.

إن العاشق الجدير بهذا الاسم يعان نفسه عبداً لمن يحب، وخضوع الحر جمل مملوك للحب، كما يقول الحكم الربضى:

ظَلُّ مِنْ فِرَطٍ حُبِّهِ مَمْلُوكًا وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ مَلِكًا^(٧١)

ويصور ابن زيدون حالته الشعرية القلقة، ويبدو أنها ملمحة للميزة:

بَنَى وَهْنَكَ مَالِوْشَتَ لَا يَضَعُ سُرٌّ إِذَا ذَاعَتْ الْأَسْرَارُ لَمْ يَنْزِعْ
بَاهِائِهَا حَظَّهُ مَنَى وَلَوْ بُذِلَتْ لِي الْحَيَاةُ يَحْظِيْ مِنْهُ لَمْ أَبْعِ
يَكْفِيكَ أَنَّكَ إِنْ حَمَلْتَ قَلْبِيْ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ قُلُوبَ النَّاسِ يَسْتَطِعْ
يَهْ أَحْتَسِلْ وَاسْتَطِلْ أَصْبِرْ، دَعْرَ أَهْنُ وَوَلَّ أَقْبِلْ، وَقُلْ أَسْمَعْ، وَمُرَّ أَلْعِ^(٧٢)

ومن الذى يشك فى أن العاشق يصبح عبداً حين يقرأ الأبيات التالية للخليفة الأموى عبد الرحمن المستظهر بالله، والذى أراد أن يتزوج من حبيبة ابنة عمه سليمان المستعين فقال يخاطب زوجة عمه شنف:

جَعَلْتُهَا شَرْطًا عَلَى حُبِّي وَسَقَتْ إِلَيْهَا فِي الْهَوَى مَهْجَتِيْ نَهْرًا^(٧٣)

(٦٨) من الكامل، المعجب ١٥٢، وترجمته ١٢٨.

(٦٩) من مجزوء الكامل، الديوان ١٥٧، الذخيرة ٢٠١/١، وأحمد ضيف، بلاغة العرب ٤٥.

(٧٠) عن العباس بن الأحنف، انظر د. ج. العباسي بن الأحنف في مجلة «إسلاميك»، المجلد ٢، علم ١٩٢٦، ص ٢٧٦ - ٣٠٧، وص رقم ١٢١ من هذا الكتاب. ونجد أوتاراً مشابهة عند بعض كبار شعراء مثل المتنبي، ولكننا لن ندرسها لذاتها، وإنما نجعل منها مدخلاً للمديح والثناء. انظر: باكثير، أبو الطيب المتنبي، ص ٤٩ القطعة ١٤ البيت ١٠.

(٧١) من الخفيف، الحلة ٤٩/١، البيان العرب ٨٢/٢ النص العربي، والترجمة ١٣٠، وأعمال الأعلام ١٢، وأخبار مجموعة ١٢٤.

(٧٢) من البسيط، الديوان ١٦٩، والمعجب ١٠٦، وابن خلكان، وفیات الأعيان، ٤٣/١ النص العربي، وترجمة دى سنان ١٣٤/١ والنصى البنية ١٢٤.

(٧٣) من الطويل، الذخيرة ٥٦/١، والحلة ١٤/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

ويقول في بيت آخر:

وهبت له روعي وملكى ومهجتى ونفسى، ولا شيء أعز من النفس^(٧٤)
ويقول ابن بقل:

إِنْ كُنْتُ تَجْهَلُ أَنِّي عَبْدُ مَمْلُوكَةٍ مُرْقٍ بِمَا شَتَّ آتِيهِ وَامْتَلُ^(٧٥)

وكما يقول ابن الملح، فإن العاشق كالعبد يجب ألا يوشوش متمللاً من الصعاب التي يعاني منها؛
مبتدع الخلق لا كفاء له يعدّ شكوى صابقي رقتا^(٧٦)

وإذا لم يستطع أن يسعد بتأمل حبيبته فسوف يكفيه بهجة أن يسمع ديب صوتها. يقول أبو بكر بن
رحيم:

لَا تُسَمِّيه فَإِنَّهُ نَزَعَتْ بِهِ تِلْكَ الْخِلَالَ إِلَى هَوَاكَ زِنَاعًا^(٧٧)

وسوف يكون حظه من البهجة أكبر كثيراً إذا استطاع أن ينال منها سلاماً باليد أو الشفتين، يقول
المعتمد:

أَسْفَى أَوْدٌ وَلَا أَوْدٍ وَأَغْتَسَدِي مَا كَانَ ظَنِّي أَنْ أَجُودَ بِمَهْجَتِي وَأَرْوَحُ، أَحْفَظُ عَهْدَ مَنْ قَدْ ضَيَّعَا
يَا هَاجِرِي، وَقَدْ اشْتَقَيْنَا فَارْقُوا حُبًّا، وَأَنْتَعَ بِالسَّلَامِ فَأَمْنَا
وَهَبُوا لَعْنَةَ عَاشِقٍ لَكُمْ «لَعَا»^(٧٨)

ويقول ابن زيدون عن نفسه:

كَفَاتًا مِنَ الْوَصْلِ التَّعَيُّ خُلْسَةً فَيَرْمِي طَرَفٌ أَوْ بَنَانٌ مَطَرَفٌ^(٧٩)

وفي انتظار الحبيبة يتلمس الشاعر أى إشارة تنبئ بقرب وصولها. يقول الطرطوشي:

أَقْلَبُ طَرَفِي فِي السَّمَاءِ تَرْدُدًا لَعْلِي أَرَى النَّجْمَ الَّذِي أَنْتَ تَنْظُرُ
وَأَسْتَعْرِضُ الرِّكْبَانَ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ لَعْلِي بَيْنَ قَدْ شَمَّ عَرْفَكَ أَظْفِرُ
وَأَسْتَقْبِلُ الْأَرْوَاحَ عِنْدَ هُبُوبِهَا لَعْلُ نَسِيمِ الرِّيحِ عَنْكَ يُخَيِّرُ
وَأَمْشِي وَمَالِي فِي الطَّرِيقِ مَارَبٌ عَسَى نِعْمَةً بِاسْمِ الْحَبِيبِ سَتَذَكُرُ
وَالْمَلُحُ مِنْ أَلْقَاءُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ عَسَى لِمَحَّةٍ مِنْ نَوْرِ وَجْهِكَ تُسْفِرُ^(٨٠)

ومن هنا ليس بين الرغبة أو التعمس لكل ما يمس المحبوب أو يحيط به غير خطوة واحدة. وقد
نظم الأندلسيون فيما يتصل بهذا المعنى قصائد ذات حنان عذب، والقصائد الرعوية الإغريقية وحدها،

(٧٤) من الطويل، الحلة ١٦/٢.

(٧٥) من البسيط، القلائد ٢٨١.

(٧٦) من المنسرح، القلائد ١٨٨.

(٧٧) من الكامل، القلائد ١٢٤.

(٧٨) من الكامل، خريدة القصر في «بنو عباد» ٣٩٢/١، ٤٦٠، ٤٦١، والديوان ص ٢٠.

(٧٩) من الطويل، الديوان ٤٨٤، البيت ٢٦، وكور، ابن زيدون، ص ١٠٦. وهذه الأبيات تذكرنا بفقرة وردت في كتاب الحياة
الجديدة لدانتى: «حينئذ بحرارة بالغة، حتى أثنى، في لحظة ما، اعتقدت أنني في عالم السعادة الحقة». الفصل الثاني، تحقيق ميكيل
بياريني، فلورنسة، عام ١٩٣٢، ص ١١ - ١٢.

(٨٠) من الطويل، نفع ٨٥/٢، فون شاك، ترجمة باليرا، شعر العرب ١٢٦/١.

هى التى أتاحت لنا قبلهم، فرصة الإعجاب بها. ولتذكر مثلاً هذه الفقرة عن Daphnis et Chloe
وهى تقول: آه!، حالمة هداغيس، ألت أنا فأية كى استقبل نفعه، كم أتمنى أن أكون يعزته، وأن
يكون هو مرعاه»^(٨١).

إن الموضوع الذى يمكن أن نعوده «يا ليتنى...» عرضوا له بكثرة فى إسبانيا الإسلامية فى القرن
الحادى عشر، يقول ابن سارة مثلاً

إني لمن يحظى بقربك حاسدٌ ونواظرى يحسذن فيك رِغاعى^(٨٢)
ولكن الموضوع لحقيقى دخل العربية عن طريق الحرف «ليت»، وهو يعنى التمنى فيما يقول
النحاة، أى لرغبة والشوق. يقول ابن الدباغ:

يا ليتنى الطيرُ فى كفِّكَ عطعمُه وشربُه حين يظلم من ثَنائِنا^(٨٣)
ويقول نسيم الإسرائيلى بدوره:

يا ليتنى كنت طيراً حتى أراكا
بمن تبدلت شبرى أولم تحمل عن هواك^(٨٤)
ونفى المعتمد أن يكون رسالة تاشقة:

حسدتُ كتابى على فوزه بإبصاره الغيرة الزاهرة
فيا ليت شخصى يكون الكا ب، فتلعظه المقلة الساحر^(٨٥)

ونختم الفقرة بثالين، أولها من أبى الفضل الدارمي:

ظنيتُ إذا حرَّكَ أصداعُه لم يلتفتْ خَلَقَ إلى الصطرِ
غنى يشعري منشداً لبني اللـ حفظ الذى أودعته شعري
فكلما كرر إنشاده قبلته فيه ولم يدب^(٨٦)

والخل الثانى من ابن حزم ويضر لنا لونا متميزاً وملحاً خاصاً من الحب العميق:

وددتُ أن القلب شقٌّ بديء وأدخلت فيه ثم أطبق فى صدري
فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى مقتضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حيت فيه أمت سكنت شقائق القلب فى ظلم أعبر^(٨٧)



Longus, Daphnis et Chloé, Livre I, chap. XIV, parag. 3 (éd. Guillaume Budé, P. 12) Cf. aussi (٨١)
Les Anacréontiques, Trad. Meunier, 159, oda XX: «sur une Jeune Fille»

(٨٢) من الكامل، القلند ٢٦٠.

(٨٣) من السبط الذخيرة ٣١٦/٢.

(٨٤) من المجتذ، نفع ٥٢٢/٣.

(٨٥) من استقارب، الديوان ١٣.

(٨٦) من السرج، نفع ١١٧/٣.

(٨٧) من الطويل، طوق المعامة ٩٢، ترجمة نيكل ٩٠، طبعة برشييه ١٦٠.

ولكنها ليست ألاما دائما فيما يتصل بالمحب، وقد عبر الأعمى التطيلي في روعة بالفة عن هذين الشعورين اللذين يتتابان الشاعر العاشق:

تَأْمَلْتَنِي أَمَ الْمَجْدِ قَائِلَةً بَيْنَ أَرَاكِ أَسِيرَ الْوَجْدِ وَالطَّرِبِ^(٨٨)

وكلمة «وَجْد» توجد في أبيات من الشعر لا تخصي، وتعني «تباريح الحب، أو الحب المولم Amour douloureux»^(٨٩)، أو كلمة «طرب» ومرادفاتها مثل: فرح وسرور ومسرة. ولقد تحدثنا عن الوجد بما فيه الكفاية في الصفحات السابقة، ونذكر الآن بعض الأمثلة لتوضيح الطرب^(٩٠) الذي يحتاج الشاعر أمام فكرة العودة لرؤية حبيبته، فهذه الحالة من الابتهاج، ومن إطرأ إمكانات العاشق، لم يعبر عنها أحد قويا نرى بأفضل مما صنع الأندلسيون، مما يضفى على قصائدهم مذاقا خاصا.

يقول ابن عمار موجها حديثه إلى قينة جميلة:

نَفْسِي - وَإِنْ عَذَّبْتَهَا - تَهْوَاكِ وَهَزَّهَا طَرْبٌ إِلَى لُقْيَاكِ^(٩١)

ويقول رفيع الدولة بن المعتصم:

حَبِيبٌ إِذَا يَنَاقَى عَنِ الْعَيْنِ شَخْصُهُ يَكَادُ فَوَادَى أَنْ يَطِيرَ مِنَ الْبَيْنِ
وَيَسْكُنُ مَا بَيْنَ الضُّلُوعِ إِذَا بَدَا كَأَنَّ عَلَى قَلْبِي قَتَائِمٌ مِنْ عَيْنِ^(٩٢)

وأظهر لنا ابن خفاجة من خلال إحدى قصائده: كم هو متير لمن الحياة عنده لا تمنى شيئا غير المتعة، وقد استرد سمعته أمام أعيننا هذه الأبيات:

لَقَدْ زَارَ مَنْ أَهْوَى عَلَى غَيْرِ مَوْعِدٍ فَعَانَيْتُ بَنَرَ التَّمِّ ذَاكَ التَّلَاقِيَا
وَعَابَتِيهِ وَالْعَتَبِ يَحُلُو حَدِيثُهُ وَقَدْ بَلَغَتْ رَوْحِي لَدَيْهِ التَّرَاقِيَا^(٩٣)
فَلَمَّا اجْتَمَعْنَا قَلْتُ مِنْ فَرْحِي بِهِ مِنْ الشَّعْرِ بَيْنَا وَالدُّمُوعِ سَوَاقِيَا
وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الشَّيْئَيْنِ بَعْدَمَا يَظُنَّانِ كُلُّ الظَّنِّ أَلَّا تَلَاقِيَا^(٩٤)

ولكن الأبيات الأقوى تعبيرا فيما يتصل بهذا الأمر هي التي نظمها امرأة، هي أم ألفتنا. هل يمكن أن يدعشنا هذا:

جَاءَ الْكِتَابُ مِنَ الْحَبِيبِ بِأَنَّهُ سَيُزَوِّدُنِي فَاسْتَعْبِرْتُ أَجْفَانِي

(٨٨) من البسيط، النخبة ٧٣٦/٢، رعته قلها أحمد صف في بلاغة العرب في الأندلس ١٦٦.

(٨٩) أشار تكل في ترجمته لطوق الحمامة إلى المرات التي وردت فيها كلمة «وجد» في أشعار ابن حزم، فهي في النص العربي الذي نشره في الصفحات: ٣٩، ٤٢، ٦٢، ٧٤. وفي الترجمة في الصفحات: ٦١، ٦٤، ٦٦، ١١٤، وغيرها. وفي المواصلات ص ٢٢٩ و ٢٣١ وغيرها.

(٩٠) وهذا ما يدعوه شعراء التروبادور Joy، انظر بخاصة: كوهين، تاريخ العصر الوسيط، المجلد ٨، ص ٢١٧ و ٢١٨. وفي العصر الوسيط، ص ٣٥٤، ٣٦٠، ٣٦٢. وجانروا، شعر التروبادور الثاني ٧٤/١.

(٩١) من الكابل، الحمة ١٦٤/٢، وفي التصاريح من طبعة دوزي ص ١١٤ أَنَّ الْعَيْنَةَ تَسْمَى طَرْبِ.

(٩٢) من الطويل، المطمح ٢٢٤، والحلة ٩٤/٢.

(٩٣) التراقي جمع ترقوة، وهي عظمة مشرفة بين ثغرة البحر والحنق.

(٩٤) من الطويل، الديوان، القطعة ٣٤٠ ص ٣٦٥، ونجح ٢١٨/٢ و Ecker, Arabischer... Minnesang, 178.

● قلت: البت الأخير لقيس بن الملاح بمجنون ليلى (المترجم).

غلب أسرود على حق إنه من عظم فرط مسرقي أيكاف
 بما عين صار الدمع عندك عادة تبكين في فرح وفي أحزان
 فاستقبلي بالبشر يوم عائبه ودعي الدموع لليلة الهجران^(٩٥)

رأينا في السطور السابقة كيف يعثر الشاعر العاشق نفسه عبداً محبوبه، وأنه يمضي إلى أقصى الخيال في تبعيته، حتى إنه ينادي بحبيته بلفظ سيدي أو مولاي. ويستخدمون هاتين الكلمتين كثيراً، وبخاصة ابن حزم^(٩٦). ونلاحظ ذلك عند ابن زيدون^(٩٧) أيضاً.

ومن الغريب أن نلاحظ أن ذلك يـ في صيغة المذكر وليس في صيغة المؤنث، ولكن من الشائع المعروف أن الشعراء يستخدمون ضمير المذكر كما يستخدمون ضمير المؤنث تماماً، ليتحدثوا عن الشخص الذي يحبونه، مما يصعب معه التمييز بين الأبيات التي تشير إلى مذكر وتلك التي غايتها المرأة^(٩٨). ومع ذلك كثيراً ما يستخدم شاعر ضمير المؤنث دون أن يذكر اسم المحبوبة^(٩٩)، وأحياناً يقدم لنا الاسم ملفزاً. يقول عبد الله بن عبد العزيز لمرواني ويقال له: البطرشك Pedra Seca بالعجمية (ومعناها الحجر اليابس):

ومن لا أسميه مخافة عتية على أن قلبي مستهام بحبه
 وبعض أسميه حاء وما [...] حروف طواها [...] [....]
 عليه سلام الله مني مُردداً سلام محب جاد فيه بقلبه^(١٠٠)

ويقول ابن زيدون:

لشنا نسبيك إجلالاً وتكرمة وقدرك المُنلى عن ذاك بفتينا
 إذا انفردت وما شورك في صفة فحبنا الوصف أيضاً ونبينا^(١٠١)

(٩٥) من الكامل، نفع ٢٩٢/٤.

(٩٦) انظر طوق الحسان طبعة نيكول ص ٤٨، ٥٧، ٦٢، ٩٠، ٩٤، ورجته ص ٧٤، ٨٨، ٩٦، ١٢٨، ١٤٤، وطبعة بريشي ص ١٢٠، ١٢١، ١٣٢، ١٣٣، ١٥٦، ١٥٧، ١٧١، ٢٤٤، ٢٥٨، ٢٥٩.

(٩٧) الديوان ص ٤٨ ونفع ٢٢٨١/٣، حيث يقول:

الدمر عيني لما أصبحت في الحب عبيدك

وترجمها كور في كتابه عن ابن زيدون ٥٢، Ecker في المصدر الذي أشرنا إليه فيما سبق ص ٥٨،

(٩٨) وهو ميسم لنا إلا نعتبرها منذ اللحظة معدلاً لكلمة midons عند شعراء الرومانس.

(٩٩) انظر عن هذا الموضوع ملاحظات J. Humar في المختارات العربية، ص ٢٠٤ - ٢٠٦. وفي سائر ملاحظات عن المعنى المجازي لبعض الكلمات التي توجد في شعر العربي، ص ١٧٥ و ١٧٨، ونيكل في مقدمته لرجلة طوق الحسان ص ١٠٢ و ١١٧ و ١١٨، وهدبا في «الجغرافيون العرب»، السلسلة الخامسة، المجلد الخامس، عام ١٨٥٥، ص ٣٣٠ - ٣٦٢، (١٠٠) أن أن الأفعال والصفات مؤنثة، ويبدأ باسم مؤنث مضمحل، وهو تقليد قديم عند شعراء العرب، انظر مثلاً: القافية الجعدي في الأغاني، ٥/١٨، والعباس بن الأحنف في الأغاني ١٧/١٨. و.ج. هل في إسلاميكا المجلد ٢، عام ١٩٣٦، ص ٢٧٦.

و نيكل، كتاب الزهرة ٣١٢، ومقدمته لديوان ابن قزمان ص ٤٧ و ٤٨.

(١٠١) من لطيف، المجلد ٢/١٧٧، ولا يستطع دوزي أن يقيم بناء البيت الثاني.

(١٠٢) من لبيط، الديوان ١٤٥، ترجمة كور ص ٧٢.

ويتخذ ابن الخداد الموقف نفسه:

صنْتُ اسْمَ إلفى قَدَابًا لَا أَسْمِيهِ وَلَا أزال بِألفَاذِي أَعْمِيهِ^(١٠٣)

ولكننا نعرف أنه لم يكن يتصرف بمثل هذه الطريقة دائما، على الأقل فيما يتصل بالفتاة النصرانية التي ألهمته أجل قصائده، والاسم الفاتن الذي أعطاه لها تُويرة، يوجد في كل القصائد التي خصّها بها، ونويرة ليس اسمها الحقيقي^(١٠٤) فيها يبدو، ولم يرد ابن اللبابة أن يظهر لنا اسم الفتاة النصرانية التي أحبّها في ميورقة:

من رَأْسِي أَوْ رومية لَا عِلْمَ لِي أَتتَ عن النعمان أُمَ عن قَيْصِرٍ^(١٠٥)

وقد التزم الأمراء أنفسهم قانون الصمت هذا، ولكنهم لا ينجحون من الخروج عليه، وكان المعتمد إذا ذكر أحيانا زوجته المفضلة مكنها أُم الربيع^(١٠٦)، لكنه لم يتردد في ذكر اسمها بكل حروفه: اعتماد سواء في قصائد إذا قرئ الحرف الأول من أول كل بيت فيها كَوْن الاسم^(١٠٧)، أو كاملا في بيت من الشعر^(١٠٨)، وصنع الشيء نفسه مع محظياته أيضا. فعرّفتنا بين: سحر، وجوهرة، ووداد^(١٠٩).



ونندش من كثرة تحدّث الشعراء عن شخصية تظهر دائما لتعكر صفوهم، وهو الرقيب، هل يتصل هذا بوقع اجتماعي؟ ذلك ما نحاول أن نتبيّنه بمساعدة بعض الإشارات الواردة في الشعر. يقول المعتمد:

ثلاثة مَنَعَتْهَا عن زيارَتِنَا خُوفُ الرقيب وخُوفُ الحاسِدِ الخنقِ^(١١٠)

ويقول المعتمد نفسه في مكان آخر:

داري ثلاثة بَلَطَفٍ ثلاثة فتنى بِذاك رقيبِهِ لم يشعِر:
أُسرارُهُ بَتَسْتَرٍ وَأوَارَهُ بَتَصِيرٍ، وَخِيَالُهُ بَتَوْقِرٍ^(١١١)

كيف يمكن أن يشعر أمير مثل المعتمد بالخوف على محبوبه من الرقيب والواشي؟ سؤال يمكن أن يعرض لنا دون أن نكون مطالبين بالرد عليه الآن.

(١٠٣) من البسيط، الذخيرة ٧٠٦/١.

(١٠٤) وهو Senhal عند شعراء التروبادور، ويقول ابن بسم إلى الاسم الحقيقي لهذه الفتاة المسيحية هو: جميلة، ولا نستطيع أن نقرر أي اسم رومانتي كان يفتنى وراء هذه الكلمة، انظر: ابن بسم، الذخيرة ٧٠٨/١.

(١٠٥) من الكامل، المعجب ١٥٦، الترجمة ١٢٧، ورأمة اسم منطقة في الجزيرة العربية مشهورة بنزلاتها.

(١٠٦) من الطويل، الديوان ص ١٩، وفي الحلة ج ٢ ص ٦٠، ٦٢، ٦. وفي «بنو عباد» ٦٩/٢.

(١٠٧) من المتقارب، الديوان ص ٨، الحلة ٦٩/٢. وقد ترجمها دوزي إلى الفرنسية بالطريقة نفسها في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ص ٨٩.

(١٠٨) من الكامل، الديوان ص ٢٣، ومن الطويل، الديوان ص ١٠.

(١٠٩) انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٩٥ - ٩٦، والمصادر المذكورة هناك.

(١١٠) من البسيط، نضج ٤٢٩/٣، وانظر فيها سبق ص ٢٧٨ من هذا الكتاب.

(١١١) من الكامل، خريدة القصر في «بنو عباد» ٢٨١/١، والديوان ١٢.

في الآيات التالية يوجه ابن شعار نداءه إلى قينة تدعى طرب:

نفسى رانْ عَذْبَتِهَا نَهْواك
وَصَرْهَا طَرْبُ إِلَى نُفْياك
عَجَبًا لَهَذَا الْوَصْلِ أَصَحَّ بَيْنَنَا
مَنْعَلًا وَمُنَائٍ فِيهِ مَنَّاك
مَابَالُ قَلْبِي حِينَ رَامَكَ لَمْ يَنْلُ
وَلَقَدْ تَرَدَّدْتُ مُقَلِّى فَتَصْرَاك
لَيْتَ الرَّقِيبَ إِذَا التَقِينَا . يَكُنْ
فَأُنَالُ رِيًّا مِنْ لَذِيذِ كَدِّكَ^(١١٢)

هناك يمكن الظن أن الرقيب هو موى القنة، والوحيد الذى يستطيع أن يحول بينها وبين حبيبها.

وثمة مثل ثالث، وأخير، يسمح لنا أنه نحدد بدقة من تكون هذه الشخصية الغامضة، فقد وصف لنا

ابن عبدون انطباعاته عن اليوم الذى خرجت فيه مجموعة من النساء فى رحلته، يقول:

أُنْهَيْتُ مِنْ فَرَقِ الْفِرَاقِ نَفْسًا
وَتَرْنُ مِنْ دُرِّ الدَّمُوعِ نَقِيبًا
فَنَبَيْتُهَا نَظْرَ الشَّجَى فَحَدَّثْتُ
رَقِيبًا نَحْوَى عَيْونًا شُوسًا

أليس الرقيب فى هذه الحالة هم الأزواج؟

نستطيع من الأمثلة التى سبقت أن نستنتج منطقيًا أن الرقيب هو الرجل الذى له الولاية الأولى

على المرأة طبقًا للشريعة الإسلامية، ومن الزوج غالبًا عندما تكون المرأة حرة، وأحيانًا مولاهما عندما

تكون قينة، ولكن ما أخاف المعتمد، دين أدنى شك، زواج غيور. وهكذا فى هذا المجتمع الإسلامى،

البالغ الصرامة فيما يتصل بالزوجات اشترعات، فإن المرأة المتزوجة تتلقى التكريم من رجل ليس

زوجها. هل ما يقوله الشعراء محض خيال، أم على النقيض، كانوا يفعلون عكس العادات الجارية؟

نميل إلى الاعتقاد بأن ما قالوه لم يكن كله لعبة خيال منهم، وهنا نجد برهانًا آخر على الحرية التى

كانت تتمتع بها المرأة الأندلسية فى القرن الحادى عشر.

ولكن الرقيب فيما يرى ابن حزم يتكهن أن يكون مجرد فضول، أو منافس، أو رقيب بأجر من قبل

السيد^(١١٤).

والرقيب بمناء الحرفى «العس»، وجمعه «العسس»، وهو ما يمكن أن نجده فى بيت من لشعر عند

أبى عامر بن شهيد، يقول:

وَلَا تَقْلُ مِنْ سُكْرِهِ وَنَامَتْ عَيْونُ الْعَسِّ^(١١٥)

(١١٢) الحلة ١/٦٦٤، وفى التصويبات من طبعة دوزى ١١٤، وقد ذكرنا البيت الأول فقط ص ٣٧٣ من هذا الكتاب.

(١١٣) من لكامل، نفع ٢٠٥/٤.

(١١٤) طرق الحمامة ص ٨٠ - ٨٢، وفى مجلة نيكل ٧٣ - ٧٦، وفى طبعة برشيه ١٢٨ - ١٣٥، وترجمة Ecker ص ٢٣ -

٢٦، ويظنون أن الرقيب قريب من معنى garfador عند شعراء التروبادور. انظر: نيكل فى مقدمته لترجمة طرق الحمامة ص ١٠٢،

والملامش رقم ١١٧، ومجلة Arcanum Romanicum، المجلد ١٩، العدد ٢، أبريل - يونيو ١٩٣٥ ص ٧، وكلمة Lauzengier

عند شعراء التروبادور أيضًا. انظر Ecker فى المصنف نفسه ص ٢٨ - ٢٩، وق. ج. كوهين فى فن لصير الوسيط، ص ٣٥٨ و ٣٦٨

و ٢٧٤. وجدنرو، شعر التروبادور القناني ٧٤٠٦.

(١١٥) من استقارب، الثقلنى، وسأله فى لغف الأندلس، نفع ١٩٨/٢، وترجمة غرسية غومت لها ص ٦٦، وابن سعيده عنوان

المرقصات ٥٩، و Ecker، المصدر المذكور ص ١٩٩، وثمة حكاية مثيرة أوردتها لنا ابن حزم ومزادها أن العسس كانوا ينصرفون فى

ساعة معينة من الليل، وأن سيدة البيت أرادت أن تقيم وحدتها، لأن زوجها كان خارج البيت لأمر مهم، لكن توقع فى حباته ضياع

بالغ الشباب والجسمال. انظر: طرق الحمامة ص ٦-٢، ترجمة نيكل، طبعة برشيه ٢٧٤.

وإذا كان المحب غيورا على محبوبه، فهو أيضًا غيور من سعادته، ويقال أن المعتضد^(١١٦) كان .. غيورًا جدًا، ويقول أبو حفص بن بُرد:

قلبي وقلبك لا محالة واحدٌ شهدت بذلك بيننا الألفاظُ
فتعال فلننظِّمَ الحسودَ بوصلنا إنَّ الحسودَ يمثُلُ ذاكَ يفاظُ^(١١٧)

والشخصية الأخرى التي تلعب دورا هاما، بعد الرقيب، في حياة العشاق هو الواشى، وهو الذى يحاول التفرقة بين المتحابين منتقضا الرجل أمام المرأة، يقول ابن زيدون:

لما اتَّصَلتِ انصالَ الخَلْبِ بالكَيْدِ ثم امتزجتِ امتزاجَ الرُّوحِ بالجَسَدِ
ساة الوشاة مكافى مِنكِ، واتقدت فى صدرِ كلِّ عدوِّ جمرَةَ الحَسَدِ^(١١٨)

وإذا كان الواشى يحاول أن يثير الحبيبة ضد الحبيب، فإن العاذل تحت قناع الناصح المخلص يعلم بأن يلعب الدور نفسه إلى جانب المحب، ومن جانب آخر فإن هذا الدور يمكن أن يقوم به رجل أو امرأة على السواء. يقول ابن مقان:

وأناجى فى الدجى عاذلى وبيك لا أسمع قولَ العاذلين^(١١٩)

والرجل المشتعل حيا يصدق لا يأخذ في الاعتبار المنمات والنقائص التي يوجهها العاذل إلى محبوبه، يقول إبراهيم الحجارى، جد الحجارى المؤرخ صاحب «المسهب»:

كُنْ كما شئتَ إنَّنى لا أحولُ غيرُ مصغٍ لما يقولُ العذولُ^(١٢٠)

إن خضوع الشاعر للحب لا يتطلب بالضرورة أن يتخلى نهائيا عن كل قدراته أمام طغيان المحبوب.

ومن الضروري أن نوضح أن الكلمات التي تعبر عن تحكيم الحب، أو تدخل قانون الحب، تردّد بكثرة عند شعراء مثل: الرمادى وابن عمّار والمعتمد ورفيع الدولة في صيغة: حَكَمَ بين وبين، أو حكم الهوى بالعدل، أو حكمه فى مهجتي حسنه، أو حكم الحب، أو دين الهوى.

(١١٦) من الطويل، الحلة ٤٤/٢، وهو عباد ٥٧/٢.

(١١٧) من الكامل، نفع ٥٤٥/٣، وانظر أيضا طرق الحماة ص ٩٧ وترجمة نكل ٩٦، وطبعة برشية ١٧٠، ويقابل كلمة الحسود لفظ eneejos عند شعراء التروبادور.

(١١٨) من البسيط، الديوان ١٦٨، وكان أبو الصلت أكثر صراحة حيث يقول:
قالوا: نبي عنك بعد البشر صفحته فهل أصاخ إلى الواشى فثبته
فقلت: لا بل درى وجرى بماوضه فردّ صفحته عمدا لأبصره
وهى من البسيط، نفع ٤٨١/٣.

وعن الواشى بلمة، والمقارنة بينه وبين Isu Zengier عند شعراء التروبادور انظر: طرق الحماة ص ٨٢، وترجمة نكل ص ٢٧٧، وطبعة برشية ص ١٢٤، وترجمة Ecker ص ٤٢، وبلشير، أبو الطيب المتنبي ص ٤٩، والماش رقم ١.

(١١٩) من الرمل، نفع ٤٣٣/١.

(١٢٠) من الخفيف، نفع ٤٢٥/٣، وعن العاذل انظر: طرق الحماة ص ٧٦، وترجمة نكل ٦٧، وطبعة برشية ١١٨، Ecker Arabischer... Minnesang ص ٤٩، ور. باسيه، مرآة النسخ البوسرى ص ١١. ويتحدث ابن قزمان كثيرا عن العاذل أيضا، انظر: ديوان ابن قزمان، طبعة نكل، القصاصد ١٣ و ٣٢ و ٤٦ و ٦١.

وإذا كان لشاعر المشرقى العباس بن الأحنف، المتوفى نحو ١٩١ = ٨٠٦، وجد التعبير الذى اشتهر: سلطان الهوى^(١٢١)، فإنه لم يخف حد تشخيص الحب كما فعل الشعراء الأندلسيون، فأوجد أبو عامر بن مسلمة تعبير «ملك الصبا»^(١٢٢)، وابن خفاجة «داعي الصبا»^(١٢٣)، وابن حمديس «ملك الهوى»^(١٢٤)، ولم يذهبوا بعيداً جداً فابتدعوا إله الحب.

لقد تمخّلوا لحب ملكاً يستطيع أن يغير الأمور بعدل، ولكنه لا يمكن أبداً أن يصل إلخ حكم نهائي يسعد الطرفين، حتى عندما يكون المحب هو الذى طلب التحكيم، ويعرف سلفاً أنه سوف يكون مداناً طبقاً لحكم الهوى، وقد ردّ الخليفة سليمان المستعين على أبيات العباس بن الأحنف التى يتحدث فيها عن سلطان الهوى، يقول:

حاكمتُ فيهنّ السلوُ إلى الضنى فيقضى بسلطانِ علي سلطان
لا تعذلوا ملكاً تذلل لمهوى ذل الهوى عزُ وملك ثان^(١٢٥)

وقد أظهر أبو القاسم بن العطار أزعجاً لعدالة الحب تختلف عن عدالة البشر، لأن الأولى تنهض على مفاهيم ثقافية خالصة، على حين أن الأخيرة تقوم على النقل. يقول:

دينُ الهوى شرعُه عقلٌ بلا كُتب كما مسائله ليستُ لها حُجج
لا العذلُ يدخلُ في سمرِ المشرقِ ولا شخصُ السلوُ على بابِ الهوى يلج^(١٢٦)



وبدل أن يستند الشعراء إلى جوهر الحب فضّلوا أن يخضعوا لحالاتهم لرجال مثلهم، ولكنهم بحكم وظائفهم متمكنين تماماً في البحث عن الحلول الأقرب إلى العقل والقانون، وأعطى بهم الفقهاء، وكان القاضي منذر بن سعيد البلوطي، المتوفى ٣٥٥ = ٩٦٦ أول من يُستشار في مثل هذا النوع من القضايا، فيها يدو^(١٢٧)، وفي مطلع القرن الحادى عشر سأل أبو الفضل الدارمي في بلاط المأمون بن

(١٢١) ديون العباس بن الأحنف ص ١٦٢. وتنسب أيضاً إلى هارون الرشيد، وانظر أيضاً: الحلة ٩/٢، البيان المغرب ١١٨/٢، والمعجب ٤٦، وترجمته ٣٨، وأعمال الأعلام ١٢٢، ونفع ٤٣٠/١، وريبراه موسيقاً مدائح المنزه ٨٧، وبرجت هذا التعبير عند المحافظ في البيان والتبيين، طبعة السندوبى ١٧٣/١، ويقول: «قال رباني: القلب ضعيف، وسلطان الهوى قوى، ومدخل خدع الشيطان خفى».

(١٢٢) من الكامل الطمح ٢٠٦، ونفع ٥٤٥/٣.

(١٢٣) الديوان، القطعة ١٦٥، ص ٢١٩، البيت رقم ٣٠، نفع ٥٣٩/١ البيت ١٣.

(١٢٤) الديوان، ص ١٥٥، القطعة ١١٠، البيت ١٩.

(١٢٥) من الكامل، المعجب ٤٥، وترجمته إلى لفرنسية ٣٨، والحلة ٩/٢، والنخبة ٤٧/١، والبيان المغرب ١١٨/٣، وأعمال الأعلام ١٢٢.

(١٢٦) من البيط، القلائد ٢٨٧.

(١٢٧) نفع ٣٢/٢. وكان أحد الأدباء قد كتب إليه في هذه القضية بهذين البيتين، وهما من الرجز:

مسألة جئتكَ مسفياً عنها وأنت العالم المستشار
علامَ غمر وجوه الظبا وأوجه العشاق فيها اصفرار

فأجاب منذر بقوله:

احمر وجه الظبي إذ لحظه سيف علي العشاق فيه احمرار
واصفر وجه الصبّ مائى والشمس تبقى للمنيب اصفرار

« ذى النون أمير طليطلة أسره الأمير عن موضوع الورود التي تنفتح في وجنة المحبوب بتأثير نظرات المحب:

يَزْرَعُ وَرْدًا نَاضِرًا نَاطِرِي فِي وَجْنَةٍ كَالْقَمَرِ الطَالِعِ
أَمْنَعُ أَنْ أَقْطِفَ أَزْهَارَهُ فِي سُنَةِ الْمَخْبُوعِ وَالتَّابِعِ
فَلَمْ مَنَعْتُمْ شَفَتِي قَطْفَهَا وَالْحُكْمُ أَنَّ الزَّرْعَ لِلزَّارِعِ^(١٢٨)

وكانت هناك أربع إجابات في الحقيقة عن حالة الحب هذه، ولو أنها جاءت متأخرة، مستخدمين جيل فتوى فقهية غرامية، مع احتفاظهم دائمًا بالإيقاع الممتاز للحوار الأكثر أدبًا. وقد وصلنا من إسبانيا الإسلامية في القرن الحادي عشر فتويان، الأولى أصدرها ابن حزم، وكان يعتبر في ذلك الوقت الفقيه الأكثر علمًا في النقه والحب على السواء، ولن نذكر له إلا هذا البيت:

أَيَحْرُمُ أَنْ نَالِنِي قَبْلَهُ غَزَالٌ تَرَشَّفُ فِيهِ الْغَزْلُ؟

ويرد ابن حزم في نفس الإيقاع خفيف الدم، وبنفس القدر من الأبيات التي تضمنت السؤال، ولن نذكر إلا البيتين الأخيرين منها، لأنها، فيما نرى، تشير إلى بعض الفقهاء الأكثر شهرة في الغرب الإسلامي:

فَقِي أَخَذَ أَشْهَبَ عَنْ مَالِكٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنِ الْغَيْرِ قُلُ
بَتَرَكَ الْخِلَافَ عَلَى جَمْعِهِمْ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ حَلٌّ وَبَلْ^(١٢٩)

والاستشارة الثانية أعلنها شاعر مجهول من الأندلس^(١٣٠)، وتقدم بالسؤال مباشرة إلى محبوبه:
أَطَاظُكُمْ تَجْرُحُنَا فِي الْحَشَا وَلِحَظْنَا بِمُجْرَحِكُمْ فِي الْخُدُودِ
جُرْحٌ بِجُرْحٍ فَاجْعَلُوا ذَا بِنَا فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ جُرْحَ الصَّدُودِ^(١٣١)
وقد تولت الرد عليه امرأة؛ ولادة بنت المستكفي:

أَوْصِيَهُ مَنِّي يَا سَيِّدِي جُرْحٌ يَخْدُ لَيْسَ فِيهِ الْجُودُ
وَأَنْتَ فِيمَا قَلْتَهُ مُدْعٍ فَأَيْنَ مَا قُلْتَ وَأَيْنَ الشُّهُودُ^(١٣٢)

هذا الحوار حول الحب في إسبانيا الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي لابد أن يدهنا إلى التفكير في «محاكم الحب» التي ازدهرت في فرنسا فيما بعد.



(١٢٨) من الريح، نفتح ١١٢/٣، و ١٦٧ - ١٦٦ Mimme sang, Arabisch er... Echter,

(١٢٩) من المقارِب، نفتح ١٦٠/٤.

(١٣٠) ينسبها نفتح ١١٥/٤ - ١١٦ إلى شاعر من الجزيرة الخضراء أو إلى ابن شرف، وينسبها ابن دحية إلى أمة العزيز الريحانة الحسبية، الطرب ص ٨، وعنه نقلها نفتح ١٦٩/٤.

(١٣١) نظر المصدر التي في الهاشم السنين.

(١٣٢) من السريع. سمى ابن بانه هذه الأبيات تولادة، وكذلك درزي في فهرس المخطوطات الريحانة في مكتبة أكاديمية

Lugduno Bataviae ٢٤٥/١، وعنه نقلها بيرتشوندي وسميونيت، في «منتخبات عربية» ص ١٢٦، القطعة ١٣٨، ونسبها نفتح

الطيب ١٧٠/٤ إلى أبي الفضل قاسم العتباتي وكان معاصرا للسري.

لو لم تختلط اندفاعات الشعراء نحو من يحبون باهتمامات شهوانية ليدت رائحة للغاية، ولكن يجب أن نعترف بأن الكثيرين منهم كانوا يرون أن المتعة الحقيقية الوحيدة التي يبحثون هي التمتع بحضور المحبوب. وهذه العفة، وهي الملمح الوحيد الدال على احترام الرجل للمرأة التي يفكر فيها، نجدها موقفا طبيعيا عند بعض شعرائنا الأندلسيين، وفي القرن العاشر الميلادي قال أبو عمر بن فرج الجياني:

وطائفة الوصال عفتُ عنها وما الشيطان فيها بأطاع
بدت في الليل سافرةً فانت دياجي الليل سافرة النعاع
وما من لحظة إلا وفيها إلى فتن القلوب لها دواعي
فمِلْتُكُ التَّهَى جمعات شوقى لأجبرى بالعفاف على طباعى
وبت بها مبيت الطفل يظلم فيمنعه الفطام من الرخاع
كذلك الروض ليس به لثلى سوى نظير وثم من منع
ولست من السوائر مهملات فأخذ الرياض من المراعى^(١٣٣)

وفي القرن الحادي عشر، على الرغم من ارتفاع العادات، وربما بسبب سهولة تحقيق تح، أعطى الإسباني المسلم الانطباع بأنه يشاق لحظة حب عفيف مصقول، ليس فيها مكان لغير القلب والروح، ويشبه أبو الفضل بن شرف حبيبته بالحديقة:

إِنْ نَلْتُ رِيَّاهُ لَمْ أَطْعَمْ بِطَعْمِهِ لِأَنَّ رَوْضَ الصَّبَا نَوْرٌ بِلَا شَمْسٍ^(١٣٤)

وعندما وصف ابن الأثير الخولاني لب أمضاها رفقة محبوه يقول في أبيات تذكرنا بأبيات ابن فرج الجياني:

أردتُ توسيده خدي وقلَّ له فقال: كُفَّكَ عِنْدِي أَفْضَلُ حَسْبِ
فبات في جرم لا غدر يذعره وبث ظمآن لم أضُرُّ رَمِ أود
تحير الليل منه أين مطلقه أما دوى الليل أن الهوى في عضدي^(١٣٥)

وقد لنا ابن خفاجة الأسباب اخلفية لعفته:

فلئنني والعفاف من يسمى أبى الدنيا وأعشقُ المسنة^(١٣٦)

أليس من الأفضل أن يحل اتحاد الآواح من خلال الفكر حال اللحظة، وفي الأحلام أثناء النوم، محل الصلة الحسية؟ إن ابن حزم يترك الحب على هذه الطريقة:

(١٣٣) من الوافر، المطمح ٢٢٥، والشندي رسالة في فضائل الأندلس، في نفع الطب ١١٦/٢، وترجمة غريغوريت ١١٦ ص ٦٣، وأوردتها نفع الطب مستقلة مرة أخرى ٤٣٧ ص ٤٦/٤. وردد الجياني الفكرة نفسها في قصيدة أخرى من الوافر، توجد في المطمح ٣٣٥، وأوردتها نفع الطب مرتين، الأولى في ٤٣٧/٣ والثانية في ٤٨/٤.
(١٣٤) من السط. القلائد ٢٥٤

(١٣٥) من البسيط، ابن خلكان، وفیات الأعيان ٤٤/٦، وترجمة دى سلان ١٢٥/١، الأبيات: ٦ و ٧ و ٨.
(١٣٦) من المنسرح، الديوان، اللقطة ٧١ ص ١٢٢، وما نفهمه من ابن خفاجة يسمح لنا أن نقرر بأن «الصفاء» فيها براء، وآخرون كثيرين، ليس الاحتياج الكامل، أي «الصحة» كما نفهمها نحن طبقا للمفاهيم العربية، وإنما تعني الإخلاص للمرأة نفسها وواحدة.

أغار عليك من إدراك طرفي وأشفق أن يذيقك لمس كفى
فأمتنع اللقاء حذار هذا وأعتد التلاقي حين أغشى
فروحي إن أتم بك ذو انفراد من الأعضاء مستتر ومغشى
ووصل الروح النطف فيك وقعا من الجسم المواصل ألف ضعف^(١٣٧)

هل نحن بصدد الحب الأفلاطوني، أو على الأقل الحب العذري، والذي يُنسب إلى قبيلة بني عذرة العربية في شبه الجزيرة العربية^(١٣٨)؟ يمكن القول إن الأمر على هذا النحو لأن ابن سارة يستخدم الكلمتين معا، العذري والعفاف، لكي يحدد فكره:

وزائر زار في ليل بكتفه فقام عندي إلى صبح كفرته
ناسته والهوى العذري ثالثا والراح تنضح في عقلي كفتيه
لما تدارل منها فوق حاجته وميال كالخصن محتاجا لنومته
عفت عنه عفاف الحى مقتبرا وعفة المرء فضل عند قدرته^(١٣٩)

وقد ذهب الأندلسيون بعبادة المرأة إلى حد بعيد جدا، ويمكن القول بحق أن الشعراء لم يصنعوا شيئا أكثر من أنهم عكسوا أفكار مجتمعاتهم وإذا كان لكثير من معاصريهم أفكار مختلفة فقد استطاعوا تحت تأثير هذا الأدب المصفى دائما أن يعدلوا موقفهم إزاء المرأة، وأن يقووا في أنفسهم علاقتهم بها، لكي يجعلوها تبرز أكثر صفاتها الطبيعية، أو إن شئت الدقة لتكون أكثر فطنة، وألطف رقة، وأروع تهديا، وأصلف ذوقا. هل لنا الحق أن نطلق كلمة «عفيف مهذب Courtoisie» أمام هذا الاحترام الفروسي للمرأة؟ الحق أننا نجد في تقدير المرأة هذا عناصر كثيرة من الحب المهذب كما حلله دين في دراسة قريبة^(١٤٠): لقاء حار، وقرى للضيف، ووفاء وإخلاص، وحلاوة وسهجة وحب، ولكن عبثا نبحث عن التناقض بين الحب المهذب والمنتدئ كما هو في العصر المسيحي الوسيط، والنماذج المحمودة في أسبانيا الإسلامية ليست مميزة للطبقة المتميزة، أنها تمتد في كل مكان، وتظهر عفويا، ملونة هنا وهناك بالسخرية البريئة، وبالتريبة المصقولة، وليست مفرطة في المجاملة أبدا. وهذا شيء مؤكد، حتى أن

(١٣٧) من الوافر، الطوقى ١٢٢، ترجمة نيكل ١٤٦، طبعة برشيه ٢٥٢، وفيها يرى ابن داود الأصفهاني وقد سقى ابن حزم، فإن النمل الأعلى للحب، كما أظهر ماسينيون، ليس في الملكية المشتركة التي تجمع بين جسدين، وإنما في التخلي المتبادل حيث تخلد الرغبة، الخلاج ص ١٨٠.

(١٣٨) انظر حول هذا الموضوع لأب لاسس، مهد الإسلام ١٨٩١/١ و ٢٨٩. وبخاصة ماسينيون، الخلاج، وقد ألفه عام ١٩١٤ ونشره عام ١٩٢٦، ص ١٧٣ و ١٧٩ و ٦٩١، الخامس رقم ٤ و ٧٩٧ الخامس رقم ٤، وقد أوضح ماسينيون أن نظرية «الحب الأفلاطوني» (وكانت موضع نقد الملاحظ منذ مولدها...)، وقد تلقاها ابن حزم من المذهب الطاهري لمؤسسه ابن داود، أخذ بها بعض علماء العقيدة الآخرين، وبخاصة الأخناف، وفي إسبانيا لا يد أن هذا الحب كان بين أسياح عنصرة أخرى، انظر: آسين بلاتيروس، ابن حزم ٤٨/٦ - ٦٣.

● لتكملة الفكرة يمكن العودة إلى كتابي: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحاملة، ط ٣ ص ١٨٩ - ٢٠٩، دار المعارف القاهرة ١٩٨١، (المترجم).

(١٣٩) من البسيط، ابن ليون، لح السحر، الورقة ٣٧ ب، ولم نجد تعبير الحب «العذري» إلا مرة واحدة فقط في ست لامين عمر من شعراء للقرن التاسع الميلادي، في نفع الطبيب ١٤١/٣، وسخر ابن قزمان في أحد أربجائه من الحب لأفلاطوني، الديوان، القطعة رقم ١٣ الدور ٣.

(١٤٠) هـ دين، الحب العفيف في العصور الوسطى، باريس ١٩٣٦.

الأندلسيين ليست لديهم كلمة أخرى للتعبير عن لطف العادات هذا، وعن هذه النزعة الطبيعية، وهي الظرف أو الأدب، وكلاهما قديم، وكأنا يحورن في القرون الإسلامية الأولى، بعد أن استقرت حضارة الإسلام في المدن، عن فكرة الأناقة الطبيعية، وقد امتزجت بالمعارف المتنوعة التي تقبل فكر، حيا وذهنا حاضرا. يقول صاحب لسان العرب اعتمادا على لغوي قديم: الظريف مشتق من الظرف بمعنى الوعاء، أي كما لو كان الإنسان يستخدم وعاء للأدب ومكارم الأخلاق^(١٤١). يبين المؤلف نفسه، في الوقت ذاته، أن ذلك لا يطلق فقط على لشبان والشابات، إذ يمكن أن يكون المرء في الأندلس ظريفا في أية مرحلة من مراحل العمر، أي «رجلا عفيفا ومهذباً»، وبخاصة حين يفرق بوضوح بين الأسلوب والتوق في الأفعال الأكثر جمالا ونزاهة، حيثئذ يمكن أن يستحق هذا الوصف. ويحكى المحصرى أيضا، وكان أعمى، قصة ليلة أمضاهها مع صديقه:

قالت: وهبناك مهجتي فخذ ودع الفرائش وتم على فحذي
وثبتت إلى مثل الكشيبي يدي فاجبتها نعم الأريكة ذي
وهبت لكن قال لي أدبي: بالله من شيطانها استعذ
قالت: عفت فعت، قلت لها: منذ شئت بالذات لم ألت^(١٤٢)

ويجمل الأعمى التطيلي صديقه، وهو يسر إليها خجلا بما يعاني، تقول:
فأعرضت ثم قالت: قد أسأت بنا ظنا، أيجمل هذا من ذوى الأدب
وهو لا يتردد أن يؤكد:

لله مثلي ما أدنى سجيته من المعالي وأتأها عن الرئب^(١٤٣)

ثم أليس مارسه الخليفة المستظهر بالله في البيت التالي من الشعر، وقد توجه به إلى ابنة عمه حبيبة، صورة موجزة للرجل العفيف:

جمال وأدب وخلق موطأ ولفظ إذا ما شئت أسمعك السعرا^(١٤٤)

وبالأدب والظرف حاول ابن زيدون أن يصف نفسه:

لا افتنان كافتني في حلي الظرف الحسان
خصني بالأدب الذي فأغلى فيه شاني
خاطري أنفذ - مهما قيس - من حد السنان^(١٤٥)

إن الحب الذي رأينا في التحاليل السابقة بعض ملامحه المميزة يظل وصفه ناقصا إذا لم نعرض لما

(١٤١) لسان العرب ١١/١٢٢، وعن المعنى الدقيق لكلام الأخلاق انظر: دائرة المعارف الإسلامية، الملحق، الكتب ٢ ص ٣، وكتب المائة بشر فارس.

(١٤٢) من الكامل، الذخيرة ١٤١/٢ و١٤٢، ولغوي، نكت الغميان ص ٧٣.

(١٤٣) من البسيط، أحمد ضيف بلاغة العرب ص ١٦٦.

(١٤٤) من الطويل، الذخيرة ٥٦/١، والمجلة ١٤/٢ وتاريخ سلسي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣٢٥.

(١٤٥) من الرمل، اديوان ٥١٥، وانظر أمثلة أخرى لكلمة ظرف في سبق ص ٢٥ و ٦٧ و ١٥٧ وفيما بعد، ص ٢٨٩ من هذا الكتاب.

يمكن أن يكون النقطة الجوهرية، أريد أن أقول قيمته تشريفًا. لأن الألم الذي يحسه المحب لا يذهب عبثًا، والعبودية التي يخضع لها الرجل الحر قوة قادرة على كل شيء وليست ذلك، يقول الخليفة سليمان المستعين:

لَا تَعْبُدُوا مُلْكًا تَذُلُّ لِلْهَوَى ذُلُّ الْهَوَى عِزٌّ وَمُلْكٌ ثَانٍ (١٤٦)

إن الحب يحو الفوارق الطبقية، ويرفع العامة إلى مستوى الخاصة، ويجعل من المحب المغفور النسب في مستوى نبل سيده أفكاره. وما من أحد يمكن أن يعبر عن خصائص هذا الحب المشرف مثل ابن زيدون الذي أحب ولادة بنت الخليفة المستنكفي:

مَاضِرٌ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاهُ شَرْفًا وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا (١٤٧)

وعيسى ابن عمار بعيدا في محاورته النقاط نفس الجوهر في عظمة الحب:

جَاهُ الْهَوَى - فَاسْتَعْرَهُ - عَارُهُ وَنَعِيمُهُ - فَاسْتَعَذَّبَهُ - أَوَارُهُ
لَا تَطْلُبُوا فِي الْحُبِّ عِزًّا إِنَّمَا عِبْدَانُهُ فِي حُكْمِهِ أَحْسَرَارُهُ (١٤٨)

ألا يعني ذلك، في ضوء هذه المقابلة المدهشة، أن الألم والتذلل يشرفان الرجل المحب، وأنتا لا تقع في الفوارة حين نرى فيه مفهوما مسيحيا؟ إن الشعر الأندلسي، في بعض مجالاته، ذوق إيقاع خاص به يجعله المشرق، وبرهنا على ذلك في مناسبات عديدة، ورغم أنه يقلد الأدب العربي في أشكاله التي تعود إلى العصر الجاهل أو القرون الإسلامية الأولى حاول أن يؤكد أصالته بطريقة نوعية، حين يعبر عن مشاعر هله وأفكارهم، وسنرى مزيدا من هذه المظاهر في الفصول التالية.



لا تقدم الصفحات السابقة غير جوانب الحب الرئيسية، كما هو حقا وكما يدركه الرجال. ويمكن أن نسأل، وهو سؤال مشروع، عما إذا كانت المرأة لم تعبر بنفسها عن أفكارها حول شعور، هو بطبيعته، يسهن بعنف أقوى وعمق أشد.

يكر أن نوضح، في المقام الأول، أن الشاعرات الأندلسيات، وكن كثيرات بدءا من القرن التاسع وحتى القرن الثالث عشر، عكسن بصدق الأفكار الاجتماعية والدينية التي كانت سائدة في عصرهن، وحتى نهاية القرن العاشر كن يشغلن أنفسهن بالعلوم اللغوية أو الدينية، وكان من بينهن فقيحات وزاهدات، والأغلبية منهن عملت في كتابه المصاحف (١٤٩)، ذلك أن العادات في قرن كان فيه على المنصور نفسه أن ينحني أمام الفقهاء ما كانت تسمح للمرأة أن تستجيب بصورة ما تراه يتفق مع طبيعتها، وأن تعبر عن المشاعر التي تحس بها في عقوبة كاملة ومرغوبة. وأما في القرن الحادي عشر فكانت المرأة تهدف إلى أن تحتل مكانا في الصف الأول من المجتمع، وقد جعل منها ازدهار الشعر

(١٤٦) انظر ص ٣٦٨ من هذا الكتاب، المامش رقم ١٢٥.

(١٤٧) من البسيط، الديوان ص ١٤٥، أليت ٢٩ من النونية، وكور، ابن زيدون ص ٧٢.

(١٤٨) من الكامل، المصعب ١١٢، وترجمته ٩٥.

(١٤٩) كن يالربى الشرمي من قرطبة منه وسبعون امرأة، كلهن يكنن المصاحف بالخط الكوفي. انظر: المصعب ص ٣٧٣.

وترجمته ص ٣١٥.

العاطفى كأننا ناضجا ومثاليا، وأظهر لنا أن امرأة الأندلسية، رغم أنها منفية في الحريم وأنها تتمتع بحرية نسبية، كانت تشعر مثل الرجال تقريبا، تطالب مثلهم بحقوقها في الحياة، ولم يكن لدى ولادة، كما رأينا، أية أسباب تجعلها تحسد الحرية التي يعيشها عشاقها، كابن زيدون وابن عبدوس، وأحيانا كانت الكلمات التي توجهها إليهم تشهد لها بحرية تكاد تكون تامة في مواجهة «الجنس الخشن»، وعلاقتها بامرأة أخرى، هي مهجة، وليس هناك أدنى شك في هذا، إذ تشهد عليه بعض أبيات شعرها^(١٥٠)، تظهر أنها كانت تسخر من لمواضع الاجتماعية القائمة، هل يمكن أن يكون الحب في نظر امرأة رجلة مثل ولادة شيئا آخر غير الحب المادى؟ وعندما بدأت علاقتها بابن زيدون عبرت عن انفعال قوى ومتوهج، فهل كانت تومئ إلى مساعدة التي تحلم بها فعلا ولكنها تتخفى وراءه؟

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فبأنى رأيت الليل أكنم للسرى
وبى منك مالو كان بالشمس م تلج وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يبر^(١٥١)

ثم نحن بإزاء عاشقة تظهر الغيرة من هوى عابر لابن زيدون مع جارية سوداء لها^(١٥١)، ولم تلبث أن فاض بها الملل، ولكى تقطع ولادة الغصة بن أملها بلغ بها الحد أن تكتب أبياتا من لشعر غير محتشمة، وهى تظهر، ربما أوضح من علاقاتها غير السوية، الحرية التي كانت تحتفظ بها لنفسها أمام الجنس الخشن^(١٥٢).

وقد أظهرت مهجة صديقة ولادة الخشونة نفسها في علاقاتها مع الرجال، ووجدت في ولادة ساذجة جيدة^(١٥٣)، ووراء هؤلاء المسترجلات اللاتي أعطين قليلا من قلوبهن مجموعة من النساء يتجسد فيهن حقا لطف الأندلسيات وتنتهن.

لقد ذكرنا فيما سبق أبياتا لأُم الهنا^(١٥٤)، تختلط فيها البهجة بالدموع، وهى شاهد صدق على أن شعورها كان فى قمته، وابنة المعتصم صاحب المرية الأميرة أم الكرام، التي عشقت فتى جميلا من دانية يدعى السمار، أى يانع القرنفل، أو صنعه أو الحداد الذى يصنع المسامير، وهى تعبر عن حبها فى كلمات بسيطة ولكنها مثيرة:

يامعشر الناس ألا فاعجبوا بما جنَّته لوعة الحب
لولا لم ينزل بمدير الدجى من أفقه العلوى لسترب
حسبى من أهواه لو أنه فارقنى تابعه قلبى^(١٥٥)

وقد تركت لنا أم العلاء بنت يوسف الحجازية بعض المقطعات الشعرية، وفى بعضها تنحيدنا على دلالها امرأة، حين ترد فى الحقيقة على رجل أشيب عشقها وطلب الزواج منها:

(١٥٠) نفع ٢٩٣/٤، و٦٣٣/١ والمشمس ج من الطبعة الأوربية.

(١٥١) من الطويل، كور ابن زيدون ٢٣، ونفع ٢٠٦/٤.

(١٥٢) كور، المصدر السابق ٢٨، ونفع ٢٠٤/٤، وص ٢٣٩ فيها سبق من هذا الكتاب.

(١٥٣) كور، المصدر السابق، ص ٤٩ - ٥٠ ي المدمش.

(١٥٤) نفع ٢٩٩٣/٤، وهنا شاعرة أخرى من غرناطة تحمل الاسم نفسه، نفع ٢٨٧/٤.

(١٥٥) انظر فيما سبق ص ٣٦٣ من هذا الكتاب.

(١٥٦) من السريع، نفع ١٧٠/٤، وانظر أحداث الدورى ط ١ ج ١ ص ٢٦٤، وفنون شاك شعر العرب ١٢١/١.

الشَّيْبُ لَا يُجْدِعُ فِيهِ الصُّبَايا بِحِيلَةٍ فَاسْمَعُ إِلَى نَصْحِي
فَلَا تَكُنْ أَجْهَلُ مِنْ قِي الْوَرَى يَبِيتُ فِي الْجَهْلِ كَمَا يُضْحِي^(١٥٧)

ونجد حرارة العاطفة قوية عنده حمدة بنت زياد المؤدب، من وادي آش، تقول:

وَلَمَّا أَنِي الْوَاشُونَ إِلَّا فِرَاقَنَا وَمَالَهُمْ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ شَارِ
وَشَنُوا عَلَى أَسْمَاعِنَا كُلِّ غَارَةٍ وَقُلْ حِمَاتِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَنْصَارِي
غَزَوْتَهُمْ مِنْ مُقْلَتَيْكَ وَأَدْمَعِي وَمِنْ نَفْسِي بِالسَّيْفِ وَالسَّيْلِ وَالنَّارِ^(١٥٨)

وفي بلاط بني عباد نرى من الضروري أن نشير إلى أسماء ثلاث نسوة: العبيادية، والرميكية أو اعتماد، وبثينة، أما العبيادية فهي جارية قدّمها مجاهد أمير دائية إلى المعتضد، وكانت «أديبة ظريفة، كاتبة شاعرة، ذاكرة لكثير من اللغة»^(١٥٩). تقول الشعر في سهولة، ولكن البيت الوحيد الذي نظمته ووصلنا، عندما كان الأمير فائلاً إلى جوارها، لا يظهر لنا شيئاً متميزاً من ذكائها.^(١٦٠)

وقد أصبحت الرميكية زوج المعتضد، وأخذت اسم اعتماد، وأضحت شاعرة ممتازة، ولكن البيت الوحيد الذي وصلنا من أبداعها موضع شك كبير في صحة نسبتها إليها^(١٦١). ولم تكتب بثينة ابنة المعتضد من زوجها اعتماد أكثر من أحد عشر بيتاً، ثابتة التعبير، رصينة الإيقاع، وكانت كافية لتخليدها. وبعد سقوط إشبيلية في يد المرابطين حاولت الهروب، ولكنها وقعت في يد رجل يجهل حالها، فباعها إلى تاجر، وفكر هذا في أن يقدمها أمة إلى ابنه، ولكن الفتاة الشجاعة، وقد رأت شرف من أخذها وصلاحه، قررت أخيراً أن تقول لهم من هي، وقالت: لا أحلّ لك إلا بعقد النكاح إن رضى أبي بذلك، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها، وانتظار جوابه، فكان الذي كتبته بخطها من نظمها ما صورته:

لَا تَنْكُرُوا أَنِّي سُبَيْتُ وَأَنْتِي بِنْتُ لِمَلِكٍ مِنْ بَنِي عِبَادٍ
فَخَرَجْتَ هَارِبَةً فَحَازَنِي أَمْرُو لَمْ يَأْتِ فِي إِعْجَالِهِ بِسَدَادٍ
إِذْ بَاعَنِي بَيْعَ الْعَبِيدِ فَضَمَّنِي مِنْ صَانِعِي إِلَّا مِنَ الْإِنْكَادِ

(١٥٧) من السرج، نفع ١٦٩/٤. وكانت تعرف أيضاً كيف تصوغ قصائد المديح، لمعرفة المزيد عنها انظر: نفع ١٦٩/٤ وزينب موان الدر المنيرة، ٥٤، ول. جونتالبر، في مجلة لارشيبوس، عام ١٩٠٥ رقم ٩ و ١٠ ص ٢٠٨ و ٢٠٩، وجونتال بالنتيا، تاريخ الأدب الأندلسي، ص ٥٦.

(١٥٨) من الطويل، نفع ٢٨٧/٤. وعن حمدة وكنا قد ذكرنا لها أبياتاً فيها سبق ص ١٤٢ من هذا الكتاب عن وصف وادي آش انظر: نفع ٢٨٧/٤، وابن الأثير، كتاب التكملة رقم ٢١٢٠ ص ٤٦٧، والفي، البيعة ص ٥٣٠ رقم ١٥٨٧، والإحاطة ٢١٦/٢. وابن شاذكر لكتبي، فوات الوفيات ١٤٧/١، وزينب فواز، المصدر المذكور سابقاً ١٧٠ - ١٧١، ول. جونتالبر، المصدر السابق ٣٧٧. وهـ. سوفي، رحلة وزير مغربي في إسبانيا ١٦٩٠ - ١٦٩١ ص ٣٦ - ٣٨، وجونتال بالنتيا، تاريخ الأدب الأندلسي ٩٦. وديمونيت، وصف مملكة غرناطة ص ٢١٠.

(١٥٩) كانت الوحيدة التي عرفت اسم «الفصحة» التي تظهر في الخدين عند الضحك.

(١٦٠) نفع ٢٨٣/٤، ونقلها أبو عباد ٢٣٦/٢. وابن الأثير، التكملة، في الملحق الذي نشر في مدريد رقم ٢٨٧٠، وزينب فواز، المصدر السابق لها ٣٧٧. ول. جونتالبر، مصدره السابق ص ٢٠٣.

(١٦١) أبو عباد ١٥١/٢ و ٢٢٥ و ٢٢٦ وبخاصة الجزء الثالث ص ٢٤٠ و ٢٤٢. وانظر ما سبق من هذا الكتاب ص ١٨٤ والهامش رقم ٥.

وأرادني لنكاح نجلٍ حامرٍ حسن الخلاق من بني الأنجاد
ومضى إليك يسوم رأيك في لرضي ولأنت تظُر في طريق رصادي
فعساك يا أبتى تعرفني به إن كان ممن يُسرجي لوداد
وعسى رميكة الملوك يفتحها تدعو لنا باليمن والإسعاد^(١٦٢)

« فلما وصل شعرها لأبها وهو بأعمام، واقع في شرك الكروب والأزمات، سرَّ هو وأمها بحياتها، وإذا كانت ابنته بثينة قد تزوجت من رجل دونها طبقة ومستوى، فقد احتفظت على لأقل ينبل روحها.

كما استطعنا أن نلاحظ، لم تضاف المرة شيئاً هاماً إلى معرفتنا بالحب في القرن الحدى عشر، والأشعار التي نظمها مها كانت قليلة، وهي على أية حال كثيرة بالنسبة إلى القرن العاشر الذي لا يعرف كثيراً منهم، ليست سيئة المستوى، وأظهر بعضهن عاطفة ملتهبة ومتميزة، وأسهمن بخاصة في دعم الفكرة التي أخذتا بها عن حرية المرأة، وكل هؤلاء الأندلسيات أظهرن شخصية حازمة، ومبادأة ما كان يمكن لها أن تظهر أو تعبر عن نفسها، لو لم يكن المجتمع يسمح بذلك. إنهن نتاج عصرهن تماماً. ومن الحق أن المكان الذي احتلته يعود فضله، في الجانب الأكبر منه، إلى عبادة أرجلها، يؤديها في محرابها، وهي عبادة ما كان يمكن أن تصل إليها دون جهد من جانبها، بزيادة ثقافتها، وصقل فكرها، والتسامي بقلبها.

(١٦٢) من الكامل، صرفنا النظر عن أربعة أبيات يورادتنا، «نظر نفع ٢/٢٨٤، ونسخها بنو عباد ٢/١٥٣، وزياد فواره المصدر

السابق ٨٩، ول. جونتاليو، المصدر السابق ص ٢٠٤.

○ الفصل الثاني:

الإنسان: نفسيته وفلسفته

لكي نتعرف على الأسباب التي تدفع الإنسان إلى العمل، وبخاصة في عصر كان الشعر فيه، على ما يبدو، التعبير الأساسي عن فكر الشعب، علينا أن نعود إلى القصائد التي نظمها الشعراء تحت تأثير الأحداث مباشرة، وفي مواجهة الشخصيات والممثلين الذين قاموا فيها بدور إيجابي. وإلى جانب الشعر نجد المذكرات كذلك التي كتبها الأمير الزيري عبد الله^(١) فهي ذات قيمة كبيرة للغاية، ولكن مثلها مع الأسف الشديد قليل جدا في الأدب العربي، وبخاصة في القرن الحادي عشر في إسبانيا الإسلامية. أي أضاء كانت ستلقيها هذه المذكرات، حتى لو أخذنا في الحسبان طابعها الذاتي، وبالتالي انحيازها، في عصر كالذي ندرسه، حيث يحاول الإنسان بفعل الظروف التاريخية نفسها أن يحقق ذاته ما أمكن.

يعوضنا الشعر في جانب منه عن غيبة الوثائق الثرية، ونستطيع من خلال القصائد الشعرية، وهي أحيانا أظهر تعبيراً من الاعترافات، أن نحصل على بعض الملامح الأساسية لنفسية الأمراء الأندلسيين في القرن الحادي عشر الميلادي.



لقد تطور نموذج السيد العظيم، دون شك، بين القرنين التاسع والحادي عشر، ولقد كان سعيد بن جودي^(٢) يمثل الإنسان الكامل في إسبانيا لحظة الصراع بين اليمانيين والعديين، وبين المسلمين والإسبان، وتفرّد في زمانه بعشر خصال لا يُدفع عنها كما يقول ابن الأثير: الجود والشجاعة والفروسية والجمال والشعر والخطابة والشدة والظعن والضرب والرمية^(٣).

ولم يجمع ملوك الطوائف هذه الصفات كلها أبداً، وإذا كانت لهم بعضها أو كانت مختلفة عندهم، أو سيطرت عليهم بسبب نموها المفرط، على حين أنها كانت ثانوية عند سعيد بن جودي. يقول القاضي أبو القاسم العبادي جد المعتمد في قصيدة:

فما الجُدُّ إلّا في ضلوعي كامنٌ ولا الجودُ إلّا من بيني ثائر
فجيش العلا ما بين جنبي جائل وبحر الندى ما بين كفي زاهر^(٤)

(١) انظر: ليفي پروفسال، مذكرات عبد الله آخر ملوك بني زيري في غرناطة، المقدمة والنص والترجمة في مجلة الأندلس المجلد ٣، العدد ٤، سنة ١٩٣٥، والمجلد ٤، العدد ١، سنة ١٩٣٦.

(٢) عن سعيد بن جودي انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٨ و ٣٢ و ٣٤ - ٢٨ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٩٥، والمصادر المذكورة هناك.

(٣) ابن الأثير، الحلة ١/١٥٥، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٥، وابن حبان المقتبس، طبعة الأب أنطونيا ص ٣٠.

(٤) من الطويل، الحلة ٢/٣٨، وبنو عباد ٤٧/٢.

ويصرح المعتضد والد المعتمد:

حَيْثُ بُنِيَ الْمَجِيدُ بِالْبَيْضِ وَلُسِّرَ
وَوَسَّعَتْ سُبُلُ الْجُودِ طَبْعًا وَصَنَعَتْ
فَلَا جَدَّ لِلْإِنْسَانِ مَا كَانَ خُدُّهُ
يُشَارِكُهُ فِي الدَّهْرِ بِالنَّهْيِ وَالْأَمْرِ^(٥)

ويشير المعتضد في البيت الأخير إلى أن الطموح يمكن أيضا أن يكون صفة لأي أمير. وفي الحق ما من أحد في عصره كان يستطيع مثله أن يشعر بمثل هذا التوتر الكبير، ألم يكن يطمح في أن يجمع كل شبه الجزيرة تحت صولجانه؟ حق القادح لم تستطع أن تنفيه عن خططه ومشاريعه:

أَنَامَ وَمَا قَلْبِي عَنْ لَجْدِ نَائِمٍ
وَأِنْ قَعَدْتُ بِي عِيْنَةٌ عَنْ جِلَالِهَا
يَعِزُّ عَلَى نَفْسِي إِذَا رَمَتْ رَاحَةً
وَأَسْهَرُ لِيلى مَفْكَرًا غَيْرَ طَاعِمٍ
يُنَادِي اجْتَهِدْ أَنْ أَحْسَنَ بَسْرَةً
فَتَهْتَرَّ أَمَالِي وَنَقَوَى عَزِيمَتِي
وَأِنْ فَوَادِي بِالْمَعَالِ هَائِمٌ
فَأِنْ اجْتَهِدِي فِي الطَّلَابِ حِدَائِمِ
بِرَاحٍ، فَتَشْتَقِي الطَّبَاعُ لِكِرَائِمِ
وَيُغِيرِي عَلَى الْعِلَاتِ شِبَعَانِ نَائِمِ
أَلَا أَيْنَ بِمَا عَيَّادُ تِلْكَ الْعَزَائِمِ
وَتُذَكِّرُنِي لَذَائِمِنَ الْمَزَائِمِ^(٦)

ولننظر أيضا إلى المزيد من أشعاره فهي بالغة التميز:

لَعَمْرُكَ إِنِّي بِالْمُدَامَةِ نَزَلُ
قَسَمْتُ زَمَانِي بَيْنَ كَدِّ وَرَاحَةٍ:
فَأَمْسِي عَلَى اللَّذَاتِ وَاللَّهُوَ عَاكِفًا
وَلَسْتُ - عَلَى الْإِدْمَانِ - أَغْفَلَ بُعَيْتِي
وَأِنْ لِمَا عَوَى التُّدَامِي نَقَالُ
فَلِلرَّأْيِ أَسْعَارُ، وَلِلطَّبِيبِ آصَالُ
وَأُضْحِي بِسَاحَاتِ الرِّثَاسَةِ أَخْتَالُ
مِنَ الْمَجْدِ، إِنِّي فِي الْمَعَالِ لِمُحْتَالُ^(٧)

وهذا البيت أيضا:

أَتَمَّ عَلَى مَغْنَى الرِّثَاسَةِ إِنِّي عَلَى كُلِّ حُسْنٍ فِي الزَّمَانِ غَيْرُ^(٨)

هذا الطموح المتطرف لا نجده إلا عند المعتضد، وأما المعتمد، ومشى على خطى أبيه. فقد كان أكثر اعتدالا في رغباته، وعند ما يشيد بنفسه في أشعاره يعود إلى الصفات المعروفة من الشجاعة والجلود. والأشعار الأقوى تعبيرا فيها يتصل بهذين الموضوعين نظمها وهو أسير في أغمار، فقد أشاد بمغامراته الحربية وسخائه على من كانوا يعرفون كيف يعزفون على إيقاع مدانحه-

قُبِّحَ الدَّهْرُ فَمَاذَا صَنَعَا كَلِمًا أَعْطَى نَفْسًا نَزْعًا

(٥) من الطويل، الحلة ٤٣/٢، وبنو عباد ٤٦/٣.

(٦) من الطويل، الحلة ٤٥/٢، وبنو عباد ٥١/٣.

(٧) من الطويل، الحلة ٤٦/٢، وبنو عباد ٥٠/٢. توجد إشارة إلى هذه الأبيات الأربعة في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٤٤: تنظيم القوى يجمعه كلنا على التساوي للذات والعمل، بد من لشراب وعامل لا يمل، ويمضي من اللذات واللهو إلى ساحة

للمجد، ويجب أن يقضى في مشاغله أسيرا، ولكن بعد اليهجد المعجز الذي يبذله لكي يعوض الوقت الذي أفناه في اللذات كان يحتاج إلى النشوة، وفوضى من جديد، لكي يجد قواه. نظر فيما سبق ص ٣١٨ من هذا الكتاب.

(٨) من الطويل، الحلة ٤٤/٢، وبنو عباد ٥٠/٢.

قد هوى ظلياً بمن عادته
من إذا الغيث قسى منهمرا
من غمام الجود من راحته
من إذا قيل الحنا صم وإن
قل لمن يطمع في نائله
رايح لا يملك إلا دعوة:
أن ينادي كل من يهوى لعا
أخجلته كفه فانقطعا
عصفت ريح به فانتشما
نطق العاقون همسا سيعا
قد أزال اليأس ذاك الطمعا
جبر الله العفاة الضيعا^(٩)

الملاح التي انتهينا من تحليلها: الكرم والشجاعة يمكن أن تكون تقليدية للغاية، لأنها تنسب أيضا إلى الأبطال العرب. وأما ما هو أندلسي خالص فإدراك وزن الأشياء الفكرية وجبها.

وتكشف لنا حالة الراضي بن المعتمد، وأشرنا فيما سبق إلى أنه أوضح الأمثلة للأنسية التي شهدتها القرن الحادي عشر، عن تطور هذه الصفات إلى أبعد مدى^(١٠). وقد أراد والده أن يكلفه قيادة حملة حربية على مدينة لورقة، ولكن الراضي ولد مدلل، فقطاهر بالمرض، وغاضت فيه العزة العربية، وبين رعب القتال والافتتان بالدراسة والقراءة فضل الثانية دون تردد، وقبل والده العذر، دون أن ينخدع بالأسباب التي أبدعها ابنه. كيف يعرض ابنه الغالي لمتاعب الحروب وهذا الابن يجد لذة ومتعة في العمل الثقافي حتى وهو مريض؟ وإذن فليكن المعتد ابنه الأصغر سنا، هو الذي يوضع على رأس الجيش، ولسوء الحظ فإن الهزيمة كانت من نصيبه، وبلغت أخبارها المعتمد بعد قليل^(١١). ورغم ذلك ظل يحقد على الراضي زمنا، ولو أن هذا استطاع أخيرا أن يجعل والده يلين نحوه، وقد سخر المعتمد من هذا الأمير المسالم، وخصه بالآيات التالية، وهي ذات إيقاع ساحر، ونشبه إلى حد ما قصائدنا البطولية الهزلية، وتلقى ضوئا كاشفا على المزاج الجديد، وسوف يصبح فيما يبدو السائد بين الأجيال الجديدة من الأمراء لأندلسيين خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر:

الملك في طي الدفاتر
طف بالسريبر مسلما
وازحف إلى جيش المعاد
واطعن بأطراف المرا
واضرب بسكين الدوا
أو لست رسطائيس إن
وأبو حنيفة ساقط
وكذاك إن ذكر الخليل
من هزم من سيوي
هذي المكارم قد حو
فتخل عن قود العساكر
وارجع لتوديع المنابر
وفي تبهر الخبر المقامر
ع - نصرت! - في ثغر المحابر
مكان ماضي الحد بائر
ذكر الفلاسفة الأكابر
في الرأي حين تكون حاضر
ل فانت تحوي وشاعر
م من ابن فورك^(١٢) إذ تناظر
ست فكن لمن حباك شاكر

(٩) من الرمل، المعجب ١٤٥، وترجمته ص ١٢٣.

(١٠) انظر فيما سبق ص ٤٢ من هذا الكتاب، الملمش رقم ٨٠.

(١١) انظر تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٣٢.

(١٢) عن هذا العالم اللغوي انظر: ابن خلكان، وفيات، طبعة دي سلان، ٦/٦٧٥ وما بعدها.

واقعدت فإتتك طاعم
لحجبت وجهه رضاي عند
لا يستقر مكانه
هلا اقتديت بفعله
قد كان أبصر بالعوا
كاسر وقل: هل من مفاحر
لك وكنت قد تلقاه سابر
وأبوك كالضرغام خادر
وأطعمته إذ ذاك أمر
قبي والموارد والمصادر

وقد اتدهش الراضى من إيقاع هذه الآيات الطريف، وهى أكثر إثارة مما فى ظاهرها، فرد عليه بقصيدة طويلة، نجتزئ منها هذه الآيات:

مولاي! قد أصبحت كافر
وفللت سكين الدوا
وعلمت أن الملك ما
والمجد والعلية ما
لا ضرب أقوال بأف
قد كنت أحسب من سفا
فإذا بها فرع لها
لا يدرك الشرف الفتي
دهجرت من ستمهم
بجميع ما تحوى الدفاتر
في وطلت للأقلام كاسر
بين الأسنة والبوائر
ضرب العساكر بالعساكر
والله ضعيفات منائر
في أنها أصل المفاجر
والجهل للإنسان عاذر
إلا بعسالم وبائر
وجحد أنهم أكابر (١٣)

قد يكون الراضى صادقاً فى هذه اللحظة عندما يعلن أن مجد الحروب هو الشيء الوحيد الجدير بأمر. ولكننا نشك فى أنه تخلى عن دراسته المحبة إليه إلى الأبد، لأن التخل عن النحو والشعر والفقه والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات شيء كان يبدو فوق طاقته. إن الشجاعة فيما يرى هذا الأمير المثقف، وكان أندلسياً أكثر من أيه، أصبحت فى المرتبة الثانية. ويبدو أن الأمر كان كذلك بالنسبة للكثيرين من ملوك الطوائف الصغار فى شبه الجزيرة.

لكن صغار ملوك الطوائف هؤلاء، عروا فى لحظات الشدة، أو التنفى الإيجابى، حين بددت شملهم سيوف المرابطين، بأفضل طريقة عن عمق شخصيتهم الحقيقية، فى أشعارهم الناضجة بالحنين.

ويسترعى الانتباه حقاً أنهم عرفوا كيف يحتفظون فى هذه الظروف الصعبة من حيائهم بالطوايع الأرستقراطية، ورباطة جأش كريمة: فالتهديب، وآداب السلوك، شيء فطرى فيهم، ولستمع إلى حشرات رفيع الدولة ابن المعتصم، يثد استأذن يوماً على أحد وجوه دولة المرابطين، فقال أحد جلسائه: «تلك أمة قد خلت»، استحقاقاً له، واستحقاقاً للآخر، فبلغ ذلك رفيع الدولة فكتب إليه:

خلت آمتى لكن ذى لم تخل
وما ضركم لو قلت قول ماجد
وكل إناء بالذى فيه رانسج^(١٤)
وفى الفرع ما يغنى إذا ذهب الأصل
يكون له فيما يجيء به الفضل
وهل يمنع الزنيور ما يجبه النحل

١٣) من مجزوء الكامل، القلائد ٣٤ - ٣٦ وعنه نقلها نفع ٢٥٢/٤، وبشر عباد ١١٣/١، والتيجاني، ملك شاعر ١٥٩.

١٤) وهو مثل عربيه انظر: المبداء معجم الأمثال ٩٢/٧.

سأصرف وجهي عن جناب تحلة ولو لم تكن إلا إلى وجهك السبل
فما موضع تحلة برنعم ولا يرفض فيه مقال ولا فعل
وقد كنت ذا عدل لعلك ترعوى ولكن بأرباب العلا يحمل العدل^(١٥)

هذا الإيقاع الرصين في توجيه النقد، واللفظ الذي ظل رقيقاً حتى في لحظات الشدة، يوقظ فينا صدى لا نجد عادة في الشعر المشرقي، ألا يشعرا بغواية أن نرى فيه شيئاً مسيحياً؟ على أية حال سوف نعود إلى هذا الموضوع في مناسبات أخرى.

وإذا كان من الصعب علينا أن نعود فنجد العزة العريية، وهي صفة جوهرية في سكان الصحراء طبقاً لشهادة المؤلفين الذين ينتمون أصلاً إلى هذه البلاد، في هذا الأمير الأندلسي المنفى في المغرب، فسوف يكلفنا أيضاً كثيراً من الجهد أن نتبين في الجود المتحفظ الذي اتسم به المعتضد وبقية ملوك الطوائف الصغار السخاء المدحش الذي اشتهر به حاتم الطائي، يقول المعتضد:

لعمرك ما الإسراف في طبيعة ولكن طبع البخل عندي كالحنف^(١٦)

وقد أبدى خيران الصقلي الذي حكم المرية قبل بنى صمادح ملاحظة شبيهة نجدها عند مؤرخ عربي، فاستخدم كلمة «قصد» ليعبر بالدقة عن موقف معتدل، أي اقتصادي، وهي تبعد عن السخاء بنفس أكثر الذي يبعدها عن البخل، يقول عنه: «وكان مذهبه في الجود قصداً، لم يشتهر بكرم ولا وسه بلوم»^(١٧).

الطريق الوسط، كما نرى، هو الأفضل، ومعه مظاهر الجود تسعد صاحب الجود دون أن تغلس الحزانة، هل الإسباني المسلم الوحيد الذي يستحق لقب بخيل؟^(١٨) إن أبا لحزم جهور بن محمد أمير قرطبة، طبقاً لابن حيان: «تضاعف تراؤه، وصار لا تقع عينه على أغنى منه، حاط ذلك كله بالبخل الشديد والمنع الخالص، للذين لولاهما ما وجد عائبه فيه طعنا، ولكمل لو أن بشراً يكمل»^(١٩).

وملوك الطوائف الصغار الذين من أصل بربري ولكنهم تأثروا لسوا لم يكونوا بمنجاة من هذا النقد، ولم يكن إسماعيل بن ذي النون أمير طليطلة، ولا هذيل بن رزين أمير السهلة أسخياء إلا عندما تكون اللحظة مناسبة^(٢٠)، وحفيد هذا الأخير وخليفته في الإمارة حصام الدولة، مروان بن رزين، كان مع ذلك يزهر في قصائده، مثل المعتضد تماماً، بأنه جواد:

إليكم فإني في الوعى والندى فتى هو البحر إن أعطى وإن صال فالدهر^(٢١)

(١٥) من الطويل، تنقيح ٣٧٠/٣، وفي أبحاث ط ١ ص ١٢٨، و ط ٢ ج ١ ص ٢٧٦.

(١٦) من الطويل، الحلة ٤٤/٢، وشعر عباد ٥٠/٢.

(١٧) أعمال الأعلام ٢١٢.

(١٨) ثمة أمير أموي إسباني ينحدر من الحكم الريضي وكان يعيش في عصر النصور، وهو عبد الله بن عبد العزيز، لُقّب باللفظ الروماني يقرُّ شك Piedra Seca، ومعناها «الحجر اليابس» وذلك ليخله، انظر: الحلة ٢١٥/١، وأبحاث ط ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٤، و ط ٢ ج ١، اللحق ص ٣٠، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٢٣٤، وديبر، نيز ومقالات ٣٠/١.

(١٩) الحلة ٣١/٢، والبيان للغرب ١٨٦/٣.

(٢٠) البيان ١٨٢/٣، الحلة ١١٠/٢، والذخيرة ١١١/٣، وأعمال الأعلام ٢٠٥.

(٢١) من الطويل، الحلة ١١٠/٢.

ويقول في مكان آخر:

فاهدّم بناءً البخل وارفض به من هدم البخل بنى مجده
لا عاش إلا جائعاً ناعماً من عاش في أمواله وحده (٢٢)
وله أيضاً:

فمن يرمّ جاهداً إدراك منزلتي فليحكي في الندى والسيف والقلم (٢٣)

أكيد، لم يكن حسام الدولة عندما نظم هذه الأبيات يتذكر معلم الكتاب البائس الذي طلب منه التحسين حاله أن يأذن له في الجمع بين أمرين لا يتأتى الجمع بينهما: أن يؤم الناس في مسجد من مختلفين وأن يعلم الأطفال، فأجابه.

أطبق تأديباً وعقد إملة في مسجدين وجامع إنسان؟
انبت على إحدى المراتب لا تزد فمن الزيادة يتقى نقصان (٢٤)

لقد أصبح البخل الذي كان يبدو في نظر العرب أيام الحاهلية وفجر الإسلام أقبح العيوب يتملّ في إسبانيا جانباً من شخصية الإسباني المسمم، فيما يبدو، ولكننا دون شك لسنا بصدد هذا اسبح الذي يرفض رفضاً قاطعاً أى عمل طيب، ولقد كان المعتضد وابن رزيق يعرفان كيف يسخران حين يشعران بالسعادة الفامرة عندما يستمعان إلى شاعر، أو يرضيان عن مهمة تمت على الوجه الأكمل، أو خدمة قُتّت لها، ولكن: هل هذا هو الكرم العربي، الذي لا يعتبر المنحة أجراً أبداً، وإن عطاءً حياً في العطاء ليس إلا. والحق أن العربي في سخائه يندفع تلقائياً. أما هنا في إسبانيا الإسلامية فهو صفة مصحوبة بالتفكير والحساب، وعلى أية حال فإن المشرق عرف أيضاً شخصيات من هؤلاء الذين يُعتبر البخل إحدى صفاتهم، ولا نعدم مؤلفين احتفوا بهم بنفس القدر الذي سجلوا به الشجاعة وربما كان من الأمانة أن نوضح أن هؤلاء البخلاء ليسوا عرباً، وإنما أعاجم من أصل فارسي (٢٥). وهذا يدعم ما سبق أن قلناه أن سكان إسبانيا الإسلامية كانوا شيئاً آخر غير العرب، ويبدو أن إطار البخل، والإشادة بالكرم المحسوب، ليست باختصار إلا أحد جوانب قضية الشعوبية فيما يبدو.

وشمة ملمح آخر لشخصية الأندلسي دمع بها الشعر الأندلسي إلى النور، وهو ليس عربى الجوهر أيضاً، وأعني به القسوة، ويقدم لنا المعتضد مثلاً واضحاً ومثيراً، فشخصيته المليئة بالشك والقساوة (٢٦) سيطرت، إلى جانب طموحاته، على كل سياسته، ويشبهه أحد المؤلفين بأسد «يلزم عرسه يدير دخلها أموره» لقواده (٢٧). وقد أمر بقتل الشاعر أبي حفص عمر بن حسن الهوزنى لأنه انتقد أعماله.

(٢٢) من الرعي، الحلة ١١١/٢.

(٢٣) من البسيط، الحلة ١١١/٢.

(٢٤) من الكامل - الحلة ١١٤/٢.

(٢٥) مثل سهل بن هارون، انظر: التويرى، نهاية الأدب ٣/٣١٨ - ٣٢٧، وانظر أيضاً: ابن عبد ربه، العقد لمره ٣/٣٣٣.

وما بعدها، والملاحظ، البخلاء، طبعة لندن ص ٦٥.

(٢٦) النخيرة ٢/٢٦، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٢/١.

(٢٧) النخيرة ٢/٢٦، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٢/١.

وانتقم من أعمى لاذ منه بمكة وأخذ بها يدعو عليه، وروى لنا عبد الواحد المراكشي قصته كاملة: [«كان هذا الرجل من بادية إشبيلية، كان المعتضد قد وضع يده على بعض مال هذا الرجل الأعمى، وهرب باقى ماله حتى افتقر، ورحل إلى مكة، فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى أن بلغه عنه ذلك، فاستدعى بعض من يريد الحج وتاوله حُفًا فيه دنائير مطلية بالسم، وقال: لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة وسلم عليه عنا، فاتفق أن سلم الرجل ومعه الحق، فحين وصل مكة لقي الأعمى ودفع إليه الحق، وقال: هذا من عند المعتضد، فأنكر ذلك الأعمى، وقال: كيف يظلمنى بإشبيلية وتصدق على بالحجازة فلم يزل الرجل يحفضه إلى أن سكن وأخذ الحق، فكان أول شيء فعله أن فتح الحق وعمد إلى دينار من تلك الدنانير فوضعه في فمه، وجعل يقلب سائرها بيده إلى أن تمكن منه السم، فما جاء الليل حتى مات، فاعجب لرجل بقاصية المغرب يعنى بقتل رجل بالحجاز»] (٢٩).

وأثار أبو محمد بن عبد البر غضبه لأسباب لا تزال تجهلها، ولم ينبج من الموت إلا بفضل والده أبي عمر (٣٠)، أما ملوك الطوائف الصغار من البربر الذين يتتوا النية على «ذهبه مثل كبش سمين» عندما يقبل ضيافتهم، فقد دعاهم إلى حفل إعداد، ولإدخال البهجة عليهم صحبهم إلى الحمام حيث دُبحوا (٣١)، وعندما شك في أن ابنه إسماعيل يتآمر عليه لإزاحته عن العرش ذبحه يديه (٣٢).

لقد وجد المعتضد في شخص مدعى الخلافة المهدي، محمد بن عبد الجبار، أستاذًا في القسوة، وقد تحدثنا عن هذا بمناسبة أحداث الفتنة في مطلع القرن الحادى عشر. ألم يكن من عادة المهدي حين كان لاجئًا في مدينة سالم أن يضع في حديقة معلقة تعلو جانب النهر، أمام القصر، هاجم أعدائه الذين قتلهم قائده الصقلي الحصى واضح، ويتخذ منها أصصًا لغرس الزهور. ويقول المؤرخون إن موجة عارمة من السعادة كانت تغمره وهو يتأمل هذه الحديقة العجيبة، وفيها نظم الشاعر صاعد بن الحسن البغدادي الأبيات التالية:

جلاء العين مبهجة النفوس	حدائق أطلعت ثمر الرؤوس
هناك الله مهدي المساعي	جنى الهامات من تلك الفروس
فلم أر قبلها وحشًا جميلًا	كريمة روائيه أنس الأنيس
فماذا يلا الأساغ منها	إذا ملئت من أنباء الطروس (٣٣)

ولا يد أن المعتضد وجد هذه الفكرة الذكبة جديرة بالتقليد تخطط بمثل المهدي الأموى حديقة تكون أصصها من الجماجم، وتبلغ منتهى الصقل والدقة علق في التجويف المناسب في أذن كل جمجمة

(٢٨) فتح ١٣/٢، وعنه في «بنو عباد» ٢٩٩/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٨٠.

(٢٩) المعجب ٨٧، وترجمته ٨٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٤٧.

● أوجز المؤلف القصة، وجئت بها كاملة لطرافتها (للترجم).

(٣٠) القلائد ٨١.

(٣١) تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٥٧.

(٣٢) تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٦٦، والبيان المغرب ٢٤٤/٣.

(٣٣) من الوافر، الفخيرة ٢٧/٢، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٤/١، وترجمتها ٢٦٥، والحلة في «بنو عباد» ٦٠/٢، وتاريخ مسلمي

إسبانيا ج ٢ ص ٢٩١.

بطاقة حتى تأخذ في مجموعها شكل حديقة نباتية. وكان ذلك قللا فيا يرى، ولم يكن يروى منعه القسية إلا أن يتأمل وحيدا، بعيدا عن ظرات الآخرين، الجماجم المحفوظة في الأحقق، وكانت لأعدائه من البربر من ذوى المناصب الكبيرة الذين انتصر عليهم، ومن بينهم كل بقى يرزال أمراء قرمونة^(٢٦)، وفي هذه الحديقة الشبيهة بالمقبرة نظم الأبيات التالية:

زُهرُ الأُسْنَةِ في الهيجَا غدت زَهْرَى غرستُ أشجارها مُسْجِرَلْ لِسِرِ
ما إنْ ذَكَرْتُ لها من مَعْرَكِ خَلَلِ إلَّا تَجَلَّلَتْهُ بِالصَّارِمِ الذُّكْرِ
حتى غَدَوْتُ وَأَعْدَائِي تَحْصَانِي: يا قَاتِلَ النَّاسِ بِالْأَجْنَادِ وَالْفِكْرِ^(٢٧)

وقد أشاد ابن عمار على غرار صاعد بأمره في المقطوعة التالية، وسبق أن ذكرنا بيتا منها بمناسبة الحديث عن يهود غرناطة:

شَقِيتْ بِسَيْفِكَ أُمَّةً لَمْ تَعْتَقِدْ إلَّا الْيَهُودَ وَإِنْ تَسَّوْا بِسَيْرَا
أَنْصَرْتُ رَحْمَكُ مِنْ رَعُوسِ كُفَّائِهِمْ لَمَّا رَأَيْتَ الْغَصْنَ يُعْشِقُ مُتْعِرَا
وَحَضَبْتَ سَيْفَكَ مِنْ دِمَاءِ نَحْوَرِهِمْ لَمَّا عَهَدْتَ الْحَسَنَ يَلْبَسُ أَحْمَرَا^(٢٨)

وماذا عن المعتمد؟ أحقا لم يأخذ من والده إلَّا القليل كما يدعون؟ ليس موضع شك أن أول شيء قام به بعد توليه الإمارة كان هدم الحديقة الشهيرة، ولكن المؤرخين يؤكدون أنه احتفظ بهذه الأحفاق، ولم يرفض متعة أن يضيف إليها بعض رعوس البربر، فقد وجدوا فيها أحد رؤسائهم، وقد أظهر البربر الذين تأنَّدُّسُوا وكانوا يرافقون الجيش المرابطي بغضا عميقا للمعتمد^(٢٩).

هل كان المعتمد، وهو أكثر صقلا، يخفى قسوته^(٣٠)؟ إن كل ما نعرف عنه أن الفئضب عندما يحتاجه يمكن أن يجرح إنسانا بأن يقذفه بدواة حبر في رأسه، أو أن يرمى بمقنية بربرية في التهر لإثبات غنث بما أحبطه^(٣١)، ونعرف من بيت شعر لابن وهبون أنه قتل بيديه وزيره المقرب إليه: ابن عمار^(٣٢).

(٢٤) النخبة ٢٧/٢ و ٢٨، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٢/١، والترجمة ص ٢٦٢، والبيان المغرب ٢٠٥/٣، والمعجب ٩٨، وترجمته ٨٢، والمجلة ٥٠/٢، وعنها في «بنو عباد» ٦٠/٢، وأعمال الأعلام ١٥٥، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٤٩. وقد تصرف على بن جود بالطريقة نفسها فيما يحصل بالملطية سيمان وابنيه، وهكذا في الأصل، والحق أنها أخوه وأبوه = لترجمه انظر، الذخيرة ٤٢/١، والبيان المغرب ١١٧/٢، وتوجد في المشرق سوابق لهذه العادة الفرية، فقد كان عند الملطية العاصي المنصور، المرقى ١٥٨ هـ = ٧٧٥ م، حجرة خاصة يحتفظ فيها برؤوس العلويين، انظر: الطبري ٤٤٥/٣، وجود قروي - دومين، مسالك الأبحار للمرسى ص ٦٦٤.

(٢٥) من بحر البسيط، المجلة ٤٥/٢، وعنها في «بنو عباد» ٥١/٢.

(٢٦) الفلاند ٩٧، وعنه نقلها نفع ٦٥٦/١، والمعجب ١١٦، وترجمته ٩٨، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٦٣، حيث يوجد البيت الأول فقط، وانظر فيما سبق ص ٤٢ - ٢٨٥ من هذا الكتاب.

(٢٧) النخبة ٢٨/٢، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٤/١، والبيان ٢٠٦/٣.

(٢٨) الروس المقطوعة الموضوعة على أعدة قتل مظهر ضروريا للسلطة الملكية، وبخاصة بعد سحق الفتن والاضطرابات وتوضع عادة في مكان عام، وبخاصة فوق الأبواب الرئيسية للندن لكي يراها الناس كافة.

(٢٩) انظر فيما سبق ص ٩٩ و ٢٤١، طامش رقم ٦٨ من هذا الكتاب.

(٤٠) انظر فيما سبق ص ٩٥ من هذا الكتاب.

يوجد في هؤلاء الناس، حتى من تلقوا منهم تربية عالية، عمق هيجي، يجعلنا نفكر في أولئك الأمراء من مسيحي المصور الوسطى، ووصلنا «شتمهم بالقسوة» وليس عسيرا أن نجد بين ملوك ليون وقشتالة ونبرة وأرغون وبرشلونة في القرن الحادي عشر بعض النماذج، وليس لديهم شيء يمكن أن يحسدهم عليه ملوك إسبانيا الإسلامية.

ربما كان من الضروري هنا أن نفكر في التأثير البربري، وحالة هليل بن رزين أمير السهلة هي النموذج الواضح فيما يتصل بهذا الأمر. ألم يقتل أمه في لحظة غضب؟^(٤١). وكانت تحتاج حفيده حسام الدولة، أبا مروان بن رزين، في جواربه الخشنة ثوبات من الفضب الجارف ترعب ندماه^(٤٢). وحين دبر عليه صهره عبيدالله، وأراد اغتياله مع طائفة من رجاله ليرث مكانه، أحضره لدعوة احتفل فيها مع جماعة، فلما أمكنتهم الفرصة فيه بأخذ الشراب منه، وثبوا عليه، وخطوه بسيوفهم حتى أئخنوه جراحا، واتفق أن كانت أخته حاضرة - وهي زوج عبيد الله هذا - فصعدت إلى عليّة هناك وصرخت: «واقتيلاه»، فتبادر الناس لمعرفة القصة، ودخلوا على أبي مروان وبه ومق، فأرادوا قتل قاتليه بأجمعهم، فأمرهم بترك صهره وابنه والتبضّ عليهم، ولم يزل يعالج من جراحه إلى أن برئ وصح، فأمر صهره فقطعت يدا ورجلاه وسُملت عيناه وصلب، وأمر يقطع رجل ابنه، وخلق سبيله^(٤٣).

كان حسام الدولة يتسم بالقسوة عند معاقبة أحد من أهله الثائرين عليه، ولكنه فيما يبدو كان يتدرج في العقوبة تبعا لأهمية الخطأ المرتكب طبقا لقانون الثأر البربري^(٤٤). وقد أتى في بيت من الشعر على الصفات الخمس التي تؤدي الحياة أو الموت:

أنا ملكٌ تجمعتُ في خمسٍ كلُّها للأنام تُحسُّ مُميتٌ
هي: ذننٌ وحكمةٌ ومضاءٌ وكلامٌ في وقته وسكوتٌ^(٤٥)

ويمكن أن نضيف إليها صفة سادسة: القسوة!

يقدم لنا باديس بن حموس النموذج الكامل للقسوة البربرية، ويقول عنه دوزي: «دائما لا يرحم في انتقامه، وينحرك في حراسة جلادين، ويعاقب الثعساء الذين تواتهم الفطرسه فيتمردون عليه، بالنار والحديد والدفن»^(٤٦). ومع ذلك كانت هناك ظلال فارقة بين باديس والمعتضد، «فعلى حين كان الأول في هيجان غضبه الأعمى يقضى على ضحاياه بيده، نادرا ما كان المعتضد يقتصب وظيفة الجلاء»^(٤٧).

(٤١) اللخيرة ١١١/٣، وأعمال الأعلام ٢٠٦. وقد رأينا فيما سبق ص ٢٨٢ من هذا الكتاب أنه اشهر بالبخل.

(٤٢) القلائد ٥٦.

(٤٣) هذا الحدث وقع عام ٤٩٣ هـ = ١١٠٠ م. انظر الحلة ١١٤/٢، وأبحاث ط ١ ص ٥٣٠.

(٤٤) يمكن القول أيضا بأنه كان يطبق القرآن الكريم، سورة الصافات ولكن الآية القرآنية لا تنفذ إلى غير أعداء الله.

(٤٥) من تخفيف، الحلة ١١٠/٢.

(٤٦) تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٧٠.

(٤٧) تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٤٩. وكان ماكسن أمير غرناطة يترك كلابه المدربة تفرق للحكوم عليهم بالإعدام.

وقد أعدت خصيصا لهذا العمل المسمى: أنظر ليفي برونسالة مذكرات الأمير عبد ق، في مجلة الأندلس، المجلد ٣، العدد ٧.

عام ١٩٣٥، ص ٢٥٦ رقم ٣٤.

هذه الهمجية، ونلاحظها في الأمراء بخاصة، كانت رفيقا للسلطة لا ينفصل، وإذا اعتدلت عند الأندلسيين، أو البربر الذين تَأَنَّدُّسُوا، فإنها لم تبلغ حد الاختفاء أبدا. وقد حاول ابن سعيد أن يحدد هذه الخاصية البربرية وأن يفسرها، يقول: «والإقليم الثالث هو صاحب سفك الدماء، واحسد، والحد والغل، وما يتبع ذلك» ويضيف القلقشندي، وهو الذي نقل لنا رأى ابن سعيد: «إن الإقليم الثالث وإن كثرت فيه الأحكام المربحية على زعمهم، فإن للمغرب الأقصى من ذلك الحظ الوافر، لاسيما في جهة السوس وجيل دزن، فإن قتل الإنسان عندهم كذبح العصفور، قال: وكم قتيل قُتل عندهم على كلمة، وهم بالقتل يفتخرون. ثم قال: إن الغالب على أهل المغرب الأقصى كثرة التمس المفرط، والمحاكمة، وقلة التفاضل، والنهور، والمفاتنة»^(٤٨).

ليس ملاحظا فيما نرى أن تلح كثيرا على التأثير الهمجى الذى استطاع الأفارقة أن يرسوه على الإسيان المسلمين، ذلك أن القسوة إحدى مظاهر الشخصية البربرية ولكنها ليست السمة الأساسية فيها، أضف إلى ذلك إنها نوع من الإحساس بالعدل ينسجم بالتطرف، ولكنه دون شك ليس سمة حضارية، لأن العدالة الفردية، في مجتمع تحكمه الشرطة، يجب أن تحتفى أمام السلطة المكلفة بحفظ الأمن، ويجب على المعتدى عليه أن يلجأ إلى القضاء ليعوضه عن الآلام التى تمرّض لها.

هذه الهمجية، في قمة توهج الحضارة الإسبانية في القرن الحادى عشر، تنير بالضرورة كثيرا من الدهشة، ومهما كانت خارجة عن المألوف فإنها تشكّل ظهر لوحة لن نستطيع إخفاءها عن الأنظار إذا أردنا أن نعرف ما إذا كان الشعب الإيباني المسلم يدين في تطور بعض صفاته، أو نحو بعض عيوبه، إلى تأثيرات أجنبية.



خير من قصائد مديح الأمراء أو اعترافاتهم، ولا تتجّد في مجملها غير الصفات، أو ما كان يعتبر كذلك في القرن الحادى عشر، قصائد الهجاء، لأنها تبرز العيوب والأخطاء، وتكشف سبجاعة، وفي سخرية أحيانا، النقايس الخلقية، وتنقل إلينا نفسية الشعب الأندلسى في هذا الوقت بالذات، ومراجعة هذا الموضوع بخاصة تجعلنا ندرك الدوافع التى تحدّد أفعال الإنسان بهامة، وهى تحتفظ في عيانها بشيء من طابع ساحر إلى حد ما، وكان من سماتها في المشرق، وظل الشعر دائما مرعبا، وبخاصة عندما يمجى هجاء لاذعا. يقول أبو تمام الهجاء:

وبارد الشعر لم يؤلم به ولقد أضّر منه جميع الناس واعتزلا
كأنه الصل لا تؤذيه ريقته حتى إذا مجّها في غيره تلالا^(٤٩)

^{٤٨} القلقشندي، صبح الأعشى ١٧٨٥، وعن قسوة البربر انظر أيضا: ابن الفقيه المصنف، كتاب لخدان، في مكتبة الجغرافيين العرب، المجلد ٥ ص ٤٨ والمكتبة العربية الفرنسية للمجلد ٦، طبع التمس وترجم الحاج صدوق، ص ٤٠ - ٤١، والمباشى ٧٧ ص ١١١، والمقدسى، أحسن التقاسيم، في المكتبة الجغرافية العربية، المجلد ٣ ص ٢٤٣، وفي المكتبة العربية الرشيدة، المجلد ٩، النص والترجمة التى قام بها شارل بيلا، ص ٥٨ - ٦١، والنويرى، نهاية الأدب، ط ٢ ج ١ ص ٢٨٢، ولقبوسيه المصباح المنير، ط ١، عام ١٩٢٥ ص ٦٠ وما بعدها، مادة بربر.

^{٤٩} ١٤٩١ من البسيط، نصح ٤١٨/٣.

نعرف لدور الذي يمثله النقد في حياة الشعراء والكتّاب، وكان يتم غالباً في مواجهة من يهيمهم الأمر: ويحيى نثراً على النوم، والهجاء على النقيض من ذلك، يحيى مكثفاً في بيت من الشعر، أو مقطوعة من عدة أبيات، ويتدفق بسرعة البرق، ويظهر من قم إلى قم، وترسم حدة المعنى صورة هزلية عمادة الكلمة، وتسهم في سرعة النجاح، ووصلتنا بهذه الطريقة المختصرة، والمثل الواضح لها هجائيات شاعر أندلسي عرضنا له أكثر من مرة هو: السُّمَيْسِرُ^(٥٠).

يرتبط الشعراء قليلاً أو كثيراً بالسياسة، وبالأخذ داخلهم حين لا يتألون ما كانوا يتوقعون، فيهاجون الأقوياء دون أن يخشوا شيئاً^(٥١)، وقد حرّو عبد الجليل بن وهبون أن يقول عن المعتمد:

قُلْ الْوَفَاءُ فَمَا تَلْقَاهُ فِي أَحَدٍ وَلَا يَمُرُّ لِخُلُوقِي عَلَى بَالٍ
وَصَارَ عِنْدَهُمْ عِنْفَاءٌ مُغْرِبَةٌ أَوْ مِثْلُ مَا حَدَّثُوا عَنْ أَلْفِ مِثْقَالٍ^(٥٢)

ووجه أبو مروان ابن الفُصْن الهجاء اللاذع التالي إلى المأمون أمير طليطلة:

تَلَقَّيْتُ بِالْمَأْمُونِ ظِلْمًا، وَإِنِّي لَأَمْنُ كُلِّمَا حَيْثُ لَسْتُ مُؤَمَّنَةً
حَرَامٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُودَ بِيَشْرُهُ وَأَمَّا التَّدْيُ فَنَادِبٌ هُنَالِكَ مَدَقَّتُهُ
سَطُورُ الْمُخَازِي دُونَ أَبْوَابٍ قَصْرٍ بِحِجَابِهِ لِلْقَاصِدِينَ مُعْنَوَنُهُ^(٥٣)

فسجنه، ولكنه أفلت من غضب الأمير بمعجزة.

وهجا الشعراء الفقهاء أيضاً، واتهموهم بأنهم ذوو نفوس جشعة بخاصة، ومرثشون. ونستطيع القول بأن هذا الكلام لا ينفصه الأساس الذي ينهض عليه، وبشبههم أبو إسحاق الإلييري، ويعرفهم جيداً لأنه فقيه مثلهم، بأنهم مثل الذئاب:

أَلَا حَيُّ الْعُقَابِ^(٥٤) وَقَاطِنِيهِ وَقُلْ أَهْلًا بِهِ رِيزَانِيهِ
حَلَلْتُ بِهِ نَفْسٌ مَا بِنَفْسِي وَأَتَسْنَى فَمَا اسْتَوْحِشْتُ فِيهِ
وَكَمْ ذَنْبٌ يَجَاوِرُهُ وَلَا كُنْ رَأَيْتُ الذَّنْبَ أَسْلَمَ مِنْ فُكِيهِ
وَلَمْ أَجْزَعْ لِفَقْدِ آخِرٍ لَأَنِّي رَأَيْتُ الْمَرَّةَ يُوقِي مِنْ أَخِيهِ^(٥٥)

وأصاب جشعهم حتى النصاري، وهو ما يؤكد ابن خفاجة:

دَرَسُوا الْعُلُومَ لِيَمْلِكُوا بِعَدْلِهِمْ فِيهَا صُدُورَ مَرَاتِبٍ وَيَحَالِسَ

(٥٠) أخفنا من كتاب عثرناه: «شفاء الأمراض في أخذ الأعراض» وترجمه دوزي إلى الفرنسية على النحو التالي، "Le remède Contre les maladies; reputation usurpées réduites à leur Juste valeur"

انظر: نفح ١٠٨/٤، وأبحاث ط ١ ص ١٠٨ وط ٣ ج ١ ص ٣٦١.

(٥١) في القرن الماضي وصف إبراهيم بن أندلسي، في أبيات له، المنصور بن أبي عامر بأنه «أحدب» مرة، وأنه تغلب ثانية، وبأنه «فرد أنهب» مرة أخرى. انظر: البيان المغرب ٣٠١/٢، والحلة ٢٢٧/١، ونفح ٢٢٧/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٢٤٣، وانظر فيها سبق ص ٢٢٠ من هذا الكتاب.

(٥٢) من البسيط، المعجب ١٠٢، وترجمته ٨٧، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ١٣.

(٥٣) من الطويل، نفح ٣٦٣/٣.

(٥٤) جبل قريب من إشبيرة. انظر: أبحاث ط ١ ص ٢٨٥ هامش ٣.

(٥٥) من الواقر، الإحاطة في «أبحاث» لدوزي ط ٢ ج ١ ص ٢٨٦، والملحق ص ٦٢، والديوان القصيدة رقم ١٩.

وتزهدوا حتى أصابوا فرصةً في أخذ مالٍ مساجِدٍ وكنائسٍ^(٥٦)
وقد صدم فكرهم الملتوى ونفاقهم شعراء مطلع القرن الحادى عشر، بقول عبادة بن ماء السماء:
وكانَ الخَيْرُ في كَتْمِهِ الطَّيِّبِ سَبَّ فَقِيهٍ مُغَرِّى بِطُولِ رِياءٍ
يُظْهِرُ الزَّهْدَ بِالنَّهَارِ وَيَسِى فَاثَكَا لَيْلَهُ مَعَ الظَّرْمَاءِ^(٥٧)
كان سلطان المال في عصر ينضح قلقلًا، ويدفع الناس إلى التمتع بالحياة عجلين وفي شراهة، الباعث
الإساسي في ميل عدد كبير من الشعراء إلى الزهد، فجاء عملهم هذا ردَّ فعل ضد لا أخلاقية العصر،
يقول أبو عيسى بن عمران يصف سلطان المال في عصره:

ما للتجارب من مدى وانرء منها في ازدياد
قد كنت أحسبُ ذا العُلا من حاز علًا واستعداد
فإذا الفقيه بغير ما له كالثبائيل بلا عماد
شرفُ الفقى بنصاره إن الفقيرَ أخو الجهاد
ما العلمُ إلا جوهراً قد بيعَ في سوق الكسل^(٥٨)

وينسبون الأبيات التالية إلى الطروشى:

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرسلاً وأنتَ بإنجازها مُغرماً
فأُرْسِلْ بِأَكْمَةِ جَلَابَةٍ يَدُ صَمٍّ أَغْطِشُ أَتِكُمْ
ودعْ عنك كلَّ رسولٍ سوى رسولٍ يقالُ لَهُ السُّرْمُ^(٥٩)

وكان سخط ابن الحاج عميقا عندما رأى انهيار القيم:

كفى حَزْناً أَنْ المِشَارِعَ جَمَّةٌ وَعِنْدِي إِلَيْهَا غُنَّةٌ وَأَوَامٌ
ومن تكبد الأيام أن يعلم الفنى كريمٌ وَأَنَّ المَكْثَرِينَ لَتَامٌ^(٦٠)

ونجد الشكوى نفسها عند ابن سارة وبرهن على أن الجهل يجذب الفنى كما تجذب حجار
المغتطيس الحديد^(٦١). ونجد الشيء نفسه عند أبي بكر بن رُحيم الذى يتبع «عصرا يحيط من قدر
الأشخاص ذوى الأفكار العالية، ويرفع من قدر ذوى النفوس الضعيفة، والحالات الدنيا»^(٦٢).
لم يكن المجتمع كله فاسداً بهذا القدر، فنحن جميعاً نعرف ردَّ أبي محمد بن هود الجدامى المتسم

(٥٦) من الكامل، لديوان، النظمه ٣٠٥، ص ٣٦٦.

(٥٧) انظر ص ١٥٥ - ١٥٦ قيا سبق من هذا الكتاب. وقد التقط ابن قزمان الفكرة نفسها حرفياً تقريباً، في زجله رقم ١٤٣.

الدور ٣، انظر ديوانه ص ٣١٩ و ٤٣٨ - ٤٣٩، طبعة نكل.

(٥٨) من الكامل، نفع ٥٩٨/٣.

(٥٩) من المتناوب، نفع ٨٥/٢.

(٦٠) من الطويل، نفع ٤٦٢/٣ - ٤٦٣، والثلاثه ١٤٤.

(٦١) الثلاثه ٢٧٠.

(٦٢) الثلاثه ١٢٠.

بالشموح، حين عَيَّنهُ المتوكل عاملاً على لشبونة، فقد سأله شاعر عما اكتسبه في ولايته، فردَّ عليه: «ثَمَاءٌ يَبْقَى مَا بَقِيَ»^(٦٣).

إجمالاً، لم يكن إنسان القرن الحادى عشر يوحى بثقة كبيرة في نفوس المفكرين والأخلاقين، ويقدم لنا الحميدى، ورحل كثيراً، النصيحة التالية:

لقلِّ الناسَ ليس يُفقد شيئاً سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلِّ من لقاء الناس إلا لأخذ العلم أو إصلاح حال^(٦٤)

ومثل أبي إسحاق الإلبيري يفضل أبو بكر بن عطية الذناب على البشر:

كزُ بذنب صائب مستأنساً وإذا أبصرت إنساناً ففِر^(٦٥)

ونجد مثل هذا التفكير المر عند محمد بن الحسن الجبلى:

وما الأنس بالناس الذين عهدتهم بأنس ولكن فقد رؤيتهم أنس
إذا سلمت نفسى ودينى منهم فحسب أن العريض منى لهم ترس^(٦٦)

ويقول أبو القاسم محمد بن نصير:

حضت أعمارنا ومضت سنوننا فلم تظفر بذى ثقة يدان
وجربنا الزمان فلم يُقدنا سوى التخويف من أهل الزمان^(٦٧)

من السهل علينا أن نورد شواهد كثيرة ولكننا نكتفى بذكر بعض أبيات السمعسر، وهو خير من عكس فكر معاصريه فيما نرى:

تَحْفَظُ من ثيابك ثم صُنِّها^(٦٨) وإلا سوف تلبسها حداداً
وميز في زمانك كل جبر ونأظر أهل تسد العبادا
وَلَقِّنْ بسائر الأجناس خيراً وأما جنس آدم فالبعادا
أرادنى بجمعهم فرُدوا على الأعقاب قد تكصوا فرادى
وعادوا بعد ذا إخوان صُنِّق كبعض عقارب رجعت جرادا^(٦٩)

(٦٣) الملة ١٦٦/٢. (٦٤) من الوافر، نفع ٥٣٥/١.

(٦٥) من الرمل، القلاذ ٢٠٧، ونفع ٥٢٤/٢.

(٦٦) من الطويل، نفع ١٠/٤، والضيء، البقية ٥٨، ويقول الغزال التولى ٢٥٠ = ٦٨٤ م عن المشاركة:

ما أرى فيها من الناس إلا ثعلباً يطلب الدجاج وفيها
أو شبيها بالقط ألقى بمينجاً إلى قارة يريد الرئوسا

وهى من المشرح، نفع ٢٥٧/٢.

(٦٧) من الوافر، نفع ١١٤/٤. (٦٨) يريد أن يقول: تحفظ من حبة السم.

(٦٩) من الوافر، نفع ٢٩١/٣، ولم يكن الزبيدى، وهو من القرن العاشر، بأفضل اعتقاداً في التلى منه:

أفمن قلبك يابسا ليس هذا الناس ناسا
فعب الإبريز منهم تبعوا بعد نعاما
سامريين يقولون ن جميعا لا ملسا

و«سامريين» إشارة إلى ما ورد في القرآن الكريم سورة طه الآية ٩٥، والأبيات من الرمل، نفع ٤٧٥/٣.

ولكن بعض الشعراء لا يبلغ بهم الحال حد التعميم المتسرع، وهو لا يطابق الواقع تماماً كما نتوقع، يقول الأعشى التطيلي:

والناس كالنَّاسِ إِلَّا أَنْ تَجْرِبَهُمْ وَلِلْبَصِيرَةِ حَكْمٌ لَيْسَ لِلْبَصَرِ
كَالْأَيْكِ مُشْتَبِهَاتٌ فِي مَنَابِتِهَا وَإِنَّمَا يَقَعُ التَّفْضِيلُ فِي الشَّرِّ^(٧٠)

ويعبر أبو عبد الله بن الصَّفَّار عن الفكرة نفسها متخذاً المثل من الأحجار:

لَا تَحْسِبِ النَّاسَ سَوَاءً مَتَى مَا اشْتَبَهُوا فَالنَّاسُ ظَوَارٌ
وَانْظُرْ إِلَى الْأَحْجَارِ فِي بَعْضِهَا مَاءٌ وَبَعْضُ ضَمْنِهِ نَارٌ^(٧١)

ويذكر أبو الحسن الحصري طبيعة الإنسان، فيعطى نفسه الحق أن يصرح:

النَّاسُ كَالْأَرْضِ وَمِنْهَا هُمْ مِنْ خَشَنِ الطَّبَعِ وَمِنْ لَيْنِ
مَرَوْ نَشَكَّى الرَّجُلَ مِنْهُ الْوَجَى وَإِئْتَمَدْ يَحْمِلُ فِي الْأَعْيُنِ^(٧٢)

بعض الشعراء نفسياتهم بسيطة، ويرون من العبث أن تختبر الناس، ويكفى أن تنظر إلى مظهرهم الخارجي، ويقولون إن الأشخاص القصيري القامة أكثر الناس سوءاً إجمالاً^(٧٣)، وأن ضخام الأجسام صفار الرءوس، بلهائء العقول^(٧٤).

لكن، لا سوء ولا البهالة أثرا في الأندلسيين على ما يبدو مثل ما أثرت فيهم خيانة الأصدقاء، لقد غرق القرن الحادي عشر في الشراهة والطمع، يثيرها تفتت الأراضي، والثراء السريع عن طريق المغامرة، إلى جانب الطموح الذي يدفع كل حاكم إلى ممارسة سياسة تنسم بالمكر والدهاء والمساومة، وأدى ذلك كله إلى ازدهار الخيانة عتاً، وقد شك المعتضد في ابنه إبراهيم، وأعلن ابن عمار استقلاله ضد سيده المعتمد، وعلى امتداد كل هذا العصر يمكن أن نجد الكثير من الفدر والخيانة.

يقول المعتصم وقد خدعه ابن عمار:

وَزَهَدَنِي فِي النَّاسِ مِعْرِفَتِي بِهِمْ وَطُولُ اخْتِبَارِي صَاحِبًا بَعْدَ صَاحِبٍ
قَلَمَ تَرِنِي الْأَيَّامُ جَلًّا تَسْرُنِي مِيَادِيهِ إِلَّا سَاءَتِي فِي الْمَوَاقِبِ
وَلَا قَلَّتْ أَرْجَاؤُهُ لِدَفْعِ مَلْفَةٍ مِنْ الدَّهْرِ إِلَّا كَانَ إِحْدَى التَّوَائِبِ^(٧٥)

ويعبر ابن الحاج اللورقي عن الفكرة نفسها بطريقة أعمق:

كُلُّ مَنْ تَهْوَى صَدِيقٌ مَحْضٌ لَكَ مَا لَا تَنْتَقِي أَوْ نَرْتَجِي
فَإِذَا حَاولَتْ نَصْرًا أَوْ جَدَا لَمْ تَقِفْ إِلَّا بِبَابِ مَرْتَجٍ^(٧٦)

(٧٠) من البسيط، نفع ٣٢١/٤.

(٧١) من السرج، نفع ٣٠٦/٤.

(٧٢) من السرج، نفع ١٥٥/٢ و ٣٠٦/٤، وابن سعيد، عنوان اللقصات، طبعة بغداد، ص ٣.

(٧٣) انظر أبيات أبي تمام الحجام في نفع ٤١٧/٣ و ١٥٢/٤.

(٧٤) انظر أبيات ابن شرق، وابن خفاجة وغيرهم، في نفع ٣٧١/٢.

(٧٥) من الطويل، القلائد ٤٩، والحلة ٨٤/٢.

(٧٦) من الرميه القلائد ١٤٢.

هل يدهشنا بعد ذلك أن نجد في صور هؤلاء الشعراء تشبيه الصداقة بنبات يتوقع الناس منه فاكهة عذبة، فإذا به لا يشعر غير الخنظل^(٧٧)؟، وفيما يرى الكثيرون أليس حقا أن:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا كِرَاحٍ عَتِيقَةٍ أَرَادَ مُدِيرُهَا بِهَا جَلَبَ الْأُنْسِ
فَلَمَّا أَدَارُوهَا أَثَارَتْ حَقُودَهُمْ فَعَادَ الَّذِي دَامُوا مِنَ الْأُنْسِ بِالْعَكْسِ^(٧٨)

ألا يدهشنا بعد كل الذي قلناه، أن شاعرا مثل أبي الفضل بن شرف ينشد:

إِذَا مَا عَدُوُّكَ يَوْمًا سَإً إِلَى رُتْبَةٍ لَمْ تُطِيقْ نَقْضَهَا
فَقَبُلْ وَلَا تَأْنِفْنَ كَفْءُ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَسْتَطِعْ عَضَهَا^(٧٩)

هل يستطيع أحد أن يعبر عن وقاحة نديم المذك وهو يتملق سيده وقد أضمر الغدر به، مثل ما أجاد ابن شرف، ومع ذلك حاول ابن الحداد في هجاء تلفة السخرية أن يصحح في تعليق رقيق وإنساني ما رآه مغالاة في فكر ابن شرف:

سَامِحْ أَخَاكَ إِذَا أَنْكَ بِزَلَّةٍ فخلوصُ شيءٍ قَلِمًا يَنْمِكَنْ
فِي كُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ مَوْجُودَةٌ إِنَّ السَّرَاحَ عَلَى سَنَاءٍ يَدْخُنْ^(٨٠)

ويرى حفيد الحاجب المصحفي، وقد قتل المتصور جده، إن من الخطر التردد على ذوى السلطان:-

وَلَكُمْ حَذَرُ الرَّدَى فَصِغْمًا لَا أَمَانٌ لِصَاحِبِ السُّلْطَانِ
بَيْنَمَا يَحْتَلِي غَدَا خَافِضًا مَدًى لَهُ اكْتِسَابُ كَكْفَةِ الْمِيزَانِ^(٨١)

ويقول أبو القاسم بن حسان:

فَمَا عَاشَ فِي الْأَيَّامِ فِي حُرِّ عَيْشَةٍ سَوَى رَجُلٍ نَازٍ عَنِ النَّهْرِ وَالْأَمْرِ^(٨٢)

إننا بالذوق البسيط، والطيبة والتسامح، يمكن أن نصل، إذا لم يكن إلى السعادة فعلى الأقل إلى راحة النفس، يقول ابن سارة:

وَلَقَدْ طَلَيْتُ رِضَى الْهَرِيَّةِ جَاهِدًا فَإِذَا رِضَاهُمْ غَايَةٌ لَا تُدْرِكُ
وَأَرَى الْقَنَاعَةَ لِلْفَقْرِ كَنْزًا لَهُ وَالْبِرُّ أَفْضَلُ مَا بِهِ يَتَمَسَّكُ^(٨٣)

إن العالم الذي يتسحب من الدنيا لا يعيش في وحدة كاملة، وإنما يحيط به أصدقاؤه من كتبه، وكان

(٧٧) انظر: المطبع ١٧٦، والمجلة ١٣٠/٢، ونفع ٥٤١/٣، وانظر فيما سبق ص ١٨١ من هذا الكتاب.

(٧٨) من الطويل، نفع ٢٢٨/٣.

● قلت: الأبيات في نفع الطب منسوبة إلى أبي القاسم ابن يحيى (المراجع).

(٧٩) من القنطرة، نفع ٣٩٦/٢.

(٨٠) من الكامل، نفع ٥٠٤/٣، وأبحاث ١٠٢.

(٨١) من الوافر، نفع ٥٠٢/٣.

(٨٢) من الخفيف، نفع ٤٧١/١.

(٨٣) من الطويل، نفع ٤٧٤/٢.

(٨٤) من الكامل، نفع ٣٤٥/٤.

حب القراءة، وحب الكتاب، من العواطف المسيطرة على الأندلسيين^(٨٥)، ولم يكن أحمد بن رضى الملقى يجد التسمية عن نفسه في النبيذ أو الموسيقى، يقول:

ليس المدامة بما ستریح له ولا مجاوبة الأوتار والنغم
وإنما لذتی کُتُبُ أطالعها وخادمی أبدا فی نُصرتی قمی^(٨٦)

لقد أحب الأندلسيون الكتب، واتخذوا منها أصدقاء، يقول ابن الحداد:

ذهب الناس فانفرادی أنیسى وکتابی مُحَدَّثى وجلیسسى
صاحب قد أمنت منه ملالا واختلالا وكل خلقی شیس
ليس فی نوعه بحی ولكن يلتقى الخی منه بالمرموس^(٨٧)

ونستطيع أن نفرض بسرنا إلى كتاب كما نفعل مع أى صديق حقيقى، يقول أبو القاسم البلوى الإشبیلی:

أما فی الدهر من أفشى إلیه بأسراری فیؤنس بالجواب
یشت من الأنام فما جلیس یعز على نهائى سوى کتابی^(٨٨)

رفیقا یرى أبوعیسی بن لیون فإن مثله الأعلى أن یعیش in angello cum libello.
نفضت کفى عن الدنيا وقلت لها: إلیک عنى فما فی الحق أغنبن
من کسر یقی لی روض ومن کتبى جلیس صدق على الأسرار مؤقن
أدرى به ما جرى فی الدهر من خیر فعنده الحق مسطور ومختزن
وما مضای سوى موتی ویدفننى قوم ومالهم علم ین دفنوا^(٨٩)

ما أشد ما يشعر به هؤلاء الناس من ألم، عندما يضطرونهم الیوس إلى بيع كتبهم^(٩٠)! وهل تصور مدى شعورهم بالإحباط عندما تحرق كتبهم لأسباب دينية؟ إن محاكمة الكتب دينيا لم تكن من سمات عصر المنصور وحده^(٩١)، ففي قعة القرن الحادى عشر رى ابن حزم أيضا كتبه التى من تأليفه تحرق

(٨٥) عن هواة جمع الكتب من الأندلسيين انظر: لطفى برونسال، إسبانيا الإسلامية فی القرن العاشر الميلادى ص ٢٢٣ - ٢٢٤، وخولیان وبيرا، هواة الكتب والمكتبات فی إسبانيا الإسلامية فی «نید ومقالات» ١٨١/١ - ٢٢٨، وكاترمير، دراسة عن الفرام بالكتب عند المشاوق، فی المجلة الآسيوية، السلسلة ٣، المجلد ٦، عام ١٨٢٨، ص ٣٥ - ٧٨. ● ترجمت دراسة وبيرا عن الكتب مع دراسات أخرى ونشرتها يموان: «التربية الإسلامية فی الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية»، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١، (المترجم).

(٨٦) من البسيط، نفع ٢/٢٢٥.

(٨٧) من الخفيف، نفع ٤/١١٥.

(٨٨) من الوافر، نفع ٣/٣٢٥.

(٨٩) من البسيط، القلائد ١٠٢، والمجلة ١٧١/٢، ونفع ٣/٩٧٢ وأبحاث ط ١ ص ٥٣٠.

(٩٠) لم يلق ابن عيسى وزير زهير الصقلي أمير المروية عندما سجنه بادهى بن حيوس أمير غرناطة، إلا خولا على كتبه انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٢٧.

(٩١) انظر: نفع ١٣٦/١ طبعة أوروبا، صاعد الأندلسى، طفات الأمم، طبعة شيخو ٦٦، وترجمة بلاشير لها ص ١٢٥، والبيان المغرب ٢/٢١٥ - ٤٨٧ - ٤٨٨، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٢٢٥.

بأمر ابن عباد^(٩٢)، رجا بتحريض من فقهاء المالكية الذين كانوا يمتنون ابن حزم الظاهري، أى كلمات نبيلة أسمعاها الناس يومها:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى تضمته القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبنى
دعوى من إحراق رقى وكساغيد
والأ فعودوا فى المكاتب بسداة
فكم دون ما تبغون لله من ستر^(٩٣)

إذا تعمقنا فى دراسة الروح الأندلسى فسوف نلاحظ أن صورة عاشق الحياة البهجة المولع بالفنون والمنفوس فى اللذات، سوف تتلاشى تدريجاً، لأنها لا تعبر عن الواقع. ألم يحددنا مؤلفو المختارات الأدبية، ومؤرخو الأدب حين عمدوا ألا يوردوا فى مؤلفاتهم سوى أبيات الشعر التى تشيد بالحياة، وتتغنى بمنع الحمر والموسيقا، وحين تمنعن هذه المختارات الأدبية والدواوين فسوف نجد أن الشعر المجاد كثير، ويعدل الشعر اللاهى فى كثرته، وقاله الشعراء أنفسهم الذين تقنوا بالتهذيب أو فلسفوه، وما ذكرناه من أبيات فيما سبق كاف للبرهنة على ما نقول، فهؤلاء الشعراء أنفسهم حين عركتهم الحياة فى الحقيقة، وأنضجهم الزمن، أصبحوا أكثر اقتراناً، وتناولوا فى قصائدهم موضوع حب الحياة من زاوية مختلفة تماماً، فهم يتحدثون عن ظهور الشيب، والإعراض عن الدنيا، وما يشير إليه كل هذا، ونستطيع أن نجتمع مختارات من الأشعار التى تصوّر الشيب فى الشرق والغرب^(٩٤)، فإنها تملأ ديواننا بأكمله، وعندما يضحك الشيب بالرأس فذلك بمثابة تحذير بأن قوى الإنسان تأخذ فى السقوط، وإشارات منكرة بقدوم الموت، وتنبه الإنسان بأن يتخلى، إن لم يكن فعل فعلاً، عن ملذات الحياة، ويفكر فيما بعد الموت، وليس من الأهمية يمكن أن نأتى على هذه الأشعار، لأنها لا تفتأ تكرر فكرة واحدة، إذا لم تكن إرقاً عربياً خالصاً فهى تنتمى إلى العمق الإنسانى المشترك، ومع ذلك، فالصورة التالية لأمير بلنسية مروان بن عبد العزيز تقدم لنا تصويراً مباشراً للواقع، سوف نشعر بالألم إذا مررنا به صامتين:

وَمَا رَأَيْتُ الشَّيْبَ أَقْبَنْتُ أَنَّهُ نَذِيرٌ لِّجَسْمِي بِاتِّهَامِ بَنَائِهِ
إِذَا أَبْيَضَ غَضُرُ النَّبَاتِ فَإِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْصَادِهِ وَفَنَائِهِ^(٩٥)

وإذا كان الأندلسيون قد طبقوا الحكمة القائلة: «يجب التسامح مع الشباب»، فقد عرفوا أيضاً، مع العمر الناضج والشيخوخة، كيف يتحكمون فى رغائبهم، ويلتزمون سلوكاً حميداً، وتبرهن أشعار لا تحصى أن كثيراً من هؤلاء الشعراء أمضوا شباباً غارقاً فى اللذات، وأنبعوه شيخوخة بالغة

(٩٢) لم يجد ابن بسام الذى أورد لنا الخبر أى بنى عباد يعنى، ومن المؤكد أنه يعنى للمتشد. الفخيرة ١٧١/١.
(٩٣) من الطويل الفخيرة ١٧١/١، وياقوت، إرشاد الأريب ٩٥/٥، والإحاطة ١١٦/٤، ونفع ٨٢/٢، ١٩٢/٣، وأمين بلايوس، ابن حزم القرطبي، ٢٣٥/١، وكازا دى فو، مفكر الإسلام ٣٣٤/٣، وتوجد أيضاً أبيات عن بيع الكتب فى نفع الطيب، ٥٢٦/٢ طبعة لوربا، وهى من بحر الكامل، ولكنها لكاتب من المهديّة، هو: أبو الحسن بن الحداد.
(٩٤) فيما يتصل بالشرق توجد أشعار كثيرة فى ابن الشحرى، والحماسة طبعة ف فرنكوف، ٢٣٩ - ٢٤٧، والنويرى، نهاية الأدهم ٢٢/٢ - ٢٩، وعن الغرب الإسلامى انظر: نفع ١١٨/١ - ١٢١.
(٩٥) من الطويل، نفع ٤٠٨/٣.

الاتزان^(٩٦)، بل ذهبوا إلى ماهو أبعد من هذا، فتكروا لكل حماقتهم شيئا، إن الشيخ عندنا ينظر ورامه مبتسما، يودع أعواما خاليات من اعموم، ولكن الأندلسيين على التقيض، نجد عندهم الرغبة قوية في تحطيم كل شيء، والحرص الشديد على محو كل الذكريات التي ارتبطت بهذه الفترة من العمر، بعيدة وسينة في ذاتها. ومثل هذا الموقف يعتبر تطورا طبيعيا في الإنسان، ولكن الظروف هي التي تحدد طبيعة هذا التطور في الجانب الأكبر منه، وفي القرن العاشر الميلادي نظم ابن عبد ربه في نهاية حياته جملة قصائد أسماها المحصنات، لكي يرتد عن كل بيت قاله في شبابه^(٩٧)، وفي القرن الحادي عشر ذهب الشعراء بهذا لتخلي إلى أبعد من ذلك بكثير، فدمروا مجموعات شعرهم التي تعود إلى مرحلة المراهقة أو الشباب، كما لو كانت شاهد بخيضا على مشاعرهم العابثة، وحياتهم التي أضاعوها هباء، ولا يذهب بنا الظن أن هذا حدث فقط في نهاية القرن الحادي عشر مع مجيء المرابطين الذي فرضوا موجة من التطهر فوق إسبانيا الإسلامية^(٩٨)، لأن هذا حدث في عصر ملوك الطوائف أيضا، وطبقا لكل الاحتمالات فنحن لا نعرف شيئا أبدا عن القصائد التي نظمها ابن عمار في فترة شبابه، ولكي لا نذكر أكثر من شاهد، فكل دواوين القرن الحادي عشر نادرة جدا^(٩٩).

هذا الندم على ماضي منجمل، مصحوب باندفاع قوى نحو التقوى وخشية الله، حمل اسم الزهد وموضوعه الأساسي أن ملذات الحياة قصيرة الأجل، وعلمنا أن تفكر في الخالق وأن نخشى الله^(١٠٠) يقول أبو الوليد الباجي:

إذا كنت أعلم علم اليقين بأن جميع حماق كساعة
فلم لا أكون ضنيناها وأجعلها في صلاح وطاعة^(١٠١)

الجهلاء وحدهم هم الذين يعطون الحياة الدنيا قيمة، علما يتنازعون في الأرض إلا على غيبة تدعو إلى السخرية^(١٠٢)؟ يقول المعتز نفسه:

(٩٦) جميعها كتب الأدب تحت عنوان: «الزهد». انظر: نفع ٣٦٥/٤ - ٣٤٩. وفيما يتصل بالمشرق انظر ابن قتيبة بخاصة، عيون الأخبار، طبعة القاهرة ٢٦٦/٢ - ٣٣٢.

(٩٧) انظر: الطمع ٢٧٠ وما بعدها، والثعالبي، ينجمه الدهر ٤١٢/١ - ٤١٢، وابن دحية المطرب ١٥٩ - ١٤٦. ويستخدم ابن عبد ربه في محصناته نفس البحر ونفس القافية اللذين استخدمهما في القصائد التي يريد أن يحورها وأحبنا نجد كلمة «مكفرات» بدل «محصنات».

(٩٨) وحتى ابن قزمان في أواخر حياته قال:

قد تاب ابن قزمان: طوبى له إن دام
قد كانت أيامه أعبد في الأيام
بعد الطبل والدف وقتل الأكمم
من سمع الأذان عبط ويطلم
إمام في مسجد صار يسجد ويركع

الديوان، الرجل ١٤٧، الدورة، ص ٣٢٦.

(٩٩) لا نستطيع أن نذكر دواوين وصلتنا كاملة غير دواوين: ابن زيدون، وابن خفاجة، وابن عديس.

(١٠٠) الأبيات لأبي عمر بن عبد البر، في الطمع ٢٩٦، ونفع ٢٨/٤.

(١٠١) من المقارِب القلائد ١٠١، نفع ١٤/٢.

(١٠٢) القلائد ٢٦٦، ونفع ١١٧/٤ و ٣٤٥، والأبيات لابن سارة.

أرى الدنيا الدنية لا توافي فأجمل في التصرف والطلاب
ولا يفرذك منها حُسن بُرد له علمان من ذهب الذهب
فأولها رجاء من سراب وأخرها رداء من ثراب^(١٠٣)

والمؤمن الصادق الإيمان يجب ألا يبحث عن الثراء، وإنما عليه أن يتمنى الفقر، وقد ذاعت شهرة أبي إسحاق الألبيري بسبب قصائده الزهدية، «فلا تجد حادى جذاة، ولا مُذكر مآدبة، ولا واعطاء، إلا وهو مكتر منه»^(١٠٤)، ويقول أبو عمران الدارمي:

لا تبيك ثوبك إن ألبيت جدته وابيك الذى ألبت الأيام من بدنك
ولا تكونن محنالا بجدته فرجما كان هذا الثوب من كفنك
ولا تعف إذا أبصرته دنسا فلأما اكسب الأوساخ من دنك^(١٠٥)

وبعض الزاهدين يثيرون الدهشة، وبخاصة عبر القرن الحادى عشر، وساد الاعتقاد بأنه زاهر بالحفلات المستمرة يقيمها ملوك الطوائف، ويذكر من ذلك المرداني المدعو «بكارة»، وعاش مع زوجه وابنه الوحيد في ضواحي لشبونة، منقطعاً للصلاة والتأمل، ويتعيش من صيد السمك على شاطئ لإطلنتى، وراغباً في التكفير عن خطاياهم خرج للجهاد مشاركاً في صفوف المنطوعة الذاهبة لقتال النصارى، ولم يعد من رحلته هذه أبداً^(١٠٦)، أو ذلك الأديب العالم الذى عاش في سرقسطة، وأصبح اسمه مشهوراً في كل شبه جزيرة إبيريا بفضل الرسائل التى وجهها إلى كبار الكتاب في عصره، وأعنى به ابن السباغ. وقد وجه إليه أبو الفضل بن حسداى رسالة يقول فيها عنه: «... فالسلام عليك يا أيها الدسك المتصوف»^(١٠٧)، والمبتل المتكشف، الذى أقصر لماً أبصر، وفضل نور الحقيقة، على نور الحقيقة، فقطع العلائق، وهجر الحلائق، فأنت بمن تقول، ما لا تدركه الألباب والعقول: أخذ منى أنا، فبقيت بلا أنا، فبرجحك يستسقى الغمام، وبركة دعائك تستشفى الآلام، فإنك الرجل الزاهد والمربط المجاهد^(١٠٨)، وهذا فيما يعتقد أحد الشواهد النادرة على وجود الزهاد والمتصوفة في إسبانيا في القرن الحادى عشر الميلادى، ولا تعود في شىء على ما يبدو للفوران الدينى الذى أثاره المرابطون^(١٠٩). أما «أسباب التى حدثت أو أسرعت بحركة هذه الحمية، فيما يبدو، ولا نعرف من مظاهرها إلا

(١٠٣) من الواخر، المجلد ٢/٧٧، رينو عباد ٢١/٢.

(١٠٤) الإحاطة في أبحاث ط ٢ ج ١ ص ٢٨٥.

● لم أسطع الاخذاء إلى هذه الفقرة في الإحاطة طبة محمد عبد الله عثمان (الترجم).

(١٠٥) من البسيط، نفع ٣/٢٢٥.

(١٠٦) قص لنا تاريخه مؤلف مجهول في كتاب سسمى «السقط» وقد احتفظ لنا نفع الطيب ٣/٢٣٤ فقرات منه.

(١٠٧) من الضروري أن تبرز رسالة هذا الكاتب، اليهودى الأصل، كلمات اغنمها بعض المؤلفين فيما بعد عناوين لكتيبهم

التي ترجع فيها للصوفيين المغاربة، مثل: كتاب التنويع إلى رجال التصوف لابن الزينات التادلي، للتو ١٢٧

أو ٦٢٤ هـ = ١١٢٢ أو ١١٢١ م

(١٠٨) الذخيرة ٣/٢٨٦.

(١٠٩) انظر: ألفريد، التصوف في الغرب الإسلامى في القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى، في حوليات معهد

الدراسات للشرقية، كلية الآداب في جامعة الجزائر، المجلد الأول ١٩٣٤ - ١٩٣٥، ص ١٤٥ وما بعدها. وقد رأينا كيف أشار

ابن خفاجة - وهو يصف الجيل إلى الزهاد الذين اغنموا مقاما. انظر فيما سبق ص ١٤٣ من هذا الكتاب.

بعضاً متتاتراً ومنعزلاً في نهاية القرن العاشر ومطلع القرن احادي عشر^(١١٠)، فيجب أن نبحث عنها في عدم استقرار الثروات، وفي قلق العصر، وفي الدراسات لتأملية، باطنية ونظرية، وقد انغمس فيها الإسبان المسلمون بكل حرية، وعيناً أيضاً أن نبحث عنها في مشاهد الأطلال التي تعرض لعبونهم في كل لحظة، عقب الحروب بين الأندلسيين وأجبر^(١١١). إنها رد فعل ضد عدم الاكتراث السائد في لحظة تعدد فيها هجوم النصارى، وفي كل يوم يشتد ضراوة، وأيضاً يجب ألا نستغرب من انطواء الأرواح على نفسها، جريحة في ضميرها الذي، وفي كرامتها الوطنية^(١١٢).



لا يدهشنا إذن أن الأندلسيين جميعاً لم يلتزموا بدقة القانون الطبيعي الذي يريد الشيعة لاهية، والشيخوخة قاضية، وحالة أبي الحسن عبد الملك بن عيَّاش الجابري ليست بالضرورة حالة منفردة: عصيت هوى نفسي صغيراً وعندما رمتي الليال بالمشيب وبالكبر أطلعت الهوى، عكس القضية ليتي خلقت كبيراً وانتقلت إلى الصغر^(١١٣) وثمة شاعر آخر، انغمس كلية في متعة الشراب، رغم ثقمة في السن، ويقول: «أريد أن أجد الأمل في نفس اليأس»^(١١٤).

وإذا كان بعضهم واصل انغماسه في الملذات فلأنهم لا يرمنون باليوم الآخر، ويريدون أن يعترضوا حياتهم حتى آخر قطرة، يقول ابن خلفان: هجود ولا غير التسرع حثيئة لجنب ولا غير القبور قباب^(١١٥) ويقول ابن خيرة الصباغ:

فاشرط ولذ بجنة واطرب فإن العمر قائم^(١١٦)

وأوشك ابن ينق أن ينكر هت الأجساد:

ما أحسن العيش لو أن لفتي أبداً كالدرد يرجو تمناً بعد نقصان إذ لا سبيل إلى تخليد مآثرة إذ لا سبيل إلى تخليد جثمان^(١١٧)

ويلج غموض الموت على عقول بعض المفكرين، حي أن أبا بكر محمد بن يحيى لشلطيشي لا يعتقد في الحياة الأخرى:

(١١٠) انظر فيما سبق ص ٢٣ المامشر رقم ٤٠ من هذا الكتاب نقلاً من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب عن طبقات المجتمع الأندلسي المختلفة، وصاعد الأندلسي، طبقت الأمم ص ٦٨، وترجمة بلاشير ١٧٨.

(١١١) انظر فيما سبق ص ١١٥ من هذا الكتاب.

(١١٢) انظر فيما سبق ص ٩٢ من هذا الكتاب أبيات ابن الصالح عن إستيلاء النورمان على بربرشة.

(١١٣) من الطويل، نفع ٣٢٧/٤. الحق أن ابنه أبا الحسن علما قال بيتاً مفرداً في معنى ذلك، وهو هيناً له إذا لم يكن كاتبه الذي أطرح الهوى في حالتيه وما اعتبر

(١١٤) نفع ١٨٣/١١ طبعة أوروبا. (١١٥) من الطويل، الديوان، القطعة ١٦٥ ص ٢١٨، ونفع ٥٣٩/١.

(١١٦) من الكامل، انظر فيما سبق ص ٢٠٩ و ٢١٠ المامشر رقم ٤٠ من هذا الكتاب وص ٣٢١ المامشر رقم ٢٥.

(١١٧) من البسيط، نفع ٥٩٦/٣.

وفاء المير سر لم يكشف
سيفي كل ذي شبح ونفس
ويتصدع الجميع إلى صدر
كان مصائب الدنيا سهام
فقل ما شئت إن الفقر حذ
ولم تثبت حقيقة دراية
وتلتحق النهاية بالبداية
تعود به البرية كالبهاية
ها الأيام أغراض الرمايه
وعش ما شئت إن الموت غايه^(١١٨)

جاء إلحاد القرن الحادي عشر نتيجة الدراسات العلمية دون شك، وازدهرت بحرية تامة في إسبانيا الإسلامية خلال حكم ملوك الطوائف، ولدينا شاهد على ذلك في فيلسوف جامع في هذا العصر، هو صاعد الطليطلي^(١١٩) الأندلسي، يقول في كتابه طبقات الأمم:

«واتشترت تلك الكتب بأقطار الأندلس ووجد في أعلاقي من العلوم القديمة كانت أفلتت من أيدي المحتنين بحركة الحكم أيام المنصور بن أبي عامر وأظهر أيضاً كل من كان عنده من الرعية شيء منها ما كان لديه منها، فلم تزل الرغبة ترتفع من حين في طلب العلم القديم شيئاً فشيئاً، وقواعد الطوائف تنمصر قليلاً إلى وقتنا هذا، فالحال بحمد الله أفضل ما كانت بالأندلس في إباحة تلك العلوم، والإعراض عن تعجير طلبها، إلى أن زهد الملوك في هذه العلوم وغيرها».

وإذا كان ابن حزم شكا من تعصب المعتضد^(١٢٠)، فقد وجد ملاذاً في دانية عند مجاهد أميرها، ووزيره أبو العباس بن رشيقي، وفي هذا البلاط استطاع أن يناظر أبا الوليد الباجي عن الفقه وأصول الدين^(١٢١).

وكان يوسع أبي الوليد الوقشي أن يعلن في بيتين متكاملين من الشعر أن الدراسات الدينية والعلمية لا تفيد الإنسان في شيء، لأن حقيقة ما وراء الطبيعة، وهي ضرورية لإنجاة الإنسان، والعلم الحقيقي الوحيد، من المستحيل الوصول إليها، وأما العلوم الإنسانية، وإن أمكن تحصيلها، فشيء تافه وعيث وباطل:

برح بي أن علوم الرورى
حقيقة يعجز تحصيلها
اتنان ما إن فيها من مزيد
وباطل تحصيله لا يفيد^(١٢٢)

ثم جعل صديقاً لأبي محمد بن السيد البطلبوسى يتهم أبا الوليد الوقشي بالهرطقة، بعد عشر سنوات من تظلمه هذين البيتين، وأثار بين هذين الصديقين جدلاً، وأوضحنا أهيتة من قريب^(١٢٣).

(١١٨) من الرار، تقع ٩٠/٤.

(١١٩) صاعد الطليطلي، طبقات الأمم، طبعه شيخو ٦٧، ترجمة بلاشير ١٢٧. وانظر أيضاً: تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣.

ص ١٣٥، وأبحاث ط ١ ص ٤ هاشم.

(١٢٠) انظر ص ٣٩٣ - ٣٩٤ فيها سبق من هذا الكتاب.

(١٢١) انظر: الخلا ١٢٨/٢، وانظر أيضاً ص ٧٠ فيها سبق.

(١٢٢) من السراج، تقع ١٣٧/٤ و ٣٠٦.

(١٢٣) انظر: أسين بلايوس، موضوع الحاجة إلى الوعى في الإسلام وعند المدرسين، في مجلة الأندلس، المجلد ٣، العدد ٢.

عام ١٩٣٥، ص ٣٦٨ - ٣٧٤ و ٣٨٠ - ٣٨٩.

وثمة قصيدة لابن السيد هذا، تجعلنا نظن أن بعض الفلاسفة في عصره كانوا ينكرون التوحيد، يقول في بيت منها:

وللعقل عبَادٌ وللنفس شيعةٌ وتلهم عن منهج الحق حائدٌ^(١٢٤)

وأراد أبو الحسن رشيد بن سليمان أن يمدح أبا عيسى بن ليون على شعره، فخرجوا عن أن يقول:
نَظَّمْ وعيشك لو غدا نثرًا لما قدَّرته إلا من التَّزِيلِ^(١٢٥)

وأى مسلم مستقيم يعتبر مثل هذا الفرض كفرًا، حتى لو كان غير حقيقى. وإذا كان الكتاب الموحى به موضع حوار، فيمكن القول أن الحديث لم يبع من فكر الباحثين الناقد. يقول أندلسي:

أرى الخيرَ في الدنيا يقلُّ كثيرُهُ وينقص نقصًا والحديث يزِيدُ
فلو كان خيرًا كان كالخير كله ولكنَّ شيطانَ الحديثِ مريد
ولابن مُعِينٍ في الرجالِ منالُهُ سيأل عنها والمليك شهيد
فلن يك حقًا قوله فهي غيبةٌ ولن يك زورًا فالقصاصُ شديدٌ^(١٢٦)

وقد ردَّ عليه أبو عبدالله الحميدى، المتوفى عام ٤٨٨ = ١٠٩٥، وهو مؤرخ مُحدث^(١٢٧)، يقول:

واقى إلى إيظالِ قولِكَ قاصدُ ول من شهاداتِ النصوصِ جنودُ
إذا لم يكن خيرًا كلامٌ نينا لديك فلن الخير منك بعيد
وأقبح شيء أن جعلتَ نأقى عن الله شيطانًا وذاك نديد
ومازلت في ذكرِ الزيادة مُعجبا بها تبدى التلييس ثم تعيد
كلامُ رسولِ الله وحى ومن يرمُ زيادة شيء فهو فيه عتيدٌ^(١٢٨)

مثل هذا الهجوم كان يشكل خطرا على صاحبه في أزمان أخرى^(١٢٩)، أما الآن فليست إلا موضع نقاش بين رجال الدين، ومع أنها غالبا ما تكون غير ودية، لكنها لا تبلغ حد الكراهية أو القتل أبدا.

أما الأبيات الشعرية التي تقول إن عبادة التبيذ وأداء الصلاة يمكن أن يتعاشيا تماما^(١٣٠)، وأن تناول الخمر صباحا لا يحول مطلقا دون أن يلى شارها نداء المؤذن^(١٣١)، فليست إلا نزوة شاعر. ولكن،

(١٢٤) من الطويل، القلاد ١٩٥ - ١٩٦، وتحتوى القصيدة على ستة عشر بيتا.

(١٢٥) من الكامل، القلاد ١٠٠.

(١٢٦) ابن معن محدث معاصر قيا بيد، أنظر: نفع ٢٧٨/١ و ٨/٣ و ٣٣٨/٤.

(١٢٧) اشتهر الحميدى بكتابه «جذوة المتيس» بخاصة، وهو بحسوبة من التراجم للعباء، وجل ما فيه نقله منه من جاء به من العلماء، من ألفوا في مثل هذا اللون من الكتب، مثل لصة لابن بشكول، ويقول الحميدى:

الناس نيت، وأرياب القلوب لهم رضى، وأهل الحديث المساء والزهر
من كان قول رسول الله حاكمه فلا شهوة له إلا الألى وكروا

وهى من البسيط، نفع ٣٣٧/٤.

(١٢٨) من الطويل، نفع ٣٣٨/٤.

(١٢٩) عندما تحدث ابن طلحة بسوء عن رمضان في بعض أبياته حكم عليه بالموت، عام ١٢١ هـ = ١٢٣٤ م. انظر: نفع ٣٠٩/٣.

(١٣٠) ثمة أبيات للرمادى عن هذا الموضوع في الطبع، ونفع وهى من القصيدة.

(١٣١) أنظر ص ٢٢٩ قيا سبق من هذا الكتاب.

أحملهم حب الحياة بعيد، أكثر مما يجب، فيقول ابن اليسع صباح موقعة الزلاقة، وكان يوم جمعة:
عَطِشْتُ أبا بكرٍ وَكَفَّكَ دِيمَةً وَذُبْتُ اشْتِيَاً وَالْمَزَارَ قَرِيبُ
فَخَفَّفْتُ وَلَوْ بَعْضُ الَّذِي أَنَا وَاجِدٌ فَلَيْسَ بِحَقِّ أَنْ يُضَاعَ غَرِيبُ
وَوَفَّرْنَا مِنْ تِلْكَ حَظًّا نَرَى بِهَا نَشَاوِي وَبَعْدَ الْغَزْوِ سَوْفَ ثَوْبُ (١٣٢)

ولعب طائف الشك بفكر ابن عمار أحيانا، وشاهدنا على ذلك حين توجه إلى المسجد مع المعتمد في يوم جمعة، وسمع الصديقان المؤذن يدعو للصلاة، فارتجل المعتمد البيت التالي، وطلب من ابن عمار أن يميزه، قال المعتمد:

هَذَا الْمُؤَذِّنُ قَدْ بَدَأَ بِأَذَانِهِ
فَقَالَ ابْنُ عِمَارٍ: يَرْجُو بِذَلِكَ الْعَفْوَ مِنْ رَحَائِهِ
فَقَالَ الْمَعْتَمِدُ: طَوْبِي لَهُ مِنْ شَاهِدٍ بِحَقِيقَةٍ
فَقَالَ ابْنُ عِمَارٍ: إِنْ كَانَ عَقْدُ ضَمِيرِهِ كَلْسَاتِهِ



إن الشك الذي أوضحنا بعض مظاهره لم يكن شائعا كما يمكن أن يظن، لأن الأندلسي يحتفظ في أعماق روحه بإيمان بالله القوى الرحيم، وإذا كان الأندلسي المسلم يثق في رحمة الخالق الرحمن الرحيم، فإنه يعتقد أيضا - ونرى في هذا بقايا مفاهيم مشرقية - أن الدهر أو الزمن سيضطلع، قبل أو بعد، بإقامة العدل الذي انتهكه الناس، يقول أحد الشعراء:

إِذَا مَاجَنِي يَوْمًا عَلَيْكَ جَنَابِيَّةُ ظُلُومٍ يَدْنُقُ السَّرَّ بِأَسَا وَيَقْصُفُ
فَلَا تَنْتَقِمُ يَوْمًا عَلَيْهِ بِمَاجَنِي وَكُلَّ أَمْرَةٍ لِلدَّهْرِ فَالْدَّهْرُ مَنَصَفُ (١٣٤)

إن أحد الانطباعات السائدة التي نخرج بها من قراءة الشعر الأندلسي أن الإنسان مهما كان الوضع الذي ينتمي إليه، يعي ضعفه. يقول بكار المرواني: «إن هذه القلوب المخلاة لله كالورق التي جفت، وهي مستعدة لهبوب الرياح» (١٣٥)، وكل أفكاره وأعماله يجملها الخشوع، ويعطرها التواضع، ويجب أن يكون واعيا بتفاهة الأشياء، وأن يعرف كيف يظهر التواضع في أيام الرخاء. يقول السمسير:

هُنَّ إِذَا مَا نَلَتْ حَظًّا فَأَخَّرَ الْعَقْلُ يَهُونُ
فَمَقَى حَظُّكَ دَهْرُ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ (١٣٦)

ويقدم لنا الشاعر نفسه النصيحة التالية، وفيها يدعو إلى التخلي عن الطموح:

إِذَا شَنَّتْ إِبْقَاءَ أَحْوَالِكَ فَلَا تُجْبِرْ جَاءًا عَلَى بَالِكَ
وَكُنْ كَالطَّرِيقِ لَجْتَازِهَا يَمُرُّ وَأَنْتَ عَلَى حَالِكَ (١٣٧)

(١٣٢) من بحر الطويل، الثلاث: ١٧٠، والحلة ١٧٤/٢.

(١٣٣) من الكامل، خريدة القصر، رنو عباد ٢٨٤/١، والحلة ٥٥/٢، وثنو عباد تولا عن الحلة ٦٣/٢، ونفع ٦١٦/٣، وتاروخ

مسلم إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٨٤.

(١٣٥) نفع ١٢٥، ط ٣٦٦/٢.

(١٣٤) من الطويل، نفع ٣٤٣/٤.

(١٣٦) من السريع، نفع ١١٧/٤.

(١٣٦) من الرمل، نفع ١١٧/٤.

(١٣٨) من البسيط، الثلاث: ٢٥٥.

ويقول أبو الفضل بن شرف:

إِنِّي وَإِنْ غَرَّنِي نِيلُ الْمَيِّ لَأَرَى حِرْصَ الْفَقِي خَلَّةً زِيدَتْ إِلَى الْعَدَمِ (١٣٨)
وقد لحظ الأعمى التطيلي «أن الثراء مصدر كثير من الهموم» (١٣٩)، وكان ابن بُرْطُلَه يَرى الخمول
شرطاً في السعادة، يقول:

لِلَّهِ مَا أَلْقَاهُ مِنْ حِمَّةٍ لَا تَرْضَى إِلَّا الشُّهَاءَ مَنْزِلًا
وَمِنْ خُمُولٍ كَلَّمَا رَمَتْ أَنْ أَسْمُو بِهِ بَيْنَ الْوَرَى قَالَ لَا (١٤٠)
وما أروعها حكمة ينثرها أبو إسحاق الإلبيري في الآيات التالية:

قَالُوا: أَلَا تَسْتَجِدُّ بَنِيَّ تَعْجَبُ مِنْ حُسْنِهِ الْيَبُوتُ
فَقُلْتُ: مَا ذَلِكُمْ صَوَابٌ حَفَشِي كَثِيرٌ لِمَنْ يَمُوتُ
لَوْلَا شِتَاءٌ وَلَفُحٌ نَيْظٌ وَخُوفٌ لَصٌّ وَحَفْظٌ قُوتُ
وَنَسْوَةٌ يَبْتَفِينُ سِتْرًا بَنِيْتُ بُنْيَانَ عَنكَبُوتِ (١٤١)

وبعض الأندلسيين من ذوى الأرواح العالية ينجفلون من مراتب المجد التي يبلغونها، ولذلك
يعتدرون عنها، كما لو كانوا بصدد إهانة وأمثالهم، يقول ابن حزم:

لَا تَلْمِزْنِي لِأَنَّ سَبْقَةَ لِحْظٍ فَاتٌ إِدْرَاكِهَا ذَوَى الْأَلْبَابِ
يَسْبِقُ الْكَلْبُ وَثِمَةً اللَّيْثُ فِي الْعُدِّ وَوَعَلُو النُّخَالُ فَوْقَ اللَّيْلِ (١٤٢)
ويعنى ابن حزم لو أن العالم كله كان في تواضع:

لَا يَشْتَمُنْ حَاسِدِي إِنْ نَكَبَتْ عَرِضْتُ فَالِدِمْرُ لَيْسَ عَلَى حَالِهِ يَتَرَكُ
ذُو الْفَضْلِ كَالْتَبَرِ طَوْرًا تَحْتَ مِيقَةِ وَتَارَةً فِي ذَرَى تَاجٍ عَلَى مَلِكِ (١٤٣)

ومع ذلك، لا يمكن القول بأن العجب قد اختفى تماماً عند الأندلسيين، فقاضى بلنسية ابن جعاف،
الذى أحرقه السيد، يقول وقد أخذته عوة النفس، في اللحظة التي حدس فيها، دون شك، بأن موته
أصبح شيئاً مقررًا:

لَنْ كَانَ الزَّمَانُ لَوَازِدَ حَطِيٍّ وَجَارِبِي بِأَنْسَابٍ وَظَفِيرِ
كَفَانِي أَنْ تَصَافِيَنِي الْمَعَالِي وَإِنْ عَادِيَنِي بِأُمِّ دَقْرِ
فَمَا اعْتَزُّ اللَّثِيمُ وَإِنْ تَسَامَى وَلَا هَادَ الْكَرِيمُ بَغِيرِ وَقْرِ (١٤٤)

(١٣٨) من البسيط، القلائد ٢٥٥.

(١٣٩) القلائد ٢٧٦.

(١٤٠) من السريج، نفع ٤٦٣/٣.

(١٤١) من البسيط، الديوان، القصيدة رقم ١٣. وكلمة «حفش» التي في البيت الثاني يوجد مكانها «عش» في نفع الطبيب

٤٩١/٣، وأبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٧٢.

(١٤٢) من الخفيف، نفع ٨٤/٢.

(١٤٣) من البسيط، نفع ٨٢/٢ والمعجب ٤٨، وترجته ٤١، وياقوت، معجم البلدان ٩١/٥، وأسني بلايوس، ابن حزم لقروملي

٢٣٩/١. ويعطى دوزي، في رسالة إلى فليشر ٦ - ٦٣، معنى «مطرقة» معتمدا على أمثال غير مقتعة لنا.

(١٤٤) من الرائق، نفع ٣٠٩/٤.

وقد احتفظ المعتمد بعزة نفسه حتى في اللحظة التي أخذ فيها طريقه إلى المنفى، ولكنه لم يلبث أن أفسح المجال لشعور متواضع جداً، عبر عنه بكلمة «الحياء»، ويمكن أن تُترجمها بمعنى آخر غير الحياء أو الخجل، مثل «الاحتشام» أو «الاحترام»، لأنه أدق في التعبير عما يريده في هذا المجال، يقول وقد تعرض له شعراء طنجة وهو في طريقه إلى المنفى:

لولا الحياء وعِزَّةُ لَحْمِيَّةٍ طَى الحشا ساواهم في المطلب^(١٤٥)

نعم، كل شيء زائل، ولكن ثمة شعورا باقيا على الأقل، اسمه المودة، يدق القلب، وقد ندعوه صداقة أو حنانا. أى إيقاع بالغ الإثارة نجده عند بعضهم، عندما تضطرهم الظروف إلى ترك نساتهم وأبنائهم، وبخاصة في ظروف «الفتنة» الصعبة. يقول ابن درّاج، متحدّثا عن زوجه:

ولما تدانث للوداع وقد هفا بصبري منها أنة وزفير^(١٤٦)
تاشمذي عهد المودة والهوى وفي الهيد مفهوم النداء صغير^(١٤٧)

وقد عبر ابن أبي عبيدة عن تعاسته لفراق أحبته الأعزاء عليه:

تذكرتهم والنسأى قد حال دونهم ولم أنس لكن أوقد القلب لائق
ومما شجاني هاتف فوق أيكة بنوح ولم يعلم بما هو نائح
فقلت أتند بكفيك أتى نازح وأن الذي أمواه عنى نازح
ولى حبيبة مثل الفراخ بثقيرة مضى حاضنها فاطحتها الطوائح
فمن لصفار بعد فقد أبهم سوى سائح في الدهر لو عن سائح^(١٤٨)
ولم يكن المعتمد وهو يقاتل في الزلافة يفكر في غير ابنه أبي هشام:

أبا هاشم هشتنى الشفار فلله صبري لذاك الأوار
ذكرت شغيصك ما بينها فلم يُثنى حبه للفرا^(١٤٩)

وألمعت الصداقة الشعراء أحيانا جملة، يقول غانم الغرناطي متأثرا بكلمات تسبّت إلى الخليل بن أحمد: «ما تضايق سمّ الخياط بمنحايين، ولا اتسعت الدنيا لتباغضين»:

صبر فؤادك للمحبوب منزلة سمّ الخياط بجمال للمحبين
ولا تسامح بغيضا في معاشرة قللّا سمّ الدنيا بغيضين^(١٥٠)

(١٤٥): من الكامل، الذخيرة ٦٧/٢، وبنو عباد ٣١٤/١، والمعجب ١٤٥، وترجمته ١٢٣.

(١٤٦): انظر: الديوان ص ٢٥٠، وبلاشير، حياة أندلسي شاعر منسل وأعماله: ابن درّاج القسطل، مجلة مسيريس ١١٣٣.

الجلد ١٦، ص ١٠٣، وانظر نفع ١٩٥/٣، والأبيات من الطويل.

● عن «الفتنة» ظروفها وأحداثها وفصيلاتها، انظر: الطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن حزم وكتابه طرق المصالحة، ص ١٠٦ وما بعدها، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢، المترجم.

(١٤٧): من الطويل، اللطخ ٢١٣، وعنه نقلها نفع ٥٤٨/٢.

(١٤٨): من المتقارب، الذخيرة ٧٣/٢، وبنو عباد ٣١٧/١ و ٣٦٢.

(١٤٩): من المنسرح، نفع ٣٦٥/٢.

وأقل مبالغة مما سبق جاء قول أبي الفضل الدارمي:

بين كريمين منزلٌ واسعٌ والودُّ حالٌ تقربُ الناسِ
والبيتُ إن ضاقَ عن ثمانيةٍ متسعٌ بالودادِ للتاسعِ^(١٥٠)

والصدقة تعين المرء على اقتحام كل الصعاب، حكى أن ابن حزم قصد أبا عامر بن شهيد في يوم غزير المطر والوحل، شديد الريح، فلقبه أبو عامر وأعظم قصده على تلك الحال، وقال: يا سيدي، مثلك يقصدني في مثل هذا اليوم! فأشده ابن حزم بديهة:

فلو كانت الدنيا دُونِكَ لَجِئْتُ وفي الجَوْ صَعَقٌ دائمٌ وحريقٌ
لسهلٌ وتى فيك نحوك مسلحاً ولم يحذر لي إليك طريقٌ^(١٥١)

ولا يمكن الترحيب بمقدم صديق بطريقة أقوى حثانا بمثل ما فعل ابن اليسع مرحبا بابن عمار:

لما دنوتُ وعندي حظٌ من الشوقِ وإن
فصمتُ قلبي قبلِي فصنه حتى أوافي^(١٥٢)

ولا تتجلى مظاهر الصداقة بأفضل مما تتجلى في القرى، يقدمونه لشخص محترم، ولم يكن الأندلسيون يتقدمون، فيما يبدو، باستضافة ضيوفهم ثلاثة أيام فحسب، كما يوصى الحديث. وقد شكوا ابن الحاج اللورقي أن المعتمد استضافه ثلاثة شهور دون أن يلقاه^(١٥٣)، ويستطيع الضيف العابر أن يبقى كل الزمن الذي يريد، ويعتبرون وجوده نعمة وبركة، وبخاصة إذا كانت تربطه بمضيفه صداقة وطيدة. أية روعة تحمل كلمات ابن الحاج اللورقي - وأجروا على أن أصفها بمسيحية - تلك التي يقول فيها:

عجبا لمن طلبَ المحامد وهو يمنع ما لديه
ولباسيط آماله في المجد لم يسطر يديه
لم لا أحبُّ الضيفَ أو أرتاح من طربِ إليه
والضيفُ يأكل وزقه عندي، ويحصدني عليه^(١٥٤)



يكن سر النفس الأندلسية، إذا تأملناها جيدا، في الإحساس بالقلق، والشعور بالكآبة أمام الحياة، والإنساني المسلم لا يبلغ في الاستمتاع بالسعادة فمتناه. لا في الحب ولا في العلاقات اليومية مع أترابه^(١٥٥). ولقد أتينا على أمثلة كثيرة لذلك، وإليك المزيد منها لمزيد من توضيح هذا الميل الطبيعي

(١٥٠) من المسرح، نفع ١١٢/٣.

(١٥١) من الطويل، نفع ٨٣/٢.

(١٥٢) من المجتث، الحلة ١٧٤/٢.

(١٥٣) انظر فيما سبق ص ٧٣ من هذا الكتاب.

(١٥٤) من محزوه الكامل، لتلائد ١٢٢. ونفع ٥٩٦/٣.

(١٥٥) يقول الأمير عبد الله آخر ملوك بني نصر في غرناطة هذه الكلمات المميزة في مذكرته: «كان يطعم غرقا في القلى

والوداد»، انظر طبعة لبني بروتسال، فصلة: النص العربي، ص ١١٢، والترجمة ١٦٩.

إلى القلق. صاح المعتمد ذات ليلة في هدوء حدائق البحيرة الكبرى:

أيما نفس لا تجزعي واصبري والّا فإن الهوى مُتَلَفٌ
حييُّ جفاك وقلب عساك ولاح لحاك ولا يُنصف
مجنون منّ الجفون الكرى وعوضنها أدمعاً تنزف^(١٥٦)

وتعطى الحياة. نتيجة عدم الرضا المستقر في القلب، انطباعاً حزينا، يقول ابن السمّاك:
وكم راغب في موضع لا ينالُه وأسميتُ منه مثل يونس في اليم^(١٥٧)
بهذا قضى الرحمن في كل ساطعٍ يموت على كره ويحيا على رَغَم

ويأخذ القلق عند بعضهم صورة الرغبة الدائمة في التنقل بلا توقف، يقول أبو عيسى بن ليون:
ذروني أجب شرق البلاد وغربها لأشفي نفسي أو أموت بدائي
فلست ككلب السوء يرضيه مرض وعظّم، ولكن عقاب ساء
تجوم لكيا يدرك الحصب حومها أسام أمامي أو وراء ورائي
وكنت إذا ما بلدة لي تنكرت شددت إلى أخرى مطي إبائي
وسرت ولا ألوى على متعذر وصمت لا أصغي إلى النصحاء
كشمس تبتت للعيون بمشرق صباحا، وفي غرب أصيل مساء^(١٥٨)

ورغائب المرء هي التي تودي به إلى لتعاسة والبؤس، يقول الأعمى التطيلي:

تنافس الناس في الدنيا وقد علمو أن سوف تقتلهم لذاتها بددا
قل للمحدث عن لقمان أو لبيد لم يترك الدهر لقمانا ولا لبيدا^(١٥٩)
وللذي همّه البنيان يرفعه إن الردي لم يغادر في الثرى أحدا
ما لابن آدم لا نفى مطامعه يرجو غدا وعسى أن لا يعيش غدا^(١٦٠)

نجد في الآيات التي مرت صدى فلسفة «المدرسين» تتضح إحباطا، ويقول ابن حزم في فطنة مذهبة، تظهر كل ما يتسم به فكره من عمق نفسي:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأنكرنا فجاءه تقي ولذاته نفى
إذا مكنت فيه مسرة ساعة تولّت كمر الطرف واستخلفت حُزنا

(١٥٦) من المتأرجح، الديوان ٢٦، القلائد ٩، وعنها في «هو عباد» ٥٣/١ و ٩٨، ونفع ٢٨٠/٤، وعن البحيرة الكبرى انظر ص ١٣٦ فيما سبق من هذا الكتاب، والمناش رقم ٩٩.

(١٥٧) من الطويل، نفع ٣١٥/٣.

● قلت: في الأصل الفرنسي «ابن السمان»، ولكن في المصدر الذي أحيانا عليه المؤلف «ابن السمان» (للترجم).

(١٥٨) من الطويل، القلائد ١٠٢، والنخبة ١٠٨/٣، والمجلة ١٦٨/٢، وأبيات ط ١ ص ٥٢٥ - ٥٢٧.

(١٥٩) لقمان شخصية أسطورية من الوثنية العربية، حياته تعدل حياة النسر سبع مرات. ولبد اسم آخر نسر بهاء لقمان؛ نظر

دائرة المعارف الإسلامية ٣/٣٦ - ٣٩، كتب المادة هـ.

(١٦٠) من البسيط، نفع ٣٢١/٤.

إلى تبعات في المعاد وموقف
حصلنا على هي وإثمه وحسرة
حنين لما ولى، وشغل بآ أن
كان الذى كنا نسر بكونه
نود إليه أتيا لم تكن كنا
وفات الذى كُنا نلذ به عنا
وهم بما يفتنى فعينك لا هنا
إذا حققت النفس لفظ بلا معنى^(١٦١)

لقد أتيت لنا الفرصة حين تحدثنا عن الأعياد الدينية كي نظهر أن الإسبانى المسلم كان يحتفل بأعياد النيروز والمهرجان، وحتى عيد الفصح، في انتظام وحساسة لا يقلان عن احتفاله بالعديد من الإسلاميين الخالصين: عيد الفطر وعيد الأضحى، فلا يدهشنا إذن أن نجد شاعرة تسمى نزهون بنت القلاعى تصور لنا في أبيات من الشعر اللحظات البهجة التى أمضتها مع صديقها ليلة الأحد^(١٦٢)، وهو لا تثنى، فيما يحتمل، يوم السبت ليلة الأحد، كما هو في المفهوم السامى، وأما يوم الأحد، ليلة الاثنين.

ولا يدهشنا في شيء أن يشير الشعراء إلى شخصيات التوراة، لأن القرآن يضم جانباً لا بأس به من الأنبياء والرسل الذين سبقوا المسيح مفصلاً إلى حد ما، ونلاحظ أن هذا يحدث بحصة حين يعبرون عن آلامهم، وعندما يتذكر المعتصم أن ابنه سجين في غرناطة يصرخ مستسلماً:
لئن كنت يعقوب في حزنه يوسف أنت فصير جيل^(١٦٣)

نستطيع القول أن الأدباء المسلمين لم يكونوا يعرفون التوراة من خلال القرآن فحسبه ولا بد أن بينهم من كان يقرأ العهد القديم، لا في نصه الأصلي وإنما في ترجماته العربية، وحالة ابن حزم هي الأكثر إقناعاً فيما يتصل بهذا الأمر^(١٦٤)، وكان قرأ الإنجيل كثيرين، ويقول ابن حزم إنه قرأ في الإنجيل هذه الفقرة: «لا يفقد النبی حرمة إلا في بلده»^(١٦٥).

وإذا كان بعضهم ظل مسجوناً داخل رموز الأناجيل، فإن آخرين تعمقوا معانيها، مثل ابن الجدي عندما كتب إلى ابن القروي، وهو من أصل يهودى كما نعرف:

(١٦٦) من الطول، مطمح ٢٨٦، والضى، بقية ٤٠٤، رقم ١٢٠٤، وابن بنكول، الصلة ص ٤٠٩، رقم ٨٨٨، وللمعجب ٤٧، وترجمته ٤٠.

(١٦٢) نفع ٢٩٨/٤.

● أميل إلى الأخذ بالمفهوم الشرقى لأن إسبانيا المسيحية اليوم، وتختلف فيها كثير من التقاليد الإسلامية، تكون شدة ما تكون احتفاء واحتفالاً وبهجة وصخباً يوم السبت ليلة الأحد، أى ليلة الأحد بالمفهوم السامى، على حين تكون ليلة الأحد عشية الاثنين بالمفهوم الأوروبى، هادئة ساكنة نسياء، لأن الناس بأورون إلى بيوتهم مبكرين استعداداً للمعلم في الصباح. «للترجم».

(١٦٣) من المتناوب، المجلد ٨٩/٢، وأبحاث ط ص ١٢٠ - ١٢١، والطبعة الثالثة ٢٧٠/١.

(١٦٤) انظر مثلاً طرق الحمامة ص ٢٤: «ورأت السفر الأول من التوراة أن النبي يعقوب عليه السلام أيام رعي غنماً لابن خاله...» وانظر ترجمة نيكل ص ١١ - ١٢، وطبعة يرشيه ٢٤ - ٢٥.

(١٦٥) نفع ١٦٦/٢، وانظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ٧٦. وما أن هذه الجملة ليست في الإنجيل الذى بين أيدينا بقصها حرفياً، فمن المرجح أن ابن حزم كان يستخدمه سترجماً.

وقد أوضح أسين بلاثيوس أن ابن حزم يستخدم في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» نصراً من الأناجيل للامعة في دقة بالغة، معتمداً على ترجمة عربية تمت بما هو مؤكد تقريباً من الترجمة اللاتينية التى كانت شائعة على أيامه. انظر: ابن حزم القرطبي، ٤٨/٢.

هَلَّا عَذَرْتَ عَلَى الْبَطَانَةِ أَهْلَهَا وَرَأَيْتَ رَأْيًا فِي الْمَدَامِ أَصِيلًا
 هِيَ مَا عَلِمْتَ فَإِنْ عَرَّتْكَ جِهَالَةٌ فَاسْتَفْسِرُونْ مِنْ سِرِّهَا الْإِنْجِيلًا^(١٦٦)
 ويمكن أن نرى في هذا البيت إشارة إلى سر استحالة الخمر والخبز إلى دم المسيح ولحمه طبقاً لإنجيل
 يوحنا المعمدان.

وأما الإشارات المتعددة إلى مريم العذراء والمسيح فهي ذات طابع إسلامي ومسيحي في الوقت
 نفسه، يقول الخليفة الأموي المهدي، وقد بعث إلى مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري بدنانير وكتب
 إليها:

أَشْبَهْتَ مَرْيَمَ الْعِزْزَاءِ فِي وَرَعٍ وَفَقْتَ خُسَاءَ فِي الْأَشْعَارِ وَالْمَثَلِ^(١٦٧)
 وَالْمَسِيحَ هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي أَتَى بِالْمُعْجَزَاتِ بِمَجْدٍ لِمَسِ الرُّضَى^(١٦٨)، ويعبر ابن سارة عندما طلب
 النجدة من القاضي أبي أمية على النحو التالي:

فَمَا جِئْتَ جَالِنُوسَ مَسْتَشْفِيَايَه وَلَا عَلَيَّ حَيْثُ الْمَسِيحُ بِنَ مَرْيَا^(١٦٩)
 وَلَكِنِ الْمَسِيحَ بِخَاصَّةٍ يَدُو نَبِيًّا تَجَسَّدَ فِيهِ الْخَيْرُ وَالتَّسَامُحُ وَنَجِرُو عَلَى أَنْ نَقُولَ وَالْبِرُّ La Chanté،
 ولو أن هذه الكلمة ليس لها ما يقابلها في العربية بدقة، وقد كتب المعتمد إلى والده خوفاً من غضبه
 بعد إخفائه أمام مائقة يقول:

مَوْلَايَ أَشْكُو إِلَيْكَ دَاءً أَصْبَحَ قَلْبِي بِهِ جَرِيحًا
 سَخَطَكَ قَدْ زَادَنِي سَقَامًا فَبَابِعْتُ إِلَى الرُّضَى مَسِيحًا^(١٧٠)
 وفيما نرى فإن الراضى بن المعتمد يتحدث عن امرأة أحبها كما لو كانت ملاكاً طيباً، طبقاً للمفهوم
 المسيحي:

يَا قَمَرًا أَصْبَحَ لِي مَالِكًا لَا تَتْرَكْنِي هَكَذَا هَالِكًا
 وَقَى عَلَى قَلْبِي الْعَمِيدَ الَّذِي يَوَدُّ لِي يَجْرِي عَلَى بَالِكَا
 حَسُنْتَ فِي خَلْقٍ وَخُلِقْتَ فَلِمَ رَضِيتَ بِالْقَبْعِ لِأَنْعَمَالِكَا^(١٧١)

وإذا كان الأندلسيون يظهرون في عداوتهم شيئاً إنسانياً عميقاً فإنما يعود ذلك بخاصة إلى
 استسلامهم للقدر، وهو استسلام يشوبه القلق والحزن. وإذا كان المعتمد قد احتفظ في التاريخ
 بشخصية مؤثرة للغاية، فإن ذلك لا يعود إلى قصائد الحب أو الخمر التي أبدعها، بقدر ما يعود إلى تأثير

(١٦٦) من الكامل، الدخيرة ٥٦٢/٢، ونظر فيما سبق ص ٢٤٥ من هذا الكتاب، الهامش رقم ٨٤.

(١٦٧) من البسيط نفع ٢٩١/٤.

(١٦٨) نفع ٢٠٥/٢.

(١٦٩) من الطويل، الثلاث ٢٦٣.

(١٧٠) من البسيط، الديوان ٣٣، ولقلائد ١٩، وعنها في «بنو عباد» ٥٣/١ و ١٣٤، وخريدة القصر، في «بنو عباد» ٣٨٦/١،
 والحلقة ٥١/٢، وعنها في «بنو عباد» ٦٧/٢ و ٦٨، ونفع ٩٢/٤.

(١٧١) من السريع، خريدة القصر، ج ٢ من قسم شعراء المغرب والأندلس، طبعة تونس ١٩٧١، ص ٤٧، وعنها في
 «بنو عباد» ٤١١/١.

الناس بتلك الأشعار التي نظمها في المنفى، ونشعر لحظة قراءتها كم كان قلبه كبيراً، وأى شعور طيب كان يكته لعائلته وأصدقائه الذين ظلوا أوفياء له^(١٧٢). ونجد عظمة الروح نفسها عند أبناء المعتصم، وكان عليهم أن يبحثوا عن ملاذ في بجاية قريباً من الحماديين، يقول أحدهم، وهو عز الدولة:

لَكَ الْحَمْدُ بَعْدَ الْمَلِكِ أَصْبَحْتُ خَامِلاً بِأَرْضِ اغْتِرَابٍ لَا أَمِيرُ وَلَا أَحَلِي
وَقَدْ أَصْدَأْتُ فِيهَا الْجَذَاذَةَ أَثْمَلِي كَمَا نَسِيتُ رَكْعَتَ الْجِيَادِ بِهَا رَجَلِي
فَلَا بِسْمِي يُصْغَى لِنَعْمَةٍ شَاعِرٍ وَكَفَى لَا تَقْتَدُ يَوْمًا إِلَى بَثَلٍ^(١٧٣)

وما يدهشنا في هذا الخضوع أنه لا يختص من قدر من يقبله أو اتصف به، ويمكن أن نقول مع شاتوبريان دون أن نمس حرفية نصه بقربا: «كان التواضع يعنى الخسة عند العرب القدماء، والكبر يعنى العظمة، وعلى التقيض بين الاسبان المسلمين في القرن الحادى عشر^(١٧٤)، فإن الكبر أول الأتنام، والتواضع من أعظم الفضائل»^(١٧٥).



لا يزال لدينا بعد جانب من الروح الأندلسي بالغ الأهمية، وأعني به تساميمهم في التعادى، وقدرتهم على امتصاص الألم، فقد ظل الروح الأندلسي مؤمناً جذرياً، ويرى في الألم تطهير النفس وسمواً بها، ولم يبلغ به الحال أبداً درجة الإحباط أو الانتحار.

والانتحار لا يحدث كثيراً في الإسلام^(١٧٦)، وفي إسبانيا القرن الحادى عشر لا نستطيع أن نذكر غير محاولة في لحظة إحباط، حين أمسكوا عبد الرحمن شنجول، واقتادوه إلى المهدي فأخرج من نعله ختجراً ليقتل به نفسه، ولكنهم تدخلوا للحيلولة دون ذلك في الوقت المناسب^(١٧٧).

ويزعم بعض المؤرخين أن الفكرة نفسها راودت المعتمد عندما استولى المرابطون على إشبيلية، وأرغموه على التسليم بلا شروط، ولكنه صرف النظر عن خطته تقى وخشية من الله^(١٧٨).

(١٧٢) عن هذا الموضوع انظر: نوح ١١٦/٤ و ٢١٥/٤ و ٢٥٩/٤. والغلاد ١٢ و ٢٥ و ٢٨، وعنه في «بنو عباد» ٤٨/١ و ٦٣ و ٦٤ و ٦٨، والدخيرة ٦٢/٢، وفي «بنو عباد» ٣١٧/١، والمحلة ١٧/٢، والمعجب ١٥٦، وترجمته ١٣. (١٧٣) من الطويل، نفع ٣٦٨/٣، وأبحاث ط ٢ ص ١٢٥، وتوجد صورة نثرية لهذا الأمير كتبها ابن اللبابة في نفع ٣٦٨/٢ وترجمها دوزى في أبحاث ط ١ ص ١٦٦ - ١٢٧ وط ٣ ص ١ - ٢٧٣ - ٢٧٥.

(١٧٤) شاتوبريان استخدم هنا لفظ «المسيحيين».

(١٧٥) عبقرية المسيحية، طبعة جارييه ١٩٤/٢.

(١٧٦) عن هذا الموضوع انظر: مصطفى جواد المتحورون في الجاهلية والإسلام، في مجلة الهلال، المجلد ٤٢، فبراير ١٩٣٤، ص ٤٧٥ - ٤٧٨، والنويرى، نهاية الأرب ١٨٢/٢ - ١٨٤ (الانتحار من أجل الحب).

(١٧٧) انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ص ٢٨٩، وتذكر أيضاً حالة ابن سبعين المرسى النثرة، وقد انتحرت في القرن السابع الهجرى = الثالث عشر الميلادى، بأن قصده يده وترك الدم يخرج حتى تصفى، ابن شاكر الكشي، فوات الزيات ٥١٦/١، وديباج، مدخل لطيفة نفع الطبيب الأروبية ٥١/١، ومهرن، رسائل الفيلسوف الصوفي ابن سبعين ٣٥٠، وأمازى، مسائل فلسفية، في المجلة الأسبوية، السلسلة الخامسة، المجلد ١ عام ١٨٥٣، ص ٢٥٦ - ٢٥٧، ماستيون، مجموعة من المصوص غير المنشورة ١٢٣.

دج. س. كولبن، المقصد، ترجمة مع تعليقات ص ١٨١

(١٧٨) ولقد رث على الذين خوفوه من الاستسلام:

وَأَلَدَ مِنْ طَمَعِ الْخَضْوِ عَ عَلَى نَفْسِ الْمُسْتَعِجِ =

ويقدم أبو عامر بن شهيد من النصف الأول من القرن الحادى عشر، فقد توفى عام ٤٢٦ = ١٠٣٥، وأنبئت لما الفرصة أن نذكره أكثر من مرة، الشخصية الأقوى تمثيلاً لإنكار الذات المنسجم بالبطولة، فقد منعه الفالج من الحركة، ولم يكن يرى أصدقاءه إلا وهو فى محفة، أى ألم يجب أن تصوره لهذا الرجل، وكان فى هذه اللحظة قد ودّع كل نشاط بدنى، ولكن عقله ولسانه ظلّا سليمين، وما هو أروع، وسأرى أكثر، أن قلبه احتفظ بكل طبيعته الطبيعية، ولم يتخل عنه أصدقاؤه أبداً، وكان بالنسبة لهم سقراط الجديد، يجتمعون حوله ليتحدث إليهم عن النشاط الذى يجب على الرجل النبيل حقاً أن يحتفظ به أمام الألم:

إِنَّ الْكُسْرِيَّ إِذَا نَابَتْهُ عَمَصَةٌ أَدَّى إِلَى النَّاسِ رِيًّا وَهُوَ ظِمَانٌ
يَحْنَى الضُّلُوعَ عَلَى مِثْلِ اللَّظَى حُرْقًا وَالْوَجْهَ غَمْرًا بِمَاءِ الْبُشْرِ مَلَانٌ (١٧٩)

وقد يتطلب عليه اليأس عندما يكون وحيداً، ولكنه ما أسرع ما يسترد الأمل:

أَنُوحُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْدُبُ نَبْلَهَا إِذَا أَنَا فِي الضَّرَاءِ أَزِمْتُ قَتْلَهَا
رَضِيَتْ قَضَاءَ اللَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ عَلَى وَأَحْكَامًا تَبَقَّتْ عَدْلَهَا
أَظَلُّ قَعِيدَ الدَّارِ تَجَنُّبِي الْعَصَا عَلَى ضَعْفِ سَاقِي أَوْهَنَ السَّقَمِ رَجْلَهَا
فَمَنْ مِثْلُ الْفَتْيَانِ إِنْ أَخَاهُمْ أَخَوْفَكَ شَتَاءَ مَا كَانَ شَكْلَهَا (١٨٠)

نشعر مع هذه الأبيات بحدة معاناة الشاعر، ورغم ذلك ظل محتفظاً بشيائه، وقریباً جداً من نهاية حياته أحسن ابن شهيد، وقد طهره الألم، أنه محمول نحو آفاق من الطمأنينة الهادئة، وجعله هذا الصعود ينسى آلامه، ويواجه الموت هادئاً، وكانت كلماته الأخيرة لأبى محمد بن حزم، وهو الذى تلقى، فيما يبدو، آخر رغباته شاعراً، أحب الكلام الفخيب والموسيقا بقوة، ومؤمناً أيضاً بيق فى رحمة الله:

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْعَيْشَ وَلِئْ بِرَأْسِهِ وَأَيَقُنْتُ أَنَّ الْمَوْتَ لَا شَكَّ لَاحِقِي
تَحَنَّنْتُ لَفَى سَاكِنٌ فِي غِيَابَةٍ بِأَعْلَى مَهَبِ الرِّيحِ فِي رَأْسِ شَاهِقِي
أَذَرْتُ سَقِطَ الْحُبِّ فِي فَضْلِ عَيْشَةٍ وَحِيدًا وَجَسْتُ الْمَاءَ تَقَى الْمَفَالِقِ (١٨١)
خَلِيلِي مِنْ ذَاقِ الْمُنْبَةِ مَرَّةً فَقَدْ ذُقْتُهَا خَمْسِينَ قَوْلَةً صَادِقِ
كَأَنِّي وَمَدْحَانِ ارْتَحَالِي لَمْ أَفْزُ قَدِيمًا مِنَ الدُّنْيَا بِلَمَحَةٍ بَارِقِ
فَمَنْ مُلْغٍ عَنِّي ابْنُ حَزْمٍ وَكَانَ لِي يَدًا فِي مَلَمَاتِي وَعِنْدَ مَضَايِقِي

= والبيت من الكامل، انظر: القلائد ٢٢، وبنو عباد ٣٠٢/١، ونفع ٢٧٧/٤، والمعجب ١٤١، وترجمته ١٢٦، وتاريخ سلمى إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ١٥٠.

(١٧٩) من البسيط، المطبع ١٩٠، ونفع ٦٢٢/١.

(١٨٠) من لطويل، الذخيرة ٣٢٨/١.

(١٨١) هذا البيت ترجمته تقريبية، وينو أن النص أصابه تحريف سواء فى الذخيرة أو النفع.

● المؤلف معه حق، فقد ورد البيت فى النفع على النحو التالى:

أَرَدْتُ سَقِطَ السُّطَلَى لِي فَضْلُ عَيْشِي وَحِيدًا وَأَحْسُو الْمَاءَ ثَقِي انْعَالِقِي

على حين سقط فى الطبعة الأولى للقسم الأول من الذخيرة، وجاء فى طبعة إحسان عباس مصوباً دون أن يشير إلى أنه اعتمد على طبعة الديوان، والبيت فيه كما أتينا به فى النص أعلاه (مترجم).

عليك سلام الله إني مفارق
فلا تنس تأييني إذا ما فقدتني
وحيسبك زاداً من حبيب مفارق
فلا تكأر أياي وفضل خلقتني
فلي في ادكاري بعد موتي راحة
فلا تمنونيها علالة زاهي
وإني لأرجو الله فيها تقدمت
ذنوبي به مما درى من حقائني (١٨٢)



إن الموت كالحب أمدنا بحصاد وفير من القطع الشعرية التي تكشف لنا شيئاً عن الروح الأندلسي، وتستحق شواهد القبور دراسة في المقام لأول، لأنها توضح تطور الفكر بصورة ظاهرة ودقيقة بين القرنين العاشر والحادي عشر: ما أبعد الفارق بين الشاهد الذي على قبر المنصور (١٨٣) يضح زهوا وكبرا وتعالى والأبيات التي تطلب الرحمة من المارة وتجدتها في نهاية القرن الحادي عشر (١٨٤) وتأملات الأحياء، في المقام الثاني، تبقى ضوءاً على نفسية الذين يحضرون الجنازات، ويبين أبو إسحاق الإلبيري عدم اهتمام الحاضرين، بعامه، بالشخصي الذي يدفنونه:

تمر لدائي واحداً بعد واحد
وأعلم أني بعدهم غير خالد
وأحمل موتاهم وأشهد دفنهم
كأنني بعيد عنهم غير شاهد
فها أنا في على لهم وجهاتي
كمستيقظ يرنو بمقلة راقد (١٨٥)

ولكن القصائد التي تصوّر حالة الفرع الشديد من الموت لحظة الاحتضار ذات دلالة أقوى فيما نرى، وإذا كان الموت تحرراً فإننا لا نحصل عليه دون نضال (١٨٦). يقول ابن زيدون:

حياة الوري نهج إلى الموت مهج
لهم فيه إيضاح كما يوضع السفر
إذا الموت أضحي قصر كل معمر
فإن سواء طال أو قصر العمر (١٨٧)

وبعضهم كان الموت يثير فيه الرعب والفرع، يقول عبد الحق الإشبيلي:

قالوا: صلب الموت يا هذا وشدة
فقلت، وامتد مني عندها الصوت
يكفيكم منه أن الناس إن وصفوا
أمراً يروهم قالوا هو الموت (١٨٨)

وفيما يرى أبو الفضل بن شرف، فإن سكرات الموت مفزعة، ولكنها ليست بشئ إذا قسناها بالوحدة التي يتركنا فيها الأصدقاء:

(١٨٢) من الطويل، لمطبع ٢٠٠، وعنه نقله نفع ٣/٣٦٢، ولذخيرة ١/٣٢٩، والديوان ١٣٣. ويذكر ابن قزمان: لأبيات ٨ - ١٢ من هذه القصيدة في رجزه رقم ٩٠ الدور ٦.

(١٨٣) انظر هذا الشاهد في: الإحاطة ٢/١٠٨، ونفع ١/٣٩٨، و ٣/١٨٩، وتاريخ مسلمي إسبانيا ٢ ج ٢ ص ٢٦٤، والمجلة ١/٤٧٣، وخرسية غوث، ترجمه رسالة نضال أهل الأندلس ٤٦.

(١٨٤) انظر مثلاً، نفع ٤/٣٤٠، والقلائد ٣٦٩.

(١٨٥) من الطويل، نفع ٤/١١٣، وأبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٩١، والديوان، القطعة ٢٧.

(١٨٦) ومع ذلك كتب ابن حزم رسالة يظهر فيها أن الموت ليس مؤلماً في حد ذاته، انظر: أسين بلانويس، مجلة الأندلس، المجلد ٢ عام ١٩٣٤، العدد ١ ص ٢٠ - ٢٤.

(١٨٧) من الطويل، الديوان ٥٤٠، وكور ابن زيدون ٩٠ - ٩١، وهنري ماسيه، في مجلة هيبيريس، عام ١٩٢١، ص ١٩١.

(١٨٨) من البسيط، نفع ٤/٣٦٥.

نعمرك ما خصلت على خطير
وها أنا خارج منها سليماً
وأبكي ثم أعلم أن نبكا
ولم أجزع لهول الموت لكن
من الدنيا ولا أدركت شيئاً
أقلب نادماً بكلنا يدياً
ي لا يجدي فأسح مقلتيما
بكيت لقلبة الباكي علياً^(١٨٩)

وعاش أبو الفضل بن الأعلام الشنتمري وفكرة الموت تلح عليه، وكانت اللحظة التي تفارق فيها الروح الجسد تبدو مؤلمة:

الموت يشغل ذكره
فاعسى له ربيع أذكا
واكمل به طرف اعتبا
قبل ارتكاض النفس ما
عن كل معلوم سواه
رك بالمشية والغدا
رك طول أيام الحياه
بين الترائب واللهاء^(١٩٠)

إن الموت بمظاهره المتعددة يفرض على الإنسان فكرة أنه موجود فعلاً، ولقد رأينا بعض أمثلة له ونحن نتحدث عن الحب، وبعض الشعراء يتذكرون القرآن، فلا يتصورون الموت إلا ملاكاً يرسله الله إنذاراً بالآخرة^(١٩١). وهم يسمونه «داعي الردي» أو «داعي الموت»^(١٩٢)، يقول ابن خفاجة: دعا بهم داعي الردي فكألما تهاوت بهم خيل هناك عراب^(١٩٣)

وفكرة الملاك تحمل فكرة الطائر الذي يحوم في الجو، ثم فكرة الموت الجاثم، يقول ابن خفاجة: وهل مهبجة الإنسان إلا طريدة تحوم عليها للجحام عقاب^(١٩٤) والموت فيما يرى ابن عبد الصمد موجود غير مرئي، لا نعرف الشكل الذي يمكن أن يأق فيه، ولكنه يناديه، كما لو كان يطلب منه أن يفتر له سر قوته: يقول في رثائه للمعتمد:

يا موت لم تترك حنيفاً مسلماً
يا موت لم تشفق لقربته ولم
يا موت كيف رأيت صبر محمد
صعب اللقاء على ذوى الألباد
تر ما تخلفه من الأولاد
قبل احتلاك كان في استعداد^(١٩٥)

وفما يرى ابن دراج القسطل، فإن أيادي الموت جشعة، تريد أن تأخذ دائماً: هو الموت يصدع شمل الجميع ألم تر كيف استباح يده كريم الملوك وعلق النساء

(١٨٩) من الوافر، نثج ٢٢٩/٣.

(١٩٠) من الكامل، المطمح ٣٠٦، وعته نقلها نثج ٣١/٤.

(١٩١) القرآن الكريم، سورة طه، الآية ١٠٨، وسورة القمر، الآية ٦ و ٧ و ٨، والداعي هو إسرائيل.

(١٩٢) انظر الحلة ١٥٨/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٣٧ والبيت لسعيد بن جودي.

(١٩٣) من الطويل، الديوان، القطعة ١٦٥، ص ٢١٨، ونثج ٥٣٩/١.

(١٩٤) نفس المصدر الذي في الماشي السابق، القطعة ١٦٥، ص ٢١٧.

(١٩٥) من الكامل، أعمال الأعلام ١٦٩ - ١٧٠.

هو الرزءُ ألوى بعزمِ القلوبِ مصائباً وأودى بحسنِ العزاء^(١٩٦)
وأخيراً توصل شاعر إلى الموازنة العنقريّة التالية، إذ أخذنا في الحسبان العصر الذي قيلت فيه،
يقول أبو محمد عبد الوهاب المالكى:

الموتُ حصاًدٌ بلا منحلٍ يسطو على القاطن والمجلى
لا يقبل العنز على حالةٍ ما كان من مُشكلٍ أو مِن جلى^(١٩٧)
إن أى شاعر أتدلسى لا يستطيع أن يظهر بأفضل من هذه الأبيات، كيف يستطيع الخيال الخصب
أن يصنع من واقع عاды، نلحظه في حياة الحقل البيعية، صورة جذابة بالغة الروعة والجمال.

(١٩٦) انظر، بلاشئ، في مجلة هيسبيريس، المجلد ١٦، عام ١٩٣٣، وهي من بحر المتقاربين وفي: الثعالبى يتيمة الشعر ١/٤٤٣.
والديوان ٩٩.

(١٩٧) من السرج، نفع ٤/٣٢٨.

خاتمة

كان القرن الحادى عشر فيما يتصل بالشعر الإسباني العصر الذى انتشر فيه إلى أبعد مدى، وحقق جمالاً أعلى مراتبه، وقد جعلت منه الظروف السياسية شعر بلاط، وعاش في رعاية الملوك للفنون الجميلة، ومع ذلك فإن موضوعات المديح التقليدية لم نستطع أن نحول دون تناوله العديد من الملاحظات المأخوذة من الواقع. ومن ثم فهو لا يعكس بدقة كافية حياة الشاعر أو الأمير نفسه فحسب، وإنما يصور أيضا مختلف طبقات المجتمع، وإذا لم يلق عليها ضوءا كافيا فقد أسهم في تصوير كثير من جوانب وجود الإسبان المسلمين في العصر الوسيط، وهو ما يضئ عليه قيمة توثيقية لا يمكن إنكارها.

لا تزال حياة الأندلسيين الاجتماعية والخاصة تبدو لنا مشبعة بالتقاليد المشرقية، عربية وفارسية، فقد أمدت إيران دون شك الطبقات الحاكمة في إسبانيا، ككل بقية العالم الإسلامى، بلاعبها الحضارية، ولكن هذا البلد الغربى الذى أصبح مسلما ترك بدوره طابعه القوى على كل ما ورثه عن المشرق، إذ أن أغلبية سكانه من الإسبان، سواء من سكن منهم الريف أو المدن، لا بطرائقهم الزراعية وممارساتهم الفعلية، وتقنياتهم الحرفية، وإيقاع حفلاتهم فحسب، وإنما أيضا في إبداعاتهم الشعرية واهتماماتهم الخلقية واختلافية.

إننا نستطيع في الحقيقة من خلال ظواهر الشعر الأندلسي الأكثر تميزًا في القرن الحادى عشر، وفي ضوء الموضوعات التى عالجها الشعراء من شتى الطبقات، أن نتعرف إلى حيزهم العميق للطبيعة، وقد أضافوا إليه لونا من الحزن بالغ الخصوصية والمذاق.

مصدر حب الطبيعة عندهم، دون شك، أن منظم الشعراء أصولهم ريفية، ويعطى إبداعهم انطبعا بأن قصائدهم «رعوية» إلى مدى كبير، السماء فيها صافية أو مسحية، والحقول والحدائق والزهور والمياه الهادئة أو الجارية تحتل المقام الأول، ونحن نجد الكثير من التصنع في التعبير عن هذه المشاعر، وهو أمر يعود، دون شك، إلى أن مناهج التدريس تركت بصمات بالغة العمق في حياة الشعراء، فلا يمكن رفضها جملة، على أن إحساسهم بالطبيعة لم يكن في أية لحظة على أنها مجرد زخرفة، وأن الأشجار والزهور فيها أوراق مرسومة. ونسخها كما هى لا يعنى استبعاد الانطباع الشخصى، ولا يصل أبدا إلى حد وأد الخيال الخصب الذى يستخرج عصارته الأكثر غزارة من الواقع أو يحول دون أن يكون بالغ الدقة، والتقاليد الأدبية فيها تجارى نوعية الخيال نفسها، وثمة ضرورة حيوية تدفعها إلى أن تمنح الطبيعة المكان الأكثر اتساعًا.

يبلغ استلطاف الطبيعة عند بعض الشعراء درجة الحب الخالص، أو الاندماج الكامل، ولكن الجانب الأكبر لم يكن يرى في الحقول والحدائق أكثر من الإطار الذى يضع لذائذه في داخله، ولا يبحثون عن الطبيعة ليسجدوا إخفاقاتهم القرامية أو ليهدهدوا من تمرّد قلب جريح أدمته مظالم الناس، وإنما لكي يجدوا فيها متعة حسية أو معنوية طبقا لمشاعرهم الداخلية.

ومشاهد الطبيعة التي تتفق أكثر من غيرها مع أمزجتهم فنانين ليست المعتمة أو المرعبة، وإنما تلك التي تسرّب الحب إلى أعماقهم، ويصبغونها بألوان من شعر الحمر واللهور، وليست لوحات دقيقة وإنما أقرب إلى أن تكون رسماً مجملاً، ولا كلمات صاخبة، وإنما إيقاع مبطن بالحزن والألم. ولم يجد الصيف بأصواته الساطعة مكاناً في أشعارهم، فهم يفضلون الربيع، ولكن التجديد الذي يبشر به هذا الفصل لا يثير أحاسيسهم أو مشاعرهم بقوة. إنهم شعراء الأصيل والليل والفجر، ولم يحدث أن تغتوا أبداً بمنتصف النهار الساطع. وإذا تخلوا لحظة عن حلاوة الحياة فلأنهم يحبون الهدوء والوحدة فيها يبدو، ويستطيعون حتى لو كانوا وسط رفاقهم في الشراب أن يستغرقوا في أنفسهم، وأن يواصلوا لحظاتهم يحملون: الموسيقى والغناء والرقص ونظم الشعر، أو إنشأه إذا شئت، وكل ذلك يتلاقى مع انقصالهم عن الواقع حولهم. ويشعرون في أعماقهم أن اللذة لن تكون أبداً خالصة، ويعتريهم قلق يفسد عليهم كل تلك الأعمال التي هي تكريم للحياة، وذلك نادر ما نلاحظه عن المشاركة. ولقد جعلت الظروف السياسية أمر الثروات غير مستقر، وحياة البلاطات الصغيرة اللامعة تتأثر عبر الأندلس كله يمكن ألا تكون غداً، وثمة شيء يوجد في أعماقهم مثل شعور دحى غامض، يحول بينهم وبين التمتع الكامل ببهجة الوجود، وهذا الشيء ليس بالدقة تشاؤماً ولا حزناً. ويمكن القول إذا فكرنا في موقعهم المتواضع أمام المرأة بخاصة، وفي مفهوم الحب عندهم وهو خاص إلى حد بعيد، أنهم مسيحيون في بعض الجوانب: في إطار الضعيف، واستثمار القيم الثقافية والحفية، كما أن صفات الحلاوة والتواضع والحنان والتأمل والحلم حلت مكان فضائل القوة والعمل، وهي المثل الأعلى في المجتمع العربي في الإسلام. وحاولوا أن يكونوا قمة في الإنسانية، وطوّروا كل قدراتهم، وأفسحوا في الوقت نفسه أرحب مكان للقلب، لا للفكر أو الإرادة.

هل يمكن الحديث حقاً عن تأثير أصولهم البعيدة؟ ما قلناه عن جنس كان في طور التكوين في القرن الحادى عشر الميلادى، مع غلبة الدم الإيبيرى الرومانى يسمح لنا أن نرى في سكان الأندلس امتداداً للعنصر القديم غير المهاجر. دون أن نرفض في تعميم بالغ العجلة فكرة الإضافات الشرقية الخاصة.

لم يحمل البربر معهم غير مفهوم عن الحياة بالكاد تلمس له أثراً، وكان عملياً ونفعياً، وأما تأثيرهم في الشعر فلا شيء فيما يبدو. وعلى النقيض كان العنصر اليهودى المسيحى، ويمكن القول إنه ذو أهمية كبرى، وتجد طابعه قوياً في الاحتفاء العارض بجمع الحياة النابع من قلق يصطلم مع الموروث الشرقى الواضح ذى الأصل الوثنى. ويمكن أن تسبب للعنصر اليهودى دوراً راجحاً في توجيه الشاعر. وإلى حد ما في التعبير الأدبى، وإذا كان التشاؤم وهو عزيز على العنصر اليهودى لم يترجم كلية فعلى الأقل لَوْن قوى الروح بحب الجهد والبحث والواجب.

إن هذا الخلق المخيّب للأمال، والذي يعرف مع ذلك كيف يلهو ويستمتع في المناسبات تحقّق في إسبانيا الإسلام، طبعاً لتعبير أنخل جانبييت في صورة «حبر طبيعى وإنسانى»، وليس ذلك إلا امتداداً لفكرة سنيكا، وهي سلتية إيبيرية في نوعها، ووجدت أجمل تشخيص لها، وأصفاه أيضاً، في ابن شهيد في مطلع القرن الحادى عشر.

لكي تحيط بالواقع عن قرب، يمكن أن تقول، فيما اعتقد، إن الإسباني المسلم في القرن الحادى عشر، قدّم لنا في شعره مزاجاً مثيراً خليطاً من القديم والحديث، من الكلاسى والرومانسى، ومن الشهوانى والصوفى، والأول من هذه الميول يدين بها لثقافته، وهى عربية خالصة في أعماقها، وأمام المشاهد التى تعرض له لم يستطع روحه الحساس أن يتخلص نهائياً لا من الفقرات التى يلمحها خلال شعر القدامى، أو من المشاعر المحسوسة من قراءة أعمال الخالدين في الماضى. وتنافس الذاكرة عليه تأثيراً طاغياً فيتذكر ما قرأ حتى أمام المشاهد الجديدة وحتى تحت تأثير الانفعال الشخصى. والأندلسى الأكثر تحرراً من التربية المدرسية لم يتحرر نهائياً من قيود فنى الشعر والبلاغة القديين، ويبلغ التقليد في بعضها حداً ظاهراً للغاية ويذهب بكل قيمة العمل، ولكنه استطاع في الأغلب أن يوفق بنسب متساوية بين واقع إنساناً حساساً وبلاغياً واسع الثقافة، وفي أحسن الأحوال تسود الفطرة، يضيئها فكر جهور.

أحياناً نجد عندهم غنائية مرتبكة، ولكنها أبداً ليست مختلفة بفن شعري لا يناسب فيما يبدو التعبير عن مفاهيم تختلف عن تلك التى رأت النور لأول مرة في الجزيرة العربية. وعرفوا في روعة كيف يستفيدون من الصور والكلمات والأفكار التى تناسب أمزجتهم الشخصية وعصرهم والوسط الذى يعيشون فيه.

وحين نجد في أشعارهم إشارات كثيرة إلى الجواهر الثمينة فليس ذلك لأنهم مثل المشاركة، يملون نظرياً إلى جوامد العالم الذى يحيط بهم، وإنما لأنهم يشعرون بحب لا يقهر للترف والثروة، أو لأنهم يمارسون ستمناً رقيقاً وعميقاً في بيئة بالغة الروعة والجمل، وباختصار هم يرون هذه الأشياء الصناعية ضرورة لا بد منها لحياتهم وحب الجواهر هذا ليس أدبياً خائفاً في العمق، وإنما يرتبط بالدقة بتقديم أحضارة في هذا القرن الحادى عشر الذى يسمح باستخدام غائب من المرمر، ونحتنا أحياناً، ونقش بنى عظيم على الأحجار والمعادن الكريمة والجواهر والعاج في دقة وشفافية، ونسج أنسجة رقيقة وفخيمة.

ولكنهم شعروا أمام تعقيدات الحياة المتزايدة - وهذا هو بالدقة ما يميزهم أكثر عن أسلافهم، مشاركة أو غريبين - بما دفع في أفكارهم بمفاهيم جديدة: تشخيص القوى الطبيعية في شعرهم، وهى الملاحظة الأكبر قوة والأعمق أصالة. ويتأثر عبقريتهم المخالفة بدت الأساطير وحب الموت والشباب والربيع والبهجة والألم كما لو كانت كائنات حية، وغربزها أضفوا على الأشياء ثوباً إنسانياً، وجعلوا لها مشاعر، وحتى الذكريات يعيشونها من تصوير الماضى دقيقاً ومكتفاً. وفي هذه النقطة يفترون عن الشعراء المشاركة، الذين يرون المشاعر التى انتابتهم عبر أيام خلت مجرد أفكار خالصة، أو موضوعاً فلسفياً تجريبياً.

وبعد كل الذى قلناه فإن قضية اللغة وسيلة تعبير لا بد أن تفرض نفسها في جانب لا يترك إثارة شيء من الدهشة بسبب غياب المنطق. حقاً لماذا بدا لكل الشعراء سواء كانوا من أصول مسيحية أو يهودية أو مشرقية، أن اللغة العربية هى الأكثر مناسبة للتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم، وهى تختلف كثيراً، من وجهات نظر عديدة، عن المفاهيم المشرقية؟ لقد كانت الأمة الإسبانية في طور التكوين في

لفرن الحادى عشر، وحين تبرز بين العناصر المختلفة فى شبه الجزيرة فأما تستهدف الغريب كلية، ومع ذلك واصلت سيرها مشرقية باستخدام اللغة العربية لغة حضارة فى كل المجالات. ومع ذلك، فمن المعقول أن تفكر أنه مع تطور معنى طموحاتها العنصرية تان من الضرورى أن ترفض كى ما هو أجنبى عنها، وإذا لم ترفضه كلية فتلته لكى تثرى به، وبهذه الطريقة يمكنها أن تنفذ، تحت أكثر من عنوان، ما يمكن أن نعتبره الظاهرة الأكثر حيوية فى وجودها وهو: اللغة.

ومن المؤكد أن العربية، وهى منذ اللحظة الأولى لغة حضارة، لم تجد فى إسبانيا لغة عليها أن تدخل فى صراع معها، إذ هى مركب إلى دين فرض نفسه فى الحال، ولغة إدارة تستلهم مفاهيم كتب مقدس نزل فى اللغة العربية، وتأصلت فى البلد بهذه الطريقة، وكانت من الصعب اجتثاثها حتى خلال قرون الاسترداد المسيحية، وهنا نجد أنفسنا أمام ظاهرة ملحوظة لا يمكن أن نمر بها صامتين، حتى لو اعترفنا أن هذه اللغة لم تستطيع أن تقضى على اللغات واللهجات التى وجدت لها لحظة وصولها إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، ولا القضاء نهائياً على التى أدخلت خلال قرون لفتح الأولى، ولابد أن نعرف أن عالميتها واقع معجز؛ من جانب، بعد أن استقرت فى الأراضى الإسلامية انتشرت فى البلاد المسيحية التى على الحدود، والقصائد التى حملها الشعراء الجوارون، وبخاصة الهان المغنيات أسهمت فى انتشارها، وإذا لم تكن فى هذا الشكل - ودائماً فيه شىء من الغموض - فهومة تماماً، ولا متمثلة كلية، فعلى الأقل مارست تأثيراً لا شك فيه، لأنها لكى تحقق غاياتها فتنة وإغراء أضافت إلى سحر الكلمات الموقعة فتنة الانسجام الموسيقى.

لكن الشعراء، ومن المهم أن نؤكد على ذلك، عبروا فى لغة عربية، وأخذوا كثيراً من الكتب العرب المشاركة، ولم يقفوا عند حد نقل الصور والأفكار حرفياً، وخذوها استعارة، وإنما على التقيض أعادوا تشكيلها مستجيبين لميولهم وأمزجتهم الداخلية، وعندما صنعوا هذا طبقوا عليها النظرة الغربية. وإذا نظرنا إلى الشعر الأندلسى من هذه الزاوية، فإن دراسة تأثير الذى مارسته القصيدة الأندلسية فى القرن الحادى عشر على قصائد شعراء التروبا دور لن يكزن مشكلة عبثية لا يمكن حلها. قد حملت العلوم العربية التقنية إلى شبه جزيرة إيبيريا، ولكن سبانيا أعطت العبقرية.

ماذا كان قدر القصيدة العربية التقليدية التى وصلت إلى القرن الحادى عشر منظوية على كثير من التفاؤل فى إمكان المعادلة بين المطامح الوطنية والعلوم المشرقية؟ بفضل تقسيم الدولة إلى إمارات صغيرة متعادية ازدهر الجنس الذى كان فى طور التكوين فى ظل نظام تمتع بحرية واسعة فى العقائد والعادات، وكل مطالب القلب والفكر. وتحت حكم المرابطيين واصل الشعر سيره فى خصائصه المتنوعة نفسها طوال نصف قرن من الزمان، وعندما فقدت الأجيال الجديدة كل صلتها بنظام ملوك الطوائف حاولوا أن يعدوا فى أجل مناخ لا يفهمون عناصره الحقيقية. ولم يعد الشعراء حينئذ إلا مقلدين، وعندما كانوا يبذلون جهدهم - وعبثاً يفعلون - لكى يبعثوا الماحى من خلال ذكريات عصر عدااته أنيقة، وثقافته مصقولة، ويخونون إليها متألمين، أسهموا فى بعث شعاع هذا الجانب النوعى من الحضارة الأندلسية خارج إسبانيا.

كشاف عام

- يتضمن الأعلام الواردة في النص، بما فيها أبيات الشعر، وفي الهوامش إذا تضمن الهامش نصاً أو حدثاً أو معلومة فيها شيء منها، ولم يكن مجرد إشارة إلى مصدر، سواء كانت أسماء أشخاص أم قبائل أم بلاد وأمكنة، أم غيرها
- وهي مرتبة هجائياً دون اعتبار أداة التعريف «أل»، ولا «أبو» أو «ابن» أو «ابنة» أو «بنت» أو «بنو»، ويحيى الترتيب بحسب الحرف الوارد بعدها.

(أ)

- أحمد بن رضا المالكى: ٣٩٢.
أحمد شوقي: ١٢٨.
أحمد بن طلحة، أبو جعفر: ٥٧.
أحمد بن فرج الإلبيري: انظر: السمسر.
أحمد بن فرج الجبالي أبو عمر: ١٥٨، ١٧٣، ٣٦٧.
أحمد بن مغيث: ١٧١، ٣٢٨.
أحمد بن هشام: ٢٨٨.
الأخطل: ٣٥، ٣٧١.
الأخفش بن ميمون: ٦١، ٢٤٥.
ابن إدريس الحسنى: انظر: إبراهيم بن إدريس.
إدريس الثاني: ٢٣٤، ٢٣٥.
إدريس بن يحيى المعتلى: ١٧، ٩١، ٩٢، ٣٣٠.
إدريس بن اليمان، أبو علي: ٧٩، ١٥٦، ١٥٨، ٣١٣، ١٦٣.
ابن إدريس اليماني: ٢٢٥.
الإدريسي: ١١٩، ١٨٨، ٢٤٠، ٢٨٩.
أريونة: ٢٩٥.
أرمشير: ١٧٨.
أردون الرابع: ٢٨٤.
أردونيو الثالث (ملك ليون): ٢٤١.
أوسطو: ٤٢، ٤٣، ٣٧٩.
أوغون: ١-١٠، ٢٦٨، ٣٨٥.
أوقش: انظر: أركوش.
ابن أرقم، أبو الأصغ عبد العزيز: ٨٣، ٢٥٠، ٣١٠.
أم: ٢٠، ١٠٨، ٢٣٦.
ابن الأمان أبو جعفر الخولاني: ١٥٨، ١٦٦، ١٦٤، ١٦٩، ٣٧٠.
ابن الأمان أبو عبد الله: ١٤، ٤٣، ٧١، ١٢٥، ٢٨٤، ٣٧٧.
أبدة: ٢٨٢، ٣٤١.
الإبر (نهر): ١٨٩.
إبراهيم: ٥٥.
إبراهيم بن إدريس الحسنى: ٢٢٠.
إبراهيم بن حجاج اللخمي: ٤٥، ٤٦، ٤٨.
إبراهيم الحنجاري: ٣٦٧.
إبراهيم بن الفخار اليهودي: ٢٤١.
إبراهيم بن قاسم الأعلم، أبو إسحاق: ١٢٨.
إبراهيم المصري، أبو محمد: ١٣٦.
إبراهيم مصطفى: ٣.
إبراهيم بن المعتضد: ٣٩٠.
ابن الأبرش، أبو القاسم بن خلف: ٣٧.
إبرويز: ٩٨.
الأبلة (نهر): ١٠٧.
أبولو: ٢٥.
الأبيض، محمد بن أحمد، أبو بكر: ٣٧.
أبو الأجر، عوانة بن الصمة الكلبي: ٤٨.
ابن أحمد، أبو جعفر: ١٢٥.
أحمد الحوني: ٣.

ابن أرقم (وزير المتصم): ١٣٠.

أركوش: ١٧، ١٨، ٣٥.

أرمناجود (كوت أورجل): ١٨.

بنو إرقان: ٢٣٥.

أزواجة: ٢٣٥.

ابن الأزرق، أبو عبد الله: ٢٨١.

ابن أزيق، أبو العلاء إدريس: ٧٩.

إسبانيا (وانظر الأندلس أيضا): ٦٠، ١١، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ٢١، ٢٣، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٤.

٣٦، ٣٨، ٤١، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥٣.

٥٤، ٥٦، ٥٨، ٦٢، ٦٥، ٦٧، ٧٠، ٧٧، ٨٤.

٨٦، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩١، ٩٢، ٩١، ٩٢، ٩١، ٩٢.

١٠٩، ١١١، ١١٢، ١٢١، ١٢٣، ١٣٢.

١٣٥، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٩.

١٥١، ١٦٤، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٣، ١٧٤.

١٧٦، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٧، ١٨٩.

١٩٢، ١٩٤، ٢٠٤، ٢١١، ٢١٦، ٢١٨.

٢١٩، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١.

٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩.

٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠.

٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٦٧.

٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢.

٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩١.

٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٣.

٣٠٤، ٣٠٧، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٣.

٣٣٤، ٣٣٦، ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٤٩، ٣٦٢.

٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٧، ٣٨٢، ٣٨٦، ٣٨٦.

٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٧، ٤٠٦، ٤١١، ٤١٢.

٤١٤.

ابن إسحاق: ٢٥٧.

أبو إسحاق الإلبيري: ١٠٠، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٤٥.

٢٤٦، ٢٨٧، ٣٨٨، ٤٠٠، ٤٠٨.

إسحاق بن محمد البرزالي: ١٧، ٨٩.

أسد (قبيلة): ٩٨.

الأسعد بن بلطة، أبو القاسم: ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٠٩.

٢١٠، ٢٢٤، ٢٧٧، ٣١٣، ٣٤٠.

الإسكندو الأكبر: ٩٨.

الإسكندرية: ٤٥، ١٣١، ١٩٤.

إسماعيل بن بدر: ١٧٦.

إسماعيل أبو القاسم بن عباد: ٥١، ٦٠.

إسماعيل بن المعتض بن عباد: ١١٤، ١٢٣، ٣٨٣.

إسماعيل بن النقرة: ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥.

٢٦٩.

أسين يلائوس، ميغيل: ٤٠٤.

إشبيلية: ٦، ١٥، ١٧، ٢٠، ٢٩، ٣١، ٣٤، ٤٣، ٤٥.

٤٦، ٤٨، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦٠، ٦٥، ٧٠، ٧٣.

٧٧، ٨٠، ٨٣، ٩٤، ٩٧، ٩٨، ١٠١، ١٠٩.

١١٠، ١١١، ١١٤، ١١٦، ١١٩، ١٢١.

١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨.

١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٢.

١٤٩، ١٥٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٧٢، ١٧٤.

١٧٥، ١٧٩، ١٨١، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩.

١٩٢، ١٩٤، ١٩٥، ٢٢٣، ٢٣٠، ٢٣١.

٢٣٢، ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٩، ٢٥٤.

٢٦٠، ٢٦٨، ٢٧٥، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٣.

٢٩٥، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣١٦، ٣٢٠.

٣٤٠، ٣٤٢، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٥، ٣٧٥.

٣٨٣، ٤٠٦.

إشراق السويدهاء المروضية: ٢٨، ٢٣٨.

أشهب (الفتية المالكي): ٣٦٩.

أبو الأصغ: انظر: ابن عبد العزيز.

إصفهان: ٢٨٢.

بنو الأصغ: انظر: بنو رزين.

الأصمعي: ٣٤.

الأصمعي، محمد بن سعيد الزجاجي: ٥١.

أصيلة: ٢٣٥.

ابن أضحى، أبو الحسن: ١٣٣.

الأطنطي: ٢٨٢، ٣٩٥.

اعتماد الزميكية: ٩٨، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٦٤.

١٨٣، ١٨٤، ٢٩٠، ٣٤٩، ٣٦٥، ٣٧٥.

أعشى بكر: ٢٤.

أعشى قيس: ٣٤، ٣٥.

- الأعلم الشتمري، أبو الحجاج: ٣٤، ٤٠، ٦٠.
 الأعلم الشتمري، أبو الفضل: ٤٠٩.
 أبو الأعلى: ٣٢٨.
 الأعمش: ٢١٩.
 الأعمى التطيلي: ٥٨، ٢٩٧، ٣٠١، ٣٥٨، ٣٦٣، ٣٧٢، ٤٠٠، ٤٠٣.
 الأغالبة: ٢٢٠.
 الإغريق: ٢٤٩.
 أغمات: ٧٧، ١٢٣، ١٧١، ١٨٨، ٢٢٢، ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٧٦، ٣٣٦، ٣٧٨.
 بنو إفرن: ١٨، ٢٣٥.
 أفريقيا: ١٤، ١١٢، ٢١٨، ٢٣٨.
 أفريقيا الشمالية: انظر: شمال.
 إفريقية (وانظر تونس أيضا): ٤٥، ٤٧، ٨٩، ٩١، ٩٢، ١٧٦، ٢٣٥، ٢٣٥.
 بنو الأفطس: ٨٦، ٩٨، ١٣٥، ٢٣٦، ٣٢٠، ٣٤٠.
 ابن الأفطس، العباس بن المتوكل: ٩٨.
 ابن الأفطس، الفضل بن المتوكل: ٩٨.
 ابن الأفطس محمد بن عبد الله، المظفر: ٣٥، ٥٠، ٦١، ٨٦، ١٨٢، ٢٤٧، ٣٤٠.
 ابن الأفطس، المتوكل: ١٩، ٢٢، ٨٦، ٩٤، ٩٨، ١٠٨، ١٣٥، ٢١٣، ٢١٥، ٢٣٩، ٢٤٠، ٣٠٣، ٣٣١، ٣٣٥، ٣٨٩.
 ابن الأفطس، عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور: ١٧، ٢٣٦، ٣٠٨.
 أفلاطون: ٢٤، ٤٢.
 الإنليل: ٤٠.
 الأفرة الأودي: ٣٥.
 أكشوتية: ٢٨٠.
 البيرة: ١٣٢، ٢١٩، ٢٣٠، ٢٣٥، ٣٩٧.
 الدوار: ٢٦٠.
 الش: ٢٦٣.
 الطاء: ٣٩.
 ألفونسو بن أوردونيو: ٢٥٥.
 ألفونسو السادس: ١٩، ٨٣، ٩٣، ٩٤، ١٧٠، ٢٢٠، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٩٠، ٣٠٥، ٣١٧.
 ألفونسو لشار: ٣٢، ١٠٧.
 ألمانيا: ١١١، ٢٣٣.
 إلبانة الكبرى: ٢٤٠.
 ابن اليعرب، أبو الحسن: ٢٨٤، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٩٩، ٤٠٢.
 أليط (حسن): ٢٨٤.
 أم الأصبح: ١٧٣.
 أم الربيع - انظر: اعتماد الرميكية.
 أم عبيدة (محبوبة المعتمد): ٣٥١.
 أم العلاء: ٣٧٤.
 أم الكرام ابنة المعتمد: ٣٧٤.
 أم الهناء: ٣٦٣، ٣٧٤.
 أمة العزيز: ٣٦٩.
 امرؤ القيس: ٢٥، ٢٨، ٥١، ٧٢، ٢١١، ٢١٥، ٢٥.
 أمريكا: ٢٥.
 الأمويون (في الأندلس): ٤٦، ٤٨، ٨٨، ٩٨، ١١٧، ١٧٩، ١٨٥، ١٩٣، ١٩٥، ٢٢٢، ٢٣٧، ٢٧٠، ٢٨٤.
 أبو أمية: ٦٤، ٤٠٥.
 ابن أبي لمية، أبو أيوب: ١٢٦، ٢٧٩.
 أمية بن عيسى: ٣٨.
 أنا كريوت: ٥٩.
 الأندلس (وانظر إسبانيا أيضا): ٣، ٦، ١٤، ١٥، ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٤، ٢٢، ٣٠، ٣١، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٥٢، ٥٦، ٦٠، ٦٦، ٧٠، ٧٥، ٨٦، ٨٨، ٩٠، ٩٣، ٩٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١١، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٤٣، ١٤٥، ١٥٢، ١٥٣، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٩، ١٨٥، ١٩٣، ١٩٥، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٢٥، ٢٥٤، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧٤، ٢٧٨، ٢٨٤، ٢٩١، ٢٩٣، ٣٠٥، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٣٧، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٧٢، ٣٩٧، ٤١٢.
 بنو أنجلين: ٢٣٢.
 أنخل جانييت: ٤١٢.
 أنس القلوب (جارية للمنصور): ٣٥٩.

- أنطاكية: ٣٨٢.
 أنوشروان: ١٧٨.
 أوربا: ٣، ٢٤١.
 أورجل: ١٨.
 أوربولة: ٢٤٨.
 أوريو يوز: ٢٥٠.
 الأوس: ٧٥.
 أوس بن حجر: ٣٥.
 أولية: ١٨.
 أوثنة: ٣٢٠.
 إبيريا: ٦٢، ٢٠٩، ٢٥٩، ٣٩٥، ٤١٤.
 إيران: ٢٣٢، ٤١١.
 إيطاليا: ١٩٥، ٢٣٣، ٣٥٠.
 إيوان كسرى: ١٢٦.
 ابن أيوب، أبو بكر: ٣٤.
 (ب)
 باب بجانة (في قرطبة): ٢٩٤.
 باب الخنثى (في بلنسية): ١٣٨.
 باب الدباغين (في طليطلة): ١٣٧.
 باب المطارين (في قرطبة): ١١٧، ٢٦١.
 باب القنطرة (في قرطبة): ٣٨.
 باب المدهى (في قرطبة): انظر: باب اليهود.
 باب اليهود (في قرطبة): ١١٨.
 باجة (في الغرب): ١٧.
 ابن باجة الملقب ابن الصائغ: ٣٣٢.
 الحاجب، أبو الوليد: انظر: أبو الوليد.
 باديس بن حبوس: ١٧، ٤٧، ٥٢، ٦١، ٦٢، ٨٦، ٩٧، ١٠٠، ١٢٢، ١٧١، ١٧٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٧٥.
 ٢٩٨، ٣٢٦، ٣٨٥، ٣٩٢.
 باريس: ٤، ٢٤٤، ٣٠٨.
 ياسيه رنيه: ٧.
 باطيقه: ١٠٦.
 بنيلرن، مرسل: ٩.
 بشنة (بنة المتمد): ٣٧٥، ٣٧٦.
- بجانة: ١٢٩، ٢٨٧.
 بجاية: ١٠١، ٢١٨، ٤٠٦.
 البحرى: ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٥١، ٥٢، ٥٧، ١١٦.
 ١٤٥، ١٦٨.
 بحترى الغرب: انظر: ابن زيدون.
 البحر الأبيض المتوسط (انظر بحر الأحمر أيضا): ٤٧، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢٣٣.
 بحر الروم: ١٩٣.
 البحرين: ٢٧٢.
 بندرو القاسى: ١٧٠.
 البديع (قصر في قرطبة): ١١٣.
 بديع الزمان المحدثي: ٥٧.
 ابن البراق، أبو القاسم: ٢٩٤.
 البربر: ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٤٨، ٦٠، ٦٢، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ١٠٠، ١٨٢، ٢١٨، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٩٠، ٢٩٧، ٢١٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٦، ٤١٢.
 البربر الشرقية: ٤٧، ٤٨، ٩٢، ٢٢٠، ٢٥٠، ٢٦٧.
 برشتر: ٩٢، ٩٣، ٣٣٩، ٣٦٦.
 البرتقال: ١٧، ١٩٣.
 برتعل (القسم): ٤٥.
 برج الذهب (في إشبيلية): ١٢٤.
 برج القنطرة (في بلنسية): ١٩١.
 برجة: ٤٠، ٥٩، ٦٨، ١٠٨، ١٣١.
 ابن برد الأصغر: ١٣، ٨٣، ٨٩، ١٦٠، ٢٠٦.
 ٢٠٩، ٢٦٧، ٣٥٩، ٣٦٧.
 بنو بيزال: ١٧، ٨٩، ٢٣٥، ٢٨٤.
 برشلونة: ١٨، ١٨٢، ٢٤٨، ٢٨٧، ٣٨٥.
 ابن برطله: ٤٠٠.
 برمودو أبو الليث: ٢٣٢.
 برناردين دى سنت: ١٧٠.
 ابن بسم (مؤلف الذخيرة): ١٢، ١٩، ٣٩، ٤٠، ٤٦، ٥١، ٥٦، ٥٨، ٦٠، ٦٦، ٨٩.
 ١٢٥، ١٦٧، ١٨١، ٢٤٦، ٢٤٤، ٢٤٥.

- أبو بكر بن المعين: ٢٧٢.
 أبو بكر بن نصر: ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٣.
 البكري، عبد الله بن عبد العزيز، أبو عبيد: ٣٦، ٥٢، ٨٣، ٩٤، ١٠٦، ١٧٩، ١٩٤، ٢٩٤، ٣٢٠.
 البكري (وزير في قرطبة): ١٨٢.
 البكريون: انظر: بنو بكر.
 بلاشير، ريجي: ٩، ١٢.
 بلاط مغيث (في قرطبة): ١١٢.
 بلقيس: ٢٣٤.
 بلقين بن باديس: ٢٤٥.
 البلعي، أبو القاسم: ١٤٦.
 بلنسية: ١٧، ٦٩، ٧٩، ٨٠، ٨٣، ٩٢، ٩٩، ١٠٨، ١١٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٧٠، ١٩١، ١٩٤، ٢٠٨، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٦٤، ٢٩٧، ٣٠٨، ٣١٧، ٣٩٣، ٤٠٠.
 البليار (جزر): انظر الجزائر الشرقية.
 ابن بليطة: انظر: الأسعد.
 بيلونة: ٢٣٦، ٣٣٢، ٣٣٤.
 البنيق (على شاطئ الوادي الكبير): ١١٩.
 بيه الدين العاملي: ٣٥١.
 البهر (قصر في قرطبة): ١١٣.
 بهو خيران (في المرية): ١٢٩.
 البواب: انظر: محمد بن أبي علافة.
 بور رويال: ١٢.
 يوران ابنة الحسن بن سهل: ٢٦٤.
 بول موران: ٢٥.
 البونت (حصن): ٢٨٧.
 ابن البلياع، الملقب ابن زنياع، أبو الحسن: ٢٠٦، ٣١٥.
 بيرة: ١٨٧.
 بينظلة: ٤٢، ٢٤١.
 ابن الوين البليوي: ٥٤، ٣٥١.
 ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٢، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٤٣.
 بستان (جارية أبي القاسم المصري): ٣٤٢.
 البستان (قصر في قرطبة): ١١٧.
 بشار بن برد: ٥١، ٥٢، ٣٠٤، ٣٥٣.
 بشر فارس: ٩.
 البشرات: ٢٨٠.
 ابن بشكران: ١١٣.
 ابن بصال: ١٧٩.
 البصرة: ٣٤١.
 ابن بطال التلمسي، أبو أيوب سليمان: ١٤٦، ١٧٣.
 البطحاء (في شاطبة):
 البطحاء (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠.
 بطحاء عينون (في قرطبة): ١٢١.
 البطرشك Pedra Seca: انظر: عبد الله بن عبد العزيز.
 بطرنة: ٨٠، ٩٢.
 بطليموس: ٢٥، ٩٨، ٢٠٤.
 بطليموس: ١٧، ١٩، ٥٠، ٥١، ٥٩، ٦١، ٧٠، ٧٢، ١٠٨، ١١٨، ١٣٥، ١٨٠، ١٨٢، ١٩٤، ٢١١، ٢١٥، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٠، ٣٠٨، ٣٢٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٤٠.
 بغداد: ٢٥، ٣٩، ٤٤، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٢، ٥٣، ٨٣، ٩٨، ١٠٩، ١٢٠، ١٣٤، ١٨٠، ٢٨٢، ٣٣٦، ٣٤٣.
 ابن بقي، أبو بكر: ٥٤، ٧١، ١٢٨، ١٨٣، ٣٠٦، ٣٤٣، ٣٥٣، ٣٦١.
 ابن بقي، أبو القاسم: ٣٩١.
 بكار المرواني: ٦٦، ٣٩٥، ٣٩٩.
 بنو بكر: ١٨، ٣٢٠.
 أبو بكر بن إبراهيم: ١٣٣، ٢٧٢.
 أبو بكر الثاني: انظر: ابن اللبانة.
 أبو بكر، ابن صاحب الأحباس: ٨٣.
 بكر الكتاني: ٤٨.
 أبو بكر المرواني: ٨٣.

(ت)

التاج (قصر في قرطبة): ١١٣.
التاج (قصر في إشبيلية): ١٢٣.
تاجه (نهر): ١٣٦، ١٣٧، ٢٨٨.
تاشفين بن علي: ٢٩٨.

تاكرونا: ١٧.

التاليسي: ٨٩.

توبع: ٩٨.

بنو نجيب: ١٨، ٩٧، ١٠٦، ١٣٨، ٢٣٦.

تدمير: ٢٨٧.

التروبادور: ٦٢، ٧٠، ٧١، ٢٥٢، ٣٦٣، ٣٦٥.

٣٦٦، ٣٦٧، ٤١٤.

تستر: ١٤٦، ٢٨٢.

تطران: ٢٣٣.

تطيلة: ٨٣.

تلمسان: ٢٧٢.

أبو تمام: ٣٤، ٣٥، ٣٨، ٤٧، ٥١، ٥٢، ٥٧، ٦٠.

١٨٠، ٢٩٢، ٣٠٦.

أبو تمام الحجاج، غالب بن رباح: ٣٩، ٥٩، ٩٧.

١٨٥، ٢٠٥، ٢٢٤، ٢٧٧، ٢٨٩، ٢٩٦.

٣١٦، ٣٨٦.

قيم بن بلقين: ٢٨٩.

تونس (وانظر إفريقية أيضا): ٤٥، ٢٨٢، ٣٤٣.

التيجاني: ١٦٤.

تيرنس: ٣١.

(ث)

تخيلا أبو حيس: ٢٣٢.

الثريا (قصر في إشبيلية): ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦.

الثعالبي: ١٠٧.

ثعلب: ٣٧.

الثقب الشرقي (في قرطبة): ١١٩.

الثقب الشهدى: انظر: الثقب الشرقي.

(ج)

ابن جابر الدباج، أبو الحسن: ٦٨١.

الجاحظ: ٢٥، ٤٨، ٣٦٨، ٣٧١.

ابن جاح الصباغ البطيوسي: ٥٨، ٦١، ٧٣، ٧٤.

١٧٥، ٢٦٩، ٢٩٨.

ابن جامع: ٥٩.

جامعة الجزائر: ٣.

جامعة القاهرة: ٣.

جان لي تينيفيت: ١٢.

جبال البرانس: ٤، ١٤٣.

جبال دزن: ٣٨٦.

جبال الورد (في قرطبة): ١٦٢.

جبل شلير: ١٤٣، ١٤٤.

جبل طارق: ١٩٢.

جبل موسى: ١٢٦.

ابن الجبير، أبو محمد: ٨٢.

ابن جبير اليحصبي: ١٧٢.

ابن جبيرول: ٤٢.

ابن جحاف (قاضى بلنسية): ١٣٨، ٤٠٠.

جُد (والدة مجاهد ملك دانية): ٣٥٥.

ابن الجند، أبو الحسين: ٩٦، ٢٤٥، ٤٠٥.

ابن الجند، أبو القاسم: ٢٩٢.

ابن الجند، أبو عامر: ٢٠٥.

جديس: ٩٨.

جرجان: ٢٨٢.

جرمانيا: ٢٤١.

جرول: انظر: الخطيئة.

جرهم: ٩٨.

جرير: ٣٤، ٣٥.

الجزائر: ٣، ٤، ٩.

الجزائر الشرقية (انظر: ميورقة ومنورقة أيضا):

١٤٠، ١٦٩، ١٩٥، ٢٠٨، ٢٠٤، ٢٤٨.

٢٥٥، ٢٧٢، ٣٠٧.

الجزيرة: انظر: جزيرة شقر.

الجزيرة الخضراء: ١٨، ٤٨، ٩١، ٩٤، ٢٣٣، ٣٣٥.

٣٦٩.

جيان: ٦، ٢٣٠، ٢٣٥.

جيانجوس، بشكوال: ١٣٦.

(ح)

الحائر (قصر في قرطبة): ١١٣، ٢٢٢.

حاتم الطائي: ٣٨١.

الحاكمي: ٤٣.

ابن الحاج البلفيقي: ١٤٤.

ابن الحاج، أبو الحسين: ١٧٢.

ابن الحاج اللورقي، أبو الحسن: انظر: جعفر.

الحاجية (قصر في قرطبة): ١١٤.

الحامة: ٢٨٨.

أبرحامد الفرناطي: ٢٤.

حبوس بن ماكسن: ٢٣٥، ٢٤٣، ٢٤٤.

حببية ابنة سليمان المستعين: ٣٦٠، ٣٧٢.

ابن الحبير: انظر: ابن الجبير.

بنو حجاج: ١٠١، ١٢٣.

ابن حجاج الإشبيلي، أبو بكر: ١٧٩، ٢٨٣.

أبو الحجاج المالقي: انظر: ابن الشيخ البلوي.

الحجاج بن يوسف الثقفي: ٦٢.

الحجاري، إبراهيم: انظر: إبراهيم.

الحجاري، مؤلف المسهب: ٢٠، ٥٢، ٦٨، ٧١، ٧٦.

الحجاز: ٣٢٥، ٣٨٣.

الحجام: انظر: أبو تمام.

ابن الحنادة أبو عبد الله: ٦٣، ٧٤، ١٠٩، ١٣٠.

١٨٠، ١٨٦، ١٩٥، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٩٢.

٣٣٢، ٣٤٢، ٣٤٧، ٣٥٨، ٣٦٥، ٣٩١.

٣٩٢.

ابن حزام: ٥١.

حريز بن عكاشة: ١٧٠.

ابن حريق: ١٣٩.

أبو الحزم، جهور بن محمد: انظر: جهور.

ابن حزم، عبد الوهاب: ٦٠.

ابن حزم، أبو محمد: ١٢، ٢١، ٢٤، ٣٦، ٣٧، ٤٣.

٥١، ٥٣، ٥٤، ٦٠، ٦٩، ٧٠، ٧٥، ٧٦.

١٠٠، ١١٢، ٢١٠، ٢١٧، ٢٢٣، ٢٢٥.

جزيرة شقر: ١٢٧، ١٤٠، ٢٦٩.

الجزيري: انظر: ابن إدريس.

ابن الجزيري، أبو مروان: ١٦٢، ٣٢٦.

الجسر (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠، ١٣٤.

جعفر: ٩٨.

أبو جعفر (غلام): ٢٦٨.

أبو جعفر (أمير سرقسطة): ١٣٨.

أبو جعفر بن أحمد: انظر: ابن أحمد.

جعفر بن الحاج اللورقي، أبو الحسن: ٧٣، ٧٨.

٨٠، ٨٦، ٩٧، ١٩٥، ٢٢٢، ٢٦٨، ٣٠٣.

٣٥٧، ٣٨٨، ٣٩٠، ٤٠٢.

أبو جعفر بن سعيد: انظر: ابن سعيد.

أبو جعفر بن عباس: ٢٢٠.

جعفر بن علي بن حمدون: ٢٠٤.

جعفر المصفي، انظر: المصفي.

أبو جعفر المنصور: ٥٠.

الجعفرية (في سرقسطة): ١٣٧، ١٤١.

الجعفرية (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠.

جلبية: ١٣، ٢٩٤.

جيل بيتة: ٣٥، ٣٥٦.

جيل مدور: ٤٥.

جيلة الملتية نورة: ٢٥٢، ٢٥٤، ٣٦٥.

أبو جهل: ١٣٠.

بنو جهور: ١٨، ٨٥، ١٠٠، ١١٣.

ابن جهور، عبد الملك: ١٠٠.

جهور بن محمد، أبو الحزم: ٨٥، ١١٦، ٣٨١.

ابن جهور، الظفر: ٤٣، ٧٨.

ابن جهور، أبو الوليد: ١٧، ٥٢، ١٠٠، ٢٤٨.

٣٢٣، ٣٤٠.

الجوسق لجفري (في سمرقند): ١٢٠.

الجوسق لحدث (في بغداد): ١٢٠.

الجوسق لتصري (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠.

جوفروي - ديموين: ١٢.

جوثالث بالنبيا، أنخل: ١٩.

جوهرة (مخفية المعتمد): ٣٦٥.

- الحكم المستنصر: ٣٦، ٣٢، ٣٦، ٣٧، ١٨٥، ٢٢٢، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٦٧، ٣٣٠، ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٩٠، ٣١٣، ٣٢٢، حلب: ٥٢، ١٠١، الخلوفا، أبو الحسن: ٢٦٧، الحماديون: ٤٠٦، الحصار: ٣٣٢، ابن الحمار: ١١١، حَام الشَّطْرَةِ (في شيبيلة): ٢٩٥، ٣٠٢، الحماسي (موسيقى): ٣٢٥، بنو حمدان: ١٠١، ١٢٤، حمد (أو حمدونة) بنت زياد (المؤدب): ٤٧، ٥١، ١٤٢، ٢٧٠، ٣٧٥، ابن حمدون، أبو عبد الله: ٣٢٣، ابن حمدون: انظر: جعفر بن علي، حمدونة بنت زرياب: ٤٦، حمدونة بنت زياد: انظر: حمد، ابن حمد يس: ٥٧، ٧٣، ٧٦، ١٢٦، ١٤١، ١٨٤، ١٨٧، ١٩٢، ٢٦٠، ٢٨٥، ٢٩٧، ٣٢٢، ٣٣٤، ٣٤١، ٣٦٨، ٣٩٤، الحمره: ١٣٢، ٢٩٩، حمزة: ٩٨، حمص: انظر: إشبيلية، بنو حود: ١٥، ١٨، ٩٠، ٩١، ٨٢، ٢٣٥، الحميري، أبو عبد الله: ١٢، ٥٤، ٥٥، ٣٨٩، ٣٩٨، حير: ٨٦، ٩٤، الحميري: انظر: أبو الوليد، ابن الحنات، الأعشى، أبو عبد الله: ٦٩، ٩١، ١١٦، ٢٣٥، ٢٥٤، أبو حنيفة: ٣٢٣، ٣٧٩، حنين اليهودي: ٢٤١، حَوْر مؤمَل (في غرناطة): ١٣٢، ١٤١، حواء: ٢٣٧، حوز مؤمَل: انظر: حور، ابن حوقل: ٢٢، ٤٨، ابن حيّان: ١٢، ١٤، ١٧، ١٨، ٥٦، ٨٦، ٨٩، ٢٥٤، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٧، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٢، ٣١١، ٣٢٣، ٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٦، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٧، ابن حزم، أبو الفيرة: ٢١، ٢٠٣، ٣٠٦، ٣٥٩، ٣٩٧، ابن حزم، أبو الوليد: ٣١٥، حسام الدولة بن رزين: انظر: ابن رزين، ابن حسان القسافي، أبو الفضل: ١٩٣، ابن حسان، أبو القاسم: ٣٩١، حسان بن مالك ابن أبي عبيدة: انظر: ابن أبي عبيدة، حسنة التميمية: ٧٧، حسداى بن شبروط: ٢١٩، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٣، ابن حسداى، أبو الفضل: ٥٩، ١٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٦١، ٣٩٥، أبو الحسن (شقيق ابن رقيم): ٦٤، أبو الحسن البرقي: ٣٠٣، الحسن البصري: ٢١٧، الحسن بن جنون: ٢٨٠، أبو الحسن بن علي بن أبي غالب: ٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦، ١٧٧، الحسن بن هاني: انظر: أبو نواس، أبو الحسين حدوازة: انظر: ابن الجدي، الحميري، أبو إسحاق: ٣٥، ١٣٩، الحميري، أبو الحسن: ٣٥، ١٩٢، ٣٢٥، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٥٩، ٣٧٢، ٣٩٠، ابن حصن: ١٠٩، ١٢٢، ٢٢٢، ٢٩٣، حصن الزاهر: انظر: الزاهر، حصن المقاب (في غرناطة): ٢١٩، الحطّبة: ٣٥، ٥٦، ابن حفص الجزيري، أبو الحسن علي: ١٤٧، حفصة الركونية: ٢٣٩، ٣٠١، ٣٢٤، الحكم الأول الرضى: ٧٧، ٣٦٠، ٣٦١،

خَلوة (صاحبة الرمادى الشاعر): ٣٤٨.

الخليل بن أحمد: ١٧٣، ٣٧٩، ٤٠١.

الخنساء: ٣٥، ٥١.

خوان سنوئل: ١٦٤.

خوز ستان: ٢٨٢.

الخولاني أبو بكر: ٢٧٥.

خيار (قائد مسيحي في خدمة المنصور بن يحيى):

٣٦١.

ابن الحياط: ٨٣.

أبو خير لإشبيلى: ١٧٩.

ابن خير، أبو بكر: ٤٣، ٣٥، ٣٧، ٣٨.

خيران الصقلي: ٥٢، ١٢٩، ١٣٠، ١٩٤، ٢٨٠.

٣٨١.

ابن خيرة الصباح، إبراهيم أبو إسحاق: ٢٠٩.

٣٢١، ٣٢٩، ٣٩٦.

ابن خيرة القرطبي، أبو أحمد عبد العزيز: انظر:

المنقول.

الحفيف: ٢٠٩.

(د)

دار الرهائن (في قرطبة): ٣٨.

دار الزينية (في إشبيلية): ١٢٦.

دارا بن دارا: ٢٢، ٩٨.

دارة الشرقى: انظر: الثغب الشرقى.

الداوى، أبو الفضل: ٤٠٢.

الدارو (نهر): ٢٩٨.

دارين: ٢٧٩، ٢٨٠.

داغليه: ٢٩٩.

دائق: ٤١، ٣٦١.

دافى الإسرائيلي (مطرب وموسيقى): ٣٣٥.

دانية: ١٧، ٣٧، ٤٦، ٧٧، ١٤٠، ١٩٤، ١٩٥.

٢٠٨، ٢٣٤، ٢٤٨، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٠.

٢٩٠، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٩٧.

ابن دارد الأصفهاني: ٥٥، ٣٧٦.

ابن الدب، أبو مروان: ١٢٦.

٢٤٠، ٢٦٧، ٢٢٧، ٣٨١.

حير الزجاني (في قرطبة): ١١٧، ١١٨، ١٢٢.

١٣٠.

الحيرة: ٩٨، ٣٥١.

(خ)

ابن خاقان، الفتح: ٥٧، ٩٠، ١١٥، ١١٧، ١١٨.

١٢٤، ١٢٥، ١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٥.

١٣٧، ١٨٩، ١٩٥، ٢٤٢، ٢٥١، ٢٧٩.

٢٨٥، ٢٩٢، ٣٢٠.

خالويه: ٢٣٢.

خبيب: ٩٨.

بنو خدام: ٨٥.

ابن الخراز البطرقي، أبو جعفر: ٨٠، ١٦٦، ١٨٠.

خراسان: ٥٢.

خرداذبه: ٢٣٢.

الخزرج: ٧٥.

بنو خزرج: ١٧، ١٨، ٢٣٥.

ابن أبي اخصال، أبو عبد الله: ٣٦، ٥٠.

ابن الحبيب: ٣٩.

الخطارة (مضحك التوكل): ٣٠٣.

ابن الخطيب، لسان الدين: ١٩، ٢٣، ٨٩، ١٢٩.

١٨٥.

ابن خفاجة، أبو إسحاق: ١١، ٤١، ٥١، ٥٧، ٦٩.

٩٩، ١٠٧، ١١٦، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥.

١٤٧، ١٤٨، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٥، ١٩٠.

١٩١، ٢١١، ٢١٦، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٦٩.

٣٠٢، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١٤، ٣١٥، ٣٣٠.

٣٥٣، ٣٦٣، ٣٧٠، ٣٨٧، ٣٩٤، ٣٩٦.

٤٠٩.

أبو خلدة: ٣٥.

بنو خلدون: ١٢٣.

ابن خلدون (الشاعر): ٨٧.

ابن خلدون (المؤرخ): ٢٢، ٢٣، ٣٠، ١٩٤، ٢٣٠.

٢٩٩، ٣٤١.

خلف بن نجاح: ٢٤٨.

ابن الدباغ، أبو الفضل: ٢٤٢.

ابن الدباغ، أبو المطرف: ٧٠، ٢٧٧، ٣٦٢، ٣٩٥.
دجلة: ١١٣، ١٨٠.

ابن دحية: ٥٧.

ابن دراج القسطل، أبو عمرو: ٣٩، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٨٨، ٩٠، ١٠٠، ١٠٩، ١٢٢، ١٢٩، ١٥٩.

١٦٧، ١٩٤، ٢٣٤، ٢٩٢، ٣١٩، ٣٢٦، ٤٠١، ٤٠٩.

دلابة: ٢٨٠.

بنو دمر: ١٨، ٨٩، ٢٣٥.

دمشق: ٢٨، ١٠٧.

دمشق (قصر في قرطبة): ١١٧.

ابن الدودين، أبو جعفر: ٢٥٧.

دوزي، رينهاوت: ٧٧، ١٣٦، ٢٢٩، ٢٤٩، ٢٦٦، ٣٨٥، ٣٦٩.

دير ثيلانويا: ٢١٩، ٢٩٠.

ديين هـ: ٣٧١.

دير ليبر: ٢٩٩، ٣٣١.

دير نيسوس: ٢٥.

(ذ)

ذبيان: ٩٨.

ذخر الدولة (أخو المعتمد من أمه): ١٢٦.

أبو ذر: ٨٦.

بنو ذكوان: ٨٥.

ابن ذكوان، أبو العباس: ١٥، ١٦٦، ٢٦٥.

ذو الرمة: ٣٤، ٣٥.

ذو النون: ٨٦، ٩٧.

بنو ذى النون: ٨٦، ١٣٥، ١٣٦، ٢٣٨، ٢٢٠.

ابن ذى النون، الأرقم: ٢٣٨.

ابن ذى النون، إسماعيل: ٢٣٨، ٢٨١.

ابن ذى النون، الظاهر عبد الرحمن: انظر: عبد الرحمن.

ابن ذى النون، المأمون: ٨٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧.

١٧٩، ٢١٣، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٦٤، ٢٩٣.

٢٩٧، ٣٢٤، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٦١، ٣٨٧.

ابن ذى النون، يحيى القادر: ١٧، ١٧-، ٢٠٤، ٢٢٨، ٢٦٤، ٢٧٤.

(ر)

الرازي، أحمد بن محمد: ٢٩٤.

الراضى بن المعتمد: ١٨، ٤٣، ٦٣، ٢٢٢، ٢٦٦، ٣٧٩، ٣٨٠، ٤٠٥.

رائده: ٢٤٧، ٢٤٨.

رايون. (كونت برشلونة): ١٨.

رؤبة بن العجاج: ٣٥.

رأمة (منطقة في الجزيرة العربية): ٣٦٠.

ابن رباح الحجام: انظر: أبو تمام الحجام.
الرباط: ١٨٨، ٢٢٣.

ربض الرثانين (في قرطبة): ٢٦١.

ربض قرن برال (في قرطبة): ٢٦٠.

ابن الريب، التميمي القيرواني: ٦١.

ابن الربيع، أبو الحسن: ٨٣.

أم الربيع: انظر: اعتماد الرميكية.

أبو الربيع (حاكم سلجاسة): ٣٦.

رحبة عزيرة (ميدان في قرطبة): ١٦٠.

ابن رُحيم، أبو بكر: ٦٤، ٢٠٨، ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٩١، ٢٦١، ٣٨٨.

ابن رُحيم، أبو الحسن: ٢٨٠.

بنو رزين: ٢٣٦.

ابن رزين، حسام الدولة أبو مروان: ٢١، ٥٤، ٧٧.

١٠٠، ١٤٧، ١٧٢، ١٨٦، ٢٢-، ٢٣٦.

٢٤٠، ٢٦٣، ٣٠٧، ٣٢٥، ٣٣١، ٣٣٤.

٣٣٥، ٣٨٢، ٣٨١، ٣٤١.

ابن رزين، هذيل: ٢٢٧، ٢٨١، ٣٠٩.

رستم: ٩٨، ٢٢٢، ٣١٦.

ابن رُشد: ٣٤٠.

رشيد بن سليمان، أبو الحسن: ٣٦٨.

الرشيد بن المعتمد: ١٩، ٤٣، ٩٤، ٢٢٣، ٢٩٧.

٣٣٣، ٣٣٧، ٣٥٨.

الرشيق (قصر في قرطبة): ١١٣.
 ابن رشتي القيرواني: ٣٨، ٤٠، ١٠١، ٣١٨، ٣١٢.
 ابن رشتي، أبو العباس: ٣٩٧.
 ابن رشتي (أمير مرسية): ٧٩.
 ابن رشتي (أبو علي): ٢٦٧.
 الرصافة (في بلنسية): ١٣٨.
 الرصافة (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠، ١٧٣.
 الرصافي، أبو عبد الله: ٥٢، ١٢٨، ٢٦١.
 ابن الرقاء: ٢٠٧.
 رفيع النولة بن المتصم: ٦١، ٣٠٣، ٣٢٨، ٣٦٣.
 ٣٦٧، ٣٨٠.
 الرقيق القيرواني: ٢٢٢.
 ابن رُماحس: ١٩٣.
 الرمادي (أبو عمرو يوسف بن هارون): ١١، ٥١، ٧٢، ٧٥، ١٥٤، ١٦١، ١٩٧، ٢٠٩، ٢١٥.
 ٢٥١، ٢٥٤، ٣٤٨، ٣٥٨، ٣٦٧، ٣٩٨.
 الرميكية: انظر: اعتماد.
 رميمة: ٢٣٠.
 ابن الريمي: ٢٤٠.
 رنفة: ١٧، ١٨، ١٢٣، ٢٣٥.
 رود سينلو: ٢١٩، ٢٩٠.
 روزفيتا، الراهبة السكسونية: ١١١.
 روسيلون (في جنوب فرنسا): ٢٥٤.
 ابن ووش، محمد بن مروان بن عبد العزيز: ١٨١.
 روض الأنتحوان (في قرطبة): ١١٩.
 الروض الشريف (في قرطبة): ١٢١.
 الروضة (في قرطبة): ١١٣.
 رولاتند: ٣١٦.
 الروم: ٢٢، ١٩٥، ٢٥٧، ٢٩٤، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٧.
 روما: ٥٩.
 ابن الرومي: ٣٨، ٣٩، ٥٢، ١٦٧، ١٦٨، ٣٠٤.
 روتسار: ٧٧.
 رَبة: ٢٣٠، ٢٩٥.
 (ز)

الزاهر (في إشبيلية): ١٢٤، ١٢٥.
 الزاهر (قصر في قرطبة): ١١٣، ١٢٣.

الزاهرة: انظر: مدينة.

الزاهي (في إشبيلية): ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥.

زادي بن زوي بن مناد: ١٥، ٢٣٥، ٢٤٣.

الزباء: ٢٣٤.

الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن: ٣١، ٢٢٢.

٢٦٠، ٣٨٩.

الزبير بن عمر المثلث: ١٢١.

الزبجالي، أبو مروان أو أبو الوليد: ١١٨.

زربوط (الغني): ٣٣٦.

ابن زرقون، أبو عبد الله: ٦٥، ٣٢٢.

زرباب: ٤٦، ٤٧، ٢٧٠، ٢٨١، ٢٨٦، ٣٣٥، ٣٤٢.

ابن الزقاق: ٦٩، ١٣٩، ١٤٠، ٢٠٢، ٢٤٢، ٣٠٤.

٣٢٩، ٣٢٨، ٣٤١، ٣٥٢.

الزلاقة: ١٩، ٨٠، ٩٤، ١٨، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٧٥.

٢٨٤، ٢٩٨، ٣١٢، ٣١٦، ٣٢٥، ٣٩٩.

ابن زمرك: ٢٦٧.

زنانة: ١٨، ١٩، ٢٢، ١١٢، ٢٣٥، ٣١١.

ابن زنياع: انظر: ابن البياع.

ابن الزنجاري: ٦٦.

ابن زُهر، أبو بكر: ٣٤، ٣٤٠.

ابن زُهر، أبو مروان: ٦٨.

الزهراء (عظيمة عبد الرحمن الناصر): ٢٩٤.

الزهراء: انظر: مدينة.

زهير بن أبي سلمى: ٣٥، ٥١.

زهير الصقلي: ٨٣، ١٢٩، ١٣٠، ٣٠٢، ٣٣٧.

٣٩٢.

زويل: ٧٧.

أبو زياد الكلابي: ٣٥.

زيد بن ثابت: ٧٨.

زيد الخيل: ٥١.

أبو زيد القرشي: ٣٤.

ابن زيدون أبو الوليد: ٥١، ٥٧، ٧٧، ٨٣، ١١٤.

١١٥، ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٢٥، ١٧٢.

١٨٣، ١٨٥، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٢١، ٢٢٢.

٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٦٣، ٢٦٤.

٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٣، ٢٧٩، ٢٨٣، ٢٩٦.

٢٦٦، ٢٤٢، ٢٤٠، ٢٣٩، ٢٣٥، ٢٦١
٢٦٤، ٢٦٨، ٢٦٠، ٢٩٢، ٣٠٣، ٣١١
٣٦٥، ٣٩٥

السرور (قصر في قرطبة): ١١٣.

ابن سريج: ٣٣٥.

السطح المشرف: ١١٤.

سطيف: ٢٣٥.

السطيفي: ٢٣٥.

ابن سعادة، أبو بكر: ١٢١.

ابن سعد الخير: ١٧٣.

سعد السمرد (في إشبيلية): ١٢٤.

ابن سعدون، أبو جعفر: ٣٣٤.

ابن سعدون، أبو عمر: ١٠٠.

ابن سعيد (الجند الأعلى المورخ): ٢٢٤.

سعيد بن أضحى: ٨٠.

ابن سعيد الأندلسي: ٢١، ٢٢، ٣٦، ٥٨، ٥٢، ٧٦.

٨٢، ١٠٨، ١٢٧، ١٢٨، ٢٤٢، ٢١٣، ٢٨٦.

ابن سعيد، أبو جعفر: ٢٣٩، ٣٠١، ٣٢٤.

سعيد بن جودي: ٢٥٠، ٣٧٧.

سعيد بن رُقيل: ١٧.

ابن سعيد، عبد الملك: انظر: عبد الملك.

سعيد بن فرج الجباني: ٢٦٧.

ابن سعيد محمد بن عبد الملك: ٣٦٢.

سعيد بن نصر: ٣٧.

ابن سفر المريني: ١٠٧.

ابن سفيان، أبو محمد: ١٨٣، ٢٠٤، ٣٥٦.

ابن السقاء: ٥٢.

ابن السقاط، أبو القاسم: ٥١، ٥٢، ٢٠١، ٢٨٥.

٣٣٥.

سقراط: ٤٢.

سكة الحطّابين (في إشبيلية): ٣٥٥.

سكر الياش: انظر: الزلاقة.

ابن السكيت: ٣٧.

سلا: ١٨٨.

ابن سلام الهروي: ٣٧.

٣٠٠، ٣٠٧، ٣١١، ٣٢٣، ٣٥٧، ٣٥٩
٣٦١، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٧٢، ٣٧٤
٣٩٤، ٤٠٨.

بنو زيري: ١٠٠، ١٣٢، ١٧٩، ١٨١، ٢٤٠، ٢٤٣،
٢٦٩.

زيري بن عطية: ٢٦٧.

(س)

ابن سارة الشتريني: ١١، ٣٩، ٧٠، ٨١، ١٣٣،
١٧٤، ١٧٥، ١٨٤، ١٨٧، ١٨٩، ٢٠٢،
٢٠٣، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٧،
٢٦١، ٢٧٢، ٢٧٦، ٢٨٥، ٣٠٣، ٣١٣،
٣٦٢، ٣٧١، ٣٨٨، ٣٩١، ٣٩٤، ٤٠٥.

ساسان: ٩٨.

أبو سالم، سلطان المغرب: ٢١٧.

سان مرتين: ١٣٦.

سان ميان دي لاجويا: ٢٥٠.

سانتشو: انظر: شانجه.

سياء: ٩٨، ١١٤، ١٦٤.

سبحة: ١٩٢، ٢٣٥، ٣٤٠.

سيريانو الغالب: ٢٣٢.

ابن سبعين: ٤٠٦.

سجراخس: انظر: الزلاقة.

سجلماسة: ٣٦.

سحر (محظية المعتمد): ٣٦٥.

سد الثور (في ثلب): ١٣٤، ٣٥٥.

السد: ٣٩.

ابن سدرائ، أبو بكر: ٢٤٠.

ابن السراج المالقي: ٢٢١، ٢٢٩، ٢٤٩.

ابن سراج، أبو الحسن: ١١٥، ١١٦، ٢٠١، ٣٥٦.

سراج الدولة ابن المعتض: ٢٤٠.

سراج القطرب: ١٥٧.

ابن سراج، أبو مروان: ٧٨.

سردينية: ١٩٥، ٢٣٤، ٢٥٥.

سرقسطة: ١٧، ٢٠، ٣١، ٤٢، ٤٦، ٦٢، ٦٣، ٧٠.

٨٣، ١٣٧، ١٤١، ١٤٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٩.

ابن السيد البطليوسي، أبو محمد: ٣٥، ٣٧، ٦٤،
١٣٧، ١٨٠، ٢١٦، ٢٨٢، ٢٩٢، ٣٢٥،
٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٩٧، ٣٩٨.
السيد الحميري: ٣٤١.
سيد غاري: ٢١٦.
السيد التتيطور: ٩٩، ١٣٨، ١٧٠، ٢٤٨، ٢٧٦،
٣١٧.

السيدة لكبرى: انظر: اعتماد الرميكية.
السيدة لكبرى: انظر: مرجانة.
ابن سيده: ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٥٨.
سير بن أبي بكر: ١٩، ٢٨٤.
السيراق أبو بكر: ٣١٣.
سيسناندر: انظر: رائده.
سيف (ملوك القصد): ٣٠٣.
سيف بن ذي يزن: ١٢٤.

(ش)

شاور بريان: ٤٠٦.
شارل التاسع: ٧٧.
شاطبة: ٧٨، ١٤٠، ٢٦١، ٢٩٥، ٢٩٩.
ابن شاطر السرقسطي: ٢٦٨.
الشافعي: ٥٧.
ابن شاذي اليهودي: ٢٤١.
ابن الشاذلي: ٣١٣.
الشام: ٥٢، ٥٦، ١٣٢.
شانت ياقب: ٢٨٥، ٢٩٠.
شانجه (ملك نبرة): ٨٣، ٣٣٨.
شانجه خرسية: ١٨، ٢٤٩، ٣٣٨.
شو شيرين: ٢٣٢.
ابن شيراق أبو القاسم: ١٥٦، ١٦٢.
الشعر: ٢٨٠.
شحيان (جبل): ٢٨٧.
ابن شحيص: ٢٩٤.
شداد: ٩٨.
شدولة: ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٨٠.

السلطانية (منزلة في إشبيلية): ١٢٧.
سلمة بن جندل: ٣٥.
سليمان بن أحمد الشاعر: ٣٤٨.
سليمان ابن أحمد القرطبي: انظر: ابن أحمد.
سليمان بن أحمد القضاعي: أبو ربيع: ٢٤١.
سليمان ابن بطال الأندلسي: انظر: ابن بطال.
سليمان بن الحكم المستعين: ١٥، ١٦، ١٨، ٤٨،
٦٢، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٢٣٥، ٣١١، ٣٣٨،
٣٦٨، ٣٧٣.
سليمان بن حارود: ٤٦، ١١٤، ١٢٦.
سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموي الشرقي):
٢٣٧.
سليمان بن مهران السرقسطي: ٣٣٩.
سليمان بن هود: ١٧.
سماجة الصنهاجي: ٦٢، ٣٢٢.
السماز: ٣٧٤.
ابن السماك، أبو محمد عبد الله: ١٤٦، ٤٠٣.
سمراء: ١٢٠.
سمرقند: ١١٠.
السمرال: ١٠٠.
السميسر: ٢٠، ٨١، ٩٦، ١١٥، ١١٦، ١٣١، ١٤٠،
١٢٤، ٢٢٥، ٢٣٧، ٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩٩.
سند: ٣٩.
سنيكا: ٤١٢.
ابن سهل الإسرائيلي: ١٢٧.
ابن سهل (الحاجب الصقلي): ٣٤٨.
سهل بن مالك: ١٨٧.
السهلة: ٥٤، ٧٧، ١٠٠، ١٧٢، ٢٢٠، ٢٣٦، ٢٤٠،
٣٣٧، ٣٨٦، ٣٨٥.
سواجات (صاحب سبتة): ٣٤٠.
سورية: ٥٢، ١٢٠، ١٧٣، ١٨٥.
السوس (في فارس): ٣٩، ٣٣٥.
السوس (في المغرب): ٣٨٢، ٣٣٥، ٣٨٦.
سيويه: ٣٦، ٣٧، ١٧٣، ٢٣٢، ٣٧٩.
ابن السيد البطليوسي، أبو الحسن عي: ٢٠٦،
٣٠٩.

- ابن الشرح: ٣٤٢.
الشرف (ق إشبيلية): ١٢٢، ١٢٣، ١٢٨.
ابن شرف، أبو الفضل جعفر: ٤٠، ٥٩، ٦٨، ٧٨.
٨٦، ١٠١، ١٠٨، ١٣١، ١٣٦، ١٧٦، ١٨١، ١٩٣.
٢٠٦، ٢١٣، ٢٨٧، ٣٠٦، ٣٥٠، ٣٥٦.
٣٥٧، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٩١، ٤٠٠، ٤٠٨.
ابن شرف القيرواني: انظر: محمد
الشريف الرضى: ٤١، ٥٢.
شرق العقاب: انظر: العقاب.
الشرواني: ٣٣٤.
شريح: ٣٣٥.
شريح: ٢٣٥، ٢٨٢.
الشريف الرضى: ١٤٥، ١٦٩.
شعب بوان: ١٠٧، ١٤٢.
شعر: ١٠٧، ١٩٠، ١٩١، ٢٤٢، ٢٩٨.
الشقندى: ٢١، ٧٤، ٨٦، ١١١، ٣٤٠.
شقرة: ١٧.
شلب: ١٨، ٥٨، ٥٩، ٦٨، ١٢٥، ١٣٣، ١٣٤.
١٣٥، ١٩٠، ٣١٨، ٣٣٦، ٣٥٤.
شطيطش: ١٨، ٣٢٠.
شليز (جبل): ٢١١، ٢١٢.
الشمّاخ بن ضار: ٣٥.
شمال أفريقيا: ١٧٠، ٢١٨، ٢٢١، ٢٠٢، ٢٧٤.
٢٨٥، ٣٣٦.
شتيوس: ١١٠، ١٢٧، ١٣٤، ١٩٠، ٣٤٨.
شتيرية ابن رزين: ٢٣٦.
شتيرية (ق الغرب): ١٨، ٣٤، ٢٠٢، ٢٣٦.
ابن شتيفر، أبو عثمان: ٨٣.
شترة: ٥٩، ١٧٢، ١٨١.
شتيرين: ٧٢، ٢١٢، ٢٨٢.
شُنجول: انظر: عبد الرحمن.
شنف (زوج سليمان المستعين): ٣٦٠.
ابن شهاب (اللقبة المالكي): ٣٦٩.
ابن شهيد، أحمد بن عبد الملك: ٤٢.
ابن شهيد، أبو حفص عمر: ٤٢، ٨٠، ٣٢٤.
ابن شهيد، أبو عامر: ١١، ٣٩، ٤٢، ٦٠، ٦٦، ٦٧.
- ٨٠، ٩١، ١٠٠، ١١٢، ١١٨، ١٢، ١٥٥.
١٦٦، ١٧٦، ١٧٧، ١٩٦، ٢٠٦، ٢٠٤.
٢٢٠، ٢٤٥، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٤.
٢٦٥، ٢٦٦، ٢٩٠، ٣٠٠، ٣٢٤، ٣٢٧.
٣٣٠، ٣٥٠، ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٦٦، ٤٠٢.
٤٠٧، ٤١٢.
ابن الشيخ البلوى المالقي (أبو الحجج): انظر:
يوسف.
شيرين: ٥٠.
(ص)
الصاحب بن عباد: ٢٩.
ابن صارة الشتريني: انظر: ابن سارة.
صاعد البغدادي: ٣٨، ٣٩، ٤٥، ٨٢، ٨٣، ١٤٩.
١٥١، ١٨٤، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٩٧.
صجد: ١٠٧.
ابن الصّغار، أبو عبد الله: ٣٩٠.
الصفدي: ٥٧، ٥٨.
صفوان بن إدريس (أبو يحر): ١٠٨، ١٣٩.
الصقالية: ١٥، ١٨، ٢١، ٤٨، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٤.
٢٣٧.
الصقل (مطرب المعتضد والمعتد): ٢٧٦، ٣٣٥.
صقلية: ٧٣، ٧٦، ١٩٢، ١٩٥، ٢٤٨.
أبو الصلت أُمّية بن عبد العزيز: ٣١، ٢٠٧، ٣١٧.
بنو صمّاح: ١٨، ٣٢٠، ٣٨١.
ابن صمّاح السرقسطي: ٨٩.
ابن صمّاح، المعتصم: ١٩٥، ٣٤٠.
صمويل بن النغلة: انظر: إسماعيل.
الصمّاحية: انظر: قصر.
صنماء: ١٣٥، ١٤٦.
صناهجة: ١٩، ٦٨، ٩٢، ١٠٠، ١١٢، ٢٣٥، ٢٤٦.
٢٤٧، ٣١١.
الصنوبري: ٣٥، ٤١، ١٤٥، ١٦٨.
صنوبري الغرب: انظر: ابن خفاجة.
ابن صهيّب، أبو العلاء: ٦٤.

طوطاني: ٢٨٨.
طوطة (سكة نيرة): ٢٤١.
ابن الطيب، أبو بكر: ٤٣.
بنو طيقو: ١٨.

(ط)

الظافر بفضل الله: انظر: ابن جهور، عبد الملك.
الظافر بن المعتضد: ٢٦٩.

(ع)

ابن عائشة، أبو عبد الله: ٦٩، ١٣٩، ١٤٠، ٢٧٨.
عائشة القرطبية: ٢٦٦.
عاده: ٩٨.

أبو عامر بن عثمان البرياتي: ٢٩٥.
عامر بن هشام القرطبي، أبو القاسم: ١٢٠.
العامرية: ١٢٠.
بنو عباد: ١٧، ١٨، ٤٣، ٥٧، ٦٠، ٨٥، ٨٦، ٩٧،
١٠٣، ١٢٢، ١٨٧، ١٨٨، ٢٣١، ٢٧٥.
٣٢٠، ٣٤٠، ٣٧٥.

عباد: انظر: المعتضد.
عباد، أبو عمرو (ذو الوزارتين): ٦٥٨، ١٦٠.
١٦١، ١٦٣، ٢٨٦.
ابن عباد محمد أبو القاسم: ١٧، ٢٣، ٥٥، ٦٠،
١٠٠، ١٦٩، ٣٧٧.

ابن عبادة القزاز، أبو بكر: ٥١.
عبادة بن ماء الساء، أبو بكر. انظر: ابن ماء
الساء.

العبادية (جارية المعتضد): ٣٧٥.
بنو العباس: ٩٨، ١٠١.
العباس بن الأخنف: ٥٢، ٥٧، ٣٦٠، ٣٦٨، ٣٦٩.
ابن عباس، وزير زهير الصقلي: ١٣٠، ٢٤٥،
٣٢٧، ٣٩٢.

ابن عباس، أبو جعفر: ٨٣.
عباس بن فرناس: ٢٦٠.
أبو العباس اللص: ٣٥٨.

صهيب بن ماني: ٣٢٤.
الصمري (أبو بكر): ٣١٤.
الصين: ٢٤، ١٧٥.

(ض)

ابن ضابط، أبو الوليد: ٦١، ٦٦، ٦٧.

(ط)

طالقة: ٢٩٥.
بنو طاهر: ١٨.
ابن طاهر، أبو عبد الرحمن: ٥١، ٦٨، ١٦٦،
١٩١، ٢٨٥، ٣٠٨.

الطهني: ٨٣.
الطنجاري، ابن مالك: ١٧١، ١٧٤، ١٧٩.
طرب (مينة): ٣٦٦.
طرطوشة: ١٧، ٢٣٤.
الطرطوشي (المورخ): ٢٤٢، ٢٨٢، ٣٥٨، ٣٦١،
٣٨٨.

طرفة بن العبد: ٣٥.
طفيل الغنوي: ٣٥.
طركونة: ٢٩٤.
الطرماح: ٣٥.
طريانة (في إشبيلية): ١٢٨.
طسم: ٩٨.
ابن طلحة: ٣٩٨.

طليلة: ١٧، ٢١، ٣١، ٤٧، ٦٢، ٨٦، ٩٣، ١١٤،
١٢١، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٦٥، ١٧٠،
١٧٤، ١٧٩، ١٨٥، ٢٠٤، ٣١١، ٢٣٢،
٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٦٤، ٢٧٤،
٢٧٦، ٢٩٣، ٢٩٧، ٣٠٥، ٣١٦، ٣٢٠،
٣٢١، ٣٢٣، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٦٩، ٣٨١،
٣٨٧.

الطلق المرواني: انظر: مروان.
طنجة: ٣٩، ١٢٦، ٢٣٥، ٤٠١.
طواحين ناصح: انظر: مجلس ناصح.

ابن عبد الصمد، أبو بحر يوسف: ٩٧، ٩٨، ٢٦٦، ٢٦٨، ٤٠٩.

عبد حمز (أخو ابن اللبابة): ٥٩.

ابن عبد العزيز بن الأرقم، أبو الأصمغ: ٢٩، ١٦١، ١٦٢، ٢٨٦.

عبد حمز البطلوس، أبو الأصمغ: ٣٢٥.

ابن عبد العزيز، أبو بكر (الشاعر): ٨٠.

ابن عبد العزيز، أبو بكر (صاحب بلسية): ٦٩، ٢٤٢، ٢٦٤.

عبد حمز بن أبي عامر: ١٧.

ابن عبد الغفور: ٤١.

ابن عبد الغفور، أبو القاسم: ٢٠٧.

عبد الله بن أحمد بن طالب، أبو العباس: ٢٢٠.

عبد الله بن يلقين: ٢٠، ١٣٢، ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٣٤.

٢٣٦، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣٢٢، ٣٦٧، ٤٠٢.

عبد الله بن حكم (أو حكيم): ١٣٨.

عبد الله بن سلام: ٢٤٠.

عبد الله بن عبد العزيز الرواني: ٣٦٤، ٣٨١.

عبد الله بن فرج: ٢٦٧.

عبد الله اللوشي: ٥١، ٣٥٩.

عبد الله بن محمد (الأمير الأموي): ١٢٠.

عبد الله بن محمد بن مسلمة، أبو محمد انظر: ابن الأقطس.

عبد الله بن مسلمة الشاطبي، أبو محمد ٣٣٣.

عبد الله المهرس: ١٧٤.

عبد المؤمن، أمير الموحدين: ٣٤، ٦٤.

عبد الجيد بن عبدون: انظر: ابن عبدون.

عبد المحسن الصوري: ٤١.

عبد العطى بن المعين، أبو بكر: ٢١١.

عبد الملك بن إدريس الجزيري، أبو مروان: ٨٢.

٨٣، ١٥١، ١٨٤، ٢٠٢.

عبد الملك بن سعيد المرادي، أبو مروان: ٦٨.

١٥٧، ١٥٦.

عبد الملك بن غصن، أبو مروان: ٣٣٠.

عبد الملك بن مروان: ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٧١.

عبد الملك بن المستعين أمير سرقسطة: ٢٩٠.

العباس بن الشتركل بن الأقطس: انظر: ابن الأقطس.

العباس بن ناصح: ٤٨.

ابن عبد البر الشنتريني، أبو عبد الله: ٢١٦، ٣٥٦.

ابن عبد البر، أبو عمرو: ٧٨.

ابن عبد البر، أبو محمد، ذو الوزارتين: ٢١٩، ٣٨٣.

عبد الجبار المنتبي، أبو طالب: ٩٨.

عبد الجليل بن وهب الرسي: ٤٠، ٩٤، ٩٥.

١٤٤، ١٧١، ١٧٧، ١٨٩، ١٩٤، ٢٣٨.

٢٦٠، ٢٩٧، ٣٠٣، ٣٠٨، ٣١٦، ٣٨٤.

٣٨٧.

عبد الحق الثاني (السلطان المريني): ٢٤٠.

عبد الحق الإشبيلي: ٤٠٨.

عبد الحق بن عطية، أبو محمد: ٢٠٢.

عبد الحميد الكاتب: ٣٠.

ابن عبد ربه: ٤١، ١٤٩، ١٥٧، ٣٩٤.

عبد الرحمن البرقوقي: ٤٥.

عبد الرحمن بن يشر، أبو المطرف: ٤٣.

عبد الرحمن الثاني: ٤٥، ٤٩، ٢٣٢، ٣٧٠، ٣٠٠.

٣٣٦.

عبد الرحمن الخامس، المستظهر: ١٥، ٦٠، ٨٧.

٣٥٢، ٣٦٠، ٣٧٢.

عبد الرحمن خليفة: ٦٠.

عبد الرحمن الداخل: ١٢٠، ١٧٣.

عبد الرحمن بن ذي النون، الظافر: ٢١، ٢١٦.

٢٨٢.

عبد الرحمن بن شبلان الحضرمي: ٣٩.

عبد الرحمن شنجول: ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ٢٣٣.

٢٣٥، ٢٤٩، ٢٨٤، ٣٣٠، ٣٤٢، ٤٠٦.

عبد الرحمن الناصر: ٣٦، ٤٢، ٤٥، ٤٨، ١١٠.

١١١، ١١٤، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٩، ١٣٦.

١٨٥، ١٩٣، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٣٧، ٢٣٩.

٢٤١، ٢٤٣، ٢٦٧، ٢٧٣، ٢٩٠، ٢٩٧.

أبو عبد الصمد (شاعر من سرقسطة): ٢٦٨.

العراقي: انظر: أبو حنيفة.
العرب: ٢٤، ٤٥، ١٩٣، ١٩٥، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٥٧، ٣٠٠، ٣٨٢، ٤٠٦.
أبو العرب مصعب الصقل: ٣١، ٧٦، ٢٩٨.
ابن العربي، أبو بكر: ٣٠، ٣٣، ٨١، ١٩٣، ٢٥٦، ٢٥٨.
ابن عرفة محيى الدين: ١١٦.
عروة بن خزام: ٥١.
عروة عفراء: ٣٥٦.
عروة بن الورد: ٣٥.
عز الدولة بن صمادح: ١٩٥، ٢١٠، ٢٧٦، ٤٠٦.
ابن العسال: انظر: ابن الفسال.
عضد الدولة بن المعتمد: ٣٢٠.
ابن العطار، أبو القاسم: ١٨٣، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٣، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٥٧، ٣٦٨.
ابن عطية، أبو بكر: ٣٨٩.
العقاب لإقربيا من قرطبة: ١١٩، ١٢٠.
عقبة البقر: ١٨.
العقيق (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠، ٢٧٣.
ابن عكاشة: ٣١٩.
أبو العلاء (حاكم إشبيلية): ١٢٤.
أبو العلاء المعري: ٣٥، ٤١، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٢، ٦١، ٢٠٤، ٢٢٢.
ابن أبي علاقة: انظر: محمد.
علقمة بن عتبة: ٣٥.
علم: ٤٥، ٣٣٦.
علوش، إس: ٩.
علي (كرم الله وجهه): ٨٩، ٩٠، ٩٨، ٢٧١، ٢٧٣.
علي بن أحمد: ١٣٩.
العلی باقة (أمير مالقة): ٣٣٥.
علي بن حازم اللحياني: ٣٥.
علي بن حمود الناصر: ٦٢، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٢٣٤، ٢٣٥.
علي بن عقيل، أبو الوفاء: ٢٥٦.
علي بن عيسى: انظر: ابن ميمون.
علي بن الفضل، أبو الحسن: ١٢٧.

عبد الملك المظفر: ١٣، ١٥، ٥٢، ٦٠، ٨٢، ١٠٠، ١١٤، ١٥٩، ١٨٢، ٢١٩، ٢٥٥، ٢٧٤، ٢٩٩، ٣٢٠، ٣٢٧، ٣٣١.
عبد المنعم بن من الله القروي: ٢١٩.
عبد الواحد المراكشي: ٢٠، ٢٢، ٥٠، ٥١، ٥٤، ٥٩، ٨١، ٨٩، ٩٠، ١٢٥، ٣٢٠، ٣٨٣.
عبد الوهاب بن حزم: انظر: ابن حزم.
عبد الوهاب المالقي، أبو محمد: ٤١٠.
عبد الوهاب بن محمد: ٣٦.
عبد الوهاب المتقي، أبو محمد: ١٧٥.
ابن أبي عبيدة، حسان بن مالك: ٨٧، ٣٧٢، ٤٠٦.
عبدية بن الطبيب: ٣٥.
ابن عديوس، أبو عامر: ٢٦٨، ٣٧٤.
ابن عديون (مؤلف رسالة في الحسية): ٢٥١.
ابن عديون، اليامري، أبو محمد عبد المجيد: ٣٦، ٥٠، ٥٨، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٢، ٩١، ٩٨، ١٨١، ٢٠٧، ٢١٣، ٢٩٣، ٣٠٨، ٣٣٨، ٣٦٦.
عبيد بن الأبرص: ٣٥.
أبو عبيد البكري: انظر: البكري.
عبيد الله (صهر حسام الدولة بن رزيق): ٣٨٥.
عيسى: ٩٨.
ابن عيود الرياحي، أبو القاسم: ٢٠.
عبيد الله الرشيد: ١٢٤.
عبيد الله بن قاسم: ٢٣٢.
أبو العتاهية: ٣٥، ١٥١.
عتيق (الغني): ٣٣٥.
عثمان (الخليفة): ٢٨٩.
العصفاء (جارية مفتية): ٤٥.
عدي بن زيد: ٣٥، ١٣٥.
ابن عذارى: ٢١٨، ٢١٩، ٣٤٢.
بنو عذرة: ٢٧١.
العذري: انظر: أحمد بن عمر.
العذري، أبو محمد: ٤٥.
العراق: ٤٠، ٤٥، ٤٩، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٦، ٧١، ١٣٢، ٣٢٦، ٣٢٧.

أبو علي القالي: ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٢١٥.

علي بن مجاهد: ٢٤٨، ٢٥٥، ٢٩٠.

علي بن محمد الكاتب، أبو الحسن: ٥٥.

ابن علي الثمري، أبو الحسن: ٣٤.

عُلَّة بنت زرياب: ٤٦.

عماد الدولة، أبو جعفر: ١٣٨.

ابن عمار، أبو بكر: ٥٤، ٥٧، ٥٩، ٦٨، ٧٠، ٧٧.

٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٥، ٨٩، ٩٥، ١٠١.

١٠٨، ١١٧، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٤، ١٣٥.

١٦٦، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧، ١٨٠، ١٨٨.

١٩٠، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٣، ٢٣١.

٢٤٣، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٩، ٢٧٢.

٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٢.

٣٠٣، ٣٠٥، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٢٩، ٣٣٣.

٣٤٢، ٣٤٩، ٣٥٢، ٣٦٣، ٣٦٦، ٣٦٧.

٣٧٣، ٣٨٤، ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٩، ٤٠٢.

ابن عمر: ٧٨.

عمر بن حسن الهوزني، أبو حفص: ٣٨٢.

عمر بن أبي خالد، أبو علي: ١٢٧.

عمر بن الخطاب: ٢٥٦.

عمر بن أبي ربيعة: ٣٥، ٥٧، ٣٥٣.

عمر المتوكل: انظر: المتوكل.

أبو عمرو الداني: ٥٧، ٢٥٠.

عمرو بن حفصون: ١٠١، ٢٥٠.

عمرو بن شاس: ٣٥.

أبو عمرو الطلمنكي: ٣٧.

أبو عمرو القسطلي: ١٥٤.

عمرو بن قتيبة: ٣، ٣٥.

ابن عمران، أبو عيسى: ٣٨٨.

أبو عمران المارئي: ٣٩٥.

ابن العميد: ٢٩.

أبو عثمان فارس المريضي: ٧-١١، ١١١.

عنزة: ٣٨.

عوانة بن الصمة: انظر: أبو الأجر.

عون الله بن نوح: ٣٤٠.

ابن حياش، علي بن عبد الملك: ٣٩٦.

ابن حياش الباهلي، عبد الملك أبو الحسن: ١٣٩.

٣٩٦.

عياض (القاضي): ١٢٢.

ابن عيال، أبو الوليد: ٤٩.

عيساو (= الروم): ٢٥٧.

عيسى (المسيح): ٧٥، ٤٠٥.

عيسى بن سعيد، أبو الأصمغ: ٨١، ٨٢.

ابن عيشون، أبو عامر: ٥٤، ٢٧٩، ٢٨٥.

عين الشهد (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠.

العين الكبيرة (في شاطبة): ١٤٠.

(غ)

ابن غالب: ٢٤، ٢٥، ٢٠٤، ٢٣٠.

غالب بن رياح: انظر: أبو تمام الحجام.

غالبية: انظر: جليقية.

ابن أخت غانم: ٤٠، ١٧٨.

غانم اغرناطي: ٤٠١.

غانم اغرناطي: ٦١.

غانم بن الوليد: ٩١.

ابن غرسية، أبو عامر: ٢١٩، ٢٥٧.

غرسية غوث، إميليو: ٩، ٢١، ٦٠، ٦٩، ٢٢٣.

غرذلة: ٦، ١١، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١، ٣٤، ٤٦، ٤٧.

٥٢، ٦١، ٦٢، ٨٠، ٨٦، ٩٢، ٩٦، ١٠٠.

١١٦، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٣، ١٣٦، ١٧٤.

١٧٨، ١٧٩، ١٨١، ٢١١، ٢٣٠، ٢٢٤.

٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٠.

٢٤٤، ٢٤٧، ٢٦٩، ٢٨٩، ٢٩٨، ٣١١.

٣٢٦، ٣٨٤، ٣٩٢، ٤٠٢، ٤٠٤.

الفريضي: ٣٣٥.

الغزال، يحيى: ٤٩، ٥٤، ٥٧، ٣٤٧، ٣٨٩.

ابن الغسال (أو ابن الغسال): ٩٢، ٩٣، ٣٩٦.

ابن غصن، أبو مروان عبد الملك: ٣٨٧.

غفار (لقبيلة): ٨٦.

ابن غليون، أبو المطرف: ٣٨، ٢٣٨.

ابن غنم شلب، أبو عامر: ٨٣.

الغنى: ٥١.
ابن غوث: ١٦.
غوث عبد الله: ٢٣٢.

(ف)

فارس (وانظر الفرس أيضا): ٢٢، ٢٩٤، ٣٣٥
فاس: ١٨٥، ٣٧٣.
ابن فاضل الأندلسي: ١٧٩.
الفاطيون: ١٩٤.
الفتح ابن خاقان، أبو نصر: انظر: ابن خاقان.
أبو الفتح الجرجاني: ٤٦، ٢٧٥.
أبو الفتح القرناطي: ٣٤.
فتحونة بنت جعفر: ٣٦.
فحص بدر: ٢١٩.
فحص البلوط: ٢٣٦.
فحص السراشق (في قرطبة): ١٢١.
فحص غرناطة: ١٣٣.
فخر الدولة ابن للحمند: ٢٥١.
ابن الفراء، الملقب بالأخفش بن ميمون: انظر:
الأخفش.

(ق)

القائم بأمر الله: ٤٧.
قابس: ٨٩.
قادس: ٦، ٢٩٤.
أبو القاسم الهلبي: ١٦١.
أبو القاسم البلوي: ٣٩٢.
القاسم بن حمود: ١٥، ١٦، ٨٩، ٢٣٥.
أبو القاسم بن شبراق: انظر: ابن شبراق.
قاسم بن عيود الرياحي: ١٨٥.
أبو القاسم العطار: ٢٥١.
قاسم اعقباني، أبو الفضل: ٣٦٩.
أبو القاسم محمد: انظر: ابن عبد الغفور.
القاسم بن محمد القسائي، أبو محمد: ١٥٧.
القاسم بن مسعدة الأوسي، أبو محمد: ٧٤.
أبو القاسم المصري: ٣٤٢.
القاطول (قصر في العراق): ١١٦.
القائي: انظر: أبو علي.
القاهرة: ٥.
القيداق: ٥٩، ١٨١، ١٨٢، ٢١٩.
القطال (جزيرة في إشبيلية): ١٢٨.
بنو القبطونية: ١٣٥.
ابن القبطونية، أبو بكر: ١١٨، ١٢٢، ٢٦٧، ٣٠٨، ٣٢٥.
ابن القبطونية، أبو محمد: ٣٥٣، ٣٥٤.
ابن قتيبة: ٣٥، ٣٧، ٢١٦، ٢٥٧، ٢٥٨.
الغنى: ٥١.
ابن غوث: ١٦.
غوث عبد الله: ٢٣٢.
(ف)
فارس (وانظر الفرس أيضا): ٢٢، ٢٩٤، ٣٣٥
فاس: ١٨٥، ٣٧٣.
ابن فاضل الأندلسي: ١٧٩.
الفاطيون: ١٩٤.
الفتح ابن خاقان، أبو نصر: انظر: ابن خاقان.
أبو الفتح الجرجاني: ٤٦، ٢٧٥.
أبو الفتح القرناطي: ٣٤.
فتحونة بنت جعفر: ٣٦.
فحص بدر: ٢١٩.
فحص البلوط: ٢٣٦.
فحص السراشق (في قرطبة): ١٢١.
فحص غرناطة: ١٣٣.
فخر الدولة ابن للحمند: ٢٥١.
ابن الفراء، الملقب بالأخفش بن ميمون: انظر:
الأخفش.
الفرات: ١١٣، ١٨٠، ١٨٩.
فرانيسكو دي مندوتا (الكاردينال): ٢٥٥.
أبو الفرج الإصفياني: ٣٦، ٢٣٣.
ابن فرج الجبائي: انظر: أحمد وعبد الله وسعيد
ابن فرج الجبائي، أبو عمرو أحمد: ٥٥، ٥٦، ٣٧٠.
ابن الفرج، أبو عامر: ٣٢٢.
فرحون بن وبلة: انظر: ابن وبلة.
الفرزدق: ٣٤، ٣٧، ٧٥، ٢٥٢.
الفرس (وانظر فارس أيضا): ٤٣، ١٧٨.
فرنان جونتالت: ٢٥٠.
فرناندو الأول: ٢٤٧، ٢٤٨.
فرنسا: ١٩٥، ٢٢٣، ٣٦٩.
فضل: ٤٥، ٣٣٦.
فضل بن الأعلم: ١٤٥.
أبو الفضل التميمي الدارمي: ٤٧، ٤٩، ٢٠٤،
٢٩٣، ٣٦٢، ٣٦٨.

قحطان: ٨٦.

القدير: (مترو في شاطبة): ١٤٠.

قرطاجة: ٣١.

قرطبة: ٦، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ٣١، ٣٢، ٣٦، ٤٢، ٤٥، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٩١، ٩٩، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٥١، ١٦٢، ١٧٣، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٤، ٢١٩، ٢٢٤، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٥، ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٧٣، ٣٨١.

قرونة: ١٧، ١٨، ٨٩، ٢٣٥، ٢٦٩، ٢٨٤.

ابن القروي الإسلامي: ٢٤٥، ٤٠٤.

قريش: ٧٥.

القزاز: انظر: ابن عباد أبو بكر.

ابن قزمان (الزجال): ١١، ٥١، ٢٦٥، ٢٧٢، ٢٨١، ٢٨٥، ٣٠٣، ٣٣٤، ٣٤٣، ٣٤٧، ٣٥٤، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٨٨، ٣٩٤.

ابن قزمان، أبو بكر (كاتب المتوكل بن الأفطس): ٣٠٣، ٣١٢.

قس بن ساعدة: ٢٩٥.

قسطنطين الثامن (إمبراطور بيزنطة): ٢٤١.

بنو قسي: ٣٨.

قشتالة: ١٨، ٢١٩، ٢٨٥.

القشتاليون: ١٨، ٢٤٨.

قصر أبي دانس (وانظر قصر الملح أيضا): ١٩٣.

قصر الزاهر: انظر: الزاهر.

قصر سرقسطة: ١٣٨.

قصر السرور (في سرقسطة): ١٣٧، ١٣٨.

قصر الشراحيب (في شلب): ١٣٤.

قصر الصمادية: ١٢٩، ١٣٠، ١٨٦.

قصر حمدان: ١٢٤.

قصر الفارسي (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠.

قصر الملح (وانظر قصر أبي دانس أيضا): ١٩٣.

قصر ماصح (في قرطبة): ١١٩.

قصر الناعورة (في قرطبة): ١٢٠، ٢١، ١٨٥، ٢٩٢.

قصر النواير: انظر: قصر الناعورة.

قصور غليظة (في طليطلة): ١٣٦.

قصور عمرة: ٣٠٢.

ابن القصيرة، أبو بكر: ١٢٥.

القشاشي، أبو ربيع أحمد: ٢٠٤.

القشاشي: ٣٥.

القطان: ١٦، ١٨، ٢٣٣، ٢٤٨.

قطرنية: ١٩٥.

ابن القلاس، أبو عمر: ٨١، ١٣٥، ٢٦٨.

قلعة حب: ١٢٤.

قلعة رباح: ٥٩، ١٧٠، ٢٨٩.

قلعة بني سعيد: ٦٨.

قلعة قلورية: ٢٤٧.

القلندي: ٣٨٦.

قلم: ٤٤.

قلمرية: ٢٤٨.

القننر: انظر: عبد العزيز البطلوسي.

قمر: ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٣٣٦.

ابن قمر (شاعر): ٣٧١.

قنبوط (المهلي): ٣٣٦.

القنيطرة: انظر: السيد.

قنتيش (أو قنطيش): ١٨، ٢٣، ٢٣٥، ٢٤٨، ٢٦٢، ٣٣٥.

القنطرة (في طليطلة): ١٣٦، ١٣٧.

القنطرة (في قرطبة): ١١١، ١١٢، ١١٠، ٢٩٤.

قنطرة مالك (في قرطبة): انظر: مساة.

قنطرة ماصح: انظر: مجلس.

ابن القوطية، أبو بكر: ٣٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٥.

٢٢٥، ٢٦٣، ٣٢١، ٣٢٨، ٣٩٢، ٣٩٨.

٤٠٣.

لحم: ٩٤.

لنريق: انظر: السيد القنيطور.

لسان الدين بن الخطيب: انظر: ابن الخطيب.

لشبوثة: ١٧٢، ٢٣٩، ٢٨٧، ٣٠٧، ٣٨٩، ٣٩٥.

لقمان: ٤٠٣.

لماية: ٢٩٥.

لثونة: ٢٣، ٣١٦.

لورقة: ٨٣، ٢٦٨، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٧٩.

لوسيان: ٤٢، ٢١٧.

ليال (مستشرق إنجليزي): ٣.

لييزج: ٣.

ليفى بروفتسال: ٩، ١٢.

ليون (في إسبانيا): ٢٤١، ٢٨٤، ٣٢٦، ٣٥٨.

(م)

ابن ماء السهام. عبادة: ٥٥، ٩٠، ٩١، ١٥٦، ٢١١.

٣٨٨، ٢٩٢.

ابن ماء السهام. المنذر: ٨٥، ٨٦، ٩٠.

ماسينيون لويس (المستشرق الفرنسي): ١٢.

٣٠٢، ٣٧٩.

ابن ماض: ٧٨.

مالقة: ٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٦١، ٦٣، ٩١، ٩٢، ١٠٨.

١٢٥، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٨٧.

٢٩٨، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٣٤، ٣٣٥، ٤٠٥.

مالك بن أنس: ٤٣، ٢٣٨، ٣٦٩.

مالك بن الربيع المازني: ٣٥.

ابن مالك الطفري: ٣٥٥.

ابن مالك، أبو محمد: ٣٣٢.

ابن مامة النصارى: ٤٨.

المؤمن (أمير سرقسطة): ٦٢، ٢٤٠، ٢٤٢، ٣٦٤.

٣٠٣.

مؤمل (مولى باديس بن حيوس): ١٣٢، ١٧١.

المأمون (الخليفة العباسي): ٢٦٤.

١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٥، ٢٧١.

قونكة: انظر: كونكة.

القيروان: ٤٧.

قيس بن الخطيم: ٣٥.

قيس عيلان: ٨٦.

قيس بن الملوح: ٣٦٣.

(ك)

كامل كلاف: ٦٠.

الكامل (قصر في قرطبة): ١١٣.

كتامة: ٢٣٥.

الكتندي: ١٧٤.

كثير عزة: ٣٥، ٥١، ٥٦، ٢٥٦.

كراتشكوفسكى، إيجناس: ٩.

كسرى: ٢٥.

كليب: ٩١.

الكميت البطليوسى: ٥١.

كعيرج: ٣.

ابن الكتاني: ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠.

٣٤١.

الكوفة: ٢٧٣.

كولين، ح. س.: ١٢.

كونت برشلونة: ٢٢٣.

كونت طركونة: ٢٣٣.

كونكة: ٢٩٨.

(ل)

لاردة: ١٥، ١٧، ٢٨٨.

ابن ليال: ٥٨.

ابن الليانة الداني، أبو بكر: ٥٩، ٨٥، ٩٥، ٩٧.

١٠٨، ١٣٥، ١٤٠، ١٦٩، ١٨٨، ١٩٤.

١٩٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٥٩.

٢٦٩، ٢٧٨، ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣١١.

٣٢٤، ٣٥٦، ٣٥٩، ٣٦٥.

ليلة: ٢٦٥.

ابن ليون، أبو عيسى: ٦٤، ١٨٠، ٢٠٤، ٢١٦.

محمد بن أحمد بن جعفر المصنف: انظر: المصنف.

محمد بن إدريس: ٢٣٥، ٢٢٦.

محمد بن الحسن الكتاني: ٢٣٠.

محمد بن الحسن الجيلي: ٢٨٩.

محمد بن الحاملي (موسقي): ٢٣٥.

محمد بن سعيد الزجالي: انظر: الأصمعي.

محمد بن شرف القيرواني: ١٧٦، ٢٠٨.

محمد بن شبيب: ٧.

محمد بن صامح اللقب المعتصم: انظر: المعتصم.

محمد بن طاهر الدافق، أبو عبد الله: ٢٢٥.

محمد بن عبد الرحمن: ٣٨، ٢٦٠.

أبو محمد عبد الله بن إبراهيم: ٧٦، ٢٢١.

بن عبد الله البرزالي: ٨٩.

دس عبد الملك: انظر: ابن سعيد.

محمد بن عطية الحاربي: ١١٧.

محمد بن أبي علاقة البواب: ٣٨.

محمد بن عياض القرطبي، أبو بكر: ٢٧٧.

محمد بن عيسى (أبو عبد الله): ٦٣.

محمد بن مرتين: ٢٤٨، ٣١٩، ٣٢٠.

أبو محمد المصري: ٢١٣.

محمد بن معمر، أبو عبد الله: انظر: ابن أخت شاتم.

محمد بن نصر الإشبيلي، أبو بكر: ٣٣٩.

محمد بن نصير، أبو القاسم: ٣٨٩.

محمد بن هشام بن عبد الجبار (المهدي): ١٣، ١٤.

١٥، ٢٣، ٥١، ١٨٢، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٤٩.

٢٦٢، ٣٣٤، ٣٤٢، ٣٨٣، ٤٠٦.

محمد بن يحيى الشلطي، أبو بكر: ٣٩٦.

محمد بن يعلى: ٢٣٥.

مختار الرعيني، أبو الحسن: ٣٠٢.

المختار بن أبي عبيد: ٧٨.

المخزومي، أبو بكر: ٥٢، ١٣١.

المدرسة النظامية: ٣١.

مدغليس: ٥١.

المدورة: ٢٣٥.

المأمون بن ذي النون (أمير طليطلة): ٢١، ٤٧، ٢٩٨، ١١٤.

المأمون بن المعتد: ٢٢٣، ٢٦٦.

المبارك (قصر في إشبيلية): ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٤١.

المبارك (قصر في قرطبة): ١١٣.

مبارك الصقلي: ١٠٠، ٢٣٤.

ابن مامة: ١٨.

الميرد: ٣٨.

مبشر، ناصر الدولة (حاكم ميورقة): ٩٦، ١٠٠.

١٤٠، ١٦٩، ١٩٥، ٢٠٨، ٢٧٢.

متحف اللوفر: ٣٠٨.

متعة (تلميذة زرياب): ٤٦.

المتلس: ٣.

المتنبي: ٣٥، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٩، ٥٠.

٥١، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٦١، ١٨٤، ٣٠٦، ٣٦٠.

المتوكل (الخليفة العباسي): ١١٦، ١٢٠، ١٨٩.

المتوكل بن الأفطس: انظر: ابن الأفطس.

أبو المتوكل الهيثم: ٣٤، ٧١.

المتقي العبدى: ٣٥.

مجاهد العامري، أبو الجيش: ١٧، ٤٦، ٧٧، ١٩٥.

٢٠٨، ٢٤٨، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٤، ٢٩٧.

٣٧٥، ٣٩٧.

مجلس الذهب (في سرقطة): ١٢٨.

مجلس ناصح (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠.

مجلس الناعورة (في طليطلة): ١٣٧، ١٨٦.

مجنون لولي: ٣٥٦.

محبس ناصح: انظر: مجلس.

محبوب النحوي: ١٨٥.

أبو محجن الثقفي: ٢٦٦.

ابن محرز: ٣٣٥.

محمد (الخليفة الأموي الأندلسي): ٢٩٥.

محمد بن أحمد الأنصاري، أبو بكر: انظر: الأبيض.

محمد بن أحمد بن أبي بكر الرقوتي: ٣٢.

- المدينة: ٤٥، ٤٦، ٢٧٣، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٤٣.
مدينة الزاهرة: ١٢٠، ٣٥٩.
مدينة الزهراء: ١١٠، ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٩، ١٢٠، ١٣٦، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٦٧، ٢٩٣، ٢٩٨.
مدينة سالم: ٢١١، ٢٥٥، ٣٨٣.
ابن الرايط، أبو عامر: ١٨٠، ٣٠٣.
الرايطون: ١١، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٣، ٢٨، ٣٨، ٥٤، ٦٥، ٧١، ٨٦، ٩٢، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١١٦، ١٢١، ١٢٤، ١٣٢، ١٣٨، ١٧١، ١٧٤، ١٧٩، ١٨٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٦٦، ٢٧٥، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٩، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٧٥، ٣٨٠، ٣٩٤، ٣٩٥، ٤٠٦، ٤١٤.
المراكشي: انظر: عبد الواحد.
المري: ٥١.
مريطر: ١٨٠، ٢٠٤، ٢٩٤.
المرتضى المرواني (الخليفة): ١٥، ٨٨، ٩٠، ١١٨، ١٢٨، ١٢٧، ١٤٢، ٢٤٩.
ابن مريش: ٨٣، ٣٠٥.
مرج الحز (في قرطبة): انظر: المرج النضير.
المرج الخصب (في قرطبة): ١٢١.
مرج الفضة (في إشبيلية): ١٢٧، ١٢٨، ١٤٢، ٢٤٩.
المرج النضير (في قرطبة): ١٢١، ٢٢٤.
مرجانة (السيدة الكبرى): ٢٢٢.
ابن مرديش: ١٧٤.
المردى (حصن في مريطر): انظر: مريطر.
مرسى سب بول: ٢٦٣.
موسية: ١٨، ٢٢، ٣٦، ٣٧، ٦٨، ٧٩، ١٠٨، ١٦٦، ١٩١، ٢٣٦، ٢٧٥، ٢٨٥، ٢٨٨، ٣٠٨، ٣٤٩.
موسيه، جورج: ٩، ١٢.
موسيه، ف: ١٢.
ابن المرغري: ٣٠٦.
- الموقش الأصغر: ٣٥.
الموقش الأكبر: ٣٥.
مروان بن عبد العزيز: ٣٩٣.
مروان الطليق: ٥٠، ٥٩.
أبو مروان المرادي: انظر: عبد الملك بن سعيد.
المرية: ٦، ١٥، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢٩، ٤٠، ٤٥، ٥٢، ٦١، ٦٣، ٦٨، ٦٩، ٧٤، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ١٠٨، ١١٠، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٥، ١٤٩، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٦، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٢٣، ٢٣٤، ٢٤٤، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٠٣، ٣١٠، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٧، ٣٤٢، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٧٤، ٣٨١، ٣٩٢.
مريم: (أم المسيح): ٤٠٥.
مريم بنت يعقوب الأنصاري: ٥١، ٤٠٥.
بنو مزين: ١٨.
المستظهر: انظر: عبد الرحمن.
المستعين (أمير سرقسطة): ١٨٠، ١٨٩، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٦٤، ٢٩٠.
المستعين (الخليفة الأموي): انظر: سليمان.
المستكفي (الخليفة): ١٥، ٢٧٤.
مسجد عمرو بن العاص: ٤٩.
مسجد قرطبة الجامع: ١١٠، ١١١، ١١٢، ١٢٩، ١٨٥، ٢٤٩، ٢٨٩.
مسجد القلايين: ٢٦٠.
مسجد مالقة الجامع: ٢٨٩.
ابن مسرة: ٣٠.
ابن مسعدة القرناطي، أبو جعفر: ١٠٨، ١٣٩.
ابن مسعدة، أبو يحيى: ٢٥٧.
ابن مسعود: ٢٧٣.
ابن مسلم، أبو عبد الله: ٨١.
مسلم بن الوليد: ٣٢٦.
مسلمة: ١٧.
ابن مسلمة، أبو عامر: ١٤٦، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٨، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ٢٧١.

المعتد: ١٩، ٢٣، ٣٤، ٥٠، ٥٧، ٦٠، ٦١، ٦٣.

٧٣، ٧٨، ٧٩، ٨٥، ٨٩، ١٠٠، ١١٠.

١١٤، ١٢٣، ١٢٥، ١٣٤، ١٦٩، ١٧٢.

١٨٠، ٢٠٨، ٢٢١، ٢٣٥، ٢٤٣، ٢٤٨.

٢٤٩، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧٦، ٢٩٦، ٢٩٢.

٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣١١، ٣١٨، ٣٢٩.

٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٥٣، ٣٦٧، ٣٧٥.

٣٧٨، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٩٥، ٣٩٠.

٣٩٣، ٣٩٧.

المعتد بن عباد: ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٩، ٤٠، ٤٣، ٤٦.

٥٠، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٣.

٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٣، ٩٤، ٩٥.

٩٦، ٩٧، ١١٥، ١١٧، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥.

١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٤.

١٣٥، ١٣٦، ١٦٤، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤.

١٧٥، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٦، ١٨٨.

١٩٢، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥.

٢٠٨، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٢.

٢٢٣، ٢٣١، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٨.

٢٥٠، ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٣.

٢٧٥، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥.

٢٩٠، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٦.

٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣.

٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٣٣.

٣٣٥، ٣٣٦، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٩، ٣٥١.

٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٥.

٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩.

٣٨٤، ٣٨٧، ٣٩٤، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٢.

٤٠٣، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤١٠.

معد: ٨٦.

مرة اخيمان: ٤٧.

المعري: انظر: أبو العلاء.

معز بن أوس المزني: ٢٥٧.

المعز بن باديس: ٤٧.

المعشوق (قصر في قرطبة): ١١٣.

ابن العلم، أبو الوليد: ٢٢٣.

٣٢١، ٣٢٢، ٣٦٨.

مسلمة بن عبد الملك: ٢٥٦.

مسناة مالك (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٨٣.

المسيح: انظر: عيسى.

المسيلة: ٢٠٤.

مسيه، حد: ١٢.

المشرف: انظر: المسطح.

ابن المصاف الرندي، أبو عبد الله: ٣١٨.

المصحفي، أبو بكر محمد بن أحمد: ١٢١، ٣٩١.

المصحفي، أبو عثمان جعفر بن عثمان: ١١٧.

١٢١، ١٥٧، ١٥٩، ٢٩٠، ٣١٣.

المصحفي الحاجب: ١٧٤، ١٩٤.

المصحفية (في قرطبة): انظر: منية.

مصر: ٣، ٣٩، ٤٩، ٥٢، ٩١، ٩٨، ١٠٩، ١١٢.

١٣٢، ٢٩٠، ٣٣٥، ٣٤٢، ٣٤٣.

مصعب الصقلي، أبو العرب: ١٩٥.

مضيعة الدولاب (في قرطبة): ١٩، ١٣٠.

المطبق الصقلي: ٣٢٢.

المطرف بن عبد الرحمن الثاني: ٣٦٨.

المظفر بن الأنطس: انظر: ابن لأفطس.

المظفر بن جهور: انظر: ابن جهور.

مظفر الصقلي: ٢٢٤.

المظفر عبد الملك بن المنصور: انظر: عبد الملك.

معاوية: ٧٨، ٩٨.

معيد: ٣٣٥.

المعتد (آخر خليفة أموي أندلسي): ١٥، ١٧.

المعتد بن المعتد: ٣٧٩.

ابن المعتز: ٣٥، ٣٨، ٤٠، ٥٢، ٥٩، ١٤٥، ١٥١.

٣٠٦، ٣٢٤.

المعتصم (الخليفة العباسي): ١٨٩.

المعتصم بن صالح: ٢٠، ٢٩، ٤٢، ٦١، ٦٨، ٧٤.

٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٩، ٩٠، ١٠١، ١٠٨.

١٠٩، ١٢٩، ١٣٠، ١٨٠، ١٨٦، ١٩٥.

٢٠٦، ٢٠٨، ٢٢٣، ٢٤٤، ٢٥٠، ٢٦٣.

٢٧٩، ٢٨٤، ٣١٠، ٣١١، ٣٤٢، ٣٩٠.

٤٠٤، ٤٠٦.

المنارة: ٢٧.
 المازي: ٤٧.
 ابن المصنف: ٣٧.
 منقذ ليون (جيل): ٢٨٠.
 منقذ مابور: ٢٨٧.
 منقذ بن سعيد اللؤلؤي: ٣٧، ١١٠، ١١١، ١٣٦، ٢٧٣، ٣٦٨.
 المنقذ بن ماء السماء: انظر: ابن ماء السماء.
 منقذ بن يحيى، مع الدولة (أمير سرقسطة): ٢١، ٤٦، ١٠٩، ١٣٨، ٢٣٥، ٢٩٢، ٣١١.
 المنصور (الخليفة العباسي): انظر: أبو جعفر.
 المنصور (خال المنصم): ٨١.
 المنصوره أمير يمنية (حفيد المنصور بن أبي عامر): ١٣٨، ٣٠٨.
 المنصور بن أبي عامر: ١١، ١٣، ١٤، ٢٢، ٢٣، ٧٥، ٧٧، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ١١٢، ١٢١، ١٢٣، ١٥١، ١٧٤، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٩، ١٩٤، ٢٠٢، ٢١٥، ٢١٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٢٠، ٢٣٠، ٢٣٧، ٢٤٩، ٢٧٤، ٢٨٥، ٢٩٠، ٢٩٧، ٣٠٠، ٣٠١، ٣١٨، ٣٥٩، ٣٧٣، ٣٨١، ٣٩١، ٣٩٢، ٤٠٨.
 منصور اليهودي: ٢٣٥.
 المنصور بالله، عبد الملك بن جهور: انظر: عبد الملك.
 منظر الغنت (في إشبيلية): ١٢٨.
 المنقذ السعدي: انظر: الغنت الشرقي.
 المنقذ، أبو أحمد عبد العزيز بن خيرة القرطبي: ٢٤٣، ٢٦٩، ٢٨١، ٣٠١.
 منورة: ٢٤٨.
 منية البديع: ١٣٥.
 منية الزبير (في قرطبة): ١٢١، ١٧١.
 منية الزيتون (في غرناطة): ١٧١.
 منية السرور (في قرطبة): ١٢٠، ٣٥٩.
 منية بن عبد العزيز (في يمنية): ١٣٨.
 منية العيون (في سهلة بني وزن): ٣٢٥.
 منية المأمون (في طليطلة): ١٣٧، ١٣٨، ١٨٥.

ابن معلى الطرسوني، أبو إسحاق: ٩٢.
 معن: ٩٧.
 معن بن أوس المازني: ٣٥.
 معن بن صمادح: ١٧، ٨١.
 المعطي: ٨٩.
 ابن معين: ٣٩٨.
 المغرب: ٣، ١٩، ٢٠، ٣٠، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٢، ٥٤، ٧١، ١٢٢، ١٧٩، ١٨٥، ٢٤٠، ٢٧٣، ٢٩٤، ٣١٧، ٣٣٥، ٣٤٣، ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٦.
 ابن المغلس: ٣٠٢.
 ابن مغيث أحمد: انظر: أحمد.
 المغيرة (الأمير): ٣٠٨.
 ابن مُقَرَّج، أبو بكر: ٢٢١.
 الفضل الضبي: ٣٤.
 ابن مُفْلِح: ١١٠.
 مقاتل الصقلي: ١٧.
 ابن مُقَاتِل الإشبوني: ٥٩، ٩١، ١٨١، ١٨٢، ٢١٩، ٣٠٥، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٥٩، ٣٦٧.
 مقبرة قريش: ٦٣.
 المقنن بن هود: ٤٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٧٤، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٦٨، ٢٩٠.
 المقرئ التلمساني: ٢٥، ٢٩، ٣٦، ٤٠، ٤١، ٤٥، ٧١، ٧٣، ٧٧، ٩٢، ١٢١، ١٣١، ١٧٣، ١٩٢، ١٩٥، ٢٣٠، ٢٤١، ٢٦٠، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٨٠، ٢٨٧، ٢٩٤، ٣٢٧.
 المقرئ أبو عبد الله: ٢٧٣، ٢٧٤.
 ابن مُقَيْم: ٣٥.
 مكة: ١٩٤، ٣٨٣.
 المَكْرَم (قصر في إشبيلية): ١٢٥.
 المَكْرَم (قصر في طليطلة): ١٣٦.
 المَكْرَم (قصر في قرطبة): ١١٤.
 مكتاسة (قبيلة بربرية): ٢٣٦.
 ابن الملح، أبو بكر: ٢٦٠، ٢٩٧، ٣٦١.
 ملكة سبأ: انظر: سبأ.
 محقصر (حصن في برشلونة): ١٨٢.
 ابن من الله القروي، أبو الطيب: ١٥٧.

- محمد: ٢٩٧.
 مخطبة المصحفية (في قرطبة): ١٢١.
 منية الناعورة (في قرطبة): ١٢٠.
 منية نصر (في قرطبة): ١٢٠.
 منية الوزير ابن اللب، أبو مروان: ١٢٦.
 المنيف (نصر في قرطبة): ١١٣.
 مهجة بنت التياي: ١٧٦، ٢٧٤.
 مهجة بنت عبد الرازق: ١٤٢.
 المهدي (الخليفة): انظر: محمد بن هشام بن عبد الجبار.
 المهدي: ٢٢٥.
 مهلهل: ٩٨.
 مهباز الديلمي: ٤١، ٥٢، ١٤٥، ١٦٩.
 الموحدون: ٨٦، ٣١٩.
 مورور: ١٧، ٨٩، ٢٣٥.
 مورون: ١٧، ١٨.
 موسى: ١٢٦.
 موسى بن سعادة، أبو عمران: ٢٧.
 موسى الطريافي، أبو عمران: ٣٧١.
 موسى بن نصير: ٢٣٧.
 موسى (النبي): ٢٤٤.
 موتسكيو: ٧٦.
 ابن ميمون الأقفش: انظر: ابن اغراء.
 ابن ميمون، علي بن عيسى (أمير البحر): ٢٩٤.
 ميورقة: ٩٦، ١٤٠، ١٨٥، ٢٤٨، ٣٦٥.
 مَيَّ (حبيبة ذي الرمة): ٣٤.
 (ن)
 النابغة الجعدي: ٣٥، ٣٦٤.
 النابغة الذبياني: ٣٥.
 نارجة: ١٠٨.
 ناشرة: ٢٨٧.
 الناصر: انظر: عبد الرحمن.
 الناصر: انظر: علي بن حمود.
 ناصر الدولة: انظر: مبشر.
 الناعورة (في طليطلة): ١٣٧.
 ابن نانة: ٣٦٩.
 نبرة: ٤٤، ٨٣، ٢٤١، ٢٩٩، ٣٣١، ٣٨٥.
 نيلة: ١٨.
 نجد (استنزه في غرناطة): ١٣٣.
 أبو النجم: ٣٥.
 ابن النحاس النحوي: ٣٤، ٣٥.
 النحلي، أبو الوليد: ٦٩، ٧٤، ١٠٨، ١٣١، ١٣٥.
 ٢١٥، ٢٦٨، ٣٢٨، ٣٥٥.
 نزار: ٨٦.
 ابن نزار: ٣٤١.
 تزهون بنت القلاعي: ٤٠٤.
 نسيم لإسريلى: ٣٦٢.
 النظامية: انظر: المدرسة.
 النعمان: ٩٨.
 ابن تغرلة: انظر: يوسف. وانظر: إسماعيل.
 ثروذ: ٢٢٥.
 نهر تنقر: ١٩٠، ١٩١.
 نهر تلب: ١٩٠.
 أبو نوح، الحسن بن هاني: ٣٥، ٣٨، ٣٩، ٤٨.
 ٤٩، ٥٢، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٢٢، ٣٣١.
 نوح: ٦٢.
 ابن نوح: ١٧.
 أبو نور بن أبي قرة: ١٧.
 نور الدين بن سعد: ١٢٨.
 النورسن: ٣٩١.
 نويرة (صاحبة ابن الحدد): انظر: جميلة.
 نيسابور: ٢٨٢.
 نيقولا (الراهب): ٤٢.
 نيكلي، إ. ر.: ٩.
 النيل: ١١٣.
 (هـ)
 هاجر: ٢٥٧.
 هارون (وزير السلطان المربى عبد الحق): ٢٤٠.
 بنو هارون: ١٨.
 ابن هارون، أبو الحسن: ١٨٦، ٣٠٢.

وادى الزيتون (في سرقسطة): ١٤٢.
 وادى الطلح (في إشبيلية): انظر: مرج الفضة.
 وادى عنبراء (في المرية): ١٣١.
 وادى الحروس (في إشبيلية): ١٢٨.
 وادى العقيق (في قرطبة): ١٤٢.
 الوادى الكبير: ٩٤، ١٠٩، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٤، ١٧٠، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٤.
 ٢٢٤، ٢٩٣، ٣٠٧، ٣٢٨.
 وادى نيلة: ١١٩، ١٢٠.
 واضح الصقلي: ١٢٠، ٢٤٩، ٣٨٣.
 ابن واهد اللخمي: ١٧٩.
 ابن ريلة، فرحون: ٧٢.
 الوحيد (قصر في إشبيلية): ١٢٣.
 وداد (محطة المعتمد): ٣٦٥.
 ابن الوطواط (مؤلف مناهج الفكر): ٢٢.
 الوعاء (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠.
 الوقشي: ٩٩.
 الوقشي، أبو الحسين: ٢٢٤.
 الوقشي، أبو الوليد هشام: ١٩٢، ٣٩٧.
 ولادة بنت المستكفي: ١١٤، ١٢٠، ١٧٦، ٣٣٩.
 ٢٦٦، ٢٤٩، ٣٥٠، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٩.
 ٣٧٢، ٣٧٤.
 ولية: ٦.
 أبو الوليد الباجي: ٦٩، ٧٠، ٣٩٤، ٣٩٧.
 أبو الوليد الحميري: ٥٥، ٥٦، ١١٨، ١٥٠، ١٥٦.
 ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦.
 ١٦٧.
 وليد بن خيزران: ٢٣٢.
 الوليد بن عبد الملك: ٢٣٧.
 أبو الوليد بن عباد: ٤٩.
 أبو الوليد بن عتال: ٤٩.
 أبو الوليد بن عيال: انظر: ابن عيال.
 أبو الوليد القسطلي: ١٨٤.
 ابن وهب (في الشعر): ٨٣.
 ابن وهبون: انظر: عبد الجليل.

هارون الرشيد: ٣٦٠، ٣٦٨.
 ابن هاشم القرطبي، أبو أمية: ٨٣.
 أبو هاشم بن المعتمد: ٤٠١.
 ابن هاني الأندلسي: ٤٧، ٥٠، ٥٤، ١٦٥، ١٨٤.
 ١٩٤، ٢٠٤، ٢٦٧.
 ابن هذيل الأندلسي: ٢١٦.
 ابن هذيل، أبو بكر يحيى: ٤١، ٥٥، ١٥٧، ٢١٠.
 هرمس: ٣٧٩.
 هذيل بن رزين: انظر: ابن رزين.
 هشام الثالث بن سليمان بن الناصر: ١٤، ١٥.
 ٢٧٥.
 هشام المؤيد: ١٣، ١٥، ١٦، ١٧، ١٠٠، ٢٢٢.
 ٢٤٩، ٢٧٤.
 ابن هلال: ٥٦.
 الهلاليون: ١٧٠.
 الهند: ١٧٥، ٢٧٩، ٣١١.
 هند (جارية بن مسلمة): ٣٣٣، ٣٣٤.
 هنري بريس: ٣، ٢٥٨.
 هوارة: ٢٣٦.
 هوتو الأول (ملك جرمانيا): ٢٤١.
 ينو هود: ٨٦، ٢٣٩، ٢٤٠.
 ابن هود الجندلي، أبو محمد: ٥٩، ٢٣٩، ٢٦١.
 ٣٨٨.
 هومير: ٧٧.

(و)

الواثق بالله (الخليفة العباسي): ٥٠.
 واجد (زوجة ابن الشرخ): ٣٤٢.
 وادى آية: ١٦، ٢٤١، ٢٤٨.
 وادى آش: ٤٧، ٥١، ٥٨، ١٢٢، ١٤٢، ١٤٣.
 ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٧٠، ٣٧٥.
 وادى إشبيلية: ١١٠.
 وادى آف: ١١٩.
 وادى أنه: ١٣٥.
 وادى الدير (في قرطبة): ١٢١.

(ى)

يا برة: ٢٣٩، ٢٨٧.

يثر: ٢٧٤.

يويحيى: ١٨.

يحيى الخنوج: ٣٦.

يحيى (الجزال): ٥٩.

يحيى السرقسطي: ٢٦١، ٣٢٤.

يحيى القزال: انظر: القزال.

يحيى بن المنذر: ٢١.

يحيى بن هذيل: انظر: ابن هذيل.

يحيى بن يحيى: ٦٣.

يزد جرد: ٩٨.

يزيد بن عبد الملك: ٣٣٥.

يزيد بن معاوية: ٧٨.

يسوع: انظر: المسيح.

يعقوب: ٤٠٤.

أبو يعقوب يوسف (خليفة الموحدين): ١٢٦.

اليقوي (الجغرافي المؤرخ): ٢٣٠.

أبن يثني، أبو عامر: ٤٣، ٢٨٣، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٩٦.

يثير: ٢٣٢.

يوانس الططار: ٢٣٢.

يوحنا الممدان: ٤٠٥.

يوسف: ٤٠٤.

أبو يوسف (مطرب المتوكل): ٣٣٥.

يوسف الإسلامي: ٢٤١.

يوسف بن تاشفين: ٢٠، ٢١، ٩٤، ٩٩، ١٩٤.

٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٨٤، ٢٩٠، ٣١٧.

٢٣٦.

يوسف بن الشيخ البلوي، أبو الحجاج: ١٧٥.

يوسف بن عبد الصمد، أبو بحر: ٧.

يوسف بن عبد الله بن عبد البر، أبو عمر: ٣٨٣.

يوسف بن محمد، أبو العرب: ٣٢٥.

يوسف بن النقرة: ٦١، ١٣٢، ٢٢٠، ٢٤، ٢٤٣.

٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٣٦٩.

يوسف بن هارون: انظر: الرمادي.

يؤمين: ٨٦، ٢١٥.

اليونان: ٢٤، ٢٥، ٤٣، ٥٩، ٦٤.

المصادر والمراجع

نشر هنرى بيريس كتابه هذا لأول مرة عام ١٩٣٧، وفى عام ١٩٥٣ ظهرت طبعته الثانية، وبين الطبعة الأولى والثانية ظهر كثير من المصادر والمراجع المتصلة بموضوعه، لا فى العربية فحسب، وإنما فى اللغات الأجنبية أيضا، وطُبع بعض ما استخدمه مخطوطا، وقد أضاف بيريس، كما نفهم من مقدمته، كل ما ظهر إلى قائمة المصادر، لكنه لم يغير الإحالات التى فى الهوامش، بأسفل كل صفحة، وأبقاها إجمالا كما كانت عليه فى الطبعة الأولى.

وبعد عام ١٩٥٣ ظهرت أيضا أعمال أخرى عربية وأجنبية تتصل بالفترة التى درسها، ونستحق الإشارة إليها، على الأقل العربية منها.

وقد رأينا أن تبقى على قائمة مصادر المؤلف كما هى، وأن نتقنها فى حروفها اللاتينية، ولغاتها الأجنبية، وأن نفيدهم من تقدم وسائل التصوير والطباعة، تفاديا لأخطاء محتملة فى الجمع والطبع، ولحروف ذات هيئات مختلفة لا تيسر لنا فى المطبعة العربية حتى الآن، أولا تتوفر إلا بعد جهد ومشقة بالعين، وربما كان أشدها صعوبة كتابة الأسماء العربية بالحروف اللاتينية، حين يتطلب الأمر ذلك.

وقد رأيت من المفيد أن أضيف إلى ما أتى به لمؤلف من مصادر يراجع، الجديد الذى ظهر فى اللغة العربية، مما يتصل بالفترة التى درسها:

- ابن الأثير، الحلة السيرة، فى مجلدين، القاهرة، ١٩٦٣.
- الأعمى التتيل، ديوانه، بيروت، ١٩٦٣.
- ابن بسلام، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، نشرها إحسان عباس فى ٨ مجلدات، ١٩٧٩. ورغم المآخذ الكثيرة عليها، والأخطاء التى وقعت فيها فأنها سدت مراغا فى المكتبة الأندلسية، وأغنت عن العديد من مخطوطاتها المتناثرة فى مختلف مكتبات العالم، وكان اعتمادنا عليها.
- الثعالبي، يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر، والقسم الرابع منها خاص بالأندلس، وأفضل طبعاتها تلك التى نشرها محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٦.
- حازم القرطاجنى، المقصورة، تحقيق محمد مهدى علام، حولىة كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٥٣ - ١٩٥٤.
- الديوان، تحقيق عثمان الكمالك، بيروت، ١٩٦٤.
- منهاج البلقاء وسراج الأدياء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٦٦.
- ابن حزم، طوق الحمامة فى الألفة والآلاف، تحقيق الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٨٥، وكان اعتمادنا فى الإحالات عليه.
- الأخلاق والسير فى مداولاة النفوس، تحقيق الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

- جبهة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢.
- ابن حمديس، الديوان، بيروت ١٩٦٠.
- ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح الأناس في ملح أهل الأندلس، تحقيق محمد علي شوابكة، بيروت، ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م.
- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، في أربعة أجزاء، القاهرة، ١٣٧٥ = ١٩٥٥ إلى ١٣٩٧ = ١٩١٧، وكان اعتمادنا عليه.
- أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، نشره ليفي بروفسال بعنوان: تاريخ إسبانيا الإسلامية، بيروت ١٩٥٦. وكان اعتمادنا عليه.
- ابن خفاجة، الديوان، تحقيق سيد غازي، وهو مثال للعمل العلمي المنهجي الرفيع المستوى. فقد ضبط النص، وألحق به فهرس تحليلية شاملة، منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الثانية ١٩٧٩. وكان اعتمادنا عليه.
- ابن دحية، المطرب في أشعار أهل الخرب، تحقيق إبراهيم الإيباري، وحامد عبد المجيد، وأحمد بدوي، القاهرة، ١٩٥٤. وكان اعتمادنا عليه.
- ابن دراج الديوان، تحقيق محمود علي مكي، دمشق ١٩٧٣، وكان اعتمادنا عليه.
- ابن الزقاق، الديوان، تحقيق عذبة محمود ديراني، بيروت، ١٩٦٤.
- ابن زيدون، الديوان، تحقيق وشرح على عبد العظيم، وهو تحقيق جيد، وعليه كان اعتمادنا، القاهرة ١٩٥٧.
- ابن سعيد، علي بن موسى، رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق عبد المتعال القاضي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٩٧٣ م.
- المغرب في حلل المغرب، تحقيق شوقي ضيف، في مجلدين، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٥.
- ابن شهيد، الديوان، جمع وتحقيق يعقوب زكي، القاهرة، ١٩٦٥.
- عبد الواحد المراكشي، المعجب، تحقيق محمد سعيد الحريان، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٦٨ = ١٩٤٩. وكان اعتمادنا عليها، ولطبعة الثانية ١٣٨٢ = ١٩٦٣.
- العماد الأصفهانى، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق عمر الدسوقي، وعلى عبد العظيم، وهو الجزء الخاص بشعراء صقلية ولحرب والأندلس، في ثلاثة أجزاء، القاهرة بلا تزيين.
- ابن قزمان، الديوان، نشره في حريف لاتينية، وترجمه، ودوسه، إميليو غرسية غومت، في ٣ مجلدات، مدريد، ١٩٧٢.
- ونشره في الحروف العربية، بترسه عروضيا، فيدريكو كوريتي دي قرطبة، مدريد ١٩٨٠.
- المعتمد، الديوان، جمع وتحقيق أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، القاهرة ١٩٥٥ م وكان اعتمادنا عليه.

● المُقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، نشره إحسان عباس، في ٨ مجلدات، بيروت ١٣٨٨ = ١٩٦٨، ويتميز بفهارسه المختلفة عن الطبقات السابقة، وعليه كان اعتمادنا.

في أحايين قليلة جدا كان يصعب علينا إلى درجة الاستحالة الوصول إلى المخطوطة، أولا نتوصل إلى النص نفسه في هامش المؤلف، في الطبقات التي بين أيدينا، فأبقيت على إشارة المؤلف إلى المصدر، في الطبعة التي اعتمد عليها، وأشرت إلى ذلك. وبداهة فإن الكثير من المصادر العربية التي اعتمد عليها المؤلف كن اعتمادنا أيضا عليها نفسها، رغم ندرتها، لأنها لم تحقق، أو لم تنشر ثانية، ولم يحتج هذا الأمر إلى إشارة منا.

بقى أن أشير إلى أن المؤلف أقر، تبعاً للطريقة الفرنسية، بقائمة المصادر في أول الكتاب، وأتينا بها طبقاً للتقاليد العربية في آخره.

المترجم

BIBLIOGRAPHIE

- Abbad.* : Dozy, *Scriptorum arabum loci de Abbadidis*, Leyde, 1840-1863, 3 vol.
- V. 'Imād ad-Dīn al-Iṣṣahānī.
- 'Abd al-Iḥṣāq al-Bādīsī, *al-Maqṣad* (*Vie des saints du Rif*), trad. annotée par G. S. Colin (*Archives marocaines*, vol. XXVI), Paris, 1926.
- 'Abd Allāh le Zīrīde, *Mémoires* : Texte arabe et trad. française avec une introduction et un glossaire par E. Lév.-Provençal, in *al-Andalus*, vol. III, fasc. 2 (1935), pp. 233-344 ; Vol. IV, fasc. 1 (1936), pp. 29-145.
- 'Abd al-Wahhāb (H. II.), *Le développement de la musique arabe en Orient, Espagne et Tunisie*, 1^{re} *Revue tunisienne*, t. 25 (1918), pp. 106-117.
- V. Ibn Faḍl Allāh al-Umarī.
- 'Abduh ad-Dīmašqī (Muḥammad Munīr). V. 'Amr ibn Kulthūm ; at-Tibrīzī.
- Abduh-Wahab. V. 'Abd al-Wahhāb.
- Abel (L.). V. Abū Miḥḥān.
- al-Abṣihī, *al-Mustafraj fī kull janb mastagraf*, texte arabe, le Caire, 1330, 2 vol. ; trad. française par G. Rat, Paris-Toulon, 1902, 2 vol.
- Abu l-'Alā' al-Ma'arrī : v. al-Ma'arrī.
- Abū Bakr al-Mālikī. V. al-Mālikī.
- Abū Dāūd al-Iṣṣahānī, *Kiṭāb az-Zahra* (Première moitié), éd. par A. R. Nykl et Ibrāhīm Tīqēn, Chicago, 1932.
- Abu-l-Faraḡ al-Iṣṣahānī, *Fittāb al-Aḡānī*, Būlāq, 1285, 20 vol. ; éd. Sāsi, le Caire, 1322-1323, 21 vol. ; éd. de *Dār al-kutub al-miṣriyya*, le Caire, 1345 = 1927 sq.
- Abu-l-Fidā', *al-Muḥtaṣar fī aḥbār al-baṣār*, le Caire, 1325, 4 vol.
- *Taqwīm al-buldān. Géographie*, texte arabe par Reinaud et de Slane, Paris, 1840 ; trad. française par Reinaud et St.-Guyard, 2 parties en 3 vol., Paris, 1848-1853.
- Abū Hāmid al-Andalusī a-Ġarnāṭī, *Tuḥf al-albāb wa-nuḥbat al-a'ḡāb*, éd. G. Ferrand, in *J. A.*, 1925, t. 207, pp. 1-304.
- Abū Ishāq de Elvira, *Dīwān*, éd. E. García Gómez, Madrid-Grenade, 1944.

- Abū Miḥḡān al-Taqaṭī, *Diwān*, éd. L. Abel, Leyde, 1887.
- Abū Nuwās, *Diwān*, éd. I. Aṣāf, le Caire, 1898. éd. Maḥmūd Kāmī Farīd, le Caire, 1351 = 1932.
- Abū-l-Qāsim al-Garnāṭī, *Ra' al-ḥuḡub al-mosūra ft maḥāsīn al-maqṣūra*, Commentaire de la Maqṣūra d'Ibn ḡāzim al-Qarṭāṣānī, le Caire, 1344, 2 vol.
- Abū Rahāb (Hassān), *al-Ḡazal 'ind al-'Arab*, Le Caire, 1366 = 1947.
- Abū Tammām, *Diwān*, éd. de Beyrouth, 1323 = 1905.
- Abū-l-Walīd al-Ḥīmīyārī, *Al-Ḥadī' ft waṣf ar-rab'*, Ms. de l'Escurial, n° 353 ; éd. avec les voyelles essentielles et l'indication des folios du manuscrit, et précédé d'une Introduction en arabe et en français, par H. Pérès (Collection de Textes arabes publiée par l'Institut des Hautes Etudes Marocaines. — Vol. IX), Rabat, 1940.
- Adier (G. J.), *The poetry of the Arabs of Spain*, New-York, 1867.
- Aḡṭār Maḡmū'a, publ., trad. et ann. par E. La Fuente y Alcantara, Madrid, 1867.
- Ahlwardt (W.), *The Divans of the Six ancient Arabic poets*, Londres, 1870 (en abrégé : Ahlwardt, *Six Divans*).
- Alarcón. V. Ibn al-Abbār et *Miscelanea*.
- Alcacer Martínez (R. P. Dom R.), *La corporación de los poetas en la España musulmana*, Madrid, 1940.
- 'Alī (Zāhid). V. Ibn Ḥānī'.
- Allucche (I. S.), Compte rendu de la 1^{re} éd. de *La Poésie andalouse*, dans *Hesperis* (Rabat), 1^{er} trimestre 1939, pp. 105-108.
- V. *al-Ḥulal al-mawṣiyya*.
- Alonso (Amado), *Correspondencias arábigoespañolas*, in *R.F.E.*, VIII 1946, pp. 30-43 ; 57-60.
- Alonso (Damaso), *Cancioncillas « De Amigo » mozárabes (Primavera lejana de la lirica europea)*, in *R.F.E.*, XXVIII, 1949, pp. 297-349.
- Altamira y Crevea, *Historia de España y de la civilización española*, 3^e éd., Barcelone, 1913, 4 vol.
- Amari (M.), *Questions philologiques adressées aux savants musulmans par l'Empereur Frédéric II*, in *J. A.*, 5^e série, t. I (1853), 240-274.
- V. *Bibliotheca arabo-sicula* ; *Centenario*.
- Ambar (Mohamed Abd El Hamid), *Le problème de l'influence arabe sur les premiers troubadours*, Thèse inédite de l'Université de Paris, 1947.
- L'Art de l'Iran*, par un Groupe d'écrivains, sous la direction de René Grousset, Louis Massignon et Henri Massé, Paris, 1951.

- al-'Amīlī (Bahā' ad-Dīn), *Asrār al-balāḡa* (à la suite du *Kitāb al-Mithlā* du même auteur), le Caire, 1317.
 — *al-Kaškūl*, le Caire, 1329.
 Amīn (Aḥmad), *Ḍuḥā al-islām*, le Caire, t. I, 1351 = 1933 ; t. II, 1353 = 1935 ; t. III, 1355 = 1936.
 'Amr ibn Kulṭūm, *Mu'allāqa*, in at-Tibrizī, *al-Qaṣd'id al-'aṣr*, éd. Muḥammad Munīr 'Abduh ad-Dimaṣqī, le Caire, 1343.
Anacréontiques, trad. M. Meunier, Paris, 1932.
Anal. ou Analectes, V. al-Maqqarī, *Nafḥ al-ṭib*, éd. de Leyde.
 Anastase (le P.), art. in *al-Muqtabas*, I, 435.
Al-Andalus. V. 'Abd Allāh le Ziride ; Asin Palacios ; Ibn Ḥazm ; Lévi-Provençal ; Stern.
 al-'Anīsī al-Ḥalabī al-Lubnānī (Ṭūbiyā), *Tafsīr al-ul/āz ad-dahīla fi-l-luḡat al-'arabiyya*, 2^e éd. rev. par Yūsuf Ṭurnā al-Bustānī, le Caire, 1932.
Annales de l'Institut d'Etudes Occitanes (Toulouse). V. Morère.
Annales de l'Institut d'Etudes Orientales. Faculté des Lettres de l'Université d'Alger. V. Bel ; Benhamouda ; Blachère ; Marçais (G.).
Annales du Musée Guimet. Bibliothèque d'études. V. Gaudefroy-Demombynes.
 Anonyme. V. *Una crónica anónima...*
 Antuña (Melchior M.), *La corte literaria de Alḡaquem II en Córdoba*, in *Religión y Cultura*, 1929.
 — *Sevilla y sus monumentos árabes*, Escorial, 1930.
 — V. Ibn Ḥaiyān.
Archives marocaines. V. 'Abd al-Ḥaqq al-Bādīsī ; an-Nāṣirī as-Salāwī.
Archivum romanicum. V. Nykl.
 'Arib. V. Dozy, *Corrections*.
 Arnold (Th.) et Guillaume (A.), *The Legacy of Islam*, Oxford, 1931.
Ars Islamica. V. Creswell.
 al-A'ṣā, *Diwān*, éd. R. Geyer (*Gibb. Memorial, New Series*, vol. VI), Londres, 1928.
 — *Mu'allāqa (Waddī' Hurairata)*, in at-Tibrizī, *al-Qaṣd'id al-'aṣr* et éd. Geyer, *Zwei Gedichte von al-A'ṣā*, Vienne, 1905-1919.
 Aṣāf (Iskandar). V. Abū Nuwās.
 Asin Palacios (M.), *Abenḥāzam de Córdoba y su historia de las ideas religiosas*, Madrid, t. I-II, 1927-1928.
 — *Abenmasarra y su escuela. Orígenes de la filosofía hispano-musulmana*, Madrid, 1914.

- *Un códice inexplorado del Cordobés Ibn Hazn*, in *Al-Andalus*, II, (1934), fasc. I, pp. 1-56.
- *La tesis de la necesidad de la revelación en el Islam y en la escolástica*, in *al-Andalus*, III, fasc. 2 (1935), pp. 345-389.
- *Obras escogidas*, Madrid, 1946-1948, 2 vol.
- 'Atiyya al-Lubnānī (Rašīd). V. al-Buḥturī.
- Badā'ī* : Ibn Zābir, *Badā'ī al-badā'ih*, Būlāq, 1278.
- B.A.F. (*Bibliothèque Arabe-Française*, Alger). V. al-Muqaddasī.
- B.A.H. : *Bibliotheca arabico-hispana*. V. ad-Ḍabbī ; Ibn al-Abbār ; Ibn ʿAskwāl ; Ibn Haīr.
- al-Baḥrī, *Description de l'Afrique septentrionale*, texte arabe par de Slane, 2^e éd., Alger, 1911 ; trad. française par de Slane, revue par Fagnan, 2^e éd., Alger, 1913.
- Ballesteros y Beretta (A.), *Historia de España y su influencia en la historia universal*, Barcelone, 1918-1936, 8 tomes en 9 vol.
- Baillet (M. J.). V. Salles.
- Bammate (Haidar), (Georges Fivoire), *Visages de l'Islam*, Lausanne-Paris, 1946.
- Barbi (M.), V. Dante.
- Barbier de Meynard, *Dictionnaire géographique, historique et littéraire de la Perse et des contrées adjacentes* (Extraits trad. de Yāqūt, *Mu'jam al-buldān*), Paris, 1861.
- V. al-Mas'ūdī.
- al-Barḡūḡī ('Abd ar-Raḥmān). *Ḥaḍarat al-'Arab fi-l-Andalus*, le Caire, 1311 = 1923.
- V. Ḥassān ibn Tābit : al-Mutanabbī.
- Barrès (M.), *Le musulmane courageuse*, in *Cahiers*, t. IV (1904-1906), pp. 224-267.
- Barthélemy (Abbé), *Voyage du jeune Anacharsis en Grèce*, Paris, 1788.
- al-Bārūdī, *Muḥarrar*, le Caire, 1327 1329, 4 vol.
- B.A.S. (*Bibliothèque arabo-sicula*). V. Amari.
- Basset (R.), *La Bordah du Cheikh El Bousiri* (*Bibliothèque orientale elzévirienne*, t. LXIX), Paris, 1894.
- *La littérature populaire berbère et arabe dans le Maghreb et chez les Maures d'Espagne*, in *Mélanges africains et orientaux*, Paris, 1915, pp. 27-63.
- *Mélanges africains et orientaux*, Paris, 1915.
- *Hercule et Mahomet*, in *Journal des Savants*, 1903.

- Bataillon (Marcel). Compte rendu de la 1^{re} éd. de *La poésie andalouse*, in *Bulletin Hispanique*, tome XLI (1939), pp. 187-191.
- al-Batānūnī (Muḥammad Labīb). *Riḥlat al-Andalus*, le Caire, 1927.
- al-Bayān*. V. Ibn 'Iqārī.
- B.E.A.* (*Bulletin des Etudes Arabes*, Alger). V. Brunschvig ; Renaud ; Bencheneb (S.).
- Beaumier. V. Ibn Abi Zar'.
- Bel (A.). *Inscriptions arabes de Fès*, in *J. A.*, 1917-1919, tirage à part, Paris, 1919.
- *Quelques rites pour obtenir la pluie en temps de sécheresse chez les Musulmans maghrébins*, in *Recueil de Mémoires et de Textes publiés en l'honneur du XIV^e Congrès des Orientalistes*, Alger, 1905, pp. 49-98.
 - *Le sufisme en Occident musulman au XII^e et au XIII^e siècle de J. C.*, in *Annales de l'Institut d'études orientales... d'Alger*, I, 1934-1935, pp. 145-161.
 - *La religion musulmane en Berbérie. Esquisse d'histoire et de sociologie religieuse*, tome I (seul paru), Paris, 1938.
 - V. Ibn al-Abbār.
- B.E.L.O.V.* : *Bibliothèque de l'Ecole des langues orientales vivantes*. V. W. Marçais.
- Ben Cheneb (Muḥammad). V. *ad-Daḥīra as-saniyya* ; Ibn al-Abbār.
- Bencheneb (S.). *Sabaniyya*, in *B.E.A.*, n° 21 (janv.-fév. 1945), pp. 6-7.
- Benhamouda (A.). *Les noms arabes des étoiles (essai d'identification)*, in *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales... d'Alger*, Tome IX (1951), pp. 76-210.
- Bercher (Léon). V. Goldziher ; Ibn Ḥamdīs ; Ibn Ḥazm.
- Bergua (José). *Psicología del pueblo español*, Madrid, 1934.
- Berr (H.). V. Réau (L.) et Cohen (G.).
- Bertrand (Louis). *Histoire d'Espagne*, Paris, 1932.
- B. G. A.* : *Bibliotheca geographorum arabicorum*. V. Ibn Ḥawqal ; al-Muqaddasī ; al-Ya'qūbī.
- B. I. O.* : *Bulletin de l'Institut d'archéologie orientale du Caire*. V. Zakī (A.).
- Bibliotheca arabico-hispana* (en abrégé : *B.A.H.*) V. Codera ; Aḍ-Ḍabbi ; Ibn al-Abbār ; Ibn Daḥkuwāl ; Ibn Ḥaīr.
- Bibliotheca arabo-sicula* (en abrégé : *B.A.S.*), par Michele Amari : textes arabes, Leipzig, 1857, 1 vol : traduction italienne, Turin-Milan, 1880-1881, 2 vol.
- V. Amari.

- Bibliotheca Geographorum Arabicorum* (en abrégé) : (B.G.A.). V. Ibn Hawqal ; Al-Muqaddasi ; Al-Ya'qûbî.
- Bibliothèque Arabe-Française* (en abrégé : B.A.F.). V. Al-Muqaddasi.
- Bibliothèque de l'Ecole des Hautes Etudes*. V. Šaraf ad-Dîn Râmî.
- Bibliothèque des géographes arabes*. V. Ibn Fadl Allâh al-'Umarî.
- Bibliothèque orientale elzévirienne*. V. Basset (R.) ; Sauvaire (H).
- Bishr Farès. V. Fâris (Bišr).
- Blachère (R.). *Le poète arabe al-Mutanabbî et l'Occident musulman*, in *R.E.I.*, année 1929, Cahier I, pp. 127-135.
- *Un pionnier de la culture arabe orientale en Espagne au X^e siècle. Šâ'id de Bağdâd*, in *Hespéris*, t. X, 1930, pp. 15-36.
- *Un poète arabe du IV^e siècle de l'hégire (X^e siècle de J. C.) : Abou l-Tayyib al-Mutanabbî (Essai d'histoire littéraire)*, Paris, 1935. En abrégé : Blachère, Abou l-Tayyib al-Mutanabbî.
- *La vie et l'œuvre du poète-épistolier andalou Ibn Darrâğ al-Qas'alîl*, in *Hespéris*, t. XVI (1923), pp. 99-121.
- *Vue d'ensemble sur la poétique classique des Arabes*, in *R.E.S.*, 1938, I, 18 pages.
- *Les principaux thèmes de la poésie érotique au siècle des Umayyades de Damas*, in *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales... d'Alger*, tome V, 1938-1941, pp. 82-128.
- *Histoire de la littérature arabe des origines à la fin du XV^e siècle de J.-C.*, tome 1^{er}, Paris, 1952.
- *La vie et l'œuvre d'Abou l-Tayyib al-Mutanabbî*, in *Al-Mutanabbî. Recueil publié à l'occasion de son Millénaire* (Mémoires de l'Institut Français de Damas), Beyrouth, 1936, pp. 45-79.
- V. Šâ'id al-Andalusî ; al-Qur'an.
- Boileau, *Réflexions critiques sur quelques passages du rhéteur Longin* (*Œuvres complètes de Boileau*, éd. Garnier), Paris, 1870-1873.
- Boissonnade (P.), *Du nouveau sur la chanson de Roland*, Paris, 1923.
- Boletín de la real Academia de ciencias, bellas letras y nobles artes de Córdoba*. V. Castejón ; García Gómez ; González Palencia.
- Boletín de la real Academia española*. V. Olivier Asín.
- Brockelmann (Carl), *Geschichte der arabischen Literatur*, Weimar-Berlin, 1898-1902, 2 vol. ; *Supplément*, Leiden, 1937-1938-1942, 3 vol. ; *Geschichte der arabischen Literatur*, 2^e éd., Leiden, 1943-1949, 2 vol.
- Brunot (L.), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé* (P.I.H.E.M., t. V), Paris, 1921.

- *Textes arabes de Raouf*, t. I, (P.I.H.E.M., t. XX), Paris, 1931.
- Brunschvig (Robert), *Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV^e siècle : 'Abd al-Bastî b. 'Izzîl et Adorne* (Publications de l'Institut d'Etudes Orientales... d'Alger. — Vol: VII), Paris, 1936.
- *La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XV^e siècle* (Publications de l'Institut d'Etudes Orientales... d'Alger. — Vol: VIII), Paris, 1940-1947, 2 vol.
- *Ibn Bur'ûlo*, in B.E.A., n° 22 (mars-avril 1945), pp. 59-60.
- al-Buhârî, Şaḥîḥ. *Les traditions islamiques*, trad. O. Houdas et W. Marçais (P. E. L. O. V., 4^e série, t. III-IV), Paris 1903-1914, 4 vol.
- al-Buḥṭarî, *Diwân*, éd. Raḡîd 'Aṭiyya al-Lubnânî, Beyrouth, 1911.
- Bulletin de l'Académie royale de Belgique*. V. Cohen (G.).
- Bulletin des Etudes Arabes* (en abrégé : B.E.A.). V. Brunschvig ; Renaud.
- Bulletin Hispanique*. V. Bataillon.
- Bulletin de l'Institut d'Archéologie Orientale du Caire* (en abrégé : B.I.A.O.). V. Zaki (A.).
- al-Bustânî (Buṭrus). V. Ibn Şuhaid.
- al-Bustânî (Karam). V. Ibn Zaidûn.
- al-Bustânî (Yûsuf Tûmâ). V. al-'Anisî.
- Byzantion*. V. Marçais (G.).
- Cahiers du Sud (Les)*. V. *Le Génie d'Oc*.
- Le Calendrier de Cordoue de l'année 961*, texte arabe et ancienne trad. latine publiés par R. Dozy, Leyde, 1873.
- Campaner y Fuertes (A.), *Bosquejo histórico de la dominación islámica en las Islas Baleares*, Palma, 1888.
- Canard (Marius). V. aş-Şûfî.
- Candolle (Alphonse de), *Origine des plantes cultivées*, Paris, 1883.
- Carra de Vaux, *Les Penseurs de l'Islam*, Paris, 1921-1926, 5 vol.
- Casiri, *Bibliotheca arabico-hispana Escorialensis*, Madrid, 1760-1770, 2 vol.
- Castejón (R.), *Córdoba califal*, in *Boletín de la real Academia de ciencias, bellas letras y nobles artes de Córdoba*, année VIII (1929), n° 25, pp. 255-339.
- Castries (H. de), V. at-Tamgrûṭî.
- Caussin de Perceval, *Notes anecdotiques sur les principaux musiciens arabes des trois premiers siècles de l'islamisme*, in J. A., 1873 (7^e série, t. II), pp. 397-592.
- Cavaignac (E.). V. Gaudefroy-Demombynes et Platonov.

- Cenival (Pierre de), *La légende du juif Ibn Merch'al et la fête des Tolba à Fès*, in *Hespéris*, V. (1925), pp. 137-218.
- Centenario della nascita de Michele Amari*, Palerme, 1910, 2 vol. En abrégé : *Centenario de Amari*.
- Chanson de Roland*, 7^e éd. par Léon Gautier, Paris, 1880.
- Chateaubriand, *Le génie du christianisme*, éd. Garnier, Paris, 1859-1861 12 vol.
- Cheikho (L.), *Poètes arabes chrétiens avant l'Islâm*, Beyrouth, 1890, 6 fasc. — V. Ša'id al-Andalusî.
- Clément-Mullet, *Essai sur la minéralogie arabe*, in *J. A.*, 6^e série, t. XI (1868), pp. 20-37.
- Codera, V. *B.A.H.* ; ad-Dabbî ; Ibn al-Abbâr, Ibn Baškuwâl.
- Cohen (Gustavo), *Le problème des origines arabes de la poésie provençale médiévale*, in *Bulletin de l'Académie royale de Belgique (Classe des Lettres)*, Bruxelles, 1916 (5^e série, tome XXXII), pp. 266-278.
- V. Pirenne (H.), Cohen (G.) et Focillon (H.) ; Réau (L.).
- Colección Labor*. V. Ferrandis ; Gonzalez Palencia.
- Colección de Manuales Hispania*. V. Ribera.
- Colin (G. S.), *Un document nouveau sur l'arabe dialectal d'Occident au XII^e siècle (ʿirād al-luāt min inšād aḡ-ḡawāl, d'Ibn Ḥātima)*, in *Hespéris*, XII (1931), pp. 1-32.
- *Quelques poètes arabes d'Occident au XIV^e siècle (d'après les Masâlik al-abḡâr, d'Ibn Faḡl Allāh al-'Umari, Ms. de la Bibliothèque Nationale de Paris, n° 2327)*, in *Hespéris*, tome XII (1931), fasc. II, pp. 241-247.
- *Latin SIGILLATUS roman SIGLATON et ESCARLAT*, in *Romania*, t. LVI, n° 222, avril 1930, pp. 178-190 ; n° 223, juillet 1930, p. 418.
- *La noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe*, in *Hespéris*, t. XIV, fasc. I (1932), pp. 22-60.
- *L'origine des norias à Fès*, in *Hespéris*, t. XVI, fasc. 1-2 (1933), pp. 156-157.
- V. 'Abd al-Ḥaqq al-Bâdisî ; an-Nâsirî ; as-Saqaḡî.
- Collection « Hespéris »*. V. Di Giacomo.
- Collection de textes arabes publiée par l'Institut des Hautes Etudes marocaines*. V. Abu-l-Walid al-Ḥimyarî ; Ibn al-Ḥaḡib ; al-Ḥulal al-mawṣiyya ; *Mafâḥir al-Barbar*.
- Collection de textes inédits relatifs à la mystique musulmane*, V. Massignon.
- El Cante Lucanor*, de Don Juan Manuel, avec un prologue et des notes de F. J. Sanchez Canton (Biblioteca Calleja, Segunda Serie), Madrid, 1920.

- Contreras (R.), *Etude descriptive des monuments arabes de Grenade, Séville et Cordoue, c'est-à-dire l'Alhambra, l'Alcazar et la Grande Mosquée d'Occident*, 4^e éd., Madrid, 1889.
- Corrections : Dozy, *Corrections sur les textes du Bayāno 'l-Mogrib d'Ibn-Adhārī (de Maroc), des fragments de la Chronique d'Arib (de Cordoue) et du Hollalo's-Siyarā d'Ibno-'l-Abbār*, Leyde, 1883.
- Cour (A.), *La dynastie marocaine des Benī Waḥḥās*, Constantine, 1920.
- *De l'opinion d'Ibn al-Haṭṭib sur les ouvrages d'Ibn Ḥaḡān considérés comme source historique*, in *Mélanges René Basset*, Paris, t. II, 1925, pp. 17-32.
- *Un poète arabe d'Andalousie : Ibn Zaidūn*, Constantine, 1920. En abrégé : Cour, *Ibn Zaidūn*.
- Creswell (K.A.C.), *The Lawfulness of Painting in Early Islam*, in *Ars Islamica* (University of Michigan), Vol. XI-XII (1946), pp. 159-166.
- aḷ-Dabbī, *Buḡyat al-mulṭamīs fī ta'rīḥ riḡāl al-Andalus* (B. A. H., t. III), éd. Codera, Madrid, 1885.
- aḷ-Dahīr al-as-saniyya (*Le trésor magnifique*). *Chronique anonyme des Mérinides*, texte arabe publié par M. Ben Cheneb (*Publications de la Faculté des Lettres d'Alger*, t. LVII), Alger, 1339 = 1920-1921.
- Ḍaif (A.), *Balāḡat al-'Arab fī-l-Andalus*, le Caire, 1342 = 1924.
- Dante, *Vita nuova*, éd. critique par Michele Barbi, Florence, 1932.
- Defrémery. V. Ibn Baḡḡā.
- Dermenghem (Emile), *Les plus beaux textes arabes* [traduits en français], Paris, 1951.
- Diehl (Ch.) et Marçais (G.), *Le monde oriental de 395 à 1081 (Histoire générale, publiée sous la direction de G. Glotz. Histoire du Moyen Age, t. III)*, Paris, 1936.
- Dierx (G.), *Die arabische Kultur in mittelalterlichen Spanien*, Hambourg, 1887.
- Di Giacomo (Louis) *Une poétesse grenadine du temps des Almohades : Ḥuṣṣa bint al-Ḥājj* (Collection « Hespéris », — N^o X), Paris, 1949.
- ad-Dimašqī, *Nuḡbat al-duḥr fī 'aḡā'ib al-barr aw-l-baḥr*, texte arabe par A. F. Mehren, Saint-Petersbourg, 1866 ; trad. française par le même, *Manuel de la Cosmographie du Moyen Age*, Copenhague, 1874. En abrégé : ad-Dimašqī, *Cosmographie*.
- Doutlé (E.), *Merrākech*, Paris, 1905.
- Dozy (R.), *Catalogus codicum orientalium bibliothecae Academiae Lugduno-Batavae*, Leyde, 1851-1877, 6 vol.

— Corrections. V. Corrections.

- *Dictionnaire détaillé des rioms de vêtements chez les Arabes*, Amsterdam, 1845. En abrégé : Dozy, *Vêtements*.
- *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides (711-1110)*, nouvelle édition revue et mise à jour par E. Lévi-Provençal, Leyde, 1932, 3 vol. En abrégé : H. M. E.
- *Lettre à M. Fleischer contenant des remarques critiques et explicatives sur le texte d'al-Makkarî*, Leyde, 1871. En abrégé Dozy, *Lettre à Fleischere*.
- *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age*, Leyde, 1^{re} éd., 1849, t. I (seul paru) ; 2^e éd., 1860, 2 vol. ; 3^e éd., 1881, 2 vol. En abrégé : *Recherches*¹, *Recherches*², *Recherches*³.
- *Scriptorum arabum loci de Abbadidis*, Leyde, 1846-1853, 3 vol. En abrégé : *Abbad*.
- *Supplément aux dictionnaires arabes*, Leyde-Paris, 2^e éd., 1927. En abrégé : Dozy, *Suppl.*
- V. *Abbad*. ; *le Calendrier de Cordoue* ; Ibn al-Abbâr, *al-Hilla* ; Ibn Badrûn ; Ibn 'Idârî ; Ibn al-Idrîsî ; al-Marrâkûshî.

Dozy (R.) et Engelmann (W. H.), *Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe*, Leyde, 1869.

Dugat (G.), *Hodba, un poète arabe du I^{er} siècle de l'hégire*, in J. A., 5^e série, t. V (1855), 360-385.

— *Introduction aux Analectes d'al-Maqqarî*, t. I, Leyde, 1855.

— *Poésies arabes. Essai de traduction en vers français de manuscrits et autres pièces inédites*, in J. A., 4^e série, t. 16 (1850), 329-344.

Dupin (H.), *La courtoisie au Moyen Age*, Paris, 1931.

Dureau de la Malle, *Climatologie comparée de l'Italie et de l'Andalousie anciennes et modernes*, Paris, 1849.

Ecker (L.), *Arabischer, provenzalischer und deutscher Minnesang*, Berne et Leipzig, 1934.

Eguílaz y Yanguas (L.), *Origen de las ciudades Garnata é Illiberri y de la A'hambra*, in *Homenaje a Codera*, pp. 333-338.

Eguílaz y Yanguas (L.), *Poesía histórica, lírica y descriptiva de los Arabes andaluces*, Madrid, 1864.

Ehrenpreis (M.), *Le pays entre Orient et Occident*, Paris, 1930.

Elisséï (Nikita), *Thèmes et motifs des Mille et une Nuits. Essai de classification*, Beyrouth, 1949.

Encyclopédie de l'Islâm, Leyde-Paris, 1908-1934, 1934-1938, 4 vol. et 1 suppl.

Estudios dedicados a Ramon Menéndez Pidal, V. Lévi-Provençal.

Evans (Joan). V. Roques (M.).

L'Évolution de l'Humanité. V. Berr (H.) ; Réau (L.) et Cohen (G.).

Exploration scientifique de l'Algérie. V. Ibn Abi Dīnār.

Ragnan (E.), *Extraits inédits relatifs au Maghreb (Géographie et Histoire)*, Alger, 1924.

— *Le signe distinctif des Juifs au Maghreb*, in *Revue des Etudes juives*, t. 28 (1894), pp. 294-298.

— V. al-Bakrī ; Ḥalīl ; Ibn al-Aṣṣir ; Ibn 'Idārī ; al-Istibṣār ; al-Marrākūshī ; Ibn Faḍl Allāh al-'Umārī.

al-Farazdaq, *Dīwān*, éd. Boucher, Paris, 1870-1875, 4 tomes.

Farès (Bishr). V. Fāris (Eiṣr).

Farīd (Mahmūd Kāmil). V. Abū Nuwās.

Fāris (Biṣr), *L'honneur chez les Arabes avant l'Islam. Etudes de sociologie*, Paris, 1932.

— *Compte rendu de la 1^{re} éd. de la Poésie andalouse*, in *al-Muqāṭaf* (Le Caire), mai 1938, pp. 596-7.

Faṭḥ Allāh (Ḥamza), *al-Mawāhib al-faḥḥiyya ft 'ulūm al-luḡat al-'arabiyya* le Caire, 1313-1326, 2 vol.

al-Faṭḥ ibn Ḥāqān, *Qalā'id al-'iyyār*, Būlāq, 1283 ; Marseille-Paris, 1277 = 1860. Nous citons de préférence l'éd. de Būlāq, plus complète que celle de Marseille-Paris. En abrégé : *Qal.* ou *Qalā'id*.

— *Maṣmaḥ al-anfus wa-misraḥ al-ta'annus ft mulah ahl al-Andalus*, Constantinople, 1302. En abrégé : *Maṣmaḥ*.

Fawwāz (Zainab), *ad-Durr al-manḥūr ft ṭabaqāt rabbāt al-ḥudūr*, Būlāq, 1312.

al-Fayyūmī, *al-Miṣbāḥ al-nunūr*, Le Caire, 6^e éd., 1925.

Fernández y Gonzalez (F.), *La influencia de las lenguas y literaturas orientales en la nuestra* (Discours à l'Académie espagnole), Madrid, 1894.

— V. Menéndez y Pelayo.

Ferrand (G.), V. Abū Ḥāmid ; Ibn Faḍl Allāh al-'Umārī.

Ferrandis (J.), *Marfiles y azabaches españoles (Colección Labor, n^o 159-160)*, Barcelone-Buenos-Aires, 1928.

al-Firūzābādī, *al-Qāmūs al-muḥīl*, le Caire, 1330, 4 vol.

Fouillée (A.), *Esquisse psychologique des peuples européens*, Paris, 1903.

Freytag, *Arabum proverbie*, Bonn-s-Rhin, 1838, 3 vol.

Funk-Brentano (F.), *La Renaissance*, Paris, 1935.

Gabrieli (Francesco), *Storia e civiltà musulmana*, Naples, 1947.

— *Ibn Haunīs*, Mazara, 1948.

- *Arabi di Sicilia e Arabi di Spagna*, in *Al-Andalus*, Vol. XV (1950), fasc. I, pp. 27-46.
- *Studi di Storia Musulmana*. 1940-1950, in *Rivista Storica Italiana*, Naples, 1950.
- *Sicilia e Spagna nella vita e nella poesia di Ibn Handāš*, in *Miscellanea G. Galbiati*, Milan, 1951.
- V. Ibn 'Abdūn ; Ibn Ḥazm.
- al-Ġāhiz, *al-Bayān wa-l-tabyīn*, éd. as-Sandūbi, le Caire, 1345 = 1927, 3 vol.
- *Kitāb al-Buḥalā'*, éd. Van Vloten, Leyde, 1900.
- *al-Buḥalā'*, éd. critique annotée par Ṭāhā al-Ḥāgiri, Le Caire, 1948.
- *Le Livre des Avarès*, trad. française avec une introduction et des notes par Charles Pellat (Islam d'Hier et d'Aujourd'hui. — Vol. X), Paris, 1951.
- *Magmū' ar-rasā'il*, le Caire, 1324; éd. Van Vloten, *Tria opuscula*, Leyde, 1903, éd. as-Sandūbi, *Rasā'il*, le Caire, 1352 = 1933.
- García Gómez (E.), *Bagdad y los reinos de Taifas*, in *Revista de Occidente*, t. 127, janvier 1934, pp. 1-22.
- *Elogio del islam español* (trad. espagnole de l'arabe. V. aš-Šaḡundī) *Publicaciones de las escuelas de estudios árabes de Madrid y Granada*, Série B, n° 2), Madrid-Grenade, 1934.
- *Poemas arábigoandaluces*, Madrid, 1930 ; 2^e éd., Madrid, 1940.
- *Poetas musulmanes cordobeses*, in *Boletín de la real Academia de ciencias, bellas letras y nobles artes de Córdoba*, année VIII, n° 25 (1929), pp. 145-176.
- *Una obra importante sobre la poesia arabigoandaluza*, C. R. de *La Poésie andalouse*, 1^{re} éd., in *al-Andalus*, Vol. IV (1939), fasc. 2, pp. 233-316.
- *Poemas arábigoandaluces*, Madrid, 1930 ; 2^e éd., 1940 ; 3^e éd., 1943.
- *Casidas de Andalucía, puestas en verso castellano*, Madrid, 1940.
- *Cinco poetas musulmanes. Biografías y estudios*, Madrid, 1944.
- *Nuevos testimonios sobre « el odio a Sevilla » de los poetas musulmanes*, in *al-Andalus*, Vol. XIV (1949), fasc. I, pp. 143-148.
- *La poésie politique sous le Califat de Cordoue*, in *Revue des Etudes Islamiques*, Paris, 1949, pp. 5-11.
- *Nuevas observaciones sobre las « Jaryas » romances en muwaššāḡas hebreas*, in *al-Andalus*, Vol. XV (1950), fasc. I, pp. 157-177.
- *Mas sobre las « jaryas » romances en « muwaššāḡas » hebreas*, in *al-Andalus*, Vol. XIV (1949), fasc. 2, pp. 409-417.

- *Quelques aspects esthétiques de la poésie arabe*, in *Conférences du Lundi-Université de Bordeaux*, Bordeaux, 1940, 12 pages.
- *Poesía arábigoandaluza. Breve síntesis histórica*, Madrid, 1952.
- *Introducción a la traducción del Libro El Collar de la Paloma, tratado sobre el Amor y los Amantes*, de Ibn Hazm de Córdoba, Madrid, 1952, pp. 1-82.
- V. *Una crónica* ; Ibn Hazm ; Ibn Sa'îd ; E. Lévi-Provençal et Oliver Asin.
- Gaspar Remiro (M.), *Presentimiento y juicio de los Moros españoles sobre la caída inminente de Granada y su reino en poder de los Cristianos*, in *Revista del centro de estudios históricos de Granada y su Reino*, année 1911, t. I, fasc. 3, pp. 149-153.
- V. an-Nuwairî.
- Gaudefroy-Demombynes. *Une lettre de Saladin au calife al-mohide*, in *Mélanges René Basset*, t. II, Paris, 1925, pp. 279-304.
- *Le pèlerinage à la Meke. Etude d'histoire religieuse* (*Annales du Musée Guimet, Bibliothèque d'études*, t. 33), Paris, 1923.
- *La Syrie à l'époque des Mamlouks d'après les auteurs arabes*, Paris, 1923.
- *Sur le cheval-jupon et el-kurraj*, in *Mélanges William Marçais*, Paris, 1950, pp. 155-160.
- V. Ibn Faḍl Allāh al-'Umārî ; Ibn Jobair ; Ibn Qutaiba ; *Mélanges William Marçais*.
- Gaudefroy-Demombynes et Platonov, *Le monde musulman et byzantin jusqu'aux Croisades* (*Histoire du monde publiée sous la direction de R. Cavaignac*, t. VII), Paris, 1931.
- Gauthier (Léon), *La racine arabe « ḥakama » et ses dérivés*, in *Homenaje a Codera*, Zaragoza, 1904 pp. 435-454.
- *Introduction à l'étude de la philosophie musulmane. L'esprit sémitique et l'esprit aryen. La philosophie grecque et la religion de l'Islam* (Collection de la Revue de Monde Musulman), Paris, 1923.
- *Ibn Rochd (Averroès)* (Collection « Les Grands Philosophes »), Paris, 1948.
- V. Ibn Ṭufail.
- Gautier (E. F.), *L'islamisation de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs du Maghreb*, Paris, 1927 ; 2^e éd. : *Le passé de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs*, Paris, 1937.
- *Mœurs et coutumes des Musulmans*, Paris, 1931.
- Gautier (Léon). V. *Chanson de Roland*.

Gayangos (P. de), *The History of the Mohamedan Dynasties in Spain*, Londres, 1840-1843, 2 vol. (trad. des passages historiques d'al-Maqqarî, *Nafḥ al-ḥib*).

— V. Ibn al-Qaṭṭiyya.

al-ʿAzzâl, *Natḥat al-igṭihād fi-l-muḥādana wa-l-ġihād*, ms. de la Bibliothèque Nationale d'Alger, n° 1738 ; éd. A. Bustānî, Larache, 1941.

Le Génie d'Oc et l'Homme méditerranéen. Etudes et Poèmes, Marseille, Les Cahiers du Sud, 4^e éd., 1944.

Geyer (R.). V. al-A'šā.

Ghali (Wacyf Boutros). V. Wacyf Boutros Ghali.

Gibb Memorial. New Series. V. al-A'šā ; Yāqūt.

Gil (P.), Ribera (J.), Sanchez (M.), *Colección de textos aljamiados*, Saragosse, 1888.

Glötz (Gustave). V. Diehl et Marçais (G.) ; Petit-Dutaillis et Guinard (P.) ; Pirenne (H.), Cohen (G.) et Focillon (H.).

de Goeje, *Glossaire de la Riḥla* d'Ibn Ġubair, Leyde, 1907.

— V. Ibn Ġubair ; Ibn Qutaiba ; al-Idrīsī ; al-Muqaddasī ; Muslim ibn al-Walid ; al-Ṭabarī.

Goldziher (I.). *Muhammedanische Studien*, Halle, 1889-1890, 2 vol.

— *Die Su'ûbijja unter den Muhammedanern in Spanien*, in *Z.D.M.G.*, Vol. LIII (1899), pp. 610-618 : Fragments de la *Risâla* d'Ibn Ġarsiya.

— *Etudes sur la Tradition Islamique*, extraites du Tome II des *Muhammedanische Studien*, traduites par Léon Bercher, Paris, 1952.

Gómez Moreno (M.), *Iglesias mozárabes. Arte español de los siglos IX a XI*, Madrid, 1919, 2 vol.

González Palencia (A.), *El amor platónico en la corte de los Califas* (*Boletín de la real Academia de ciencias, bellas letras y nobles artes de Córdoba*, année 1929, pp. 1-25, Cordoue, 1929).

— *Historia de la España musulmana* (*Colección Labor*, n° 69), Barcelone-Buenos-Aires, 3^e éd., 1932.

— *Historia de la literatura arábigo-española* (*Colección Labor*, n° 164-165), Barcelone-Buenos-Aires, 2^e éd., 1945.

— *El Islam y Occidente*, Madrid, 1931.

— *Los Mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII*, Madrid, 1926-1930, 4 vol.

— *Moros y cristianos*, Madrid, 1945.

— V. Ibn al-Abbâr ; *Miscelanea*.

Gonzalvo (L.), *Avance para un estudio de las poétisas musulmanas de España*,

- in *Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos*, Madrid, 1905, N^o 8, 9-10, 11-12. En abrégé : *Poetisas musulmanas*.
- Graetz (H.), *Les Juifs d'Espagne (945-1705)*, trad. G. Stenne, Paris, 1872.
- Grousset (R.). V. *L'âme de l'Iran*.
- Guillaume (A.). V. Arnold (Th).
- Guinard (P.). V. Petit-Dutaillis.
- Gunzburg (David de). V. Ibn Quzmân.
- al-Ġurġânî (Abu-l-'Abbâs), *al-Muntaḥab min kinâyât al-udabâ' wa-išârât al-bulâġâ'*, le Caire, 1326 — 1908.
- Guyard (St.). V. Abu-J-Fidâ'.
- al-Guzûlî, *Maḥâlî' al-budûr ft marâzîl as-surûr*, Bûlâq, 1299, 2 vol.
- al-Ĥafâġî, *Šifâ' al-ġallî fîmâ ft kalâm al-'Arab min ad-daḥṭl*, le Caire, 1325.
- Ĥalîfa ('Abd ar-Raḥmân). V. Ibn Zaidûn.
- Ĥalîl (Sayyidî), *Mariage et répudiation*, trad. Fagnan, Alger, 1909.
- Hartmann (M.), *Das arabische Strophengedicht. I. Das Muwaššah*, Weimar, 1897.
- Ĥassân ibn Tâbit, *Dhwân*, éd. al-Barqûqî, le Caire, 1347 = 1929.
- al-Ĥâtîmî, *ar-Risâlat al-ḥâtîmîyya*, in *al-Tuḥfat al-baḥiyya*, Constantinople, 1302 ; éd. O. Rescher, in *Islamica*, II (1926), fasc. 3, p. 439 sq.; éd. F. E. al-Bustânî, Beyrouth, 1931.
- Hauteceur (L.). V. Wiet.
- al-Ḥawârizmî. V. al-Ḥuwârazmî.
- Al-Ḥâzimî, *Kitâb al-Faiṣal*, extraits dans al-Maqqarî, *Analectes*, et Yâqût, *Mu'ġam al-buldân*.
- Hell (J.), *al-'Abbâs (bn al-Aḥnaf*, in *Islamica*, t. II (1926), pp. 271-307.
- Hespéris*. V. Blachère ; Cenival (P. de) ; Colin (G. S.) ; Di Giacomo ; Lévi-Provençal ; Luya ; Marçais (G.) ; Massé ; Pérès.
- al-Ḥiġârî, *al-Muṣṣib ft aḥbâr al-Maġrib*, Extraits in *Analectes*.
- al-Hûlî*. V. Zaki (A.).
- Histoire Générale* (publiée sous la direction de G. Glotz). V. Diehl (Ch.) et Marçais (G.) ; Petit-Dutaillis et Guinard (P.) ; Pirenne (H.), Cohen (G.) et Focillon (H.).
- Histoire du Monde* (publiée sous la direction de E. Cavaignac). V. Gauderoy Demombynes et Platonov.
- H. M. E.² V. Dozy, *Histoire des Musulmans d'Espagne*.
- Homenaje a D. Francisco Codera*, Saragosse, 1904. En abrégé : *Homenaje a Codera*.
- Homenaje a Codera*. V. Eguilaz y Yanguas ; Gauthier (L.) ; Zaki (A.).

- Homenaje ofrecido a Menéndez Pidal*, Madrid, 1925, 3 vol. V. Tallgren.
- Hoogwilt (M.), *Specimen e litteris orientalibus, exhibens diversorum scriptorum locos de regia Aphlasidarum familia et de Ibn Abduno poeta...*, Leyde, 1839.
- Huart (Cl.). V. Šaraf ad-Din Râmi.
- al-Ḥuṭat al-mawṣiyya ft ḡikr al-aḥbar al-marrākūṣiyya*, éd. de Tunis, 1329 ; éd. Allouche (*Collection de textes arabes publiée par l'Institut des Hautes Etudes marocaines*, vol VI), Rabat, 1936.
- al-Ḥulla*. V. Ibn al-Abbâr, *al-Ḥullat as-siyarâ'*.
- Humbert (J.), *Anthologie arabe*, Paris, 1819.
- Ḥusain (Ṭāhâ), *Fi-l-adâb al-ġāhili*, Le Caire, 1345-1927 ; 4^e éd., 1947.
- *Ḥadiṯ al-arḍi'â'*, Le Caire, 1937-1945, 3 vol.
- al-Ḥuṣanî*, *Historia de los Jueces de Cordoba*, texte arabe et trad. esp. par J. Ribera, Madrid, 1914. En abrégé : *al-Ḥuṣanî*, *Jueces*, *al-Ḥuṣrî* (Abu-l-Ḥasan), *Yâ laïla-ṣ-Ṣabb l*, éd. Muḥyi ad-Din Riḍâ, le Caire, 1343 = 1924.
- al-Ḥuṣrî* (Abû Ishâq), *Zahr al-adâb wa-ṣamar al-aḥbâb*, éd. Zakî Mubârak, le Caire, 1344 = 1925, 4 vol.
- Al-Ḥuwârazmî*, *Mafâṭih al-'ulûm*, éd. G. Van Vloten, Leyde, 1895 ; éd. du Caire, 1942.
- Ibn al-Abbâr, *al-Ḥullat as-siyarâ'*, Extraits :
in Dozy, *Notices*, pp. 30-260 ;
in Dozy, *Abbad.*, II, 46-123 ;
in Dozy, *Recherches*¹, passim ; *Recherches*², passim ;
in Dozy, *Corrections*, pp. 81, 98-105, 112-123 ;
in M. J. Müller, *Beiträge*, pp. 181-360 ;
in Amari, *Bibliotheca arabo-sicula*, pp. 327-332.
- *Ftâḥ al-kullâb*, ms. de l'Escurial, n° 1731 ; ms. de Rabat, n° 409 ; ms. de Londres (British Museum), n° 6641.
- *al-Takmila li-kutâb aṣ-Ṣila*. Extraits publiés :
par Codera, in *B. A. H.*, tomes V-VI, Madrid, 1887-1890 ;
par Alarcón et González Palencia, in *Miscelanea*, Madrid, 1915 ;
par Bel et Ben Cheneb, Alger, 1920.
- Iḡdâb Tuḥfat al-qâdim*, texte arabe publié par Alfredo Boustany, dans *Al-Muchriq*, 1947, juillet-septembre, pp. 351-400 ; octobre-décembre, pp. 543-585.
- Ibn 'Abd al-Barr, *Muḥṭaṣar ḡāmi' bayân al-'ilm*, le Caire, 1320.
- Ibn 'Abd al-Mun'im al-Ḥimyarî, *ar-Rawḍ al-mi'âr ft ḥabar al-aḳḫâr* : *La*

Péninsule ibérique au Moyen Age, texte arabe et traduction française annotée, par E. Lévi-Provençal, Leiden, 1938.

Ibn 'Abd Rabbih al-Andalusi, *al-'Iqd al-farid*, Bûlâq, 1293, 3 vol. ; éd. critique par A. Amin, A. az-Zin et I. al-Abyârî, Le Caire, 1357-1369 = 1938-1950, 6 vol.

Ibn 'Abdûn, *Traité de Hisba : Un document sur la vie urbaine et les corps de métier à Séville au début du XII^e siècle*, publié avec une introduction et un glossaire par E. Lévi-Provençal, in J. A., avril-juin 1934, pp. 177-299.

— trad. française avec une Introduction et des Notes par E. Lévi-Provençal, sous le titre : *Séville musulmane au début du XII^e siècle : Le Traité d'Ibn 'Abdûn* (Islam d'Hier et d'Aujourd'hui. Vol. II), Paris, 1947.

— trad. italienne annotée par F. Gabrieli, sous le titre : *Il trattato censorio di Ibn 'Abdûn sul buon governo di Siviglia*, in *Rendiconti della R. Accademia nazionale dei Lincei, Classe di Scienze morali, storiche e filologiche*, Serie Sesta, Vol. XI, fasc. 11-12, nov.-dic. 1935, pp. 878-935.

— V. Ibn Badrân.

Ibn Abi 'Awn, *Kitâb al-Taṣḥihât*, éd. annotée par M. Abdul Mu'id Khan (*Gibb Memorial-N.S.* — Vol. 17), Londres, 1950.

Ibn Abi Dinâr, *Kitâb al-mu'nis ft aḥbâr Ifriqiya wa-Tûnis*, 2^e éd., Tunis, 1350 ; trad. franç. par Pellissier et Rémusat (*Exploration scientifique de l'Algérie*, t. VI), Paris, 1845.

Ibn Abi Ḥaḡala, *Kitâb sukkardân as-Suḡlân*, en marge d'al-'Amili, *Asrâr al-balâja*, à la suite d'al-'Amili, *Kitâb al-mihlâl*, le Caire, 1317.

Ibn Abi Zar', *Rawḍ al-Qirâs*, texte arabe et trad. latine par Tornberg, Upsal, 1843-1846, 2 vol. ; trad. Beaumier, Paris, 1860. En abrégé : *al-Qirâs*.

Ibn 'Adhârî (pour Ibn 'Iqdât). V. *Corrections de Dozy* ; Ibn 'Iqdârî.

Ibn al-'Arabi, *Muḥâḡarât al-ubrâr wa-musâmarât al-ahyâr ji-t-adabyyâl wa-n-nawâtir wa-i-aḥbâr*, le Caire, 1324-1325, 2 vol.

Ibn al-Aḡîr, *Annales du Maghreb et de l'Espagne*, trad. Fagnan, Alger, 1901 :

— *al-Kâmil ji-t-ta'rîḡ* : *Chronicon*, éd. par Tornberg, Leyde et Upsal, 1850-1874, 12 vol.

Ibn Badrân, *Sharḥ Quṣṣidat Ibn 'Abdûn : Commentaire historique du poème d'Ibn 'Abdûn*, éd. par Dozy, Leyde, 1846.

Ibn al-Baitâr, *Gâmi' muṣṣadât ul-adwiya wa-l-aḡḡiya* : *Traité des Simples*,

trad. par Lucien Leclerc, in *Notices et Extraits*, t. XXIII, XXV et XXVI, Paris, 1877-1883.

Ibn Baškuwâl, *as-Šila*, éd. par Codera (*B. A. E.*, t. I-II), Madrid, 1882-1883.

Ibn Bassâm, *ad-Dahira ft maḥâsin ahl al-ğaz ra* ;

T. I : ms. de la Bibliothèque nationale de Paris, n° 3321 ;

— : ms. de la Bibliothèque du Protectorat de Rabat (non inventoriée) ;

— : ms. de M. Lévi-Provençal ;

T. II : ms. d'Oxford ; Extraits in *Abḥad*, I, 180-379 ;

— : ms. d'Oxford : copie à la Bibliothèque nationale de Paris, n° 322 ; ms. de Tunis, Mosquée Zaitûna.

T. III : ms. de Gotha ;

— ms. de Fès, Mosquée d'al-Qarawiyyîn ;

T. IV : ms. de Fès, Mosquée d'al-Qarawiyyîn ;

Extraits des quatre tomes dans un ms. de M. Lévi-Provençal.

— éd. du Caire, en cours de publication, sous la direction de 'Abd al-Ḥamid al-'Ibâdî, 'Abd al-Wahhât 'Azzâm, Ṭâhâ Jusain et E. Lévi-Provençal, Vol. I, tome 1, 1358 = 1939 ; Vol. I, tome 2, 1361 = 1942 ; Vol. IV, tome 1, 1364 = 1945.

Ibn Baṭṭûṭa, *Rihla* : *Voyages*, texte arabe et trad. française par Ch. Deffrèrny et Dr. B. R. Sanguinetti, Paris, 1853-1859, 5 vol.

Ibn Dihya, *al-Muḥrib ft as'âr ahl al-Mağrib*, ms. du British Museum, n° 1631.

Ibn Faḍl Allâh al-'Umari, *Masâlik al-ab'âr* : t. I, l'Afrique, moins l'Égypte, trad. annotée par Gaudefroy-Demombynes (*Bibliothèque des Géographes arabes*, publiée sous la direction de G. Ferrand, t. II), Paris, 1927 ;

— *Masâlik al-ab'âr* : Analyse par A. Zaki, in *Homenaje a Codera*, pp. 165-473.

— *Extrait* : *Wasf Ifriqiya wa-l-Andalus*, par H. H. 'Abd al-Wahhâb, Tunis, s. d.

— *Extraits*, trad. par Fagnan, in *Extraits inédits relatifs au Maghreb*, pp. 69-120.

— V. Colin (G. S.).

Ibn Ġarsiya, *ar-Risâla as-su'ûğiya*, extraits par I. Goldziher, in *Z. D. M. G.*, Vol. LIII (1899), pp. 610-617.

Ibn Ġâlib, *Farḥat al-Anfus*, extraits in *Anaficles*.

Ibn Ġubair, *Rihla* : *Travels*, éd. de Goeje, Leyde, 1907.

V. Ibn Jobair.

Ibn Ġuzmân. V. Ibn Ġuzmâr.

- Ibn Hafağa, *Diwân*, le Caire, 1286, t. I (seul paru).
- *Si'r*, éd. voyellée et annotée, par Karam al-Bustâni, Beyrouth, 1951 (mêmes poèmes que l'éd. du Caire, 1286).
 - *Diwân*, texte complet, ms. personnel.
- Ibn Hair (Abû Bâkr), *Fahrasat mâ rawâh 'an šuyûhith min ad-dawâwîn al-muğannağa fi ġurûb al-'ilm wa-annawâ' al-ma'ârif* ; *Index librorum de diversis scientiarum ordinibus quos a magistris didicit*, éd. par J. Ribera Tarrago (B. A. H., t. IX-X), Saragosse, 1894-1895. — En abrégé : Ibn Hair, *Index*.
- Ibn Haiyân, *al-Muġtaba*. Tome Troisième. *Chronique du règne du Calife umayyade 'Abd Allâh à Cordoue*, texte arabe, éd. par le P. Melchor M. Antuña, Paris, 1937.
- Ibn Haldûn, *Kiġâb al-'Ibar wa-dhiwân al-muġtaba' wa-l-ġabar fi ayyâm al-'Arab wa-l-'Ağam wa-l-Barbar wa-man 'ašarahum min ġawf as-sullân al-akbar*, Bâlâq, 1284, 7 vol. En abrégé : Ibn Haldûn, *Kiġâb al-'Ibar*.
- *Histoire des Berbères* (Extraits du *Kiġâb al-'Ibar*), texte arabe par de Slane, Paris, 1847-1851, 2 vol. ; trad. française par de Slane, Paris, 1852-1856, 4 vol. ; 2^e éd. en cours de publication, Paris, 1925 sq. (3 vol. parus).
 - *al-Muqaddimâ* : *les Prolégomènes*, texte arabe par Quatremère (in *Notices et Extraits*, vol. 16-17-18), Paris, 1858-1868 ; éd. de Beyrouth, 3^e éd., 1900 ; du Caire, s. d. ; trad. française par de Slane (in *Notices et Extraits*, vol. 19-20-21), Paris, 1862-1868.
 - *al-Ta'rif wa'r-Riġla ġarbâ wa-šarqâ*, éd. critique par Muġammiad ibn Tâwīt aġ-Taġġi. Le Caire, 1370 = 1951.
- Ibn Ĥallikân, *Wafayât al-a'ğân*, texte arabe, le Caire, 1310, 2 vol., trad. anglaise par de Slane, Paris-Londres, 1843-1871, 4 vol.
- autre éd. au Caire, 1367 = 1948, 6 vol. ;
- Ibn Ĥamdis, *Diwân* : *Il Canzoniere*, éd. par Schiaparelli, Rome, 1837.
- *Le palais d'al-Manšour à Bougie*, poème traduit en français par L. Bercher, in *Revue Tunisienne*, tome 29 (1922), pp. 50-56.
- Ibn Ĥâni', *Diwân*, éd. de Beyrouth, 1326 ; éd. par Zâhid 'Alî, le Caire, 1934.
- Ibn Ĥâqân. V. al-Faġh ibn Ĥâqân.
- Ibn al-Ĥaġib (Lisân ad-Dîn), *A'mâl al-a'lâm šunan buyt'a ġabl al-iġtilâm min mulâk al-islâm wa-mâ yağurr ġalik min šuğûn al-kalâm* : ms. de la Bibliothèque nationale d'Alger, n° 1617.
- *Histoire de l'Espagne musulmane extraite du Kiġâb A'mâl al-A'idm*,

texte arabe publié avec introduction et index, par E. Lévi-Provençal (*Collection de textes arabes publiée par l'Institut des Hautes Etudes marocaines*, vol. III), Rabat, 1934. En abrégé : *A'mâl*.

- *al-Iḥāfa fi aḥbār Ġarnāḥa*, le Caire, 1319, 2 vol. ; ms. de la Bibliothèque nationale de Paris, n° 3347.
- *al-Lamḥat al-badriyya fi-d-dawlat an-naṣ-ṣiyya*, le Caire, 1347.

Ibn Ḥātima. V. Colin (G. S.).

Ibn Ḥawqal, *Kitāb al-masālik wa-l-mamālik* (B. G. A., t. II), Leyde, 1873 ; 2^e éd., par J. H. Kramers, Leyde, 1938, 2 vol.

- *Description de l'Afrique*, traduction française par De Slane, in J. A., 3^e série, tome 13 (1842), pp. 153-196 ; 209-258.

Ibn Ḥayyān. : V. Ibn Ḥalyān.

Ibn Ḥāzim al-Qartāḡannī. V. Abu-l-Qāsim al Ġarnāṭī.

Ibn Ḥazm, *Risāla*, in *Analectes*, II, pp. 109-121.

- *Ġamharat ansāb al-'Arab*, ms. de Paris, Bibliothèque nationale, n° 5829 ; ms. de Rabat, Bibliothèque du Protectorat, n° 365.
- *Ġamharat ansāb al-'Arab* (Collection : *Deḡā'ir al-'Arab*. — Vol. II), éd. critique par E. Lévi-Provençal, Le Caire, 1368 = 1948.
- *Tawq al-ḥamāma fi-l-ullāf wa-l-ullāf*, texte arabe par Pétrof, Leyde, 1914 ; autre éd. à Damas, 1349.
- trad. anglaise, par A. R. Nykl, *The Dove's Neck-Ring about Love and Lovers*, Paris, 1931 ;
- trad. italienne, par Fr. Gabrieli, *Il Collare della Colomba sull'Amore e gli Amanti*, Bari (Italia), 1949 ;
- trad. française, par L. Bercher *Le Collier du Pigeon ou de l'Amour et des Amants* (Bibliothèque Arabe-Française. — Vol. VIII), Alger, 1949 ;
- trad. espagnole, par E. Garcia Gómez, *El Collar de la Paloma, tratado sobre el Amor y los Amantes*, Madrid, 1912.
- V. Asín Palacios.

Ibn Hišām al-Baṣrī, *Strat ar-Rasūl*, Le Caire, 1329, 5 vol. ; éd. de Gottingen, par G. Wostenfeld, 1858-1860, 2 vol.

Ibn Hudāil al-Andalusī, *Ḥilyat al-jursān wa-ṣ-ṣār as-ṣuḡ'ān*, texte arabe lithographié, Paris, 1921 ; trad. française annotée par Louis Mercier, *La parure des cavaliers et l'insigne des pœux*, Paris, 1924.

Ibn 'Idārī, *al-Bayān al-muḡrib fi aḥbār al-Maḡrib*, t. I-II, texte arabe par Dozy, Leyde, 1848-1851, trad. française, par Fagnan, Alger, 1901-1904 ; t. III, texte arabe par Lévi-Provençal (*Textes arabes relatifs à l'Histoire*

- de l'Occident musulman, vol. II), Paris, 1930 ; trad. française des 37 premières pages, avec quelques coupures, par Lévi-Provençal, in *H. M. E.*, t. III, pp. 185-214. — Nouvelle éd. du texte arabe par G. S. Colin et E. Lévi-Provençal, Leiden, 1948-1951, 2 vol. parus.
- V. *Corrections...* de Dozy.
- Ibn Jobair, *Voyages*, traduits et annotés par Maurice Gaudefroy-Demombynes (Documents relatifs à l'histoire des Croisades, publiés par l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres. — Vol. IV-V), Paris, 1949-1951, 2 vol. à pagination unique.
- Ibn Kardabâs, *al-Iktifâ' fî aḥbâr al-ḥulafâ'*, extraits in *Abbad.*, II, II-27.
- Ibn Luyân, *Lamḥ as-siḥr min Rûḥ as-si'r*, ms. de Rabat, Bibliothèque du Protectorat, n° 1033.
- Ibn Manẓûr, *Lisân al-'Arab*, Bûlâq, 1300-1308, 20 vol.
- Ibn al-Mawâ'inî, *Raiḥân al-albâb wa-rai'ân as-sabâb*, extraits in *Abbad.*, II, 1-10.
- Ibn al-Mu'tazz, *Diwân*, Beyrouth, 1331.
- *Fuṣûl al-tamâṭil fî tabâṣîr as-surûr*, Le Caire, 1344 = 1925.
- Ibn al-Qifṭî, *Ta'rîḥ al-ḥukamâ'*, éd. par J. Lippert, Leipzig, 1903.
- Ibn Qutaiba, *aṣ-Ṣi'r wa's-su'arâ'*, éd. par de Goeje, Leyde, 1904.
- *'Uyûn al-aḥbâr*, le Caire, 1343-1349 = 1925-1930, 4 vol.
- *Muqaddimat Kitâb aṣ-ṣi'r wa's-su'arâ'* : *Introduction au Livre de la Poésie et des Poètes* (Collection arabe de l'Association Guillaume Budé), texte arabe avec Introduction, Traduction et Commentaire, par Gaudefroy-Demombynes, Paris, 1947.
- Ibn al-Qûṭiyya, *Historia de la conquista de España*, texte établi par Gayangos, trad. espagnole par J. Ribera, Madrid, 1926.
- Ibn Quzmân, *Diwân : Cancionero*, texte arabe publié en phototypie par D. de Gunzburg, fasc. 1 (seul paru), Berlin, 1896 ; en transcription, précédé d'une étude et suivi d'une trad. partielle, par A. R. Nykl (*Publicaciones de las Escuelas de estudios árabes de Madrid y Granada*, Serie A, n° 1), Madrid-Grenade, 1933.
- Ibn Rašîq, *al-'Umda*, le Caire, 1325 = 1907, 2 tomes en 1 vol.
- Ibn ar-Rûmî, *Diwân : Extraits choisis* par Kâmil Kilânî, le Caire, 1342 — 1924, 3 tomes en 1 vol.
- *Diwân*, éd. critique par Muḥammad Šarîf Salîm, Le Caire, 1917-1922, 2 vol. (rimes *â* à *ḥâ*).
- Ibn as-Saġarî, *al-Ḥamâsa*, éd. par F. Krenkow, Hyderabad (Dekkan), 1345.
- Ibn Sahl, *Diwân al-aḥkâm al-kubrâ*, ms. d'Alger, Bibl. nationale, n° 1332.

- Ibn Se'îd al-Mağribî, *'Unwân al-murqîšât wa l-muğribât*, Bûlâq, 1286 ; *Modèles de vers « à danser et à rire »*, texte et traduction annotée par A. Mahdad (Bibliothèque Arabe-Française. — Vol. IV), Alger, 1949.
- *Ĥayât al-mubarrizîn wa-ğâyât al-mumayyizîn* : *El libro de las Escuderías de los Campeones*, éd. et trad par E. García Gómez, Madrid, 1942.
- Ibn Šâkir al-Kutubî, *Fawât al-Wafayât*, Bûlâq, 1233, 2 vol.
- Ibn Sanâ' al-Mulk, *Dâr al-Firâz* : *Poétique du Muwaššah*, éd. critique par Jawdat Rikabi, Damas, 1949.
- Ibn aš-Šihna, *ad-Durr al-muntaḥab fi ta'rîḥ Ḥalâl* : *Les perles choisies. Matériau pour servir à l'histoire de la ville d'Alep*, trad. française par J. Sauvaget (Mémoires de l'Institut Français de Damas), Beyrouth, 1933.
- Ibn Šuhaid (Abû 'Amir) al-Andalusî, *Risâlat a'-tawâbi' wa'z-zawâbi'*, éd. par Buṭrus al-Bustânî, Beyrouth, 1951.
- Ibn Thofail, *Ḥayy ben Yağdhân* : *Roman philosophique*, édition critique du texte arabe avec traduction française annotée, 2^e éd., par Léon Gautier (Publications de l'Institut d'Etudes Orientales... d'Alger. — Vol. III), Beyrouth, 1936.
- Ibn Ya'îs, *Šarḥ al-Mu'ašṣal*, éd. par Jahn, Leipzig, 1882-1886.
- Ibn Zâfir, *Badâ'i' al-badâ'ih*, Bûlâq, 1278.
- Ibn Zaidûn, *Diwân*, éd. par Kâmil Kilâni et 'Akd ar-Raḥmân Ḥalîfa, Le Caire, 1351 = 1932 ; éd. par Karam al-Bustânî, Beyrouth, 1951.
- Ibn Zâkûr, *Šarḥ Qalâ'id al-'iqyân*, ms. personnel.
- al-Isbîhî. V. al-Abšihî.
- Idris (H. R.), *Contribution à l'histoire de l'Ifrîkiya. Tableau de la vie intellectuelle et administrative à Kairouan sous les Aglabites et les Fatimites (quatre premiers siècles de l'hégire) d'après le Riyâḍ En Nujûs de Abû Bakr El Mâlikî*, in R. E. I., 1935, cahier II, p. 105-178 ; cahier III, p. 273-305 ; 1936, cahier I, p. 45-104.
- al-Idrîsî, *Description de l'Afrique et de l'Espagne*, texte arabe et trad. française par Dozy et de Goeje, Leyde, 1866.
- al-Iktifâ' fi aḥbâr al-ḥulafâ'* : V. Ibn Kardabûs.
- 'Imâd ad-Dîn al-Išfahâni, *Ḥarîdat al-qaṣr wa-ḥarîdat ahl al-'aṣr*, ms. de Paris, Bibl. nationale, nos 3330-3331 ; Extrait, in *Abbad.*, I, 383-423.
- Imru'l-Qais, *Diwân*, éd. par as-Sandûhî, Le Caire, 1349 = 1930.
- Islam d'Hier et d'Aujourd'hui*. V. Blachère ; Levi-Provençal ; Pellat.
- L'Islam et l'Occident. Cahiers du Sud*, Paris, 1917.
- Islamica*. V. Hell ; al-Ĥâtimi.

- al-Istibṣār fī 'aḡā'ib al-amṣār*, texte arabe par Kremer, Vienne, 1852 ; trad. française par Fagnan, Constantine, 1900.
- J. A. : *Journal asiatique*. V. Abū Ḥāmid al-Andalusī ; Amari ; Bel ; Caussin de Perceval ; Clément-Mullet ; Dugat ; Ibn 'Abdūn ; Lammens ; Mehren ; Munk ; Quatremère ; de Slane ; al-Tiḡānī.
- Jahn. V. Ibn Ya'īš.
- Jeanroy (A.), *La poésie lyrique des Troubadours*, Toulouse-Paris, 1934, 2 vol.
- Joret (Ch.), *La rose dans l'antiquité et au moyen âge*, Paris, 1892.
- *Les plantes dans l'antiquité et le moyen âge*, Paris, 1897, 2 vol.
- Journal des Savants*. V. Hasset (R.) ; Marçais (G.).
- al-Kātib al-Miṣrī*. V. Lévi-Provençal.
- al-Kattānī (Muhammad ibn Ġa'far ibn Idrīs), *Subḥat al-anfās wa-muḥādḍat al-akḡās bi-man aḡbara min al-'ulamā wa-s-ṣulahā' bi-Fās*, Fès, 1316, 3 vol.
- Kilānī (Kāmil), *Nazarāt fī ta'rīḥ al-akub al-andalusī*, le Caire, 1342 = 1924.
- V. Ibn ar-Rūmī ; Ibn Zaidūn.
- Kināny (A. Kh.), *The Development of Gazar in Arabic Literature (Pre-Islamic and Early Islamic Periods)*, Damas, 1951.
- Kramers (J. H.). V. Ibn Hawqal.
- Kratchkowsky (I.), Compte rendu de la 1^{re} éd. de *La Poésie andalouse*, in *L'Orientalisme soviétique*, Moscou-Léninegrad, Tome III (1945), pp. 288-291.
- Kremer (F. von). V. *al-Istibṣār*.
- Krenkow (F.). V. Ibn aṣ-Ṣaḡarī
- Kurd 'Alī (M.), *Ġābir al-Andalus wa-ḥādīruhā*, le Caire, 1341 = 1923.
- *Ġarā'ib al-Ġarb*, le Caire, 2^e éd., 1341 = 1923.
- *al-Islām wa-l-ḥādārat al-'arabiyya*, le Caire, 1934-1936, 2 vol.
- *al-Qadīm wa-l-ḥadīth*, le Caire, 1343 = 1925.
- *Rasā'il al-buluḡā'*, le Caire, 1331 = 1913.
- Lafuente y Alcantara (E.). V. *Aḡbār Maḡnā'a*.
- Lammens (H.), *L'attitude de l'Islam primitif en face des arts figurés*, in J. A., 11^e série, t. VI (1915), pp. 239-279.
- *Le berceau de l'Islam*, t. I, Rome, 1914.
- *Etudes sur le règne du calife omayyade Mu'āwīa I^{er}*, in *Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth*, t. II, 1907.
- Laoust (E.), *Mots et choses berbères. Notes de linguistique et d'ethnographie. Dialectes du Maroc*, Paris, 1920.
- Leclerc (L.). V. Ibn al-Baitār.

- Le Gentil (P.), *A propos de la « strophe zéjélesque », in Revue des Langues Romanes*, Tome LXX, 1949, pp. 119-134.
- Léon l'Africain, *Description de l'Afrique, tierce partie du monde*, éd. par Schefer, Paris, 1896-1898, 3 vol.
- Lerchundi (J.) et Simonet (J.), *Crestomatta arábigo-española*, Grenade, 1881.
- Lévi-Provençal (E.), *Alphonse VI et la prise de Tolède (1085)*, in *Hespéris*, XII (1931), pp. 33-49; reproduit dans *Islam l'Occident*, du même auteur, Paris, 1948, pp. 109-135.
- *L'Espagne musulmane au X^e siècle. Institutions et vie sociale*, Paris, 1932.
- *Fragments d'une chronique des Mulúk al-Tawá'if*, texte arabe in *al-Bayán*, t. III, pp. 289-316; trad. française in *H. M. E.*, t. III, Appendice II, 215-235.
- *Les Historiens des Chorfa*, Paris, 1922.
- *Inscriptions arabes d'Espagne*, avec quarante-quatre planches en phototypie, Leyde-Paris, 1931, 2 vol.
- *Un nouveau texte d'histoire mérinide : le Musnad d'Ibn Marzûq*, in *Hespéris*, V (1925), pp. 1-32.
- *Sur de nouveaux manuscrits de la *Dahtra* c'Ibn Bassâm*, in *Hespéris*, XVI (1933), pp. 158-161.
- *Un texte inédit sur l'histoire de l'Espagne musulmane dans la seconde moitié du XI^e siècle, les Mémoires de 'Abd Allâh, dernier roi ziride de Grenade*, fragments publiés d'après le manuscrit de la Bibliothèque d'al-Qarawiyîn à Fès, avec une introduction et une traduction française, in *Al-Andalus*, Madrid-Grenade, vol. III, fasc. 2 (1935), pp. 233-344 ; vol. IV, fasc. II (1936), pp. 29-145.
- *Poésie arabe d'Espagne et poésie d'Europe médiévale*, dans *Islam d'Occident*, du même auteur, Paris, 1948, pp. 28-304.
- *Turâf al-Andalus*, en arabe, in *al-Kâtib al-M. šrî*, Le Caire, janvier 1947, pp. 611-623 ; en français, sous le titre : *Le rôle spirituel de l'Espagne musulmane*, dans *Islam et Occident*, du même auteur, Paris, 1948, pp. 305-318.
- *Islam d'Occident. Etudes d'histoire médiévale* (Islam d'Hier et d'Aujourd'hui. — Vol. VII), Paris, 1948.
- *Chroniques ciditennes. Lettre à D. Ramon Menendez Pidal*, in *Estudios dedicados a Menendez Pidal*, Madrid, 1950, 11 pages.
- *Le rôle de la Marche supérieure dans l'histoire politique de l'Espagne califienne*, in *Pireneos*, Zaragoza, 1950, 18 pages.

- En relisant le « Collier de la Colombe », in *Al-Andalus*, Madrid, Vol. XV (1950), fasc. 2, pp. 335-375.
- *Histoire de l'Espagne musulmane*. — I. *La conquête et l'Emirat hispanomayade (710-912)*. — II. *Le Califat umayyade de Cordoue (912-1031)*, 2^e éd., Paris-Leiden, 1950, 2 vol. — III. *Le siècle du Califat de Cordoue*, Paris, 1953.
- V. 'Abd Allāh le Ziride ; Ibn 'Abd al-Mun'im al-Ḥimyarī ; Ibn 'Abdān ; Ibn Bassām ; Ibn al-Ḥaṭīb ; Ibn Ḥazm ; Ibn 'Idārī ; *Maṣāḥir al-Barbar* ; as-Saqaṭī ; *Una crónica anonima*.
- E. Lévi-Provençal, E. García Gómez y J. Oliver Asín, *Novedades sobre la Batalla llamada de Al-Zallāqa (1086)*, in *Al-Andalus*, Vol. XV (1950), fasc. 1, pp. 111-155.
- Lippert (J.). V. Ibn al-Qifī.
- Lisān : Ibn Manẓūr, *Lisān al-'Arab*, Būlāq, 1300-1308, 20 vol.
- Longus, *Daphnis et Chloé*, éd. des Belles-Lettres, Paris, 1934.
- Luya (A.). V. as-Šaḡundī.
- al-Ma'arri (Abu-l-'Alā'), *Risālat al-ḡufrān*, Le Caire, 1323-1907. ; éd. critique par Bint as-Šāfi' (Daḥā'ir al-'Arab. — Vol. IV), Le Caire, 1950.
- Machuel (L.). *Les auteurs arabes*, in *Lectures littéraires. Pages choisies des grands écrivains*, coll. publiée par A. Colin, Paris, 1912.
- Mahdad (A.). V. Ibn Sa'id ; Šafwān ibn Idrīs.
- Maṣāḥir al-Barbar*, Fragments historiques sur les Berbères au moyen âge, éd. par Lévi-Provençal (*Collection de textes arabes publiée par l'Institut des Hautes Etudes Marocaines*, Vol. I), Rabat, 1934.
- Maḡmū'a adabīyya*, Constantinople, 1302. V. as-Suyūṭī.
- Magnin (Ch.), *Hrosvita*, in *Revue des Deux-Mondes*, 15 novembre 1839.
- al-Maidānī, *Maḡma' al-amṣāl*, Būlāq, 1284, 2 vol.
- al-Maimani ar-Rāḡakūti, *an-Nuṭaj min šīr Ibn Ḥašiq wa-zamālik Ibn Šaraf*, le Caire, 1343.
- al-Mālikī (Abū Bakr), *Kitāb Riḡāḡ an-Nuṣūs*, éd. par Ḥusain Mu'nis, Le Caire, 1951.
- V. Idrīs (H. R.).
- Malo de Molina, *Rodrigo el Campeador*, Madrid, 1857.
- Ma'n ibn Aws, *Diwān*, éd. par Schwarz, Leipzig, 1903 ; éd. par Kamāl Muṣṭafā, le Caire, 1927.
- Manuel (D. Juan). V. *El Conde Lucanor*.
- al-Maqqisī. V. al-Muqaddasī.
- al-Maqqari, *Aḫḫār ar-riḡāḡ fī aḫbār al-qādī 'Iyād*, Tunis, 1322, t. I (seul paru) ; Le Caire, 1358 = 1939, 3 vol.

- *Nafḥ al-ḥib min ḡusn al-Andalus ar-raḥib wa-ḡīkr wazirihā Lisān ad-Dīn Ibn al-Ḥafḥ*, Būlāq, 1279 (= 1862), 4 vol. ; le Caire, 1302 (= 1884), 4 vol. ; Leyde, 1855-1861 : 2 vol. (1^{re} moitié seulement). En abrégé : éd. du Caire : *Nafḥ al-ḥib* ; éd. de Leyde : *Anal.* ou *Analectes*. — Ed. par M. Muḥyī ad-Dīn 'Abd al-Ḥamīd, Le Caire, 1367 = 1949, 10 vol.
- V. Dugat ; Gayangos ; Massé.

al-Maqrīzī. V. Quatremère.

Marçais (G.), *Les Arabes en Berbérie du XI^e au XIV^e siècle*, Constantine-Paris, 1913.

- *Le costume musulman d'Alger (1830-1930) (Collection du Centenaire de l'Algérie. Archéologie et Histoire)*, Paris, 1930.
- *Echanges artistiques entre l'Égypte et l'Islam occidental*, in *Hespéris*, XIX, fasc. 1-2 (1934), pp. 95-106.
- *Les figures d'hommes et de bêtes dans les bois sculptés d'époque fatimide conservés au Musée du Caire*, in *Mélanges Maspero*, vol. III (*M.I.F.A.O. du Caire*, t. LXVIII), pp. 241-257.
- *Manuel d'art musulman. L'architecture. Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile*, Paris, 1926-1927, 2 vol.
- *Note sur les ribāts en Berbérie*, in *Mélanges René Basset*, Paris, 1925, t. II, 395-430.
- *La question des images dans l'art musulman*, in *Byzantion*, t. VIII, fasc. I (1932), pp. 161-183.
- *Sur un bas-relief musulman du Musée Stéphanie Gsell*, in *Annales de l'Institut d'Études orientales... d'Alger*, t. I (année 1934-1935), Paris, 1935, pp. 162-175.
- *La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen Âge (Les Grandes Crises de l'Histoire)*, Paris, 1946.
- *La poésie andalouse au XI^e siècle*, *Compte rendu de la 1^{re} éd. de La poésie andalouse*, in *Journal des Savants* (Paris), janvier-février 1939, pp. 14-30.

Marçais (G.), V. Diehl (Ch.).

Marçais (W.), *Le dialecte arabe parlé à Tlemcen (Publications de l'École des Lettres d'Alger, t. XXVI)*, Paris, 1932.

- *Observations sur le texte du « Tūmūq al-ḥamḥūna » (« le Collier de la colombe ») d'Ibn Ḥazm* in *Mémoires René Basset*, t. II, Paris, 1928, pp. 59-98.
- *Textes arabes de Takrouina (B. E. L. O. I., t. VIII)*, Paris, 1925.
- V. al-Tiḡānī.

- Marçais (W. et G.), *Les monuments arabes de Tlemcen*, Paris, 1903.
- Mármol Carvajal, *Historia del rebelión y castigo de los Moriscos del Reyno de Granada*, Madrid, 1797, 2 vol.
- al-Marrákušī ('Abd al-Wāhid), *al-Mu'ǧib fi taḥṣiṣ al-'arṣ al-Maǧrib*, texte arabe par Dozy, Leyde, 2^e éd., 1881 ; éd. du Caire, 1324 = 1906 ; trad. française par Fagnan, *Histoire des Almohades*, in *Revue africaine*, 1891-1893, tirage à part, Alger, 1893. En abrégé : al-Marrákušī, *Hist. Almoh.*
- Martinenche (E.), *Propos d'Espagne*, Paris, 1905.
- Martino (P.), *L'Orient dans la littérature française au XVI^e et au XVII^e siècle*, Paris, 1906.
- Maspero (Jean) et Wiet (Gaston), *Matériaux pour servir à la géographie de l'Égypte*, in *Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale*, Vol. XXXVI, Le Caire, 1914-1919.
- Masse (H.), *Un chapitre des Azalétes d'al-Maqqarī sur la littérature descriptive chez les Arabes*, in *Mélanges René Basnet*, t. I, Paris, 1923, pp. 235-238.
- *Les épopées persanes. Firdousi et l'épopée nationale*, Paris, 1935.
 - *Ibn Zaidūn*, in *Hespéris*, t. I (1921), pp. 183-193.
 - *Anthologie persane (XI^e-XIX^e siècles)*, Paris, 1930.
 - V. *L'âme de l'Iran*.
- Massignon (L.), *Les méthodes de réalisation artistique des peuples de l'Islam*, in *Syria*, 1921, pp. 5-22.
- *La passion d'al-Ḥusayn-ibn-Manṣūr al-Ḥallāj martyr mystique de l'Islam exécuté à Bagdad le 26 mars 922. Étude d'histoire religieuse*, Paris, 1922. En abrégé : Massignon, *al-Ḥallāj*.
- Recueil de textes inédits concernant l'histoire de la mystique en pays d'Islam, réunis, classés, annotés et publiés (Collection de textes inédits relatifs à la mystique musulmane, t. I)*, Paris, 1929.
- *Recherches sur Shuṣṣārī, prêtre andalous enterré à Damiette*, in *Mélanges William Marçais*, Paris, 1930, pp. 251-276.
 - V. *L'âme de l'Iran*.
- al-Mas'ūdī, *Murūǧ al-djāhāb : les Prairies d'or*, texte arabe et trad. française par Barbier de Meynard et Pavet de Courteille, Paris, 1872-1877, 9 vol.
- Maḥmah* : V. al-Faḥī ibn Ūqān, *Maḥmah al-anfus...*
- Mehren (A. F.), *Correspondance du philosophe soufi Ibn Sab'īn Abī al-Ḥaqq avec l'empereur Frédéric II de Hohenstaufen*, in *J. A.*, 7^e série, t. IV (1879), pp. 341-454.

— V. ad-Dimašqî.

Mélanges de la Faculté orientale de Beyrouth. V. Lammens.

Mélanges Gaudetroy-Demombynes, Le Caire, 1935-1945.

Mélanges Maspero. V. Marçais (G.) ; Pérès.

Mélanges René Bassel. V. Cour ; Gaudetroy-Demombynes ; Marçais (G.) ; Massé.

Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire (en abrégé : M. I. F. A. O.) Marçais (G.) ; Pérès.

Memorial Henri Bassel. V. Marçais (W.).

Memorias de la Real Academia de la Historia. V. Simonet.

Mendoza y Bobadilla, *El tizon de la Nobleza española y sambenitos de sus linajes*, Barcelona, 1880.

Menéndez y Pelayo (M.), *De las influencias semíticas en la literatura española* C. R. d'une étude de Fr. Fernández y Gonzalez — v. ce nom —, in *Obras completas. Estudios de critica literaria*, 2^e ed., in *Colección de escritores castellanos*, t. 106, Madrid, 1912.

Menéndez Pidal (R.), *La España del Cid*, Madrid, 1929, 2 vol.

— *Obras*. T. II : *Historia y epopeya*, Madrid, 1934.

— *Orígenes del español*, 2^e éd., Madrid, 1929.

— *Poesía juglaresca y juglares*, Madrid, 1924.

— *De la vida del Cid*, in *Revista de Occidente*, n^o 32 (février 1926).

— *Poesía árabe y poesía europea* (Colección Austral. — N^o 140), Madrid, 1941.

— *Cantos románicos andalusíes (continuadores de una lirica latina vulgar)*, in *Boletín de la Real Academia Española*, Tome XXXI, Cuaderno CXXXIII, Madrid, 1951.

— V. *Primera crónica general de España*.

Mercier (Louis). V. Ibn Hudail al-Andalusî.

Meunier (M.). V. *Anacréontiques*.

Mez (A.), *Die Renaissance des Islâms*, Heidelberg, 1922 ; trad. espagnole par Salvador Vila, *El Renacimiento del Islâm* (Publicaciones de las Escuelas de Estudios árabes de Madrid y Granada, Série A, n^o 4), Madrid-Grenade, 1936 ; — Trad. arabe par Muḥammad 'Abd al-Hâdf Abû Rîda, Le Caire, 1947-1948, 2 vol.

M. I. F. A. O. : *Mémoires de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire*. V. Marçais (G.) ; Pérès.

Migeon (G.), *Manuel d'art musulman. Arts plastiques et industriels*, Paris, 1927, 2 vol.

- Mihyâr ad-Dailamî, *Diwan*, le Caire, 1344-1350 = 1925-1931, 4 vol.
- Millas Vallierosa (José M.), *La poesía sagrada hebreaicoespañola*, Madrid, 1910 ; 2^e éd., 1919.
- *Tres polígrafos judaicos en la corte de los Turchibies de Zaragoza*, Barcelona, 1948.
- *La traduction casteliana del «Tratado de Agricultura» de Ibn Baṣṣâl*, in *Al-Andalus*, Vol. XIII (1948), fasc. 2, pp. 347-430.
- *La traduction casteliana del «Tratado de Agricultura» de Ibn Wâṣil*, in *Al-Andalus*, Vol. III (1943), fasc. 2, pp. 281-332.
- Miscelanea de estudios y textos árabes*, Madrid, 1915. En abrégé : *Miscelanea*. V. Ibn al-Abbâr.
- Monchicourt (Ch.), *Mœurs indigènes. Les rogations pour la pluie (Thilab en nâ)*, in *Revue tunisienne*, t. 22 (1915), 65-81.
- Morère (M.), *Les données historiques de l'influence de la poésie andalouse sur la lyrique des Troubadours*, in *Annales de l'Institut d'Etudes Occidentales*, N° 7 (1^{er} mai 1951), pp. 48-60.
- Motyliniski (A. de C.), V. Muḥammad al-Muqri.
- Mubârak (Zakî), *Ḥubb Ibn Abi Raḥ'a wa-si'ruh*, le Caire, 3^e éd., 1919.
- *al-Muwāḏzana bain as-su'arâ'*, Le Caire, 1344 = 1926.
- *La prose arabe au IV^e siècle de l'hégire (X^e siècle)*, Paris, 1931.
- *an-Naḥr al-fannî fi-l-qarn ar-râbi'*, le Caire, 1352 = 1934, 2 vol.
- Mubârak (Zakî), V. al-Ḥuṣrî (Abû Ishâq).
- Mudawwar (Ġamil), *Ḥaḏêrat al-islâm fi Dâr as-salâm*, Beyrouth, 1^{re} éd., 1888 ; 2^e éd., 1905 ; 3^e éd., 1932.
- Muḥammad al-Muqri, *Ta'rif manâzil al-qamar. Les mansions lunaires des Arabes*, texte arabe en vers, trad. et annoté par A. de C. Motyliniski, Alger, 1899.
- Müller (M. J.), *Beiträge zur Geschichte der westlichen Araber*, Munich, 1866-1878.
- V. Ibn al-Abbâr, *al-Hulla*.
- Munier (H.) et Wiet (G.), *L'Egypte byzantine et musulmane (Précis de l'Histoire d'Egypte, t. II)*, le Caire, 1932.
- Mu'nis (Ḥusain), V. al-Mâlikî.
- Munk (S.), *Notice sur Abou 'l-Wâlid Merwân Ibn Djanah et sur quelques autres grammairiens hébreux du X^e et du XI^e siècle*, in *J. A.*, 4^e série, t. 16, (1850), pp. 201-247.
- al-Muqaddasî, *Aḥsan al-taqâsim fi ma'rifat al-aqâlim. Descriptio imperii moslemici*, éd. par de Goeje, in *B. G. A.*, t. III, 2^e éd., Leyde, 1906.

- *Description de l'Occident musulman au X^e siècle*, texte arabe et trad. française annotée par Ch. Pellat (Bibliothèque arabe-française. — Vol. IX), Alger, 1950.

Al-Muṣṭabās, V. Anastase.

Muṣṭim ibn al-Walid, *Diwān*, éd. par de Goeje, Leyde, 1875.

Muṣṭafā (Kamāl). V. Ma'n ibn Aws.

al-Muṭalammis, *Diwān*, éd. par Vollers, Leipzig, 1903.

al-Mu'tamid, *Si'r* (à la suite d'Ibn Zaidūn, *Diwān*), le Caire, 1351 = 1932.

— V. Smith.

al-Mutanabbī, *Diwān*, avec le commentaire d'al-Ukbarī, Būlāq, 1287, 2 vol. ; éd. annotée par al-Barqūqī, le Caire, 1348 = 1930 ; éd. Ṣādir, Beyrouth, 1926.

— V. Blachère.

an-Nāṣirī as-Salāwī, *al-Istiqṣā li-ahbār duwal al-Maḡrib al-aqṣā*, le Caire, 1312, trad. française :

Tome I, par A. Graulle, in *Archives marocaines*, t. XXX (1923) ;

A. Graulle et G. S. Colin, in *Archives marocaines*, t. XXXI (1925) ;

Tome II, par I. Hamet, in *Archives marocaines*, t. XXXII (1927), t. XXXIII (1934) ;

Tome III, par Maḥammad en Nāciri, in *Archives Marocaines*, t. XXXIV (1936) ;

Tome IV, par E. Fumey, in *Archives marocaines*, t. IX-X (1906-1907).

an-Nawāḡī, *Ḥalbat al-kumail*, le Caire, 1209.

N. S. A. E. : *Nueva Biblioteca de autores españoles*. V. *Primera crónica general de España*.

Nicolson (R.), *A literary History of the Arabs*, Londres, 1914.

Nöldke (Th.), *Delectus veterum carminum arabicorum*, Berlin, 1890.

Notices et Extraits V. Ibn al-Baiṭār ; Ibn Ḥaldūn.

an-Nuwairī, *Nihāyat al-arab fi funūn al-ulaḥ*, éd. du Caire, 1923-1949 (15 vol. parus).

- *Historia de los Musulmanes de España y Africa* (Extrait de la *Nihāyat al-arab*), texte arabe et trad. espagnole par Gaspar Remiro (*Revista del centro de Estudios históricos de Granada y su Reino*), Grenade, 1917-1919, 2 vol.

Nykl (A. R.), *A Book containing the Hisāla known as The Dove's Neck-Ring about Love and Lovers*, trad. anglaise du *Tawq al-ḥamāma* d'Ibn Ḥazm avec une Introduction, Paris, 193 .

- *La poesia a ambos lados del Pirineo hacia el año 1100*, in *Al-Andalus*, Vol. I (1933), fasc. 2, pp. 355-408.
- *Hispano-arabic Poetry and its relations with the Old Provençal Troubadours*, Baltimore, 1946.
- *Maǧǧarāt min aš-šī'r al-andalusī*, Beyrouth, 1949.
- V. Abū Dāūd ; Ibn Ḥazm ; Ibn Quzmān.
- Oliver Asin (J.), *Origen árabe de rebato, arroba y sus homónimos. Contribución al estudio de la historia medieval de la táctica militar y de su léxico peninsular* (*Boletín de la real Academia española*, année XV, t. XI, pp. 347-395, 496-542), Madrid, 1928.
- V. Lévi-Provençal et García Gómez.
- Osma y Scull (G. J.), *Catálogo de azabaches compostelanos, precedido de apuntes sobre los amuletos contra el ojo, las imágenes del apostol-romero y la cofradía de los azabacheros de Santiago*, Madrid, 1916.
- Pavet de Courteille. V. al-Mas'ūdī.
- Pellissier et Rémusat. V. Ibn Abī Dīnār.
- P. E. L. O. V. : *Publications de l'Ecole des langues orientales vivantes*. V. al-Buḥārī.
- Pérès (H.), *L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610 à 1930* (*Publications de l'Institut d'Etudes orientales de la Faculté des Lettres d'Alger*, t. VI), Paris, 1937.
- *Le Kitāb al-imāma wa's-siyāsa et la réception des poètes par le khalīfa aineyyade 'Umar ibn 'Abd al-'Azīz d'après Ibn Qutaiba*, in *Revue arisienne*, n° 19-20 (1934), pp. 317-335.
- *Le palmier en Espagne musulmane. Notes d'après les textes arabes*, in *Mélanges Gaudelroy-Dernombynes*, le Caire, 1937, p. 225-239.
- *La poésie à Fès sous les Almoravides et les Almohades*, in *Hespéris*, t. XVIII-((993)), pp. 9-40.
- *La poésie arabe d'Andalousie et ses relations possibles avec la poésie des troubadours*, dans *L'Islam et l'Occident. — Cahiers du Sud*, Marseille-Paris, 1947, pp. 107-130.
- V. Abu-l-Walīd al-Ḥimyarī.
- Perron (Dr.), *Femmes arabes avant et depuis l'islamisme*, Paris et Alger, 1858.
- Petit-Dutaillis (Ch.) et Guinard (P.), *L'essor des Etats d'Occident (France, Angleterre, Péninsule ibérique)*, in *Histoire générale*, dirigée par G. Glotz. *Histoire du Moyen âge*, t. IV, 2^e partie Paris, 1937.
- Pétrof. V. Ibn Ḥazm.
- P. I. H. E. M. : *Publications de l'Institut des Hautes Etudes marocaines*. V.

- Brunot ; Renaud et Colin ; Šā'id al-Andalusī ; as-Saqaṭī ; Terrasse.
Pirænos. V. Lévi-Provençal.
- Pirenne (H.), Cohen (G.), Focillon (H.), *La civilisation occidentale au Moyen âge, du XI^e au milieu du XV^e siècle*, in *Histoire générale*, dirigée par G. Glotz, *Histoire du Moyen âge*, t. VIII, Paris, 1933.
- Platonov. V. Gaudefroy-Demombynes.
- Plus beaux textes arabes (Les)*, présentés par E. Dermenghem, Paris, 1931.
- Pons Boigues (F.), *Ensayo bio-bibliográfico sobre los historialores y geógrafos árabe-españoles*, Madrid, 1898. En abrégé : Pons Boigues, *Ensayo*.
- Prieto y Vives (A.), *Los reyes de taifas. Estudio histórico-numismático de los musulmanes españoles en el siglo V de la hégira (XI de J. C.)*, Madrid 1926.
- Primera crónica general de España*, éd. par R. Menéndez Pidal, in *N. B. A. E.*, t. V, Madrid, 1906.
- Publicaciones de las Escuelas de estudios árabes de Madrid y Granada*, Serie A ; Serie B. V. Ibn Quzmān ; Mez-Vila ; García Gómez ; as-Saḡundī.
- Publications de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes* (en abrégé : *P. E. L. O. V.*). V. al-Buḡārī et Houdas et Marçais (W.).
- Publications de la Faculté des Lettres d'Alger*. V. *ad-Daḡīra as-saniyya*, Marçais (W.).
- Publications de l'Institut d'Études orientales de la Faculté des Lettres d'Alger*. V. Brunschvig, L. Gauthier ; Pères.
- Publications de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire*. V. al-Ya'qūbī et Wiet.
- Publications de l'Institut des Hautes Études Mérocraines* (en abrégé : *P. I. H. E. M.*). V. Brunot ; Renaud et Colin (G. S.) ; Šā'id al-Andalusī ; as-Saqaṭī ; Terrasse.
- Qal.* ou *Qalā'id* : al-Faṭḥ ibn Ḥaḡān, *Qalā'id al-'iyyān*, Būlāq, 1283.
- al-Qa.ḡaṣandī, *Ṣubḥ al-a'šā fī šind'at al-inšā*, 1: Caire, 1331-1338 = 1913-1920. En abrégé : al-Qalḡaṣandī, *Ṣubḥ*.
- al-Qazwīnī, *Aḡār al-bilād wa-aḡbār al-'ibād*, texte arabe par F. Wustenfeld (*Kosmographie*, t. I), Gottingue, 1848.
- al-Qurḡās*. V. Ibn Abī Zar'.
- Quattemere, *Histoire des Mongols de la Perse*, Paris, 1836.
- *Histoire des Sultans Mamlouks écrite en arabe par... Makrizī*, traduite en français, Paris, 1837-1845, 2 vol. en 4 parties. En abrégé : Quattemere, *Mamlouks*.

- *Mémoire sur le goût des livres chez les Orientaux*, in J. A., 3^e série, t. VI (1838), pp. 35-78 et dans *Mélanges d'histoire et de philologie orientale*, Paris, sd. [1857] ; pp. 1-39.
- V. Ibn Haldûn.
- Al-Qur'ân*, texte arabe constituant la *Vulgate du Qur'ân*, éd. du Caire, 1342 = 1923 (2^e éd., 1353 = 1934) ; éd. de Flügel, revue par G. M. Redslob, Leipzig, 1922.
- Traduction française par R. Blachère, sous le titre *Le Coran, traduction selon un essai de reclassement des Sourates* (Islam d'Hier et d'Aujourd'hui. — Vol. III-IV-V), Paris, 1947-1951, 3 vol.
- al-Qurašî* (Abû Zaid), *Ġamharat as'âr al-'Arab*, Bûlâq, 1038.
- R. A. A. D. : Revue de l'Académie arabe de Damas.*
- Raiḥân al-albâb wa-rai'ân as-sabâb*. V. Ibn al-Mawâ'în.
- Rat* (G.). V. al-Abâihî.
- Raux* (A.). V. at-Ṭuġrâ'i.
- Réau* (L.) et *Cohen* (G.), *L'art du moyen âge*. (Arts Plastiques — Art Littéraire), in *L'évolution de l'humanité*, dirigée par H. Berr, n^o 40, Paris, 1935.
- Recherches¹, Recherches², Recherches³* : Dozy, *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age*, Leyde, 1^{re} éd., 1849, t. I (seul paru) ; 2^e éd., 1860, 2 vol. ; 3^e éd., 1881, 2 vol.
- Recueil de mémoires et de textes publiés en l'honneur du XIV^e Congrès des Orientalistes*. V. Bel.
- R. E. I. : Revue des études islamiques*. V. Blachère ; Idris.
- Reinaud*. V. Abu-l-Fidâ'.
- Religión y Cultura*. V. Antuña.
- Renan* (E.), *Averroès et l'averroïsme*, 3^e éd., Paris, 1925.
- Renaud* (H.P.J.), *Sur la date du Nairûz en Espagne musulmane*, in *Bulletin des Etudes Arabes*, N^o 15 (nov.-déc. 1943), pp. 143-144.
- Renaud* (Dr. H. P. J.) et *Colin* (G. S.), *Tuhfat al-aḥbâb* (P. J. H. E.M., t. XXIV), Paris, 1934.
- Rescher* (O.). V. al-Ḥâtimî.
- Revista de Archivos*. V. Gonzalvo.
- Revista del centro de estudios históricos de Granada y su Reino*. V. Gaspar Remiro ; an-Nuwairî.
- Revista de Filología Española* (en abrégé : *R. F. E.*). V. Alonso (A.) ; Alonso (D.).
- Revista de Occidente*. V. García Gómez ; Menéndez Pidal.

Revue de l'Académie Arabe de Damas (en abrégé : R. A. A. D.).

Revue des Deux-Mondes. V. Magnin.

Revue des Etudes Islamiques (en abrégé : R. E. I.). V. Blachère ; Idris.

Revue des Etudes juives. V. Fagnan.

Revue des Etudes Sémitiques. V. Blachère.

Revue tunisienne. V. 'Abd al-Wahhâb ; Bercher ; Monchicourt ; Pérès.

R. F. E. (*Revista de Filología Española*). V. Alonso (Amado) ; Alonso (Damaso).

Ribera (J.), *Disertaciones y Opúsculos*, Madrid, 1928, 2 vol.

— *Historia de la música árabe medieval y su influencia en la española* (Colección de Manuales Hispania, vol. I, Serie G), Madrid, 1927.

— *La música de las Cantigas*, Madrid, 1922, 2 vol.

— V. Gil ; al-Huṣṣanī ; Ibn Ḥair ; Ibn al-Qaṭṭiyya.

Riḍā (Muḥyī ad-Dīn). V. al-Huṣṣanī (Abu-l-Ḥasan).

Rifā'ī (A. F.), *Aṣr al-Ma'mūn*, le Caire, 1341 = 1927, 3 vol.

— V. Yāqūt.

Rikabi (Jawdat), *La poésie profane sous les Ayyūbides et ses principaux représentants*, Paris, 1949.

— V. Ibn Sanā' al-Mulk.

Romina. V. Colin (G. S.).

Roques (Mario), *Préface à « La civilisation en France au Moyen Age »* de Joan Evans, Paris, 1930, pp. 5-10.

Rousseau (Alphonse), *Le Parnasse oriental ou Dictionnaire historique et critique des meilleurs poètes anciens et modernes de l'Orient*, Alger, 1841.

— V. al-Tiḡānī.

Ṣādir. V. al-Mutanabbī.

aṣ-Ṣafadī, *Nakl al-himyān ft nukal al-'umyān*, éd. par A. Zakī, le Caire, 1329 = 1911.

— V. Zakī (A.).

Ṣafwān ibn Idrīs al-Mursī, *Zād al-musāfir wa-ḡurāt muḥayyā al-adab as-sāfir*, ms. de l'Escurial, n° 355 ; éd. par A. Mahdād, Beyrouth, 1938.

Ṣā'id al-Andalusī, *Ṭabaqāt al-unnām*, texte arabe par L. Cheikho, Beyrouth, 1912 ; trad. française par R. Blachère (*P.L.H.E.M.*, t. XXVIII), Paris, 1935.

Salles (G.) et Ballot (M. J.), *Les collections de l'Orient musulman*, Paris, 1928.

aṣ-Ṣanawbarī, *ar-Rawḍiyyāt*, éd. par Muḥammad Ṭabbāḥ, Alep, 1351 = 1932.

- Sánchez (M.). V. Gil.

Sánchez Albornoz (C.), *Estampas de la vida en León hace mil años*, Madrid, 1928.

— y Viñas (A.), *Lecturas de historia de España*, Madrid, 1929.

Sánchez Cantón (F. J.). V. *El Conde Lucanor*.

as-Sandûbi (Hasan), *Adab al-Gâhiz*, le Caire, 1350 = 1931.

— V. al-Gâhiz ; Imru'l-Qais.

Sanguinetti. V. Ibn Baṭṭûṭâ.

as-Saqâṭi, *Un manuel hispanique de Hisba*. Texte arabe publié avec une introduction, des notes linguistiques et un glossaire, par G. S. Colin et E. Lévi-Provençal (P.I.H.E.M., t. XXI), Paris, 1931.

aš-Šaqundî, *Risâla fî faḍl al-Andalus*, texte arabe in *Analectes*, t. II, pp. 128-150 ; trad. espagnole par E. García Gómez, *Elôgio del Islâm español*, Madrid-Grenade, 1934 ; trad. française par A. Luya, in *Hespéris*, t. 22 (1935), fasc. 2, pp. 143-181.

Šaraf ad-Dîn Râmî, *Anis al-'uṣṣâq. Traité des termes figurés relatifs à la description de la beauté*, trad. du persan et annoté par Cl. Huart (*Bibliothèque de l'École des Hautes Etudes*, t. XXV), Paris, 1875.

aš-Šarîf al-Garnâṭî, *Raf al-ḥuḡub al-maṣṭûra fî maḥâsin al-Maqṣûra*, le Caire, 1344, 2 vol.

aš-Šarṭî, *Šarḥ maqâmât al-Harîrî*, le Caire, 1314, 2 vol.

Sauvaget (J.). Ibn aš-Šiḥna.

Sauvaire (H.), *Voyage en Espagne d'un ambassadeur marocain (1690-1691)* (*Bibliothèque orientale elzévirienne*. — Tome XXXIX), Paris, 1884.

Schack (Fr. von), *Poesia y arte de los Arabes en España y Sicilia*, trad. espagnole par J. Valera, 3^e éd., Séville, 1881, 3 vol. En abrégé : Schack-Valera, *Poesia y arte*.

Schefer. V. Léon l'Africain.

Schiaparelli. V. Ibn Ḥamdîs ; *Vocabulista in arabico*.

Schwarz. V. Ma'n ibn Aws.

Schwarzlose (F. W.), *Die Waffen der alten Araber aus ihren Dichtern dargestellt*, Leipzig, 1886.

Seybold, *Hispano-arabica*, in *Z. D. M. G.*, t. 63 (1909), pp. 350-364.

Simonet (F. J.), *Descripción del reino de Granada bajo la dominación de los Naseritas sacada de los autores arabes, y seguida del texto inédito de Mohammed Ibn Aljatió*, Madrid, 1861.

— *Glosario de voces ibéricas y latinas usadas entre los Mozárabes precedido de un estudio sobre el dialecto hispano-mozárabe*, Madrid, 1888.

— *Historia de los Mozárabes de España deducida de los mejores y mas autén-*

- ficos testimonios de los escritores cristianos y árabes (Memorias de la real Academia de la Historia, t. XIII), Madr 1, 1897-1903.*
- *El siglo de oro de la literatura arábigo-española*, Grenade, 1867.
- aš-Širwānī, *Ḥadīqat al-afrāḥ*, le Caire, 1298
- Slane (de), *Observations sur le sens figuré de certains mots qui se rencontrent souvent dans la poésie arabe*, in *J. A.*, 3^e série, t. VII, (1839), pp. 169-178.
- V. Abu-l-Fidā' ; al-Bakrī ; Ibn Ḥaldūn ; Ibn Ḥallikān.
- Smith (Dulcie Laurence), *The Poems of Mo'tamid King of Seville rendered into english verse, with an introduction*, Londres, 1915.
- Sterne (G.). V. Graetz.
- Stern (S. M.), *Les vers finaux en espagnol de cas les muwaššahs hispano-berabiques*, in *Al-Andalus*, Vol. XIII (1945), fasc. 2, pp. 299-346.
- *Un muwaššah arabe avec terminaison espagnole*, in *Al-Andalus*, Vol. XIV (1949), fasc. 1, pp. 214-218.
- aš-Sūlī (Muḥammad ibn Yaḥyā), *Akhbār ar-Rādī Billāh wa'l-Muttaqī Billāh (Histoire de la dynastie 'abbāsīde de 322 à 333/934 à 944)*, traduit de l'arabe par M. Canard (*Publications de l'Institut d'Etudes Orientales... d'Alger*. — Vol. XI-XII), Alger, 1946-1950, 2 vol.
- as-Suyūṭī, *Buḡyat al-wa'āt fī ṭabaqāt al-luḡawīyyīn wa-n-nuḥāt*, le Caire, 1326.
- *Rašf al-la'āl fī wašf al-hilāl*, in *Muḡmū'a anabiyya*, Constantinople, 1302.
- Syr'a. V. Massignon.
- aṭ-Ta'ālībī, *Timār al-qulūb fī-l-mudāf wa-l-mawsūb*, le Caire, 1326.
- *Yatimat ad-dahr fī ša'arā' ahl al-'aṣr*, Damas, 1304, 4 vol. : le Caire, 1352 = 1911, 4 vol.
- aṭ-Ṭabarī, *Annales (Aḥbār ar-rusul wa-l- mulūk)*, éd. par de Goeje, Leyde, 1879-1901, 15 vol.
- Ṭabbāḥ (Muḥ. Rāḡib). V. aš-Šanawbarī.
- Ṭāġ al-'arūs : az-Zabīdī, *Ṭāġ al-'arūs fīn ḡawāḥir al-Qāmūs*, le Caire, 1306-1307, 10 vol.
- Ṭaḥa Ḥusain. V. Ḥusain (Ṭāḥā).
- Tallgren (O. J.), *Los nombres árabes de las estrellas y la transcripción alfonsina*, in *Homenaje ofrecido a Menéndez Pidal*, t. II, Madrid, pp. 633-718. En abrégé : Tallgren, *Estrellas*.
- at-Tamgrūṭī, *an-Naḥḥat al-miskiyya fī-s-sifārat at-turkiyya. Relation d'une ambassade marocaine en Turquie, 1589-1591*, trad. et annotée par H. de Castries, Paris, 1929.
- Tetjini (B.), *A travers l'Andalousie musulmane. Un Roi-Poète ou El-Mo'tamid ibn Abbad, Prince de Séville*, Casablanca, 1939.

En abrégé : Tedjini, *Un Roi-Poète*.

Terrasse (H.), *L'art hispano-mauresque des origines au XIII^e siècle* (P. I. H. E. M., t. XXV), Paris, 1932.

— *Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du Protectorat français*, Casablanca, 1949-1950, 2 vol..

Textes arabes relatifs à l'histoire de l'Occident musulman. V. Ibn 'Idârî.

at-Tibrizî, *al-Qaṣâ'id al-'aṣr*, éd. Muḥammad Munîr 'Abduh ad-Dimaṣqî, le Caire, 1343.

— V. al-A'ṣâ.

at-Tiġānî (Abû Muḥammad 'Abd Allâh), *Rihla*, texte arabe par W. Marçais, Tunis, 1345 = 1927 ; trad. française par A. Rousseau, in J. A., 4^e série, t. XX (1852), pp. 57-208 ; 5^e série, t. I (1853), pp. 101-168, 354-425.

— *Tuḥfat al-'arūs wa-nuḥḥat an-nuḥūs*, le Caire, 1301 ; extraits in *Ābbad.*, II, 139-155 ; m. d'Alger, Bibliothèque nationale, n° 1784.

aṭ-Tiġnari, *Zahr al-bustân wa-nuḥḥat al-aḡḥân*, ms. de la Section sociologique de la Direction des Affaires indigènes au Maroc. Tornberg. V. Ibn Abî Zar' ; Ibn al-Aṭîr.

aṭ-Ṭuġrâ'i, *Lâmiyyat al-'aġam*, texte et trad. annotée par A. Raux, Paris, 1903.

al-Tuḥfat al-bahîyya. V. al-Ḥâtimî.

Ṭuqân (Ibrâhîm). V. Abû Dâûd.

Tuulio (M. O. J.), *Ibn Quzmân, poète bilingue*, Helsinki, 1941.

al-'Ukbârî. V. al-Mutanabbî.

al-'Umarî. V. Ibn Faḍl Allâh ; Gaudefroy-Demombynes.

Una cronica anónima de 'Abd ar Raḥmân III al-Nâsir, texte établi et traduit en espagnol avec Introduction, notes et index, par E. Lévi-Provençal et E. García Gómez, Madrid-Granada, 1950.

Valera (J.). V. Schack (F. von).

Vernet (Juan), *El valle del Ebro como nexo entre Oriente y Occidente*, in *Boletín de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona*, XXIII, 2^o, 1950, pp. 249-286.

Vila (Salvador). V. Mez (A.).

Viñas (A.). V. Sánchez Albornoz (C.).

Vloten (Van). V. al-Ġâhiz ; al-Ḥuwârazmî.

Vocabulista in arabico, publié par G. Schiaparelli, Florence, 1871.

En abrégé : *Vocabulista*.

Vollers. V. al-Mutalammis.

- Wacyf Boutros Ghali, *La tradition chevaleresque des Arabes*, Paris, 1919.
- Wcijers (H. E.), *Specimen criticum, exhibens locos Ibn Khacanis de Ibn Zeidouno...*, Leyde, 1831. En abrégé : Weljers, *Specimen de Ibn Zeidouno*.
- Wiet (G.). V. Maapero (J.) ; Munier ; al-Ya'qûbi.
- Wiet (G.) et Hauteceur (L.), *Les mosquées du Caire*, Paris, 1932, 2 vol.
- Wüstenfeld (F.). V. Ibn Hišâm al-Bašr' ; al-Qazwîni ; Yâqût. al-Ya'qûbi, *Kitâb al-buldân* (B. G. A., t. VIII), Leyde, 2^e éd., 1892.
— *Les Pays*, traduit en français par Gaston Wiet (*Publications de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire. — Textes et traductions d'auteurs orientaux. — Tome Ier*), Le Caire, 1937.
- Yûqût, *Irsâd al-urth ilâ ma'rifat al-adlâ = Tabaqât al-udabâ' ou Mu'ğam al-udabâ'* (*Gibb Memorial, Old Series*, t. VI), éd. par D. S. Margoliouth, Londres, 1907-1926, 7 vol. ; 2^e éd. par Aḥmad Farid Rifâ'i, Le Caire, 1355-1357 = 1936-1938, 20 vol. *Mu'ğam al-buldân*, texte arabe par Wüstenfeld, Leipzig, 1866-1873, 6 vol.
— V. Barbier de Meynard.
- az-Zabîdî. V. *Tâğ al-'Arûs*.
- Zâhid 'Alî. V. Ibn Hânî.
- Zakî (Aḥmad), *Mudun al fann fl bîlâ al-Andalus*, in *al-Hilâl*, 43^e année, décembre 1934 à mai 1935.
— *Notice sur les couleurs nationales de l'Égypte musulmane*, in *B. I. F. A. O. du Caire*, 1921, pp. 1-35.
— *Safâli. Dictionnaire biographique des Aveugles illustres de l'Orient. Notice bibliographique et analytique*, le Caire, 1911.
— V. Ibn Faḍl Allâh al-'Umari ; aš-Ša'adî.
- Zakî Mubârak. V. Mubârak (Zakî).
- az-Zamahšârî, *al-Mufaṣṣal*, éd. du Caire, 1323.
— V. Ibn Ya'îš.
- Zayyât (Ḥabîb), *Mu'ğam al-marâkib wa's-sufun fl'l-Islâm (Répertoire des noms de vaisseaux et d'embarcations en Islâm)*, in *Al-Machriq*, juillet-décembre 1949, pp. 321-364.
Lughat al-ḥadîra (Les néologismes arabes au début de l'Islâm), in *Al-Machriq*, juillet-décembre 1949, pp. 516-523 ; janvier-mars 1951, pp. 7-9.
- Z. D. M. G. : *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*.
— V. Goldziher ; Ibn Ġarsiya ; Seybold

المحتوى

صفحة	
٣	كلمة المترجم
٧	الإهداء
٩	فاتحة الطبعة الثانية
١١	مقدمة

مدخل

- ١ - الظروف السياسية

«الفتنة» أو الاضطرابات السياسية في مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ١٣ - الحزب الأندلسى والحزب البربرى ١٤ - الخصومة بين هذين الحزبين ١٦ - زعماء الحزب الوطنى ١٧ - سياسة بنى عباد ١٨ - موقف المعتمد من المسيحيين ومن المرابطين ١٩ - كراهيته للبربر ٢٠ - وله الموقف نفسه من المعتصم ٢٠ - الأندلسيون يحتقرون البربر ٢١.
- ٢ - الظروف العنصرية

(أ) أسباب ضعف الأمويين طبقا لابن سعيد ٢٢ - وطبقا لابن الوطواط ٢٢ - وطبقا لابن خلدون ٢٢ - روح جديد من التضامن الوطنى ٢٣.

(ب) شخصية الأندلسى ٢٣ - الأندلسى حقيقة واقعة ٢٣ - طبقات المجتمع المختلفة ٢٣ - الأندلسى فى رأى ابن حزم ٢٤ - وفى رأى ابن غالب ٢٥ - امتزاج الخصائص المختلفة ٢٥ - ملامح الأندلسى بعامه ٢٥.

الباب الأول

- الشاعر: تكوينه وظروفه الاجتماعية
- الموضوعات الشعرية التى انبثقت فى حياة البلاط
- الفصل الأول: مناهج نشر اللغة العربية بين الإسبان المسلمين

ولع الأمراء بامتلاك الوزراء الشعراء ٢٩ - ازدهار الشعر بسبب مناهج التعليم ٣٠ - أهمية الشعر فى الدراسة طبقا لابن العربى ٣٠ - الإنسية الأندلسية ٣١ - المؤسسات التعليمية وأمكنة الدراسة ٣١.

● الفصل الثاني: المواد والمؤلفات التي كانت تدرس في القرن الحادي عشر

٣٣ .

فهرسة ابن خير ٢٣ - الكتب الأدبية ٣٤ - تناثر مكنية الحكم الثاني ٣٥ - كتب النحو واللغة ٣٦ - الشعراء المولدون: أبو نواس ٣٨ - ابن الرومي ٣٩ - البحتري ٣٩ - المتنبي ٤٠ - شعراء مشاركة آخرون ٤١ - أبو العلاء المعري ٤١ - معرفة الأدب الإغريقي ٤٢ - ابن شهيد ورسائله التوايح والزواج ٤٢ - حرية الدراسة ٤٣.

● الفصل الثالث: المشرق والمغرب

٤٥ .

١ - ما تدين به إسبانيا للمشرق قبل القرن الحادي عشر ٤٥ - إسبانيا لم تعد في حاجة إلى نماذج مشرقية ٤٦ - الحياة فيها أكثر صملا من المشرق ٤٦ - العلاقات بين المشرق والمغرب ٤٧ - حالة أبي الفضل الدرمي البغدادي ٤٧.

٢ - كيف كان يرى المشرق إسبانيا ٤٨.

٣ - الوهم المشرقي ٥٠ - الألقاب المشرقية ٥٠ - مكانة العراق وبغداد ٥٢ - حنين الشعراء إلى المشرق ٥٣ - خيبة أمل الذين لم يذهبوا ٥٣ - رد الفعل ضد المشرق ٥٤ - شعراء المغرب موضع دراسة المشاركة - بحق - مثل الآخرين ٥٤ - مختارات من الشعر الأندلسي ٥٥ - القومية الأدبية: مقدمة في الوليد الحميري ٥٥ - مقدمة ابن بسام ٥٦ - اندماج الشعر الأندلسي في الأدب العربي ٥٧.

● الفصل الرابع: شعر البلاط وشعراؤه

٥٨

١ - مكانة الشعراء الاجتماعية ٥٨ - الأميون والمكفوفون ٥٨ - شعراء البلاط ٥٩ - الشعراء لفلاحون ٥٩ - الطبقات العليا تذوق الشعر ٥٩ - المعتضد ٦٠ - المعتضد وأبنائه ٦٠ - المعتصم وأبنائه ٦١ - الشعر في بطيوس ٦١ - في غرناطة ٦١. ٢ - مظاهر تذوق الشعر ٦٢ - مفهوم الشعر عند الأندلسيين ٦٢ - ربة الشعر الأندلسي ٦٤.

٣ - اتهام الشعر والشعراء ٦٥ - نقد ابن بسام ٦٥ - دفاع ابن شهيد عن الشعر ٦٦ - شعر النكتسب ٦٦.

٤ - حياة الشاعر ٦٨ - الملابس اريفية ٦٨ - أصول متواضعة ٦٩ - السهر على ضوء ساطع أو على وميض قنديل ٦٩ - الحوار بين أبي الوليد الباجي وابن حزم حول هذا الأمر ٦٩ - رحلات الشعراء ٧٠ - استقبال الشعراء في البلاط ٧٠ - الإقامة وصاحب «الإنزال» ٧١ - اختيار الشاعر يوم استقباله ٧٢ - حالة ابن جاح ٧٣.

٥ - الواقع الاجتماعي وحظ الشعر منه ٧٤ - حالة التهمة ٧٤ - الهجوم على

الشعراء ٧٥ - نقد الحساد: صفحة من كتابات ابن حزم حول هذا الأمر ٧٥ - نقد الأمراء لهم ٧٦.

٦ - الشاعر الرسمي ٧٧ - المربيات ٧٨ - العطايا ٧٨ - شعراء العابرون والبحث عن الهدايا ٧٩ - بعض الشعراء لا يهتمون بهذا ٧٩ - الشعراء الذين اغتتوا ٧٩ - شعراء تَوَضُّوا فيها بعد ٨٠ - فكاهة انتقامية ٨١ - إطرء الكرم ٨١ - وظائف يتولّاها الشعراء: الوزير الكاتب ٨١ - كاتب الزمام ٨٢ - صاحب الشرطة ٨٢ - الحاكم ٨٣ - السفير ٨٣.

● الفصل الخامس: حياة البلاط في نتاج الشعراء ٨٤

دور الشاعر السياسي ٨٤ - الغلو آفة المديح ٨٤ - الإشادة بالشجاعة والكرم ٨٥ - عراقية الحسب ٨٥ - الزهر بالدم العربي ٨٥.

● الفصل السادس: الشاعر مؤرخًا ٨٧

١ - لا مبالاة أواخر بني أمية ٨٧ - كراهية البربر ٨٧.
٢ - الصراع الديني: الإباضيون والخوانرج ٨٩ - الشيعة ٨٩ - الفاطميون ٩٠ - اختفاء الاهتمامات الدينية في ممالك الطوائف ٩٢.
٣ - معركة بطرنة في ٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ م ص ٩٢ - سقوط بربرشتر في ٤٥٦ - ١٠٦٤ ص ٩٣ - سقوط طليطلة في ٤٧٨ = ١٠٨٥ ص ٩٣ - استدعاء المرابطين ٩٤ - موقعة سجراخاس أو الزلاقة ٩٤ - إزاحة ملوك الطوائف عن عروشهم ٩٥ - رحيل المعتمد ٩٦ - كراهية الشعب لأمراء الطوائف ٩٦.
٤ - محاولة شعر ملحمي ٩٨ قصيدة أبي طالب عبد الجبار للثنى ٩٨ - قصيدة ابن عيودن ٩٨.

٥ - استيلاء السيد القنييطور على بلنسية ٩٩.

٦ - الألقاب التي حملها ملوك الطوائف ١٠٠.

الجزء الثاني

الموضوعات العامة المستوحاة من الطبيعة

○ الموضوعات المفضلة: ١٠٥

● الفصل الأول: إسبانيا والمدن والمتنزهات ١٠٦

١ - إسبانيا ١٠٦ - إسبانيا جنة الأرض ١٠٧ - جنان إسبانيا ١٠٨ - تربة إسبانيا من مواد ثمينة ١٠٨.

صفحة

٢ - المدن وأماكن الراحة والقصور ١٠٩ - وصف المدن ١٠٩ - صور ومعجم خاص
١١٠ - ذوق الأندلسيين في المباني الجميلة ١١٠ - مدن إسبانيا كما رآها الشعراء ١١١.
٣ - قرطبة وروائعها الأربع ١١١ - تدمير قرطبة في مطلع القرن الحادى عشر
الميلادى كما يصفه ابن حزم وابن شهيد ١١٢ - مدينة الزهراء في القرن الحادى عشر
١١٤ - حزن الشعراء أمام أطلالها ١١٥ - قصور أخرى في قرطبة: الدمشق أو قصر
البيستان ١١٧ - حير الزجاجى ١١٧ - ضواحي قرطبة طبقا لابن زيدون ١١٨ - المنيات
والوديان ١٢٠ - حشرات أوجت بها قرطبة ١٢١.

٤ - إشبيلية وأرباضها ١٢٢ - تصور إشبيلية: الزهراء ١٢٣ - قصور المعتمد:
الزاهى ١٢٤ - المكرم ١٢٥ - المبارك - القصر ١٢٥ - قصور ومنيات أخرى في إشبيلية:
دار الزينية والبحيرة الكبرى ١٢٦ - شتوهات حول إشبيلية ١٢٧ - نهر الوادى الكبير
وجزره ١٢٧ - المروج والوديان ١٢٧ - ذكر إشبيلية والحسين إليها ١٢٨.

٥ - المرية وضواحيها ١٢٨ - المرية في عصر ملوك الصقالية ١٢٩ - قصر الصمادحية
١٢٩ - الوديان والمروج ١٣٠ - إطرء المرية وهجائها ١٣٠.

٦ - مدن إسبانية أخرى ١٣١ - رجة ١٣١ - وادى آش ١٣٢ - غرناطة وفحصها
١٣٢ - حور مؤمل وتجد فيها ١٣٣ - رندة ١٣٣ - شلب ١٣٣ - بطليوس ١٣٥ -
طليطلة ١٣٥ - قصر المأمون ١٣٥ - منية المأمون ١٣٦ - سرقسطة ١٣٧ - قصر
الجعفرية ١٣٧ - بلنسية ١٣٨ - هجة بلنسية ومدىها ١٣٩ - الجزائر الشرقية (جزر
البليار) ١٤٠ - الجزيرة ١٤٠ - ساطية ١٤٠ - ما بقى من كل منشآت القرن الحادى
عشر ١٤١ - ما تثيره الأطلال من حشرات وذكريات ١٤١.

● الفصل الثانى: الوديان والجبال ١٤٢

١ - الوديان ١٤٢ - وادى آش ١٤٢.

٢ - الجبال ١٤٣ - الجبل كما رآه ابن خفاجة ١٤٣.

● الفصل الثالث: الحدائق والبساتين ١٤٥

١ - الحدائق تحت المطر ١٤٥ - الحدائق في الجو الصافى ١٤٦ - الحدائق تحت المطر
والنسيم ١٤٦ - الحدائق كما يصورها ابن خفاجة: غابات صغيرة أقرب منها حدائق ١٤٧.

٢ - الزهور ١٤٩ - زهرة الآس ١٥٠ - الأقحوان ١٥٠ - البنفسج ١٥١ - البهار
أو نرجس الشعراء ١٥١ - النرجس الأصفر ١٥٣ - النرجس القادوسى ١٥٣ -
الحرقم ١٥٣ - الخيري الأصفر ١٥٤ - الخيري لتمام ١٥٥ - السوسن الأبيض ١٥٧ -
النيلوفر ١٦٠ - الورد ١٦٢ - اليبسين البستاني ١٦٢ - الشقائق ١٦٣ - نور
الكتان ١٦٤ - نور اللوز ١٦٤ - نور الرمان ١٦٥ - نور الجنار ١٦٥ - نور

الباقلاء ١٦٥ - نور الغالية ١٦٦.

- ٣ - الحوار بين الزهور ١٦٧ - في الشرق يفضلون البهر على الورد ١٦٧ - في إسبانيا يفضلون الورد على البهار ١٦٧ - حوارات أخرى بين الزهور ١٦٨.
- ٤ - وصف الربيع في مطالع شعر الغزل والمديح ١٦٨ - نتائج الدراسة ١٦٩.
- ٥ - الأشجار والخضروات ١٧٠ - أشجار وصفها الشعراء: الحور والبردار والسرو ١٧١.

- ٦ - الفواكه ١٧١ - التفاح ١٧٢ - الكمثرى ١٧٢ - الرمان ١٧٢ - القراسيا (حب الملوك) ١٧٣ - الليمون ١٧٤ - السفرجل ١٧٤ - البرتقال ١٧٤ - النارج ١٧٤ - التين ١٧٥ - فواكه أخرى: العنب والخوخ والتوت والبلح ١٧٦.
- ٧ - الخضروات ١٧٦ - القورل والخرشوف والباذنجان والكرنب ١٧٦.
- ٨ - الإحساس بالطبيعة ١٧٨ - أسباب حب الطبيعة ١٧٨ - حب الزراعة وقراءة الكتب التي عرضت للفلاحة ١٧٨ - التقويم الزراعى ١٧٩ - صور ريفية في الشعر ١٨٠ - الميل إلى الحياة الريفية ١٨١ - حالة ابن مقانا الشاعر ١٨١.

١٨٣

● الفصل الرابع: المياه جارية وراكدة

- ١ - البحيرات والغدران ١٨٣ - تشبيه الدروع بماء الغدران خدّدها التسميم ١٨٣ - البرك ١٨٤ - المياه الفوارة ١٨٤ - التوافير ١٨٤ - السواقي ١٨٥.
- ٢ - المياه الجارية ١٨٦ - الجداول ١٨٦ - الأنهار ١٨٧ - الوادى الكبير في إشبيلية ١٨٧ - المد والجزر ١٨٧ - الشواطىء الظليلة ١٨٨ - قوارب التزهة ١٨٩ - نهر أير في سرقسطة ١٨٩ - رحلة صيد في نهر أير ١٨٩ - نهر شلب ١٩٠ - نهر شقر في الجزيرة ١٩٠ - الفيضانات ١٩١.

١٩٢

● الفصل الخامس: البحر والسفن

- المسمون والبحر ١٩٢ - الخوف من البحر ١٩٢ - صور شعرية مستمدة من البحر والإبحر ١٩٣ - الأسطول الأموى ١٩٣ - صناعة السفن ١٩٣ - البحر في عصر ملوك الطوائف ١٩٤ - أسطول المعتمد في إشبيلية ١٩٤ - أسطول المعتمد في المرية ١٩٥ - أسطول أمراء دانية والجزائر الشرقية ١٩٥ - المهرجان البحرى في ٢٤ يونية ١٩٥ - معجم شعرى خاص بالسفن ١٩٦.

○ الموضوعات الثانوية

٢٠١

● الفصل الأول: السماء والظواهر الطبيعية

- ١ - الغروب والشفق ٢٠١.
- ٢ - الليل والنجوم والقمر ٢٠١ - البدر واللال ٢٠٢ - النجوم ٢٠٣ - الكواكب
السيارة ٢٠٤ - تأثير الكواكب ٢٠٤ - الكيمياء والكواكب ٢٠٤ - الليل مهبط ذكريات
العاشقين ٢٠٥ - ليل طويل وقلق ٢٠٥.
- ٣ - الليل يعقبه الفجر ٢٠٥ - الفجر ٢٠٦.
- ٤ - نسيم وعواصف ٢٠٧.
- ٥ - السحاب والبرق والمطر ٢٠٨ - الرعد ٢٠٩ - قوس قزح ٢١٠ - البرد
٢١١ - الثلج ٢١١ - البرد والثار ٢١١ - التدفئة بالكانون ٢١٢.
- ٦ - أشياء جامدة وسائل ٢١٢ - كأس البلورى ٢١٣ - التبيد فى الكأس ٢١٣ -
الزهور والثمار ٢١٣.

٢١٥

● الفصل الثانى: الحيوانات

- ١ - الحيوانات ذوات الأربع ٢٠٥ - الحصان ٢١٥ - الكلب ٢١٦ - الزرافة
٢١٧ - الأسد ٢١٨ - الذئب ٢١٨ - الجمل والخنزير ٢١٩ - القرد ٢٢٠ - حيوانات
أخرى من ذوات الأربع: القنفذ والسحفاة والخرىاء ٢٢٠.
- ٢ - الزواحف ٢٢٠.
- ٣ - العصافير ٢٢١ - عصافير حديقة الزهراء ٢٢١ - الببيل ٢٢١ - الزرزور
٢٢٢ - القطا وحجل الصحراء ٢٢٢ - الغراب ٢٢٢ - الورقاء ٢٢٢ - الحمامة ٢٢٣ -
حمام الزاجل ٢٢٣ - الديك ٢٢٤ - الأوز ٢٢٤ - النعامة ٢٢٤.
- ٤ - الحشرات ٢٢٤ - النحلة ٢٢٤ - دودة القز ٢٢٥ - البراغيث والبعوض ٢٢٤ -
الفراشة ٢٢٥.

الباب الثالث

وثائق عن الحياة الاجتماعية يعدنا بها الشعر الإشباني

٢٢٩

● الفصل الأول: الوسط العرقى

صعوبة تصور الحياة الاجتماعية ٢٢٩.

- ١ - العرب ٢٣٠ - النخل عن نكرة القبيلة ٢٣٠ - الالتصاق بالأرض ٢٣٠ -
اندماج العناصر العربية المختلفة وتفرقه عبر شبه جزيرة إيبيريا ٢٣٠ - العنصر العربى
أقل العناصر عددا ٢٣١ - لتأكيد على الأصل العربى فى شعر المديح ٢٣١.

- ٢ - المولدون أو المسلمون الجدد ٢٣١ - تغيير الأسماء ٢٣٢ - استمرار الأسماء الإسبانية أحيانا ٢٣٢.
- ٣ - الصقلية ٢٣٣ في القرن الحادى عشر انضموا إلى الحزب الأندلسى ٢٣٣ - انكماش نفوذهم ٢٣٤ - عادات أعراسهم طبقا للشعراء ٢٣٤.
- ٤ - البربر والرقيق الأفريقى ٢٣٥ - الزناتيون والصنهاجيين ٢٣٥ - العداوة بينهم ٢٣٥ - تطعيمهم بالأندلسية ٢٣٥ - بعض الأمراء البربر: في سهلة بنى رزين ٢٣٦ - في طليطلة ٢٣٦ - في بطليوس ٢٣٦ - اتخذهم أنسابا عربية ٢٣٦ - شعر في هجاء البربر ٢٣٦ - الرقيق الأفريقى: قلة عددهم ٢٣٧ - دور الرقيقات السوداوات في الحرير ٢٣٨.
- ٥ - اليهود ٢٣٩ - عددهم ٢٣٩ - دورهم الاجتماعى ٢٤٠ - الوزير ابن حسداى في سرسطة ٢٤٠ - اليهود في غرناطة ٢٤٠ - سبب مكاتبتهم العالة ٢٤١ - بنو النغرة ٢٤٣ - صمويل، أو إسماعيل، بن النغرة موضع حقاوة الشعراء ٢٤٣ - يوسف بن النغرة ٢٤٤ - ابن القروى وكاتبه ابن الجدد ٢٤٥ - الشعراء الذين مدحوا يوسف ٢٤٥ - أبو إسحاق الإلبيرى وقصيدته المناهضة لليهود ٢٤٦ - مذبحة اليهود في غرناطة في ٤٥٩ هـ = ١٠٦٦ م ٢٤٧.
- ٦ - المستعربون ٢٤٧ - علاقات وثيقة بين المسيحيين والمسلمين ٢٤٧ - الجاليات المسيحية ٢٤٨ - دورها أثناء «الفتنة» ٢٤٨ - معنى كلمة «عجم» ٢٤٩ - المستعربون كما يراه الشعراء ٢٥٠ - الطقوس المسيحية طبقا لابن شهيد ٢٥٠ - وللمرادى ٢٥١ - وفيما يرى ابن الحداد ٢٥٢ - غرام ابن الحداد بفتنة مسيحية ٢٥٢ - ملابس المستعربين ٢٥٤ - قرع النواقيس ٢٥٤.
- ٧ - اندماج العناصر المختلفة ٢٥٥ - الأمهات المسيحيات ٢٥٥ - دور المرأة طبقا لأراء الفقهاء المسلمين ٢٥٦ - مذهب الشعوبية في إسبانيا ٢٥٧.

٢٥٩

● الفصل الثانى: الحياة الاقتصادية

- حرفيون وعمال ٢٥٩ - الصباغة ٢٥٩ - صناعة الزجاج ٢٦٠ - الورق ٢٦١ - الجزارة ٢٦١ - النسيج ٢٦١.

٢٦٣

● الفصل الثالث: الحياة الخاصة

- ١ - الميلاد ٢٦٣ - رعاية الطفل الرضيع ٢٦٣ - التمام ٢٦٢ - الإغذار ٢٦٤.
- ٢ - الزواج ٢٦٤ - الأمراض ٢٦٥.
- ٣ - الموت ٢٦٥ - عادة حمل النعش على الأكتاف ٢٦٥ - البكاء والطم ٢٦٦ - تأبين الميت ٢٦٦ - لون الحداد: لأسود أم الأبيض ٢٦٦ - استخدام لون الأبيض في الحداد كان استثناء ٢٦٧. نتائج ٢٧٠.

- ٤ - الأعياد والحفلات ٢٧١ - عيد الفطر ٢٧١ - مهرجان النيروز ٢٧١ - عيد المهرجان ٢٧٢ - عيد الفصح ٢٧٣ - صلاة الاستسقاء ٢٧٣.
- ٥ - السحر والشعوذة ٢٧٣ - شعرات قديمة ٢٧٣ - الغرام بالأشياء القديمة ٢٧٤ - التنجيم والمنجمون ٢٧٥ - ملاحظتهم ٢٧٥ - زجر الطير ٢٧٦ - التشاؤم ٢٧٦ - الحسد ٢٧٦ - السحر والرقى ٢٧٦.
- ٦ - العناية بالصحة والنظافة ٢٧٧ - خضب الأكتف ٢٧٧ - الكحل ٢٧٧ - السواك ٢٧٧.
- ٧ - العطور والمراهم ٢٧٨ - العطور والطيب ٢٧٨ - أواني العطور ٢٨٠ - أصل العطور ٢٨٠.
- ٨ - المطبخ والمأكولات ٢٨١ - بعض الأطباق ٢٨١ - المرقاس ٢٨١ - المجينات ٢٨١ - الجبن ٢٨٢.
- ٩ - الأنسجة والملابس ٢٨٢ - ملابس النرف ٢٨٢ - ملابس من صوف البحر ٢٨٢ - ملابس المرأة ٢٨٣ - ملابس الرجال ٢٨٣ - المنزر والبرد ٢٨٣ - العصامة والقفارة ٢٨٤ - البرنس ٢٨٥ - اخراء ٢٨٥ - ألوان الملابس ٢٨٦ - شيوع حب اللون الأحمر ٢٨٦.

● الفصل الرابع: إطار الحياة اشترقة

- ١ - الجواهر ٢٨٧ - الأحجار الثمينة ٢٨٧ - الحلى ٢٨٨ - أشياء من العاج ٢٨٨ - الأبتوس ٢٨٨ - تريات المساجد ٢٨٩ - الولع بالجواهر ٢٩٠.
- ٢ - الصور ٢٩١ - تحريمها لم يكن يُراعى ٢٩١ - معجم الشعراء شاهد على أن الصور كانت شيئاً مألوفاً ٢٩١ - مصنع التصوير والنحت ٢٩٢ - التماثيل مصنوعة محلياً ومستوردة ٢٩٤ - تمثال مدينة الزهرة ٢٩٤ - التماثيل القديمة ٢٩٤ - تمثال مدينة قادمس ٢٩٤ - تمثال مريبطر ٢٩٤ - تمثال شاطبة ٢٩٥ - تمثال طالقة ٢٩٥ - تمثال الحمة ٢٩٥.
- ٤ - صور الحيوانات ٢٩٦ - في النوافير: الأسد والفيل والسلحفاة ٢٩٧ - صور على العنبر والجواهر: الغزال ٢٩٧ - الجمل ٢٩٨.
- ٥ - صورة على الأشياء ٢٩٨ - حلل مألقة ٢٩٨ - سكين مصورة ٢٩٨ - صناديق العاج ٢٩٩.

● الفصل الخامس: الحمامات

- ١ - الحمام ٣٠٠ - الحمامات الطبيعية ٣٠٠.
- ٢ - الحمامات: وصفها ٣٠٠ - غيبة النظافة في بعضها ٣٠١ - الاختلاط ٣٠٢.

٣ - زخرفة الحُمام ٣٠٢ - الصور والنماثيل ٣٠٢ - ما تثيره من شهوة وأثره
 ٣٠٢ - العادات المتدنية واللواط ٣٠٢ - الإسلام يدين اللواط بشدة ويعتبره وباءً
 اجتماعياً ٣٠٢ - الفلمان ٣٠٣ - الشامة والعدار ٣٠٤ - وصف غلام ٣٠٤ - نتائج
 ٣٠٤.

٣٠٥

● الفصل السادس: الألعاب الرياضية

الألعاب والتمرينات البدنية ٣٠٥ - خيول الكراج ٣٠٥ - الشطرنج ٣٠٥ -
 «البولو» ٣٠٦ - القمص بالكلاب ٣٠٦ - الصيد بالصقور ٣٠٦ - صورة شعرية مأخوذة
 من الصيد والقتص ٣٠٧.

٣١٠

● الفصل السابع: الحياة الحربية

١ - الرايات ٣١٠.
 ٢ - الطبول ٣١١.
 ٣ - الأسلحة الهجومية ٣١١ - السيف ٣١١ - أسلحة البربر ٣١١ - سلاح الرماة
 ٣١٢ - القوس ٣١٢.
 ٤ - الأسلحة الدفاعية ٣١٢ - الخوذة ٣١٢ - الترس ٣١٢ - المجن ٣١٣ - الدقة
 ٣١٣ - الزايفة والتريكة ١٣١٣.
 ٥ - قصيدة أبي بكر الصيرفي في وصف «التكتيك» الحربي ٣١٤.
 ٦ - المعارك ٣١٤ - ميدان المعركة ٣١٥ - المشاهد المرعبة ٣١٥ - نتائج ٣١٦.

٣١٧

● الفصل الثامن: حياة المتع والذائد

١ - حب الاستمتاع ٣١٧ - يوسف بن تاشفين يذم ملوك الطوائف ٣١٧ - والسيد
 القنبيطور ينهم ٣١٧ - التحرر في العادات يعود إلى القرن العاشر الميلادي ٣١٧ -
 فوضى العادات خلال «الفتنة» ٣١٨ - الالتزام والمسئولية خلال القرن الحادي عشر
 ٣١٨ - تهاون المعتد قبل أن يعتلى العرش ٣١٨ - أخلاقه بعد اعتلائه العرش ٣١٩ -
 مياحه ملونة بالحزن ٣١٩ - تمتعا وليس فجورا ٣١٩ - القرن الحادي عشر عصر الأعياد
 والمواسم ٣٢٠ - التخلي عن المتع في الشيخوخة ٣٢١.

٢ - الخمر والنبذ ٣٢٢ - أدب الخمرات في إسبانيا ٣٢٢ - الخمر ليست مباحة في
 إسبانيا وإنما متسامح فيها ٣٢٢ - عقاب السكارى ٣٢٢ - كسر أواني الخمر في قرطبة
 ٣٢٢ - الضرائب على الخمر ٣٢٣ - النبيذ ٣٢٣ - الحانات ٣٢٤ - في الخمر عزاء
 وسلوى ٣٢٥ - الامتناع عن شربها يوم الجمعة ٣٢٥ - الأشياء المستخدمة في الشراب
 ٣٢٦ - العادات المرتبطة بالشراب ٣٢٧ - التندامى ٣٢٧ - أمكنة الشراب ٣٢٨ -

صفحة

- أوقات الشراب ٣٢٨ - كأس الصباح ٣٢٤ - ما يُقدّم للشاربين من أكل: النقل ٣٣٠ - اشعار عن الخمر بعامة ٣٣٠.
- ٣ - الموسيقى والغناء والرقص ٣٣١ - مشاهد موسيقية مرسومة ٢٢١ - حب الموسيقى ٢٢٢ - شعراء موسيقيون ٢٢٢ - الأدوات الموسيقية ٣٣٣ - استثناء الأدوات الموسيقية من الملاحقة ٣٣٤ - ألوان من الموسيقى ٣٣٤ - فنانون بارعون في القرن الحادى عشر ٢٢٥ - نساء مغنيات وموسيقيات ٣٣٦ - أكاديميات الموسيقى في قرطبة ٢٣٦ - معهد ابن الكنانى ٣٣٦ - «المتارة» أو الفرقة ٣٣٧ - الستارة في البلاطات المسيحية الشمالية ٢٣٨ - المدن التي يتكون فيها الموسيقيون ٢٣٩ - قرطبة مدينة المتعة والبهجة ٣٤٠ - الرقص ٣٤٠ - راقصات أبدة ٣٤٠ - الحركات ٣٤١ - ملابس الراقصة ٣٤٢ - الحاليون ٣٤٢ - أصلهم مصرى ٣٤٢ - المشعوذون في بلاط المربة ٣٤٢ - نتائج: مصر وحدها صاحبة التأثير في هذا المجال ٣٤٣.

الباب الرابع

الحياة الداخلية

- ٣٤٧ ● الفصل الأول: المرأة والحب
- ٣٤٧ أهمية المرأة في الشعر الأندلسي
- ١ - حرية المرأة ٣٤٨ - حالة ولادة ٣٤٩ - نساء غلاميات ونساء مسترجلات ٣٥٠ - عبادة المرأة ٣٥٠.
- ٢ - وصف الحببية حبسًا ٣٥١ - مشاهد الحب ٣٥٢ - واقعة ابن خفاجة ٣٥٣ - الحنين ٣٥٣ - العرى ٣٥٤ - علاقة بين ما هو داخلى وما هو خارجى ٣٥٥.
- ٣ - التحذلق ٣٥٦.
- ٤ - تباريح الحب ٣٥٦ - الفلق ٣٥٦ - الحب والموت ٣٥٧ - مرارة الهجر ٣٥٨ - عيشة الحب ٣٥٩ - الحب قوة سحرية ٣٥٩ - عبودية الحب ٣٦٠ - الشكوى ٣٦١ - موضوع «يالتينى!...» ٣٦٢.
- ٥ - بهجة الحب ٣٦٣ - سيدة الأفكار ٣٦٣ - أنثى في صيغة المذكر ٣٦٤ - كتمان اسم الحببية ٣٦٤ - استثناءات من هذه القاعدة ٣٦٥.
- ٦ - الشخصيات التي تحبب بالحبين ٣٦٥ - الرقيب ٣٦٥ - الواشى ٣٦٧ - العازل ٣٦٧.
- ٧ - حوار حول الحب ٣٦٧ - تشخيص الحب ٣٦٧ - أسباب الحب ٣٦٨.

- ٨ - العفة في الحب ٣٧٠ - الحب الأفلاطوني ٣٧١ - لطف العادات أو الظرف ٣٧٢ - التبل في الحب ٣٧٣.
- ٩ - المرأة والحب ٣٧٣ - المرأة تعكس عادات عصرها ٣٧٣ - حالة ولادة ومهجة ٣٧٤ - أم الهناء ابنة المعتصم ٣٧٤ - أم العلاء بنت يوسف الحجارية ٣٧٤ - العبادية، والرميكية، وبثينة ابنة المعتد ٣٧٥ - نتائج ٣٧٦.

٣٧٧

● الفصل الثاني: الإنسان: نفسيته وفلسفته

- ١ - الأندلسي طبقا للشعر ٣٧٧ - صورته ثقافيا وأخلاقيا ٣٧٧ - الأمير الأندلسي: تطوره من القرن التاسع الميلادي إلى القرن الحادي عشر ٣٧٧ - ملامح غالبية: الكرم والشجاعة ٣٧٨ - الطموح ٣٧٨ - إدراك وزن الأشياء الفكرية وحبها ٣٧٩ - الاحتفاظ برباطة الجأش ٣٨٠ - البخل ٣٨١ - القسوة ٣٨٢.
- ٢ - النقد الاجتماعي ٣٨٦ - سلاح الهجاء ٣٨٦ - أشعار الساميرس الهجائية ٣٨٦ - هجاء الكبراء ٣٨٧ - هجاء الفقهاء ٣٨٧ - سلطان المال ٣٨٨ - آراء قاسية عن إنسان القرن الحادي عشر الميلادي ٣٨٨ - الخيانات المتكررة ٣٩٠.
- ٣ - لكي تعيش سعيدا عش منعزلا ٣٩١ - حب القراءة والكتاب ٣٩٢ - الشيب والإعراض عن الدنيا ٣٩٣ - الشيطان يترهب في شيخوخته ٣٩٤ - الاتجاه إلى الزهد ٣٩٥ - التصوف ٣٩٥.
- ٤ - حرية الدرس ٣٩٧ - الإلهام ٣٩٧.
- ٥ - المفهوم الفلسفي للحياة ٣٩٩ - التواضع ٣٩٩ - الخمول شرط في السعادة ٤٠٠ - الصداقة ٤٠١ - القِرَى ٤٠٢.
- ٦ - الإحساس بالقلق ٤٠٢ - الرغبة تؤدي إلى التعاسة ٤٠٣ - ملامح من التوراة في تعابير الحزن ٤٠٤ - مريم العذراء والمسيح ٤٠٥ - الخير والتسامح ٤٠٥ - التواضع من أعظم الفضائل ٤٠٦ - التسامح في التعادي ٤٠٦ - الصبر أو الانتحار ٤٠٦ - حالة ابن شهيد ٤٠٧ - الموت ٤٠٧ - سكرات الموت ٤٠٨ - الموت حصّاد بلا منجل ٤١٠.

كتب أخرى للمترجم

- أمرؤ القيس : حياته وشعره.
الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥
- دراسات في مصادر الأدب.
الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥
- ملحمة السيد: دراسة مقارنة.
الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣
- مع شعر الأندلس والمنتهى.
ترجمة كتاب المستشرق الاسباني غرسيه غومث، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥
- بابلو نيرودا: شاعر الحب والنضال.
كتاب روز اليوسف، القاهرة ١٩٧٤ (نقد وتعاد طباعته الآن).
- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة.
الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢
- الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجه.
دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨.
- في الأدب المقارن: دراسات نظرية وتطبيقية.
دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨
- دراسات أندلسية: في الأدب والتاريخ والفلسفة.
الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٧
- القصة القصيرة: دراسة ومختارات.
الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨
- الشعر العربي المعاصر: روائعه ومدخل لقراءته.
الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠

- الفن العربي في إسبانيا وصقلية.
للمستشرق الألماني فون شاك، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥
- الحضارة العربية في إسبانيا.
للمستشرق الفرنسي ليفي بروغنس، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.
- التربية الإسلامية في الأندلس.
للمستشرق الإسباني خوليان ريبيرا، دار المعارف القاهرة ١٩٨٠.
- طوق الحمامة لأبن حزم.
تحقيق ونوثيق وتقديم، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٨٥
- الأخلاق والسير في مداورة النفوس لأبن حزم.
تحقيق وتقديم وتعليق، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢.
- الشعر الأندلسي في عصر الطوائف.
للمستشرق الفرنسي هنري بيريس، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠.
- تطوير مناهج تعليم القراءة في مراحل التعليم العام في الوطن العربي (بالاشتراك).
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٨٦.

كتب تحت الطبع:

- مقدمة في الأدب الإسلامي المفان.
- الشعر العربي في إسبانيا وصقلية من البداية حتى النهاية.
للمستشرق الألماني فون شاك.
- الحب عند دانتي وأبن حزم، دراسة مقارنة، مع ترجمة كتاب الحياة الجديدة لدنتي.

SYSTÈME DE TRANSCRIPTION

finale ou sans voyelle..... '	ط t
* initiale vocalisée... 'a, 'u, 'i	ظ t̤
* interne vocalisée... 'a, 'u, 'i	ع °
l de prolongation..... d	غ g̃
ب b	ف f
ت t	ق q
ث t̤	ك k
ج g̃	ل l
ح h	م m
خ b̤	ن n
د d	° k̤
ذ d̤	و semi-voyelle et 'diphongue'... w
ر r	و de prolongation w̃
ز z	ي semi-voyelle y
س s	ي diphongue i
ش š	ي de prolongation ĩ
ص s̤	ي i̤
ض d̤	ى (absolu) a; (en liaison)... at

Article : isolé ou non précédé d'une voyelle de prolongation :
at-, al-, al-, etc.

Article : précédé d'un mot d'une syllabe avec voyelle simple ou de
prolongation : -l-, -l-, -l-, etc.

N. B. — Les syllabes عا , عو et عي au début d'une phrase ont été
transcrites par 'A, 'U et 'I.

PUBLICATIONS DE L'INSTITUT D'ETUDES ORIENTALES
FACULTÉ DES LETTRES D'ALGER

V

LA POÉSIE ANDALOUSE EN ARABE CLASSIQUE

AU XI^e SIÈCLE

SES ASPECTS GÉNÉRAUX

SES PRINCIPAUX THÈMES

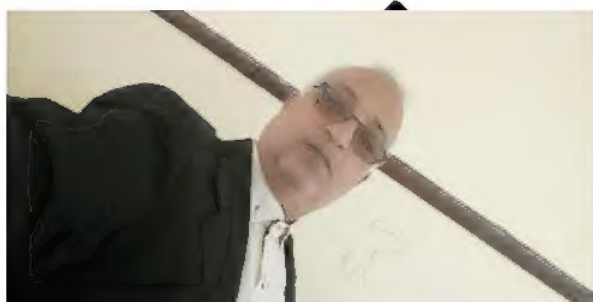
ET SA VALEUR DOCUMENTAIRE

Deuxième édition revue et corrigée

PAR

Henri PÉRÈS

Professeur à la Faculté des Lettres d'Alger



LIBRAIRIE D'AMÉRIQUE ET D'ORIENT

ADRIEN-MAISONNEUVE

11, rue Saint-Sulpice - PARIS (VI)

1953